الوجيز

من التحرير و التنوير

للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

(1879م- 1973م / 1296هـ- 1393هـ)

الجزء الحادي عشر

(من سورة الأحقاف إلى سورة الصّف)

محمد بن عبد القادر الزغواني

2024م / 1446هـ

بسم الله الرحمان الرحيم

الإهداء

إلى أئمتنا و دعاتنا وطلبة العلوم الشرعيّة

إلى كلّ العاملين في مجال الدعوة،

السالكين سبل الهداية، والمبشّرين بها بين النّاس

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحقاف

سُمِّيت هذه السورة (**سورة الأحقاف**) في جميع المصاحف وكتب السنّة. ووردت تسميتها بهذا الاسم في كلام عبد الله بن عباس، وكذلك وردت في كلام عبد الله بن مسعود، أخرج الحاكم بسند صحّحه عن ابن مسعود قال: " أقرأني رسول الله سورة الأحقاف ".

ووجه تسميتها (**الأحقاف**) ورود لفظ الأحقاف فيها ولم يرد في غيرها من سور القرآن.

ولم يذكرها في (الإتقان) في عداد السور ذات أكثر من اسم.

وهي مكية قال القرطبي: باتفاق جميعهم، وفي إطلاق كثير من المفسّرين. وبعض المفسّرين نسبوا استثناء آيات منها الى بعض القائلين. وسيأتي ما يقتضي أنّها نزلت بعد مضي عامين من البعثة.

وهذه السورة **معدودة الخامسة والستين** في عداد نزول السور، نزلت بعد الجاثية وقبل الذّاريات.

وعُدّت آيها عند جمهور أهل الأمصار أربعا وثلاثين، وعدّها أهل الكوفة خمسا وثلاثين والاختلاف في ذلك مبني على أنّ { حم } تعتبر آية مستقلة أو لا.

أغراض السورة

*/ الإشارة إلى إعجاز القرآن للاستدلال على أنّه منزّل من عند الله.

*/ الاستدلال بإتقان خلق السماوات والأرض على التفرّد بالإلهية، وعلى إثبات جزاء الأعمال.

*/ الإشارة إلى وقوع الجزاء بعد البعث وأنّ هذا العالم صائر إلى فناء.

*/ إبطال الشركاء في الإلهية. والتدليل على خلوّهم عن صفات الإلهية.

*/ إبطال أن يكون القرآن من صنع غير الله.

*/ إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، واستشهاد الله تعالى على صدق رسالته واستشهاد شاهد بني إسرائيل وهو عبد الله بن سلام.

*/ الثناء على الذين آمنوا بالقرآن وذكر بعض خصالهم الحميدة وما يضادها من خصال أهل الكفر.

*/ ذُكرت معجزة إيمان الجن بالقرآن.

*/ أقحم في ذلك معاملة الوالدين والذرية ممّا هو من خُلق المؤمنين، وما هو من خلق أهل الضلالة، والعبرة بضلالهم مع ما كانوا عليه من القوة.

*/ ختمت السورة بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد أشبهت كثيرا أغراض سورة الجاثية مع تفنّن.

{ **حم** } [1]

تقدّم القول في نظيره في أوّل سورة غافر. وهذه جملة مستقلّة مثل نظائرها من الحروف المقطعة.

{ **تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** } [2]

تقدّم القول في نظيره في أوّل الجاثية.

{ **مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ** } [3]

لمّا كان من أهم ما جاء به القرآن إثبات وحدانية الله تعالى، وإثبات البعث والجزاء، لتوقّف حصول فائدة الإنذار على إثباتهما، جُعل قوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [2] تمهيدا للاستدلال على إثبات الوحدانية والبعث والجزاء، فجُعل خلق السماوات والأرض محل اتفاق، ورُتِّب عليه أنّه ما كان ذلك الخلق إلّا ملابسا للحق، وتقتضي ملابسته للحقّ أنّه لا يكون خلقا عبثا بل هو دال على أنّه يعقبه جزاء على ما يفعله المخلوقون.

{ **إِلَّا بِالْحَقِّ** } استثناء من أحوال عامة، أي: ما خلقناهما إلّا في حالة المصاحبة للحقّ.

{ **وَأَجَلٍ مُسَمًّى** } عطف على { بِالْحَقِّ }، عطف الخاص على العام للاهتمام به، كعطف جبريل وميكائيل على ملائكته في قوله تعالى { وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } [البقرة:98]، لأنّ دلالة الحدوث على قبول الفناء دلالة عقلية فهي ممّا يقتضيه الحق، وأن تعرض السماوات والأرض للفناء دليل على وقوع البعث لأنّ انعدام هذا العالم يقتضي بمقتضى الحكمة أن يخلفه عالم آخر أعظم منه، على سنّة تدرّج المخلوقات في الكمال. وقد كان ظنّ الدهريين قدم هذا العالم وبقاءه أكبر شبهة لهم في إنكارهم البعث { وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية:24]. فالدهر عندهم متصرّف وهو باق غير فان، فلو جوّزوا فناء هذا العالم لأمكن نزولهم إلى النظر في الأدلة التي تقتضي حياة ثانية.

{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ** } في موضع الحال من الضمير المقدّر في متعلّق الجار والمجرور من قوله { بِالْحَقِّ } ، فيكون المقصود من الحال التعجيب منهم وليس ذلك عطفا، لأنّ الإخبار عن الذين كفروا بالإعراض مستغنى عنه إذ هو معلوم. أي: هم معرضون عمّا أنذروا به من وعيد يوم البعث.

وحذف العائد من الصلة لأنّه ضمير منصوب بـ { أُنْذِرُوا }. والتقدير: عما أنذروه معرضون.

{ **عَمَّا أُنْذِرُوا** } تقديمه على متعلّقه وهو { مُعْرِضُونَ } للاهتمام بما أنذروا، ويتبع ذلك رعاية الفاصلة.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [4]

انتقل إلى الاستدلال على بطلان صفة الإلهية عن أصنامهم.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } أمر بإلقاء الدليل على إبطال الإشراك وهو أصل ضلالهم. وجاء هذا الاستدلال بأسلوب المناظرة فجُعل النبيّ صلى الله عليه وسلم مواجها لهم بالاحتجاج ليكون إلجاء لهم إلى الاعتراف بالعجز عن معارضة حجّته، وكذلك جرى الاحتجاج بعده ثلاث مرات بطريقة أمر التعجيز.

{ أَرَأَيْتُمْ } استفهام تقريري فهو كناية عن معنى: أخبروني، وقد تقدّم في قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ } [الأنعام:40].

{ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ } الأمر مستعمل في التسخير والتعجيز كناية عن النفي، وهذا من رؤوس مسائل المناظرة، وهو مطالبة المدّعي بالدليل على إثبات دعواه.

{ مَاذَا } بمعنى ما الذي خلقوه، فـ (ما) استفهامية و(ذا) بمعنى: الذي. وأصله اسم إشارة ناب عن الموصول. وأصل التركيب: ما ذا الذي خلقوا، فاقتصر على اسم الإشارة وحذف اسم الموصول غالبا في الكلام، وقد يظهر كما في قوله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ } [البقرة:255].

{ مَاذَا خَلَقُوا } استفهام إنكاري. والجملة بدل من جملة { أَرُونِي } وفعل الرؤية معلّق عن العمل بورود (ما) الاستفهامية بعده.

وإذا لم يكن شيء من الأرض مخلوقا لهم بطل أن يكونوا آلهة، لخروج المخلوقات عن خلقهم. وإذا بطل أن يكون لها خلق بطل أن يكون لها تصرّف في المخلوقات، كما قال تعالى { أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } [الأعراف:192/191].

{ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ } و (أم) حرف إضراب انتقالي. والاستفهام المقدّر إنكاري، أي: ليس لهم شرك مع الله في السماوات. وإنّما أوثر انتفاء الشركة في السماوات دون انتفاء الخلق، كما أوثر انتفاء الخلق بالنسبة إلى الأرض، لأن مخلوقات الأرض مشاهدة للناس ظاهر تطورها وحدوثها، وأمّا الموجودات السماوية فهي محجوبة عن العيون لا عهد للناس بظهور وجودها ولا تطوّرها فلا يحسن الاستدلال بعدم تأثير الأصنام في إيجاد شيء منها. ولكن لمّا لم يدع المشركون تصرفا للأصنام إلّا في أحوال الناس في الأرض من جلب نفع أو دفع ضر اقتصر في نفي تصرفهم في السماوات على الاستدلال بنفي أن يكون للأصنام شركة في أمور السماوات، لأن انتفاء ذلك لا ينازعون فيه. وتقدم نظيرها في قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [فاطر:40].

{ **ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } ثم انتقل من الاستدلال بالمشاهدة وبالإقرار إلى الاستدلال بالأخبار الصادقة. ومناط الاستدلال أنّه استدلال على إبطال دعوى المدّعي بانعدام الحجّة على دعواه ويُسمَّى الإفحام كما تقدّم. والمعني: نفي أن يكون لهم حجّة على إلهية الأصنام لا بتأثيرها في المخلوقات، ولا بأقوال الكتب، فهذا قريب من قوله تعالى { أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ } [فاطر:40].

الإتيان : مستعار للإحضار ولو كان في مجلسهم، كما تقدّم في قوله { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ } [البقرة:23].

{ **بِكِتَابٍ** } أي: كتاب من الكتب المقروءة. وهذا قاطع لهم، فإنّهم لا يستطيعون ادعاء أنّ لأصنامهم في الكتب السابقة ذكرا غير الإبطال والتحذير من عبادتها، أو عدم ذكرها البتة، ويدلّ على ذلك قوله تعالى { أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ }.

{ **مِنْ قَبْلِ هَذَا** } الإشارة إلى القرآن لأنّه حاضر في أذهان أصحاب المحاجة فإنّه يقرأ عليهم معاودة.

{ **أَثَارَةٍ** } بفتح الهمزة: البقية من الشيء. والمعني: أو بقية بقيت عندكم تروونها عن أهل العلم السابقين غير مسطورة في الكتب. وهذا توسيع عليهم في أنواع الحجّة ليكون عجزهم عن الإتيان بشيء من ذلك أقطع لدعواهم.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } إلهاب وإفحام لهم بأنّهم غير آتين بحجّة لا من جانب العقل ولا من جانب النقل المسطور أو المأثور، قال تعالى { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ } [القصص:50].

{ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ [5] وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [6] }.

اعتراض في أثناء تلقين الاحتجاج، لمّا أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يحاجّهم بالدليل وجّه الخطاب إليه تعجيبا من حالهم وضلالهم، لأنّ قوله تعالى { وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً } لا يناسب إلّا أن يكون من جانب الله.

{ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ** } استفهام إنكار وتعجيب. والمعني: لا أحد أشدّ ضلالا وأعجب حالا ممن يدعون من دون الله من لا يستجيب له دعاءه، فهو أقصى حد من الضلالة، ووجه ذلك أنّهم ضلوا عن دلائل الوحدانية وادعوا لله شركاء بلا دليل واختاروا الشركاء من حجارة، وهي أبعد الموجودات عن قبول صفات الخلق والتكوين والتصرّف، ثم يدعونها في نوائبهم وهم يشاهدون أنّها لا تسمع ولا تبصر ولا تجيب، ثم سمعوا آيات القرآن توضّح لهم الذكرى بنقائص آلهتهم، فلم يعتبروا بها وزعموا أنّها سحر ظاهر، فكان ضلالهم أقصى حدّ في الضلال.

{ **مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ** } الأصنام، عُبِّر عنها باسم الموصول المختصّ بالعقلاء لأنّه شاع في كلام العرب إجراؤها مجرى العقلاء فكثرت في القرآن مجاراة استعمالهم في ذلك.

{ **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } جُعل يوم القيامة غاية لانتفاء الاستجابة، كناية عن استغراق مدّة بقاء الدنيا. وعُبر عن نهاية الحياة الدنيا بذلك لأنّ المواجه بالخبر هو الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون كما علمت، وهم يثبتون يوم القيامة.

{ **وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ** } عطفت على ما قبلها لمناسبة ذكر يوم القيامة.

{ **كَانُوا / وَكَانُوا** } في الموضعين يجوز أن يعودا إلى { مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ } فإنّ المشركين يعادون أصنامهم يوم القيامة إذ يجدونها من أسباب شقائهم. ويجوز أن يعودا إلى { مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ } فإنّ الأصنام يجوز أن تعطى حياة يومئذ فتنطق بالتبرّي من عُبَّادها ومن عبادتهم إيّاها، قال تعالى { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ } [فاطر:14]، وقال تعالى { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ } [الفرقان:17-19].

ويجوز أن يكون قوله { كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ } جاريا على التشبيه البليغ.

ومن بديع تفنّن القرآن توزيع معاد الضمائر في هذه الآية مع تماثلها في اللفظ وهذا يندرج في محسّن الجمع مع التفريق وأدق.

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } [7]

عطف على جملة { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ } [5]، انتقال إلى إبطال ضلال آخر من ضلالهم وهو ضلال التكذيب بالقرآن بالادّعاء أنّه سحر، ولم يكتفوا بذلك بل زادوا بهتانا فزعموا أنّه مبين، أيّ واضح كونه سحرا. فالكلام مرتبط بقوله { حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ } [2/1].

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } إظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالكفر وبأنّه سبب قولهم ذلك.

{ **لِلْحَقِّ** } لام العلّة، وليست لام تعدية فعل. أي: قال بعض الكافرين لبعض في شأن الذين آمنوا ومن أجل إيمانهم.

الحقّ: هو الآيات، فعدل عن ضمير الآيات إلى إظهار لفظ (الحقّ) للتنبيه على أنّها حقّ وأنّ رميها بالسحر بهتان عظيم.

{ **ولَمَّا جَاءَهُمْ** } توقيت لمقالتهم، أي: يقولون ذلك بفور سماع الآيات وكلما جاءتهم، أي: دون تدبّر ولا إجالة فكر.

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [8].

إضراب انتقال إلى نوع آخر من ضلال أقوالهم. وسلك في الانتقال مسلك الإضراب دون أن يكون بالعطف بـ (الواو) لأنّ الإضراب يفيد أن الغرض الذي سينتقل إليه له مزيد اتصال بما قبله، وأنّ المعنى: دع قولهم: { هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } [7] واستمع لما هو أعجب وهو قولهم: { افْتَرَاهُ }، أي: افترى نسبته إلى الله.

والاستفهام المقدّر بعد (أم) للإنكار على مقالتهم، والنفي الذي يقتضيه الاستفهام الإنكاري يتسلّط على سبب الإنكار، أي: كون القرآن مفترى.

{ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } أُمِر الرسول صلى الله عليه وسلم بجواب مقالتهم بما يقلعها من جذرها. والتقدير: إن افتريته عاقبني الله معاقبة لا تملكون ردّها.

واعلم أنّ الشائع في استعمال (لا أملك له شيئا) ونحوه أن يسند فعل الملك إلى الذي هو مظنّة للدفع عن مدخول اللام المتعلّقة بفعل الملك، كقوله تعالى { قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً } [الأعراف:188]، وقوله تعالى { وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [الممتحنة:4]، أو أن يسند الى عام، نحو قوله تعالى { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ }

فإسناد فعل الملك في هذه الآية إلى المخاطبين، وهم أعداء النبيّ صلى الله عليه وسلم وليسوا بمظنّة أن يدفعوا عنه، لأنّهم نصبوا أنفسهم في منصب الحكم على النبيّ صلى الله عليه وسلم فجزموا بأنّه افترى القرآن فحالهم حال من يزعم أنّه يستطيع أن يردّ مراد الله تعالى على طريقة التهكّم.

واعلم أن وجه الملازمة بين الشرط وجوابه في الآية أنّ الله لا يقرّ أحدا على أن يبلّغ إلى الناس شيئا عنه لم يأمره بتبليغه، وقد دلّ القرآن على هذا في قوله تعالى { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } [الحاقة:44-47]. ولعلّ حكمة ذلك أنّ التقوّل على الله يفضي إلى فساد عظيم يختلّ به نظام الخلق، لأنّه يوقع الناس في حيرة بماذا يتلقونه فلذلك لا يقرّه الله ويزيله.

{ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ } بدل اشتمال من جملة { فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } لأنّ جملة { فَلا تَمْلِكُونَ لِي } تشتمل على معنى أنّ الله لا يرضى أن يفتري عليه أحد، وذلك يقتضي أنّه أعلم منهم بحال من يخبر عن الله بأنه أرسله وما يبلغه عن الله. ومتعلق اسم التفضيل محذوف، أي: هو أعلم منكم.

الإفاضة: في الحديث الخوض فيه والإكثار منه، وهي منقولة من: فاض الماء؛ إذا سال. ومنه حديث مستفيض مشتهر شائع. والمعنى: هو أعلم بحال ما تفيضون فيه.

{ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } بدل اشتمال من جملة { هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ } لأنّ الإخبار بكونه أعلم

منهم بكنه ما يفيضون فيه يشتمل على معنى تفويض الحكم بينه وبينهم إلى الله تعالى. وهذا تهديد لهم وتحذير من الخوض في الباطل ووعيد.

الشهيد: الشاهد، أي: المخبر بالواقع. والمراد به هنا الحاكم بما يعلمه من حالنا، كما دلّ عليه قوله { بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ }، لأنّ الحكم يكون بين خصمين ولا تكون الشهادة بينهما بل لأحدهما، قال تعالى { وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41].

{ **وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** } اقتضاه ما تضمّنه قوله تعالى { كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } من التهديد والوعيد، وهو تعريض بطلب الإقلاع عمّا هم فيه من الخوض بالباطل.

{ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ } [9].

أعيد الأمر بأن يقول ما هو حجّة عليهم، كما هو في قوله آنفا { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [4].

وهذا الجواب ارتقاء في الردّ عليهم، من ردٍّ إلى أقوى منه، عمّا تضمّنه قولهم { افْتَرَاهُ } [8] من إحالتهم صدقه فيما جاء به من الرسالة عن الله، إحالة دعتهم إلى نسبة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الافتراء على الله، لذلك لم يُعطف هذا الجواب على جملة { قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ } [8]، لأنّه كالتعدّد والتكرير، وسيأتي بعده قوله { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ } [10]. ونظير ذلك ما في قوله تعالى { بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ – إلى قوله - قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [المؤمنون:81-84]، وقوله تعالى { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ } [المؤمنون:86] وقوله تعالى { قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ } [المؤمنون:88].

البِدْع (بكسر الباء وسكون الدال): معناه البديع. ومنه: الخِلْ بمعنى الخليل. فالبدع: صفة مشبّهة بمعنى البادع. ومن أسمائه تعالى (**البديع**) خالق الأشياء ومخترعها.

أي: ما كنت آتيا منهم بديعا غير مماثل لهم، فكما سمعتم بالرسل الأوّلين أخبروا عن رسالة الله إيّاهم فكذلك أنا، فلماذا يعجبون من دعوتي !

وهذه الآية صالحة للرد على نصارى زماننا الذين طعنوا في نبوّته بمطاعن لا منشأ لها إلا تضليل وتمويه على عامتهم لأنّ الطاعنين ليسوا من الغباوة بالذين يخفى عليهم بهتانهم كقولهم إنّه تزوّج النساء، أو إنّه قاتل الذين كفروا، أو إنّه أحب زينب بنت جحش.

{ **وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ** } تتميم لقوله { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } وهو بمنزلة الاعتراض، فإنّ المشركين كانوا يسألون النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مغيَّبات استهزاءً، فيقول أحدهم إذا ضلّت ناقته: أين

ناقتي؟ ويقول أحدهم: من أبي؟ أو نحو ذلك، فأمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم بأنّه لا يدري ما يفعل به ولا بهم، أي: في الدنيا، وهذا معنى قوله تعالى { قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ } [الأعراف:188].

{ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ } استئناف بياني وإتمام لما في قوله تعالى { وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ }، بأنّ قصارى ما يدريه هو اتباع ما يُعْلمه الله به.

{ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ } عطف على جملة { مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } لأنّه الغرض المسوق له الكلام بخلاف قوله { وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ }، والمعنى: وما أنا إلّا نذير مبين لا مفتر، فالقصر قصر إضافي، وهو قصر قلب لردّ قولهم { افْتَرَاهُ }.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [10]

أعيد الأمر بأن يقول لهم حجّة أخرى لعلّها تردّهم إلى الحق بعد ما تقدّم من قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [4]، وقوله تعالى { قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [8]، وقوله تعالى { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } [9].

وهذا استدراج لهم للوصول إلى الحق في درجات النظر، فقد بادأهم بأنّ ما أحالوه من أن يكون رسولا من عند الله ليس بمحال إذ لم يكن أوّل الناس جاء برسالة من الله. ثم أعقبه بأنّ القرآن إذا فرضنا أنّه من عند الله وقد كفرتم بذلك كيف يكون حالكم عند الله تعالى؟

وأقحم هنا أنّه لو شهد شاهد من أهل الكتاب بوقوع الرسالات ونزول الكتب على الرسل، وآمن برسالتي كيف يكون انحطاطكم عن درجته، وقد جاءكم كتاب فأعرضتم عنه، فهذا كقوله تعالى { أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ } [الأنعام:157]. وهذا تحريك للهمم.

ونظير هذه الآية قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } [فصلت:52]، سوى أنّ هذه أُقحم فيها قوله تعالى { وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ }، فإنّ المشركين كانت لهم مخالطة مع بعض اليهود في مكّة ولهم صلة بكثير منهم في التجارة بالمدينة وخيبر، فلمّا ظهرت دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم كانوا يسألون من لقوه من اليهود عن أمر الأديان والرسل فكان اليهود لا محالة يخبرون المشركين ببعض الأخبار عن رسالة موسى وكتابه وكيف أظهره الله على فرعون. فاليهود وإن كانوا لا يقرُّون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فهم يتحدّثون عن رسالة موسى عليه السلام بما هو مماثل لحال

النبيّ صلى الله عليه وسلم مع قومه، وفيه ما يكفي لدفع إنكارهم رسالته.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ** } الاستفهام تقريري للتوبيخ والمفعولان محذوفان. والتقدير: أرأيتم أنفسكم ظالمين.

{ **إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** } الضمير المستتر عائد إلى القرآن المعلوم من السياق، **أو** إلى { مَا يُوحَى إِلَيَّ }.

{ **كَفَرْتُمْ بِهِ** } في موضع الحال من ضمير { أَرَأَيْتُمْ }، ويجوز أن يكون عطفا على فعل الشرط.

{ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ** } المراد شاهد غير معيّن، أي: أيُّ شاهد، لأنّ الكلام إنباء لهم بما كانوا يتساءلون به مع اليهود. وبهذا فسّر الشعبي ومسروق واختاره ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة عبد الله بن سلام. فالخطاب في قوله { أَرَأَيْتُمْ } موجّه إلى المشركين من أهل مكة.

وقال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد وعكرمة: المراد عبد الله بن سلام. فيجوز أن تكون الآية نزلت بالمدينة وأُمِر بوضعها في سورة الأحقاف، وعلى هذا يكون الخطاب لأهل الكتاب بالمدينة وما حولها.

وعندي أنّه يجوز أن يكون هذا إخبارا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بما سيقع من إيمان عبد الله بن سلام فيكون هو المراد بـ { شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ } وإن كانت الآية مكية.

والظاهر أن مثل هذه الآية هو الذي جرَّأ المشركين على إنكار نزول الوحي على موسى وغيره من الرسل فقالوا { لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } [سبأ:31] حين علموا أن قد لزمتهم الحجّة بنزول ما سلف من الكتب قبل القرآن.

{ **مِثْلِهِ** } الضمير عائد إلى القرآن الذي سبق ذكره مرات من قوله تعالى { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ } [2]، وقوله تعالى { ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا } [4]. و**المثل**: المماثل والمشابه في صفة أو فعل.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } تذييل لجملة جواب الشرط المقدّرة وهي تعليل للكلام المحذوف الدال عليه ما قبله كما علمته آنفا، أي: ضللتم ضلالا لا يُرجى له زوال لأنّكم ظالمون والله لا يهدي القوم الظالمين. وهذا تسجيل عليهم بظلمهم أنفسهم. وجيء في الشرط بحرف (إنّ) الذي شأنه أن يكون في الشرط غير المجزوم بوقوعه مجاراة لحال المخاطبين، استنزالا لطائر جماحهم لينزلوا للتأمّل والمحاورة.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ } [11]

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ** } هذا حكاية خطأ آخر من أخطاء حجج المشركين الباطلة وهو خطأ منشؤه الإعجاب بأنفسهم وغرورهم بدينهم، فاستدلوا على أن لا خير في الإسلام بأنّ الذين ابتدروا الأخذ به ضعفاء القوم، فهم الذين قالوا { أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا } [الأنعام:53]،

ومناسبته لما قبله أنّه من آثار استكبارهم فناسب قوله { وَاسْتَكْبَرْتُمْ }. وهو نظير قول قوم نوح { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ } [هود: 27].

{ **لِلَّذِينَ آمَنُوا** } لام التعليل متعلّقة بمحذوف، هو حال من الذين كفروا تقديره: مخصِّصين أو مريدين. وليست هي لام تعدية فعل القول إلى المخاطب بالقول، المسماة لام التبليغ.

{ **لَوْ كَانَ خَيْراً** } الضمير المستتر في { كَانَ } عائد إلى ما عاد إليه ضمير { إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ }، وهو القرآن المفهوم من السياق، **أو** إلى { مَا يُوحَى إِلَيَّ }.

{ **مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ** } والسبق أطلق هنا على تحصيل شيء قبل أن يحصّله آخر، والمراد: الأخذ بما جاء به القرآن من العقائد والأعمال. وضمير الغيبة عائد إلى غير مذكور في الآية ولكنّه مذكور في كلام الذين كفروا الذي حكته الآية، أرادوا به المؤمنين الأولين من المستضعفين مثل بلال، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وسميَّة، وزِنّيرة (بزاي معجمة مكسورة ونون مكسورة مشددة مشبعة وراء مهملة) أمّة رومية كانت من السابقات إلى الإسلام وممَّن عذّبهنّ المشركون ومن أعتقهن أبو بكر الصديق.

وعن عروة بن الزبير قال: عظماء قريش: لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه زِنّيرة.

{ **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ** } عطف على الجملة السابقة. أي: فقد استوفوا بمزاعمهم وجوه الطعن في القرآن، فقالوا { سِحْرٌ مُبِينٌ } [7]، وقالوا { افْتَرَاهُ } [8] وقالوا { لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ }، وبقي أن يقولوا هو { إِفْكٌ قَدِيمٌ }.

وقد نبّه الله على أن مزاعمهم كلّها ناشئة عن كفرهم واستكبارهم بقوله تعالى { قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا }، وقوله تعالى { وَكَفَرْتُمْ بِهِ }، وقوله تعالى { واسْتَكْبَرْتُمْ } وقوله تعالى { وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ }.

وإذ قد كانت مقالاتهم رامية إلى غرض واحد وهو تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم كان توزيع أسبابها على مختلف المقالات مشعرا بأنّ جميعها أسباب لجميعها.

والمعنى: وإذ لم تحصل هدايتهم بالقرآن فيما مضى فسيستمرّون على أن يقولوا هو { إِفْكٌ قَدِيمٌ } إذ لا مطمع في إقلاعهم عن ضلالهم في المستقبل.

{ **فَسَيَقُولُونَ** } أي: سيدومون على مقالتهم هذه في المستقبل. فالاستقبال زمن للدوام على هذه المقالة وتكريرها، مثله في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الصافات:99]، فإنّه قد هداه من قبل وإنّما أراد سيديم هدايته إيّاي.

فليس المقصود إخبار الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنّهم { سَيَقُولُونَ هَذَا } ولم يقولوه في الماضي، إذ ليس لهذا الإخبار طائل. وإذ قد حُكي أنّهم قالوا ما يرادف هذا في آيات كثيرة سابقة على هذه الآية وأنّهم لا يقلعون عنه. ولا حاجة إلى تقدير فعل محذوف تتعلق به { إذ }.

وإنّما انتظمت الجملة هكذا لإفادة هذه الخصوصيات البلاغية، فالواو للعطف والمعطوف في معنى شرط والفاء لجواب الشرط. وأصل الكلام: وسيقولون هذا إفك قديم إذ لم يهتدوا به

{ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ } [12].

اتبع إبطال ترّهاتهم الطاعنة في القرآن بهذا الكلام المفيد زيادة الإبطال لمزاعمهم بالتذكير بنظير القرآن ومثيل له من كتب الله تعالى هو مشهور عندهم، وهو التوراة، مع التنويه بالقرآن ومزيّته، والنعي عليهم إذ حرموا أنفسهم الانتفاع به، فعُطفت هذه الآية على التي قبلها لارتباطها بها في إبطال مزاعمهم، وفي أنّها ناظرة إلى قوله { وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى مِثْلِهِ } [10].

{ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى } إبطال لإحالتهم أن يوحي الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم بأنّ الوحي سنّة إلهية سابقة معلومة أشهره كتاب موسى، وهم قد بلغتهم نبوّته من اليهود.

{ مِنْ قَبْلِهِ } الضمير عائد إلى القرآن. والتقديم للاهتمام بهذا الخبر لأنّه محلّ المقصد من الجملة.

{ كِتَابُ مُوسَى } عُبِّر عن التوراة بطريق الإضافة دون الاسم العلم (التوراة) لما تؤذن به الإضافة إلى اسم موسى عليه السلام من التذكير بأنّه كتاب أنزل على بشر كما أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم.

{ إِمَاماً وَرَحْمَةً } حالان من { كِتَابُ مُوسَى }، ويجوز كونهما حالين من { مُوسَى }، والمعنيان متلازمان.

الإمام: حقيقته الشيء الذي يجعله العامل مقياسا لعمل شيء آخر، ويطلق إطلاقا شائعا على القدوة، قال تعالى { وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً } [الفرقان:74]. وأصل هذا الإطلاق استعارة صارت بمنزلة الحقيقة، واستعير الإمام لكتاب موسى لأنّه يرشد إلى ما يجب عمله، فهو كمن يرشد ويعظ. وموسى إمام أيضا بمعنى القدوة.

الرحمة: اسم مصدر لصفة الراحم وهي من صفات الإنسان، فهي رقّة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدّى إليه. ووصف الكتاب بها استعارة لكونه سببا في نفع المتبعين لما تضمّنه من أسباب الخير في الدنيا والآخرة. والوصف بالمصدر مبالغة في الاستعارة. وموسى أيضا رحمة برسالته كما وُصِف محمد صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الانبياء:107].

{ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ } هو المقيس على { كِتَابُ مُوسَى }. والإشارة إلى القرآن لأنّه حاضر بالذكر فهو كالحاضر بالذات.

المُصدِّق: المخبر بصدق غيره. وحُذف المفعول ليشمل جميع الكتب السماوية. ثناء عظيم على القرآن بأنّه احتوى على كلّ ما في الكتب السماوية وجاء مغنيا عنها ومبيّنا لما فيها.

والتصديق يشعر بأنّه حاكم على ما اختلف فيه منها، وما حُرِّف فهمه بها، قال تعالى { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [المائدة:48].

{ **لِسَاناً عَرَبِيّاً** } زيادة ثناء، أي: لغة عربية. وغلب إطلاق اللسان على اللغة، لأنّ أشرف ما يُستعمل فيه اللسان هو الكلام، قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ } [إبراهيم:4]، وقال تعالى { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ } [مريم:97].

{ **لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا** } يجوز أن يتعلّق بـ { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ } لأنّ ما سبقه مشتمل على الإنذار والبشارة والأحسن أن يتعلّق بـ { وَهَذَا كِتَابٌ } من معنى الإرشاد المشتمل على الإنذار والبشارة. وليكون { لِيُنْذِرَ } علة للكتاب باعتبار صفته وحاله.

الذين ظلموا: هم المشركون، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13]، ويلحق بهم الذين ظلموا أنفسهم من المؤمنين، ولذلك قوبل بـ { لِلْمُحْسِنِينَ }، وهم المؤمنون الأتقياء، لأنّ المراد ظلم النفس ويقابله الإحسان. والنذارة مراتب والبشارة مثلها.

{ **وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ** } عطف على { مُصَدِّقٌ }، والتقدير: وهو بشرى للمحسنين، أي: الكتاب.

وهذا النظم يجعل الجملة بمنزلة الاحتراس والتتميم.

وقرأ نافع وابن عامر والبزي عن ابن كثير ويعقوب { لِتُنْذِرَ } بالمثناة الفوقية خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم فيحصل وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه منذر ووصف كتابه بأنه { بُشْرَى }، وفيه احتباك.

وقرأه الجمهور بالمثناة التحتية على أنّه خبر عن الكتاب، فإسناد الإنذار إلى كتاب مجاز عقلي.

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [13] أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [14] }.

استئناف بياني أوثر بصريحه جانب المؤمنين من المستمعين للقرآن، لأنّهم لمّا سمعوا البشرى تطلّعوا إلى صفة البشرى وتعيين المحسنين ليضعوا أنفسهم في حقّ مواضعها، فأجيبوا بأنّ البشرى هي نفي الخوف والحزن عنهم، وأنّهم أصحاب الجنّة، وأنّ المحسنين هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا في أعمالهم.

وأشير بمفهومه إلى التعريض بالذين ظلموا، فإنّ فيه مفهوم القصر من قوله { أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ }.

{ **إِنَّ الَّذِينَ** } تعريفهم بطريق الموصولية لما تؤذن به الصلة من تعليل كرامتهم عند الله لأنّهم جمعوا حسن معاملتهم لربّهم بتوحيده وخوفه وعبادته، وهو ما دلّ عليه قوله تعالى { قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ } إلى حسن معاملتهم أنفسهم وهو معنى قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَقَامُوا }.

{ **قَالُوا** } جيء في صلة الموصول بهذا الفعل لإيجاز المقول وغنيته عن أن يقال: اعترفوا بالله وحده وأطاعوه. والمراد: أنّهم قالوا ذلك واعتقدوا معناه، إذ الشأن في الكلام الصدق، وعملوا به لأنّ الشأن مطابقة العمل للاعتقاد.

{ **ثُمَّ اسْتَقَامُوا** } للتراخي الرتبي، وهو الارتقاء والتدرّج، فإنّ مراعاة الاستقامة أشقّ من حصول الإيمان لاحتياجها إلى تكرّر مراقبة النفس، فأمّا الإيمان فالنظر يقتضيه واعتقاده يحصل دفعة لا يحتاج إلى تجديد ملاحظة. فهذا وجه التراخي الرتبي من جهة، وإن كان الإيمان أرقى درجة من العمل من حيث إنّه شرط في الاعتداد بالعمل.

{ **فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** } دخول (الفاء) على خبر الموصول لمعاملة الموصول معاملة الشرط، كأنّه قيل: إن قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم، ومثله كثير في القرآن، فأفاد تسبّب ذلك في أمنهم من الخوف والحزن. و{ عَلَيْهِمْ } خبر عن خوف، أي: لا خوف يتمكّن منهم ويصيبهم ويلحقهم.

{ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا** } استحضارهم بطريق اسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما يرد من الإخبار عنهم بما بعد الإشارة لأجل الأوصاف المذكورة قبله.

{ **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ** } أدلّ على الاختصاص بالجنّة من أن يقال: أولئك في الجنّة، أو أولئك لهم الجنة، لما في كلمة { أَصْحَابُ } من معنى الاختصاص، وما في الإضافة أيضا.

{ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } تصريح بما استفيد من تعليل الصلة في الخبر، ومن اقتضاء اسم الإشارة جدارتهم بما بعده، وما أفاده وصف أصحاب، وما أفادته الإضافة، وهذا من تمام العناية بالتنويه بهم.

{ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [15].

{ **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً** } تطلّب بعض المفسّرين وجه مناسبة وقوع هذه الآية عقب التي قبلها، وذكر القرطبي عن القشيري أنّ المقصود بيان أنّه لا يبعد أن يستجيب بعض الناس للنبيّ صلى الله عليه وسلم ويكفر به بعضهم كما اختلف حال الناس مع الوالدين. وقال ابن عساكر : لمّا ذكر الله التوحيد والاستقامة عطف الوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما أية من القرآن. وكلا هذين القولين غير مقنع في وجه الاتصال.

ووجه الاتصال عندي: أنّ هذا انتقال إلى قول آخر من أقوال المشركين، وهو كلامهم في إنكار البعث وجدالهم فيه، فإنّ ذلك من أصول كفرهم، فمحلّ القصد من هذه الآيات قوله تعالى { وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا - إلى قوله - خاسرين } [18/17]. وصيغ هذا في أسلوب قصّة جدال بين والدين مؤمنين وولد كافر، وقصة جدال بين ولد مؤمن ووالدين كافرين، لأنّ لذلك الأسلوب وقعا في أنفس السامعين، مع ما روي أنّ ذلك إشارة إلى جدال جرى بين عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق قبل إسلامه وبين والديه كما سيأتي. ولذلك تعيّن أن يكون ما قبله توطئة وتمهيدا لذكر هذا الجدال.

وقد روى الواحدي عن ابن عباس أن قوله { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً - إلى قوله – يوعدون } [16/15] نزل في أبي بكر الصديق. وقال ابن عطية وغير واحد: نزلت في أبي بكر وأبيه (أبي قحافة) وأمه (أم الخير) أسلم أبواه جميعا.

{ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً } وقد تكرّرت الوصاية ببرّ الوالدين في القرآن، وحرّض عليها النبيّ صلى الله عليه وسلم في مواطن عديدة، فكان البرّ بالوالدين أجلى مظهرا في هذه الآمّة منه في غيرها. وتقدّم نظيره في [العنكبوت:8].

{ الْإِنْسَانَ } المراد بالإنسان الجنس، أي: وصينا الناس، وهو مراد به خصوص الناس الذين جاءتهم الرسل بوصايا الله والذين آمنوا وعملوا الصالحات وذلك هو المناسب لقوله في آخرها { أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا } [16].

الحُسن: مصدر حسن، أيّ وصيناه بحسن المعاملة. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف { إِحْسَانًا }.

الكره: (بفتح الكاف وبضمّها) مصدر **كَرِه**، إذا امتعض من شيء، أي: أنّها حملته في بطنها متعبة من حمله تعبا يجعلها كارهة لأحوال ذلك الحمل، ووضعته بأوجاع وآلام جعلتها كارهة لوضعه.

{ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً } ذُكرت مدّة الحمل والإرضاع لأنّها لطولها تستدعي صبر الأم على تحمّل كلفة الجنين والرضيع.

الفِصال: الفطام، والمعنى: وحمله وفصاله بينهما ثلاثون شهرا.

ومن بديع معنى الآية جمع مدة الحمل إلى الفصال في ثلاثين شهرا لتطابق مختلف مدد الحمل، إذ قد يكون الحمل ستة أشهر وسبعة أشهر وثمانية أشهر وتسعة، وهو الغالب.

ومن بديع هذا الطي في الآية أنّها صالحة للدلالة على أنّ مدة الحمل قد تكون دون تسعة أشهر ولولا أنّها تكون دون تسعة أشهر لحددته بتسعة أشهر لأنّ الغرض إظهار حق الأم في البرّ بما تحملته من مشقة الحمل فإن مشقة مدة الحمل أشد من مشقة الإرضاع فلولا قصد الإيماء إلى هذه الدلالة لكان التحديد بتسعة أشهر أجدر بالمقام.

وقد جعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه هذه الآية مع آية سورة البقرة { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ } [البقرة:233] دليلا على أنّ الوضع قد يكون لستة أشهر، ونسب مثله إلى ابن عباس.
وتقدّم الكلام على أحكام الحمل في آية البقرة.

{ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{ **حَتَّى** } ابتدائية ومعناها معنى (فاء) التفريع على الكلام المتقدّم، وإذ كانت (حتى) لا يفارقها معنى الغاية كانت مؤذنة هنا بأنّ الإنسان تدرّج في أطواره من وقت فصاله إلى أن بلغ أشدّه، أي: هو مُوصَى بوالديه حسنا في الأطوار الموالية لفصاله، أي: يوصيه وليُّه في أطوار طفولته، ثم عليه مراعاة وصية الله في وقت تكليفه.

{ **حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً** } لمّا كان (إذا) ظرفا لزمن مستقبل كان الفعل الماضي بعدها منقلبا إلى الاستقبال، وإنّما صيغ بصيغة الماضي تشبيها للمؤكَّد تحصيله بالواقع، فهو استعارة.، والمعنى: حتّى يبلغ أشدّه، أي: يستمر على الإحسان إليهما إلى أن يبلغ أشدّه، فإذا بلغه قال ذلك.

وإنّما خُصّ زمان بلوغه الأشد لأنّه زمن يكثر فيه الكلف بالسعي للرزق، إذ يكون له فيه زوجة وأبناء، وتكثر تكاليف المرأة فيكون لها فيه زوج وبيت وأبناء، فيكونان مظنّة أن تشغلهما التكاليف عن تعهد والديهما والإحسان إليهما فنُبّها بأن لا يفترا عن الإحسان إلى الوالدين.

الأشدّ: حالة اشتداد القوى العقلية والجسدية وهو جمع لم يُسمع له بمفرد. وقيل مفرده: شِدَّة (بكسر الشين وها التأنيث) مثل نعمة جمعها أنعم، وليس الأشُد اسما لعدد من سني العمر. ووقته ما بعد الثلاثين سنة وتمامه عند الأربعين سنة، ولذلك عطف على { بَلَغَ أَشُدَّهُ } قوله { وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً }، أي: بلغ الأشد ووصل إلى أكمله، فهو كقوله تعالى { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى } [القصص:14].

{ **وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً** } ليس تأكيدا لقوله { بَلَغَ أَشُدَّهُ } لأنّ إعادة فعل بلغ تُبعد احتمال التأكيد وحرف العطف أيضا يبعد ذلك الاحتمال.

{ **قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ** } أي: طلب العون من الله على زيادة الإحسان إليهما بأن يلهمه الشكر على نعمه عليه وعلى والديه. ومن جملة النعم عليه أن ألهمه الإحسان لوالديه. ومن جملة نعمه على والديه أن سخّر لهما هذا الولد ليحسن إليهما، فهاتان النعمتان أوّل ما يتبادر عن عموم نعمة الله عليه وعلى والديه، لأنّ المقام للحديث عنهما.

<u>ومعناه</u>: أنّه مأمور بالدعاء إليهما بأن لا يشغله الدعاء لنفسه عن الدعاء لهما وبأنه يحسن إليهما بظهر الغيب.
وحاصل المعنى: أنّ الله أمر بالإحسان إلى الوالدين في المشاهدة والغيبة وبجميع وسائل الإحسان الذي غايته

حصول النفع لهما، وهو معنى قوله تعالى { وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً } [الاسراء:24]، وأنّ الله لمّا أمر بالدعاء للأبوين وعد بإجابته على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لقوله: " **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم بثه في صدور الرجال، وولد صالح يدعو له بخير** ".

{ **أَوْزِعْنِي** } ألهمني. وأصل فعل أوزع الدلالة على إزالة الوزع، أي: الانكفاف عن عمل ما، فالهمزة فيه للإزالة، وتقدم في [النمل:19].

{ **وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي** } استطراد في أثناء الوصاية بالدعاء للوالدين بأن لا يغفل الإنسان عن التفكّر في مستقبله بأن يصرف عنايته إلى ذرّيّته كما صرفها إلى أبويه ليكون له من إحسان ذرّيّته إليه مثل ما كان منه لأبويه، وإصلاح الذرية يشمل إلهامهم الدعاء إلى الوالد.

وفي ذلك إيماء إلى أنّ المرء يلقى من إحسان أبنائه إليه مثل ما لقي أبواه من إحسانه إليهما، ولأنّ دعوة الأب لابنه مرجوّة الإجابة. وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: " **ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد على ولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم** "، وفي رواية (**لولده**) وهو حديث حسن متعددة طرقه.

{ **وَأَصْلِحْ لِي** } لام العلّة، أي: أصلح في ذريتي لأجلي ومنفعتي، كقوله تعالى { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ }.

ونكتة زيادة هذا في الدعاء أنّه بعد أن أشار إلى نعم الله عليه وعلى والديه تعرّض إلى نفحات الله فسأله إصلاح ذريته وعرَّض بأنّ إصلاحهم لفائدته، وهذا تمهيد لبساط الإجابة، كأنّه يقول: كما ابتدأتني بنعمتك وابتدأت والديّ بنعمتك ومتعتهما بتوفيقي إلى برّهما، كمِّل إنعامك بإصلاح ذرّيّتي، فإنّ إصلاحهم لي.

وهذه ترقيات بديعة في درجات القرب.

{ **فِي ذُرِّيَّتِي** } ومعنى الظرفية هنا أنّ ذرّيّته نزلت منزلة الظرف يستقرّ فيه ما هو به الإصلاح، ويحتوي عليه، وهو يفيد تمكّن الإصلاح من الذرية وتغلغله فيهم. ونظيره في الظرفية قوله تعالى { وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ } [الزخرف:28].

{ **إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } كالتعليل للمطلوب بالدعاء، تعليل توسّل بصلة الإيمان والإقرار بالنعمة والعبودية. وحرف (إن) للاهتمام بالخبر، وبذلك يستعمل في مقام التعليل ويغني غناء (الفاء).

التوبة: هنا الإيمان، لأنّه توبة من الشرك.

{ **مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } أنّه تبع شرائع الإسلام وهي الأعمال. ولم يقل: وأسلمت، كما قال { تُبْتُ إِلَيْكَ } لما يؤذن به اسم الفاعل من التلبّس بمعنى الفعل في الحال وهو التجدّد، لأنّ الأعمال متجدّدة متكررة، وأمّا الإيمان فإنّما يحصل دفعة فيستقر لأنّه اعتقاد، وفيه الرعي على الفاصلة.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** } [16]

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ ما قبلها من الوصف والحث يُحدث ترقّب السامع لمعرفة فائدة ذلك فكانت جوابا لترقّبه.

{ **أُولَئِكَ** } جيء باسم الإشارة للغرض الذي ذكرناه آنفا عند قوله { أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا } [14].

وكونه إشارة جمع، ومخبرة عنه بألفاظ الجمع ظاهر في أنّ المراد بالإنسان من قوله تعالى { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ } [15] غير معيّن بل المراد الجنس المستعمل في الاستغراق.

{ **أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا** } العموم يُكسب الجملة فائدة التذييل، أي: الإحسان بالوالدين والدعاء لهما وللذرية من أفضل الأعمال، فهو من أحسن ما عملوا. وقد تُقبّل منهم كلّ ذلك.

التقبّل: ترتّب آثار العمل من ثواب على العمل واستجابة للدعاء. وفي هذا إيماء إلى أنّ هذا الدعاء مرجو الإجابة لأنّ الله تولّى تلقينه، مثل الدعاء الذي في سورة الفاتحة ودعاء آخر سورة البقرة.

وعدّي الفعل بحرف (عن)، وحقّه أن يعدّى بحرف (من) تغليبا لجانب المدعو لهم وهم الوالدان والذرّيّة، لأنّ دعاء الولد والوالد لأولئك بمنزلة النيابة عنهم في عبادة الدعاء.

وإذا كان العمل بالنيابة متقبَّلا عُلم أنّ عمل المرء لنفسه متقبّل أيضا، ففي الكلام اختصار، كأنّه قيل: أولئك يُتقبّل منهم ويُتقبّل عن والديهم وذرّيّتهم أحسن ما عملوا.

وقرأ الجمهور { يُتَقَبَّلُ / يُتَجَاوَزُ } بالياء التحتية مضمومة مَبْنيين للنائب، و{ أَحْسَنُ } مرفوع على النيابة عن الفاعل ولم يذكر الفاعل لظهور أنّ المتقبّل هو الله. وقرأهما حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بنونين مفتوحتين { نَتَقَبَّلُ / نَتَجَاوَزُ }، ونصب { أَحْسَنَ }.

{ **فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ** } في موضع الحال من اسم الإشارة، أي: كائنين في أصحاب الجنّة حين يُتقبّل أحسن ما عملوا ويُتجاوز عن سيئاتهم، لأنّ ذلك شأن أصحاب الجنّة.

{ **وَعْدَ الصِّدْقِ** } انتصب على الحال من التقبّل والتجاوز، فجاء الحال من المصدر المفهوم من الفعل.

الوعد: مصدر بمعنى المفعول، أي: ذلك موعدهم الذي كانوا يوعدونه.

وإضافة { وَعْدَ } إلى { الصِّدْقِ } إضافة على معنى (من)، أي: وعد من الصدق إذ لا يتخلّف.

{ **الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** } صفة وعد الصدق، أي: ذلك هو الذي كانوا يوعدونه في الدنيا بالقرآن في الآيات الحاثّة على برّ الوالدين وعلى الشكر وعلى إصلاح الذرية.

{ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [17]

هذا الفريق هو المقصود من الآيات المبدوءة بقوله تعالى { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ } [15]، كما أسلفنا عند الحديث عن مناسبتها، وهو الفريق الذي كفر بربّه وأساء إلى والديه وأنكر البعث وجادل فيه. وقد عُلم أن والديه كانا مؤمنين من قوله تعالى { أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي }.

{ **وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا** } وصف لفئة من الأبناء المشركين، أسلم آباؤهم ودعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم وأغلظوا لهم القول فضمّوا إلى الكفر شنيع عقوق الوالدين، وهو قبيح لمنافاته الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لأنّ حال الوالدين مع أبنائهما يقتضي معاملتهما بالحسنى.

<u>والذي عليه جمهور المفسّرين</u>: أنّ الآية لا تعني شخصا معيّنا وأنّ المراد منها فريق أسلم آباؤهم ولم يسلموا حينئذ. وعن ابن عباس ومروان بن الحكم ومجاهد والسدي وابن جريج أنّها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق واسمه عبد الكعبة الذي سمّاه النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد أن أسلم (عبد الرحمان)، قالوا: كان قبل الهجرة مشركا وكان يدعوه أبوه أبو بكر وأمّه (أم رومان) إلى الإسلام ويذكّرانه بالبعث، فيرد عليهما بكلام مثل ما ذُكر في هذه الآية.

لكن ليست الآية خاصة به حتّى تكون نازلة فيه، وبهذا يؤوّل قول عائشة رضي الله عنها. ففي صحيح البخاري في كتاب التفسير عن يوسف بن ماهك أنّه قال: كان مروان بن الحكم على الحجاز استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد ابن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه (أي: بولاية العهد) فقال له عبد الرحمان بن أبي بكر: أَهِرَقْلية (أي أجعلتموها وراثة مثل سلطنة هرقل) فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إنّ هذا الذي أنزل الله فيه { وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي }، فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلّا أنّ الله أنزل عذري (أي: براءتي).

ولم أقف على من كان مشركا وكان أبواه مؤمنين. وأيًّا ما كان فقد أسلم عبد الرحمان قبل الفتح، فلمّا أسلم جبّ إسلامه ما قبله وخرج من الوعيد الذي في قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ }.

{ **أُفٍّ** } اسم فعل بمعنى: أتضجّر، وتقدّم الكلام عليه في [الإسراء:23] وفي [الأنبياء:67]. وهو هنا مستعمل كناية عن أقل الأذى، فيكون الذين يؤذون والديهم بأكثر من هذا أوغل في العقوق الشنيع وأحرى بالحكم بدلالة فحوى الخطاب.

وقرأ نافع وحفص عن عاصم { أفٍّ } بكسر الفاء منونا. وقرأه ابن كثير وابن عامر ويعقوب { أفَّ } بفتح الفاء غير منون. وقرأه الباقون { أفِّ } بكسر الفاء غير منون، وهي لغات ثلاث فيه.

{ **أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ** } الاستفهام إنكار وتعجّب. و**الإخراج**: البعث بعد الموت.
{ **وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي** } حال، وهي قيدا لمنتهى الإنكار، أي: كيف يكون ذلك في حال مضي القرون.
القرون: جمع قرن وهو الأمّة، وفي الحديث: " **خير القرون قرني ثم الذين يلونهم** ". وقال تعالى { أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً } [القصص:78].
المعنى: أنّه أحال أن يخرج هو من الأرض بعد الموت، وقد مضت أمم كثيرة وطال عليها الزمن فلم يخرج منهم أحد. وهذا من سوء فهمه في معنى البعث أو من المغالطة في الاحتجاج لأنّ وعد البعث لم يوقّت بزمن معين ولا أنّه يقع في هذا العالم.
{ **وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** }
{ **يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ** } أي: يطلبان من الله الغوث بأن يهديه، فالمعنى: يستغيثان الله له.
{ **وَيْلَكَ آمِنْ** } ليست بيانا لمعنى استغاثتهما ولكنّها مقول قول محذوف يدلّ عليه معنى الجملة.
{ **وَيْلَكَ** } كلمة تهديد وتخويف. و**الويل**: الشرّ. وأصلها: ويل لك، كما في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } [البقرة:79]، فلمّا كثر استعماله وأرادوا اختصاره حذفوا اللام.
{ **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** } تعليل للأمر بالإيمان وتعريض له بالتهديد من أن يحقّ عليه وعد الله.
الأساطير: جمع أسطورة وهي القصّة وغلب إطلاقها على القصة الباطلة أو المكذوبة كما يقال: خرافة، وتقدّم في قوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [النحل [24].

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ } [18].
{ **أُولَئِكَ** } الراجح أن يكون اسم الإشارة مشيرا إلى الذي قال لوالديه هذه المقالة لما علمت أنّ المراد به فريق، فجاءت الإشارة إليه باسم إشارة الجماعة بتأويل الفريق .
{ **الْقَوْلُ** } تعريف العهد، وهو قول معهود عند المسلمين لِما تكرّر في القرآن من التعبير عنه بالقول في نحو قوله تعالى { قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } [ص:85/84]، ونحو قوله تعالى { أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ } [الزمر:19]، فإنّ الكلمة قول، ونحو قوله تعالى { لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [يس:7].
{ **إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ** } دون أن يقال: إنّهم خاسرون، للإشارة إلى أنّ خسرانهم محقّق فكني عن ذلك بجعلهم كائنين فيه. وتأكيد الكلام بحرف (إن) لأنّهم يظنّون أنّ ما حصل لهم في الدنيا من التمتّع بالطيبات فوزا ليس

بعده نكد لأنّهم لا يؤمنون بالبعث والجزاء، فشُبّهت حالة ظنّهم هذا بحال التاجر الذي قلّ ربحه من تجارته فكان أمره خسرًا، وقد تقدّم غير مرّة منها قوله تعالى { فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } [البقرة:16]
{ **كَانُوا** } إيراد فعل الكون دون الاقتصار على { خَاسِرِينَ } لأنّ (كان) تدل على أنّ الخسارة متمكّنة منهم.

{ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } [19].

عطف على الكلام السابق من قوله { أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ } [16] ثم قوله { أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ}
{ **وَلِكُلٍّ** } تنوين عوض عمّا تضاف إليه (كل) وهو مقدّر يُعلم من السياق، أي: ولكلّ الفريقين؛ المؤمن البار بوالديه، والكافر الجامع بين الكفر والعقوق.
{ **دَرَجَاتٌ** } التعبير عن تلك المراتب بالدرجات تغليب، لأنّ الدرجة مرتبة في العلو وهو علو اعتباري إنّما يناسب مراتب الخير وأمّا المرتبة السفلى فهي الدركة، قال تعالى { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ } [النساء:145]. ووجه التغليظ التنويه بشأن أهل الخير.
{ **مِمَّا عَمِلُوا** } و(من) هنا تبعيضية. والمراد: جزاء ما عملوا، فيقدّر مضاف. ويجوز كونها ابتدائية، وما عملوا نفس العمل، فلا يقدّر مضاف.
{ **وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ** } علّة لمحذوف دلّ عليه الكلام، أي: قدّرنا جزاءهم على مقادير درجاتهم لنوفينّهم جزاء أعمالهم، أي: نجازيهم جزاءً تامًا وافيًا لا غُبن فيه.
{ **وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** } احتراس منظور فيه إلى توفية أحد الفريقين، وهو الفريق المستحق للعقوبة، لئلّا يحسب أنّ التوفية بالنسبة إليهم أن يكون الجزاء أشدّ مما تقتضيه أعمالهم.

{ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ } [20].

انتقال إلى وعيد الكافرين على الكفر بحذافره، وذلك زائد على الوعيد المتقدّم المتعلّق بإنكارهم البعث مع عقوقهم الوالدين المسلمين. فالجملة معطوفة على جملة { وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا } [17]. والكلام مقول قول محذوف تقديره: ويقال للذين كفروا يوم يعرضون على النار: { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ }.
ومناسبة ذكره هنا أنه تقرير لمعنى { لا يُظْلَمُونَ } [19]، أي: لا يظلمون في جزاء الآخرة مع أنّنا أنعمنا عليهم في الدنيا ولو شئنا لعجّلنا لهم الجزاء على كفرهم من الحياة الدنيا.
{ **وَيَوْمَ يُعْرَضُ** } وانتصب على الظرفية لفعل القول المحذوف.

العرض: تقدّم في قوله تعالى { أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ } [هود:18]، وفي قوله تعالى { النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا } [غافر:46]، وفي قوله تعالى { وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا } [الشورى:45].

{ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا** } مستعار لمفارقتها، كما أنّ إذهاب المرء إبعاد له عن مكانة له. و**الذهاب**: المبارحة. والمعنى: استوفيتم ما لكم من الطيّبات بما حصل لكم من نعيم الدنيا ومتعتها فلم تبق لكم طيّبات بعدها لأنّكم لم تعملوا لنوال طيّبات الآخرة. وهو إعذار لهم وتقرير لكونهم لا يُظلمون.

{ **فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ** } (الفاء) فصيحة. والتقدير: إن كان كذلك فاليوم لم يبق لكم إلّا جزاء سيّئ أعمالكم. وليست الفاء للتفريع ولا للتسبّب.

وليس في الآية ما يقتضي منع المسلم من تناول الطيّبات في الدنيا إذا توخَّى حلالها وعمل بواجبه الديني فيما عدا ذلك، وإن كان الزهد أرفع درجة.

الهُون: الهوان وهو الذلّ.

{ **بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** } الباء للسببية وهي متعلّقة بفعل { تُجْزَوْنَ }. والمراد بالاستكبار هنا الاستكبار على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى قبول التوحيد.

الفسوق: هنا الشرك، وهو الخروج عن الدين وعن الحق.

{ **وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } [21].

سيقت قصة هود وقومه مساق الموعظة للمشركين الذين كذّبوا بالقرآن، كما أخبر الله عنهم من أوّل هذه السورة في قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ } [3]. وسيقت أيضا مساق الحجّة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى عناد قومه، بذكر مثال لحالهم مع رسولهم بحال عاد مع رسولهم.

ولها أيضا موقع التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم على ما تلقّاه به قومه من العناد والبهتان.

{ **وَاذْكُرْ** } أجمع للمعنيين (الموعظة والتسلية)، لأنّها تصلح لمعنى الذكر اللساني، بأن يراد أن يذكر ذلك لقومه، ولمعنى الذُّكر (بالضم)، لأنّ في التذكّر مسلاة وإسوة، كقوله تعالى { اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ } [ص:17].

وكلا المعنيين ناظر إلى قوله آنفا { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } [9]، فإنّه إذا قال لهم ذلك تذكّروا ما يعرفون من قصص الرسل ممّا قصّه عليهم القرآن من قبل، وتذكّر هو لا محالة أحوال رسل كثيرين.

ومشركو مكة إذا تذكّروا في حالهم وحال عاد وجدوا الحالين متماثلين فيجدر بهم أن يخافوا العاقبة.

{ **أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ** } الاقتصار على ذكر عاد لأنّهم أوّل الأمم العربية الذين جاءهم رسول بعد رسالة نوح العامة، وقد كانت رسالة هود ورسالة صالح قبل رسالة إبراهيم عليهم السلام.

وتأتي بعد ذكر قصتهم إشارة إجمالية إلى أمم أخرى من العرب كذّبوا الرسل، في قوله تعالى { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى } [27].

{ **أَخَا عَادٍ** } هو **هود** وتقدّمت ترجمته في [الأعراف:65]. وعُبّر عنه هنا بوصفه دون اسمه العلم لأنّ المراد بالذكر هنا ذكر التمثيل والموعظة لقريش بأنّهم أمثال عاد في الإعراض عن دعوة رسول من أمّتهم.

الأخ: يراد به هنا المشارك في نسب القبيلة، يقولون: يا أخا بني فلان، ويا أخا العرب، وقد يراد بها الملازم والمصاحب، يقال: أخو الحرب. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة: **" أنت أخونا ومولانا "،** وهو المراد في قوله { كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ } [الشعراء:161/160]، إذ لم يكن لوط من نسب أهل سدوم.

{ **إِذْ أَنْذَرَ** } اسم للزمن الماضي، وهي هنا نصب على البدل من أخا عاد، أي: اذكر زمن إنذاره قومه، فهي بدل اشتمال. وذكر الإنذار هنا دون الدعوة أو الإرسال لمناسبة تمثيل حال قوم هود بحال قوم محمد صلى الله عليه وسلم، فهو ناظر إلى قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ } [3].

الأحقاف: جمع **حِقْف** (بكسر فسكون)، وهو الرمل العظيم المستطيل، وكانت هذه البلاد المسمّاة بـ (الأحقاف) منازل عاد، وكانت مشرفة على البحر بين عمان وعدن. وفي منتهى الأحقاف أرض حضرموت، وتقدّم ذكر عاد عند قوله تعالى { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً } [الأعراف:65].

{ **وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ** } معترضة بين جملة { إِذْ أَنْذَرَ } وجملة { أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } المفسَّرة بها.

{ **خَلَتِ النُّذُرُ** } سبقت، أي: نُذر رسل آخرين. والنُّذُر: جمع نِذارة (بكسر النون).

{ **مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ** } بمعنى قريبا من زمانه وبعيدا عنه؛ فـ { مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ } معناه القرب، كما في قوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [سبأ:46].

وأمّا الذي من خلفه فنوح، فقد قال هود لقومه { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } [الأعراف:69]، وهذا مراعاة للحالة المقصود تمثيلها، فهو ناظر إلى قوله تعالى { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } [9]، أي: قد خلت من قبل محمد صلى الله عليه وسلم رسل مثل ما خلت بهود عليه السلام.

{ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } تعليل للنهي في قول تعالى { أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ }، أي: إنِّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم بسبب شرككم.

عذاب اليوم العظيم: يحتمل الوعيد بعذاب يوم القيامة، وبعذاب يوم الاستئصال في الدنيا وهو الذي عُجّل لهم.

{ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [22].

جواب عن قوله { أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } ولذلك جاء فعل { قَالُوا } مفصولا على طريق المحاورة.

{ **أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا** } الاستفهام إنكار. والمجيء مستعار للقصد بطلب أمر عظيم، شُبِّه طرو الدعوة بعد أن لم يكن يدعو بها بمجيء جاء لم يكن في ذلك المكان.

الأَفك (بفتح الهمزة): الصرف، وأرادوا به معنى الترك، أي: لنترك عبادة آلهتنا. وهذا الإنكار تعريض بالتكذيب فلذلك فُرّع عليه :

{ **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } صرّحوا بتكذيبه بطريق المفهوم. وإسناد الإتيان بالعذاب إليه مجاز لأنّه الواسطة في إتيان العذاب بأن يدعو الله أن يعجّله، أو جعلوا العذاب في مكنته يأتي به متى أراد. أي: فلا تتأخر عن الإتيان به.

<u>المعنى</u>: ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به، أي: عذاب اليوم العظيم، وإنّما صرفوا مراد هود عليه السلام بالعذاب إلى خصوص عذاب الدنيا لأنّهم لا يؤمنون بالبعث.

{ **مِنَ الصَّادِقِينَ** } أبلغ في الوصف بالصدق من أن يقال: إن كنت صادقا، أي: إن كنت في قولك هذا من الذين صدقوا.

{ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ } [23]

لمّا جعلوا قولهم { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [22] فصلا بينهم وبينه فيما أنذرهم من كون عبادة غير الله توجب عذاب يوم عظيم، وكان الأمر في قولهم { فأتنا } مقتضيا الفور، أي: طلب تعجيله ليدلّ على صدقه. فلذلك كان جوابه:

{ **إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ** } أي: علم وقت إتيان العذاب محفوظ عند الله لا يطّلع عليه أحد. والحصر هنا حقيقي كقوله تعالى { لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ } [الأعراف:187].

{ **الْعِلْمُ** } التعريف للاستغراق العرفي، أي: علم المغيّبات، **أو** التعريف عوض عن المضاف إليه، أي: وقت العذاب.

{ **عِنْدَ اللَّهِ** } هنا مجاز في الانفراد بالعلم، أي: فالله هو العالم بالوقت الذي يرسل فيه العذاب.

{ **وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ** } معترضة بين جملة { إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ } وجملة { وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ }.

أي: أنّه بُعث مبلّغا أمر الله وإنذاره ولم يُبعث للإعلام بوقت حلول العذاب، كقوله تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا } [النازعات:42-45].

{ **وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ** } استدراك، أي: ولكنّكم تجهلون صفات الله وحكمة إرساله الرسل.
وإدخال حرف الاستدراك على ضمير المتكلّم عدول عن الظاهر لئلّا يبادرهم بالتجهيل استنزالا لطائرهم، فجعل جهلهم مظنونا له لينظروا في صحة ما ظنّه من عدمها.

{ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ [24] تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ [25] }.

الفاء لتفريع بقية القصة على ما ذُكر منها، أي: فلمّا أراد الله إصابتهم بالعذاب ورأوه عارض قالوا.
ففي الكلام تقدير يدل عليه السياق، ويُسمَّى التفريع فيه فصيحة.
وقد طوي ذكر ما حدث بين تكذيبهم هودا عليه السلام وبين نزول العذاب بهم، وذُكر في كتب تاريخ العرب أنّهم أصابهم قحط شديد سنين، وأنّ هودًا فارقهم فخرج إلى مكة ومات بها.
{ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً** } السحاب الذي يعترض جو السماء، أي: رأوه كالعارض.
{ **مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ** } نعت لـ { عَارِضاً }. و**الاستقبال**: التوجّه قبالة الشيء، أي: سائرا نحو أوديتهم.
أودية: جمع وادٍ، مثل نادٍ وأندية. ويطلق الواد على محلّة القوم ونزلهم إطلاقا أغلبيا، لأنّ غالب منازلهم في السهول ومقار المياه. وجمع الأودية باعتبار كثرة منازلهم وانتشارها.
وفي حديث سعد بن معاذ بمكة بعد الهجرة وما جرى بينه وبين أبي جهل من تحاور ورفع صوته على أبي جهل، فقال له أمية: لا ترفع صوتك على أبي الحكم سيد أهل الوادي.
{ **هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا** } يشير إلى أنّهم كانوا في حاجة إلى المطر. وورد في [هود:52] قول هود لهم { وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً }، وقصّتهم مبسوطة في تفسيرنا لسورة هود.
العارض: السحاب العظيم الذي يعرض في الأفق كالجبل، و{ مُمْطِرُنَا } نعت لـ { عَارِضٌ }
{ **بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ** } مقول لقول محذوف، يجوز أن يكون من قول هود، إن كان هود بين ظهرانيهم ولم يكن خرج قبل ذلك، ويجوز أن يكون من قول بعض رجالهم رأى مخائل الشر في ذلك السحاب.
{ **رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** } جُعل العذاب مظروفا في الريح مبالغة في التسبّب.
التدمير: الإهلاك، وقد تقدّم.
{ **كُلِّ شَيْءٍ** } مستعمل في كثرة الأشياء فإن (كُلًّا) تأتي كثيرا في كلامهم بمعنى الكثرة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ } [يونس:97].

{ **بِأَمْرِ رَبِّهَا** } حال من ضمير { تُدَمِّرُ}. وفائدة هذه الحال تقريب كيفية تدميرها كلّ شيء، أي: تدميرا عجيبا بسبب أمر ربّها.

{ **رَبِّهَا** } أضيف الربّ إلى ضمير الريح لأنّها مسخرة لأمر التكوين الإلهي.

{ **فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ** } أي صاروا، وأصبح هنا من أخوات صار. وليس المراد: أن تدميرهم كان ليلا، فإنّهم دُمِّروا أياما وليالي.

{ **إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ** } آثارها وبقاياها وأنقاضها بعد قلع الريح معظمها. والمعنى: أنّ الريح أتت على جميعهم.

{ **كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ** } أيّ مثل جزاء عاد نجزي القوم المجرمين، وهو تهديد لمشركي قريش وإنذار لهم، وتوطئة لقوله { وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ } [26].

{ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [26]

هذا استخلاص لموعظة المشركين بمثل عاد، ليعلموا أنّ الذي قدر على إهلاك عاد قادر على إهلاك من هم دونهم في القوّة والعدد، وليعلموا أنّ القوم كانوا مثلهم مستجمعين قوى العقل والحس، وأنّهم أهملوا الانتفاع بقواهم فجحدوا بآيات الله واستهزؤوا بها وبوعيده فحاق بهم ما كانوا يستهزئون به، وقريش يعلمون أنّ حالهم مثل الحال المحكية عن أولئك فليتهيّأوا لما سيحلّ بهم.

ولإفادة هذا الاستخلاص غُيّر أسلوب الكلام إلى خطاب المشركين من أهل مكة، فالجملة في موضع الحال من واو الجماعة في { قَالُوا أَجِئْتَنَا } [22]، والخبر مستعمل في التعجيب من عدم انتفاعهم بمواهب عقولهم.

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد هذا الخبر بلام القسم مع أنّ مفاده لا شك فيه مصروف إلى المبالغة في التعجيب.

التمكين: إعطاء المَكِنة (بفتح الميم وكسر الكاف) وهي القدرة والقوّة. يقال: مَكُن من كذا وتمكَّن منه، إذا قدر عليه. ويقال: مكَّنه في كذا، إذا جعل له القدرة، قال تعالى { مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ} [الأنعام:6].

{ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً** } أي: أنّهم لم ينقصهم شيء من شأنه أن يُخلّ بإدراكهم الحق لولا العناد، وهذا تعريض بمشركي قريش، أي: أنّكم حرمتم أنفسكم الانتفاع بسمعكم وأبصاركم وعقولكم كما حُرموه، والحالة متّحدة والسبب متّحد فيوشك أن يكون الجزاء كذلك.

وأفرد { سَمْعاً } لأنّه مصدر فهو دال على الجنس الموجود في جميع حواس النّاس. وأمّا { أَبْصَاراً } فجي به جمعا لأنّه اسم، فهو ليس نصّا في إفادة العموم لاحتمال توهّم بصر مخصوص، فكان الجمع أدلّ على قصد

العموم وأنفى لاحتمال العهد، وكذلك القول في { أَفْئِدَةً }. وتقدّم في قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ } [الأنعام:46]، وفي قوله تعالى {أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ} [يونس:31].

{ **مِنْ شَيْءٍ** } و(من) زائدة للتنصيص على انتفاء الجنس.

{ **إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** } وآيات الله دلائل إرادته من معجزات رسولهم، ومن البراهين الدّالة على صدق ما دعاهم إليه.

وقد انطبق مثالهم على حال المشركين فإنّهم جحدوا بآيات الله، وهي آيات القرآن، لأنّها جمعت حقيقة الآيات بالمعنيين.

{ **وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } أي: أحاط بهم العذاب، عدل عن اسمه الصريح إلى الموصول للتنبيه على ضلالهم وسوء نظرهم.

{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [27].

أتبع ضرب المثل بحال عاد مع رسولهم بأنّ ذلك المثل ليس وحيدا في بابه فقد أهلك الله أقواما آخرين من مجاوريهم تماثل أحوالهم أحوال المشركين، وذكَّرهم بأنّ قراهم قريبة منهم يعرفها من يعرفونها، ويسمع عنها الذين لم يروها، وهي قرى ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وسبأ وقوم تُبّع.

والجملة معطوفة على جملة { وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ } [21].

{ **مِنَ الْقُرَى** } كُنّي عن إهلاك الأقوام بإهلاك قراهم مبالغة في استئصالهم، لأنّه إذا أهلكت القرية لم يبق أحد من أهلها.

{ **وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ** } تنويعها باعتبار ما تدلّ عليه من الغرض المقصود منها وهو الإقلاع عن الشرك وتكذيب الرسل، وأصل معنى **التصريف**: التغيير والتبديل، لأنّه مشتق من الصرف وهو الإبعاد.

وكنّي به هنا عن التبيين والتوضيح، لأنّ تعدّد أنواع الأدلة يزيد المقصود وضوحا.

ومعنى تنويع الآيات أنّها تارة تكون بالحجة والمجادلة النظرية، وتارة بالتهديد على الفعل، وأخرى بالوعيد، ومرة بالتذكير بالنعم وشكرها.

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } مستأنفة لإنشاء الترجّي، وموقعها موقع المفعول لأجله، أي: رجاء رجوعهم.

والرجوع هنا مجاز عن الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد، والرجاء من الله تعالى يستعمل مجازا في الطلب، أي: توسعة لهم وإمهالا ليتدبّروا ويتعظوا. وهذا تعريض بمشركي أهل مكة.

والكلام على (لعلّ) في كلام الله تقدّم في أوائل البقرة.

{ فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [28]

تفريع على ما تقدّم من الموعظة بعذاب عاد المفصّل، وبعذاب أهل القرى المجمل، فُرّع عليه توبيخ موجّه إلى آلهتهم إذ قعدوا عن نصرهم وتخليصهم من قدرة الله عليهم. والمقصود توجيه التوبيخ إلى الأمم المهلَكة. والمراد بهذا التوبيخ تخطئة الأمم الذين اتخذوا الأصنام للنصر والدفع، استتماما للموعظة والتوبيخ بطريق التنظير وقياس التمثيل، ولذلك عُقّب بقوله تعالى { بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ }، لأنّ التوبيخ آل الى معنى نفي النصر.

{ **فَلَوْلا** } أصله الدلالة على التحضيض، أي: تحضيض فاعل الفعل الذي بعد (لولا) على تحصيل ذلك الفعل، فإذا كان الفاعل غير المخاطب بالكلام كانت (لولا) دالة على التوبيخ ونحوه، إذ لا طائل في تحضيض المخاطب على فعل غيره.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } يتعلق بـ { اتَّخَذُوا }. بمعنى المباعدة، أي: متجاوزين الله في اتخاذ الأصنام آلهة، وهو حكاية لحالهم لزيادة تشويهها وتشنيعها.

{ **قُرْبَاناً** } مصدر بوزن غفران، منصوب على المفعول لأجله حكاية لزعمهم المعروف المحكي في قوله تعالى { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [الزمر:3]. وهذا المصدر معترض بين { اتخذوا } ومفعوله.

{ **بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ** } و(بل) بمعنى لكن إضرابا واستدراكا بعد التوبيخ لأنّه في معنى النفي، أي: ما نصرهم الذين اتّخذوهم آلهة ولا قرّبوهم إلى الله ليُدفع عنهم العذاب، بل غابوا عنهم وقت حلول العذاب.

الضلال: أصله عدم الاهتداء للطريق، واستعير هنا لعدم النفع بالحضور استعارة تهكّمية، أي: غابوا عنهم ولو حضروا لنصروهم، وهذا نظير التهكّم في قوله تعالى { وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ } [القصص: 64].

{ **وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } فذلكة لجملة { فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ } وقرينة على الاستعارة التهكمية في قوله { ضَلُّوا عَنْهُمْ }.

{ **وَذَلِكَ** } إشارة إلى ما تضمّنه قوله تعالى { الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً } من زعم الأصنام آلهة وأنّها تقربهم إلى الله.

الافتراء: نوع من الكذب، وهو ابتكار الأخبار الكاذبة ويرادف الاختلاق، لأنّه مشتقّ من فَرِي الجلد.

فعطف { مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } على { إِفْكُهُمْ } عطف الأخصّ على الأعمّ، فإنّ زعمهم الأصنام شركاء لله كذب مروي من قبل فهو إفك. وأمّا زعمهم أنّها تقربهم إلى الله فذلك افتراء اخترعوه.

{ **كَانُوا** } للدلالة على أنّ افتراءهم راسخ فيهم. ومجيء بصيغة المضارع { **يَفْتَرُونَ** } للدلالة على أنّ افتراءهم متكرّر.

{ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ [29] قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ [30] يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [31] وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [32] }.

هذا تأييد للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن سخّر الله الجنّ للإيمان به وبالقرآن، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدَّقا عند الثقلين ومعظَّمًا في العالَمَيْن، وذلك ما لم يحصل لرسول قبله.

<u>والمقصود</u> من نزول القرآن بخبر الجنّ <u>توبيخ المشركين</u> بأنّ الجنّ وهم من عالم آخر علموا القرآن وأيقنوا بأنّه من عند الله، والمشركون وهم من عالم الإنس ومن جنس الرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث بالقرآن وممّن يتكلم بلغة القرآن لم يزالوا في ريب منه وتكذيب وإصرار. فهذا موعظة للمشركين بطريق المضادة لأحوالهم بعد أن جرت موعظتهم بحال مماثليهم في الكفر من جنسهم.

<u>ومناسبة ذكر إيمان الجنّ</u> ما تقدّم من قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ } [18].

فالجملة معطوفة على جملة { وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ } [21]، عطف القصة على القصة.

{ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ** } يتعلّق بفعل يدلّ عليه قوله { وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ }، والتقدير: واذكر إذ صرفنا إليك نفرا من الجنّ.

وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بذكر هذا للمشركين، وإن كانوا لا يصدّقونه، لتسجيل بلوغ ذلك إليهم لينتفع به من يهتدي ولتُكتب تبعته على الذين لا يهتدون.

<u>وليس في هذه الآية ما يقتضي أنّ الله أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الجنّ</u>.

واختلف المفسرون في أنّ الجن حضروا بعلم من النبيّ صلى الله عليه وسلم أو بدون علمه. ففي جامع الترمذي عن ابن عباس قال: " ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ فلمّا كانوا بنخلة (اسم موضع) وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، وكان نفر من الجن فيه، فلمّا سمعوا القرآن رجعوا إلى قومهم، فقالوا: إنّا سمعنا قرآنا عجبا ".

وفي الصحيح عن ابن مسعود: افتقدنا النبيّ صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو بمكة فقلنا ما فُعل به [...]، فبتنا بشر ليلة حتّى إذا أصبحنا إذا نحن به من قِبَل حراء فقال: " **أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن** ".

وأيًّا ما كان فهذا الحادث خارق عادة، وهو معجزة للنبيّ صلى الله عليه وسلم. وقد تقدّم قوله تعالى { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي } [الأنعام:130].

الصرف: البعث.

النفر: عدد من الناس دون العشرين. وإطلاقه على الجنّ لتنزيلهم منزلة الإنس.

{ **يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ** } في موضع الحال من الجنّ، وحيث كانت الحال قيدا لعاملها وهو { صَرَفْنَا }، كان التقدير: يستمعون منك إذا حضروا، فصار ذلك مؤدّيا مؤدَّى المفعول لأجله. فالمعنى: صرفناهم إليك ليستمعوا القرآن.

{ **حَضَرُوهُ** } الضمير عائد إلى القرآن، وتعدية فعل حضروا إلى ضمير القرآن تعدية مجازية لأنّهم إنّما حضروا قارئ القرآن، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **قَالُوا أَنْصِتُوا** } أمر بتوجيه الأسماع إلى الكلام اهتماما به لئلّا يفوت منه شيء. وفي حديث جابر بن عبد الله في حجّة الوداع أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له: " **استنصت الناس** "، أي: قبل أن يبدأ في خطبته. وفي الحديث " **إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت** ".

أي: قالوا كلّهم: أنصتوا، كلّ واحد يقولها للبقية، حرصا على الوعي، فنطق بها جميعهم.

{ **فَلَمَّا قُضِيَ** } مبني للنائب. والضمير للقرآن بتقدير مضاف، أي: قضيت قراءته، أي: انتهى النبيّ صلى الله عليه وسلم من القراءة حين حضروا، وبانتهائه من القراءة تمّ مراد الله من صرف الجنّ ليستمعوا القرآن.

{ **وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ** } رجعوا إلى بني جنسهم فأبلغوهم ما سمعوا من القرآن ممّا فيه التخويف من بأس الله تعالى لمن لا يؤمن بالقرآن، والتبشير لمن عمل بما جاء به القرآن. ولا شك أنّ الله يسّر لهم حضورهم لقراءة سورة جامعة لما جاء به القرآن كفاتحة الكتاب وسورة الإخلاص.

{ **قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا** } إلى آخرها، مبيّنة لقوله { مُنْذِرِينَ }.

وحكاية تخاطب الجنّ بهذا الكلام الذي هو من كلام عربي، حكاية بالمعنى، إذ لا يُعرف أنّ للجنّ معرفة بكلام الإنس، وكذلك فعل { قَالُوا } مجاز عن الإفادة، أي: أفادوا جنسهم بما فهموا. كما في قوله { قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ } [النمل:18].

{ **أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى** } ووصف الكتاب بذلك دون: أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لأنّ التوراة آخر كتاب من كتب الشرائع نزل قبل القرآن، وأمّا ما جاء بعده فكُتب مكمّلة للتوراة ومبيّنة لها مثل زبور داود

وإنجيل عيسى، فكأنّه لم ينزل شيء جديد بعد التوراة، فلما نزل القرآن جاء بهدي مستقل غير مقصود منه بيان التوراة ولكنه مصدق للتوراة وهاد إلى أزيد مما هدت إليه.

{ **مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** } : ما سبقه من الأديان الحقّ.

{ **يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ** } يهدي إلى الاعتقاد الحقّ، وما يُسلك من الأعمال الصالحة والمعاملة المستقيمة. وما يترتّب على ذلك من الجزاء.

{ **يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ** } إعادتهم نداء قومهم للاهتمام بما بعد النداء وهو { أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ } الى آخره، لأنّه المقصود من توجيه الخطاب إلى قومهم وليس المقصود إعلام قومهم بما لقوا من عجيب الحوادث.

{ **أَجِيبُوا** } استعير لمعنى: اعملوا وتقلّدوا، تشبيها للعمل بما في كلام المتكلّم بإجابة نداء المنادي، كما في قوله تعالى { إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي } [ابراهيم:22]، أي: إلّا أن أمرتكم فأطعتموني.

داعي الله: <u>يجوز</u> أن يكون القرآن، لأنّه سبق في قولهم { إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى }، وأطلق على القرآن ذلك مجازا لأنّه يشتمل على طلب الاهتداء بهدي الله، فشُبِّه ذلك بدعاء إلى الله واشتق منه وصف للقرآن بأنه { دَاعِيَ اللَّهِ } على طريقة التبعية، وهي تابعة لاستعارة الإجابة لمعنى العمل.

<u>ويجوز</u> أن يكون { دَاعِيَ اللَّهِ } محمدا صلى الله عليه وسلم لأنّه يدعو إلى الله بالقرآن.

{ **وَآمِنُوا بِهِ** } عطف على { أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ } عطف خاص على عام.

{ **به** } عائد إلى { الله }، أي: وآمنوا بالله، وهو المناسب لتناسق الضمائر مع { يَغْفِرْ لَكُمْ } و{ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ }، **أو** عائد إلى { دَاعِيَ اللَّهِ }، أي: آمنوا بما فيه أو آمنوا بما جاء به. وعلى الاحتمالين الأخيرين <u>يقتضي أنّ هؤلاء الجن مأمورون بالإسلام</u>.

{ **يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ** } (مِنْ) هنا الأظهر أنّها للتعليل فتتعلّق بفعل { أجيبوا } باعتبار أنّه مجاب بفعل {يَغْفِرْ}. <u>ويجوز</u> أن تكون زائدة للتوكيد، على رأي من يرون زيادتها في الإثبات كما تزاد في النفي.

{ **وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** } وأمّا (مِنْ) هنا فهي لتعدية فعل { يُجِرْكُمْ }، لأنّه يقال: أجاره من ظلم فلان، بمعنى منعه وأبعده.

وحكاية الله هذا عن الجن تقرير لما قالوه، فيدلّ على أنّ للجنّ إدراكا للمعاني، وعلى أنّ ما تدلّ عليه أدلة العقل من الإلهيات <u>واجب على الجنّ اعتقاده</u>، لأنّ مناط التكليف بالإلهيات العقلية هو الإدراك، وأنّه يجب اعتقاد المدركات إذا توجهت مداركهم إليها أو إذا نُبِّهوا إليها، كما دلّت عليه قصّة إبليس. وهؤلاء قد نُبّهوا إليها بصرفهم إلى استماع القرآن، وهم قد نَبَّهوا قومهم إليها بإبلاغ ما سمعوه من القرآن. وعلى حسب هذا المعنى يترتّب الجزاء بالعقاب، كما قال تعالى { لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [السجدة:13]، وقال في خطاب الشيطان { لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } [ص:85].

فأمّا فروع الشريعة فغير لائقة بجنس الجن. وظاهر الآية أن هؤلاء الذين بلغتهم دعوة القرآن مؤاخذون إذا لم يعملوا بها وأنّهم يُعذّبون.

واختلفوا في جزاء الجنّ على الإحسان، فقال أبو حنيفة: ليس للجن ثواب إلا أن يجاروا من عذاب النار ثم يقال لهم كونوا ترابا مثل البهائم، وقال مالك والشافعي وابن أبي ليلى والضحاك: كما يجازون على الإساءة يجازون على الإحسان فيدخلون الجنّة.

والمسألة لا جدوى لها ولا يجب على المسلم اعتقاد شيء منها.

{ **وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ** } أنّه لا ينجو من عقاب الله على عدم إجابته داعيه، أي: فليس بمعجز الله، وهذا نظير قوله تعالى { وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً } [الجن:12]. والكلام كناية عن المؤاخذة بالعقاب.

{ **فِي الْأَرْضِ** } تعميم الجهات فجرى على أسلوب استعمال الكلام العربي، وإلّا فإنّ مكان الجنّ غير معيّن.

{ **وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ** } أي: لا نصير ينصره على الله ويحميه منه. وذكر هذا تعريض للمشركين.

{ **أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } اسم الإشارة للتنبيه على أنّ من هذه حالهم جديرون بما يرد بعده من الحكم، لتسبّب ما قبل اسم الإشارة فيه. والظرفية مجازية لإفادة قوّة تلبّسهم بالضلال حتّى كأنّهم في وعاء هو الضلال.

المبين: الواضح، لأنّه ضلال قامت الحجج والأدلة على أنّه باطل.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [33]

عود إلى الاستدلال على إمكان البعث، فهو متّصل بقوله تعالى { وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي - إلى قوله - أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ } [18/17]، فهو انتقال من الموعظة بمصير أمثالهم من الأمم إلى الاستدلال على إبطال ضلالهم في شركهم، وهو الضلال الذي جرَّأهم على إحالة البعث، بعد أن أطيل في إبطال تعدّد الآلهة، وفي إبطال تكذيبهم بالقرآن وتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا عود على بدء فقد ابتدئت السورة بالاحتجاج على البعث بقوله تعالى { مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [3].

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا** } الواو عاطفة جملة الاستفهام، وهو استفهام إنكاري، والرؤية علمية. واختير هذا الفعل من بين

أفعال العلم هنا لأنّ هذا العلم عليه حجّة بيّنة مشاهدة، وهي دلالة خلق السماوات والأرض من عدم، وذلك من شأنه أن يفرض بالعقل إلى أنّ الله كامل القدرة.

{ **وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ** } عطف على جملة { الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ }.

{ **وَلَمْ يَعْيَ** } مضارع عَيِيَ، من باب رضي، ومصدره **العِيّ** (بكسر العين)، وهو العجز عن العمل أو عن الكلام، ومنه العِيّ في الكلام، أي: عسر الإبانة. وتعديته بـ (الباء) هنا، بلاغة ليفيد انتفاء عجزه عن صنعها وانتفاء عجزه في تدبير مقاديرها ومناسباتها، فكانت (باء الملابسة) صالحة لتعليق الخلق بالعي بمعنييه.

وعن الكسائي والأصمعي: العِيّ خاص بالعجز في الحيلة والرأي. وأمّا الإعياء فهو التعب من المشي ونحوه، وفعله أعيا.

{ **بَلَى** } لمّا كان جوابا كان قائما مقام جملة تقديرها: هو قادر على أن يحيي الموتى. وهو جواب لمحذوف دلّ عليه التعجيب من ظنّهم أنّ الله غير قادر على أن يحيي الموتى، فإنّ ذلك يتضمّن حكاية عنهم أنّ الله لا يحيي الموتى، فأجيب بقوله { بَلَى }، تعليما للمسلمين وتلقينا لما يجيبونهم به.

{ **إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل لجملة { بَلَى } لأن هذه تفيد القدرة على خلق السماوات والأرض وإحياء الموتى وغير ذلك من الموجودات الخارجة عن السماوات والأرض.

والتأكيد لرد إنكارهم، لأنّهم لمّا أحالوا ذلك فقد أنكروا عموم قدرته تعالى على كل شيء.

ولتأكيد عموم القدرة جيء في القدرة على إحياء الموتى بوصف { **بِقَادِرٍ** }، وفي القدرة على كل شيء بوصف { **قَدِيرٌ** } الذي هو أكثر دلالة على القدرة من وصف (قادر).

{ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } [34]

موقع هذا الكلام أنّ عرض المشركين على النار من آثار الجزاء الواقع بعد البعث، فلمّا ذُكر في الآية التي قبلها الاستدلال على إمكان البعث أُعقب بما يحصل لهم يوم البعث، جمعا بين الاستدلال والإنذار، وذُكر من ذلك ما يقال لهم ممّا لا ممدوحة لهم عن الاعتراف بخطئهم، جمعا بين ما رُدَّ به في الدنيا من قوله { بَلَى } [33]، وما يردُّون في علم أنفسهم يوم الجزاء بقولهم { بَلَى وَرَبِّنَا }.

والجملة عطف على جملة { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [33]. وأوّل الجملة المعطوفة قوله { أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ }، لأنّه مقول قول محذوف تقديره: ويقال للذين كفروا يوم يعرضون على النار.

{ **وَيَوْمَ يُعْرَضُ** } تقديم الظرف على عامله للاهتمام بذكر ذلك اليوم لزيادة تقريره في الأذهان.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } إظهار في مقام الإضمار للإيماء بالموصول إلى علّة بناء الخبر، أي: يقال لهم ذلك لأنّهم كفروا.

{ **أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ** } الإشارة إلى عذاب النار بدليل قوله بعد { قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ }. و**الحقّ**: الثابت.

والاستفهام تقريري وتنديم على ما كانوا يزعمون أنّ الجزاء باطل وكذب، من ذلك { وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } [الصافات:59].

{ **قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا** } أقسموا على كلامهم بقسم { وَرَبِّنَا } قسما مستعملا في الندامة والتغليظ لأنفسهم، وجعلوا المقسم به بعنوان الربّ تحنّنا وتخضّعا.

{ **فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** } تفريع على إقرارهم. و**الذوق** مجاز في الإحساس. والأمر مستعمل في الإهانة.

{ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ } [35]

تفريع على ما سبق في هذه السورة من تكذيب المشركين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بجعلهم القرآن مفترى، واستهزائهم به وبما جاء به من البعث، ابتداء من قوله تعالى { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } [7]، وما اتصل به من ضرب المثل لهم بعاد.

فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما لقيه منهم من أذى، وضرب له المثل بالرسل أولي العزم.

<u>ويجوز</u> أن تكون الفاء فصيحة. والتقدير : فإذا علمت ما كان من الأمم السابقة وعلمت كيف انتقمنا منهم وانتصرنا برسلنا فاصبر كما صبروا.

أولوا العزم: أصحاب العزم، أي: المتّصفون به.

العزم: نيّة محقّقة على عمل أو قول دون تردّد. قال تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159] وقال تعالى { وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ } [البقرة: 235].

<u>والعزم المحمود في الدين</u>: العزم على ما فيه تزكية النفس وصلاح الأمّة، وقوامه الصبر على المكروه وباعث التقوى، وقوّته شدّة المراقبة بأن لا يتهاون المؤمن عن محاسبته نفسه قال تعالى { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [آل عمران:186].

{ **مِنَ الرُّسُلِ** } عن ابن عباس أنّه قال: كلّ الرسل أولو عزم، وعليه تكون { مِنَ } بيانية.

وهذه الآية اقتضت أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم من أولي العزم لأن تشبيه الصبر الذي أُمر به بصبر أولي

العزم من الرسل يقتضي أنّه مثلهم.

{ **وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ** } وأعقب أمره بالصبر بنهيه عن الاستعجال للمشركين، أي: الاستعجال لهم بالعذاب، أي: لا تطلب منا تعجيله لهم، وذلك لأنّ الاستعجال ينافي العزم، ولأنّ في تأخير العذاب تطويلا لمدة صبر الرسول صلى الله عليه وسلم بكسب عزمه قوة.

{ **لَهُمْ** } لام تعدية فعل الاستعجال إلى المفعول لأجله، أي: لا تستعجل لأجلهم، والكلام على حذف مضاف إذ التقدير: لا تستعجل لهلاكهم.

{ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ** } تعليل للنهي عن الاستعجال لهم بالعذاب بأن العذاب واقع بهم فلا يؤثّر في وقوعه تطويل أجله ولا تعجيل.

{ **إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ** } والساعة: جزء من الزمن. والتنكير للتقليل، ولأن ساعة النهار تبدو للناس قصيرة لما للناس في النهار من الشواغل بخلاف ساعة الليل تطول إذ لا يجد الساهر شيئا يشغله.

{ **بَلاغٌ** } فذلكة لما تقدّم بأنّه بلاغ للناس مؤمنهم وكافرهم ليعلم كلّ حظّه من ذلك، فقوله { بلاغ } خبر مبتدإ محذوف تقديره: هذا بلاغ. وقد يظهر اسم الإشارة، كما في قوله تعالى { هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ } [ابراهيم:52]. وقوله تعالى { إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ } [الانبياء:106].

{ **فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ** } تفريع على جملة { كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ – إلى قوله - مِنْ نَهَارٍ }، ومعنى التفريع أنّه قد اتضح ممّا سمعت أنّه لا يهلك إلّا القوم الفاسقون.

والاستفهام مستعمل في النفي، ولذلك صح الاستثناء.

الإهلاك: مستعمل في معنييه الحقيقي والمجازي، فإنّ ما حكي فيما مضى بعضه إهلاك حقيقي، مثل ما في قصّة عاد، وما في قوله تعالى { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى }، وبعضه مجازي وهو سوء الحال، أي: عذاب الآخرة، وذلك فيما حكي من عذاب الفاسقين.

{ **الْقَوْمُ** } تعريف الجنس، وهو مفيد العموم، أي: كل القوم الفاسقين، فيعمّ مشركي مكّة الذين عناهم القرآن، فكان لهذا التفريع معنى التذييل.

{ **الْفَاسِقُونَ** } المراد بالفسق هنا الفسق عن الإيمان، وهو فسق الإشراك.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة محمّد

سُمِّيت هذه السورة في كتب السنّة (**سورة محمّد**). وكذلك تُرجمت في صحيح البخاري من رواية أبي ذر.

وقالوا في التفاسير: وتسمَّى (**سورة القتال**)، لأنّها ذُكرت فيها مشروعية القتال، ولأنّ فيها لفظه في قوله تعالى { وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ } مع ما سيأتي أنّ قوله تعالى { وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا - إلى قوله - وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ } [20]، أن المعني بها هذه السورة، فتكون تسميتها (سورة القتال) تسمية قرآنية.

ووقع في أكثر روايات البخاري (**سورة الذين كفروا**).

وأشهر الاسماء الأوّل، ووجهه أنّها ذكر فيها اسم النبيّ صلى الله عليه وسلم في الآية الثانية منها فعُرفت به قبل سورة آل عمران التي فيها { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ } [144].

وهي مدنيّة بالاتفاق، حكاه ابن عطية وصاحب الإتقان. قيل نزلت بعد يوم بدر، وقيل نزلت في غزوة أحد.

وعُدَّت السادسة والتسعين في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة الحديد وقبل سورة الرعد.

وآيها عُدَّت في أكثر الأمصار تسعا وثلاثين، وعدّها أهل البصرة أربعين.

أغراض السورة

*/ معظم ما في هذه السورة التحريض على قتال المشركين، وترغيب المسلمين في ثواب الجهاد.

*/ افتتحت بما يثير حنق المؤمنين على المشركين لأنّهم كفروا بالله وصدّوا عن سبيله، أي: دينه.

*/ أعلم الله المؤمنين بأنّه لا يُسدّد المشركين في أعمالهم وأنّه مصلح المؤمنين، فكان ذلك كفالة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم.

*/ انتقل من ذلك الى الأمر بقتالهم وعدم الإبقاء عليهم.

*/ فيها وعد المجاهدين بالجنّة، وأمر المسلمين بمجاهدة الكفار وأن لا يدعوهم إلى السَّلم.

*/ إنذار المشركين بأن يصيبهم ما أصاب الأمم المكذّبين من قبلهم.

*/ وصف الجنّة ونعيمها، ووصف جهنّم وعذابها.

*/ وصف المنافقين وحال اندهاشهم إذا نزلت سورة فيها الحض على القتال، وموالاتهم المشركين.

*/ تهديد المنافقين بأنّ الله ينبئ رسوله صلى الله عليه وسلم بسيماهم.

*/ تحذير المسلمين من أن يروج عليهم نفاق المنافقين.

*/ ختمت بالإشارة إلى وعد المسلمين بنوال السلطان وحذّرهم إن صار إليهم الأمر من الفساد والقطيعة.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** } [1]
صدر التحريض على القتال بتوطئة لبيان غضب الله على الكافرين لكفرهم وصدّهم الناس عن دين الله، وتحقير أمرهم عند الله ليكون ذلك مثيرا في نفوس المسلمين حنقا عليهم وكراهية فتثور فيهم همّة الإقدام على قتالهم وعدم الاكتراث بما هم فيه من قوّة حين يعلمون أنّ الله يخذل المشركين وينصر المؤمنين. فهذا تمهيد لقوله تعالى { فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا } [4].

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا** } في الابتداء بالموصول والصلة المتضمّنة كفر الذين كفروا ومناواتهم لدين الله تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلّة، وإيماء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر، أي: لأجل كفرهم وصدّهم. وبراعة استهلال للغرض المقصود.

الكفر: الإشراك بالله كما هو مصطلح القرآن حيثما أطلق الكفر مجردا عن قرينة إرادة غير المشركين.

وقد اشتملت هذه الجملة على ثلاثة أوصاف للمشركين. وهي: الكفر، والصدّ عن سبيل الله، وضلال الأعمال الناشئ عن إضلال الله إيّاهم.

{ **وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** } هو صرف الناس عن متابعة دين الإسلام، وصرفهم أنفسهم عن سماع دعوة الإسلام بطريق الأولى.

<u>ومن الصدّ عن سبيل الله</u>: صدّهم المسلمين عن المسجد الحرام، قال تعالى { وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [الحج:25].

<u>ومن الصدّ عن المسجد الحرام</u>: إخراجهم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكّة، وصدّهم عن العمرة عام الحديبية.

<u>ومن الصدّ عن سبيل الله</u>: إطعامهم الناس يوم بدر ليثبتوا معهم ويكثروا حولهم، فلذلك قيل: إنّ الآية نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلا من سادة المشركين من قريش.

<u>ومن الصدّ عن سبيل الله</u>: صدّهم الناس عن سماع القرآن، قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت:26].

{ **سَبِيلِ اللَّهِ** } لأنّه الدين الذي ارتضاه الله لعباده، قال تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ } [آل عمران:19]، واستعير اسم السبيل للدين لأنّ الدين يوصل إلى رضى الله كما يوصل السبيل السائر فيه إلى بغيته.

الإضلال: الإبطال والإضاعة، وهو يرجع إلى الضلال. وأصله الخطأ للطريق المسلوك.

وهذا اللفظ رشيق الموقع هنا لأن الله أبطل أعمالهم التي تبدو حسنة، فلم يثبهم عليها، ولأنّ من إضلال أعمالهم أنّ الله خيب سعيهم فلم يحصلوا منه على طائل فانهزموا يوم بدر وذهب إطعامهم الجيش باطلا، وأفسد تدبيرهم وكيدهم للرسول صلى الله عليه وسلم فلم يشفوا غليلهم يوم أحد، ثمّ توالت انهزاماتهم في

المواقع كلها، قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ } [الأنفال:36].

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ } [2]

هذا مقابل فريق الذين كفروا وهو فريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإيراد الموصول وصلته للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلّته، أي: لأجل إيمانهم وما عطف عليه كفَّر عنهم سيّئاتهم.

وقد جاء في مقابلة الأوصاف الثلاثة التي أُثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدّها للمسلمين وهي:

*/ الإيمان مقابل الكفر.

*/ الإيمان بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم مقابل الصدّ عن سبيل الله.

*/ وعمل الصالحات مقابل بعض ما تضمّنه قوله تعالى { أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ }.

{ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ } جملة معترضة، زيادة في جانب المؤمنين للتنويه بشأن القرآن، وهو نظير لوصفه بسبيل الله في قوله تعالى { وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ }.

{ رَبِّهِمْ } عُبّر عن الجلالة هنا بوصف الربّ زيادة في التنويه بشأن المسلمين.

{ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ } مقابل بعض ما تضمّنه قوله في حق الذين كفروا { أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ }.

تكفير السيئات: غفرانها لهم، فإنّهم لمّا عملوا الصالحات كفّر الله عنهم سيّئاتهم التي اقترفوها قبل الإيمان، وكفّر لهم الصغائر، وكفّر عنهم بعض الكبائر بمقدار يعلمه إذا كانت قليلة في جانب أعمالهم الصالحات، كما قال تعالى { خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ } [التوبة: 102].

البال: يطلق على القلب، أي: العقل وما يخطر للمرء من التفكير، وهو أكثر إطلاقه ولعله حقيقة فيه.

ومنه قولهم: ما بالك؟ أي: ماذا ظننت حين فعلت كذا، وقولهم: لا يبالي، كأنّه مشتق منه، أي: لا يخطر بباله.

ويطلق البال على الحال والقدر. وفي الحديث **" كلّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أبتر "**.

<u>وإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلّها</u>، لأنّ تصرّفات الإنسان تأتي على حسب رأيه، فالتوحيد أصل صلاح بال المؤمن، ومنه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي تلبّس بها أهل الشرك.

<u>والمعنى</u>: أقام أنظارهم وعقولهم فلا يفكّرون إلّا صالحا، ولا يتدبّرون إلّا ناجحا.

{ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ } [3].

هذا تبيين للسبب الأصيل في إضلال أعمال الكافرين وإصلاح بال المؤمنين.

{ ذَلِكَ } الإشارة إلى ما تقدّم من الخبرين المتقدمين: { أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ } [1]، و{ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ } [2]. واسم الإشارة مبتدأ.

{ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ } الباء للسببية ومجرورها في موضع الخبر عن اسم الإشارة، أي: ذلك كائن بسبب اتباع الكافرين الباطل واتباع المؤمنين الحقّ.

وفي هذا مُحسِّن الجمع بعد التفريق، ويسمُّونه كعكسه التفسيرَ، لأنّ في الجمع تفسيرا للمعنى الذي تشترك فيه الأشياء المتفرّقة، تقدَّمَ أو تأخَّرَ.

وفيها أيضا مُحسِّن الطباق مرّتين بين { الَّذِينَ كَفَرُوا } و{ الَّذِينَ آمَنُوا } وبين { الْحَقَّ } و{ الْبَاطِلَ }.

{ الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ } تنويه بالحقّ وتشريف لهم.

{ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ } تذييل لما قبله، أي: مثل ذلك التبيين للحالين يُبيِّن الله الأحوال للنّاس.

المعنى: قد بيّنّا لكلّ فريق من الكافرين والمؤمنين حاله تفصيلا وإجمالا، وما تفضي إليه من استحقاق المعاملة بحيث لم يبق خفاء في كنه الحالين، ومثل ذلك البيان يمثّل الله للناس كيلا تلتبس عليهم الأسباب والمسبّبات.

{ يَضْرِبُ } يلقي. وهذا إلقاء تبيين بقرينة السياق، وتقدّم عند قوله تعالى { أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26].

{ لِلنَّاسِ } جميع الناس، و(اللام) للأجل.

الأمثال: جمع **مَثَل** (بالتحريك) وهو الحال التي تمثّل صاحبها، أي تشتهره للناس وتعرفهم به.

المعنى: كهذا التبيين يُبيّن الله للناس أحوالهم فلا يبقوا في غفلة عن شؤون أنفسهم محجوبين عن تحقّق كنههم بحجاب التعوّد، لئلا يختلط الخبيث بالطيب، ولكي يكونوا على بصيرة في شؤونهم.

{ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ [4] سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ [5] وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ [6] }

لا شك أنّ هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر لأنّ فيها قوله تعالى { حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ } وهو الحكم الذي نزل فيه العقاب على ما وقع يوم بدر من فداء الأسرى التي في قوله تعالى { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ } [الأنفال:67]، إذ لم يكن حكم ذلك مقررا يومئذ.

{ **فَإِذَا** } الفاء لتفريع هذا الكلام على ما قبله من إثارة نفوس المسلمين بتشنيع حال المشركين وظهور خيبة أعمالهم وتنويه حال المسلمين وتوفيق آرائهم.

والمقصود: تهوين شأنهم في قلوب المسلمين وإغراؤهم بقطع دابرهم ليكون الدين كلّه لله، لأنّ ذلك أعظم من منافع فداء أسراهم بالمال، ليعبد المسلمون ربهم آمنين. وذلك ناظر إلى آية الأنفال، وإلى ما يفيده التعليل من قوله { حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا }.

{ **لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } اللقاء هنا المقابلة، وهو إطلاق شهير. يقال: يوم اللقاء، فلا يفهم منه إلّا لقاء الحرب. ويقال: إن لقيت فلانا لقيت منه أسدا. والمعنى: فإذا قاتلتم المشركين في المستقبل فأمعنوا في قتلهم حتّى إذا رأيتم أن قد خضدتم شوكتهم، فأسروا منهم أسرى.

الذين كفروا: هم المشركون لأنّ اصطلاح القرآن من تصاريف مادة الكفر، نحو: الكافرين، والكفار، والذين كفروا، هو الشرك.

ضرب الرقاب: كناية مشهورة يُعبَّر بها عن القتل، وأوثرت على كلمة القتل لأنّ في استعمال الكناية بلاغة، ولأنّ في خصوص هذا اللفظ غلظة وشدّة تناسبان مقام التحريض.

{ **حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ** } (حتّى) هنا ابتدائية. ومعنى الغاية معها يؤول إلى معنى التفريع.

الإثخان: الغلبة، لأنّها تترك المغلوب كالشيء المثخن، وهو الثقيل الصلب الذي لا يخفّ للحركة، ويوصف به المائع الذي جمد أو قارب الجمود بحيث لا يسيل بسهولة، ووصف به الثوب والحبل إذا كثرت طاقاتهما بحيث يعسر تفكّكها. وغلب إطلاقه على التوهين بالقتل. وتقدّم في [الأنفال:7] { حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ }. وكلا المعنيين في هذه الآية؛ فإذا فُسّر بالغلبة، كان المعنى: حتّى إذا غلبتم منهم من وقعوا في قبضتكم أسرى فشدّوا وثاقهم، وعليه فجواز المن والفداء غير مقيّد. وإذا فُسّر الإثخان بكثرة القتل فيهم، كان المعنى حتّى إذا لم يبق من الجيش إلّا القليل فاسروا حينئذ، أي: أبقوا الأسرى، فالمنّ والفداء مقيّد. والاحتمال الأوّل أظهر.

الشدّ: قوّة الربط، وقوّة الإمساك.
الوَثَاق (بفتح الواو): الشيء الذي يوثق به. وهو هنا كناية عن الأسر، لأنّ الأسر يستلزم الوضع في القيد.
المعنى: فاقتلوهم، فإن أثخنتم منهم فأسروا منهم.
{ **فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً** } قُدِّم المن على الفداء ترجيحا له لأنّه أعون على امتلاك ضمير الممنون عليه.
المنّ: الإنعام. والمراد به إطلاق الأسير.
الفُداء: (بكسر الفاء) تخليص الأسير بعوض من مال أو مبادلة بأسرى من المسلمين في يدي العدو.
{ **بَعْدُ** } أي: بعد الإثخان، وهذا تقييد لإباحة المنّ والفداء. وذلك موكول إلى نظر أمير الجيش بحسب ما يراه من المصلحة في أحد الأمرين، كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد غزوة هوازن. وهذا هو ظاهر الآية والأصل عدم النسخ، وهذا رأي جمهور أئمة الفقه.
{ **حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** } الغاية المستفادة من { حَتَّى } للتعليل لا للتقييد، أي: لأجل أن تضع الحرب أوزارها، أي: ليكفّ المشركون عنها فتأمنوا من الحرب عليكم، وليست غاية لحكم القتال.
الأوزار: الأثقال. ووضع الأوزار تمثيل لانتهاء العمل، فشُبِّهت حالة انتهاء القتال بحالة وضع الحمال أو المسافر أثقاله، وهذا من مبتكرات القرآن.
{ **ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ** } أعيد اسم الإشارة بعد قوله آنفا { ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ } [3] للنكتة التي تقدّمت هنالك (لتمييز المشار إليه أكملَ تمييز تنويها به).
والمشار إليه ما تقدّم من قوله تعالى { فَضَرْبَ الرِّقَابِ } إلى هنا، ويفيد اسم الإشارة تقرير الحكم ورسوخه في النفوس. أي: أمرتم بضرب رقابهم، والحال أنّ الله لو يشاء لاستأصلهم ولم يكلّفكم بقتالهم، ولكنّ الله ناط المسبّبات بأسبابها المعتادة، وهي أن يبلو بعضكم ببعض.
{ **لانْتَصَرَ مِنْهُمْ** } تعدية فعل انتصر بحرف (من) مع أنّ حقّه أن يُعدّى بحرف (على) لتضمينه معنى: انتقم.
{ **وَلَكِنْ** } الاستدراك راجع إلى ما في معنى المشيئة من احتمال أن يكون الله ترك الانتقام منهم لسبب غير ما بعد الاستدراك.
البلو: حقيقته الاختبار والتجربة، وهو هنا مجاز في لازمه وهو ظهور ما أراده الله من رفع درجات المؤمنين ووقع بأسهم في قلوب أعدائهم، ومن إهانة الكفّار.
{ **وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** } هذا من مظاهر بلوى بعضهم ببعض، وهو مقابل ما في قوله { فَضَرْبَ الرِّقَابِ - إلى قوله - وَإِمَّا فِدَاءً } فإنّ ذلك من مظاهر إهانة الذين كفروا، فذكر هنا ما هو من رفعة الذين قاتلوا في سبيل الله من المؤمنين بعناية الله بهم.

والجملة عطف على جملة { فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ }، فإنّه لمّا أمرهم بقتال المشركين أعقب الأمر بوعد الجزاء على فعله.

{ **الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } إظهار في مقام الإضمار إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: فلن يُضلّ الله أعمالكم، وهكذا بأسلوب الخطاب، فعدل عن ذلك ليكون في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي إفادة تقوّي الخبر، وليكون ذريعة إلى الإتيان بالموصول للتنويه بصلته، وللإيماء إلى وجه بناء الخبر على الصلّة، بأنّ تلك الصلة هي علة ما ورد بعدها من الخبر.

{ **فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ** } خبر عن الموصول، وقرنت بـ (الفاء) لإفادة السببية في ترتّب ما بعد الفاء على صلة الموصول، لأنّ الموصول كثيرا ما يُضمّن معنى الشرط فيقرن خبره بالفاء، وبذلك تكون صيغة الماضي في فعل { قُتِلُوا } منصرفة إلى الاستقبال لأنّ ذلك مقتضى الشرط.

{ **سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** } بيان لجملة { فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ } وتقدّم الكلام آنفا على معنى إضلال الأعمال وإصلاح البال.

{ **عَرَّفَهَا لَهُمْ** } أي: أنّه وصفها لهم في الدنيا فهم يعرفونها بصفاتها، فالجملة حال من الجنّة، أو المعنى هداهم إلى طريقها في الآخرة فلا يتردّدون في أنّهم داخلونها، وذلك من تعجيل الفرح بها.

وقيل: جعل فيها عَرْفًا، أي: ريحا طيّبا، والتطييب من تمام حسن الضيافة.

وقرأ الجمهور { قَاتَلُوا } بصيغة المفاعلة، فهو وعد للمجاهدين أحيائهم وأمواتهم. وقرأه أبو عمرو وحفص عن عاصم { قُتِلُوا } بالبناء للنائب، فعلى هذه القراءة يكون مضمون الآية جزاء الشهداء فهدايتهم وإصلاح بالهم كائنان في الآخرة.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [7]

لمّا ذُكر أنّه لو شاء الله لانتصر منهم عُلم منه أنّ ما أمر به المسلمين من قتال الكفار إنّما أراد منه نصرَ الدين بخضد شوكة أعدائه الذين يصدّون الناس عنه، أتبعه بالترغيب في نصر الله والوعد بتكفّل الله لهم بالنصر إن نصروه، وبأنّه خاذل الذين كفروا بسبب كراهيتهم ما شرعه من الدين. فالجملة استئناف ابتدائي للمناسبة.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } افتتح الترغيب بندائهم بصلة الإيمان اهتمامًا بالكلام وإيماء إلى أنّ الإيمان يقتضي منهم ذلك، والمقصود تحريضهم على الجهاد في المستقبل بعد أن اجتنوا فائدته يوم بدر.

{ **إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ** } نصر دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم، لأنّ الله غني عن النصر في تنفيذ إرادته، كما في قوله تعالى { وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ } [4].

ولا حاجة إلى تقدير مضاف، تقديره: تنصروا دين الله، لأنّه يقال: نصر فلان فلانا، إذا نصر ذويه وهو غير حاضر.

تثبيت الأقدام: تمثيل لليقين وعدم الوهن بحالة من ثبتت قدمه في الأرض فلم يزل، فإنّ الزلل وَهَنٌ يُسقط صاحبه، ولذلك يُمثّل الانهزام والخيبة والخطأ بزلل القدم، قال تعالى { فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا } [النحل:94].

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ [8] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ [9] }.

هذا مقابل قوله { وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ } [4]، فإنّ المقاتلين في سبيل الله هم المؤمنون، فهذا عطف على جملة { وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ }.

التعس: الشقاء، ويُطلق على عدّة معان: الهلاك، والخيبة، والانحطاط، والسقوط، وهي معان تحوم حول الشقاء، وقد كُثر أن يقال: تعسا له، للعاثر البغيض، أي: سقوطا وخرورا لا نهوض منه. ويقابله قولهم للعاثر القريب: لعًا له، أي ارتفاعا. وفي حديث الإفك: " فعثرت أم مسطح في مِرطها فقالت: تعس مسطح ".

ومن بدائع القرآن وقوع { فَتَعْساً لَهُمْ } في جانب الكفّار في مقابلة قوله للمؤمنين { وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [7].

{ **فَتَعْساً لَهُمْ** } انتصب (تعسًا) على المفعول المطلق بدلا من فعله. والتقدير: فتعسوا تعسهم، ويجوز أن يكون مستعملا في الدعاء عليهم لقصد التحقير والتفظيع، وذلك من استعمالات هذا المركب مثل سقيا له، وتبا له، وويحا له، وحينئذ يتعيّن في الآية فعل قول محذوف تقديره: فقال الله: تعسا لهم، أو فيقال: تعسا لهم.

{ **وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** } إشارة إلى ما تقدّم من قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ } [8]، وتقدّم القول حول المعنى هنالك.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** } القول في معناه وفي موقعه من الجملة التي قبله وفي نكتة تكريره كما تقدّم في قوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ } [3]. والإشارة إلى التعس وإضلال الأعمال المتقدّم ذكرهما.

{ **بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا** } الباء للسببية. و**الكراهية**: البغض والعداوة.

{ **مَا أَنْزَلَ اللَّهُ** } هو القرآن وما فيه من التوحيد والرسالة والبعث.

{ **فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** } وإحباط الأعمال إبطالها. والمراد بأعمالهم: الأعمال التي يرجون منها النفع في الدنيا، لأنّهم لم يكونوا يرجون نفعها في الآخرة إذ هم لا يؤمنون بالبعث. وإنّما كانوا يرجون من الأعمال الصالحة رضى الله ورضى الأصنام ليعيشوا في سعة رزق وسلامة وعافية وتسلم، فالأعمال المحبَطة بعض الأعمال المضلّلة. وإحباطها هو عدم تحقّق ما رجوه منها.

فهو أخصّ من إضلال أعمالهم كما علمته عند قوله { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ } [1]. والمقصود من ذكر هذا الخاص بعد العام التنبيه على أنّهم لم ينتفعوا بها، لئلا يظنّ المؤمنون أنّها قد تخفِّف عنهم من العذاب، فقد كانوا يتساءلون عن ذلك، كما في حديث عُدي بن حاتم أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعمال كان يتحنّث بها في الجاهلية من عتاقة ونحوها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" أسلمت على ما سلف من خير"**، أي: ولو لم يُسلم لما كان له فيها خير.

والمعنى: أنهم لو آمنوا بما أنزل الله لانتفعوا بأعمالهم الصالحة في الآخرة. وقد حصل من ذكر هذا الخاص بعد العام تأكيد الخبر المذكور.

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا } [10].

تفريع على جملة { وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ } [8].

{ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } تقدّم القول في نظائرها في [الروم:9] وفي [غافر:21]. والاستفهام تقريري.

{ **دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** } استئناف بياني، وهذا تعريض بالتهديد.

التدمير: الإهلاك والدمار وهو الهلك. وفعل { دَمَّرَ } متعدّ إلى المدمَّر بنفسه، فيقال: دمَّرهم الله، وإنّما عُدِّي في الآية بحرف الاستعلاء للمبالغة في قوة التدمير، فحُذف المفعول لقصد العموم، ثم جُعل التدمير واقعا عليهم فأفاد معنى { دَمَّر } كلّ ما يختصّ بهم.

{ **وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** } اعتراض بين { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ } وبين جملة { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا} [11]. والمراد بالكافرين: كفّار مكّة. وهذا تصريح بما وقع به التعريض للتأكيد بالتعميم ثمّ الخصوص.

أمثال: جمع مِثْل (بكسر الميم وسكون الثاء)، والجمع هنا لأنّ الله استأصل الكافرين مرّات حتّى استقر الإسلام؛ فاستأصل صناديدهم يوم بدر بالسيف، ويوم حنين بالسيف أيضا، وسلّط عليهم الريح يوم الخندق فهزمهم، وسلّط عليهم الرعب والمذلّة يوم فتح مكة، وكلّ ذلك مماثل لما سلطه على الأمم في الغاية منه وهو نصر الرسول صلى الله عليه وسلم ودينه.

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ } [11].

أعيد اسم الإشارة للوجه الذي تقدّم في قوله { ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ } [3] وقوله { ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ } [4]. وهو منصرف إلى مضمون قوله { وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا } [10] بتأويل: ذلك المذكور، لأنّه يتضمّن وعيدا للمشركين بالتدمير، وفي تدميرهم انتصار للمؤمنين على ما لقوا منهم من الأضرار، فأفيد أنّ ما توعّدهم الله به مسبَّب على أنّ الله نصير الذين آمنوا، وهو المقصود من التعليل وما بعده تتميم.

المولى: هنا الولي والناصر. أي: أنّ الله ينصر الذين ينصرون دينه، وهم الذين آمنوا ولا ينصر الذين كفروا به، فأشركوا معه في إلهيته، وإذا كان لا ينصرهم فلا يجدون نصيرا لأنّه لا يستطيع أحد أن ينصرهم على الله، فنفي جنس المولى لهم بهذا المعنى من معاني المولى.

وأمّا إثبات المولى للمشركين في قوله تعالى { ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ - إلى قوله - وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ } [يونس:28-30]، فذلك المولى بمعنى آخر، وهو معنى: المالك والربّ، فلا تعارض بينهم.

{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } [12].

استئناف بياني جواب سؤال يخطر ببال سامع قوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ } [11] عن حال المؤمنين في الآخرة وعن رزق الكافرين في الدنيا؟ فبين الله أنّ من ولايته المؤمنين أن يعطيهم النعيم الخالد بعد النصر في الدنيا، وأنّ ما أعطاه الكافرين في الدنيا لا عبرة به لأنّهم مسلوبون من فهم الإيمان، فحظّهم من الدنيا أكل وتمتع كحظ الأنعام، وعاقبتهم في عالم الخلود العذاب.

وهذا الاستئناف وقع اعتراضا بين جملة { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ } [10] وجملة { وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ } [13].

التمتّع: الانتفاع القليل بالمتاع، وتقدّم في قوله تعالى { مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران:197] وقوله تعالى { وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24].

{ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } في معنى قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران:196/197]

المثوى: مكان الثواء، والثواء: الاستقرار، وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ } [الأنعام:128]

{ مَثْوىً لَهُمْ } عدل عن الإضافة إلى التنوين لإفادة معنى التمكّن من القرار في النار، أي: مثوًى قويًّا لهم لأنّ الإخبار عن النار في هذه الآية حصل قبل مشاهدتها، في حين أضيفت في قوله { قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ } لأنّه إخبار عنها وهم يشاهدونها في المحشر.

{ **وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ** } [13]

عطف على جملة { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ } [10] وما بينهما استطراد اتصل بعضه ببعض.

{ **كَأَيِّنْ** } تدل على كثرة العدد، وتقدم في [آل عمران:146] وفي [الحج:45].

{ **قَرْيَةٍ** } المراد أهلها، بقرينة قوله {أهلكناهم}، لإفادة الإحاطة بجميع أهلها وجميع أحوالهم، وليكون لإسناد التبعة في إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم، على جميع أهلها، سواء منهم من تولّى أسباب ذلك، ومن كان ينظر ولا ينهى، قال تعالى { وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ } [الممتحنة:9].

وهذا إطناب في الوعيد لأنّ مقام التهديد والتوبيخ يقتضي ذلك، فمفاد هذه الآية مؤكّد لمفاد قوله { فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا } [10]، فحصل توكيد ذلك بما هو مقارب له من إهلاك الأمم ذوات القرى والمدن بعد أن شمل قوله { الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } من كان من أهل القرى، وزاد هنا التصريح بأنّ الذين من قبلهم كانوا أشدّ قوة منهم ليفهموا أنّ إهلاك هؤلاء هيّن على الله.

فإنّه لمّا كان التهديد السابق تهديدا بعذاب السيف، من قوله { فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ} [4]، قد يلقى في نفوسهم غرورا لتعذّر استئصالهم بالسيف وهم ما هم من المنعة وأنّهم تمنعهم قريتهم مكة، فأعلمهم الله أن قرى كثيرة كانت أشدّ قوّة من قريتهم أهلكهم الله فلم يجدوا نصيرا.

{ **قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ** } لما تفيده إضافة القرية إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم من تعيير أهلها بمذمّة القطيعة، ولما تؤذن به الصلة من تعليل إهلاكهم بسبب إخراجهم الرسول صلى الله عليه وسلم من قريته، قال تعالى { وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ } [البقرة:191].

{ **أَخْرَجَتْكَ** } إطلاق الإخراج على ما عامل به المشركون النبيّ صلى الله عليه وسلم من الجفاء والأذى ومقاومة نشر الدين إطلاق من قبيل الاستعارة، لأنّ سوء معاملتهم إيّاه كان سببا في خروجه من مكة.

وليس ذلك بإخراج وإنّما هو خروج، فإنّ المشركين لم يلجئوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالإخراج بل كانوا على العكس يرصدون أن يمنعوه من الخروج خشية اعتصامه بقبائل تنصره فلذلك أخفى على الناس أمر هجرته إلّا عن أبي بكر رضي الله عنه.

{ **أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ** } فُرّع على الإخبار بإهلاك الله إيّاهم الإخبار بانتفاء جنس الناصر لهم، أي: المنقذ لهم من الإهلاك. والمقصود: التذكير بأنّ أمثال هؤلاء المشركين لم يجدوا دافعا يدفع عنهم الإهلاك، وذلك تعريض بتأييس المشركين من إلفاء ناصر ينصرهم في حربهم للمسلمين.

{ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } [14].

تفريع على جملة { أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ } [13] لتحقيق أنّهم لا ناصر لهم. ويجوز أن يكون مفرَّعا على ما سبق من قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [12]، فيكون له حكم الاعتراض.

{ أَفَمَنْ كَانَ } المقصود من إنكار المشابهة هو تفضيل الفريق الأوّل، وإنكار زعم المشركين أنّهم خير من المؤمنين.

البيّنة: البرهان والحجّة، أي: حجّة على أنّه محقّ.

{ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ } أي: أنّ الله أرشدهم إليها. فالحجّة حجّة في نفسها وكونها من عند الله تزكية لها.

وهذا الفريق هم المؤمنون وهم ثابتون على الدين واثقون بأنّهم على الحق. فلا جرم يكون لهم الفوز في الدنيا لأنّ الله يسّر لهم أسبابه، فإن قاتلوا كانوا على ثقة بأنّهم على الحقّ وأنّهم صائرون إلى إحدى الحسنيين فقويت شجاعتهم، وإن سالموا عنوا بتدبير شأنهم وما فيه نفع الآمّة والدين فلم يألوا جهدا في حسن أعمالهم، وذلك من آثار أنّ الله أصلح بالهم وهداهم.

{ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ } هم المشركون، فإنّهم كانوا في أسوء حال من عبادة الأصنام والظلم والعدوان وارتكاب الفواحش، فلمّا نبّههم الله لفساد أعمالهم بأن أرسل إليهم رسولا بيّن لهم صالح الأعمال وسيّئاتها لم يدركوا ذلك ورأوا فسادهم صلاحا فتزينت أعمالهم في أنظارهم ولم يستطيعوا الإقلاع عنها.

{ زُيِّنَ } بني للمجهول ليشمل المزيّنين لهم من أئمة كفرهم، وما سوَّلته لهم أيضا عقولهم الآفنة من أفعالهم السيّئة اغترارا بالإلف أو اتباعا للذّات عاجلة أو لجلب الرئاسة. وفي هذا البناء إلى المجهول تنبيه لهم أيضا ليرجعوا إلى أنفسهم فيتأمّلوا فيمن زيَّن لهم سوء أعمالهم.

{ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ } [15].

استئناف بياني لأنّ ما جرى من ذكر الجنّة في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [12] مما يستشرف السامع إلى تفصيل بعض صفاتها.

فلما فُرغ من توصيف حال فريقي الإيمان والكفر، وممّا أُعدّ لكليهما، ومن إعلان تباين حاليهما، ثُني العنان إلى بيان ما في الجنّة التي وُعد المتّقون، وخُصّ من ذلك بيان أنواع الأنهار.

المثل: الحال العجيب.

الأنهار: جمع نهر، وهو الماء المستبحر الجاري في أخدود عظيم من الأرض، وتقدّم في قوله تعالى **{** قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ } [البقرة:249].

{ أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ / أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ / أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ } فأمّا إطلاق الأنهار على أنهار الماء فهو حقيقة، وأمّا إطلاق الأنهار على ما هو من لبن وخمر وعسل فذلك على طريقة التشبيه البليغ، أي: مماثلة للأنهار.

فيجوز أن تكون المماثلة تامة في أنّها كالأنهار مستبحرة في أخاديد من أرض الجنة، فإنّ أحوال الآخرة خارقة للعادة المعروفة في الدنيا، فإنّ مرأى أنهار من هذه الأصناف مرأى مبهج.

ويجوز أن تكون مماثلة هذه الأصناف للأنهار في بعض صفات الأنهار وهي الاستبحار.

وهذه الأصناف الخمسة المذكورة في الآية كانت من أفضل ما يتنافسون فيه ومن أعزّ ما يتيسّر الحصول عليه، فكيف إذا كان منها أنهار في الجنّة. وقد ذكر هنا أربعة أشربة هي أجناس أشربتهم:

الماء الصافي، كان مرغوبا، لأنّ غالب مياههم من الغدران والأحواض بالبادية تمتلئ من ماء المطر أو من مرور السيول فإذا استقرت أياما أخذت تتغير بالطحلب وبما يدخل فيها من الأيدي والدلاء، وشرب الوحوش وقليل البلاد التي تكون مجاورة الأنهار الجارية.

وكذلك اللبن كانوا إذا حلبوا وشربوا أبقوا ما استفضلوه إلى وقت آخر لأنّهم لا يحلبون إلّا حلبة واحدة أو حلبتين في اليوم فيقع في طعم اللبن تغيير.

فأمّا الخمر فكانت قليلة عزيزة عندهم لقلة الأعناب في الحجاز إلّا قليلا في الطائف، فكانت الخمر تُجتلب من بلاد الشام ومن بلاد اليمن، وكانت غالية الثمن وقد ينقطع جلبها زمانا في فصل الشتاء لعسر السير بها في الطرق وفي أوقات الحروب أيضا خوف انتهابها.

والعسل هو أيضا من أشربتهم، والعرب يقولون: سقاه عسلا، وأطعمه عسلا. وكان العسل مرغوبا فيه يُجتلب من بلاد الجبال ذات النبات المستمرّ.

فأمّا الثمرات فبعضها كثير عندهم كالتمر وبعضها قليل كالرمّان.

الآسن: وصف، من أسِن الماء، إذا تغيّر لونه.

{ **لَذَّةٍ** } وصف وليس باسم، وهو تأنيث اللذّ، أي: اللذيذ.

العسل المصفّى: الذي خلص ممّا يخالطه من بقايا الشمع وبقايا أعضاء النحل التي قد تموت فيه.

{ **مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } أصناف من جميع أجناس الثمرات، فالتعريف للجنس، و{ كُلِّ } مستعملة في حقيقتها وهو الإحاطة، أي: جميع ما خلق الله من الثمرات ممَّا علموه في الدنيا، وما لم يعلموه ممّا خلقه الله للجنّة.

و{ مِنْ } تبعيضية، وهذا كقوله تعالى { فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ } [الرحمن:52].

{ **وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ** } عطف على { أَنْهَارٌ } وما بعده، أي: وفيها مغفرة لهم، أي: تجاوز عنهم، أي: إطلاق في أعمالهم لا تكليف عليهم. وقد تكون المغفرة كناية عن الرضوان عليهم، كما قال تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72].

{ **كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ** } كلام مستأنف مقدّر فيه استفهام إنكاري دلّ عليه ما سبق من قوله { أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ } [14]. والتقدير: أكمن هو خالد في النار؟ والإنكار متسلّط على التشبيه الذي هو بمعنى التسوية.

{ **وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً** } جيء به لمقابلة ما وصف من حال أهل الجنّة، أي: أنّ أهل النار محرومون من جميع ما ذكر من المشروبات. وليسوا بذائقين إلّا الماء الحميم الذي يقطع أمعاءهم بفور سقيه.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } [16].

{ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً** } ضمير { وَمِنْهُمْ } عائد إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا } [12] الذين جرى ذكرهم غير مرة. أي: ومن الكافرين قوم يستمعون إليك.

{ **مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ** } صنف آخر من الكافرين الذين أسرّوا الكفر وتظاهروا بالإيمان، وقد كان المنافقون بعد الهجرة مقصودين من لفظ الكفّار. وهذه السورة نازلة بقرب عهد من الهجرة فلذلك ذكر فيها الفريقان من الكفار. وليس المراد مجرد المستمعين مثل ما في قوله تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً } [الأنعام:25]، وقوله تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ } [يونس:42]، للفرق الواضح بين الأسلوبين.

أي: يحضرون مجلسك ويسمعون كلامك وما تقرأ عليهم من القرآن. وهذه صفة من يتظاهر بالإسلام فلا يعرضون عن سماع القرآن إعراض المشركين بمكة.

الاستماع: أشدّ السمع وأقواه، أي: يستمعون باهتمام يُظهرون أنّهم حريصون علي وعي ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم وأنّهم يلقون إليه بالهم، وهذا من استعمال الفعل في معنى إظهاره لا في معنى حصوله. وحقّ فعل استمع أن يُعدَّى إلى المفعول بنفسه كما في قوله { يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ } [الاحقاف:29]، فإذا أريد تعلّقه بالشخص المسموع منه يقال: استمع إلى فلان كما هنا، وكذا جاء في مواقعه كلّها من القرآن.

{ **حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ** } و{ حَتَّى } هنا ابتدائية، و{ إِذَا } اسم زمان متعلّق بـ { قَالُوا }.

والمعنى: فإذا خرجوا من عندك قالوا.

{ **لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** } هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الملازمون لمجلسه. وسُمِّي منهم عبد الله بن مسعود وأبو الدرداء وابن عباس. وروي عنه أنّه قال: أنا منهم وسئلت فيمن سئل.

{ **آنِفاً** } وقتا قريبا من زمن التكلّم ، ولم ترد هذه الكلمة إلّا منصوبة على الظرفية.

وسياق الكلام يدلّ على ذمّ هذا السؤال لقوله عقبه { أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } فهو سؤال ينبئ عن مذمّة سائليه، فإن كان سؤالهم حقيقة أنبأ عن قلّة وعيهم لما يسمعونه من النبيّ صلى الله عليه وسلم.

ويجوز أن يكون السؤال على غير حقيقته ناوين به الاستهزاء يظهرون للمؤمنين اهتمامهم باستعادة ما سمعوه، ويقولون لإخوانهم: إنما نحن مستهزؤون، أو أن يكون سؤالهم تعريضا بأنّهم سمعوا كلاما لا يستبين المراد منه لإدخال الشك في نفوس من يحسّون منهم الرغبة في حضور مجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم تعريضا لقلّة جدوى حضورها.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** } استئناف بياني لأنّ قولهم { مَاذَا قَالَ آنِفاً } سؤال غريب من شأنه إثارة سؤال من يسأل عن مرادهم منه.

وجيء باسم الإشارة بعد ذكر صفاتهم تشهيرا بهم، وجيء بالموصول وصلته خبرا عن اسم الإشارة لإفادة أنّ هؤلاء المتميّزين بهذه الصفات هم أشخاص الفريق المتقرّر بين الناس أنّهم فريق مطبوع على قلوبهم، لأنّه قد تقرّر عند المسلمين أنّ الذين صمّموا على الكفر هم قد طبع الله على قلوبهم وأنّهم متَّبعون لأهوائهم.

الطبع على القلب: تمثيل لعدم مخالطة الهدى والرشد لعقولهم بحال الكتاب المطبوع عليه، أو الإناء المختوم.

{ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [17].

جملة معترضة بين جملة { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ } [16] وجملة { فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ } [18].

والمقصود من هذا الاعتراض: مقابلة فريق الضلالة بفريق الهداية على الأسلوب الذي أقيمت عليه هذه السورة كما تقدّم في أوّلها (تحريض وترغيب). فهذا أسلوب مستمر وإن اختلفت مواقع جمله.

المعنى: والذين شرح الله صدرهم للإيمان فاهتدوا لطف الله بهم فزادهم هدى وأرسخ الإيمان في قلوبهم ووفّقهم للتقوى، فاتقوا وغالبوا أهواءهم.

{ **وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** } مستعار لتيسير أسبابها، إذ التقوى معنى نفساني، والإيتاء يتعدّى حقيقة للذوات.

وإضافة التقوى إلى ضمير { الَّذِينَ اهْتَدَوْا } إيماء إلى أنّهم عرفوا بها واختصت بهم.

{ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ } [18].

تفريع على ما مضى من وصف أحوال الكافرين من قوله { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ - إلى قوله - وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } الشاملة لأحوال الفريقين ففُرِّع عليها أنّ كلا الفريقين ينتظرون حلول الساعة لينالوا جزاءهم على سوء كفرهم.

{ **فَهَلْ يَنْظُرُونَ** } الضمير مراد به الكافرون لأنّ الكلام تهديد ووعيد، ولأنّ المؤمنين ينتظرون أمورا أخر مثل النصر والشهادة، قال تعالى { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ } [التوبة:52]. والنظر هنا بمعنى الانتظار، كما في قوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ } [الأنعام:158].

والاستفهام إنكار مشوب بتهكّم، وهو إنكار وتهكّم على غائبين، موجّه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، أي: لا تحسب تأخير مؤاخذتهم إفلاتا من العقاب، فإنّهم مرجون إلى الساعة.

وهذا الاستفهام الإنكاري ناظر إلى قوله آنفا { وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } [12].

{ **إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً** } والقصر الذي أفاده الاستثناء قصر ادعائي، نزل انتظارهم ما يأملونه من المرغوبات في الدنيا منزلة العدم لضآلة أمره بعد أن نُزِّلوا منزلة من ينتظرون فيمن ينتظرون الساعة، لأنّهم لتحقّق حلولها عليهم جديرون بأن يكونوا من منتظريها.

{ **أَنْ تَأْتِيَهُمْ** } بدل اشتمال من الساعة.

{ **بَغْتَةً** } حال من الساعة، والبغتة: الفجأة، وهو مصدر بمعنى: المرّة، والمراد به الوصف، أي: مباغتة لهم.

{ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا } فاء الفصيحة، وهذه الفصيحة تفيد معنى تعليل قرب مؤاخذتهم.

الأشراط: جمع شَرَط (بفتحتين)، وهو: العلامة والأمارة على وجود شيء أو على وصفه.

وعلامات الساعة هي علامات كونها قريبة. وهذا القرب يتصور بصورتين:

الأولى: أنّ وقت الساعة قريب قربا نسبيا بالنسبة إلى طول مدّة هذا العالم ومن عليه من الخلق.

الثانية: أنّ ابتداء مشاهدة أحوال الساعة يحصل لكلّ أحد بموته فإنّ روحه إذا خلصت عن جسده شاهدت مصيرها مشاهدة إجمالية. وبه فُسِّر حديث أبي هريرة مرفوعا: **" القبر روضة من رياض الجنة أو حفر من حفر النار "**. [رواه الترمذي]. وهو ضعيف ويفسّره حديث ابن عمر مرفوعا: { **إذا مات الميت عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، ثم يقال: هذا مقعدك حتّى يبعثك الله يوم القيامة "**.

والأشراط بالنسبة للصورة الأولى: الحوادث التي أخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّها تقع بين يديّ الساعة، وأولها بعثته لأنّه آخر الرسل وشريعته آخر الشرائع. وبالنسبة للصورة الثانية أشراطها الأمراض والكبر.

{ **فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ** } تفريع على { فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا }. و(أنّى) اسم يدل على الحالة، ويُضمَّن معنى الاستفهام كثيرا، وهو هنا استفهام إنكاري، أي: كيف يحصل لهم الذكرى إذا جاءتهم الساعة.

والمقصود: إنكار الانتفاع بالذكرى حينئذ.

{ **جَاءَتْهُمْ** } الضمير عائد إلى { السَّاعَةَ }.

وهذا التركيب مثل قوله تعالى { أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى } [الدخان:13].

{ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ** } [19].

فُرِّع على جميع ما ذُكر من حال المؤمنين وحال الكافرين ومن عواقب ذلك ووعده أو وعيده أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالثبات على ما له من العلم بوحدانية الله، وعلى ما هو دأبه من التواضع لله بالاستغفار لذنبه، ومن الحرص على نجاة المؤمنين بالاستغفار لهم، لأنّ في ذلك العلم وذلك الدأب استمطار الخيرات له ولأمّته.

وهذا التفريع مزيد مناسبة لقوله آنفا { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ } [11].

{ **فَاعْلَمْ** } الأمر كناية عن طلب العمل، وهو العمل بالمعلوم، وذلك مستعمل في طلب الدوام عليه، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قد علم ذلك وعلمه المؤمنون، وإذا حصل العلم بذلك مرّة واحدة تقرّر في النفس، لأنّ العلم لا يحتمل النقيض، فليس الأمر به بعد حصوله لطلب تحصيله بل لطلب الثبات، فهو على نحو قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [النساء:136].

ومن اللطائف القرآنية أن أمر هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل في قوله { وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ }. قال ابن عيينة لمّا سئل عن فضل العلم: ألم تسمع قوله تعالى حين بدأ به { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ }. وترجم البخاري في كتاب العلم (باب العلم قبل القول والعمل) لقول الله تعالى { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } فبدأ بالعلم.

{ **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** } وأمّا الأمر هنا فهو لطلب تجديد ذلك إن كان قد علمه النبيّ صلى الله عليه وسلم من قبل وعمله، أو هو لطلب تحصيله إن لم يكن فعله من قبل.

{ **لِذَنْبِكَ** } وما يستغفر منه النبيّ صلى الله عليه وسلم ليس من السيّئات لعصمته منها، وإنّما هو استغفار من الغفلات ونحوها، وتسميته بالذنب في الآية؛ إمّا محاكاة لما كان يكثر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقوله: " **اللّهم اغفر لي خطيئتي** "، وإنّما كان يقوله في مقام التواضع.

وإمّا إطلاق لاسم الذنب على ما يفوت من الازدياد في العبادة مثل أوقات النوم والأكل، وإطلاقه على ما عناه النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله: " **أنه ليُغانُ على قلبي وإنّي أستغفر الله في اليوم مائة مرة** " [مسلم].

{ **وَالْمُؤْمِنَاتِ** } وذكرهنّ بعد { لِلْمُؤْمِنِينَ } اهتمام بهنّ في هذا المقام وإلّا فإن الغالب اكتفاء القرآن بذكر المؤمنين وشموله للمؤمنات على طريقة التغليب، للعلم بعموم تكاليف الشريعة للرجال والنساء إلا ما استثني من التكاليف.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ** } تذييل جامع لأحوال ما تقدّم.

المتقلَّب: مصدر بمعنى التقلّب: العمل المختلف ظاهرا وباطنا كالصلاة وكالإيمان.

المثوى: المرجع والمئال، أي: يعلم الله أحوالكم جميعا من مؤمنين وكافرين، وقدَّر لها جزاءها على حسب علمه بمراتبها، ويعلم مصائركم، وإنّما أمركم ونهاكم، وأمركم بالاستغفار خاصة لإجراء أحكام الأسباب على مسبباتها، فلا تيأسوا ولا تهملوا.

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ [20] طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ [21] }.

قد ذكرنا أنّ هذه السورة أنزلت بالمدينة وقد بدت قرون المنافقين، فلمّا جرى فيها وصف حال المنافقين أعقب ذلك بوصف أجلى مظاهر نفاقهم، وذلك حين يُدعى المسلمون إلى الجهاد فقد يضيق الأمر بالمنافقين إذ كان تظاهرهم بالإسلام سيلجئهم إلى الخروج للقتال مع المسلمين، وذلك أمر ليس بالهين لأنّه تعرض لإتلافهم النفوس دون أن يرجوا منه نفعا في الحياة الأبدية، إذ هم لا يصدّقون بها فيصبحوا في حيرة.

وكان حالهم هذا مخالفا لحال الذين آمنوا الذي تمنّوا أن ينزل القرآن بالدعوة إلى القتال ليلاقوا المشركين فيشفوا منهم غليلهم، فبهذه المناسبة حُكي تمنّي المؤمنين نزول حكم القتال لأنّه يلوح به تمييز حال المنافقين، وقد بُيّن كره القتال لديهم في سورة التوبة.

فالمقصود من هذه الآية قوله { فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ }، وما قبله توطئة له بذكر سببه، وأفاد تقديمه أيضا تنويها بشأن الذين آمنوا، وأفاد ذكره مقابلة بين حالي الفريقين جريا على سنن هذه السورة. ومقال الذين آمنوا هذا كان سببا في نزول قوله تعالى { فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ } [4]، ولذلك فالمقصود من السورة التي ذُكر فيها القتال سورة محمد.

{ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا** } معلوم أنّ قول المؤمنين هذا واقع قبل نزول هذه الآية فالتعبير عنه بالمضارع: إمّا لقصد استحضار الحالة مثل قوله تعالى { وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ } [هود:38]، وإمّا للدلالة على أنّهم مستمرّون عليه.
{ **لَوْلَا** } حرف مستعمل هنا في التمنّي، وأصل معناه التحضيض، فأطلق وأريد به التمني لأنّ التمنّي يستلزم الحرص والحرص يدعو إلى التحضيض.
{ **نُزِّلَتْ سُورَةٌ** } حذف وصف { سُورَةٌ } لدلالة ما بعده عليه من قوله { وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ } لأنّ قوله { فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ }، أي: كما تمنّوا، اقتضى أنّ المسؤول سورة يُشرَّع فيها قتال المشركين.
فالمعنى: لولا نُزّلت سورة يذكر فيها القتال وفرضه، فحذف الوصف إيجازا.
{ **سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ** } باعتبار وصف آياتها بالإحكام، أي: عدم التشابه وانتفاء الاحتمال، كما دلّت عليه مقابلة المحكمات بالمتشابهات في قوله تعالى { مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } [آل عمران:7].
أي: لا تحتمل آيات تلك السورة المتعلّقة بالقتال إلّا وجوب القتال وعدم الهوادة فيه، مثل قوله { فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ} [4]، فلا جرم أنّ هذه السورة هي التي نزلت إجابة عن تمنّي الذين آمنوا.
{ **وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ** } لأنّ السورة ليست كلّها متمحِّضة لذكر القتال فإنّ سور القرآن ذوات أغراض شتّى.
{ **رَأَيْتَ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه لاحق لقوله تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ } [16].
{ **الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** } هم المبطنون للكفر، فجُعل الكفر الخفيّ كالمرض الذي مقرّه القلب لا يبدو منه شيء على ظاهر الجسد. وقد غلب إطلاق هذه الصلة على المنافقين، وأنّ النفاق مرض نفساني معضل لأنّه تتفرع منه فروع بيّنّاها في قوله تعالى { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } [البقرة:10].
{ **نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ** } انتصب على المفعولية المطلقة لبيان صفة النظر في { **يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ** }، فهو على معنى التشبيه البليغ. ووجه الشبه ثبات الحدقة وعدم التحريك. وكانوا يتظاهرون بالإقبال على تلقّي ما ينطق به من الوحي فلمّا سمعوا ذكر القتال بهتوا. فالمقصود المشابهة في هذه الصورة.
وفي معنى هذه الآية قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ } [الأحزاب:19].
{ **مِنَ الْمَوْتِ** } و{ مِنَ } هنا تعليلية، أي: المغشي عليه لأجل حضور الموت.
{ **فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ** } تفريع، وهو اعتراض بين جملة { يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ } وبين جملة { فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ }. وهو يرتبط بقوله بعده { فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ }.
{ **فَأَوْلَى لَهُمْ** } يجوز أن يكون مستعملا في ظاهره استعمال التفضيل على شيء غير مذكور يدل عليه ما قبله، أي: أولى لهم من ذلك الخوف الذي دل عليه نظرهم، أن يطيعوا أمر الله ويقولوا قولا معروفا، وهو قول { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } [البقرة:285]، فذلك القول المعروف بين المؤمنين إذا دُعوا أو أُمِروا.

قال تعالى { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } [النور:51].

وعلى هذا الوجه فتعدية { فَأَوْلَى } بـ (اللام) دون (الباء) للدلالة على أنّ ذلك أولى وأنفع. فكان اجتلاب (اللام) للدلالة على معنى النفع. فهو مثل قوله تعالى { هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ } [هود:78].

ويجوز أن يكون { فَأَوْلَى لَهُمْ } مستعملا في التهديد والوعيد كما في قوله تعالى { أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى } [القيامة:35/34]. ومعناه: أنّ الله أخبر عن توعّده إيّاهم. واللام على هذا الوجه إمّا مزيدة، أي: أولاهم الله ما يكرهون، وإمّا متعلقة بـ (أولى) على أنّه فعل ماضي.

{ **طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ** } على الاستعمال الثاني، كلام مستأنف وهو مبتدأ خبره محذوف، أي: طاعة وقول معروف خير لهم، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر طاعة وقول معروف، أي: أمر الله أن يطيعوا.

{ **فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ** } تفريع على وصف حال المنافقين من الهلع عند سماع ذكر القتال. أي: حين يُندب المسلمون إلى القتال سيضطرب أمر المنافقين ويتسلّلون لواذا، وأنّ الأولى لهم حينئذ أن يخلصوا الإيمان ويجاهدوا كما يجاهد المسلمون الخلَّص وإلّا فإنّهم لا محيص لهم من أحد أمرين:

إمّا حضور القتال بدون نيّة فتكون عليهم الهزيمة ويخسروا أنفسهم باطلا، وإمّا أن ينخذلوا عن القتال كما فعل ابن سلول وأتباعه يوم أحد.

{ **إِذَا** } ظرف للزمان المستقبل، وهو الغالب، فيكون ما بعدها مقدَّرا وجوده، أي: فإذا جدّ أمر القتال وحدث. ويكون قوله تعالى { فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ } دليل جواب { إذا } لأنّها ضُمِّنت هنا معنى الشرط، و(الفاء) في جملة الجواب للدلالة على ذلك التضمين. أي: كذبوا الله وأخلفوا، فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم.

العزم: القطع وتحقّق الأمر، أي: كونه لا محيص منه. واستعير العزم للتّعيين واللزوم. ونظيره قوله { إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [لقمان:17].

{ **الْأَمْرُ** } تعريف العهد، أو (اللام) نيابة عن المضاف إليه، أي: أمر القتال المتقدّم آنفا { وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ }.

{ **فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ** } أي: لو صدقوا في قولهم: نحن مؤمنون. وهم إنّما كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أظهروا له خلاف ما في نفوسهم، فجُعل الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبا على الله تفظيعا له وتهويلا لمغبّته، أي: لو أخلصوا الإيمان وقاتلوا بنيّة الجهاد لكان خيرا لهم في الدارين.

فهذه الآية إنباء ممّا سيكون منهم حين يجيء أوان القتال، وهي من معجزات القرآن في الإخبار بالغيب، فقد عزم أمر القتال **يوم أُحد** وخرج المنافقون مع جيش المسلمين فلمّا بلغ الجيش إلى الشوط بين المدينة وأُحد قال عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين: ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟ ورجع هو وأتباعه، وكانوا ثلث الجيش، وذلك سنة ثلاث من الهجرة، أي: بعد نزول هذه الآية بنحو ثلاث سنين.

{ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ } [22]

مقتضى تناسق النظم أنّ هذا مفرّع على قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ } [21]، لأنّه يفهم منه أنّه إذا عزم الأمر تولّوا عن القتال وانكشف نفاقهم، فتكون إتماما لما في الآية السابقة من الإنباء بما سيكون من المنافقين يوم أحد. وقد قال عبد الله بن أبي: علام نقتل أنفسنا هاهنا؟ وربما قال في كلامه: وكيف نقاتل قريشا وهم من قومنا.

والخطاب موجّه إلى الذين في قلوبهم مرض على الالتفات.

{ فَهَلْ عَسَيْتُمْ } الاستفهام مستعمل في التكذيب لما سيعتذرون به لانخذالهم، ولذلك جيء فيه بـ (هل) الدالة على التحقيق، لأنّها في الاستفهام بمنزلة (قد) في الخبر.

المعنى: أنّكم تقعون فيما زعمتم التفادي منه وذلك بتأييد الكفر وإحداث العداوة بينكم وبين قومكم من الأنصار وهذا توبيخ كقوله تعالى { ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ } [البقرة:85].

{ تَوَلَّيْتُمْ } التولِّي هنا هو الرجوع عن الوجهة التي خرجوا لها، كما في قوله تعالى { فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ } [البقرة:246]، وقوله تعالى { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى } [النجم:33].

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ } [23].

الإشارة إلى الذين في قلوبهم مرض على أسلوب قوله آنفا { أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [16]، ولا يصح أن تكون الإشارة إلى ما يؤخذ من قوله { إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ } [22]، لأنّ ذلك لا يستوجب اللعنة ولا أنّ مرتكبيه بمنزلة الصمّ، كما أنّ في صيغة الماضي في أفعال (لعنهم، وأصمّهم، وأعمى) ما لا يلاقي قوله { فَهَلْ عَسَيْتُمْ } [22]، ولا ما في حرف (إنْ) من زمان الاستقبال.

{ فَأَصَمَّهُمْ } استعير الصمم لعدم الانتفاع بالمسموعات من آيات القرآن ومواعظ النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ } استعير العمى هنا لعدم الفهم على طريقة التمثيل، لأنّ حال الأعمى أن يكون مضطربا فيما يحيط به لا يدري نافعه من ضاره إلّا بمعونة من يرشده، وكثر أن يقال: أعمى الله بصره، مرادا به أنّه لم يهده، وهذه هي النكتة في مجيء تركيب { وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ } مخالفا لتركيب { فَأَصَمَّهُمْ }.

وفي الآية إشعار بأنّ الفساد في الأرض وقطيعة الأرحام من شعار أهل الكفر، فهما جرمان كبيران يجب على المؤمنين اجتنابهما.

{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } [24].

تفريع على قوله { فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ } [23]، أي: هلّا تدبّروا القرآن عوض شغل بالهم في مجلسك بتتبّع أحوال المؤمنين. والاستفهام تعجيب من سوء علمهم بالقرآن ومن إعراضهم عن سماعه.

{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي. والمعنى: بل على قلوبهم أقفال.

التدبّر: التفهّم في دُبر الأمر، أي: ما يخفى منه، وهو مشتق من دُبر الشيء، أي: خلفه.

{ **قُلُوبٍ** } التنكير للتنويع أو التبعيض، أي: على نوع من القلوب أقفال.

الأقفال: جمع قُفل، وهو استعارة مكنية إذ شُبِّهت القلوب، أي: العقول، في عدم إدراكها المعاني بالأبواب أو الصناديق المغلقة.

{ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ } [25].

لم يزل الكلام على المنافقين، فالذين ارتدوا على أدبارهم منافقون.

<u>فيجوز أن يكون مرادا به قوم من أهل النفاق</u> كانوا قد آمنوا حقّا ثم رجعوا إلى الكفر لأنّهم كانوا ضعفاء الإيمان قليلي الاطمئنان، وهم الذين مثّلهم الله بقوله { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } [البقرة:17].

والإتيان بالموصول والصلة، على هذا الوجه، ليس إظهارا في مقام الإضمار لأنّ أصحاب هذه الصلة بعض الذين كان الحديث عنهم فيما تقدّم.

الارتداد على الأدبار: على هذا الوجه، تمثيل للراجع إلى الكفر بعد الإيمان بحال من سار ليصل إلى مكان ثمّ ارتد في طريقه. أي: إلى جهة الأدبار.

الهدى: الإيمان.

تبين الهدى لهم: على هذا الوجه، حقيقي لأنّهم ما آمنوا إلّا بعد أن تبيّن لهم هدى الإيمان.

<u>ويجوز أن يكون مرادا به جميع المنافقين</u>، عُبِّر عن تصميمهم على الكفر بعد مشاركتهم المسلمين في أحوالهم في مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم والصلاة معه وسماع القرآن والمواعظ بالارتداد لأنّه مفارقة لتلك الأحوال الطيّبة، أي: رجعوا إلى أقوال الكفر وأعماله، وذلك إذا خلوا إلى شياطينهم.

وتبين الهدى: على هذا الوجه، كونه بيّنا في نفسه، وهو بيِّن لهم لوضوح أدلته ولا غبار عليه، فهذا التبين من قبيل قوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2]، أي: ليس معه ما يوجب ريب المرتابين.

والأظهر عندي والأليق بقوله بعد { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ـ إلى قوله – وَأَدْبَارَهُمْ } [27/26]. أن يكون المراد به قوما من المنافقين لم يقاتلوا مع المسلمين بعد أن علموا أنّ القتال حقّ. وهذا قول ابن عباس والضحاك والسدي. وعليه فلعلّ المراد: الجماعة الذين انخذلوا يوم أحد مع عبد الله بن أبي بن سلول.

الارتداد على الأدبار على هذا الوجه، حقيقة لأنّهم رجعوا عن موقع القتال بعد أن نزلوا به فرجعوا إلى المدينة وكانت المدينة خلفهم.

الْهُدَى: على هذا الوجه هو الحقّ، أي: من بعد ما علموا أنّ الحقّ في قتال المشركين.

التسويل: تسهيل الأمر الذي يُستشعر منه صعوبة أو ضرّ، وتزيين ما ليس بحسن.

الإملاء: المدّ والتمديد في الزمان، ويطلق على الإبقاء على الشيء كثيرا، أي: أراهم الارتداد حسنا، كما حُكي عنه في قوله تعالى { قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى } [طه:120].

أي: أنّ ارتدادهم من عمل الشيطان.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ } [26].

استئناف بياني، إذ التقدير أن يسأل سائل عن مظهر تسويل الشيطان لهم الارتداد بعد أن تبيّن لهم الهدى. فأجيب بأنّ الشيطان استدرجهم إلى الضلال عندما تبين لهم الهدى، فسوّل لهم أن يوافقوا أهل الشرك والكفر في بعض الأمور مسوِّلا أنّ تلك الموافقة في بعض الأمر لا تنقض اهتداءهم فلمّا وافقوهم وأقاموا على ذلك وألفوه ارتدّوا على أدبارهم.

{ **قَالُوا** } قولا عن اعتقاد ورأي.

{ **لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ** } هم الذين كرهوا القرآن وكفروا، وهم: إمّا المشركون من أهل مكة، قال تعالى فيهم { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } [9]، وقد كانت لهم صلة بأهل يثرب، فلمّا هاجر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة اشتدّ تعهّد أهل مكة لأصحابهم من أهل يثرب ليتطلّعوا أحوال المسلمين، ولعلّهم بعد يوم بدر كانوا يكيدون للمسلمين ويتأهّبون للثأر منهم، وهو الذي أنجزوه يوم أحد.

وإمّا اليهود من قريظة والنضير، فقد حكى الله عنهم في قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } [الحشر:11].

{ **بَعْضِ الْأَمْرِ** } على الوجه الأول في محمل قوله { إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ } [25]، إفشاء بعض أحوال المسلمين إليهم وإشعارهم بوفرة عدد المنافقين، وإن كانوا لا يقاتلون لكراهتهم القتال.

وعلى الوجه الثاني بعض أمر القتال، يعنون تلك المكيدة التي دبّروها للانخذال عن جيش المسلمين.
أي: نطيعكم في بعض الكفر ولا نطيعكم في جميع الشؤون، لأنّ ذلك يفضح نفاقهم، أو المراد: في بعض ما تأمروننا به.
{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ** } إشارة إلى أنّ الله أطلع نبيّه صلى الله عليه وسلم على ما كان بينهم من تآمر.
وقرأ الجمهور { أَسْرَارَهُمْ } بفتح الهمزة جمع سِر. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بكسر الهمزة { إِسْرَارَهُمْ } مصدر أَسَرَّ.

{ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ } [27]

يجوز أن تكون (الفاء) للتفريع على جملة { إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ } [25] وما بينهما متصل بقوله تعالى { الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ } [25] بناء على المحمل الأوّل للارتداد (تمثيل للراجع إلى الكفر بعد الإيمان)، فيكون التفريع لبيان ما سيلحقهم من العذاب عند الموت، وهو استهلال لما يتواصل من عذابهم من مبدأ الموت إلى استقرارهم في العذاب الخالد.
ويجوز أن تكون الفاء فصيحة، على المحمل الثاني، وهو أنّ المراد: الارتداد عن القتال، فيفيد: إذا كانوا فرّوا من القتال هلعا وخوفا فكيف إذا توفتهم الملائكة، أي: كيف هلعهم ووجلهم يومئذ. وهذا يقتضي شيئين:
أوّلهما: أنّهم ميّتون لا محالة، وهو مأخوذ بدلالة الالتزام، وهو في معنى قوله تعالى { الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [آل عمران:168]، وقوله تعالى { وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } [التوبة:81].
ثانيهما: أن موتتهم يصحبها تعذيب. وهو صريح الكلام، وهو وعيد لتعذيب في الدنيا عند الموت.
والمقصود: وعيدهم بأنّهم سيُعجل لهم العذاب من أوّل منازل الآخرة وهو حالة الموت.
{ **فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ** } ولمّا جُعل هذا العذاب محقّقًا وقوعه رُتِّب عليه الاستفهام عن حالهم استفهاما مستعملا في معنى تعجيب المخاطب من حالهم عند الوفاة، وهذا التعجيب مؤذن بأنّها حالة فظيعة غير معتادة إذ لا يُتعجّب إلّا من أمر غير معهود، والسياق يدلّ على الفظاعة.
{ **إِذَا** } متعلّق بمحذوف دلّ عليه اسم الاستفهام، تقديره: كيف حالهم أو عملهم حين تتوفّاهم الملائكة؟
{ **يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ** } حال من { الْمَلَائِكَةُ }. والمقصود من هذه الحال: وعيدهم بهذه الميتة الفظيعة التي قدَّرها الله لهم. أي: يضربون وجوههم التي وَقَوْها من ضرب السيف حين فرّوا من الجهاد، ويضربون أدبارهم التي كانت محلَّ الضرب لو قاتلوا، وهذا تعريض بأنّهم لو قاتلوا لفرُّوا فلا يقع الضرب إلّا في أدبارهم.

{ ذَلِكَ بِأَنَّـهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَـهُمْ } [28]

الإشارة بـ { ذَلِكَ } إلى الموت الفظيع الذي دلّ عليه قوله { فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ } [27] كما تقدّم آنفا.

{ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ } هو اتباعهم الشرك. و**السخط** مستعار لعدم الرضى بالفعل.

كراهتهم رضوان الله: كراهتهم أسباب رضوانه، وهو الإسلام.

وفي الآية مُحسِّن الطباق مرتين للمضادة بين (السخط / الرضوان)، و(الاتباع / الكراهية).

{ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَـهُمْ } تفريع على اتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه.

الإحباط: إبطال العمل، أي: أبطل انتفاعهم بأعمالهم التي عملوها مع المؤمنين من قول كلمة التوحيد ومن الصلاة والزكاة وغير ذلك. وتقدّم ما هو بمعناه في أوّل السورة [9].

{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَـهُمْ } [29]

انتقال من التهديد والوعيد إلى الإنذار بأنّ الله مُطْلِع رسوله صلى الله عليه وسلم على ما يضمره المنافقون من الكفر والمكر والكيد ليعلموا أنّ أسرارهم غير خافية، فيوقنوا أنّهم يكدُّون عقولهم في ترتيب المكائد بلا طائل، وذلك خيبة لآمالهم.

{ **أَمْ** } منقطعة في معنى (بل) للإضراب الانتقالي، والاستفهام المقدَّر بعدها للإنكار.

{ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } استعير المرض إلى الكفر بجامع الإضرار بصاحبه، ولكون الكفر مقرّه العقل، المعبَّر عنه بالقلب، كان ذكر القلوب مع المرض ترشيحا للاستعارة، لأنّ القلب مما يناسب المرض الخفي.

{ **لَنْ** } لتأييد النفي، أي: لا يحسبون انتفاء إظهار أضغانهم في المستقبل، كما انتفى ذلك فيما مضى، فلعلّ الله أن يفضح نفاقهم.

الإخراج: أطلق على الإظهار والإبراز على وجه الاستعارة، لأنّ الإخراج استلال شيء من مكمنه.

الأضغان: جمع ضِغْن (بكسر الضاد المعجمة وسكون الغين المعجمة) وهو الحقد والعداوة.

المعنى: أنّه يخرجها من قلوبهم، وكان العرب يجعلون القلوب مقرّ الأضغان.

{ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّـهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ } [30].

{ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ } كان مرض قلوبهم خفيًّا لأنّهم يبالغون في كتمانه وتمويهه بالتظاهر بالإيمان، فذكر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أنّه لو شاء لأطلعه عليهم واحدا واحدا.

السِّيمَى (بالقصر): العلامة الملازمة، أصله: **وِسْمَى** بوزن فِعْلى، من **الوَسْم** وهو جعل سِمة للشيء.

وتقدّم عند قوله تعالى { تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ } [البقرة:273].

المعنى: لأريناك أشخاصهم فعرفتهم، أو لذكرنا لك أوصافهم فعرفتهم بها.

ثمّ يحتمل أنّ الله شاء ذلك وأراهم للرسول صلى الله عليه وسلم. فعن أنس: " ما خفي على النبيّ بعد هذه الآية شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم ". [ذكره البغوي والثعلبي بدون سند].

وممّا يُروى عن حذيفة ما يقتضي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عرّفه بالمنافقين أو ببعضهم.

ولكن إذا صح هذا فإنّ الله لم يأمر بإجرائهم على غير حالة الإسلام.

ويحتمل أنّ الله قال هذا إكراما لرسوله صلى الله عليه وسلم ولم يطلعه عليهم.

{ **فَلَعَرَفْتَهُمْ** } اللام تأكيد للام { لَأَرَيْنَاكَهُمْ } لزيادة تحقيق تفرّع المعرفة على الإراءة.

{ **وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** } هذا في معنى الاحتراس مما يقتضيه مفهوم { لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ } من عدم وقوع المشيئة لإراءته إيّاهم بنعوتهم.

المعنى: ترك الله تعريفه إياهم بسيماهم ووكّله إلى معرفتهم بلحن قولهم إبقاء على سنة الله تعالى في نظام الخلق بقدر الإمكان لأنّها سنة ناشئة عن الحكمة.

{ **وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ** } الـ (لام) هنا لام القسم المحذوف.

لحن القول: الكلام المحال به إلى غير ظاهره ليفطن له من يُراد أن يفهمه دون أن يفهمه غيره، بأن يكون في الكلام تعريض أو تورية أو ألفاظ مصطلح عليها بين شخصين أو فرقة، كالألفاظ العلمية.

كان المنافقون يخاطبون النبيّ صلى الله عليه وسلم بكلام تواضعوه فيما بينهم، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يأخذهم بظاهر كلامهم فنبّهه الله إليه، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ** } تذييل، فهو لعمومه خطاب لجميع الأمّة المقصود منه التعليم، وهو مع ذلك كناية عن لازمه وهو الوعيد لأهل الأعمال السيّئة على أعمالهم، والوعد لأهل الأعمال الصالحة على أعمالهم، وتنبيه لأهل النفاق بأنّ الله يوشك أن يفضح نفاقهم كما قال آنفا { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ } [29].

{ **يَعْلَمُ** } اجتلاب المضارع للدلالة على أنّ علمه تعالى بذلك مستمر.

{ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ } [31].

عطف على قوله { وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ } [30]. ومعناه معنى الاحتراس ممّا قد يتوهّم السامعون من الاستغناء عن التكليف. ووجه هذا الاحتراس أنّ علم الله يتعلّق بأعمال الناس بعد أن تقع ويتعلّق بها قبل وقوعها، بأنّها ستقع، ويتعلّق بعزم الناس على الاستجابة لدعوة التكاليف قوّة وضعفا، ومن عدم الاستجابة كفرا وعنادا.

فبيَّن بهذه الآية أنّ من حكمة التكاليف أن يظهر أثر علم الله بأحوال الناس وتقدّم الحجّة عليهم.
ولمّا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **إنّ الله كتب لكل عبد مقعده من الجنّة أو من النّار** ". فقالوا: أفلا نتكل على ما كتب لنا؟ قال: " **اعملوا فكلّ مُيسَّر لما خلق له** "، وقرأ { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } [الليل:5-10].

البلو: الاختبار وتعرّف حال الشيء.

{ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ** } مجاز مرسل واستعارة. فالمراد بالابتلاء هنا الأمر والنهي في التكليف، فإنّه يظهر به المطيع والعاصي والكافر، وسُمِّي ذلك ابتلاء على وجه المجاز المرسل لأنّه يلزمه الابتلاء وإن كان المقصود منه إقامة مصالح الناس ودفع الفساد عنهم لتنظيم أحوال حياتهم ثم ليترتّب عليه مئال الحياة الأبدية في الآخرة.
ولكن لمّا كان التكليف مُبيِّنا لأحوال نفوس الناس في الامتثال، وممحِّصًا لدعاويهم وكاشفًا عن دخائلهم كان مشتملا على ما يشبه الابتلاء، وإلّا فإنّ الله تعالى يعلم تفاصيل أحوالهم، ولكنّها لا تظهر للعيان للناس إلّا عند تلقّي التكاليف فأشبهت الاختبار. فإطلاق اسم الابتلاء على التكليف مجاز مرسل وتسمية ما يلزم التكليف من إظهار أحوال النفوس ابتلاء استعارة.

{ **حَتَّى** } حرف انتهاء، فما بعدها غاية للفعل الذي قبلها، وهي هنا مستعملة في معنى (لام التعليل) تشبيها لعلّة الفعل بغايته، فإنّ غاية الفعل باعث لفاعل الفعل في الغالب، كقوله تعالى { هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا } [المنافقون:7].

<u>فالمعنى</u>: ولنبلونكم لنعلم المجاهدين منكم والصابرين، وليس المراد انتهاء البلوى عند ظهور المجاهدين منهم والصابرين.

وعلة الفعل لا يلزم انعكاسها، أي: لا يلزم أن لا يكون للفعل علة غيرها فللتكليف علل وأغراض عديدة منها أن تظهر حال الناس في قبول التكليف ظهورا في الدنيا تترتب عليه معاملات دنيوية.

وعلمُ الله الذي جُعل علّة للبلو هو العلم بالأشياء بعد وقوعها المُسمَّى <u>علم الشهادة</u>، لأنّ الله يعلم من سيجاهد ومن يصبر من قبل أن يبلوهم ولكن ذلك علم غيب، لأنّه قبل حصول المعلوم في عالم الشهادة.

والأحسن أن يكون { حَتَّى نَعْلَمَ } مستعملا في معنى <u>حتّى نُظهر للناس الدعاوي الحق من الباطلة</u>، فالعلم كناية عن إظهار الشيء المعلوم بقطع النظر عن كون إظهاره للغير، كما هنا، أو للمتكلّم.

فالله شرع الجهاد لنصر الدين ومن شرعه يتبيَّن من يجاهد ومن يقعد، ويتبيَّن من يصبر على لأواء الحرب ومن ينخذل ويفر.

{ **وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** } ظهور الأحدوثة من حسن السمعة وضدّه. وهو كناية أيضا عن أحوال أعمالهم من خير وشرّ، لأنّ الأخبار إنّما هي أخبار عنها، وهذه علّة ثانية عطفت على قوله { حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ }.

وإنّما أعيد عطف فعل { نَبْلُوَ } على فعل { نَعْلَمَ } وكان مقتضى الظاهر أن يُعطف { أخباركم } بـ (الواو) على ضمير المخاطبين في { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ } ولا يعاد { نَبْلُوَ }، فالعدول عن مقتضى ظاهر النظم إلى هذا التركيب للمبالغة في بلو الأخبار لأنّه كناية عن بلو أعمالهم، وهي المقصود من بلو ذواتهم، فذكره كذكر العام بعد الخاص، إذ تعلّق البلو الأول بالجهاد والصبر، وتعلّق البلو الثاني بالأعمال كلّها، وحصل مع ذلك تأكيد البلو تأكيدا لفظيا.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ } [32]

الظاهر أن المعني بـ { الَّذِينَ كَفَرُوا } هنا الذين كفروا المذكورون في أوّل هذه السورة وفيما بعد من الآيات التي جرى فيها ذكر الكافرين، أي: الكفّار الصرحاء، عاد الكلام إليهم بعد الفراغ من ذكر المنافقين الذين يُخفون الكفر، عودا على بدء لتهوين حالهم في نفوس المسلمين.

فبعد أن أخبر الله أنّه أضلّ أعمالهم، وأنّهم اتّبعوا الباطل، وأمر بضرب رقابهم، وأنّ التعس لهم، وحقَّرهم بأنّهم يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، وأنّ الله أهلك قرى هي أشدّ منهم قوّة، ثم جرى ذكر المنافقين بعد ذلك، ثُنِي عنان الكلام إلى الذين كفروا أيضا **ليُعرِّف** الله المسلمين بأنّهم في هذه المآزق التي بينهم وبين المشركين لا يلحقهم منهم أدنى ضرّ، **وليزيد** وصف الذين كفروا بأنّهم شاقوا الرسول صلى الله عليه وسلم.

فالجملة استئناف ابتدائي وهي توطئة لقوله تعالى { فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ } [35].

{ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ } مشتق من كلمة **شِقٌّ** (بكسر الشين) وهو الجانب، والمشاقّة المخالفة، كُنِّي بالمشاقة عن المخالفة لأنّ المستقرّ بشقّ مخالف للمستقرّ بشقّ آخر، فكلاهما مخالف، فلذلك صيغت منه صيغة المفاعلة.

{ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى } ظهور ما في دعوة الإسلام من الحق الذي تدركه العقول إذا نُبّهت إليه، وظهور أنّ أمر الإسلام في ازدياد ونماء، وأنّ أمور الآخرين في إدبار، فلم يردعهم ذلك عن محاولة الإضرار بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين.

{ شَيْئًا } انتصب على المفعول المطلق لـ { يَضُرُّوا } والتنوين للتقليل، أي: لا يضرّون الله أقل ضرّ.

وإضرار الله أريد به إضرار دينه، لقصد التنويه والتشريف لهذا الدين، والإحالة أن ينالوا منه شيئا.

الإحباط: الإبطال كما تقدّم آنفا. ومعنى إبطال أعمالهم بالنسبة لأعمالهم في معاملة المسلمين، أنّ الله يلطف برسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين بتيسير أسباب نصرهم وانتشار دينه، فلا يحصل الذين كفروا من أعمالهم للصدّ والمشاقة على طائل. وهذا كما تقدّم في تفسير قوله { أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ } [1].

{ **وَسَيُحْبِطُ** } حرف الاستقبال هنا لتحقيق حصول الإحباط في المستقبل، وهو يدلّ على أنّ الله محبط أعمالهم من الآن، إذ لا يعجزه ذلك حتّى يترصّد به المستقبل. وهذا التحقيق مثل ما في قوله تعالى { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي } [يوسف:98].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ } [33]

اعتراض بين جملة { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ } [32] وبين جملة { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ } [34] وُجِّه به الخطاب إلى المؤمنين بالأمر بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وتجنّب ما يبطل الأعمال الصالحة اعتبارا بما حُكي من حال المشركين في الصدّ عن سبيل الله ومشاقّة الرسول صلى الله عليه وسلم.

<u>وصف الإيمان</u> في قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } مقابل وصف الكفر في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا } [32].

<u>وطاعة الله</u> مقابل الصدّ عن سبيل الله.

<u>وطاعة الرسول</u> ضدّ مشاقّة الرسول صلى الله عليه وسلم.

<u>والنهي عن إبطال الأعمال</u> ضدّ بطلان أعمال الذين كفروا.

{ **وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** } امتثال ما أمر به ونهى عنه من أحكام الدين. وأمّا ما ليس داخلا تحت التشريع فطاعة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فيه طاعة انتصاح وأدب، ألّا ترى أنّ (بريرة) لم تطع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مراجعة زوجها (مغيث) لمَّا علمت أنّ أمره إيّاها ليس بعزم.

الإبطال: جعل الشيء باطلا، أي: لا فائدة منه.

{ **وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ** } النهي عن أسباب إبطالها. وتسمح محامله بأن يشمل النهي والتحذير عن كلّ ما بيَّن الدين أنّه مبطل للعمل كُلًّا أو بعضًا؛ مثل الردّة، ومثل الرياء في العمل الصالح فإنّه يبطل ثوابه.

وكان بعض السلف يخشى أن يكون ارتكاب الفواحش مبطلا لثواب الأعمال الصالحة ويحمل هذه الآية على ذلك. وعن الحسن البصري والزهري: " لا تبطلوا أعمالكم بالمعاصي الكبائر ".

وأحسن أقوال السلف في ذلك ما روي عن ابن عمر قال: " كنَّا نرى أنّه ليس شيء من حسناتنا إلّا مقبولا حتّى نزل { وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ }. فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتّى نزل { إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } [النساء: 48] فكففنا عن القول في ذلك، وكنَّا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها ".

والذي جاء به القرآن وبيَّنته السنة الصحيحة أنّ الحسنات يذهبن السيئات ولم يجيء أن السيئات يذهبن الحسنات، { إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً } [النساء:40].

وحمل بعض علمائنا قوله تعالى { وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ } على معنى النهي عن قطع العمل المتقرّب به إلى الله تعالى. وإطلاق الإبطال على القطع وعدم الإتمام يشبه أنّه مجاز، أي: لا تتركوا العمل الصالح بعد الشروع فيه، فأخذوا منه أنّ النفل يجب بالشروع لأنّه من الأعمال، وهو قول أبي حنيفة في النوافل مطلقا. ونسب ابن العربي في الأحكام مثله إلى مالك. ولم ير الشافعي وجوبا بالشروع في شيء من النوافل **وهو الظاهر**.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } [34]

هذه الآية تكملة لآية { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ } [32]، لأنّ تلك مسوقة لعدم الاكتراث بمشاقهم ولبيان أنّ الله مبطل صنائعهم، وهذه مسوقة لبيان عدم انتفاعهم بمغفرة الله إذ ماتوا على ما هم عليه من الكفر، فهي مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

{ **فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** } اقتران خبر الموصول بـ (الفاء) إيماء إلى أنّه في معنى الشرط، فلا يراد به ذو صلة معيّن بل المراد كلّ من تحقّقت فيه ماهية الصلة، وهي الكفر والموت على الكفر.

{ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ } [35]

الفاء للتفريع على ما تقرَّر في نفوس المؤمنين من خذل الله تعالى المشركين، بما أخبر به من أنّه أضلّ أعمالهم وقدَّر لهم التعس، وبما ضرب لهم من مصائر أمثالهم من الذين من قبلهم، دمَّرهم الله وأهلكم ولم يجدوا ناصرا، وما وعد به المؤمنين من النصر عليهم، وما أمرهم به من قتالهم، وبتكفّله للمؤمنين بالولاية، وما وعدهم من الجزاء في دار الخلد، وبما أتبع ذلك من وصف كيد فريق المنافقين للمؤمنين وتعهّدهم بإعانة المشركين، وذلك مما يوجس منه المؤمنون خيفة إذ يعلمون أنّ أعداءً لهم منبثُّون بين ظهرانيهم.

فعلى ذلك كلّه فُرّع نهيهم عن الوهن وعن الميل الى الدعة، ووعدهم بأنّهم المنتصرون وأنّ الله مؤيّدهم.

ويجوز أن يُجعل التفريع على أقرب الأخبار المتقدمة وهو قوله تعالى { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ } [31].

{ **فَلا تَهِنُوا** } تحذير للإقدام على الحرب عند الأمر بها، وليس نهيا عن وهن حصل لهم ولا عن دعائهم إلى السَّلم، لأنّ هذه السورة نزلت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد في مدة لم يكن فيها قتال بين المسلمين والمشركين، ولكن التحذير من أن يستوهنهم المنافقون عند توجه أمر القتال. إذ كان من المتوقّع أن يكيد للمسلمين أعداؤهم من أهل يثرب فيظاهروا عليهم المشركين، متستّرين بعلة طلب السلم، فحذَّرهم الله من أن يقعوا في هذه الحبالة.

الوَهن: الضعف والعجز، وهو هنا مجاز في طلب الدعة. ومعناه: النهيّ عن إسلام أنفسهم لخواطر الضعف، وأوّلها الدعاء إلى السلم وهو المقصود بالنهي. والنهي عن الوهن يقتضي أنّهم لم يكونوا يومئذ في حال وهن.
{ **وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ** } عطف على { وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ } فهو معمول لحرف النهي، والمعنى: ولا تدعوا إلى السلم، وهو عطف خاص على عام من وجه، لأنّ الدعاء إلى السَّلم مع المقدرة من طلب الدعة لغير مصلحة. وإنّما خُصَّ بالذكر لئلَّا يُظنَّ أنّ فيه مصلحة استبقاء النفوس والعُدّة. فربّما ظنّ المسلمون أنّهم إن تداعوا معهم للسلم أمنوا منهم، وجعلوا ذلك فرصة لينشوا الدعوة، فعرَّفهم الله أنّ ذلك يعود عليهم بالمضرّة لأنّه يحطّ من شوكتهم في نظر المشركين فيحسبونهم طلبوا السلم عن ضعف فيزيدهم ذلك ضراوة عليهم، وتستخفّ بهم قبائل العرب بعد أن أخذوا من قلوبهم مكان الحرمة وتوقّع البأس.
ولهذا المقصد الدقيق جمع بين النهي عن الوهن والدعاء إلى السلم وأتبع بقوله { وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ }.
فتحصل ممّا تقرر أن الدعاء إلى السَّلم المنهي عنه هو طلب المسالمة من العدو في حال قدرة المسلمين وخوف العدو منهم، فهو سلم مقيّد بكون المسلمين داعين له وبكونه عن وهن في حال قوّة.
فهذا لا ينافي السلم المأذون فيه بقوله { وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا } [الأنفال:61]، فإنّه سلم طلبه العدو، فليست هذه الآية ناسخة لآية الأنفال ولا العكس ولكل حالة خاصة، ومقيّد بكون المسلمين في حالة قوّة ومنعة وعدّة بحيث يدعون إلى السلم رغبة في الدعة. فإذا كان للمسلمين مصلحة في السلم أو كان أخفّ ضرّا عليهم فلهم أن يبتدئوا إذا احتاجوا إليه وأن يجيبوا إليه إذا دعوا إليه.
وقد صالح النبيّ صلى الله عليه وسلم المشركين يوم الحديبية لمصلحة ظهرت فيما بعد، وصالح المسلمون في غزوهم أفريقية أهلها وانكفأوا راجعين إلى مصر. وقال عمر ابن الخطاب في كلام له مع بعض أمراء الجيش: فقد آثرت سلامة المسلمين.
{ **وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ** } عطف على النهي، عطف الخبر على الإنشاء، والخبر مستعمل في الوعد.
الأعلون: مبالغة في العلو. وهو هنا بمعنى الغلبة والنصر، أي: والله جاعلكم غالبين. كقوله تعالى لموسى عليه السلام { إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى } [طه:68].
{ **وَاللَّهُ مَعَكُمْ** } عطف على الوعد. والمعيّة معية الرعاية والكلاءة، أي: والله حافظكم وراعيكم فلا يجعل للكافرين عليكم سبيلا.
{ **وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ** } جملتان اسميّتان للدلالة على ثبات الغلب لهم وثبات عناية الله بهم.
{ **وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** } وعد بتسديد الأعمال ونجاحها، عكس قوله { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ } [1]، فكُنِّي عن توفيق الأعمال ونجاحها بعدم وترها، أي: نقصها، للعلم بأنّه إذا كان لا ينقصها فبالحري ألّا يبطلها، كقوله { وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ } [5/4].

{ **يَتِرَكُمْ** } يقال: وتره يتره وَتْرًا وتِرة كوعد، إذا نقصه، وفي حديث الموطأ: " **من فاتته صلاة العصر فكأنّما وُتر أهله وماله** ".

ويجوز أيضا أن يراد منه صريحه، أي: ينقصكم ثوابكم على أعمالكم، أي: الجهاد المستفاد من قوله { فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ }، فيفيد التحريض على الجهاد بالوعد بأجره كاملا.

{ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ [36] إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ [37] }.

{ **إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ** } تعليل لمضمون قوله { فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ } [35].

اللعب: الفعل الذي يريد به فاعله الهزل دون اجتناء فائدة، كأفعال الصبيان في مرحهم.

اللهو: العمل الذي يُعمل لصرف العقل عن تعب الجدّ في الأمور.

وهذا تحذير من أن يحملهم حبّ لذائذ العيش على الزهادة في مقابلة العدو.

وحبّ الفتى طول الحياة يذلّه ... وإن كان فيه نخوة وعِزَام

{ **وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ** }

الأشبه أنّ هذا عطف على قوله { فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ } [35]، تذكيرا بأنّ امتثال هذا النهي هو التقوى المحمودة، ولأنّ الدعاء إلى السلم قد يكون الباعث عليه حبّ إبقاء المال الذي ينفق في الغزو، فذُكّروا هنا بالإيمان والتقوى ليخلعوا عن أنفسهم الوهن، لأنّهم نهوا عنه وعن الدعاء إلى السَّلم.

على أنّ موقع هذه الجملة تعليل النهي المتقدّم بقوله تعالى { إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ } مشيرا إلى أنّ الحياة الدنيا إذا عمرت بالإيمان والتقوى كانت سببا في الخير الدائم.

الأجور: هنا أجور الآخرة، وهي ثواب الإيمان والتقوى.

{ **وَإِنْ تُؤْمِنُوا** } ووقوع { تُؤْمِنُوا } في حيّز الشرط مع كون إيمانهم حاصلا لإرادة الدوام على الإيمان، إذ لا تتقوّم حقيقة التقوى إلّا مع سبق الإيمان.

والمقصود من الجملة: قوله { وَتَتَّقُوا } وأمّا ذكر { وَإِنْ تُؤْمِنُوا } فللاهتمام بأمر الإيمان.

{ **يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ** } إدماج، والمقصود من جواب الشرط هو جملة { وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ }.

{ **وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ** } لمناسبة قوله تعالى { يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ }. أي: أنّ الله يتفضّل عليكم بالخيرات ولا يحتاج إلى أموالكم. فالقول يفيد بعمومه وسياقه معنى لا يسألكم جميع أموالكم، أي: إنّما يسألكم ما لا يُجحف بكم. فالمنفي سؤال إنفاق جميع الأموال، فالكلام من نفي العموم لا من عموم النفي بقرينة السياق.

ويجوز أن يفيد أيضا معنى: أنّه لا يطالبكم بإعطاء مال لذاته، فإنّه غني عنكم، وإنّما يأمركم بإنفاق المال لصالحكم، كما قال تعالى { وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ } [38].

وكانت هذه المناسبات أحسن روابط لنظم المقصود من هذه المواعظ لأنّ البخل بالمال من بواعث الدعاء إلى السلم كما علمت آنفا.

{ **إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ** } تعليل لنفي سؤاله إيّاهم أموالهم، أي: حتّى لا يكون تكليفكم بذلك سببا لإظهار ضغنكم على الذين لا يعطون، فيكثر الارتداد والنفاق، وذلك يخالف مراد الله من تزكية نفوس الداخلين في الإيمان.

وهذا أيضا مراعاة لحال كثير يومئذ بالمدينة، كانوا حديثي عهد بالإسلام وكانوا قد بذلوا من أموالهم للمهاجرين، فيسّر الله عليهم بأن لم يسألهم زيادة على ذلك، وكان بينهم كثير من أهل النفاق يترصّدون الفرص لفتنتهم، قال تعالى { هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا} [المنافقون:7]، وهذا يشير إليه عطف قوله { وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ }، أي: تحدث فيكم أضغان فيكون سؤاله أموالكم سببا في ظهورها فكأنّه أظهرها. وهذه الآية أصل في سد ذريعة الفساد.

الإحفاء: الإكثار وبلوغ النهاية في الفعل. يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئا من الإلحاح.

الضغن: العداوة، وتقدم آنفا عند قوله { أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ } [29].

{ **وَيُخْرِجْ** } الضمير المستتر عائد إلى اسم الجلالة، وجوز أن يعود الى البخل المأخوذ من قوله { تَبْخَلُوا }.

{ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [38]

{ **هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } نظم الكلام يقتضي: أنّ هذه دعوة للإنفاق في الحال وليس إعلاما لهم بأنّهم سيدعون للإنفاق، فهو طلب حاصل. فكيف موقعه بعد قوله تعالى { وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ }؟ فإنّ الدعوة للإنفاق عين سؤال الأموال، وكيف يُجمع بين ما هنا وبين قوله آنفا { وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ }؟

يجوز أن يحمل { تُدْعَوْنَ } على الترغيب، فتكون الآية تمهيدا للآيات المقتضية إيجاب الإنفاق في المستقبل مثل آية { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [التوبة:41] ونحوها.

ويجوز أن يكون إعلاما بأنّهم سيدعون الى الإنفاق في سبيل الله فيما بعد هذا الوقت، فيكون المضارع مستعملا في زمن الاستقبال، والمضارع يحتمله في أصل وضعه.

{ **فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ** } على الاحتمالين الكلام إمّا مسوق مساق التوبيخ أو

مساق التنبيه على الخطإ في الشح ببذل المال في الجهاد.

{ **فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ** } على الاحتمال الأول فإنّما يبخل عن نفسه إذ يتمكّن عدّوه من التسلط عليه فعاد بخله بالضر عليه، وعلى الاحتمال الثاني فإنّما يبخل عن نفسه بحرمانها من ثواب الإنفاق.

{ **إِنَّمَا** } قصر قلب باعتبار لازم بخله، لأنّ الباخل اعتقد أنّه منع من دعاه إلى الإنفاق ولكن لازم بخله عاد عليه بحرمان نفسه من منافع ذلك الإنفاق، فالقصر مجاز مرسل مركّب.

{ **يَبْخَلُ** } عُدِّي هنا بـ (عن) لما فيه من معنى الإمساك، ويتعدّى بـ (على) لما فيه من معنى التضييق على المبخول عليه.

{ **وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ** } تذييل، فالله الغني المطلق، والغنيّ المطلق لا يسأل الناس مالا في شيء.

{ **وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** } عطف على قوله تعالى { وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ } [36].

التولّي: الرجوع، واستعير هنا لاستبدال الإيمان بالكفر، ولذلك جُعل جزاؤه استبدال قوم غيرهم، كما استبدلوا دين الله بدين الشرك.

الاستبدال: التبديل، فالسين والتاء للمبالغة، ومفعوله { قَوْمًا } . والمستبدَل به محذوف دلّ على تقديره قوله تعالى { غَيْرَكُمْ }.

والمعنى: يتّخذ قوما غيركم للإيمان والتقوى. وهذا لا يقتضي أنّ الله لا يوجد قوما آخرين إلّا عند ارتداد المخاطبين، بل المراد: أنكم إن ارتددتم عن الدين كان لله قوم من المؤمنين لا يرتدّون، وكان لله قوم يدخلون في الإيمان ولا يرتدّون.

روى الترمذي عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله هذه الآية { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } قالوا: ومن يُستبدل بنا؟ قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان الفارسي ثم قال: " **هذا وقومه، هذا وقومه** ". قال الترمذي حديث غريب، وفي إسناده مقال.

وروى الطبراني في الأوسط هذا الحديث على شرط مسلم وزاد فيه: " **والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس** ".

وأقول: هو يدل على أنّ فارس إذا آمنوا لا يرتدّون، وهو من دلائل نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّ العرب ارتدّ منهم بعض القبائل بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم وارتد البربر بعد فتح بلادهم وإيمانهم اثنتي عشرة مرّة، فيما حكاه الشيخ أبو محمد ابن أبي زيد، ولم يرتد أهل فارس بعد إيمانهم.

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي لإفادة الاهتمام بصفة الثبات على الإيمان وعلوّها على مجرد الإيمان، أي: ولا يكونوا أمثالكم في التولّي.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفتح

سُمِّيت في كلام الصحابة (**سورة الفتح**). ووقع في صحيح البخاري عن عبد الله بن مغَفَّل (بغين معجمة مفتوحة وفاء مشدّدة مفتوحة) قال: قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكةّ سورة الفتح فرجَّع فيها.

ولا يُعرف لها اسم آخر.

وهي مدنية، على المصطلح المشهور في أنّ المدني ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله في مكان غير المدينة من أرضها أو من غيرها. وهذه السورة نزلت بموضع يقال له كُراع الغَمِيم (بضم الكاف من كُراع وبفتح الغين المعجمة وكسر الميم من الغميم) موضع بين مكة والمدينة، وهو واد على مرحلتين من مكة وعلى ثلاثة أميال من عُسفان، وهو من أرض مكة.

وقيل نزلت (بضَجْنان) وهو جبل قرب مكة، ونزلت ليلا فهي من القرآن الليلي.

ونزولها سنة ست بعد الهجرة مُنصرَف النبيّ صلى الله عليه وسلم من الحديبية وقبل غزوة خيبر.

وفي الموطإ عن عمر: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره (أي: مُنصرَفه من الحديبية) ليلا وعمر بن الخطاب يسير معه فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه، ثمّ سأله فلم يجبه، ثمّ سأله فلم يجبه، فقال: عمر ثكلت أم عمر نزرتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كلّ ذلك لا يجيبك. قال عمر: فحرَّكت بعيري وتقدّمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيَّ القرآن فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن، فجئت رسول الله فسلمت عليه، فقال:

" لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس"، ثم قرأ { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً }.

لما اشتملت عليه من قوله تعالى { لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ } [2].

وهي السورة الثالثة عشرة بعد المائة في ترتيب نزول السور في قول جابر بن زيد. نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة التوبة. **وعدّت آيها تسع وعشرون.**

أغراض السورة

*/ بشارة المؤمنين بحسن عاقبة صلح الحديبية، وأنّه نصر وفتح فنزلت به السكينة في قلوب المسلمين وأزال حزنهم من صدِّهم عن الاعتمار بالبيت، وكان المسلمون عُدَّةً لا تُغلب من قلّة فرأوا أنّهم عادوا كالخائبين فأعلمهم الله بأن العاقبة لهم، وأنّ دائرة السوء على المشركين والمنافقين.

*/ التنويه بكرامة النبيّ صلى الله عليه وسلم عند ربّه ووعده بنصر متعاقب.

*/ الثناء على المؤمنين الذين عزّروه وبايعوه، وأنّ الله قدم مَثَلهم في التوراة وفي الإنجيل.

*/ ذكر بيعة الحديبية والتنويه بشأن من حضرها.

*/ فضح الذين تخلّفوا عنها من الأعراب ولمزهم بالجبن والطمع وسوء الظن بالله، وبالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنعهم من المشاركة في غزوة خيبر، وإنبائهم بأنّهم سيدعون إلى جهاد آخر فإن استجابوا غُفر لهم تخلّفهم عن الحديبية.

*/ وعد النبيّ صلى الله عليه وسلم بفتح آخر يعقبه فتح أعظم منه وبفتح مكة.

{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً [1] لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً [2] وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً [3] }.

{ **إِنَّا فَتَحْنَا** } التأكيد مصروف للسامعين على طريقة التعريض، لما حلّ بالمسلمين من الكآبة بسبب الصلح، وأمّا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقد كان واثقا بذلك، وسيأتي تبيين هذا التأكيد قريبا.

الفتح: إزالة غلق الباب أو الخزانة، قال تعالى { لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ } [الأعراف:40]، ويطلق على النصر، وعلى دخول الغازي بلاد عدوّه، ولم يطلق على انتصار كانت نهايته غنيمة وأسر دون اقتحام أرض فيقال: فتح خيبر وفتح مكة ولا يقال: فتح بدر.

ولمراعاة هذا المعنى قال جمع من المفسّرين: المراد بالفتح هنا: **فتح مكّة**، وأنّ محمله على الوعد بالفتح.

أي: سنفتح. وإنّما جيء في الأخبار بلفظ الماضي لتحقّقه وتيقّنه. أو بمعنى: قدَّرنا لك الفتح، ويكون هذا الاستعمال من مصطلحات القرآن لأنّه كلام من له التصرّف في الأشياء لا يحجزه عن التصرف فيها مانع.

وقد جرى على عادة إخبار الله تعالى، لأنّه لا خلاف في إخباره، وذلك أيضا كناية عن علو شأن المخبر. مثله قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل:1].

وقيل: المراد بالفتح **صلح الحديبية** تشبيها له بفتح مكّة لأنّه توطئة له، فعن جابر بن عبدالله: " ما كنَّا نعدُّ فتح مكّة إلّا يوم الحديبية "، يريد أنّهم أيقنوا بوقوع فتح مكة بهذا الوعد. وعن البراء بن عازب: " تعدّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا، ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ". **والجمهور على ذلك.**

وجعلوا إطلاق اسم الفتح عليه مجازا مرسلا باعتبار أنّه آل إلى فتح خيبر وفتح مكة، أو كان سببا فيهما.

فعن الزهري: " لقد كان يوم الحديبية أعظم الفتوح، ذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم جاء إليها في ألف وأربعمائة فلمّا وقع صلح مشى الناس بعضهم في بعض، (أي: تفرقوا في البلاد) فدخل بعضهم أرض بعض من أجل الأمن بينهم، وعلموا وسمعوا عن الله فما أراد أحد الإسلام إلا تمكّن منه، فما مضت تلك السنتان إلّا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف ". وفي رواية: " فلمّا كانت الهدنة أمن الناس بعضهم بعضا فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة فلم يُكلَّم أحد يعقل بالإسلام إلّا دخل فيه ".

وقيل: هو **فتح خيبر** الواقع عند الرجوع من الحديبية كما في قوله { إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا } [15].

وعلى هذه المحامل فتأكيد الكلام بـ (إن) لمّا في حصول ذلك من تردّد بعض المسلمين أو تساؤلهم.

فعن عمر أنّه لما نزلت { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً } قال: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: **" نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح ".**

وروى البيهقي عن عروة بن الزبير قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية راجعا فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله ما هذا بفتح صُددنا عن البيت وصُدَّ هدينا. فبلغ رسول الله فقال: **" بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم الأمان وقد كرهوا منكم ما كرهوا ولقد أظفركم الله عليهم وردَّكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح، أنسيتم يوم أحد إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أُخراكم، أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون ".** فقال المسلمون: صدق الله ورسوله وهو أعظم الفتوح والله يا رسول الله ما فكّرنا فيما ذكرت، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منّا.

{ **فَتَحْنَا لَكَ** } واللام هنا لام العلّة، أي: فتحنا لأجلك فتحا عظيما. وتقديم المجرور قبل المفعول المطلق خلافا للأصل في ترتيب متعلّقات الفعل، لقصد الاهتمام والاعتناء بهذه العلّة.

{ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ** } بدل اشتمال من ضمير { لَكَ }. وجُعلت مغفرة الله للنبيّ صلى الله عليه وسلم علة للفتح لأنّها من جملة ما أراد الله حصوله بسبب الفتح، وليست لام التعليل مقتضية حصر الغرض من الفعل المعلّل في تلك العلة، فإنّ كثيرا من الأشياء تكون لها أسباب كثيرة فيُذكر بعضها ممّا يقتضيه المقام، وإذ قد كان الفتح لكرامة النبيّ صلى الله عليه وسلم على ربّه تعالى كان من علّته أن يغفر الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم مغفرة عامة إتماما للكرامة، فهذه مغفرة خاصة بالنبيّ صلى الله عليه وسلم هي غير المغفرة الحاصلة للمجاهدين بسبب الجهاد والفتح.

{ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ } أسند الفعل إلى اسم الجلالة العلم وكان مقتضى الظاهر أن يسند إلى الضمير المستتر قصدا <u>للتنويه بهذه المغفرة</u> لأنّ الاسم الظاهر أنفذ في السمع وأجلب للتنبيه، وذلك للاهتمام بالمسند وبمتعلّقه، لأنّ هذا الخبر أنف لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم علم به ولذلك لم يبرز الفاعل في { وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ }، لأنّ إنعام الله عليه معلوم وهدايته معلومة وإنّما أخبر بازديادهما.

<u>فالمعنى</u>: أنّ الله جعل عند حصول هذا الفتح غفران جميع ما قد يؤاخذ الله على مثله رسله حتّى لا يبقى لرسوله صلى الله عليه وسلم ما يقصر به عن بلوغ نهاية الفضل بين المخلوقات. فجعل هذه المغفرة جزاء له على إتمام أعماله التي أرسل لأجلها من التبليغ والجهاد والنصب والرغبة إلى الله.

فلما كان الفتح حاصلا بسعيه وتسببه بتيسير الله له ذلك جعل الله جزاءه غفران ذنوبه بعظم أثر ذلك الفتح بإزاحة الشرك وعلو كلمة الله تعالى وتكميل النفوس وتزكيتها بالإيمان وصالح الأعمال حتّى ينتشر الخير بانتشار الدين ويصير الصلاح خُلقا للناس يقتدي فيه بعضهم ببعض، وكلّ هذا إنّما يناسب فتح مكّة.

وهذا هو ما تضمَّنته سورة النصر { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً} [النصر:1-3]. ولهذا المعنى اللطيف الجليل كانت سورة النصر مؤذنة باقتراب أجل النبيّ صلى الله عليه وسلم، فيما فهم عمر بن الخطاب وابن عباس.

{ **مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** } تعميم المغفرة للذنب كقوله { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } [البقرة:255]. فلا يقتضي ذلك أنّه فرط منه ذنب أو أنّه سيقع منه ذنب وإنّما المقصود أنّه تعالى رفع قدره رفعة عدم المؤاخذة بذنب لو قُدِّر صدوره منه، وقد مضى شيء من بيان معنى الذنب عند قوله تعالى { وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} [محمد:19].

{ **وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ** } إعطاء ما لم يكن أعطاه إيّاه من أنواع النعمة، مثل إسلام قريش وخلاص بلاد الحجاز كلّها للدخول تحت حكمه، وخضوع من عانده وحاربه، وهذا ينظر إلى قوله تعالى { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي } [المائدة:3]، فذلك ما وُعد به الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآية وحصل بعد سنين.

{ **وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً** } يزيدك هديا لم يُسبق، وذلك بالتوسيع في بيان الشريعة والتعريف بما لم يسبق تعريفه، فالهداية إلى الصراط المستقيم ثابتة للنبيّ صلى الله عليه وسلم من وقت بعثته ولكنها تزداد بزيادة بيان الشريعة، وبسعة بلاد الإسلام وكثرة المسلمين ممّا يدعو إلى سلوك طرائق كثيرة في إرشادهم وسياستهم وحماية أوطانهم ودفع أعدائهم.

الصراط المستقيم: مستعار للدين الحقّ كما تقدّم في سورة الفاتحة.

{ **صِرَاطاً** } التنوين للتعظيم، وانتصب على أنّه مفعول ثان لـ (يهدي)، بتضمين معنى العطاء.

{ **وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً** } هو غير نصر الفتح المذكور لأنّه جُعل علّة الفتح، فهو ما كان من فتح مكة وما عقبه من دخول قبائل العرب في الإسلام بدون قتال. وبعثهم الوفود إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ليتلقّوا أحكام الإسلام ويعلّموا أقوامهم إذا رجعوا إليهم.

{ وَيَنْصُرَكَ **اللَّهُ** } أظهر اسم الجلالة ولم يكتف بالضمير اهتماما بهذا النصر وتشريعا له بإسناده إلى الاسم الظاهر لصراحة الظاهر، والكلام الظاهر أعلق بالذهن، كما تقدم في قوله تعالى { لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ }.

{ **نَصْراً عَزِيزاً** } مجاز عقلي، وإنّما العزيز هو النبيّ صلى الله عليه وسلم المنصور، **أو** أريد بالعزيز المُعِزُّ.

العزّة: المنعة.

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً } [4]

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ } بدل اشتمال من مضمون جملة { وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً }، وحصل منها الانتقال إلى ذكر حظ المسلمين من هذا الفتح، فإنّ المؤمنين هم جنود الله الذين قد نُصر النبيّ صلى الله عليه وسلم بهم، كما قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } [الأنفال:62]، فكان في ذكر عناية الله بإصلاح نفوسهم وإذهاب خواطر الشيطان عنهم وإلهامهم إلى الحقّ في ثبات عزمهم، وقرارة إيمانهم تكوين لأسباب نصر النبيّ صلى الله عليه وسلم والفتح الموعود به، ليندفعوا حين يستنفرهم إلى العدو بقلوب ثابتة.

ألا ترى أنّ المؤمنين تبلبلت نفوسهم من صلح الحديبية إذ انصرفوا عقبه عن دخول مكة بعد أن جاؤوا للعمرة بعدد عديد حسبوه لا يُغلب، وأنّهم إن أرادهم العدو بسوء أو صدّهم عن قصدهم قابلوه فانتصروا عليه وأنّهم يدخلون مكّة قسرا. وقد تعجّبوا من تسمية ما حلّ بهم يومئذ فتحا، كما علمت ممّا تقدّم، فلمّا بيَّن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما فيه من الخير اطمأنت نفوسهم بعد الاضطراب ورسخ يقينهم بعد خواطر الشك، فلولا ذلك الاطمئنان والرسوخ لبقوا كاسفي البال، فذلك الاطمئنان هو الذي سماه الله بـ { السَّكِينَةَ }.

{ أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ } إيقاعها في العقل والنفس وخلق أسبابها الجوهرية والعارضة، وأُطلق على ذلك الإيقاع فعل الإنزال تشريفا لذلك الوجدان بأنّه كالشيء الذي هو في مكان مرتفع فوق الناس فألقي إلى قلوبهم، وتلك رفعة تخييلية مراد بها شرف ما أثبتت له.

{ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ } لمّا أنزل الله عليهم السكينة اطمأنت نفوسهم، فزال ما خامرها وأيقنوا أنّه وعد الله وأنّه واقع فانقشع عنهم ما يوشك أن يشكّك بعضهم فيلتحق بالمنافقين الظانّين بالله ظنّ السوء.

وجُعل ذلك الازدياد كالعلّة لإنزال السكينة في قلوبهم، لأنّ الله علم أنّ السكينة إذا حصلت في قلوبهم رسخ إيمانهم، فعومل المعلوم حصوله من الفعل معاملة العلّة وأُدخل عليه حرف التعليل وهو (لام كي).

وجُعلت قوة الإيمان بمنزلة إيمان آخر دخل على الإيمان الأسبق.

فكان في ذلك الحادث خير عظيم لهم كما كان فيه خير للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن كان سببا لتشريفه بالمغفرة العامة ولإتمام النعمة عليه ولهدايته صراطا مستقيما ولنصره نصرا عزيزا، فأعظم به حدثا أعقب هذا الخير للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه.

{ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً } تذييل للكلام السابق لأنّه أفاد ألّا عجب في أن يفتح الله لك فتحا عظيما وينصرك على أقوام كثيرين أشدّاء نصرا صحبه إنزال السكينة في قلوب المؤمنين بعد أن

خامرهم الفشل وانكسار الخواطر، فالله من يملك جميع وسائل النصر وله القوة القاهرة في السماوات والأرض وما هذا نصر إلّا بعض ممّا لله من القوّة والقهر.

وجملة التذييل معترضة بين جملة { لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ } وبين متعلّقها وهو { لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ } [5]. وفيها إشارة إلى أنّ المؤمنين من جنود الله، وأنّ إنزال السكينة في قلوبهم تشديد لعزائمهم، فتخصيصهم بالذكر قبل هذا العموم وبعده تنويه بشأنهم.

{ **وَلِلَّهِ جُنُودُ** } أطلق على أسباب النصر الجنود تشبيها لأسباب النصر بالجنود التي تقاتل وتنتصر.

وتقديم المسند على المسند إليه لإفادة الحصر، وهو حصر ادعائي، إذ لا اعتداد بما يجمعه الملوك والفاتحون من الجنود لغلبة العدو بالنسبة لما لله من الغلبة لأعدائه والنصر لأوليائه.

فمن جنود السماوات: الملائكة الذين أُنزلوا يوم بدر، والريح التي أُرسلت على العدو يوم الأحزاب، والمطر الذي أُنزل يوم بدر فثبَّت الله به أقدام المسلمين.

ومن جنود الأرض: جيوش المؤمنين، وعديد القبائل الذين جاءوا مؤمنين مقاتلين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة مثل بني سليم، ووفود القبائل الذين جاؤوا مؤمنين طائعين دون قتال في سنة الوفود.

{ **وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً** } تذييل لما قبله من الفتح والنصر وإنزال السكينة في قلوب المؤمنين.

المعنى: أنّه عليم بأسباب الفتح والنصر، وعليم بما تطمئن به قلوب المؤمنين بعد البلبلة، وأنّه حكيم يضع مقتضيات علمه في مواضعها المناسبة وأوقاتها الملائمة.

{ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً } [5].

اللام للتعليل، متعلّقة بفعل { لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ } [4]، فتكون علّة لإنزال السكينة أيضا.

{ **وَالْمُؤْمِنَاتِ** } ذكر المؤمنات مع المؤمنين هنا لدفع توهّم أن يكون الوعد بهذا الإدخال مختصا بالرجال، توهّم قد يطرأ بكلّ تلك الملابسات (الفتح / النصر / الجنود). فقد كان للمؤمنات حظّ في ذلك لأنّهنّ لا يخلون من مشاركة في تلك الشدائد ممّن يقمنّ منهنّ على المرضى والجرحى وسقي الجيش وقت القتال، ومن صبر بعضهنّ على الثُّكل أو التأيُّم، ومن صبرهنّ على غيبة الأزواج والأبناء وذوي القرابة.

{ **وَكَانَ ذَلِكَ** } الإشارة إلى المذكور من إدخال الله إيّاهم الجنّة. والمراد إدخال خاص وهو إدخالهم منازل المجاهدين، وليس هو الإدخال الذي استحقّوه بالإيمان وصالح الأعمال الأخر. ولذلك عطف عليه { وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ }.

الفوز: مصدر، وهو الظفر بالخير والنجاح.
{ **عِنْدَ اللَّهِ** } متعلّق بـ { فَوْزًا }، أي: فازوا عند الله. بمعنى: لقوا النجاح والظفر في معاملة الله لهم بالكرامة. وتقديمه على متعلّقه للاهتمام بهذه المعاملة.

{ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً } [6].

الحديث عن جنود الله في معرض ذكر نصر الله يقتضي لا محالة فريقا مهزوما بتلك الجنود وهم العدو، فإذا كان النصر الذي قدَّره الله معلولا بما بشّر به المؤمنين، فلا جرم اقتضى أنّه معلول بما يسوء العدو وحزبه، فذكر الله من علّة ذلك النصر أنّه يعذِّب بسببه المنافقين حزبَ العدو، والمشركين صميمَ العدو.
{ **وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ** } عطف على { لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ }.
والمراد: تعذيب خاص زائد على تعذيبهم الذي استحقّوه بسبب الكفر والنفاق، وقد أومأ إلى ذلك قوله بعده { عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ }. والابتداء بذكر المنافقين في التعذيب قبل المشركين لتنبيه المسلمين بأنّ كفر المنافقين خفيّ، فربما غفل المسلمون عن هذا الفريق أو نسوه.
التعذيب: إيصال العذاب إليهم، وذلك صادق بعذاب الدنيا بالسيف، كما في قوله تعالى { يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ } [التوبة:14]، وبالوجل، وحذر الافتضاح، وبالكمد من رؤية المؤمنين منصورين سالمين، كما في قوله تعالى { قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ } [آل عمران:119]، وقوله تعالى { إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ } [التوبة:50]، وصادق بعذاب الآخرة، وهو ما خُصَّ بالذكر في آخر الآية بقوله { وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ }.
{ **وَالْمُنَافِقَاتِ** } نظير عطف { وَالْمُؤْمِنَاتِ } [5]، لأنّهن مشاركات في المكر والتدبير.
{ **الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ** } صفة للمذكورين، فإنّ حق الصفة الواردة بعد متعدِّد أن تعود إلى جميعه ما لم يكن مانع لفظي أو معنوي.
{ **ظَنَّ السَّوْءِ** } (بفتح السين) في قراءة الجميع. والمفتوح والمضموم مترادفان في أصل اللغة ومعناهما: المكروه. فهما لغتان مثل: الكَره والكُره، والضَّعف والضُّعف، والضُّرّ والضَّرّ، والبَأس والبُؤس.
المراد: ظنّهم بالله أنّه لم يعدِ الرسول صلى الله عليه وسلم بالفتح ولا أَمَره بالخروج إلى العمرة ولا يَقْدِر له النصر، لقلّة أتباعه وعزّة أعدائه.
{ **عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ** } دعاء أو وعيد، ولذلك جاءت بالاسمية لصلوحيَّتها لذلك.
{ **وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ** } إخبار عمَّا جَنَوْه من سوء فعلهم، فالتعبير بالماضي أظهر.

{ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً } [7]

هذا نظير ما تقدّم آنفا إلّا أن هذا أوثِر بصفة عزيز دون عليم لأنّ المقصود من ذكر الجنود هنا الإنذار والوعيد بهزائم تحلّ بالمنافقين والمشركين. فناسب صفة عزيز، أي: لا يغلبه غالب.

{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً [8] لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً [9] }.

لمّا أريد الانتقال من الوعد بالفتح والنصر، وما اقتضاه ذلك ممّا اتصل به ذكره، إلى تبيين ما جرى في حادثة الحديبية وإبلاغ كلّ ذي حظ من تلك القضية نصيبه المستحقّ؛ ثناء أو غيره، صُدِّر ذلك بذكر مراد الله من إرسال رسوله صلى الله عليه وسلم، ليكون كالمقدمة للقصّة، وذُكرت حكمة الله تعالى في إرساله ما له مزيد اختصاص بالواقعة المتحدَّث عنها، فذُكرت أوصاف ثلاثة: { شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً }.

الشاهد: المُخبر بتصديق أحد أو تكذيبه فيما ادّعاه أو أدّعي به عليه، وتقدّم في قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41]، وقوله تعالى { وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً } [البقرة:143]. وقدِّم وصف الشاهد لأنّه يتفرّع عنه الوصفان.

فالمعنى: أرسلناك في حال أنّك تشهد على الأمّة بالتبليغ بحيث لا يُعذر المخالفون عن شريعتك فيما خالفوا فيه، وتشهد على الأمم. وهذه الشهادة حاصلة في الدنيا وفي يوم القيامة.

{ وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً } ويترتّب على التبليغ الذي سيشهد به أنّه مُبشِّر للمطيعين، ونذير للعاصين.

{ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } يجوز أن تكون اللام في { لِتُؤْمِنُوا } لام كي مفيدة للتعليل ومتعلقة بفعل {أرسلناك }.

والخطاب يجوز أن يكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم مع أمّة الدعوة، أي: لتؤمن أنت والذين أُرسلت إليهم شاهدا ومبشرا ونذيرا، والمقصود الإيمان بالله. وأُقحم { وَرَسُولِهِ } لأنّ الخطاب شامل للأمّة وهم مأمورون بالإيمان به، ولأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يؤمن بأنّه رسول الله، ولذلك قال يوم حنين: **" أشهد أنّي عبد الله ورسوله "**، وصحّ أنّه كان يتابع قول المؤذن: أشهد أنّ محمدا رسول الله. وكان يقول في تشهّده: " وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ". ويجوز أن يكون الخطاب للناس خاصة.

ويجوز أن تكون الجملة معترضة، ويكون اللام في قوله تعالى { لِتُؤْمِنُوا } لام الأمر، وتكون الجملة استئنافا للأمر، كما في قوله تعالى { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ } [الحديد:7].

التعزير: النصر والتأييد، وتعزيرهم الله كقوله تعالى { إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ } [محمد:7].

التوقير: التعظيم.

التسبيح: الكلام الذي يدلّ على تنزيه الله تعالى عن كلّ النقائص. وقيل: كناية عن الصلوات الواجبة.

{ **وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ** } ضمائر الغيبة المنصوبة الثلاثة عائدة إلى اسم الجلالة، لأنّ إفراد الضمائر مع كون المذكور قبلها اسمين دليل على أنّ المراد أحدهما. والقرينة على تعيين المراد ذكر { وَتُسَبِّحُوهُ }.

وقال ابن عباس في بعض الروايات عنه: إن ضمير { وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ } عائد إلى { رَسُولِهِ }.

البُكرة: أول النهار. و**الأصيل**: آخره، وهما كناية عن استيعاب الأوقات بالتسبيح والإكثار منه.

وقد وقع في [الأحزاب: 46/45] نظير هذه الآية وهو قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النبيّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً } فزيد في صفات النبيّ صلى الله عليه وسلم هنالك { وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً }، ووجه ذلك:

أنّ آية الفتح وردت في سياق إبطال شك الذين شكّوا في أمر الصلح والذين كذّبوا بوعد الفتح والنصر، والثناء على الذين اطمأنّوا لذلك، فاقتصر من أوصاف النبيّ صلى الله عليه وسلم على الوصف الأصلي وهو أنّه شاهد على الفريقين، وكونه مبشّرا لأحد الفريقين ونذيرا للآخر.

وآية الأحزاب وردت في سياق تنزيه النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مطاعن المنافقين والكافرين في تزوّجه زينب بنت جحش بعد أن طلّقها زيد بن حارثة، بزعمهم أنّها زوجة ابنه، فناسب أن يُزاد في صفاته ما فيه إشارة إلى التمحيص بين ما هو من صفات الكمال وما هو من الأوهام الناشئة عن مزاعم كاذبة مثل التبنّي، فزيد كونه { دَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ }، أي: لا يتّبع مزاعم الناس ورغباتهم، وأنّه { سِرَاجاً مُنِيراً } يهتدي به من همّته في الاهتداء دون التقعير.

{ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً } [10]

شروع في الغرض الأصلي من هذه السورة، وهذه الجملة مستأنفة، والتأكيد للاهتمام، وصيغة المضارع في قوله { يُبَايِعُونَكَ } لاستحضار حالة المبايعة الجليلة لتكون كأنّها حاصلة في زمن نزول هذه الآية.

{ **إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** } قصر ادعائي، أنّ غاية البيعة وغرضها هو النصر لدين الله ورسوله، فنزل الغرض منزلة الوسيلة، فهم بايعوا الله لا الرسول. أي: لا يبايعون إلّا الله.

{ **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** } هيَّأت صيغة المبايعة لأن تُذكر بعدها الأيدي لأنّ المبايعة يقارنها وضع المبايع يده في يد المبايَع (بالفتح)، وممّا زاد هذا التخييل حسنا ما فيه من المشاكلة بين يد الله وأيديهم. والله منزّه عن اليد.

فالجملة مقرِّرة ومؤكِّدة لمضمون جملة { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ } المفيدة أنّ بيعتهم النبيّ صلى الله عليه وسلم في الظاهر هي بيعة منهم لله في الواقع، ولذلك جُرّدت الجملة عن حرف العطف.

المبايعة: أصلها مشتقّة من البيع، فهي مفاعلة لأنّ كلا المتعاقدين بائع، ونُقلت إلى معنى العهد على الطاعة والنصرة، قال تعالى { يَا أَيُّهَا النبيّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً} [الممتحنة:12] وهي هنا بمعنى العهد على النصرة والطاعة. وهي البيعة التي بايعها المسلمون النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية تحت شجرة من السَّمُر، وكانوا ألفا وأربعمائة على أكثر الروايات. وأوّل من بايع النبيّ صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة (أبو سنان الأسدي). وتسمى (**بيعة الرضوان**) لقول الله تعالى { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } [18].

وسبب البيعة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل عثمان بن عفان من الحديبية إلى أهل مكة ليفاوضهم في شأن التخلية بين المسلمين وبين الاعتمار بالبيت فأُرجف بأن عثمان قتل فعزم النبيّ صلى الله عليه وسلم على قتالهم لذلك ودعا من معه إلى البيعة على أن لا يرجعوا حتّى يناجزوا القوم، فكان جابر بن عبد الله يقول: بايعوه على ألّا يفرّوا، وقال سلمة بن الأكوع وعبد الله بن زيد: بايعناه على الموت. ولا خلاف بين هذين لأنّ عدم الفرار يقتضي الثبات إلى الموت.

ولم يتخلّف أحد ممن خرج مع النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية عن البيعة إلّا عثمان إذ كان غائبا بمكة للتفاوض في شأن العمرة، ووضع النبيّ صلى الله عليه وسلم يده اليمنى على يده اليسرى وقال: هذه يد عثمان، وإلّا الجدّ بن قيس السلمى اختفى وراء جَمَله حتّى بايع الناس، ولم يكن منافقا ولكنه كان ضعيف العزم. وقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أنتم خير أهل الأرض** ".

{ **فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ** } تفريع على جملة { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ }، فإنّه لمّا كُشف كنه هذه البيعة بأنّها مبايعة لله صار أمرها عظيما خطيرا في الوفاء بما وقع عليه التبايع وفي نكث ذلك.

النكث: كالنقض للحبل. قال تعالى { وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً } [النحل:92]. وغلب النكث في معنى <u>النقض المعنوي</u>، كإبطال العهد.

<u>المعنى</u>: أنّ نكثه عائد عليه بالضرّ، كما دلّ عليه حرف (على).

{ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } [11].

{ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ } لمّا حذَّر من النكث ورغَّب في الوفاء أتبع ذلك بذكر التخلّف عن الانضمام إلى جيش النبيّ صلى الله عليه وسلم حين الخروج إلى عمرة الحديبية وهو ما فعله الأعراب الذين كانوا نازلين حول المدينة وهم ست قبائل: (غفار / مزينة / جُهينة / أشجع / أسلم / الدِّيل) بعد أن بايعوه على الخروج معه.

فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا أراد المسير إلى العمرة استنفر من حول المدينة من القبائل ليخرجوا معه، فتثاقل أكثرهم. ولم يخرج معه من تلك القبائل إلّا القليل:

<u>خرج من جهينة</u>، زيد بن خالد الجهني .

<u>وخرج من أسلم</u>، مائة رجل، منهم مرداس بن مالك الأسلمي، والد عباس الشاعر، وعبد الله بن أبي أوفى، وزاهر ابن الأسود، وأُهبان (بضم الهمزة) بن أوس، وسلمة بن الأكوع الأسلمي.

<u>ومن غفار</u> خُفاف (بضم الخاء المعجمة) بن أَيْماء (بفتح الهمزة بعدها تحتية ساكنة)،

<u>ومن مزينة</u> عائذ بن عمرو.

وكان تخلّفهم عن ضعف إيمان لا عن نفاق. وأعدوا للمعذرة بعد رجوع النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم، فأخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بما بيَّتوه في قلوبهم، وفضح أمرهم من قبل أن يعتذروا. وهذه من معجزات القرآن بالإخبار عن أحداث قبل وقوعها.

<u>والمعنى</u>: أنّهم يقولون ذلك عند مرجع النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة معتذرين كاذبين في اعتذارهم.

{ الْمُخَلَّفُونَ } (بفتح اللام) هم الذين تخلَّفوا. وأطلق عليهم المخلَّفون، أي: غيرهم خلَّفهم وراءه، وليس ذلك بمقتض أنّهم مأذون لهم، بل المخلّف هو المتروك مطلقا. يقال: خلَّفنا فلانا، إذا مروا به وتركوه.

لأنّهم اعتذروا من قبل خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم فعذرهم، بخلاف الأعراب فإنّهم تخلّف أكثرهم بعد أن استُنفِروا ولم يعتذروا حينئذ.

الأموال: هنا الإبل.

أهلون: جمع أهل على غير قياس.

{ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا } اسأل لنا المغفرة من الله، فهو طلب حقيقي لأنّهم كانوا مؤمنين ولكنّهم ظنوا أن استغفار النبيّ صلى الله عليه وسلم لهم يمحو ما أضمروه من النكث وذهلوا عن علم الله بما أضمروه، كدأب أهل الجهالة.

{ **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** } في موضع الحال. ويجوز أن تكون بدل اشتمال من جملة { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ }. والمعنى: أنّهم كاذبون فيما زعموه من الاعتذار، وإنَّما كان تخلّفهم لظنّهم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يقصد قتال أهل مكة، أو أنّ أهل مكة مقاتلوه لا محالة، وأنّ الجيش الذين كانوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يستطيعون أن يغلبوا أهل مكة، فقد روي أنّهم قالوا: يذهب إلى قوم غزوه في عُقر داره [العُقر (بضم العين وفتحها): الأصل والمكان]. بالمدينة (يعنون غزوة الأحزاب) وقتلوا أصحابه فيقاتلهم.

{ **قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** }

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما فيه ردّ أمرهم إلى الله ليعلمهم أنّ استغفارهُ الله لهم لا يُوجب لهم المغفرة بل الله يفعل ما يشاء إذا أراده، فإن كان أراد بهم نفعا نفعهم وإن كان أراد بهم ضرًّا ضرّهم. وهذا الجواب لا وعد فيه من الله بأن يغفر لهم، إذ المقصود تركهم في حالة وجل ليستكثروا من فعل الحسنات. ثم سيتبعه بقوله { وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ } [14]، الذي هو أقرب إلى الإطماع. وتقدّم نظير هذا التركيب في قوله تعالى { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ } [المائدة:17].

{ **بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** } إضراب لإبطال قولهم { شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا }، وبه يزداد مضمون قوله تعالى { يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ } تقريرا لأنّه يتضمَّن إبطالا لعذرهم، ومن معنى الإبطال يحصل بيان الإجمال الذي في قوله تعالى { كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } إذ يفيد أنّه خبير بكذبهم في الاعتذار، فلذلك أبطل اعتذارهم بحرف الإبطال. وفي القول تهديد ووعيد.

{ **بِمَا تَعْمَلُونَ** } تقديمه على متعلّقه لقصد الاهتمام بذكر عملهم هذا. والمقصود: ما اعتقدوه وما اعتذروا به من أسباب تخلّفهم عن نفير الرسول صلى الله عليه وسلم. وكثيرا ما سمَّى القرآن الاعتقاد عملا.

{ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً } [12]

بدل اشتمال من جملة { بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } [11]، أي: خبيرا بما عملتم، ومنه ظنّكم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون. وأعيد حرف الإبطال زيادةً لتحقيق معنى البدلية. كما يُكرَّر العامل في المبدل منه.

الانقلاب: الرجوع إلى المأوى.

{ **لَنْ** } مفيد استمرار النفي، وأُكِّد بقوله { أَبَدًا } لأنّ ظنّهم كان قويًّا.

التزيين: التحسين، وهو كناية عن قبول ذلك، وإنَّما جُعل ذلك الظنّ مزينا في اعتقادهم لأنّهم لم يفرضوا غيره من الاحتمال، وهو أن يرجع الرسول صلى الله عليه وسلم سالما.
كانوا يقولون بين أقوالهم: " إنّ محمدا (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه أَكَلَة رأس، لا يرجعون ".
(أي: يُشبعهم رأس بعير، كناية عن القلّة). أي: هم قليل بالنسبة لقريش والأحابيش وكنانة، ومن في حلفهم.
{ **ظَنَّ السَّوْءِ** } أعمّ من ظنّهم أن لا يرجع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، أي: ظننتم ظنّ السوء بالدين وبمن بقي من الموقنين، لأنّهم جزموا باستئصال أهل الحديبية وأنّ المشركين ينتصرون ثم يغزون المدينة بمن ينضمّ إليهم من القبائل فيسقط في أيدي المؤمنين ويرتدّون عن الدين، فذلك ظنّ السوء.
السَوء: (بفتح السين) تقدّم آنفا في قوله تعالى { الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ } [6].
البُور: مصدر كـ (الهُلْك)، بناءً ومعنًى، ومثله **البَوار** (بالفتح) كالهَلاك. والمراد: الهلاك المعنوي، وهو عدم الخير والنفع في الدنيا والآخرة، نظير قوله تعالى { يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ } [التوبة:42].
{ **وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً** } أفاد التركيب أنّ البوار صار من مقوّمات قوميّتهم لشدّة تلبّسه بجميع أفرادهم.

{ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً } [13].

جملة معترضة بين أجزاء القول المأمور به في قوله { فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [11]، وقوله { وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [14]. وهذا الاعتراض للتحذير أن يفضي بهم تخاذلهم في الاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم والالتزام بنهجه، إلى دركات الكفر بعد الإيمان، إذ كان تخلُّفهم عن الخروج معه، وما علُّلوا به تثاقلهم، وإظهار عذر مكذوب أضمروا خلافه، كلّ ذلك حوما حول حمى الشك يوشكون أن يقعوا فيه.
{ **أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ** } إظهار في مقام الإضمار، لزيادة تقرير معنى { مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ }.
السعير: النار المُسَّعرة، وهو من أسماء جهنم.

{ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } [14]

عطف على جملة { فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [11]، فهو من أجزاء القول، وهذا انتقال من التخويف الذي تضمّنه { فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [11] إلى إطماعهم بالمغفرة التي سألوها، ولذلك قُدِّم الضرّ على النفع في الآية الأولى فقيل { إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً } ليكون احتمال إرادة الضرّ بهم أسبق في نفوسهم. وقُدِّمت المغفرة هنا ليتقرَّر معنى الإطماع في نفوسهم فيبتدروا إلى استدراك ما فاتهم.

وهذا تمهيد لوعدهم الآتي في قوله { قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ } [16].
{ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً** } تأكيد رجاء المغفرة. أي: الرحمة والمغفرة أقرب من العقاب.

{ **سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً** } [15].

هذا استئناف ثان بعد قوله { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا } [11]، وهو أيضا إعلام للنبيّ صلى الله عليه وسلم بما سيقوله المخلَّفون عن الحديبية، يتعلق بتخلّفهم وعذرهم الكاذب، وأنّهم سيندمون على تخلُّفهم حين يرون اجتناء أهل الحديبية ثمرة غزوهم. ويتضمّن قولهم { إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ } تأكيد تكذيبهم في اعتذارهم عن التخلّف، بأنّهم حين يعلمون أنّ هنالك مغانم من قتال غير شديد يحرصون على الخروج ولا تشغلهم أموالهم ولا أهاليهم.

{ **سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ** } ولكون هذه المقالة صدرت منهم عن قريحة ورغبة لم يؤت معها بمجرور (لك) كما أتي به في قوله آنفا { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ } [11]، لأنّ قولهم هنا قول رغبة صادقة غير التي كانت سابقا من أجل الترويج على النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا** } متعلق بـ { سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ }، وليس هو مقول القول. و{ إِذَا } ظرف للمستقبل، ووقوع فعل { انْطَلَقْتُمْ } في الماضي بعده، دون المضارع، مستعار لمعنى التحقيق.

{ **إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا** } المراد الخروج إلى غزوة خيبر، فأطلق عليها اسم مغانم مجازا. وفي هذا المجاز إيماء إلى أنّهم منصورون في غزوتهم. و{ لِتَأْخُذُوهَا } ترشيح للمجاز.

ذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا رجع من الحديبية إلى المدينة أقام شهر ذي الحجة (سنة ست / 6هـ) وأيَّامًا من محرّم (سنة سبع / 7هـ)، ثم خرج إلى غزوة خيبر ورام المخلَّفون عن الحديبية أن يخرجوا معه فمنعهم لأنّ الله جعل غزوة خيبر غنيمة لأهل بيعة الرضوان خاصة، جبرا لخواطرهم.

{ **مَغَانِمَ** } جمع مغنم وهو اسم مشتّق من **غَنِمَ** إذا أصاب ما فيه نفع له. كأنَّهم سمُّوه مغنما باعتبار تشبيه الشيء المَغْنُوم بمكان فيه غَنَمٌ فصيغ له وزن المَفْعَل.

{ **ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ** } أشعر القول بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم منعهم من الخروج معه، لأنّ الله أمره ألّا يخرج معه إلى خيبر إلّا من حضر الحديبية. وتقدّم اللفظ في قوله { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى } [غافر:26].

{ **نَتَّبِعْكُمْ** } حكاية لمقالتهم أظهروا بها أنّهم راضون بأن يكونوا في مؤخّرة الجيش كالأتباع، فيكون حظهم في مغانمه ضعيفا.

{ **يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ** } المراد بكلام الله ما أوحاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر خاصة لهم. وليس المراد بكلام الله هنا القرآن إذ لم ينزل في ذلك قرآن يومئذ. وقد أشرك مع أهل الحديبية من أُلحِق بهم من أهل هجرة الحبشة الذين أعطاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بوحي.

{ **قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ** } وجيء بـ (لن)، المفيدة تأكيد النفي، لقطع أطماعهم في الإذن لهم باتباع الجيش الخارج إلى خيبر، ولذلك حذف متعلق { تَتَّبِعُونَا } للعلم به.

{ **مِنْ قَبْلُ** } تقديره: من قبل طلبكم الذي تطلبونه، وقد أخبر الله عنهم بما سيقولونه بقوله { فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا } وقد قالوا ذلك بعد نحو شهر ونصف، فلمّا سمع المسلمون المتأهِّبون للخروج إلى خيبر مقالتهم قالوا: قد أخبرنا الله في الحديبية بأنّهم سيقولون هذا.

{ **فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا** } و(بل) هنا للإضراب عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم { لَنْ تَتَّبِعُونَا }، وهو إضراب إبطال نشأ عن فورة الغضب المخلوط بالجهالة وسوء النظر. أي: ليس بكم الحفاظ على أمر الله، ولكنّكم لا تريدوننا أن نقاسمكم المغانم حسدا لنا.

{ **تَحْسُدُونَنَا** } ضمير الرفع مراد به أهل الحديبية، نسبوهم إلى الحسد لأنهم ظنوا أنّ منعهم من المشاركة في الخروج إلى خيبر كان لعدم رضى أهل الحديبية بمشاركتهم في المغانم. ولا يُظنّ بهم أن يريدوا بذلك الضمير شمول النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ المخلفين كانوا مؤمنين لا يتّهمون النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحسد، ولذلك أبطل الله كلامهم بالإضراب الإبطالي { بَلْ كَانُوا }.

الحسد: كراهية أن ينال غيرك خيرا معينا أو مطلقا سواء كان مع تمنّي انتقاله إليك أو بدون ذلك. أريد به هنا الحرص على الانفراد بالمغانم وكراهية المشاركة فيها. وتقدّم عند قوله تعالى { حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ } [البقرة: 109].

{ **بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً** } أي: ليس قولك لهم ذلك لقصد الاستبشار بالمغانم لأهل الحديبية ولكنّه أمر الله وعده لأهل الحديبية، وتأديب للمخلفين ليكونوا عبرة لغيرهم فيما يأتي.

وإنّما نفى الله عنهم الفهم دون الإيمان لأنّهم كانوا مؤمنين ولكنهم كانوا جاهلين بشرائع الإسلام وأخلاقه.

{ **إِلَّا قَلِيلاً** } أي: إلّا فهما قليلا، وإنّما قلّله لكون فهمهم مقتصرا على الأمور الواضحة من العاديات لا ينفذ إلى المهمّات ودقائق المعاني.

{ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [16].

انتقال إلى طمأنة المخلَّفين بأنّهم سينالون مغانم في غزوات آتية ليعلموا أنّ حرمانهم من الخروج إلى خيبر مع جيش الإسلام ليس لانسلاخ الإسلام عنهم ولكنّه لحكمة وموعظة، فهو حرمان خاص بوقعة معيّنة، وأنّهم سيُدعون بعد ذلك إلى قتال قوم كافرين، كما تُدعى طوائف المسلمين. فذكْر هذا في هذا المقام إدخال للمسرّة بعد الحزن ليُزيل عنهم انكسار خواطرهم من جرّاء الحرمان.

وكلّ ذلك دال على أنّهم لم ينسلخوا عن الإيمان، ألا ترى أنّ الله لم يعامل المنافقين المبطنين للكفر بمثل هذه المعاملة في قوله تعالى { فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ } [التوبة:83].

{ مِنَ الْأَعْرَابِ } كُرّر الوصف هنا ليظهر أنّ هذه المقالة قُصد بها الذين نزل فيهم قوله تعالى { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا } [11]، فلا يتوهّم السامعون أنّ المعني بالمخلّفين كل من يقع منه التخلّف.

{ سَتُدْعَوْنَ } أُسند إلى المجهول لأنّ الغرض الأمر بامتثال الداعي، وهو وليّ أمر المسلمين، بقرينة قوله بعد في تذييله { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [17]، ودعوة وليّ الأمر ترجع إلى دعوة الله ورسوله، لقوله صلى الله عليه وسلم: **" ومن أطاع أمري فقد أطاعني "**.

وعُدّي الفعل بحرف (إلى) لإفادة أنّها مضمَّنة معنى المشي، وهذا فرق دقيق بين تعديته بذلك وبين تعديته بـ (اللام) نحو قولك: دعوت فلانا لما نابني. وقد يتعاقب الاستعمالان بضرب من المجاز والتسامح.

{ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ } يتعيَّن أنَّهم قوم من العرب، لأنّ قوله تعالى { تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ } يُشعر بأنّ القتال لا يُرفع عنهم إلّا إذا أسلموا، وإنّما يكون هذا حكما في قتال مشركي العرب إذ لا تُقبل منهم الجزية.

فيجوز أن يكون المراد هوازن وثقيف، وهذا مروي عن سعيد بن جبير، وعكرمة وقتادة، وتلك **غزوة حنين** وهي بعد غزوة خيبر، وأمّا فتح مكة فلم يكن فيه قتال.

{ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ } إمّا حال من ضمير { سَتُدْعَوْنَ }، وإمّا بدل اشتمال من مضمون { سَتُدْعَوْنَ }.

{ أَوْ } للترديد والتنويع، أي: تدعون إلى قتالهم وإسلامهم، وذلك يستلزم الإمعان في مقاتلتهم حتّى يسلموا.

{ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً } تحذير من المعاودة، والتنبيه بأنّ هذا التولّي يوقع في الإثم لأنّه عن دعوة إلى واجب وهو القتال للجهاد. فالتشبيه في قوله تعالى { كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ } تشبيه في مطلق التولّي لقصد التشويه وليس تشبيها فيما يترتب على ذلك التولي.

{ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً } [17].

جملة معترضة لنفي الوعيد عن أصحاب الضرارة تنصيصا على العذر للعناية بحكم التولّي والتحذير منه.

وهي تذييل لجملة { فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً } [16]، لما تضمنته من إيتاء الأجر لكل مطيع من المخاطبين وغيرهم، والتعذيب لكل متولّ كذلك، مع ما في الجملة من بيان أنّ الأجر هو إدخال الجنات، وهو يفيد بطريق المقابلة أنّ التعذيب الأليم بإدخالهم جهنم.

وقرأ نافع وابن عامر { نُدْخِلْهُ / نُعَذِّبْهُ } على الالتفات من الغيبة إلى التكلم. وقرأ الجمهور { يُدْخِلْهُ / يُعَذِّبْهُ } بالياء التحتية جريا على أسلوب الغيبة بعود الضمير إلى اسم الجلالة.

{ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً [18] وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً [19] }.

عود إلى تفصيل ما جازى الله به أصحاب بيعة الرضوان المتقدّم إجماله، فإنّ كون بيعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم تعتبر بيعة لله تعالى أومأ إلى أنّ لهم بتلك المبايعة مكانة رفيعة من خير الدنيا والآخرة، فلمّا قطع الاسترسال في ذلك بما كان تحذيرا من النكث وترغيبا في الوفاء، بمناسبة التضاد وذكر ما هو وسط بين الحالين وهو حال المخلَّفين، وإبطال اعتذارهم وكشف طويتهم، وإقصائهم عن الخير الذي أعدَّه الله للمبايعين، وأرجائهم إلى خير يسنح من بعد إن هم صدقوا التوبة وأخلصوا النية.

فقد أنال الله المبايعين رضوانه وهو أعظم خير في الدنيا والآخرة قال تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72]، والشهادة لهم بإخلاص النيّة، وإنزاله السكينة قلوبهم ووعدهم بثواب فتح قريب ومغانم كثيرة.

وهذه الآية هي سبب تسمية هذه البيعة **بيعة الرضوان**.

{ **يُبَايِعُونَكَ** } المضارع مستعمل في الزمان الماضي لاستحضار حالة المبايعة الجليلة، وكون الرضى حصل عند المبايعة ولم ينتظر به تمامها. فقد علمت أنّ السورة نزلت بعد الانصراف من الحديبية.

{ **تَحْتَ الشَّجَرَةِ** } تعريف العهد وهي الشجرة التي عهدها أهل البيعة حين كان النبيّ صلى الله عليه وسلم جالسا في ظلّها، وهي شجرة من شجر السَّمُر (بفتح السين المهملة وضم الميم) وهو شجر الطلح.

وقد تقدَّم أنّ البيعة كانت لمّا أُرْجف بقتل عثمان بن عفان بمكة. فعن سلمة بن الأكوع وعبد الله بن عمر، يزيد أحدهما على الآخر، بينما نحن قائلون يوم الحديبية وقد تفرّق الناس في ضلال الشجر إذ نادى عمر بن

الخطاب: أيّها الناس البيعة البيعة، فثار الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة فبايعوه كلهم إلّا الجدّ بن قيس.
فهذه الشجرة كانت معروفة للمسلمين وكانوا إذا مروا بها يصلُّون عندها تيمّنا بها إلى أن كانت خلافة عمر فأمر بقطعها خشية أن تكون كذات أنواط التي كانت في الجاهلية.
والمروي أنّ الذي بنى مسجدا على مكان الشجرة أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي ولكن في المسجد المذكور حجر مكتوب فيه: أمر عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله ببناء هذا المسجد (مسجد البيعة) وأنّه بُني سنة (244 هـ)، وهي توافق مدّة المتوكّل جعفر بن المعتصم. وقد تخرّب فجدَّده المستنصر العباسي سنة (629 هـ) ثم جدَّده السلطان محمود خان العثماني سنة (1254هـ) وهو قائم إلى اليوم.
{ **فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ** } الفاء ليست للتعقيب لأنّ علم الله بما في قلوبهم ليس عقب رضاه عنهم ولا عقب وقوع بيعتهم فتعيّن أن تكون فاء فصيحة تفصح عن كلام مقدّر بعدها. والتقدير: فلمّا بايعوك عُلِم ما في قلوبهم من الكآبة، ويجوز أن تكون الفاء لتفريع الأخبار بأنّ الله علم ما في قلوبهم بعد الإخبار برضى الله عنهم لما في الإخبار بعلمه ما في قلوبهم من إظهار عنايته بهم. ويجوز أن يكون المقصود من التفريع قوله { فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ } ويكون قوله { فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ } توطئة له على وجه الاعتراض.
والمقصود بإخبارهم بأنَّ الله علم ما حصل في قلوبهم من الكآبة أنّه قدَّر ذلك لهم، وشكرهم على حبّهم نصر النبيّ صلى الله علي وسلم بالفعل، ولذلك رتَّب عليه قوله { فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً }.
السكينة: هنا الطمأنينة والثقة بتحقّق ما وعدهم الله من الفتح، والارتياض على ترقُّبه دون حسرة، فترتَّب على علمه ما في قلوبهم إنزاله السكينة عليهم، أي: على قلوبهم.
{ **وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً** } عطف على فعل { رَضِيَ اللَّهُ }. والمراد: أنّه وعدهم بثواب هو فتح قريب ومغانم كثيرة. وهذا الفتح هو فتح خيبر، فإنّه كان خاصا بأهل الحديبية وكان قريبا من يوم البيعة بنحو شهر ونصف.
{ **وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا** } مغانم أرض خيبر والأنعام والمتاع والحوائط، فوصفت بـ { كَثِيرَةً } لتعدّد أنواعها، وهي أوّل المغانم التي كانت فيها الحوائط.
{ **وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً** } معترضة، وهي مفيدة تذييل لجملة { وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا } لأنّ تيسير الفتح لهم وما حصل لهم فيه من المغانم الكثيرة من أثر عزّة الله التي لا يتعاصى عليها شيء صعب، ومن أثر حكمته في ترتيب المسببات على أسبابها.

{ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً } [20].

{ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ } هذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا نشأ عن قوله { وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا } [19/18] إذ عُلم أنّه فتح خيبر، فحُقّ لهم ولغيرهم أن يخطر ببالهم أن يترقَّبوا مغانم أخرى فكان هذا الكلام جوابا لهم، أي: لكم مغانم أخرى لا يُحرم منها من تخلَّفوا عن الحديبية وهي المغانم التي حصلت في الفتوح المستقبلة.

فالخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمسلمين، وليس خاصا بالذين بايعوا. والوعد بالمغانم الكثيرة واقع في ما سبق نزوله من القرآن، وعلى لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ممَّا بلَّغه إلى المسلمين.

{ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا } لتحقيق الوعد.

{ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ } بناء على ما اخترناه من أنّ هذه السورة نزلت دفعة واحدة، يكون فعل { فَعَجَّلَ} مستعملا في الزمن المستقبل مجازا تنبيها على تحقيق وقوعه، أي: سيعجّل لكم هذه. وإنّما جعل نوالهم غنائم خيبر تعجيلا، لقرب حصوله من وقت الوعد به. ويحتمل أن يكون تأخّر نزول هذه الآية إلى ما بعد فتح خيبر على أنّها تكملة لآية الوعد التي قبلها، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر بوضعها عقبها.

{ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ } امتنان عليهم بنعمة غفلوا عنها حين حزنوا لوقوع صلح الحديبية وهي نعمة السلم. أي: كف أيدي المشركين عنهم، فإنّهم لو واجهوهم يوم الحديبية بالقتال لرجع المسلمون متعبين، ولما تهيَّأ لهم فتح خيبر، وأنّهم لو اقتتلوا مع أهل مكة لدُحِض في ذلك مؤمنون ومؤمنات كانوا في مكة، كما أشار إليه قوله تعالى { وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ } [25].

{ أَيْدِيَ النَّاسِ } أهل مكة، جريا على مصطلح القرآن في إطلاق هذا اللفظ غالبا.

وقيل: الإعراب من بني أسد وغطفان، كانوا أحلافا ليهود خيبر وجاءوا لنصرتهم لمَّا حاصر المسلمون خيبر فألقى الله في قلوبهم الرعب فنكصوا.

وقيل: إنّ المشركين بعثوا أربعين رجلا ليصيبوا من المسلمين في الحديبية فأسرهم المسلمون، وهو ما سيجيء في قوله { وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ } [24].

الكفّ: منع الفاعل من فعل أراده أو شرع فيه، وهو مشتقّ من اسم الكفّ التي هي اليد، لأنّ أصل المنع أن يكون دفعا باليد، ويقال: كفَّ يده عن كذا، إذا منعه من تناوله بيده. وأطلق الكف هنا مجازا على الصرف.

{ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً } الظاهر أنّ (الواو) عاطفة وأنّ ما بعدها علّة كما تقتضي (لام كي). والمعنى: أنّ الله أنزل السكينة في قلوب المؤمنين لمصالح لهم، منها ازدياد إيمانهم واستحقاقهم

الجنّة وتكفير سيّئاتهم واستحقاق المنافقين والمشركين العذاب، ولتكون السكينة آية للمؤمنين، ومعنى كونها آية أنّها سبب، لأنّهم لمّا نزلت السكينة في قلوبهم اطمأنت نفوسهم فخلصت إلى التدبّر والاستدلال فبانت لها آيات الله.

{ **وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً** } أي: ليزول بذلك ما خامركم من الكآبة والحزن فتتجرّد نفوسكم لإدراك الخير المحض الذي في أمر الصلح وإحالتكم على الوعد فتوقنوا أنّ ذلك هو الحقّ فتزدادوا يقينا.

ويجوز أن يكون فعل { وَيَهْدِيَكُمْ } مستعملا في معنى الإدامة على الهدى.

{ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً } [21]

هذا من عطف الجمل، فقوله { أُخْرَى } مبتدأ موصوف بجملة { لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا } والخبر قوله { قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا }، مجموع الجملة عطف على جملة { وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً } [20].

{ **وَأُخْرَى** } صفة لموصوف محذوف دلّ عليه { مَغَانِمَ } الذي في الجملة قبلها، أي: غير التي وعدهم الله بها.

{ **لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا** } أنّها موصوفة بعدم قدرتكم عليها. وليس يقتضي المعنى أنّهم حاولوا الحصول عليها فلم يقدروا، وإنّما المعنى: أنّ صفتها عدم قدرتكم عليها فلم تتعلّق أطماعكم بأخذها.

الإحاطة: بالهمز جعل الشيء حائطا، أي: حافظا، فأصل همزته للجعل وصار بالاستعمال قاصرا، ومعناه: احتوى عليه ولم يترك له منصرفا، فدلَّ على شدَّة القدرة عليه. أي: أحاط الله بها لأجلكم، وفي معنى الإحاطة إيماء إلى أنّها كالشيء المخبوء لهم. قال تعالى { لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ } [يوسف:66]، أي: إلّا أن تُغلبوا غلبا لا تستطيعون معه الإتيان به.

{ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً** } تذييل، إذ هو أمر مقرَّر في علمهم. فعُلم أنّ الآية أشارت إلى ثلاثة أنواع من المغانم:

*/ نوع من مغانم موعودة لهم قريبة الحصول، وهي مغانم خيبر.

*/ نوع هو مغانم مرجوّة كثيرة غير معيّن وقت حصولها، ومنها مغانم يوم حنين وما بعده من الغزوات.

*/ نوع هو مغانم عظيمة لا يخطر ببالهم نوالها قد أعدّها الله للمسلمين، ولعلها مغانم بلاد الروم وبلاد الفرس وبلاد البربر.

وفي الآية إيماء إلى أنّ هذا النوع الأخير لا يناله جميع المخاطبين لأنّه لم يأت في ذكره بضميرهم، وهو الذي تأوّله عمر في عدم قسمة سواد العراق، وقرأ قوله تعالى { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ } [الحشر:10].

{ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً [22] سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً [23] }.

عطف على قوله { وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ } [20]، على أنّ بعضه متعلّق بالمعطوف عليه، وبعضه معطوف على المعطوف عليه فما بينهما ليس من الاعتراض.

والمقصود من هذا العطف التنبيه على أنّ كفّ أيدي الناس عنهم نعمة على المسلمين باستبقاء قوّتهم وعدّتهم ونشاطهم. وليس الكفّ لدفع غلبة المشركين إيّاهم لأنّ الله قدَّر للمسلمين عاقبة النصر فلو قاتلهم الذين كفروا لهزمهم المسلمون ولم يجدوا نصيرا، أي: لم ينتصروا بجمعهم ولا بمن يعينهم.

{ الَّذِينَ كَفَرُوا } عَيْن ما أريد بالنّاس في قوله تعالى { وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ } [20]. وكان مقتضى الظاهر الإتيان بضمير الناس بأن يقال: ولو قاتلوكم، فعدل عنه إلى الاسم الظاهر لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو أنّ الكفر هو سبب تولية الإدبار في قتالهم للمسلمين، تمهيدا لقوله { سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ }.

التولية: جعل الشيء واليًا، أي: لجعلوا ظهورهم تليكم.

{ الْأَدْبَارَ } منصوب على أنّه مفعول ثان لـ { وَلَّوُا } ومفعوله الأوّل محذوف لدلالة ضمير { قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا } عليه. والتقدير: لولوكم الأدبار.

{ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً } للتراخي الرتبي، لأنّ المنهزم قد يكون له أمل بأن يستنصر من ينجده فإذا لم يجد وليًّا ولا نصيرا تحقّق أنّه غير منتصر. وأصل الكلام: لولّوا الأدبار وما وجدوا وليا ولا نصيرا.

الوليّ: الموالي والصديق، وهو أعم من النصير إذ قد يكون الولي غير قادر على إيواء وليّه وإسعافه.

{ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ } سنّ الله ذلك سنّة، أي: جعله عادة له ينصر المؤمنين على الكافرين إذا كانت نيّة المؤمنين نصر دين الله، كقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [محمد:7]، وقوله تعالى { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ } [الحج:40]. وإن كانوا قد يُغلبون في بعض المواقع كما وقع يوم أُحد، لذا جاء قوله تعالى { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [القصص:83]، وقوله تعالى { وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } [طه:132].

السنّة: الطريقة والعادة.

{ خَلَتْ } مضت وسبقت من أقدم عصور، والمضاف إليه { قَبْلُ } محذوف يدلّ عليه معنى الكلام.

{ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً } لمّا وُصف تلك السنة بأنّها راسخة فيما مضى أُعقب ذلك بوصفها بالتحقّق في المستقبل تعميما للأزمنة، لأنّ اطراد ذلك النصر في مختلف الأمم والعصور وإخبار الله تعالى به على لسان رسله وأنبيائه يدلّ على أن الله أراد تأييد أحزابه، فيُعلم أنّه لا يستطيع كائن أن يحول دون إرادة الله تعالى.

{ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً } [24]

عطف على جملة { وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ } [20]، وهذا كفّ غير الكفّ المذكور هناك.

{ **وَهُوَ الَّذِي** } تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة التخصيص، أي: القصر، أي: لم يكفّهم عنكم ولا كفّكم عنهم إلّا الله تعالى، لا أنتم ولا هم، فإنّهم كانوا يريدون الشرّ بكم، وأنتم حين أحطتم بهم كنتم تريدون قتلهم أو أسرهم.

واتفق المفسّرون الأوّلون على أنّ هذا الكف وقع في الحديبية. وهذا يشير إلى ما روي من طرق مختلفة وبعضها في سنن الترمذي: أنّ جمعا من المشركين يقدَّر بستة أو باثني عشر أو بثلاثين أو سبعين أو ثمانين، مسلّحين نزلوا إلى الحديبية يريدون أن يأخذوا المسلمين على غرّة ففطن لهم المسلمون فأخذوهم دون حرب، فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بإطلاقهم، وكان ذلك أيّام كان السفراء يمشون بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة، ولعلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أطلقهم تجنُّبا لمّا يعكّر صفو الصلح.

{ **بِبَطْنِ مَكَّةَ** } المعروف من إطلاق لفظ البطن إذا أضيف إلى المكان أن يراد به وسط المكان، كما في قول كعب بن زهير:

في فتية من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا

غير أن محمل ذلك في هذه الآية غير بيّن لأنّه لا يعرف وقوع اختلاط بين المسلمين والمشركين في وسط مكّة يفضي إلى القتال حتّى يمتنّ عليهم بكف أيدي بعضهم عن بعض، وكلّ ما وقع ممّا يفضي إلى القتال فإنما وقع في الحديبية. فجمهور المفسرين حملوا بطن مكة في الآية على الحديبية من إطلاق البطن على أسفل المكان، والحديبية قريبة من مكة وهي من الحلّ وبعض أرضها من الحرم وهي على الطريق بين مكة وجدّة وهي إلى مكة أقرب وتعرف اليوم باسم الشميسي، وجعلوا الآية تشير إلى القصة المذكورة في جامع الترمذي وغيره بروايات مختلفة وهي ما قدّمناه آنفا.

هذا كله بناء على أنّ الباء في قوله { بِبَطْنِ مَكَّةَ } متعلّقة بفعل { كَفَّ }، أي: كان الكفّ في بطن مكة.

ويجوز عندي أن يكون { بِبَطْنِ مَكَّةَ } ظرفا مستقرّا هو حال من ضميري { عَنْكُمْ } و{ عَنْهُمْ } وهو حال مقدَّرة، أي: لو كنتم ببطن مكة، أي: لو لم يقع الصلح فدخلتم محاربين كما رغب المسلمون الذين كرهوا الصلح كما تقدّم، فيكون إطلاق { بِبَطْنِ مَكَّةَ } جاريا على الاستعمال الشائع، أي: في وسط مدينة مكة.

ولهذا أوثرت مادة الظفر في قوله { مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ } دون أن يقال: من بعد أن نصركم عليهم، لأنّ الظفر هو الفوز بالمطلوب فلا يقتضي وجود قتال، فالظفر أعم من النصر، أي: من بعد أن أنالكم ما فيه

نفعكم، وهو هدنة الصلح، وأن تعودوا إلى العمرة في العام القابل.
{ **مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ** } يتعلّق بفعل { كَفَّ }. إشارة إلى أنّ كفّ أيدي بعضهم عن بعض كان للمسلمين إذ منُّوا على العدو بعد التمكّن منه. فعدي الفعل بـ (على) لتضمينه معنى أيَّدكم، وإلّا فحقّه أن يعدّى بـ (الباء).
{ **وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً** } تذييل للتي قبلها، والبصير بمعنى العليم بالمرئيّات، أي: عليما بعملكم حين أحطتم بهم وسقتموهم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم تظنون أنكم قاتلوهم أو آسروهم.

{ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَأُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [25].
{ **هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ** } استئناف، انتقل به من مقام الثناء على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما اكتسبوا بتلك البيعة من رضى الله تعالى وجزائه ثواب الآخرة، وخير الدنيا عاجله وآجله، وضمان النصر لهم في قتال المشركين، وما هيَّأ لهم من أسباب النصر، إلى تعيير المشركين بالمذّمة التي أتوا بها، وهي صدّ المسلمين عن المسجد الحرام، وصدّ الهدي عن أن يبلغ به إلى أهله، فإنّها سبّة لهم بين العرب، لأنّهم أولى الناس بالحفاوة بمن يعتمرون، وقد كان من عادتهم قبول كل زائر للكعبة من جميع أهل الأديان، فلا عذر لهم في منع المسلمين.
{ **هُمُ الَّذِينَ** } ضمير الغيبة عائد إلى الذين كفروا من قوله { وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ } [22].
والافتتاح بضميرهم هنا لاسترعاء السمع لما يرد بعده من الخبر.
والمقصود من الصلة هو جملة { صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } وذكر { الَّذِينَ كَفَرُوا } إدماج للنداء عليهم بوصف الكفر.
الهدي: ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام، وهو من التسمية باسم المصدر ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع.
قال تعالى { وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ } [المائدة:97]، أي: الأنعام المهدية وقلائدها، وهو هنا الجمع.
المعكوف: اسم مفعول عكفه، إذ ألزمه المكث في مكان، يقال: عكفه فعكف فيستعمل قاصرا ومتعدّيا. كما يقال: رجعه فرجع وجبره فجبر.
وفائدة ذكر هذا الحال التشنيع على الذين كفروا في صدّهم المسلمين عن البيت بأنّهم صدّوا الهدايا أن تبلغ محلّها حيث اضطرّ المسلمون أن ينحروا هداياهم في الحديبية فقد عطلوا بفعلهم ذلك شعيرة من شعائر الله.
ففي ذكر الحال تصوير لهيئة الهدايا وهي محبوسة.

{ **أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ** } يجوز أن يكون بدل اشتمال من { الهدي }، ويجوز أن يكون معمولا لحرف جرّ محذوف وهو (عن)، أي: عن أن يبلغ محله.

المحِل (بكسر الحاء): محلُّ الحِل، مشتقّ من فعل حَلَّ ضدّ حَرُم، أي: المكان الذي يحِل فيه نحر الهدي، وهو الذي لا يجزئ غيره، وذلك بمكّة بالمروة بالنسبة للمعتمر، ولذلك لمّا أحصِروا أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحروا هديهم في مكانهم إذ تعذَّر إبلاغه إلى مكة، لأنّ المشركين منعوهم من ذلك.

ولم يثبت في السنّة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمرهم بتوخّي جهة معينة للنحر من أرض الحديبية، وذلك من سماحة الدين فلا طائل من وراء الخوض في اشتراط النحر في أرض الحرم للمحصر.

{ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَأُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً }.

أتبع النعي على المشركين سوء فعلهم من الكفر والصدّ عن المسجد الحرام وتعطيل شعائر الله وَعْدَه المسلمين بفتح قريب ومغانم كثيرة، بما يدفع غرور المشركين بقوّتهم، ويُسْكن تطلّع المسلمين لتعجيل الفتح، فبيّن أنّ الله كف أيدي المسلمين عن المشركين، مع ما قرَّره آنفا من قوله { وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً } [22]، أنّه إنّما لم يأمر المسلمين بقتال عدوّهم لمّا صدّوهم عن البيت لأنّه أراد رحمة جمع من المؤمنين والمؤمنات كانوا في خلال أهل الشرك لا يعلمونهم، وعصم المسلمين من الوقوع في مصائب من جرّاء إتلاف إخوانهم.

{ **لَوْلا** } حرف امتناع لوجود، أي: امتنع تعذيبنا الكافرين لأجل وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات بينهم.

{ **لَمْ تَعْلَمُوهُمْ** } ليس هو خبرا بل وصفا ثانيا، إذ ليس محط الفائدة. أي: لم تعلموا إيمانهم، إذ كانوا قد آمنوا بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم مهاجرا.

قيل: هم سبعة رجال سُمِّي منهم الوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام، وعيّاش بن أبي ربيعة، وأبو جندل ابن سهيل، وأبو بصير القرشي، (ولم أقف على اسم السابع)، وعُدَّت أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب، وأحسب أنّ ثانيتهما أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط التي لحقت بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع إلى المدينة.

وعن حجر بن خلف: ثلاثة رجال وتسع نسوة، ولفظ الآية يقتضي أنّ النساء أكثر من اثنتين.

{ **أَنْ تَطَأُوهُمْ** } أي: لولا أن تطؤوهم.

الوطء: الدوس بالرجل، ويستعار للإبادة والإهلاك.

{ **فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ** } أي: فتلحقكم من جرّائهم ومن أجلهم معرّة كنتم تتقون لحاقها لو كنتم تعلمونهم.

المعرَّة: مصدر ميمي من عَرَّه، إذا دهاه، أي: أصابه بما يكرهه ويشقّ عليه من ضرّ أو غرم أو سوء قالة، فهي هنا تجمع ما يلحقهم إذا ألحقوا أضرارا بالمسلمين من ديّات قتلى، وغرم أضرار، ومن إثم يلحق القاتلين إذا لم يتثبّتوا فيمن يقتلونه، ومن سوء قالة يقولها المشركون ويشيعونها في القبائل أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم ينج أهل دينهم من ضرّهم، ليُكرهوا العرب في الإسلام وأهله.

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } الباء للملابسة، أي ملابسين لانتفاء العلم. والعلم المنفي هنا هو العلم بلحاق المعرّة من وطأتهم.

{ **لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ** } اللام للتعليل والمعلَّل واقع لا مفروض. أي: لولا وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لعذَّبنا الذين كفروا.

وقد رحمة الله بهذا الامتناع جيش المسلمين، بأن سلّمهم من معرّة تلحقهم، وأن أبقى لهم قوّتهم في النفوس والعدّة إلى أمد معلوم، ورحم المؤمنين والمؤمنات بنجاتهم من الإهلاك، ورحم المشركين بأن استبقاهم لعلّهم يسلمون أو يسلم أكثرهم، كما حصل بعد فتح مكة، ورحم من أسلموا منهم بعد ذلك بثواب الآخرة، فالرحمة هنا شاملة لرحمة الدنيا ورحمة الآخرة.

{ **مَنْ يَشَاءُ** } يعمّ كلّ من أراد الله من هذه الحالة رحمته في الدنيا والآخرة أو فيهما معا. وفي التركيب شمول لأصناف كثيرة مع الإيجاز، وفيه أيضا إشارة إلى الحكمة التي اقتضت مشيئة الله رحمة أولئك.

{ **لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً** } (لو) حرف امتناع لامتناع، أي تدل على امتناع جوابها لامتناع شرطها. وضمير { تَزَيَّلُوا } عائد إلى ما دل عليه قوله { وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ } من جمع مختلط فيه المؤمنون والمؤمنات مع المشركين، كما دلّ عليه قوله { لَمْ تَعْلَمُوهُمْ }.

التزيّل: مطاوع زيَّله إذا أبعده عن مكان، وزيَّلهم، أي: أبعد بعضهم عن بعض، أي فرّقهم، قال تعالى { فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ } [يونس:28]، وهو هنا بمعنى التفرّق والتميّز.

{ **لَعَذَّبْنَا** } إسناد التعذيب إلى الله تعالى لأنّه يأمر به ويقدّر النصر للمسلمين، كما قال تعالى { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ } [التوبة:14]. وعدل عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلّم على طريقة الالتفات.

المعنى: لو تفرّق المؤمنون والمؤمنات عن أهل الشرك لسلّطنا المسلمين على المشركين فعذَّبوا الذين كفروا عذاب السيف.

{ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً } [26].

{ **إِذْ** } ظرف متعلّق بفعل { صَدُّوكُمْ } [25]، أي: صدّوكم صدًّا لا عذر لهم فيه ولا داعي إليه إلّا حميّة الجاهلية، وإلّا فإنّ المؤمنين جاءوا مسالمين معظّمين حرمة الكعبة سائقين الهدايا لنفع أهل الحرم، فليس من الرشد أن يُمنعوا عن العمرة، ولكن حميّة الجاهلية غطَّت على عقولهم فصمَّموا على منع المسلمين، ثم آل النزاع بين الطائفتين إلى المصالحة على أن يرجع المسلمون هذا العام وعلى أنّ المشركين يمكِّنوهم من العمرة في القابل، أرادوا فقط التشفّي لما في قلوبهم من الإحن على المسلمين.

{ **جَعَلَ** } بمعنى وضع، والراجح أن يكون الضمير عائدا إلى اسم الجلالة في قوله تعالى { لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ } [25]، والعدول عن ضمير المتكلّم إلى ضمير الغيبة التفات.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } مفعول أوّل لـ { جَعَلَ }، و{ فِي قُلُوبِهِمْ } في محل المفعول الثاني، و{ الْحَمِيَّةَ } بدل اشتمال من { الَّذِينَ كَفَرُوا }، أي: تخلّقوا بالحميّة فهي دافعة بهم إلى أفعالهم لا يراعون مصلحة ولا مفسدة، فكذلك حين صدوكم عن المسجد الحرام.

{ **فِي قُلُوبِهِمْ** } متعلّق بـ { جَعَلَ }، أي: وضع الحمية في قلوبهم.

الحميَّة: الأنفة، أي: الاستنكاف من أمر لأنّه يراه غضاضة عليه، وأكثر إطلاق ذلك على استكبار لا موجب له، فإن كان لموجب فهو إباء الضيم.

{ **حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ** } عطف بيان للحميّة قصد من إجماله ثم تفصيله تقرير مدلوله وتأكيده. وإضافة الحميّة إلى الجاهلية لقصد تحقيرها وتشنيعها، فإنّها من خلق أهل الجاهلية، فإنّ ذلك انتساب ذمّ في اصطلاح القرآن، كقوله تعالى { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } [آل عمران:154]، وقوله تعالى { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ } [المائدة:50].

{ **فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ** } تفريع على { إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا }، يؤذن بأنّ المؤمنين ودُّوا أن يقاتلوا المشركين وأن يدخلوا مكة للعمرة عنوة غضبا من صدِّهم، ولكنّ الله أنزل عليهم السكينة.

السكينة: الثبات والأناة، أي: جعل في قلوبهم التأنّي وصرف عنهم العجلة، فعصمهم من مقابلة الحمية بالغضب والانتقام، فقابلوا الحميّة بالتعقّل والتثبّت، فكان في ذلك خير كثير.

وإضافة السكينة إلى ضمير الله تعالى إضافة تشريف لأنّ السكينة من الأخلاق الفاضلة فهي موهبة إلهية.

{ **إِذْ جَعَلَ / فَأَنْزَلَ - حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ / سَكِينَتَهُ** } من النكت المعنوية في هذه الآية مقابلة الجعل بالإنزال، فدل على تكريم المؤمنين، لأن الإنزال تخييل للرفعة، وإضافة السكينة إلى اسم ذاته زيادة تشريف وتكريم.

{ **وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى** } عطف على إنزال الله سكينته، أي: جعل كلمة التقوى لازمة لهم لا يفارقونها، ليكون إنزال السكينة في قلوبهم، مؤثرا فيهم عملا ظاهريا وهو ملازمتهم كلمة التقوى، كما كانت حميّة الجاهلية هي التي دفعت الذين كفروا إلى صدّ المسلمين عن المسجد الحرام.

{ **كَلِمَةَ التَّقْوَى** } إن حُملت على ظاهر معنى { كَلِمَةَ } كانت من قبيل الألفاظ، وإطلاق الكلمة على الكلام شائع، قال تعالى { إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } [المؤمنون:100] ففسّرت الكلمة هنا بأنها قول: لا إله إلا الله. وروي تفسيرها بذلك عند عدد كثير من الصحابة.

فيكون المعنى: أنّه قدّر لهم الثبات عليها، قولا بلفظها وعملا بمدلولها، إذ فائدة الكلام حصول معناه، كما في قوله تعالى { وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ } [الزخرف:28] يعني بها قول إبراهيم لأبيه وقومه { إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ } [الزخرف:27/26].

وعن الحسن: أنّ { كَلِمَةَ التَّقْوَى } الوفاء بالعهد، فيكون الإلزام على هذا بمعنى الإيجاب، أي: أمرهم بأن يفوا بما عاهدوا عليه للمشركين ولا ينقضوا عهدهم، فلذلك لم ينقض المسلمون العهد حتّى كان المشركون هم الذين ابتدأوا بنقضه.

{ **وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا** } واو الحال، أي: ألزمهم تلك الكلمة في حال كانوا فيه أحقّ بها وأهلها ممّن لم يلزموها وهم الذين لم يقبلوا التوحيد على نحو قوله تعالى { وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ } [البقرة:143]. وجيء بفعل كانوا لدلالتها على أنّ هذه الأحقية راسخة فيهم حاصلة في الزمن الماضي.

{ **وَأَهْلَهَا** } أهل الشيء مستحقّه، أي: أنّهم كانوا أهل كلمة التقوى لأنّها تناسب ضمائرهم وما انطوت عليه قلوبهم. وهذه الأهلية مثل الأحقية متفاوتة في الناس وكلّما اهتدى أحد من المشركين إلى الإسلام دلّ اهتداؤه على أنّه حصلت له هذه الأهلية للإسلام.

{ **وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** } تذييل، أي: وسبق في علم الله ذلك في عموم ما أحاط به علمه.

{ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً } [27].

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ } [26]، دحض به ما خامر نفوس فريق من الفشل أو الشك أو التحيّر، وذلك بتبيين ما أنعم الله به على أهل بيعة الرضوان من ثواب الدنيا والآخرة، وكشْف شبهة عرضت للقوم في رؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا قبل خروجه إلى الحديبية، أو وهو في الحديبية: كأنّه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وحلقوا وقصّروا. هكذا كانت الرؤيا مجملة ليس فيها وقوع حجّ ولا عمرة، فالحلق والتقصير مناسب لكليهما. وقصّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤياه على أصحابه فاستبشروا بها وعبّروها أنّهم داخلون إلى مكة بعمرتهم التي خرجوا لأجلها، فلمّا جرى الصلح وتأهّب الناس إلى القفول أثار بعض المنافقين ذكر الرؤيا، فقالوا: فأين الرؤيا؟ فوالله ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا وقصّرنا. فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: إنّ المنام لم يكن موقّتا بوقت وأنّه سيدخل، وأنزل الله تعالى هذه الآية.

المعنى: أن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حقّ، وأن الله أوحى إليه بها وأنّها وإن لم تقع في ذلك الحين فستُحقّق بعد ذلك. وكأنّ الحكمة في إراءة الله رسوله صلى الله عليه وسلم تلك الرؤيا أيامئذ وفي إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بها: أن الله أدخل بذلك على قلوبهم الثقة بقوّتهم لتربية الجراءة على المشركين في ديارهم، فتسلم قلوبهم من ماء الجبن.

{ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ** } التوكيد لإبطال شبهة المنافقين الذين قالوا: فأين الرؤيا؟

المعنى: أنّه أراه رؤيا صادقة، لأنّ رؤيا الأنبياء وحي، فآلت إلى معنى الخبر فوصفت بالصدق لذلك.

وهذا تطمين لهم بأنّ ذلك سيكون لا محالة وهو في حين نزول الآية لمّا يحصل بقرينة قوله { إِنْ شَاءَ اللَّهُ }.

الحقّ: الغرض الصحيح والحكمة، أي: كانت رؤيا صادقة وكانت مجعولة محكمة.

{ **لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ** } إلى آخرها، بيان لجملة { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ }، لأنّ معنى { لَتَدْخُلُنَّ } تحقيق دخول المسجد الحرام في المستقبل، فيُعلم منه أنّ الرؤيا إخبار بدخول لم يُعيّن زمنه، فهي صادقة فيما يتحقّق في المستقبل. وقد فهم ذلك أبو بكر إذ قال لهم: إنّ المنام لم يكن موقّتا بوقت وأنه سيدخل. وقد جاء في سورة يوسف { وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ } [يوسف:100].

{ **إِنْ شَاءَ اللَّهُ** } من شأنه أن يُذيَّل به الخبر المستقبل إذا كان حصوله متراخيا، ألا ترى أنّ الذي يقال له: افعل كذا، فيقول: أفعل إن شاء الله، لا يُفهم من كلامه أنّه يفعل في الحال أو في المستقبل القريب بل يفعله بعد زمن ولكن مع تحقيق أنّه يفعله.

ولذلك تأولوا قوله تعالى { وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ } [يوسف:99]، أن { إِنْ شَاءَ اللَّهُ } للدخول مع تقدير الأمن، لأنّه قال ذلك حين دخلوا مصر. أمّا ما هنا فهو من كلام الله فلا يناسبه هذا المحمل.

والموعود به صادق بدخولهم مكة بالعمرة سنة سبع وهي عمرة القضية، فإنّهم دخلوا المسجد الحرام آمنين وحلق بعضهم وقصّر بعضهم غير خائفين، إذ كان بينهم وبين المشركين عهد، وذلك أقرب دخول بعد هذا الوعد، وصادق بدخولهم المسجد الحرام عام حجّة الوداع، وعدم الخوف فيه أظهر.

وأمّا دخولهم مكة يوم الفتح فلم يكونوا فيه محرمين.

{ **مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ** } حال من ضمير { آمِنِينَ }، كناية عن التمكّن من إتمام الحجّ والعمرة.
{ **لا تَخَافُونَ** } الجملة في موضع الحال مؤكِّدة لـ { آمِنِينَ } تأكيدا بالمرادف للدلالة على أنّ الأمن كامل محقَّق، وذلك إيماء إلى أنّهم يكونون أشدّ قوّة من عدوّهم الذي أمّنهم، وهذا يومئ إلى حكمة تأخير دخولهم مكة إلى عام قابل حيث يزدادون قوّة واستعدادا. وهو أظهر في دخولهم عام حجّة الوداع.
{ **فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا** } الفاء لتفريع الأخبار لا لتفريع المُخبَر به، لأنّ علم الله سابق على دخولهم وعلى الرؤيا المؤذنة بدخولهم، كما تقدم في قوله تعالى { فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ } [18].
{ **فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً** } في إيثار فعل (جعل) في هذا التركيب دون أن يقول: فتح لكم، أو نحوه، إفادة أنّ هذا الفتح أمره عجيب ما كان ليحصل مثله لولا تقدير الله. وصيغة الماضي لتنزيل المستقبل المحقَّق منزلة الماضي، أو لأن (جعل) بمعنى قدَّر.
<u>المعنى</u>: فجعل فتحا قريبا لكم زيادة على ما وعدكم من دخول مكة آمنين. وهذا الفتح أوّله هو فتح خيبر الذي وقع قبل عمرة القضية وهذا القريب من وقت الصلح.

{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً } [28]

زيادة تحقيق لصدق الرؤيا بأنّ الذي أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا الدين ما كان ليريه رؤيا غير صادقة. وبهذا يظهر لك حسن موقع الضمير والموصول، لأنّ الموصول يفيد العلم بمضمون الصلة غالبا.
{ **هُوَ** } الضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله تعالى { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا }. وهم يعلمون أنّ رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم وحي من الله. وفي هذا تذكير ولوم للمؤمنين الذين غفلوا عن هذا حين لم يجروا على موجب العلم بهما فخامرتهم ظنون لا تليق بمن يعلم أن رؤيا الرسول وحي. وفيه تعريض بالمنافقين الذين أدخلوا التردّد في قلوب المؤمنين.
{ **بِالْهُدَى** } الباء للمصاحبة وهو متعلق بـ { أَرْسَلَ }. <u>أطلق هنا على ما به الهدي</u>، كقوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2]، وقوله تعالى { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ } [البقرة:185].
{ **وَدِينَ الْحَقِ** } عطف على الهدى ليشمل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأحكام، أصولها وفروعها، ممّا أوحي به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم سوى القرآن من كلّ وحي بكلام لم يُقصد به الإعجاز، أو كان من سنّة الرسول صلى الله عليه وسلم.
<u>ويجوز</u> أن يكون المراد { بِالْهُدَى } أصول الدين، من اعتقاد الإيمان وفضائل الأخلاق التي بها تزكية النفس، وبـ { دِينَ الْحَقّ } شرائع الإسلام وفروعه.

{ **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** } اللام لتعليل فعل { أَرْسَلَ } ومتعلّقاته، أي: أرسله بذلك ليظهر هذا الدين على جميع الأديان الإلهية السالفة، ولذلك أكّد بـ { كُلِّهِ } لأنّه في معنى الجمع.

الإظهار: أصله مشتقّ من ظَهَر بمعنى بدا، فاستُعمل كناية عن الارتفاع الحقيقي ثم أطلق مجازا عن الشرف، فصار { لِيُظْهِرَهُ } بمعنى أعلاه، أي: ليشرّفه على الأديان كلّها، وهذا كقوله تعالى في حقّ القرآن { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [المائدة:48].

{ **وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً** } لمّا كان المقصود من قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى } الشهادة بأنّ الرؤيا صدق، وقع التذييل بهذه الجملة، أي: أجزأتكم شهادة الله بصدق الرؤيا إلى أن تروا تأويلها في الإبّان.

وتقدّم الكلام على نظيره في [النساء:79].

{ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** } [29].

{ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ** }

لمّا بيَّن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في رؤياه واطمأنّت نفوس المؤمنين أعقب ذلك بتنويه شأن الرسول صلى الله عليه وسلم والثناء على المؤمنين الذين معه.

{ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ** } خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو محمد. والمقصود بيان رسول الله من هو بعد أن أجرى عليه من الأخبار من قوله تعالى { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ - إلى قوله - لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ } [28/27] فيُعتبر السامع كالمشتاق إلى بيان من هذا المتحدَّث عنه بهذه الأخبار؟ فيقال له: محمد رسول الله، أي: هو محمد رسول الله. وهذا من العناية والاهتمام بذكر مناقبه صلى الله عليه وسلم.

<u>وفي هذا نداء على إبطال جحود المشركين رسالته حين امتنعوا من أن يُكتب في صحيفة الصلح هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. وقالوا: لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت.</u>

{ **وَالَّذِينَ مَعَهُ** } يجوز أن يكون مبتدأ و{ أَشِدَّاءُ } خبرا عنه وما بعده إخبار، <u>والمقصود</u>: الثناء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ **مَعَهُ** } أي: المصاحبة الكاملة بالطاعة والتأييد، كقوله تعالى { وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ } [المائدة:12].

والمراد: أصحابه كلّهم لا خصوص أهل الحديبية. وإن كانوا هم المقصود ابتداء فقد عُرفوا بصدق ما عاهدوا عليه الله، ولذلك لما انهزم المسلمون يوم حنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس: **" ناد يا أهل السَّمُرة ".**

{ **أَشِدَّاءُ** } جمع شديد، وهو الموصوف بالشدّة المعنوية، وهي صلابة المعاملة وقساوتها، قال تعالى في وصف النار { عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ } [التحريم:6].

الشدة على الكفار: هي الشدّة في قتالهم وإظهار العداوة لهم، وهذا وصف مدح لأنّ المؤمنين الذين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم كانوا هم فئة الحقّ ونشر الإسلام فلا يليق بهم إلّا إظهار الغضب لله، والحبّ في الله والبغض في الله من الإيمان.

وتكون أحكام الشدّة على الكفار من وجوب وندب وإباحة، وأحكام صحبتهم ومعاملتهم جارية على مختلف الأحوال، ولعلماء الإسلام فيها مقال، وقد تقدّم كثير من ذلك في [آل عمران:28] وفي [التوبة:9].

{ **رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** } وأمّا كونهم رحماء بينهم فذلك من رسوخ أخوّة الإيمان بينهم في نفوسهم. وقد وردت أخبار أخوّتهم وتراحمهم في مواضع كثيرة من القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي الجمع لهم بين هاتين الخلّتين المتضادتين، الشدّة والرحمة، إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنّهم يتصرّفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرّف الحكمة والرشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى ولا يندفعون إلى العمل بالجبلّة وعدم الرويّة. وفي هذا المعنى قوله تعالى { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } [المائدة:54].

{ **تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً** } الخطاب لغير معيّن بل لكلّ من تتأتّى رؤيته إياهم، أي: يراهم الرائي.

وإيثار صيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك منهم، أي: تراهم دائما ركعا سجدا. وهذا ثناء عليهم بشدّة إقبالهم على أفضل الأعمال المُزكّية للنفس، وهي الصلوات مفروضها ونافلتها، وأنّهم يتطلّبون بذلك رضى الله ورضوانه. وفي سوق هذا، في مساق الثناء، إيماء إلى أنّ الله حقّق لهم ما يبتغونه.

{ **سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ** } السِّيما: العلامة، وتقدّم عند قوله تعالى { تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ } [البقرة:273]، وهذه سيما خاصة هي من أثر السجود، واختُلف في المراد على ثلاثة أنحاء:

الأوّل: أنّها أثر محسوس للسجود. قال مالك: السِّيما هي ما يتعلّق بجباههم من الأرض عند السجود.

وقال السعيد وعكرمة: الأثر يكون في جبهة الرجل. وليس المراد أنّهم يتكلفون حدوث ذلك في وجوههم ولكنه يحصل من غير قصد بسبب تكرّر مباشرة الجبهة للأرض، فلا حرج على من حصل له ذلك إذا لم يتكلّفه، ولم يقصد به رياء.

الثاني: أنّها من الأثر النفسي للسجود. قال الأعمش: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار. وعن ابن عباس: هو حسن السمت. وعن مجاهد: هو نور من الخشوع والتواضع

الثالث: أنّها أثر يظهر في وجوههم يوم القيامة. أخرج الطبراني وابن مردويه عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله في قوله تعالى { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ } [29] **النور يوم القيامة "**، [سنده حسن].

وهو لا يقتضي تعطيل بقية الاحتمالات إذ كلّها محمودة، ولكن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر أعلاها.

وبذلك فسّر سعيد بن جبير والزهري، وعن ابن عباس في رواية: أنّها سيما تكون لهم يوم القيامة.

وقالوا: هي بياض يكون في الوجه يوم القيامة كالقمر ليلة البدر يجعله الله كرامة لهم.

{ **ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ** } الإشارة إلى المذكور من صفات الذين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم لأن السابق في الذكر بمنزلة الحاضر فيشار إليه بهذا الاعتبار، فاسم الإشارة مبتدأ و{ مَثَلُهُمْ } خبره.

المثل: يطلق على الحالة العجيبة، ويطلق على النظير، أي: المشابه. فإن كان هنا محمولا على الحالة العجيبة فالمعنى: أنّ الصفات المذكورة هي حالهم الموصوف في التوراة. فيحتمل أن في التوراة وصف قوم سيأتون ووصفوا بهذه الصفات، فبين الله بهذه الآية أنّ الذين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم هم المقصود بتلك الصفة العجيبة التي في التوراة.

{ **وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ** } ابتداء كلام جديد، ويكون الوقف على قوله { فِي التَّوْرَاةِ }.

وظاهر السياق يشير إلى تشبيه آخر جاء في الإنجيل، لعلّه ما في [إنجيل متّى، الإصحاح:13، الفقرة:3]:

" هو ذا الزارع قد خرج ليزرع (يعني عيسى عليه السلام) وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت الطيور وأكلته [...] وسقط الآخر على الأرض الجيدة، فأعطى ثمرة بعضٌ مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين [...] وأمَّا المزروع على الأرض الجيدة فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم، وهو الذي يأتي بثمر فيصنع بعضٌ مائة وبعضٌ ستين وآخر ثلاثين ".

والتشبيه يتضمّن نماء الإيمان في قلوبهم وبأنّهم يدعون الناس الى الدين حتّى يكثر المؤمنون، كما تُنبت الحبّة مائة سنبلة، وكما تنبت من النواة الشجرة العظيمة.

{ **أَخْرَجَ شَطْأَهُ** } استعارة، و**الشطء** (بهمزة في آخره وسكون الطاء): فراخ الزرع وفروع الحبة.

يقال: أشطأ الزرع، إذا أخرج فروعا.

{ **فَآزَرَهُ** } قوّاه، وهو من المؤازرة (بالهمز)، وهي المعاونة، وهو مشتق من اسم (الإزار) لأنّه يشدّ ظهر المتّزر به ويعينه شدّه على العمل والحمل، كذا قيل. والأظهر عندي عكس ذلك وهو أن يكون الإزار مشتقا اسمه من: آزر، لأنّ الاشتقاق من الأسماء الجامدة نادر لا يصار إلى دعائه إلّا إذا تعين.

وصيغة المفاعلة مستعارة لقوّة الفعل كما في قوله تعالى { وَبَارَكَ فِيهَا } .[فصلت:10].

{ **فَاسْتَغْلَظَ** } غلظ غلظا شديدا في نوعه، فالسين والتاء للمبالغة.

السوق: جمع ساق على غير قياس. وساق الزرع والشجرة: الأصل الذي تتفرّع منه الأغصان.

ومعنى هذا التمثيل: تشبيه حال بدء المسلمين ونمائهم حتّى كثروا.

{ **لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ** } تعليل لما تضمّنه تمثيلهم بالزرع الموصوف من نمائهم وترقّيهم في الزيادة والقوّة، لأنّ كونهم بتلك الحالة من تقدير الله لهم، فمثَّل بأنّه تعالى فعل ذلك ليغيظ بهم الكفار.

قال القرطبي: قال أبو عروة الزبيري (لعلّه سعيد بن عمر الزبيري المدني من أصحاب مالك ترجمه في المدارك ولم يذكر كنيته): كنّا عند مالك بن أنس فذكروا عنده رجلا ينتقص أصحاب رسول الله فقرأ مالك هذه الآية { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ } إلى أن بلغ قوله { لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ }، فقال مالك: " من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ".

قلتُ: رحم الله مالك بن أنس ورضي عنه ما أدق استنباطه.

{ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** } أعقب تنويه شأنهم والثناء عليهم بوعدهم بالجزاء على ما اتصفوا به من الصفات التي لها الأثر المتين في نشر ونصر هذا الدين.

{ **مِنْهُمْ** } يجوز أن تكون (من) للبيان كقوله { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ } [الحج:30]، وهو استعمال كثير، ويجوز إبقاؤه على ظاهر المعنى من التبعيض، لأنّه وعد لكلّ من يكون مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في الحاضر والمستقبل فيكون ذكر (من) تحذيرا، وهو لا ينافي المغفرة لجميعهم لأنّ جميعهم آمنوا وعملوا الصالحات، وأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم هم خيرة المؤمنين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحُجُرات

سُمِّيت في جميع المصاحف وكتب السنّة والتفسير (**سورة الحُجُرات**) وليس لها اسم غيره، ووجه تسميتها أنّها ذكر فيها لفظ الحُجُرات. ونزلت في قصّة نداء بني تميم رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته، فعُرفت بهذه الإضافة.

وهي مدنية باتفاق أهل التأويل، أي: ممّا نزل بعد الهجرة.

وهي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم، وكان نزولها سنة تسع.

وعدّ جميع العادّين آيها ثمان عشرة آية.

أغراض السورة

*/ تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في معاملته وخطابه ونداءه.

*/ وجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به، والتثبّت في نقل الخبر مطلقا، وأنّ ذلك من خلق المؤمنين.

*/ مجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين.

*/ تطرّقت إلى ما يحدث من التقاتل بين المسلمين، والإصلاح بينهم لأنّهم إخوة.

*/ ما أمر الله به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم في السر والعلانية.

*/ التحذير من بقايا خُلُق الكفر في بعض جفاة الأعراب تقويما لأود نفوسهم.

وهذه السورة هي أوّل سور المفصَّل (بتشديد الصاد)، ويُسمَّى المُحْكم على أحد أقوال في المذهب، وهو الذي ارتضاه المتأخرون من الفقهاء. والمفصَّل هو السور التي تُستحب القراءة ببعضها في بعض الصلوات الخمس على ما هو مبيّن في كتب الفقه.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [1].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } الافتتاح بنداء المؤمنين للتنبيه على أهمية ما يرد بعد ذلك النداء لتترقّبه أسماعهم بشوق. ووصفهم بـ { الَّذِينَ آمَنُوا } جار مجرى اللقب لهم مع ما يؤذن به أصله من أهليتهم لتلقي هذا النهي بالامتثال.

ذكر فخر الدين الرازي في تفسيره أنّ الله أرشد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي: (**إمّا** في جانب الله، **أو** جانب رسوله صلى الله عليه وسلم، **أو** بجانب الفسّاق، **أو** بجانب المؤمن الحاضر، **أو** بجانب المؤمن الغائب). فهذه خمسة أقسام، فذكر الله في هذه السورة خمس مرات { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } فأرشد في كل مرّة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة.

فهذا الآية هي النداء الأوّل اندرج فيه واجب الأدب مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، تعرض الغفلة عنه.

التقدّم: حقيقته المشي قبل الغير، وفعله المجرد: **قَدُمَ**. قال تعالى { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [هود:98].

ويقال: قدَّم بمعنى تقدَّم كأنَّه قدَّم نفسه، فهو مضاعف صار غير متعدّ.

{ لا تُقَدِّمُوا } { لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } أي: لا تتقدّموا. والتركيب تمثيل بتشبيه حال من يفعل فعلا دون إذن من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بحال من يتقدّم من يمشي معه ويتركه خلفه. ووجه الشبه الانفراد عنه في الطريق. <u>والنهي هنا للتحذير</u> إذ لم يسبق صدور فعل من أحد افتياتًا على الشرع.

وهذه الآية تؤيّد قول الفقهاء: إنّ المكلَّف لا يُقْدِم على فعل حتّى يعلم حكم الله فيه.

والمقصود من الآية النهي عن إبرام شيء دون إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر قبله اسم الله للتنبيه على أنّ مراد الله إنّما يّعرف من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد حصل من القول معنى اتبعوا الله ورسوله.

<u>وأرجح الروايات في سبب نزول الآية</u> ما رواه البخاري في صحيحه في قصّة وفد بني تميم بسنده إلى ابن الزبير قال: " قدم ركب من بني تميم على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر: أمِّر عليهم القعقاع بن معبد بن زُرارة. وقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس. قال أبو بكر: ما أردت إلّا خلافي (أو إلى خلافي)، قال عمر: ما أردت خلافك (أو إلى خلافك)، فتماريا حتّى ارتفعت أصواتهما في ذلك، فنزل { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ } [2/1] ".

وجُعلت هذه الآية في صدر السورة مقدَّمة على توبيخ وفد بني تميم حين نادوا النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات لأنّ ما صدر من بني تميم هو من قبيل رفع الصوت عند النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولأنّ مماراة أبي بكر وعمر وارتفاع أصواتهما كانت في قضية بني تميم.

فهي توطئة للنهي عن رفع الأصوات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهر له بالقول وندائه من وراء الحجرات. وكان هذا التقديم أيضا للاعتناء بتأديب من هو أولى بالتهذيب.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** } تكملة للنهي عن التقدّم بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ليدلّ على أنّ ترك إبرام شيء دون إذن الرسول صلى الله عليه وسلم من تقوى الله وحده.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } في موضع العلّة للنهي عن التقدّم بين يدي الله ورسوله وللأمر بتقوى الله.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ } [2].

إعادة النداء ثانيا للاهتمام بهذا الغرض والإشعار بأنّه غرض جدير بالتنبيه عليه بخصوصه حتّى لا ينغمر في الغرض الأول، فإنّ هذا من آداب سلوك المؤمنين في معاملة النبيّ صلى الله عليه وسلم، ومقتضى التأدّب بما هو آكد من المعاملات بدلالة الفحوى.

وهذا أيضا توطئة لقوله { إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [4]، وإلقاء لتربية ألقيت إليهم لمناسبة طرف من أطراف خبر وفد بني تميم.

الرفع: مستعار لجهر الصوت جهرا متجاوزا لمعتاد الكلام، شُبِّه جهر الصوت بإعلاء الجسم، على طريقة الاستعارة المكنية، أو شُبِّه إلقاء الكلام بجهر قوي بإلقائه من مكان مرتفع على طريقة الاستعارة التبعية.

{ **فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ** } ترشيح لاستعارة { لَا تَرْفَعُوا }، وهو فوق مجازي أيضا. وموقعها موقع الحال من { أَصْوَاتَكُمْ }، أي: متجاوزة صوت النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: متجاوزة المعتاد في جهر الأصوات.

<u>المعنى</u>: لا ترفعوا أصواتكم في مجلسه وبحضرته إذا كلّم بعضكم بعضا كما وقع في سبب النزول.

وفي صحيح البخاري قال ابن أبي مليكة: " كاد الخيّران أن يهلكا أبو بكر وعمر رفعا أصواتهما عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ".

وهذا النهي مخصوص بغير المواضع التي يؤمر بالجهر فيها كالأذان وتكبير يوم العيد.

{ **وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ** } نهي عن جهر آخر وهو الجهر بالصوت عند خطابهم الرسول صلى الله عليه وسلم لوجوب التغاير بين مقتضى قوله { لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ } ومقتضى هذا القول.

{ **لَهُ** } اللام لتعدية الفعل لأنّه في معنى: تقولوا، فدلّت اللام على أنَّ هذا الجهر يتعلّق بمخاطبته.

وفي هذا النهي ما يشمل صنيع الذين نادوا النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات، فيكون تخلّصا من

المقدِّمة إلى الغرض المقصود.
{ **أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ** } في محل نصب على نزع الخافض وهو (لام التعليل) وهذا تعليل للمنهي عنه لا للنهي، أي: أنّ الجهر له بالقول يُفضي بكم، إن لم تكفُّوا عنه، أن تحبط أعمالكم. فالتقدير: خشية أن تحبط أعمالكم.
الحبط: تمثيل لعدم الانتفاع بالأعمال الصالحة بسبب ما يطرأ عليها من الكفر، مأخوذ من حَبِطَت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها وتعتلّ وربما هلكت. وتقدّم في قوله تعالى { وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ } [المائدة:5].
وظاهر الآية التحذير من حبط جميع الأعمال لأنّ الجمع المضاف من صيغ العموم ولا يكون حبط جميع الأعمال إلّا في حالة الكفر لأنّ من الأعمال الإيمان.
فمعنى الآية: أنّ عدم الاحتراز من سوء الأدب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، بعد هذا النهي، قد يُفضي بفاعله إلى إثم عظيم يأتي على عظيم من صالحاته، و قد يفضي به إلى الكفر، لأنّ عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم يعوِّد النفس بالاسترسال فيه فلا تزال تزداد منه وينقص توقير الرسول صلى الله عليه وسلم من النفس وتتولّى من سيّء إلى أشد منه حتى يؤول إلى عدم الاكتراث بالتأدب معه وذلك كفر.
{ **وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ** } لأنّ المنتقل من سيّء إلى أسوأ لا يشعر بأنّه آخذ في التملِّي من السوء بحكم التعوّد بالشيء قليلا حتّى تغمره المعاصي وربما كان آخرها الكفر.
ففي القول تنبيه إلى مزيد الحذر من هذه المهلكات.
وليس عدم الشعور كائنا في إتيان الفعل المنهي عنه لأنّه لو كان كذلك لكان صاحبه غير مكلّف، لامتناع تكليف الغافل ونحوه.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** } [3].
استئناف بياني لأنّ التحذير السابق { أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ } [2] يثير في النفس سؤالا عن ضدّ حال الذي يرفع صوته. والتأكيد للاهتمام بمضمونه من الثناء عليهم وجزاء عملهم. وتفيد الجملة تعليل النهيين بذكر الجزاء عن ضد المنهي عنهما.
عن ابن عباس لمّا نزل قوله تعالى { لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ } [2] كان أبو بكر لا يكلّم رسول الله إلا كأخي السرار (أي: صاحب السر)، فأنزل الله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ }.

الغضّ: حقيقته خفض العين، أي: ألّا يحدّق بها إلى الشخص، وهو هنا مستعار لخفض الصوت والميل به إلى الإسرار.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى** } اسم الإشارة لتأكد الاهتمام بالمراد، مع ما فيه من التنبيه على أنّ المشار إليهم جديرون بالخبر المذكور بعده لأجل ما ذُكر من الوصف قبله.

الامتحان: الاختبار والتجربة، وهو افتعال من مَحَنَه، إذا اختبره، وصيغة الافتعال فيه للمبالغة.

{ **لِلتَّقْوَى** } لام العلّة، والتقدير: امتحن قلوبهم لأجل التقوى، أي: ليكونوا أتقياء، يقال: امتُحن فلان للشيء الفلاني. فيجوز أن يُجعل الامتحان كناية على تمكّن التقوى من قلوبهم وثباتهم عليها.

ويجوز أن يُجعل فعل { امْتَحَنَ } مجازا مرسلا عن العلم، أي: علم الله أنّهم متّقون، وعليه فتكون اللام من قوله { لِلتَّقْوَى } متعلّقة بمحذوف هو حال من قلوب، أي: كائنة للتقوى، فاللام للاختصاص.

{ **لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** } خبر { إِنَّ } وهو المقصود من الجملة المستأنفة وما بينهما اعتراض للتنويه بشأنه. وهذا الوعد والثناء يشملان ابتداء أبا بكر وعمر إذ كان كلاهما يكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم كأخي السرار.

{ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ [4] وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [5] }.

بيان لجملة { وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ } [2]، بيانا بالمثال وهو سبب النزول.

فهذا شروع في الغرض، وما سبقه كالمقدّمة والتوطئة، وإن كان في ترتيب الحصول لاحقا عن هذا.

وقد صادف هذا الترتيب المِحَزَّ، إذ كان نداؤهم من وراء الحجرات من قبيل الجهر للرسول صلى الله عليه وسلم بالقول كجهر بعضهم لبعض فكان النهي عن الجهر له بالقول تخلُّصا لذكر ندائه من وراء الحجرات.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ** } المراد بهم جماعة من وفد (بني تميم) جاءوا المدينة في (سنة 9هـ) وهي سنة الوفود، وكانوا سبعين رجلا أو أكثر. وكان سبب وفود هذا الوفد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّ (بني العنبر) منهم كانوا قد شهروا السلاح على خُزاعة، وقيل كانوا منعوا إخوانهم بني كعب بن العنبر بن عمرو بن تميم من إعطاء الزكاة، وكان بنو كعب قد أسلموا من قبل. والظاهر أنّهم أسلموا في سنة الوفود فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر بن سفيان ساعيا لقبض صدقات بني كعب، فمنعهم بنو العنبر فبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم عيينة بن حصن في خمسين من العرب ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري فأسر منهم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيّا. فجاء في أثرهم جماعة من رؤسائهم لفدائهم

فجاؤوا المدينة. وكان خطيبهم (عطارد بن حاجب بن زُراره)، وفيهم سادتهم: (الزبرقان بن بدر - عمرو بن الأهتم - الأقرع بن حابس - عيينة بن حصن الفزاري الغطفاني) وكان هذان الأخيران أسلما من قبل وشهدا مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة الفتح، ثم جاء معهم الوفد، فلمّا دخل الوفد المسجد وكان وقت القائلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم نائم في حجرته، نادوا جميعا وراء الحجرات: " يا محمد اخرج إلينا (ثلاثا) فإنّ مدحنا زَين، وإنّ ذمّنا شَين، نحن أكرم العرب ". (قولهم: إنّ مدحنا زَين، طريقة كانوا يستدرُّون بها العظماء للعطاء، سلكوا في عملهم هذا مسلك وفود العرب على الملوك والسادة، كانوا يأتون بيت الملك أو السيد فيطيفون به ينادون ليؤذن لهم، كما ورد في قصّة ورود النابغة على النعمان بن الحارث الغساني).

فلمّا خرج إليهم رسول الله قالوا: " جئناك نفاخرك فأْذن لشاعرنا وخطيبنا ". إلى آخر القصة.

وقولهم: نفاخرك، جروا فيه على عادة الوفود من العرب أن يذكروا مفاخرهم وأيّامهم، ويذكر الموفود عليهم مفاخرهم، وذلك معنى صيغة المفاعلة في قولهم: نفاخرك، وكان جمهورهم لم يزالوا كفَّارا حينئذ وإنَّما أسلموا بعد أن تفاخروا وتناشدوا الأشعار.

{ **الَّذِينَ يُنَادُونَكَ** } رجال هذا الوفد. قال ابن عطية: جميعهم نادوه، ووقع في حديث البراء بن عازب أنّ الذي نادى النداء هو الأقرع بن حابس، وعليه فإسناد فعل { يُنَادُونَكَ } إلى ضمير الجماعة مجاز عقلي عن نسبة فعل المتبوع إلى أتباعه، إذ كان الأقرع بن حابس مقدَّم الوفد. كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانا، وإنّما قتله واحد منهم، كما في قوله تعالى { وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً } [البقرة:72].

وهذا النداء وقع قبل نزول الآية فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار حالة ندائهم.

{ **مِنْ وَرَاءِ** } من الخلف، وهو جهة اعتبارية بحسب موقع ما يضاف إليه. مجاز في الجهة المحجوبة عن الرؤية. والمعنى: أنّ الحجرات حاجزة بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم فهم لا يرونه.

الحُجُرات: (بضمتين ويجوز فتح الجيم) جمع **حُجْرة** (بضم الحاء وسكون الجيم) وهي البقعة المحجورة، أي: التي مُنعت من أن يستعملها غير حاجِرها، فهي فعلة بمعنى مفعولة. وفي الحديث: " **أيقظوا صواحب الحُجر** "، يعني أزواجه.

وكانت الحجرات تفتح إلى المسجد، وكانت تسعا وهي من جريد النخل، أي: الحواجز التي بين كل واحدة والأخرى، وعلى أبوابها مسوح من شعر أسود. قال الحسن البصري: " كنت أدخل بيوت أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي ".

{ **أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** } نفي العقل عنهم مراد به عقل التأدّب الواجب في معاملة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وليس فيها تحريم ولا ترتّب ذنب. وإنّما قال الله تعالى { أَكْثَرُهُمْ } لأنّ منهم من لم يناد النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل ندائهم، ولعلّ المقصود استثناء اللذين كانا أسلما من قبل.

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ } أي: أنّه يكسبهم وقارا بين أهل المدينة ويستدعي لهم الإقبال من الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يخرج إليهم غير كاره لندائهم إيّاه، ورفع أصواتهم في مسجده، فكان فيما فعلوه جلافة.

{ خَيْرًا } يجوز أن يكون اسم تفضيل، ويكون المعنى: لكان صبرهم أفضل من العجلة. ويجوز أن يكون اسما ضدّ الشرّ، أي: لكان صبرهم خيرا لما فيه من محاسن الخُلق، بخلاف ما فعلوه فليس فيه خير.

وعلى الوجهين فالآية تأديب لهم وتعليمهم محاسن الأخلاق وإزالة العوائد الجاهلية الذميمة.

{ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } إشارة إلى أنّه تعالى لم يُحْصِ عليهم ذنبا فيما فعلوا ولا عرَّض لهم بتوبة.

أي: والله شأنه التجاوز عن مثل ذلك رحمة بالناس، لأنّ القوم كانوا جاهلين.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } [6]

هذا نداء ثالث ابتدئ به غرض آخر وهو آداب جماعات المؤمنين بعضهم مع بعض، وقد تضافرت الروايات عند المفسّرين عن أم سلمة وابن عباس والحارث بن ضرارة الخزاعي أنّ هذه الآية نزلت عن سبب قضية حدثت. ذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق من خُزاعة ليأتي بصدقاتهم فلمّا بلغهم مجيئه، أو لما استبطأوا مجيئه، فإنّهم خرجوا لتلقّيه، أو خرجوا ليبلِّغوا صدقاتهم بأنفسهم وعليهم السلاح، وأنّ الوليد بلغه أنّهم خرجوا إليه بتلك الحالة، وهي حالة غير مألوفة في تلقِّي المصدِّقين، وحدَّثته نفسه أنّهم يريدون قتله، أو لمّا رآهم مقبلين كذلك (على اختلاف الروايات) خاف أن يكونوا أرادوا قتله، إذ كانت بينه وبينهم شحناء من زمن الجاهلية، فولى راجعا إلى المدينة.

(هذا ما جاء في روايات أربع متفقة في صفة خروجهم إليه مع اختلافها في بيان الباعث لهم على ذلك الخروج، وفي أنّ الوليد أُعلم بخروجهم إليه أو رآهم أو استشعرت نفسه خوفا)، وأنّ الوليد جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: إنّ بني المصطلق أرادوا قتلي وأنّهم منعوا الزكاة فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهَمَّ أن يبعث إليهم خالد بن الوليد لينظر في أمرهم، وفي رواية أنّه بعث خالدا وأمره بأن لا يغزوهم حتّى يستثبّت أمرهم، وأنّ خالدا لمّا بلغ ديار القوم بعث عينا له ينظر حالهم فأخبره أنّهم يقيمون الأذان والصلاة، فأخبرهم بما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وقبض زكاتهم وقفل راجعا.

وفي رواية أخرى أنّهم خافوا من رجوع الوليد بن عقبة أن يُظنّ بهم منع الصدقات فجاؤوا النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل أن يخرج خالد بن الوليد إليهم، متبرّئين من منع الزكاة ونيّة الفتك بالوليد بن عقبة.

وفي رواية أنّهم لمّا وصلوا إلى المدينة وجدوا الجيش خالد بن الوليد خارجا إلى غزوهم.
فهذا تلخيص هذه الروايات وهي بأسانيد ليس منها شيء في الصحيح.
ووجه المناسبة أنّ هذه القصة مشابهة لقصة وفد بني تميم، إذ كان وفد بني تميم النازلة فيهم الآية السابقة جاؤوا معتذرين عن ردّهم ساعي رسول الله صلى الله عليه وسلم لقبض صدقات بني كعب بن العنبر من تميم كما تقدّم، وبنو المصطلق تبرّؤوا من أنّهم يمنعون الزكاة، إلّا أنّ هذا يناكده بُعْد ما بين الوقتين، إلّا أن يكون في تعيين سنة وفد بني تميم وهم.
{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } إعادة الخطاب وفصله بدون عاطف لتخصيص هذا الغرض بالاهتمام. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا. ولا تعلّق لهذه الآية بتشريع في قضية بني المصطلق مع الوليد بن عقبة.
والخطاب مراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن معه، ويشمل الوليد بن عقبة إذ صدق من أخبره بأنّ بني المصطلق يريدون له سوءا، ومن يأتي من حكّام المؤمنين وأمرائهم، لأنّ المقصود منه تشريع تعديل من لا يُعرف بالصدق والعدالة.
{ **إِنْ جَاءَكُمْ** } وأوثر في الشرط حرف (إن)، الذي الأصل فيه أن يكون للشرط المشكوك في وقوعه، للتنبيه على أنّ شأن فعل الشرط أن يكون نادر الوقوع لا يُقدم عليه المسلمون.
الفاسق: المتّصف بالفسوق، وهو فعل ما يحرّمه الشرع من الكبائر. وفسِّر هنا بالكاذب.
واعلم أنّ ليس في الآية ما يقتضي وصف الوليد بالفاسق تصريحا ولا تلويحا. وقد اتفق المفسِّرون على أنّ الوليد ظنّ ذلك، كما في الإصابة عن ابن عبد البرّ، وليس في الروايات ما يقتضي أنّه تعمّد الكذب.
قلتُ: ولو كان الوليد فاسقا لما ترك النبيّ صلى الله عليه وسلم تعنيفه واستتابته، فإنّه روي أنّه لم يزد على قوله له: " **التبيين من الله والعجلة من الشيطان** "، إذ كان تعجيل الوليد الرجوع عجلة. وقد كان خروج القوم للتعرّض إلى الوليد بتلك الهيئة مثار ظنّه حقًّا، إذ لم يكن المعروف خروج القبائل لتلقِّي السعاة.
وأنا أحسب أنّ عملهم كان حيلة من كبرائهم على انصراف الوليد عن الدخول في حيِّهم تَعيُّرًا منهم في نظر عامتهم من أن يدخل عدُّو لهم إلى ديارهم ويتولّى قبض صدقاتهم فتُعيّرهم أعداؤهم بذلك، ويمتعض منهم دهماؤهم، ولذلك ذهبوا بصدقاتهم بأنفسهم. ويؤيِّد هذا ما جاء في بعض روايات هذا الخبر أنّ الوليد بن عقبة أُعلِم بخروج القوم إليه، فلعلّ ذلك الإعلام موعز به إليه ليخاف فيرجع.
وقد اتفق من ترجموا للوليد بن عقبة على أنّه كان شجاعا جوادا وكان ذا خلق ومروءة. وإنّما تلقّف هذه الأخبار الناقمون على عثمان إذ كان من عداد مناقمهم الباطلة أنّه ولّى الوليد بن عقبة إمارة الكوفة، فحملوا الآية على غير وجهها وألصقوا بالوليد وصف الفاسق، وحاشاه منه، لتكون ولايته الإمارة باطلا.

وهذه الآية أصل في الشهادة والرواية من وجوب البحث عن دخيلة من جُهل حال تقواه. وهي أيضا أصل عظيم في تصرّفات ولّاة الأمور، وفي تعامل الناس بعضهم مع بعض من عدم الإصغاء إلى كل ما يروى.

{ **فَتَبَيَّنُوا** } التبيين قوّة الإبانة وهو متعدّ إلى مفعول بمعنى أبان، أي: تأمّلوا وتثبّتوا. والمفعول محذوف دلّ عليه قوله { **بِنَبَأٍ** }، أي: تبيّنوا ما جاء به.

والأمر بالتبيُّن أصل عظيم في وجوب التثبّت في القضاء، وأنّ لا يتتبّع الحاكم القيل والقال ولا ينصاع إلى الجولان في الخواطر من الظنون والأوهام.

{ **فَاسِقٌ بِنَبَأٍ** } التنكير في سياق الشرط يفيد العموم في الفسّاق بأيّ فسق اتصفوا، وفي الأنباء كيف كانت، كأنّه قيل: أيّ فاسق جاءكم بأيّ نبإ فتوقّفوا فيه وتطلّبوا بيان الأمر وانكشافه.

{ **أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** } تقدّم نظير هذا التعليل في قوله تعالى { أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ } [2]. وهذا التحذير من جرّاء قبول خبر الكاذب يدلّ على تحذير من يخطر له اختلاق خبر ممّا يترتّب على خبره الكاذب من إصابة الناس. وهذا بدلالة فحوى الخطاب.

الجهالة: تطلق بمعنى ضد العلم، وتطلق بمعنى ضد الحلم، مثل قولهم: جهل كجهل السيف.

فإن كان الأوّل (ضد العلم)، فالباء للملابسة وهو ظرف مستقر في موضع الحال، أي: متلبّسين بعدم العلم.

وعلى الإطلاق الثاني (ضد الحلم)، الباء للتعدية، أي: أن تصيبوا قوما بفعل من أثر الجهالة.

{ **فَتُصْبِحُوا** } أي: فتصيروا، لأنّ بعض أخوات (كان) تستعمل بمعنى الصيرورة.

الندم: الأسف على فعل صدر. والمراد به هنا الندم الديني، أي: الندم على التورّط في الذنب للتساهل وترك تطلب وجوه الحق.

وهذا الخطاب لا يترك المخبِرين (بكسر الباء) بمعزل عن المطالبة بهذا التبيّن فيما يتحمّلونه من الأخبار، وبتوخي سوء العاقبة فيما يختلقونه من المختلقَات، بالتمحيص لما يتلقّاه من حكاية أو يطرق سمعه من الكلام.

واعلم أنّ هذه الآية تتخرَّج منها أربع **مسائل من الفقه وأصوله**:

المسألة الأولى: وجوب البحث عن عدالة من كان مجهول الحال في قبول الشهادة أو الرواية عند القاضي وعند الروّاة. وهذا صريح الآية وقد أشرنا إليه آنفا.

المسألة الثانية: أنّها دالة على قبول الواحد الذي انتفت عنه تهمة الكذب في شهادته أو روايته وهو الموسوم بالعدالة، وهذا من مدلول مفهوم الشرط في قوله { إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا }، وهي مسألة أصولية في العمل بخبر الواحد.

المسألة الثالثة: قيل إنّ الآية تدلّ على أنّ الأصل في المجهول عدم العدالة، أيّ عدم ظنّ عدالته فيجب الكشف عن مجهول الحال فلا يعمل بشهادته ولا بروايته حتّى يُبحث عنه وتثبت عدالته. وهذا قول جمهور الفقهاء

والمحدِّثين وهو قول مالك. وقال بعضهم: الأصل في الناس العدالة، وينسب إلى أبي حنيفة، فيُقبل عنده مجهول الباطن، ويُعبَّر عنه بمستور الحال.

أمّا المجهول باطنه وظاهره معا فحكي الاتفاق على عدم قبول خبره.

المسألة الرابعة: دلّ قوله { فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } أنّه تحذير من الوقوع فيما يوجب الندم شرعا، أي: ما يوجب التوبة من تلك الإصابة، فكان هذا كناية عن الإثم في تلك الإصابة فحذَّر ولّاة الأمور من أن يصيبوا أحدا بضرّ أو عقاب أو حدّ أو غرم دون تبيّن.

{ **عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** } تقديم المجرور على متعلّقه للاهتمام بذلك الفعل، وهو الإصابة بدون تثبّت.

{ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ [7] فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [8] }.

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ** } عطف على الجملة السابقة، عطف تشريع على تشريع، وليس مضمون هذه تكملة لمضمون تلك، بل هي جملة مستقلة.

{ **وَاعْلَمُوا** } للاهتمام، وقد تقدّم في قوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ } [البقرة:235]. وقوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ } [الأنفال:41].

{ **أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ** } خبر مستعمل في الإيقاظ والتحذير على وجه الكناية. فإنّ كون رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم أمر معلوم لا يُخبر عنه. فالمقصود تعليم المسلمين باتباع ما شرع لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحكام ولو كانت غير موافقة لرغباتهم.

وتقديم خبر (أنّ) على اسمها للاهتمام بهذا الكون فيهم، وتنبيها على أنّ واجبهم الاغتباط به والإخلاص له، لأنّ كونه فيهم شرف عظيم لجماعتهم وصلاح لهم.

{ **لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ** } يجوز أن تكون الجملة استئنافا ابتدائيا، فضميرا الجمع في { يُطِيعُكُمْ / لَعَنِتُّمْ } عائدان إلى الذين آمنوا على توزيع الفعل على الأفراد، **فالمطاع** بعض الذين آمنوا، وهم الذين يبتغون أن يعمل الرسول صلى الله عليه وسلم بما يطلبون منه، **والعانت** بعض آخر، وهم جمهور المؤمنين الذين يجري عليهم قضاء النبيّ صلى الله عليه وسلم بحسب رغبة غيرهم.

ويجوز أن تكون الجملة في موضع الحال من ضمير { فيكم } لأنّ مضمون الجملة يتعلّق بأحوال المخاطبين، من جهة أنّ مضمون جواب { لو } عنت يحصل للمخاطبين.

الطاعة: عملُ أحدٍ ما يؤمر به وما يُنهى عنه وما يُشار به عليه. والمعنى هنا: لو أطاعكم فيما ترغبون.
{ **لَوْ يُطِيعُكُمْ** } صيغة المضارع مستعملة في الماضي لأنّ حرف (لو) يفيد تعليق الشرط في الماضي، وإنّما عدل إلى صيغة المضارع لأنّ المضارع صالح للدلالة على الاستمرار، أي: لو أطاعكم في قضيّة معيّنة ولو أطاعكم كلّما رغبتم منه أو أشرتم عليه لعنتم، لأنّ بعض ما يطلبونه مضرّ بالغير أو بالراغب نفسه.
{ **الْأَمْرِ** } هنا بمعنى الحادث والقضية النازلة. والتعريف في الأمر تعريف الجنس شامل لجميع الأمور، ولذلك جيء معه بلفظ { كَثِيرٍ مِنَ }، أي: في أحداث كثيرة ممّا لكم رغبة في تحصيل شيء منها فيه مخالفة لما شرعه. وهذا احتراز عن طاعته إيّاهم في بعض الأمر ممّا هو من غير شؤون التشريع، كما أطاعهم في نزول الجيش يوم بدر على جهة يستأثرون فيها بماء بدر.
العنت: المشقة واختلال الأمر في الحاضر أو في العاقبة.
{ **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** }
الاستدراك المستفاد من (لكن) ناشئ عن قوله { لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ }، لأنّه اقتضى: أنّ لبعضكم رغبة في أن يطيعهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرغبون أن يفعله ممّا يبتغون ممّا يخالونه صالحا بهم في أشياء كثيرة تعرض لهم. والمعنى: ولكنّ الله لا يأمر رسوله إلّا بما فيه صلاح العاقبة، وإن لم يصادف رغباتكم العاجلة، وذلك فيما شرعه الله من الأحكام.
{ **وَلَكِنَّ اللَّهَ** } ذكر اسم الله في صدر جملة الاستدراك دون ضمير المتكلّم لما يُشعر به اسم الجلالة من المهابة والروعة. وما يقتضيه من واجب اقتبال ما حبّب إليه ونبذ ما كرّه إليه.
{ **حَبَّبَ إِلَيْكُمُ / وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ** } عُدِّي الفعلان بحرف (إلى) لتضمينها معنى بلَّغ، أي: بلَّغ إليكم حبّ الإيمان وكره الكفر.
{ **وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ** } لم يعد الفعل بحرف (إلى)، للإيماء إلى أنّه لمّا رغّبهم في الإيمان وكرّههم الكفر امتثلوا فأحبوا الإيمان وزان في قلوبهم.
التزيين: جعل الشيء زَيْنًا، أي: حَسَنًا.
{ **الْإِيمَانَ** } هنا مراد منه أحكام الإسلام وليس الاعتقاد، فإنّ اسم الإيمان واسم الإسلام يتواردان.
أي: حبّب إليكم الإيمان الذي هو الدين الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا تحريض على التسليم لما يأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو في معنى قوله تعالى { حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [النساء:65]، ولذا فكونه حبّب إليهم الإيمان إدماج وإيجاز. والتقدير: ولكنّ الله شرع لكم الإسلام وحبّبه إليكم، أي: دعاكم إلى حبّه والرضى به فامتثلتم.

{ **وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** } تعريض بأنّ الذين لا يطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم بقيّة من الكفر والفسوق، قال تعالى { وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ - إلى قوله - هُمُ الظَّالِمُونَ } [النور:48-50]. و فيه تحذير لهم من الحياد عن مهيع الإيمان وتجنيب لهم ما هو من شأن أهل الكفر.

فالخبر في قوله { حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْأِيمَانَ - إلى قوله – والعصيان } مستعمل في الإلهاب وتحريك الهمم لمراعاة الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان، أي: إن كنتم أحببتم الإيمان وكرهتم الكفر والفسوق والعصيان فلا ترغبوا في حصول ما ترغبونه إذا كان الدين يصدّ عنه، وكان الفسوق والعصيان يدعو إليه. وفي هذا إشارة إلى أن الاندفاع إلى تحصيل المرغوب من الهوى دون تمييز بين ما يرضي الله وما لا يرضيه أثر من آثار الجاهلية.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** } معترضة للمدح. والإشارة إلى ضمير المخاطبين في قوله { إِلَيْكُمْ } مرتين وفي قوله { قُلُوبِكُمْ } أي: الذين أحبّوا الإيمان وتزيَّنت به قلوبهم، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان هم الراشدون، أي: هم المستقيمون على طريق الحق.

{ **هُمُ** } أفاد ضمير الفصل القصر، وهو قصر إفراد، إشارة الى أنّ بينهم فريقا ليسوا براشدين، وهم الذين تلبّسوا بالفسق، فإن أقلعوا عنه التحقوا بالراشدين.

{ **فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً** } انتصب على المفعول المطلق المبيّن للنوع من أفعال { حَبَّبَ / زَيَّنَهُ / كَرَّهَ } لأنّ ذلك التحبيب والتزيين والتكريه من نوع الفضل والنعمة.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل لجملة { وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ } إلى آخرها، إشارة إلى أنّ ما ذُكر فيها من آثار علم الله وحكمته. والواو اعتراضية.

{ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [9].

لمّا جرى قوله تعالى { أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ } [6] كان ممّا يصدق عليه إصابة قوم أن تقع الإصابة بين طائفتين من المؤمنين، لأنّ من الأخبار الكاذبة أخبار النميمة بين القبائل وخطرها أكبر ممّا يجري بين الأفراد، والتبيين فيها أعسر، وقد لا يحصل التبيين إلّا بعد أن تستعر نار الفتنة ولا تجدي الندامة.

الأظهر في سبب النزول، والذي لا يناكده وقت نزول السورة (سنة تسع من الهجرة)، ما روي وعن قتادة والسدي: أنّها نزلت في فتنة بين الأوس والخزرج بسبب خصومة بين رجل وامرأته، أحدهما من الأوس والآخر من الخزرج، انتصر لكلّ منهما قومه حتّى تدافعوا وتناول بعضهم بعضا بالأيدي والنعال والعصي، فنزلت الآية فجاء النبيّ صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهما. فكانت حكما عاما نزل في سبب خاص.

{ **إِنْ** } حرف شرط يُخلِّص الماضي للاستقبال فيكون في قوّة المضارع.

{ **طَائِفَتَانِ** } ارتفع بفعل مقدّر يفسِّره قوله { اقْتَتَلُوا } للاهتمام بالفاعل.

الطائفة: الجماعة. وتقدّم عند قوله تعالى { فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ } [النساء:102].

{ **اقْتَتَلُوا** } يعود الضمير على { طَائِفَتَانِ } باعتبار المعنى، لأنّ الطائفة ذات جمع. وعدل عن المضارع، بعد كونه الأليق بالشرط، لأنّه لمّا أريد تقديم الفاعل على فعله للاهتمام جُعل الفعل ماضيا على طريقة الكلام الفصيح في مثله، نحو قوله تعالى { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ} [التوبة:6]، وقوله تعالى { وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً } [النساء:128].

{ **فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى** } تفريع على جملة { **اقْتَتَلُوا** } أي: فإن ابتدأت إحدى الطائفتين قتال الأخرى ولم تنصع إلى الإصلاح فقاتلوا الباغية.

البغي: الظلم والاعتداء على حقّ الغير، وهو هنا مستعمل في معناه اللغوي وهو غير معناه الفقهي.

{ **فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ** } الأمر للوجوب، لأنّ هذا حكم بين الخصمين، والقضاء بالحق واجب لأنّه لحفظ حقّ المُحِقّ، ولأنّ ترك قتال الباغية يجرُّ إلى استرسالها في البغي وإضاعة الحقوق، والله لا يحب الفساد، ولأنّ ذلك يُجرِّئ غيرها على أن تأتي مثل صنيعها، فمقاتلها زجر لغيرها.

وهو وجوب كفاية ويتعيّن بتعيين الإمام جيشا يوجّهه لقتالها إذ لا يجوز أن يلي قتال البغاة إلّا الأئمة والخلفاء. فهذا الوجوب مطلق في الأحوال تقيّده الأدلة الدالة على عدم المصير إليه إذا عُلم أنّ قتالها يجر إلى فتنة أشدّ.

{ **الَّتِي تَبْغِي** } هي الطائفة الظالمة الخارجة عن الحق، وإن لم تقاتل، لأنّ بغيها يحمل الطائفة المبغي عليها أن تدافع عن حقها. وإنّما جُعل حكم قتال الباغية أن تكون طائفة لأنّ الجماعة يعسر الأخذ على أيدي ظلمهم بأفراد من الناس وأعوان الشرطة فتعين أن يكون كفهم عن البغي بالجيش والسلاح.

وهذا في التقاتل بين الجماعات والقبائل، فأمّا خروج فئة عن جماعة المسلمين فهو أشدّ وليس هو مورد هذه الآية ولكنّها أصل له في التشريع.

ويتحقّق وصف البغي بإخبار أهل العلم أنّ الفئة بغت على الأخرى، أو بحكم الخليفة العالم العدل، وبالخروج عن طاعة الخليفة وعن الجماعة بالسيف إذا أمر بغير ظلم ولا جور ولم تخش من عصيانه فتنة.

{ **حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ** } جُعل الفيء إلى أمر الله غاية للمقاتلة، أي: يستمر قتال الطائفة الباغية إلى غاية رجوعها إلى أمر الله، وأمر الله هو ما في الشريعة من العدل والكف عن الظلم، أي: حتّى تقلع عن بغيها.

{ **فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** } هذا إصلاح ثان بعد الإصلاح المأمور به ابتداء. ومعناه: أنّ الفئة التي خضعت للقوّة وألقت السلاح تكون مكسورة الخاطر شاعرة بانتصار الفئة الأخرى عليها فأوجب على المسلمين أن يصلحوا بينهما بترغيبهما في إزالة الإحن والرجوع إلى أخوّة الإسلام لئلا يعود التنكّر بينهما.

العدل: هو ما يقع التصالح عليه بالتراضي والإنصاف وألّا يضرّ بإحدى الطائفتين، فإنّ المَتَالِفَ التي تلحق كلتا الطائفتين قد تتفاوت تفاوتا شديدا فتجب مراعاة التعديل. أي: يجب العدل في صورة الإصلاح فلا يضيّعوا بصورة الصلح منافع عن كلا الفريقين إلا بقدر ما تقتضيه حقيقة الصلح من نزول عن بعض الحق بالمعروف. قال بن العربي: " ومن العدل في صلحهم أن لا يطالبوا بما جرى بينهم مدّة القتال من دم ولا مال فإنّه تلّف على تأويل وفي طلبهم به تنفير لهم عن الصلح واستشراء في البغي، وهذا أصل في المصلحة ".

{ **وَأَقْسِطُوا** } ثمّ أمر المسلمين بالعدل أمرا عاما تذييلا للأمر بالعدل الخاص في الصلح بين الفريقين، فشمل ذلك هذا الأمر العام أن يعدلوا في صورة ما إذا قاتلوا التي تبغي.

وللفقهاء تفاصيل في أحوال جبر الأضرار اللاحقة بالفئة المعتدى عليها، والأضرار اللاحقة بالجماعة التي تتولى قتال البغاة فينبغي أن يؤخذ من مجموع أقوالهم ما يرى أولو الأمر المصلحة في الحمل عليها جريا على قوله تعالى { وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }.

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [10]

تعليل لإقامة الإصلاح بين المؤمنين إذا استشرى الحال بينهم، وقد بني هذا التعليل على اعتبار حال المسلمين بعضهم مع بعض كحال الإخوة.

{ **إِنَّمَا** } جيء بصيغة القصر المفيدة لحصر حالهم في حال الإخوة مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين، فهو قصر ادعائي أو هو قصر إضافي للردّ على أصحاب الحالة المفروضة الذين يبغون على غيرهم.

{ **الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** } أخبر عنهم بأنّهم إخوة مجازا على وجه التشبيه البليغ زيادة لتقرير معنى الأخوَّة بينهم، حتّى لا يحقّ أن يُقرن بحرف التشبيه المشعر بضعف صفتهم عن حقيقة الأخوة.

وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرّر وجوب الأخوَّة بين المسلمين، لأن شأن (إنّما) أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحّته، أو لِمَا ينزل منزلة ذلك. فلذلك كان قوله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } مفيد أن معنى الأخوَّة بينهم معلوم مقرَّر.

وقد تقّرر ذلك في تضاعيف كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، من ذلك قوله تعالى { يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} [الحشر:10]، وهي سابقة في النزول على هذه السورة، فإنّها معدودة الثانية والمائة، وسورة الحجرات معدودة الثامنة والمائة.

وآخى النبيّ صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار حين وروده المدينة، وذلك مبدأ الإخاء بين المسلمين. وفي الحديث: **" لو كنت متّخذا خليلا غيرَ ربي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام أفضل "**.

وفي حديث صحيح مسلم: **" المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم "**، وفي الحديث: **" لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه "**.

ولمّا كان المتعارف بين الناس أنّه إذا نشبت مشاقة بين الأخوين لزم بقية الإخوة أن يتناهضوا في إزاحتها مشيا بالصلح بينهما فكذلك شأن المسلمين إذا حدث شقاق بين طائفتين منهم أن ينهض سائرهم بالسعي بالصلح بينهما وبث السفراء إلى أن يرقّعوا ما وَهَى، ويرفعوا ما أصاب ودَهَى.

{ **فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ** } تفريع على تحقيق كون المؤمنين إخوة تأكيد لمّا دلت عليه { إِنَّمَا } من التعليل، فصار الأمر بالإصلاح الواقع ابتداء دون تعليل في قوله تعالى { فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا }، وقوله تعالى { فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ } قد أُردِف بالتعليل فحصل تقريره، ثمَّ عُقِّب بالتفريع فزاده تقريرا.

{ **أَخَوَيْكُمْ** } أوثرت صيغة التثنية مراعاة لكون الكلام جار على طائفتين من المؤمنين فجُعلت كل طائفة كالأخ للأخرى.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } المخاطب جميع المؤمنين فيشمل الطائفتين الباغية والمبغيّ عليها، ويشمل غيرهما ممّن أمروا بالإصلاح بينهما ومقاتلة الباغية، فتقوى جميعهم بالوقوف عند ما أمر الله به كُلًّا ممّا يخّصه، وهذا يشبه التذييل.

{ **لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } تُرْجَى لكم الرحمة من الله فتجري أحوالكم على استقامة وصلاح. وإنّما اختيرت الرحمة لأنّ الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة فيكون الجزاء عليها من جنسها.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [11].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ } لمّا اقتضت الأخوَّة أن تحسُن المعاملة بين الأخوين كان ما تقرر من إيجاب معاملة الإخوة بين المسلمين يقتضي حُسن المعاملة بين آحادهم، فجاءت هذه الآيات منبّهة على أمور من حسن المعاملة قد تقع الغفلة عن مراعاتها لكثرة تفشيها في الجاهلية. وهذا نداء رابع.

ورويت في سبب نزول الآية روايات؛ عن الضحاك، وعن الواحدي، وعن عكرمة، وغيرهم، أقربها ما رواه الضحاك: أنّ المقصود بنو تميم إذ سخروا من بلال وعمّار وصهيب، فيكون لنزول الآية سبب متعلّق بالسبب الذي نزلت السورة لأجله، وهذا من السخرية المنهي عنها.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } افتتحت هذه الآيات بإعادة النداء للاهتمام بالغرض، فيكون مستقلًّا غير تابع حسبما تقدّم من كلام الفخر. وقد تعرضت الآيات الواقعة عقب هذا النداء لصنف مهم من معاملة المسلمين بعضهم لبعض ممّا فشا في الناس من عهد الجاهلية التساهل فيها. وهي من إساءة الأقوال، ويقتضي النهي عنها الأمر بأضدادها. وتلك المنهيات هي: { لا يَسْخَرْ / لا تَلْمِزُوا / لا تَنَابَزُوا }

السَّخْر: (ويقال: السخرية) الاستهزاء، وتقدّم في قوله تعالى { فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ } [التوبة:79].

{ قَوْمٌ } اسم جمع: جماعة الرجال خاصة دون النساء. والتنكير في الموضعين لإفادة الشياع، لئلّا يُتوهم نهي قوم معيّنين سخروا من قوم معينين. وهذا النهي صريح في التحريم.

{ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ } خُصّ النساء بالذكر مع أنّ { قَوْمٌ } يشملهم بطريق التغليب العرفي في الكلام، دفعا لتوهّم تخصيص النهي بسخرية الرجال، ولأنّ الاستسخار متأصّل في النساء.

{ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ } مستأنفة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين تفيد المبالغة في النهي عن السخرية، ولأنّه يثير انفعال الحياء في نفس الساخر.

اللمز: ذكر ما يعُدّه الذاكر عيبا لأحد مواجهةً، فهو المباشرة بالمكروه. فإن كان بحق فهو وقاحة واعتداء، وإن كان باطلا فهو وقاحة وكذب، ويكون بحالة بين الإشارة والكلام بتحريك الشفتين بكلام خفي يَعرف منه المواجَه به أنّه يُذم أو يُتوعد، أو يُتنقص، وهو غير النبز وغير الغيبة.

وكان شائعا بين العرب في جاهليتهم، قال تعالى { وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ } [الهمزة:1] يعني نفرا من المشركين كان دأبهم لمز رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ **لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ** } لا يلمز بعضكم بعضا، وقد تقدم نظيره عند قوله تعالى { وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ } [البقرة:48].

التنابز: نبز بعضهم بعضا، و**النبْز** (بسكون الباء): ذكر اللقب السوء، كقولهم: أنف الناقة، وبطة. وكان غالب الألقاب في الجاهلية نبزا.

{ **بِالْأَلْقَابِ** } المراد الألقاب المكروهة بقرينة { وَلا تَنَابَزُوا }، واللقب ما أشعر بخسّة أو شرف، سواء كان ملقَّبا به صاحبه أم اخترعه له النابز له.

{ **بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْأِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } تذييل للمنهيات المتقدّمة وهو تعريض قويّ بأنّ ما نهوا عنه فسوق وظلم معاقب عليه. وفي الحديث: " **سباب المسلم فسوق** ".

{ **الِاسْمُ** } هنا مطلق على الذكر، أي: التسمية، كما يقال: طار اسمه في الناس بالجود أو باللؤم.

<u>والمعنى</u>: بئس الذكر أن يُذكر أحد بالفسوق بعد أن وصف بالإيمان.

وإيثار لفظ الاسم هنا من الرشاقة بمكان لأنّ السياق تحذير من ذكر الناس بالأسماء الذميمة، إذ الألقاب أسماء، فكان اختيار لفظ الاسم للفسوق مشاكلة معنوية.

{ **بَعْدَ الْأِيمَانِ** } أي: بعد الاتصاف بالإيمان، أي: أنّ الإيمان لا يناسبه الفسوق لأن المعاصي من شأن أهل الشرك الذين لا يزعهم عن الفسوق وازع، وهذا كقول جميلة بنت أُبي حين شكت للنبيّ صلى الله عليه وسلم أنّها تكره زوجها ثابت بن قيس وجاءت تطلب فراقه: " لا أعيب على ثابت في دين ولا في خلق ولكنّي أكره الكفر بعد الإسلام (تريد التعريض بخشية الزنا) وإنّي لا أطيقه بغضا ".

{ **وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } وإذ كان كل من السخرية واللمز والتنابز معاصي فقد وجبت التوبة منها فمن لم يتب فهو ظالم: لأنّه ظلم الناس بالاعتداء عليهم، وظلم نفسه بأن رضي لها عقاب الآخرة.

{ **فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } جيء بصيغة قصر الظالمين عليهم، على سبيل المبالغة ليزدجروا.

والتوبة واجبة من كل ذنب، وهذه الذنوب المذكورة مراتب وإدمان الصغائر كبيرة.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ } [12].

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** } أعيد النداء خامس مرة لاختلاف الغرض والاهتمام به. وذلك أنّ المنهيّات المذكورة بعد هذا النداء من جنس المعاملات السيّئة الخفيّة التي لا يُتفطن له.

{ **اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ** } تأديب عظيم يُبطل ما كان فاشيا في الجاهلية من الظنون السيّئة والتهم الباطلة،

لأنّ الظنون السيّئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة والمكائد، والاغتيالات، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذرا من اعتداء مظنون ظنا باطلا، كما قالوا: خذ اللص قبل أن يأخذك.

وما نجمت العقائد الضالة والمذاهب الباطلة إلّا من الظنون الكاذبة، قال تعالى { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } [آل عمران:154]، وقال تعالى { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الزخرف:20]، وقال تعالى { قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ } [الأنعام:148].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " **إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث** ".

الاجتناب: افتعال من جنَّبه وأجنبه، إذا أبعده، أي: جعله جانبا آخر، وفعله يعدّى إلى مفعولين، يقال: جنّبه الشر، قال تعالى { وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ } [ابراهيم:35]. ومطاوعه اجتنب، أي: ابتعد.

ومعنى الأمر باجتناب كثير من الظنّ: الأمر بتعاطي وسائل اجتنابه. ولكن لمّا كان الظنّ يحصل في خاطر الإنسان اضطرارا عن غير اختيار، فلا يعقل التكليف باجتنابه وإنّما يراد الأمر بالتثبت فيه وتمحيصه والتشكك في صدقه إلى أن يتبيّن موجبه بدون تردد أو برجحان، أو يتبيّن كذبه، فتكذِّب نفسك فيما حدثتك.

وهذا التحذير يراد منه مقاومة الظنون السيّئة بما هو معيارها من الأمارات الصحيحة.

وفي الحديث: " **إذا ظننتم فلا تحقّقوا** ".

{ **الظَّنِّ** } المراد هنا: الظنّ المتعلّق بأحوال الناس، وحُذف المتعلّق لتذهب نفس السامع إلى كلّ ظنّ ممكن.

{ **كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ** } لأنّ منه ظنّ يجب اتباعه كالحذر من مكائد العدو في الحرب، وكالظنّ المستند إلى الدليل الحاصل من دلالة الأدلة الشرعية، فإن أكثر التفريعات الشرعية حاصلة من الظن المستند إلى الأدلة.

وقد فتح مفهوم هذه الآية باب العمل بالظن غير الإثم، إلّا أنّها لا تقوم حجّة إلا عند الذين يرون العمل بمفهوم المخالفة، وهو أرجح الأقوال، فإنّ معظم دلالات اللغة العربية على المفاهيم كما تقرّر في أصول الفقه.

{ **إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** } استئناف بياني، لأنّ القول السابق يستوقف السامع ليتطلّب البيان، فأُعْلِموا أنّ بعض الظن جُرم، وهذا كناية عن وجوب التأمّل في آثار الظنون ليعرضوا ما تفضي اليه الظنون على ما يعلمونه من أحكام الشريعة، أو ليسألوا أهل العلم. وهذا تخويف من الوقوع في الإثم، وليس توضيحا لأنواع الكثير من الظنّ المأمور باجتنابه، لأنّها أنواع كثيرة، فنبَّه على عاقبتها وترك التفصيل، لأنّ في إبهامه بعثا على مزيد الاحتياط.

{ **وَلا تَجَسَّسُوا** } التجسّس من آثار الظنّ، لأن الظنّ يبعث عليه حين تدعو الظانّ نفسُه إلى تحقيق ما ظنّه سرا فيسلك طريق التجسّس، فحذرهم الله من سلوك هذا الطريق.

التجسّس: البحث بوسيلة خفية، وهو مشتق من الجسّ، ومنه سمي الجاسوس.

ووجه النهي عنه أنّه ضرب من الكيد والتطلّع على العورات. وذلك ثلم للأخوة الإسلامية.
ولما كان النهي عن التجسّس من فروع النهي عن الظن فهو مقيّد بالتجسّس الذي هو إثم أو يفضي إلى الإثم، وإذا عُلم أنه يترتّب عليه مفسدة عامة صار التجسّس كبيرة، كالتجسّس على المسلمين لمن يبتغي الضرّ بهم.
والمنهي عنه لا يشمل التجسّس على الأعداء، ولا تجسّس الشرط على الجناة واللصوص.
{ **وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً** } الاغتياب ذكر أحد غائب بما لا يحب أن يذكر به، والاسم منه الغِيبة.
وجيء بهذا التركيب، دون أن يقول: اجتنبوا الغيبة، لقصد التوطئة للتمثيل الوارد في قوله:
{ **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً** } لأنه لما كان ذلك التمثيل مشتملا على جانب فاعل الاغتياب ومفعوله مُهّد له بما يدل على ذاتين، لأنّ ذلك يزيد التمثيل وضوحا.
والاستفهام تقريري لتحقّق أنّ كلّ أحد يقر بأنّه لا يحب ذلك، ولذلك أجيب الاستفهام بقوله { فَكَرِهْتُمُوهُ }.
والتمثيل مقصود منه استفظاع الممثَّل وتشويهه لإفادة الإغلاظ على المغتابين، لأنّ الغيبة متفشية في الناس وخاصة في أيام الجاهلية.
الكراهة: هنا الاشمئزاز والتقذّر. والتقدير: إن وقع هذا أو إن عرض لكم هذا فقد كرهتموه.
والغيبة حرام بدلالة هذه الآية وآثار من السنة بعضها صحيح وبعضها دونه. وذلك أنّها تشتمل على مفسدة ضُعْفٍ في أخوَّة الإسلام. وقد تبلغ الذي اغتيب فتقدح في نفسه عداوة لمن اغتابه فينثلم بناء الأخوة، ولأنّ فيها الاشتغال بأحوال الناس وذلك يلهي الإنسان عن الاشتغال بالمهم النافع له.
وهي عند المالكية من الكبائر وقلَّ من صرَّح بذلك، ووجهه أنّ الله نهى عنها وشنعها.
وجعلها الشافعية من الصغائر لأنّ الكبيرة في اصطلاحهم: فعل يؤذن بقلة اكتراث فاعله بالدين ورقة الديانة.
فإذا كان ذلك لوجه مصلحة مثل تجريح الشهود ورواة الحديث وما يقال للمستشير في مخالطة أو مصاهرة فإن ذلك ليس بغيبة، بشرط أن لا يتجاوز الحدّ الذي يحصل به وصف الحالة المسؤول عنها.
وكذلك لا غيبة في فاسق بذكر فسقه دون مجاهرة له به.
{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** } عطف على جمل الطلب السابقة ابتداء من قوله { اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ } وهذا كالتذييل لها إذ أمر بالتقوى وهي جماع الاجتناب والامتثال، فمن كان سالما من التلبّس بتلك المنهيات فالأمر بالتقوى يجنبه التلبس بشيء منها في المستقبل، ومن كان متلبّسا بها أو ببعضها فالأمر بالتقوى يجمع الأمر بالكف عما هو متلبس به منها.
{ **إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ** } تذييل للتذييل لأنّ التقوى تكون بالتوبة بعد التلبس بالإثم، فقيل { إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ }، وتكون التقوى ابتداء فيرحم الله المتّقي، فالرحيم شامل للجميع.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [13].

انتقال من واجبات المعاملات إلى ما يجب أن يراعيه المرء في نفسه، وأعيد النداء للاهتمام بهذا الغرض.

فقد كان إعجاب كلّ قبيلة بفضائلها وتفضيل قومها على غيرهم فاشيا في الجاهلية، كما تراه في الشعر، وكانوا يحقِّرون بعض القبائل مثل باهلة، وضبيعة، وبني عُكل.

فكان ذلك يجرّ إلى الإحن والتقاتل، وتتفرّع عليه السخرية واللمز والنبز والظنّ والتجسّس والاغتياب، الواردة فيها الآيات السابقة، فجاءت هذه الآية لتأديب المؤمنين على اجتناب ما كان في الجاهلية، واقتلاع جذوره الباقية في النفوس بسبب اختلاط طبقات المؤمنين بعد سنة الوفود، إذ كثر الداخلون في الإسلام.

فعن أبي داود أنّه روى في كتابه (المراسيل عن الزهري) قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بياضة (من الأنصار) أن يزوِّجوا أبا هند (مولى بني بياضة، قيل: اسمه يسار) امرأة منهم ،فقالوا: تزوّج بناتنا موالينا، فأنزل الله تعالى { إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً }. وروي في سببها غير ذلك.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ } نودوا بعنوان **{ النَّاسُ }** دون المؤمنين، رعيا للمناسبة بين هذا العنوان وبين ما صدر به الغرض من التذكير بأنّ أصلهم واحد، أي: أنّهم في الخلقة سواء، ليتوسَّل بذلك إلى أنّ التفاضل والتفاخر إنّما يكون بالفضائل، والى أنّ التفاضل في الإسلام بزيادة التقوى.

وليس النداء حجّة للذين قالوا إنّ الآية مكّية، بزعم أنّ غالب الخطاب بـ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } إنّما كان في المكي.

{ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى }المراد: آدم وحواء أبوا البشر، بقرينة قوله { وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا } ويؤيّده قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أنتم بنو آدم وآدم من تراب ".**

<u>ويجوز أن يراد صنف الذكر والأنثى</u>، أي: كلّ واحد مكوّن من صنف الذكر والأنثى.

الشعوب: جمع شَعب (بفتح الشين) وهو مجمع القبائل التي ترجع إلى جد واحد من أمّة مخصوصة، وقد <u>يُسمَّى جِذْمًا</u>، فالأمة العربية تنقسم إلى شعوب كثيرة: فمضر شعب، وربيعة شعب، وأنمار شعب، وإياد شعب، وتجمعها الأمّة العربية المستعربة، وهي عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام.

وحِمْير وسبأ، والأزد شعوب من أمّة قحطان.

وكنانة وقيس وتميم قبائل من شعب مضر. ومَذْحج، وكِنَدة قبيلتان من شعب سبأ. والأوس والخزرج قبيلتان من شعب الأزد. وتحت القبيلة العمارة مثل قريش من كنانة، وتحت العمارة البطن مثل قصي من قريش، وتحت البطن الفخذ مثل هاشم وأمية من قصي، وتحت الفخذ الفصيلة مثل أبي طالب والعباس وأبي سفيان.

(الأمّة ⇦ شعب ⇦ قبيلة ⇦ العمارة ⇦ البطن ⇦ الفخذ ⇦ الفصيلة)

واقتصر هنا على ذكر الشعوب والقبائل لأنّ ما تحتها داخل بطريق لحن الخطاب. وتجاوز القرآن عن ذكر الأمم جريا على المتداول في كلام العرب في تقسيم طبقات الأنساب، إذ لا يدركون إلا أنّسابهم.

{ **لِتَعَارَفُوا** } جُعلت علّة جعل الله إياهم شعوبا وقبائل التعارف، أي: أن يعرف بعضهم بعضا.

والتعارف يحصل طبقة بعد طبقة متدرّجا إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون، والعشيرة متعارفون من عائلات إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة، وهكذا تتعارف العشائر مع البطون والبطون مع العمائر، والعمائر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها.

{ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** } بمنزلة المقصد والنتيجة من جملة { إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى } لذلك فصلت فهي كالبيان. وأمّا جملة { وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا } فهي معترضة بين الجملتين الأخريين.

والمقصود من اعتراضها: إدماج تأديب آخر من واجب بثّ التعارف والتواصل بين القبائل والأمم وأن ذلك مراد الله منهم.

ومن معنى الآية ما خطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجّة الوداع إذ قال: **" يا أيّها الناس ألا إنّ ربّكم واحد وأنّ أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلّا بالتقوى ".**

الأكرم: الأنفس والأشرف، كما تقدّم بيانه في قوله تعالى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].

الأتقى: الأفضل في التقوى وهو اسم تفضيل صيغ من اتقى على غير قياس.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** } تعليل لمضمون { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ }، أي: إنّما كان أكرمكم أتقاكم لأنّ الله عليم بالكرامة الحق، خبير بمقدار حظوظ الناس من التقوى. وهذا كقوله تعالى { فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى } [النجم:32]، أي: هو أعلم بمراتبكم في التقوى.

وفي الجملة معنى التذييل، وهو كناية عن الأمر بتزكية نواياهم في معاملاتهم وما يريدون من التقوى، بأنّ الله يعلم ما في نفوسهم ويحاسبهم عليه.

{ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [14].

كان من بين الوفود التي وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة تسع المسمَّاة سنة الوفود، وفد بني أسد بن خزيمة، وكانوا ينزلون بقرب المدينة، وكان قدومهم المدينة عقب قدوم وفد بني تميم الذي ذُكر

في أوّل السورة، ووفَد بنو أسد في عدد كثير وفيه ضرار بن الأزور، وطُليحة بن عبد الله (الذي ادّعى النبوّة بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم، أيام الردّة)، وكانت هذه السنة سنة جدب ببلادهم فأسلموا وكانوا يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها وجئناك بالأثقال والعيال والذراري ولم نقاتلك كما قاتلك محارب خصفة وهوازن وغطفان. يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويروحون بهذه المقالة ويمنُّون عليه، ويريدون أن يصرف إليهم الصدقات، فأنزل الله فيهم هذه الآيات الى آخر السورة.

الأعراب: سكّان البادية من العرب. وأحسب أنّه لا يطلق على أهل البادية من غير العرب، وهو اسم جمع لا مفرد له، فيكون الواحد منه بياء النسبة أعرابي.

والتعريف للعهد لأعراب معينين وهم بنو أسد، فليس هذا الحكم الذي في الآية حاقًّا على جميع سكان البوادي ولا قال هذا القول غير بني أسد.

{ **قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا** } فهؤلاء الأعراب لمّا جاءوا مظهرين الإسلام وكانت قلوبهم غير مطمئنة لعقائد الإيمان، لأنّهم حديثو عهد به، كذّبهم الله في قولهم { آمَنَّا } ليعلموا أنّهم لم يخف باطنهم على الله، وأنّه لا يُعْتدّ بالإسلام إلّا إذا قارنه الإيمان، فلا يغني أحدهما بدون الآخر، فالإيمان بدون إسلام عناد، والإسلام بدون إيمان نفاق، ويجمعهما طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

{ **وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا** } الاستدراك بحرف (لكن) لرفع ما يُتوهَّم من قوله { لَمْ تُؤْمِنُوا } أنّهم جاؤوا مضمرين الغدر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم. وإنّما قال لهم ذلك تعليما لهم بالفرق بين الإيمان والإسلام، فإنّ الإسلام مقرّه اللسان والأعمال البدنية، وهي قواعد الإسلام الواردة في حديث سؤال جبريل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة: "**... الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلا ...**".

{ **وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** } مبيّن لمعنى نفي الإيمان عنهم في قوله تعالى { لَمْ تُؤْمِنُوا }، بأنّه ليس انتفاء وجود تصديق باللسان ولكن انتفاء رسوخه وعقد القلب عليه، إذ كان فيهم بقية من ارتياب كما أشعر به مقابلته بقوله { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا }.

{ **وَلَمَّا يَدْخُلِ** } استعير (الدخول) للتمكّن وعدم التزلزل.

{ **لَمَّا** } أخت (لم) وتدل على أنّ النفي بها متصل بزمان التكلّم وذلك الفارق بينها وبين (لم). وهذه الدلالة على استمرار النفي إلى زمن المتكلم تؤذن غالبا، بأن المنفي بها متوقّع الحدوث. قال في الكشّاف: وما في {لمّا} من معنى التوقع دالٌّ على أنّ هؤلاء قد آمنوا فيما بعد.

{ **وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً** } إرشاد إلى دواء مرض الحال في قلوبهم من ضعف الإيمان بأنّهم إن يطيعوا الله ورسوله حصل إيمانهم، وذلك بأن يقبلوا على التعلّم من رسول الله صلى الله عليه

وسلم مدّة إقامتهم بالمدينة عوضا عن الاشتغال بالمنّ والتعريض بطلب الصدقات.

{ **لا يَلِتْكُمْ** } لا يُنقصكم، يقال: لاته مثل باعه. وهذا في لغة أهل الحجاز وبني أسد، ويقال: أَلَته أَلْتًا مثل: أمره، وهي لغة غطفان، قال تعالى { وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } [الطور:21].

وضمير الرفع عائد إلى اسم الله.

<u>والمعنى</u>: إن أخلصتم الإيمان كما أمركم الله ورسوله تقبّل الله أعمالكم ولم ينقصكم من أجرها شيئا.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } استئناف تعليم لهم بأنّ الله يتجاوز عن كذبهم إذا تابوا، وترغيب في إخلاص الإيمان، لأنّ الغفور كثير المغفرة شديدها. ومن فرط مغفرته أنّ الأعمال الصالحة الواقعة في حالة الكفر غير معتد بها فإذا آمن عاملها جوزي عليها بمجّرد إيمانه، وذلك من فرط رحمته بعباده.

وترتيب { رَحِيمٌ } بعد { غَفُورٌ } لأنّ الرحمة أصل للمغفرة، وشأن العلة أن تورد بعد المعلّل بها.

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } [15].

هذا تعليل لقوله { لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ }، وهو من جملة ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله للأعراب، أي: ليس المؤمنون إلّا الذين آمنوا ولم يخالط إيمانهم ارتياب أو تشكّك.

{ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ** } والقصر إضافي، أي: المؤمنون الذين هذه صفاتهم.

وليس بمقتض أنّ حقيقة الإيمان لا تتقوّم إلّا بمجموع تلك الصفات لأنّ عد الجهاد في سبيل الله مع صفتي الإيمان وانتفاء الريب فيه، يمنع من ذلك، لأنّ الذي يقعد عن الجهاد لا ينتفي عنه وصف الإيمان، إذ لا يكفر المسلم بارتكاب الكبائر عند أهل الحق.

{ **ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا** } للتراخي الرتبي. ففي { ثُمَّ } إشارة إلى أنّ انتفاء الارتياب في إيمانهم أهمّ رتبة من الإيمان إذ به قوام الإيمان، وهذا إيماء إلى بيان قوله { وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } [14]، أي: من أجل ما يخالجكم من ارتياب في بعض ما آمنتم به ممّا اطلع الله عليه.

{ **وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } والمقصود من إدماج ذكر الجهاد التنويه بفضل المؤمنين المجاهدين وتحريض الذين دخلوا في الإيمان على الاستعداد إلى الجهاد، كما في قوله تعالى { قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ } [الفتح:16].

{ **أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } قصر، وهو قصر إضافي أيضا، أي: هم الصادقون لا أنتم في قولكم { آمَنَّا }.

{ **قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } [16].

{ **قُلْ** } أعيد الفعل ليدلّ على أنّ المقول لهم هذا هم الأعراب الذين أُمِر أن يقول لهم { لَمْ تؤمنوا } إلى آخره، فأعيد لمّا طال الفصل بالجمل المتتابعة، فهذا القول متصل بقوله { وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } اتصال البيان بالمبين، ولذلك لم تعطف جملة الاستفهام. فهذه ممّا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم.

{ **أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ** } التعليم مبالغة في إيصال العلم إلى المعلَّم لأنّ صيغة التفعيل تقتضي قوّة في حصول الفعل كالتفريق والتفسير، يقال: أعلمه وعلَّمه كما يقال: أنباه ونبّأه. وهذا يفيد أنّهم تكلّفوا وتعسّفوا في الاستدلال على خلوص إيمانهم ليقنعوا به الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي أبلغهم أنّ الله نفى عنهم رسوخ الإيمان، بمحاولة إقناعه وإقناع الله بما يعلم خلافه.

{ **بِدِينِكُمْ** } الباء زائدة لتأكيد لصوق الفعل بمفعولهن كقوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].

<u>والاستفهام مستعمل في التوبيخ</u> وقد أيّد التوبيخ بجملة الحال في قوله تعالى { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ }، <u>وفيه تجهيل</u> إذ حاولوا إخفاء باطنهم عن المطّلع على كل شيء.

{ **وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } تذييل، لتأكيد معنى عموم علم الله، لأن {كُلِّ شَيْءٍ} أعم من { مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ }، فإنّ الله يعلم صفاته ويعلم الموجودات التي هي أعلى من السماوات كالعرش.

{ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } [17].

استئناف ابتدائي أريد به إبطال ما أظهره بنو أسد من مزيّتهم إذ أسلموا من دون إكراه بغزو.

المنّ: ذكر النعمة والإحسان ليراعيه المحسن إليه للذاكر، وهو يكون صريحا، ويكون بالتعريض.

وكانت مقالة بني أسد مشتملة على النوعين من المنّ، لأنّهم قالوا: ولم نقاتلك كما قاتلك محارب وغطفان وهوازن، وقالوا: وجئناك بالأثقال والعيال.

{ **أَنْ أَسْلَمُوا** } منصوب بنزع الخافض وهو باء التعدية، يقال: منَّ عليه بكذا.

وهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم { آمَنَّا } كما حكاه الله آنفا، وسمّاه هنا إسلاما، أي: أنّ الذي منُّوا به عليك إسلام لا إيمان.

{ **قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ** } وقد أضيف (إسلام) إلى ضميرهم لأنّهم أتوا بما يُسمَّى إسلاما، وأتي بالإيمان بعده { هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ } معرفا بلام الجنس لأنّه حقيقة في حد ذاته.

{ **بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ** } أثبت بحرف { بَلِ } أنّ ما منُّوا به إن كان إسلاما حقًّا موافقا للإيمان فالمنّة لله لأن هداهم إليه فأسلموا عن طواعية. وسمَّاه الآن إيمانا مجاراة لزعمهم لأنّ المقام مقام كون المنةّ لله، أي: لو فرض أنكم آمنتم كما تزعمون فإنّ إيمانكم نعمة أنعم الله بها عليكم.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } تذييل، فنفى أوّلا أن يكون ما يمنُّون به حقا، ثم أفاد ثانيا أن يكون الفضل فيما ادّعوه لهم لو كانوا صادقين، بل هو فضل الله.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** } [18].

ذيَّل تقويمهم على الحقّ بهذا التذييل ليعلموا أنّ الله لا يُكتم، وأنّه لا يُكذب، لأنّه يعلم كل غائبة في السماء والأرض. فإنّهم كانوا في الجاهلية لا تخطر ببال كثير منهم أصول الصفات الإلهية.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ** } تأكيد الخبر لأنّهم بحال من ينكر أنّ الله يعلم الغيب فكذبوا على النبي صلى الله عليه وسلم مع علمهم أنّه مرسل من الله فكان كذبهم عليه مثل الكذب على الله.

وقد أفادت هذه الجملة تأكيد مضمون جملة { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } وجملة { وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [16]، ولكن هذه زادت بالتصريح بأنّه يعلم الأمور الغائبة، لئلّا يتوهم متوهم أن العمومين في الجملتين قبلها عمومان عرفيان قياسا على علم البشر.

{ **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** } معطوف على جملة { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } عطف الأخصّ على الأعمّ، لأنّه لمّا ذكر أنّه يعلم الغيب، وكان شأن الغائب أن لا يُرى، عطف عليه علمه بالمبصرات احتراسا من أن يتوهّموا أنّ الله يعلم خفايا النفوس وما يجول في الخواطر ولا يعلم المشاهدات نظير، قول كثير من الفلاسفة: إنّ الخالق يعلم الكلّيات ولا يعلم الجزئيات، ولهذا أوثر هنا وصف { بَصِيرٌ }.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ق

سُمِّيت في عصر الصحابة (**سورة ق**)، يُنطق بحروف قاف: بقاف، وألف، وفاء.

روى مسلم عن أمّ هشام بنت حارثة بن النعمان: ما أخذت { ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ } إلّا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقرؤها كلّ يوم على المنبر إذ خطب الناس ".

وهي من السور التي سُمِّيت بأسماء الحروف الواقعة في ابتدائها مثل (طه ، ص، يس) لانفراد كل سورة منها بعدد الحروف الواقعة في أوائلها، بحيث إذا دعيت بها لا تلتبس بسورة أخرى.

وفي الإتقان أنّها تُسمَّى (**سورة الباسقات**). هكذا بلام التعريف، ولم يعزه لقائل، والوجه أن تكون تسميتها هذه على اعتبار وصف لموصوف محذوف، أي: النخل الباسقات، إشارة إلى قوله تعالى { وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ } [10].

والسورة مكية كلّها، قال ابن عطية: بإجماع من المتأوّلين.

وفي تفسير القرطبي والإتقان عن ابن عباس وقتادة والضحاك: استثناء آية { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ } [38] أنّها نزلت في الرد على اليهود، إذ قالوا: إنّ الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، يعني أنّ مقالة اليهود سُمعت بالمدينة. وهذا المعنى وان كان معنى دقيقا في الآية فليس بالذي يقتضي أن يكون نزول الآية في المدينة، فإنّ الله علم ذلك فأوحى به الى رسوله صلى الله عليه وسلم، على أنّ بعض آراء اليهود كان ممّا يتحدّث به أهل مكة قبل الإسلام، يتلقّونه تلقّي القصص والأخبار. وكانوا بعد البعثة يسألون اليهود عن أمر النبوّة والأنبياء، كما أنّ إرادة الله إبطال أوهام اليهود لا تقتضي أن يؤخّر إبطالها الى سماعها بل قد يجيء ما يبطلها قبل فشوّها في الناس، كما في قوله تعالى { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } [الزمر:67] فإنّها نزلت بمكة. فقد ورد أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أتاه بعض أحبار اليهود فقال: إن الله يضع السماوات على أصبع والأرضين على إصبع والبحار على أصبع والجبال على إصبع، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض، فتلا النبيّ صلى الله عليه وسلم الآية.

وهي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة المرسلات وقبل سورة البلد.

وقد أجمع العادُّون على **عدّ آيها** خمسا وأربعين.

أغراض السورة

*/ التنويه بشأن القرآن.

*/ أنّهم كذّبوا الرسول صلى الله عليه وسلم لأنّه من البشر.

*/ الاستدلال على إثبات البعث وأنّه ليس بأعظم من ابتداء خلق السماوات وما فيها، وخلق الأرض وما عليها، ونشأة النبات والثمار من ماء السماء، وأنّ ذلك مثَلٌ للإحياء بعد الموت.

*/ تنظير المشركين في تكذيبهم بالرسالة والبعث ببعض الأمم الخالية المعلومة لديهم، ووعيد هؤلاء أن يحلّ بهم ما حلّ بأولئك.

*/ الوعيد بعذاب الآخرة ابتداء من وقت احتضار الواحد، وذكر هول يوم الحساب.

*/ وعد المؤمنين بنعيم الآخرة.

*/ تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم إيّاه وأمره بالإقبال على طاعة ربّه وإرجاء أمر المكذّبين إلى يوم القيامة، وأنّ الله لو شاء لأخذهم من الآن ولكن حكمة الله قضت بإرجائهم، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يُكلّف بأن يكرههم على الإسلام وإنّما أُمر بالتذكير بالقرآن.

*/ الثناء على المؤمنين بالبعث بأنّهم الذين يتذكّرون بالقرآن.

*/ إحاطة علم الله تعالى بخفيّات الأشياء وخواطر النفوس.

{ **ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ** [1] **بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ** [2] **أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** [3] }.

{ **ق** } القول فيه نظير القول في أمثاله من الحروف المقطّعة الواقعة في أوائل السور. فهو حرف من حروف التهجّي. وقد رسموه في المصحف بصورة حرف القاف، وأجمعوا على أنّ النطق بها باسم الحرف المعروف أي: ينطقون بقاف بعدها ألف، بعده فاء.

{ **وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ** } قسم بالقرآن، والقسم به كناية عن التنويه بشأنه لأنّ القسم لا يكون إلّا بعظيم عند المقسِم فكان التعظيم من لوازم القسم.

{ **الْمَجِيدِ** } المتّصف بقوّة المجد. والمجد، ويقال المجادة: الشرف الكامل وكرم النوع. تنويه صريح بعد التنويه الكنائي من خلال القسم.

وشرف القرآن من بين أنواع الكلام أنّه مشتمل على أعلى المعاني النافعة لصلاح الناس، فذلك مجده.

وأمّا كمال مجده الذي دلّت عليه صيغة المبالغة فذلك بأنّه يفوق أفضل ما أبلغه الله للناس من أنواع الكلام الدال على مراد الله تعالى، إذ أوجد ألفاظه وتراكيبه وصورة نظمه بقدرته دون واسطة، فإنّ أكثر الكلام الدال على مراد الله تعالى أوجده الرسل والأنبياء المتكلّمون به، يُعبّرون بكلامهم عمَّا يلقى إليهم من الوحي.

ويدخل في كمال مجده أنّه يفوق كلّ كلام أوجده الله تعالى بقدرته على سبيل خرق العادة مثل الكلام الذي كلم الله به موسى عليه السلام بدون واسطة الملائكة، ومثل ما أوحي به إلى محمد صلى الله عليه وسلم من أقوال الله تعالى المعبّر عنه في اصطلاح علمائنا بالحديث القدسي، فإنّ القرآن يفوق ذلك كلّه لمّا جعله الله بأفصح اللغات وجعله معجزا لبلغاء أهل تلك اللغة. ويفوق كلّ كلام من ذلك القبيل بوفرة معانيه وعدم انحصارها، وتميَّز على سائر الكتب الدينية بأنّه لا ينسخه كتاب يجيء بعده، والقليل الذي نُسخ منه كان ببعضه.

وجواب القسم محذوف لتذهب نفس السامع في تقديره كل طريق ممكن. والتقدير: والقرآن المجيد إنك لرسول الله بالحق، كما صرّح به في قوله { يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [يس:1-4] أو يقدّر الجواب: إنه لتنزيل من رب العالمين، أو نحو ذلك. وهذا من إيجاز الحذف وحسَّنه أنّ الانتقال مشعر بأهمية المتنقَّل إليه.

وتقدّم بيان نظيره عند قوله تعالى { بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ } [ص:2].

{ **بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ** } خبر مستعمل في الإنكار إنكارا لعجبهم البالغ حد الإحالة.

{ **عَجِبُوا** } حصل لهم العَجب (بفتح الجيم)، وهو الأمر غير المألوف للشخص، كقوله تعالى { قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [هود:72/73].

فالمعنى هنا: أنّهم نفوا جواز أن يرسل الله إليهم بشرا مثلهم، قال تعالى { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً } [الاسراء:94].

وضمير { عَجِبُوا } عائد إلى غير مذكور، فمعاده معلوم من السياق، أعني افتتاح السورة بحرف التهجّي الذي قُصد منه تعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن، لأنّ عجزهم عن الإتيان بمثله في حال أنّه مركّب من حروف لغتهم يدلّهم على أنّه ليس بكلام بشر بل هو كلام أبدعته قدرة الله وأبلغه الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على لسان الملك، فإنّ المتحدَّين بالإعجاز مشهورون يعلمهم المسلمون، وهم أيضا يعلمون أنّهم المعنيون بالتحدّي بالإعجاز. على أنّه سيأتي ما يفسر الضمير بقوله { فَقَالَ الْكَافِرُونَ }.

{ **مُنْذِرٌ مِنْهُمْ** } للإيماء إلى أنّ عجبهم كان ناشئا عن صفتين في الرسول صلى الله عليه وسلم: إحداهما أنّه {مُنْذِرٌ}، أي: مخبر بعذاب يكون بعد الموت، أي: مخبر بما لا يصدِّقون بوقوعه، كما قال تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [سبأ:46]، والثانية كونه { مِنْهُمْ }، أي: أنّه من نوعهم.

ثم إن ذلك يُتخلَّص منه إلى إبطال حجّتهم وإثبات البعث، وهو المقصود بقوله لاحقا { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ - إلى قوله - كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } [4-11].

{ **فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ** } فُرّع على التكذيب الحاصل في نفوسهم ذكر مقالتهم التي تُفصح عنه وعن شبهتهم الباطلة. وعبّر عنهم بالاسم الظاهر { فَقَالَ الْكَافِرُونَ }، دون: فقالوا، لتوسيمهم، فإنّ هذه المقالة من آثار الكفر، وليكون فيه تفسير للضميرين السابقين.

{ **هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ** } الإشارة إلى ما هو جار في مقام مقالتهم تلك من دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاهم للإيمان بالرجع، أي: البعث، وهو الذي بيّنته جملة { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً }.

{ **أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب والإبطال، والمستفهم عنه محذوف دلّ عليه ظرف { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً }، والتقدير: أنرجع إلى الحياة في حين انعدام الحياة منا بالموت وحين تفتت الجسد وصيرورته ترابا، وذلك عندهم أقصى الاستبعاد.

{ **ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** } مؤكدة لجملة { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً } بطريق الحقيقة والذكر، بعد أن أفيد بطريق المجاز والحذف، لأنّ شأن التأكيد أن يكون أجلى دلالة.

الرجع: مصدر رجع، أي: الرجوع إلى الحياة.

{ **بَعِيدٌ** } أي: أنّه بعيد عن تصوّر العقل، أي: هو أمر مستحيل.

{ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ** } [4].

ردّ لقولهم { ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ }، فإنّ إحالتهم البعث ناشئة عن عدّة شبه منها:

أنّ تفرّق أجزاء الأجساد في مناحي الأرض ومهاب الرياح لا تُبقي أملا في إمكان جمعها.

وأنّها لو عُلمت مواقعها لتعذَّر التقاطها وجمعها.

ولو جُمعت كيف تعود إلى صورها التي كانت مشكلَّة بها؟

وأنّها لو عادت كيف تعود إليها؟

فاقتصر في إقلاع شبههم على إقلاع أصلها: وهو عدم العلم بمواقع تلك الأجزاء وذرّاتها.

والجملة مفصولة بدون عطف لأنّها ابتداء كلام لردّ كلامهم، وهذا هو الأليق بنظم الكلام. وقيل: هي جواب القسم كما علمته آنفا. وأيا ما كان فهي، كما أسلفنا، ردّ لقولهم { ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ }.

المعنى: إذا كان عالما بتلك الأجزاء، كما هو مقتضى عموم العلم الإلهي، وكان قد أراد إحياء أصحابها، كما أخبر به، فلا يعظم على قدرته جمعها وتركيبها أجساما كأجسام أصحابها حين فارقوا الحياة.

{ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ** } إيماء إلى دليل الإمكان، لأنّ مرجعه إلى عموم العلم كما قلنا.

واعلم أن هذا الكلام كاف لإبطال تكذيبهم ولاستدعائهم للنظر في الدعوة، ثم يبقى النظر في كيفية الإعادة، وهي أمر لم نكلّف بالبحث عنه.

وقد اختلف فيها النُظّار، فقال جمهور أهل السنة والمعتزلة: تعاد الأجسام بعد عدمها. ومعنى إعادتها، إعادة أمثالها بأن يخلق الله أجسادا مثل الأولى تودع فيها الأرواح التي كانت في الدنيا حالة في الأجساد المعدومة الآن فيصير ذلك الجسم لصاحب الروح في الدنيا. وأدلة الكتاب أكثرها ظاهر في تأييد هذا الرأي، كقوله تعالى { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } [الانبياء:104]، وفي معناه قوله تعالى { كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ } [النساء:56].

وورد في الآثار: " **أنّ كل ابن آدم يفنى إلّا عَجْبَ الذنب، منه خُلق ومنه يُركَّب** " [رواه مسلم]. وعلى هذا تكون نسبة الأجساد المعادة كنسبة النخلة من النواة. وهذا واسطة بين القول بأنّ الإعادة عن عدم والقول بأنها عن تفرق. ولا قائل من العقلاء بأنّ المعدوم يعاد بعينه وإنّما المراد ما ذكرناه وما عداه مجازفة في التعبير.

{ **وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ** } عطف على قوله { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ }، عطف الأعم على الأخص، وهو بمعنى التذييل له، أي: وعندنا علم بكل شيء علما ثابتا.

{ **كِتَابٌ** } التنكير للتعظيم، وهو تعظيم التعميم، أي: عندنا كتاب كلّ شيء. ويطلق الكتاب على مجموع الصحائف. فيجوز أن يكون الكتاب حقيقة، بأن جعل الله كتبا وأودعها الى ملائكة يسجّلون فيها الناس حين وفياتهم ومواضع أجسادهم ومقار أرواحهم وانتساب كل روح إلى جسدها المعيّن الذي كانت حالة فيه حال

الحياة الدنيا، صادقا بكتب عديدة لكل إنسان كتابه، وتكون مثل صحائف الأعمال الذي جاء فيه قوله تعالى {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً } [الإسراء:14/13].

ويجوز أن يكون مجموع قوله تعالى { وَعِنْدَنَا كِتَابٌ } تمثيلا لعلم الله تعالى بحال علم من عنده كتاب حفيظ يعلم به جميع أعمال الناس.

{ **حَفِيظٌ** } فعيل: إمّا بمعنى فاعل، أي: حافظ لما جُعل لإحصائه من أسماء الذوات ومصائرها. وإمّا بمعنى مفعول، أي: محفوظ ما فيه ممّا قد يعتري الكتب المألوفة من المحو والتغيير والزيادة والتشطيب ونحو ذلك.

{ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ } [5].

إضراب ثان تابع للإضراب الذي في قوله تعالى { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ } [2] على طريقة تكرير الجملة في مقام التنديد والإبطال، أو بدل من تلك الجملة، لأنّ ذلك العجب مشتمل على التكذيب.

وكلا الاعتبارين يقتضيان فصل هذه الجملة بدون عاطف. أي: أنّهم أتوا بأفظع من إحالتهم البعث وذلك هو التكذيب بالحق.

{ **بِالْحَقِّ** } هنا القرآن، لأنّ فعل التكذيب إذا عدّي بالباء عدّي إلى الخبر وإذا عدّي بنفسه كان لتكذيب المخبر.

{ **لَمَّا** } حرف توقيت، فهي دالة على ربط حصول جوابها بوقت حصول شرطها فهي مؤذنة بمبادرة حصول الجواب عند حصول الشرط كقوله تعالى { فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } [البقرة:17].

{ **جَاءَهُمْ** } بلغهم وأُعلموا به.

المعنى: أنّهم بادروا بالتكذيب دون تأمّل ولا نظر فيما حواه من الحقّ بل كذّبوا به من أوّل وهلة. فالتكذيب بما جاء به القرآن يعمّ التكذيب بالبعث وغيره.

{ **فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ** } فُرّع على الخبر المنتقل إليه بالإضراب وصف حالهم الناشئة عن المبادرة بالتكذيب قبل التأمّل بأنّها أمر مريج أحاط بهم وتلجلجوا فيه، كما دلّ عليه حرف الظرفية.

{ **أَمْرٍ** } اسم مبهم مثل شيء، ولمّا وقع هنا بعد حرف { فِي } المستعمل في الظرفية المجازية تعيّن أن يكون المراد بالأمر الحال المتلبسون هم به.

المريج: المضطرب المختلط، أي لا قرار في أنفسهم في هذا التكذيب، اضطربت فيه أحوالهم كلّها؛

من أقوالهم في وصف القرآن:

فقالوا { سِحْرٌ مُبِينٌ } [المائدة:110]، وقالوا { إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام:25]، وقالوا { قَوْلِ شَاعِرٍ } [الحاقة:41]، وقالوا { قَوْلِ كَاهِنٍ } [الحاقة:42]، وقالوا: "هذيان مجنون".

وفي سلوكهم في طرق مقاومة دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم وما يصفونه به إذا سألهم الواردون من قبائل العرب. ومن بهتهم في إعجاز القرآن، ودلالة غيره من المعجزات وما دمغهم به من الحجج على إبطال الإشراك وإثبات الوحدانية لله.

وهذا تحميق لهم بأنّهم طاشت عقولهم فلم يتقنوا التكذيب ولم يرسوا على وصف الكلام الذي كذّبوا به.

{ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ } [6].

تفريع على قوله { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ - إلى قوله – مَرِيجٍ } [2-5]، لأنّ أهم ما ذُكر من تكذيبهم أنّهم كذّبوا بالبعث، وخَلْق السماوات والنجوم والأرض دالٌّ على أنّ إعادة الإنسان بعد العدم في حيز الإمكان، فتلك العوالم وُجدت عن عدم، وهذا أدلُّ عليه قوله تعالى { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ } [يس:81].

{ **أَفَلَمْ يَنْظُرُوا** } الاستفهام يجوز أن يكون إنكاريا. والنظر: نظر الفكر، على نحو قوله تعالى { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [يونس:101]. ومحلّ الإنكار هو الحال التي دل عليها { كَيْفَ بَنَيْنَاهَا }، أي: ألم يتدبّروا في شواهد الخليقة، فتكون الآية في معنى قوله تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [الروم:8].

ويجوز أنّ يكون الاستفهام تقريريا، والنظر المشاهدة، ومحلّ التقرير هو فعل { يَنْظُرُوا }، أو يكون { كَيْفَ } مراد به الحال المشاهدة.

والتقرير على نفي الشيء المراد الإقرار بإثباته طريقة قرآنية ذكرناها غير مرة، وبيَّنّا أن الغرض منه إفساح المجال للمقرَّر إن كان يروم إنكار ما قُرِّر عليه، ثقة من المقرِّر (بكسر الراء) بأنّ المقرَّر (بالفتح) لا يُقدم على الجحود بما قُرِّر عليه لظهوره، وتقدّم عند قوله تعالى { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ } [الأعراف:148]، وقوله تعالى { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ } [الأعراف:172].

{ **إِلَى السَّمَاءِ** } هنا ما تراه العين من كرة الهواء التي تبدو كالقبّة، وتسمَّى الجو.

{ **فَوْقَهُمْ** } حال من السماء. والتقييد بالحال تنديد عليهم لإهمالهم التأمّل مع المكنة منه، إذ السماء قريبة فوقهم لا يكلّفهم النظر فيها إلّا رفع رؤوسهم.

{ **كَيْفَ** } اسم جامد مبني معناه: حالة، وأكثر ما يرد في الكلام للسؤال عن الحالة، وهي هنا بدل من { فَوْقَهُمْ} فتكون حالا في المعنى.

{ **بَنَيْنَاهَا** } أطلق البناء على خلق العلويات بجامع الارتفاع.

{ **وَزَيَّنَّاهَا** } التزيين جعل الشيء زَيْنًا، أي: حَسَنا، أي: تحسين منظرها للرائي بما يبدو فيها من الشمس نهارا والقمر والنجوم ليلا. ويتفاوت الناس في إدراك ما في خلق الكواكب والشمس والقمر ونظامها من دلائل، على مقدار تفاوت علومهم وعقولهم.

{ **وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ** } عطف على جملتي { كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا }، فهي حال ثالثة في المعنى.

الفروج: جمع فرج، وهو الخرق، أي: يشاهدونها كأنّها كرة متّصلة الأجزاء ليس بين أجزائها تفاوت يبدو كالخرق، ولا تباعد يفصل بعضها عن بعض فيكون خرقا في قبّتها.

ونظير هذه الآية قوله تعالى { الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً – إلى قوله - هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ } [الملك:3].

{ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [7].

عطف على جملة { أَفَلَمْ يَنْظُرُوا } [6]، عطف الخبر على الاستفهام الإنكاري وهو في معنى الإخبار.

ولمّا كانت أحوال الأرض نصب أعين الناس وهي أقرب إليهم من أحوال السماء، لأنها تلوح للأنظار دون تكلّف، لم يؤت في لفت أنظارهم إلى دلالتها باستفهام إنكاري تنزيلا لهم منزلة من نظر في أحوال الأرض فلم يكونوا بحاجة إلى إعادة الأخبار بأحوال الأرض تذكيرا لهم.

المدّ: البسط، أي: بسطنا الأرض حتّى لا يكون المشي عليها مرهقا. والمراد: بسط سطح الأرض وليس المراد وصف حجم الأرض لأنّ ذلك لا تدركه المشاهدة ولم ينظر فيه المخاطبون، فلا يُعتبر في سياق الاستدلال على القدرة على خلق الأمور العظيمة، ولا في سياق الامتنان بما في ذلك الدليل من نعمة، فلا علاقة لهذه الآية بقضية كروية الأرض.

الإلقاء: تمثيل لتكوين أجسام بارزة على الأرض متباعد بعضها عن بعض، لأنّ حقيقة الإلقاء: رمي شيء من اليد إلى الأرض، وهذا استدلال بخلقة الجبال، كقوله تعالى { وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ } [الغاشية:19].

رواسي: جمع راسٍ، على غير قياس. والرُسُوُّ: الثبات والقرار.

وفائدة هذا الوصف زيادة التنبيه إلى بديع خلق الله إذ جعل الجبال متداخلة مع الأرض ولم تكن موضوعة عليها وضعا كما توضع الخيمة لأنّها لو كانت كذلك لتزلزلت وسقطت، قال تعالى { وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ } [الأنبياء:31].

الزوج: النوع من الحيوان والثمار والنبات، وتقدّم في قوله تعالى { فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى } [طه:53]. والمعنى: وأنبتنا في الأرض أصناف النبات وأنواعه.

{ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ } يظهر أنّ حرف { مِنْ } مزيد للتوكيد. وكلمة { كُلِّ } مستعملة في معنى الكثرة، كما تقدّم في قوله تعالى { وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا } [الأنعام:25].

وهذا كقوله تعالى { فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى } [طه:53].
وفائدة التكثير هنا التعريض بهم لقلّة تدبّرهم، إذ عَمُوا عن دلائل كثيرة واضحة بين أيديهم.
البهيج: يجوز أن يكون صفة مشبّهة، يقال: بهُج (بضم الهاء)، إذا حسُن في أعين الناظرين، فالبهيج بمعنى الفاعل كما دلّ عليه قوله تعالى { فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ } [النمل:60].
ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول، أي: مُنْبَهَجٌ به على الحذف والإيصال، أي: يُسَرُّ به الناظر، يقال: بَهَجَه إذا سَرَّه، ومنه الابتهاج المسرَّة.
وهذا الوصف يفيد ذكره تقوية الاستدلال على دقة صنع الله تعالى، وإدماج الامتنان عليهم بذلك ليشكروا النعمة ولا يكفروها بعبادة غيره.

{ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ } [8].
مفعول لأجله للأفعال السابقة من قوله تعالى { بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا } [6] وقوله تعالى { مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا } [7]، على أنّه علة لها على نحو من طريقة التنازع، أي: ليكون ما سبق ذكره تبصرة وذكرى، أي: جعلناه لغرض أن نُبصّر به ونُذكّر كلّ عبد منيب.
{ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى } حُذف المتعلّق ليعمّ كلّ ما يصلح أن يُتبصَّر في شأنه بدلائل خلق الأرض وما عليها، وأهم ذلك فيهم هو التوحيد والبعث، كما هو السياق تصريحا وتلويحا.
وإنّما كانت التبصرة والذكرى علّة للأفعال المذكورة لأنّ التبصرة والذكرى من جملة الحكم التي أوجد الله تلك المخلوقات لأجلها. وليس ذلك بمقتض انحصار حكمة خلقها في التبصرة والذكرى، لأنّ أفعال الله تعالى لها حكم كثيرة علمنا بعضها وخفي علينا بعض.
التبصرة: مصدر بصّره. وأصل مصدره التبصير. والتبصير: جعل المرء مُبصِرا وهو هنا مجاز للأمر الذي كان خفيّا عن النفس، فكأنّها لم تبصره ثم أبصرته.
الذكرى: اسم مصدر ذَكَّر، إذا جعله يذكر ما نسيه. وأطلقت هنا على مراجعة النفس ما علمته ثم غفلت عنه.
{ عَبْدٍ } بمعنى عبد الله، أي: مخلوق، ولا يطلق إلّا على الإنسان. وجمعه: عباد دون عبيد.
المنيب: الراجع، والمراد هنا الراجع إلى الحقّ بطاعة الله فإذا انحرف أو شغله شاغل ابتدر الرجوع إلى ما كان فيه من الاستقامة والامتثال فلا يفارقه حال الطاعة وإذا فارقه قليلا آب إليه وأناب. وإطلاق المنيب على التائب والإنابة على التوبة من تفاريع هذا المعنى، وتقدّم عند قوله تعالى { وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ } [ص:24].
وخُصّ العبد المنيب بالتبصرة والذكرى لأنّه هو الذي ينتفع بذلك، فكأنّه هو المقصود من حكمة تلك الأفعال.
وهذا تشريف للمؤمنين وتعريض بإهمال الكافرين التبصّر والتذكّر.

{ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ [9] وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ [10] }.

عطف على جملة { وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا } [7]. بعد التنظّر والتذكير والتبصير في صنع السماوات وصنع الأرض وما فيهما من وقت نشأتهما، نُقل الكلام إلى التذكير بإيجاد آثار من آثار تلك المصنوعات تتجدّد على مرور الدهر حيّة ثم تموت ثم تحيا دأبا، وقد غُيّر أسلوب الكلام لهذا الانتقال من أسلوب الاستفهام في قوله تعالى { أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ } [6] إلى أسلوب الإخبار بقوله { وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً } إيذانا بتبديل المراد، ليكون منه تخلّص إلى الدلالة على إمكان البعث في قوله تعالى { كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } [11].

المبارك: اسم مفعول للذي جُعلت فيه البركة، أي: جُعل فيه خير كثير. وأفعال هذه المادة كثيرة التصرّف ومتنوعة التعليق. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً } [آل عمران:96].

وفي هذا استدلال بتفصيل الإنبات، الذي سبق إجماله في قوله { وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [7]، لما فيه من سوق العقول إلى التأمّل في دقيق الصنع لذلك الإنبات، وأنّ حصوله بهذا السبب وعلى ذلك التطوّر أعظم دلالة على حكمة الله وسعة علمه ممّا لو كان إنبات الأزواج بالطفرة [ما قاله بعض المعتزلة]، إذ تكون حينئذ أسباب تكوينها خفية.

الجنّات: جمع جنّة، وهي ما شُجر بالكرم وأشجار الفواكه والنخيل.

الحَبّ: هو ما ينبت في الزرع الذي يُخرج سنابل تحوي حبوبا مثل البُر والشعير والذرة والسلت والقطاني ممّا تحصد أصوله ليُدقَّ فيخرج ما فيه من الحبّ.

{ **حَبَّ الْحَصِيدِ** } مفعول { فَأَنْبَتْنَا }، لأنّ الحَبّ ممّا نبت تبعا لنبات سنبله.

الحصيد: الزرع المحصود، أي: المقطوع من جذوره لأكل حبّه.

{ **وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ** } خُصَّ النخل بالذكر، مع تناول جنات له، لأنّه أهم الأشجار عندهم وثمره أكثر أقواتهم، ولإتباعه بالأوصاف له ولطلعه، ممّا يثير تذكر بديع قوامه، وأنيق جماله.

الباسقات: الطويلات في ارتفاع، أي: عاليات. فلا يقال: باسق للطويل الممتدّ على الأرض. والمقصود من ذلك الإيماء إلى بديع خلقته وجمال طلعته استدلالا وامتنانا.

الطلع: أوّل ما يظهر من ثمر التمر وهو في الكُفُرَى، أي: غلاف العنقود.

النضيد: المنضود، أي: المصفّف بعضه فوق بعض ما دام في الكُفُرَى، فإذا انشق عنه الكفرى فليس بنضيد. قال تعالى { وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ } [الواقعة:29].

وزيادة هذه الحال للازدياد من الصفات الناشئة عن بديع الصنعة، ومن المنّة بمحاسن منظر ما أوتوه.

{ **رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ** } [11].

{ **رِزْقاً لِلْعِبَادِ** } مفعول لأجله لقوله تعالى { فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ } [9] إلى آخره، فهو مصدر، أي: لنرزق العباد.

والقول في التعليل به كالقول في التعليل بقوله تعالى { تَبْصِرَةً وَذِكْرَى } [8].

العباد: الناس، وهو جمع عبد بمعنى عبد الله. وهذا استدلال وامتنان.

{ **وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً** } عطف على السابق من القول، عطف الفعل على الاسم المشتقّ من الفعل، لأنّه في معنى: رزقنا العباد وأحيينا به بلدة ميتا. فهو كذلك استدلال وفيه امتنان.

البلدة: القطعة من الأرض.

الميت (بالتخفيف): مرادف الميّت (بالتشديد). وتذكير { مَيْتاً } وهو وصف لـ { بَلْدَةً } وهي مؤنث، على تأويله بالبلد لأنّه مرادفه، وبالمكان لأنّه جنسه. شُبِّه الجدب بالموت في انعدام ظهور الآثار، ولذلك سُمِّي ضدّه، وهو إنبات الأرض، حياة. ويقال لخدمة الأرض اليابسة وسقيها: إحياء موات.

{ **كَذَلِكَ الْخُرُوجُ** } بعد ظهور الدلائل بصنع الله على إمكان البعث، لأنّ خلق تلك المخلوقات من عدم يدل على أنّ إعادة بعض الموجودات الضعيفة أمكن وأهون، جيء بما يفيد تقريب البعث.

فالجملة فذلكة للاستدلال على إمكان البعث الذي تضمّنته الجمل السابقة فوجب انفصالها، فتكون استئنافا أو اعتراضا في آخر الكلام، على رأي من يجيزه، وهو الأصح.

{ **كَذَلِكَ** } الإشارة إلى ما ذُكر آنفا من إحياء الأرض بعد موتها، أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها كذلك نحيي الناس بعد موتهم وبلاهم، مع إفادتها تعظيم شأن المشار إليه.

{ **الْخُرُوجُ** } التعريف للعهد، أي: خروج الناس من الأرض، كما قال تعالى { يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً } [المعارج:43]. فـ { الْخُرُوجُ } صار كالعلم بالغلبة على البعث.

{ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ [12] وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ [13] وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ [14]** }.

استئناف ابتدائي ناشئ عن قوله { بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ } [5]، فعُقّب بأنّهم ليسوا ببدع في الضلال، فقد كذَّبت قبلهم أمم. وذكر منهم أشهرهم في العالم وأشهرهم بين العرب؛ فقوم نوح أوّل قوم كذّبوا رسولهم، وفرعون كذّب موسى، وقوم لوط كذّبوه، وهؤلاء معروفون عند أهل الكتاب، وأمّا أصحاب الرَسّ وعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبّع فهم من العرب.

{ **وَأَصْحَابُ الرَّسِّ** } ذُكروا هنا عقب قوم نوح للجامع الخيالي بين القومين وهو جامع التّضاد، لأنّ عذابهم كان ضدّ عذاب قوم نوح، إذ كان عذابهم بالخسف وعذاب قوم نوح بالغرق.

{ **وَثَمُودُ** } ثُمّ ذُكر ثمود لشبه عذابهم بعذاب أصحاب الرَسّ إذ كان عذابهم برجفة الأرض وصواعق السماء، ولأنّ أصحاب الرّسّ من بقايا ثمود.

{ **وَعَادٌ** } ثُمّ ذُكرت عاد لأنّ عذابها كان بحادث في الجو وهو الريح.

{ **وَفِرْعَوْنُ** } ثم ذُكر فرعون لأنّه كذّب أشهر الرسل قبل الإسلام.

{ **وَإِخْوَانُ لُوطٍ** } عُبّر عن قوم لوط بـ { وَإِخْوَانُ لُوطٍ } ولم يكونوا من قبيله، فالمراد بـ { إِخْوَانُ } أنّهم ملازمون. وهم أهل سدوم وعمورة وقراهما، وكان لوط ساكنا في سدوم ولم يكن من أهل نسبهم لأنّ أهل سدوم كنعانيون ولوطا عبراني. وقد تقدّم قوله تعالى { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ } [الشعراء:161].

{ **وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ** } وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب وهم من خلطاء بني إسرائيل.

{ **وَقَوْمُ تُبَّعٍ** } وذُكر قوم تبّع وهم أهل اليمن ولم يكن العرب يعدّونهم عربا.

وهذه الأمم أصابها عذاب شديد في الدنيا عقابا على تكذيبهم الرسل. والمقصود تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتعريض بالتهديد لقومه المكذّبين أنّ يحلّ بهم ما حل بأولئك.

الرسّ: يطلق اسما للبئر غير المطويّة ويطلق مصدرا للدفن والدسّ. واختلف المفسرون في المراد به هنا.

{ **وَأَصْحَابُ الرَّسِّ** } قوم عرفوا بالإضافة إلى الرّسّ، فيُحتمل أن إضافتهم إلى الرس من إضافة الشيء إلى موطنه مثل { أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ }، و{ أَصْحَابُ الْحِجْرِ } [الحجر:80]، و{ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ } [يس:13].

ويجوز أن تكون إضافة إلى حَدَثٍ حلّ بهم مثل { أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ } [البروج:4].

والأظهر أنّ إضافة { أَصْحَابُ } إلى { الرَّسِّ } من إضافة اسم إلى حَدَثٍ حلّ بهم، فقد قيل: إنّ أصحاب الرّسّ عوقبوا بخسف في الأرض فوقعوا في مثل البئر.

وقيل: هو بئر ألقى أصحابه فيه (**حنظلة بن صفوان**) رسول الله إليهم، حيًّا.

وتقدّم الكلام عليهم عند قوله تعالى { وَعَاداً وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ } [الفرقان:38].

{ **كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ** } مؤكِّدة لجملة { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ } الى آخرها، فلذلك فُصلت ولم تعطف، وليبنى عليه قوله { **فَحَقَّ وَعِيدِ** } فيكون تهديد بأن يحقّ عليهم الوعيد كما حقّ على أولئك، مرتبا بالفاء، على تكذيبهم الرسل، فيكون في ذلك تشريف للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللرسل السابقين.

{ **كُلٌّ** } التنوين عوض عن المضاف إليه، أي: كلّ أولئك.

{ **فَحَقَّ** } صدق وتحقق. أي: أنّ الله توعّدهم به فلم يعبأوا وكذّبوا وقوعه فحقّ وصدق.

{ **وَعِيدِ** } حُذفت ياء المتكلّم للرعي على الفاصلة وهو كثير. و **الوعيد**: الإنذار بالعقوبة.

{ **أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** } [15].

الراجح أن يجعل تفريعا على قوله تعالى { كَذَلِكَ الْخُرُوجُ }. والاستفهام المفرّع بالفاء استفهام إنكار وتغليط لأنّهم لا يسعهم إلّا الاعتراف بأنّ الله لم يعي بالخلق الأوّل إذ لا ينكر عاقل كمال قدرة الخالق وعدم عجزه.

{ **أَفَعَيِينَا** } معناه عجزنا، وفعل **عَيَّ** (مدغما) إذا لم يتصل به ضمير وهو الأكثر، ويقال: **عَيِيَ** (بالفك) إذا اتصل به ضمير. ومعناه: عجز عن إتقان فعل ولم يهتد لحيلته. ويعدّى بـ (الباء) يقال: عيي بالأمر.

وأمّا (أعيا) بالهمزة في أوله قاصرا فهو للتعب بمشي أو حمل ثقل وهو فعل قاصر لا يعدّى بـ (الباء).

فالمعنى: ما عجزنا عن الخلق الأوّل للإنسان فكيف نعجز عن إعادة خلقه.

{ **بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** } (بل) هنا للإضراب الإبطالي عن المستفهم عنه، أي: بل ما عيينا بالخلق الأول، أي: وهم يعلمون ذلك، ويعلمون أنّ الخلق الأوّل للأشياء أعظم من إعادة خلق الأموات ولكنّهم تمكّن منهم اللبس الشديد فأغشى إدراكهم عن دلائل الإمكان فأحالوه.

اللبس: الخلط للأشياء المختلفة بحيث يعسر أو يتعذّر معه تمييز بعضها عن بعض.

وجيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات هذا الحكم لهم وأنّه متمكّن من نفوسهم لا يفارقهم البتّة، وليتأتّى اجتلاب حرف الظرفية في الخبر فيدلّ على انغماسهم في هذا اللبس وإحاطته بهم إحاطة الظرف بالمظروف.

{ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** } [16].

هذا تفصيل لبعض الخلق الأوّل بذكر خلق الإنسان، وهو أهم في هذا المقام، للتنبيه على أنّه المراد من الخلق الأول، وليبنى عليه { وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ } الذي هو تتميم لإحاطة صفة العلم في قوله { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ } [4]، ولينتقل منه إلى الإنذار بإحصاء أعمال الناس، وهو ما استرسل في وصفه من قوله { إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ } [17]، ووصف البعث وصف الجزاء من قوله { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ - الى قوله - وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } [20-35]

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد هذا الخبر بالـ (لام) و(قد) مراعى فيه المتعاطفات، وهي { وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ }، لأنّهم وإن كانوا يعلمون أنّ الله خلق الناس فإنّهم لا يعلمون أنّ الله عالم بأحوالهم.

{ **الْإِنْسَانَ** } يعمّ جميع النّاس ولكن المقصود منهم أوّلا المشركون لأنّهم المسوق إليهم هذا الخبر، وهو تعريض بالإنذار كما يدلّ عليه قوله بعده { ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ } [19] وقوله تعالى { لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا } [22]، وقوله تعالى { ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ } [20].

وفائدة الإخبار بأنّ الله يعلم ما توسوس به نفس كّل إنسان التنبيه على سعة علم الله تعالى بأحوالهم كلّها، فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم.

{ خَلَقْنَا / وَنَعْلَمُ } الإخبار عن فعل الخلق بصيغة الماضي ظاهر، وأمّا الإخبار عن علم ما توسوس به النفس بصيغة المضارع فللدلالة على أنّ تعلق علمه تعالى بالوسوسة متجدّد غير منقض ولا محدود، لإثبات عموم علم الله تعالى، والكناية عن التحذير من إضمار ما لا يرضي الله.

{ تُوَسْوِسُ } تتكلم كلاما خفيّا همسا. ومصدره الوسواس والوسوسة، أطلقت هنا مجازا على ما يجول في النفس من الخواطر والتقديرات والعزائم، لأنّ الوسوسة أقرب شيء تُشبَّه به تلك الخواطر وأحسن ما يستعار لها لأنّها تجمع مختلف أحوال ما يجول في العقل من التقادير، وما عداها من نحو ألفاظ (التوهّم والتفكّر) إنّما يدلّ على بعض أحوال الخواطر دون بعض.

{ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } في موضع الحال من ضمير { وَنَعْلَمُ }. والمقصود منها تأكيد عاملها وتحقيق استمرار العلم بباطن الإنسان.

{ أَقْرَبُ } كناية عن إحاطة العلم بالحال، لأنّ القرب يستلزم الاطلاع، وليس هو قربا بالمكان، فآل الكلام إلى التشبيه البليغ، تشبيه معقول بمحسوس، وهذا من بناء التشبيه على الكناية بمنزلة بناء المجاز على المجاز.

الحبل: هنا واحد حِبال الجسم. وهي العروق الغليظة المعروفة في الطب بالشرايين.

الوريد: واحد من الشرايين وهو ثاني شريانين يخرجان من التجويف الأيسر من القلب.

{ حَبْلِ الْوَرِيدِ } إضافة بيانية، أي: الحبل الذي هو الوريد، فإنّ إضافة الأعم إلى الأخص إذا وقعت في الكلام كانت إضافة بيانية، كقولهم: شجر الأراك.

<u>ومن لطائف هذا التمثيل</u> أنّ حبل الوريد مع قربه لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه، وكذلك قرب الله من الإنسان بعلمه قربٌ لا يشعر به الإنسان، فلذلك اختير تمثيل هذا القرب بقرب حبل الوريد.

{ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ [17] **مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** [18] }.

يتعلق { إِذْ } بقوله { أَقْرَبُ } [16]. والكلام تخلّص للموعظة والتهديد بالجزاء يوم البعث.

وهذا التخلّص بكلمة { إِذْ } الدالة على الزمان من ألطف التخلّص.

{ الْمُتَلَقِّيَانِ } تعريف العهد، إذا كانت الآية نزلت بعد آيات ذُكر فيها الحفظة، أو تعريف الجنس، والتثنية فيها للإشارة إلى أنّ هذا الجنس مقسم اثنين اثنين.

التلقّي: أخذ الشيء من يد معطيه. استعير لتسجيل الأقوال والأعمال حين صدورها من النّاس.

وحُذف مفعول { يَتَلَقَّى } لدلالة قوله { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}، والتقدير: أقوالهم وأعمالهم.
فيؤخذ من الآية أنّ لكل إنسان ملكين يحصيان أعماله، وأنّ أحدهما يكون من جهة يمينه والآخر من جهة شماله. وورد في السنة بأسانيد مقبولة: أنّ الذي يكون على اليمين يكتب الحسنات والذي عن الشمال يكتب السيّئات، وورد أنّهما يلازمان الإنسان من وقت تكليفه إلى أن يموت.
{ **عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ** } يجوز أن يكون { قَعِيدٌ } بدلا من { الْمُتَلَقِّيَانِ } بدل بعض، و{ عَنِ الْيَمِينِ } متعلّق بـ { قَعِيدٌ }، وقُدّم على متعلّقه للاهتمام بما دلّ عليه من الإحاطة بجانبيه، وللرعاية على الفاصلة.
ويجوز أن يكون { عَنِ الْيَمِينِ } خبرا مقدّما، و{ قَعِيدٌ } مبتدأ، وتكون الجملة بيانا لجملة { يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ }.
{ **وَعَنِ الشِّمَالِ** } عطف على جملة { يَتَلَقَّى } وليس عطفا على قوله { عَنِ الْيَمِينِ }، لأنّه ليس المعنى على أنّ القعيد قعيد في الجهتين، بل لكلّ من الجهتين قعيد مستقلّ بها. والتقدير: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد.
{ **الْيَمِينِ / الشِّمَالِ** } تعريف العهد أو اللام عوض عن المضاف إليه، أي: عن يمين الإنسان وعن شماله.
القعيد: المُقاعد مثل الجليس للمجالس، والأكيل للمؤاكل. والغالب في فعيل أن يكون إمّا بمعنى فاعل، وإمّا بمعنى مفعول، فلمّا كان في المفاعلة معنى الفاعل والمفعول معا، جاز مجيء فعيل منه بأحد الاعتبارين تعويلا على القرينة، ولذلك قالوا لامرأة الرجل: قعيدته.
والقعيد مستعار للملازم الذي لا ينفك عنه، كما أطلقوا القعيد على الحافظ لأنّه يلازم الشيء الموكل بحفظه.
{ **مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** } مبيّنة لجملة { إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ } فلذلك فصلت.
{ **مَا يَلْفِظُ** } و(ما) نافية وضمير { يَلْفِظُ } عائد للإنسان.
{ **مِنْ قَوْلٍ** } خُصّ بالذكر لأنّ المقصود ابتداء من هذا التحذير المشركون. وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" وهل يُكبّ الناس في النار على وجوههم إلّا حصائد ألسنتهم "**. على أنّه من المعلوم بدلالة الاقتضاء أنّ المؤاخذة على الأعمال أولى من المؤاخذة على الأقوال، وتلك الدلالة كافية في تذكير المؤمنين.
اللفظ: النطق بكلمة دالة على معنى، ولو جزء معنى، بخلاف القول فهو الكلام المفيد معنى.
{ **عَتِيدٌ** } فعيل من عتد بمعنى هَيَّأ، والتاء مبدلة من الدال الأول إذ أصله عديد، أي: مُعَدّ. كما في قوله تعالى { وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً } [يوسف:31].
وعندي أن { عَتِيدٌ } هنا صفة مشبّهة من قولهم عتُد (بضم التاء) إذا جسُم وضخُم، كناية عن كونه شديدا، وبهذا يحصل اختلاف بينه وبين قوله { هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ } [23]، ويحصل محسِّن الجناس التام بين الكلمتين.
{ **إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** } استثناء من أحوال عامة، أي: ما يقول قولا إلّا في حالة وجود رقيب عتيد لديه.
والأظهر أنّ هذا العموم مراد به الخصوص بقرينة قوله { إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } لأنّ المراقبة هنا تتعلّق بما في الأقوال من خير أو شرّ، فلا يكتب الحفظة إلّا ما يترتّب عليه الجزاء، وكذلك قال ابن عباس وعكرمة.

وقال الحسن: يكتبان كلّ ما صدر من العبد. قال مجاهد وأبو الجوزاء: " حتّى أنينه في مرضه ". ورُوي مثله عن مالك بن أنس.

{ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ } [19].

عطف على جملة { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } [16] لاشتراكهما في التنبيه على الجزاء على الأعمال. فهذا تنقّل في مراحل الأمور العارضة للإنسان التي تُسلمه من حال إلى آخر حتّى يقع في الجزاء على أعماله التي قد أحصاها الحفيظان.

{ **وَجَاءَتْ** } خولف التعبير في المعطوف بصيغة الماضي دون صيغة المضارع التي صيغ بها المعطوف عليه، لأنّه لقربه صار بمنزلة ما حصل، قصدًا لإدخال الرَّوع في نفوس المشركين، كما استفيد من قوله {ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ }، نظير قوله تعالى { قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ } [الجمعة:8].

والمجيء هنا مجاز في الحصول والاعتراء، وفي هذه الاستعارة تهويل لحالة احتضار الإنسان وشعوره بأنّه مفارق الحياة التي ألفها وتعلّق بها قلبه.

السكرة: اسم لما يعتري الإنسان من ألم أو اختلال في المزاج يحجب من إدراك العقل فيختلّ الإدراك ويعتري العقل غيبوبة. وهي مشتق من السَكْر (بفتح فسكون) وهو الغلق، لأنّه يغلق العقل.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، وهي إمّا حال من { سَكْرَةُ الْمَوْتِ }، أي: متّصفة بأنّها حق، أي: السكرة التي لا طمع في امتداد الحياة بعدها، وإمّا حال من { الْمَوْتِ }، أي: المفروض المكتوب على الناس فهم محقوقون به

{ **ذَلِكَ** } إشارة إلى الموت، بتنزيل قرب حصوله منزلة الحاصل المشاهد.

{ **مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ** } تفرّ وتهرب، وهو مستعار للكراهية أو لتجنب أسباب الموت.

والمقصود الأوّل من الخطاب هم المشركون لأنّهم أشد كراهية للموت، لأنّ حياتهم مادية محضة فهم يريدون طول الحياة، قال تعالى { وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } [البقرة:96]، إذ لا أمل لهم في حياة أخرى، ولا أمل لهم في تحصيل نعيمها.

أمّا المؤمنون فإنّ كراهتهم للموت المرتكزة في الجبلّة بمقدار الإلف، لا تبلغ بهم إلى حد الجزع منه. وفي الحديث: **" من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه "**. وقد بيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: **" إنّ المؤمن إذا حضرته الوفاة رأى ما أعدّ الله له من خير فأحبّ لقاء الله "**، أي: والكافر بعكسه، وقد قال الله تعالى خطابا لليهود { قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ } [الجمعة:8].

{ **مِنْهُ تَحِيدُ** } التقديم للاهتمام بما منه الحياد، وللرعاية على الفاصلة.

{ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ [20] وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ [21] }.

عطف على { وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ } [19].

{ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ } صيغة الماضي مستعملة في معنى المضارع، لتحقّق وقوعه، مثل قوله { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل:1]. والنفخ في الصور تقدّم عند قوله { وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ} [الأنعام:73].

{ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ } معترضة. والإشارة راجعة إلى النفخ، والإخبار عن النفخ بأنّه { يَوْمُ الْوَعِيدِ } بتقدير مضاف، أي: ذلك حلول يوم الوعيد.

{ يَوْمُ الْوَعِيدِ } من إضافة الشيء إلى ما يقع فيه، أي: يوم حصول الوعيد الذي كانوا تُوعِّدوا به.

والاقتصار على ذكر الوعيد لما علمت من أنّ المقصود الأول من هذه الآية هم المشركون.

{ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ } معطوفة على جملة { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ}.

{ كُلُّ نَفْسٍ } هم المشركون، ويدل عليه أمور:

أحدهما: السياق.

الثاني: قوله { مَعَهَا سَائِقٌ }، لأنّ السائق يناسب إزجاء أهل الجرائم، وأمّا المهديُّون إلى الكرامة فإنّما يهديهم قائد يسير أمامهم، قال تعالى { كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ } [الأنفال:6].

الثالث: قوله بعده { لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا } [22].

الرابع: قوله بعده { وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ } [23].

{ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ } بدل اشتمال من جملة { جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ }، ويجوز أن تكون حالا من { كُلُّ نَفْسٍ }.

{ سَائِقٌ وَشَهِيدٌ } يجوز أن يكون من عطف ذات على ذات فيكون المراد ملكان أحدهما يسوق النفس إلى المحشر والآخر يشهد عليها بما حوته صحائف أعمالها. ويجوز أن يكون من عطف الصفات.

السائق: الذي يجعل غيره أمامه يزجيه في السير ليكون بمرأى منه كيلا ينفلت، وذلك من شأن المشي به إلى ما يسوء، قال تعالى { وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً } [الزمر:71]، وأمّا قوله بعده { وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً } [الزمر:73] فمشاكلة.

وضد السوق: القَوْد.

{ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } [22].

مقول قول محذوف دلّ على تعينه من الخطاب، أي: يقال هذا الكلام لكلّ نفس من نفوس المشركين، فهو خطاب التهكّم التوبيخي للنفس الكافرة، لأنّ المؤمن لم يكن في غفلة عن الحشر والجزاء.

وهذا الكلام صادر من جانب الله تعالى، وهو شروع في ذكر الحساب.

{ **كُنْتَ / عَنْكَ / غِطَاءَكَ / فَبَصَرُكَ** } علامات الخطاب مفتوحة لتأويل النفس بالشخص أو بالإنسان، ثم غُلّب فيه التذكير على التأنيث.

الغفلة: الذهول عما شأنه أن يُعلم، وأطلقت هنا على الإنكار والجَحد على سبيل التهكّم، ورشَّح ذلك قوله تعالى { فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ }، بمعنى: بيَّنّا لك الدليل بالحسّ، فهو أيضا تهكّم.

{ **فِي غَفْلَةٍ** } أوثر على أن يقال: غافلا، للدلالة على تمكّن الغفلة منه، ولذلك استتبع تمثيلها بالغطاء.

كشف الغطاء: تمثيل لحصول اليقين بالشيء بعد إنكار وقوعه، أي: كشفنا عنك الغطاء الذي كان يحجب عنك وقوع هذا اليوم بما فيه.

وأُسند الكشف إلى الله تعالى لأنّه الذي أظهر لها أسباب حصول اليقين بشواهد عين اليقين.

{ **غِطَاءَكَ** } أضيف (غطاء) إلى ضمير الإنسان المخاطب للدلالة على اختصاصه به وأنّه ممّا يعرف به.

{ **فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** } حِدَّة البصر: قوّة نفاذه في المرئي، وحِدّة كل شيء قوّة مفعوله، ومنه حدّة الذهن.

والكلام يتضمن تشبيه حصول اليقين برؤية المرئي ببصر قوي.

{ **الْيَوْمَ** } التقييد تعريض بالتوبيخ، أي: ليس حالك اليوم كحالك قبل اليوم إذ كنت في الدنيا منكرا للبعث.

{ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ } [23].

الجملة حال من تاء الخطاب في قوله { لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا } [22]، أي: يُوبَّخ عند مشاهدة العذاب.

{ **قَرِينُهُ** } هاء الغائب عائدة إلى { كُلُّ نَفْسٍ } [21]، أو إلى الإنسان.

قرين: فعيل بمعنى مفعول، أي: مقرون إلى غيره. وكأنّ فعل قَرَنَ مشتق من القَرَن (بالتحريك) وهو الحبل وكانوا يقرنون البعير بمثله لوضع الهودج، فاستعير القرين للملازم. وهذا ليس بالتفات.

واختلف المفسّرون في المراد بالقرين في هذه الآية على ثلاثة أقوال:

<u>فقال قتادة والحسن والضحاك وابن زيد، ومجاهد في أحد قوليه</u>: هو الملك الموكّل بالإنسان الذي يسوقه إلى المحشر، أي: هو السائق الشهيد. وهذا يقتضي أن يكون القرين في قوله الآتي { قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ } [27] بمعنى غير معنى القرين في قوله { وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ }.

<u>وعن مجاهد أيضا</u>: أنّ القرين شيطان الكافر الذي كان يُزيِّن له الكفر في الدنيا، أي: الذي ورد في قوله تعالى { وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } [فصلت:25].

<u>وقال ابن زيد أيضا</u>: الصاحب والملازم من البشر.

{ **هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ** } إن كان (القرين : الملك) كانت الإشارة بقوله { هَذَا } إلى العذاب الموكَّل به ذلك الملك. وإن كان (القرين : شيطانا أو أنسانا) كانت الإشارة محتملة لأن تعود إلى العذاب كما في الوجه الأوّل، أو أن تعود إلى معاد ضمير الغيبة في قوله { قَرِينُهُ }، أي: هذا الذي معي، فيكون { لَدَيَّ } بمعنى: معي، إذ لا يخلو أحد من صاحب يأنس بمحادثته، والمراد به قرين الشرك المماثل.

وقد ذكر الله من كان قرينا للمؤمن من المشركين واختلاف حاليهما يوم الجزاء بقوله تعالى { قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ } [الصافات:52/51]. وقول القرين { هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ } مستعمل في التلهّف والتحسر والإشفاق، لأنّه لمّا رأى ما به العذاب علم أنّه قد هيِّئ له، أولما رأى ما قدّم إليه قرينه علم أنّه لاحق على أثره.

{ **عَتِيدٌ** } تقدّم عند قوله تعالى { إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [18]، وهو هنا متعيّن للمعنى الذي فسّر عليه المفسّرون، أي: مُعَدٌّ ومهيّأ.

{ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ [24] مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ [25] }.

انتقال من خطاب النفس إلى خطاب المَلَكين الموكَّلين: السائق والشهيد. والكلام مقول قول محذوف. والجملة استئناف ابتدائي.

{ **أَلْقِيَا** } صيغة المثنّى، تجوز أن تكون مستعملة في أصلها فيكون الخطاب للسائق والشهيد. ويجوز أن تكون مستعملة في خطاب الواحد وهو الملك الموكّل بجهنم وخوطب بصيغة المثنّى جريا على طريقة مستعملة في الخطاب جرت على ألسنتهم، لأنّهم يكثر فيهم أن يرافق السائر رفيقان، وهي طريقة مشهورة.

الكفَّار: قوي الكفر، أي: الشرك.

العنيد: قويّ العناد، أي: المكابر والمدافع للحقّ وهو يعلم أنّه مبطل.

المنَّاع: كثير المنع، أي: الذي يصدّ الناس عن الخير.

{ **لِلْخَيْرِ** } هنا هو الإيمان، كانوا يمنعون أبناءهم وذويهم من اتباع الإيمان، ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة كان يقول لبني أخيه: من دخل منكم في الإسلام لا أنفعه بشيء ما عشت. ويحتمل أن يراد به أيضا منع الفقراء من المال، لأنّ الخير يطلق على المال وكان أهل الجاهلية يمنعون الفقراء ويعطون المال لأكابرهم تقرّبا.

المعتدي: الظالم الذي يعتدي على المسلمين بالأذى وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والبهتان.

المريب: الذي أراب غيره، أي: جعله مرتابا، أي: شاكا، أي: بما يلقونه إلى الناس من صنوف المغالطة ليشكِّكوهم في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة الإيمان والتوحيد.

{ **الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ** } [26].

يجوز أن يكون اسم الموصول بدلا من { كَفَّارٍ عَنِيدٍ }، فإنّ المعرفة تُبدل من النكرة، كقوله تعالى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ } [الشورى:53/52].

{ **فَأَلْقِيَاهُ** } تفريع على { أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ } [24]، ومصب التفريع المتعلّق، وهو { فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ }، أي: في أشد عذاب جهنم. وإعادة الفعل للتأكيد مع التفريع.

ويجوز أن يكون اسم الموصول مبتدأ على استئناف الكلام، ويُضمَّن الموصول معنى الشرط فيكون في وجود الفاء في خبره لأجل ما فيه من معنى الشرط وهذا كثير. والمقصود منه هنا تأكيد العموم الذي في قوله تعالى { كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ }.

{ **قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ** } [27]

حكاية قول القرين بالأسلوب المتّبع في حكاية المقاولات في القرآن، وهو أسلوب الفصل دون عطف فعل القول على شيء، تُشعر بأنّ في المقام كلاما مطويًّا، هو كلام صاحب القرين طوي للإيجاز، ودليله ما تضمّنه قول القرين من نفي أن يكون هو أطغى صاحبه.

وقد حكي ذلك صريحا بقوله تعالى { هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ} [ص:59-61].

وتقدير المطوي هنا: أنّ الكافر العنيد لمّا قُدِّم إلى النار أراد التنصّل من كفره وعناده وألقى تبعته على قرينه الذي كان يزيّن له الكفر، فقال: هذا القرين أطغاني، فقال قرينه { رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ }.

{ **قَالَ قَرِينُهُ** } هو القرين الذي تقدّم ذكره في قوله تعالى { وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ } [23].

الطغيان: تجاوز الحدّ في التعاظم والظلم والكفر، وفعله (يائي) و(واوي)، يقال: طَغِيَ يطغى كرَضِيَ، وطغا يطغو كدعا.

{ **مَا أَطْغَيْتُهُ** } ما جعلته طاغيا، أي: ما أمرته بالطغيان ولا زيّنته له.

{ **وَلَكِنْ** } الاستدراك ناشئ عن شدّة المقارنة بينه وبين قرينه لا سيما إذا كان المراد بالقرين شيطانه المقيَّض له، فإنّه قُرن به من وقت إدراكه. فالاستدراك لدفع توهّم أن المقارنة بينهما تقتضي أن يكون ما به من الطغيان بتلقين القرين فهو ينفي ذلك عن نفسه، ولذلك أتبع الاستدراك بجملة:

{ **كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ** } أي: أنّ صاحبه ضال من قبلُ، فلم يكن اقترانه معه في التقييض أو في الصحبة بزائد إيّاه إضلالا، وهذا نظير ما حكاه الله عن الفريقين في قوله تعالى { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا } [البقرة:166].

{ **كَانَ** } لإفادة أنّ الضلال ثابت له بالأصالة ملازم لتكوينه.

البعيد: مستعار للبالغ في قوّة النوع حدًّا لا يبلغ إليه إدراك العاقل بسهولة، كما لا يبلغ سير السائر إلى المكان البعيد إلّا بمشقة أو بعيد الزمان، وتقدّم عند قوله { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً } [النساء:116].

المعنى: أنّ تمكّن الضلال منه يدل على أنه ليس فيه بتابع لما يمليه غيره عليه، لأنّ شأن التابع في شيء أن لا يكون مكينا فيه، مثل علم المقلّد وعلم النّظار.

{ **قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ** [28] **مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** [29] }.

هذا حكاية كلام يصدر يومئذ من جانب الله تعالى للفريقين الذي اتَّبعوا والذين اتُّبعوا، فالضمير عائد على غير مذكور في الكلام يدلّ عليه قوله تعالى { فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ } [22].

{ **قَالَ** } لم يعطف على ما قبله لوقوعه في معرض المقاولة، والتعبير بصيغة الماضي لتحقّق وقوعه.

الاختصام: المخاصمة، مصدر بصيغة الافتعال التي الأصل فيها أنّها لمطاوعة بعض الأفعال فاستعملت للتفاعل.

{ **لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ** } النهي عن المخاصمة بينهم يقتضي أنّ النفوس الكافرة ادّعت أنّ قرناءها أطغوها، وأنّ القرناء تنصّلوا من ذلك وأنّ النفوس أعادت رمي قرنائها بذلك فصار خصاما. فالمعنى: كفّوا عن الخصام. وذلك كناية عن أنّ حكم الله عليهم قد تقرّر فلا يفيدهم التخاصم لإلقاء التبعة على أحد الفريقين. كما قال تعالى { قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ } [الأعراف: 38]

{ **وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ** } حال من ضمير { لَا تَخْتَصِمُوا }، وهي حال معلِّلة للنهي عن الاختصام.

المعنى: لا تطمعوا في أنّ تدافعكم في إلقاء التبعة ينجيكم من العقاب بعد حال إنذاركم بالوعيد من وقت حياتكم. والكلام كناية عن عدم الانتفاع بالخصام كون العقاب عدلا من الله.

التقديم: جعل الشيء قدّام غيره. والمراد به هنا: كونه سابقا على المؤاخذة بالشرك، لأنّ الله توعّدهم في الدنيا

{ **بِالْوَعِيدِ** } الباء مزيدة للتأكيد كقوله { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].

{ **مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ** } تبيين للمعنى السابق، أي: لست مبطلا ذلك الوعيد، وهو { الْقَوْلُ }، أي: فما أوعدتكم

واقع لا محالة، لأن الله تعهد أن لا يغفر لمن يشرك به ويموت على ذلك.
{ **وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** } تبيين للمعنى الثاني المكنَّى عنه. أي: فلذلك قدّمت إليكم الوعيد.
{ **بِظَلَّامٍ** } المبالغة راجعة إلى تأكيد النفي. والمراد: لا أظلم شيئا من الظلم، وليس المعنى: ما أنا بشديد الظلم.

{ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ } [30].

ظرف متعلّق بـ { قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ } [28]. والتقدير: قال لهم ذلك القول يوم يقول قولا آخر لجهنّم.
ومناسبة تعليقه به أنّ هذا القول لجهنّم مقصود به ترويع المدفوعين إليها ألّا يطمع بعضهم أن يكون ممّن لا يوجد له مكان فيها، فحكاه الله في القرآن عبرة لمن يسمعه من المشركين، وتعليما لأهل القرآن المؤمنين ولذلك استوت قراءة { **يَقُولُ** } بالياء، وهي لنافع وأبي بكر عن عاصم، جريا على مقتضى ظاهر ما سبقه من قوله { قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ } وقراءة الباقين { **نَقُولُ** } بالنون على الالتفات، بل هو التفات تابع لتبديل طريق الإخبار من الحديث عن غائب إلى خطاب حاضر. والقول الأوّل حقيقي، وهو كلام يصدر من جانب الله بمحض خلقه دون واسطة. فلذلك أسند إلى الله، كما يقال القرآن كلام الله.
{ **هَلِ امْتَلأْتِ** } الاستفهام مستعمل في تنبيه أهل العذاب إلى هذا السؤال على وجه التعريض.
{ **وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ** } يجوز أن يكون حقيقة، بأن يخلق الله في أصوات لهيبها أصواتا ذات حروف يلتئم منها كلام، ويجوز أن يكون مجازا عن دلالة حالها على أنّها تسع ما يلقى فيها من أهل العذاب، بأن يكشف باطنها للمعروضين عليها حتّى يروا سعتها. والاستفهام مستعمل للتشويق والتمنّي.
المزيد: مصدر ميمي، وهو الزيادة مثل المجيد والحميد. ويجوز أنّ يكون اسم مفعول من زاد، أي: هل من جماعة آخرين يلقون فيّ.

{ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ [31] هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ [32] مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ [33] ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ [34] لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ [35] }.

{ **وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ** } عطف على { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ } فالتقدير: يوم أزلفت الجنة للمتقين، وهو رجوع إلى مقابل حالة الضالين يوم ينفخ في الصور، فهذه الجملة متّصلة في المعنى بجملة { وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ } [21]، ولو اعتبرت معطوفة عليها لصح ذلك إلّا أنّ عطفها على جملة { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ } غنية عن ذلك ولا سيما مع طول الكلام.

الإزلاف: التقريب، مشتقّ من **الزَّلَف** (بالتحريك) وهو القربة، أي: جعلت الجنة قريبا من المتقين.
والجنة موجودة من قبل ورود المتقين إليها، فإزلافها قد يكون بحشرهم للحساب بمقربة منها كرامة لهم عن كلفة المسير إليها، وقد يكون عبارة عن تيسير وصولهم إليها بوسائل غير معروفة في عادة أهل الدنيا.
{ **غَيْرَ بَعِيدٍ** } يُرجّح الاحتمال الأوّل، أي: غير بعيد منهم، وإلّا صار تأكيدا لفظيا لـ { وَأُزْلِفَتِ } كقوله تعالى { وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى } [طه:79]، والتأسيس أرجح من احتمال التأكيد.
{ **غَيْرَ** } انتصب على الظرفية باعتبار أنّه وصف لظرف مكان محذوف. والتقدير: مكانا غير بعيد.
{ **هَذَا مَا تُوعَدُونَ** } معترضة، فلك أن تجعلها وحدها معترضة وما بعدها متصلا بما قبلها فتكون معترضة بين البدل والمبدل منه وهما { لِلْمُتَّقِينَ } و{ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ }، وتكرير الحرف الذي جُرّ به المبدل منه لقصد التأكيد، كقوله تعالى { وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ} [النساء:11].
{ **هَذَا** } اسم الإشارة المذكّر مراعى فيه مجموع ما هو مشاهد عندهم من الخيرات.
الأوّاب: كثير الأوب، أي: الرجوع إلى الله، أي: إلى امتثال أمره ونهيه.
الحفيظ: كثير الحفظ لوصايا الله وحدوده.
المعنى: أنّه محافظ على الطاعة فإذا صدرت منه فلتة أعقبها بالتوبة.
{ **مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ** } بدل من { لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ }.
الخَشية: الخوف. وأطلقت الخشية على أثرها وهو الطاعة.
{ **الرَّحْمَنَ** } إيثار هذا الاسم دون اسم الجلالة للإشارة إلى أنّ هذا المتقي يخشى الله وهو يعلم أنّه رحمان، ولقصد التعريض بالمشركين الذين أنكروا اسم الرحمان { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60].
{ **بِالْغَيْبِ** } الباء هنا بمعنى (في) الظرفية لتنزيل الحال منزلة المكان، أي: الحالة الغائبة، وهي حالة عدم اطلاع أحد عليه، فإنّ الخشية في تلك الحالة تدلّ على صدق الطاعة لله بحيث لا يرجو ثناء أحد ولا عقابه. ولك أن تبقي (الباء) على بعض معانيها الغالبة وهي الملابسة ونحوها.
{ **وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ** } أي: مات موصوفا بالإنابة ولم يبطل عمله الصالح في آخر عمره، وهذا كقوله حكاية عن إبراهيم { يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الشعراء:89/88].
{ **مُنِيبٍ** } وصف القلب بذلك مجاز العقلي، لأن القلب سبب الإنابة فهو الباعث عليها.
{ **ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ** } من تمام مقول القول المحذوف. وهذا الإذن من كمال إكرام الضيف أنّه إن دعي إلى الوليمة أو جيء به فإنّه إذا بلغ المنزل قيل له: ادخل بسلام. ومحلّها من التي قبلها الاستئناف البياني لأنّ ما قبلها يثير ترقب المخاطبين للإذن بإنجاز ما وعدوا به.

{ **بِسَلامٍ** } السلامة من كل أذى من تعب أو نصب، وهو دعاء. ويجوز أن يراد به أيضا تسليم الملائكة عليهم حين دخولهم الجنة مثل قوله تعالى { سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ } [يّس:58].

{ **ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ** } يجوز أن تكون ممّا يقال للمتقين على مثال قوله تعالى { فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [الزمر:73]، والإشارة إلى اليوم الذي هم فيه، وجيء به للبعيد للتعظيم.

ويجوز أن تكون هذه الجملة معترضة، فإنّه بعد أن ذُكر ما يلاقيه أهل جهنّم وأهل الجنّة أعقبه بهذه الجملة ترهيبا وترغيبا، وتكون الإشارة إلى اليوم المذكور في قوله تعالى { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ } [30].

{ **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ** } يجوز أن تكون من بقية ما يقال للمتقين ابتداء من قوله تعالى { هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ } فيكون ضمير الغيبة التفاتا، وأصله: لكم ما تشاؤون. ويجوز أن تكون ممّا خوطب به الفريقان في الدنيا. وعلى الاحتمالين فهي مستأنفة استئنافا بيانيا.

{ **لَدَيْنَا مَزِيدٌ** } أي: زيادة على ما يشاؤون ممَّا لم يخطر ببالهم، وذلك زيادة في كرامتهم عند الله.

وجاء ترتيب الآيات في منتهى الدقة؛ فبدأت بذكر إكرامهم بقوله تعالى { وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ }، ثمّ بذكر أنّ الجنة جزاؤهم الذي وُعِدوا به فهي حق لهم، ثمّ أومأت إلى أنّ ذلك لأجل أعمالهم بقوله تعالى { لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ }، ثمّ ذكرت المبالغة في إكرامهم بعد ذلك كله بقوله تعالى { ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ }، ثمّ طمأنهم بأنّ ذلك نعيم خالد، وزيد في إكرامهم بأنّ لهم ما يشاؤون ما لم يروه حين الدخول، وبأن الله وعدهم بالمزيد من لدنه.

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ [36] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ [37] }.

انتقال من الاستدلال إلى التهديد، وهو معطوف على ما قبله، وهذا العطف انتقال إلى الموعظة بما حلّ بالأمم المكذّبة بعد الاستدلال على إمكان البعث بقوله تعالى { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ} [4] وما فُرّع عليه من قوله {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ} [قّ: 15]، وفي هذا العطف الوعيد الذي أُجمل في قوله { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ - إلى قوله - فَحَقَّ وَعِيدِ } [12-14]. فالوعيد الذي حقّ عليهم هو الاستئصال في الدنيا وهو مضمون قوله تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً }.

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ } تعريض بالتهديد وتسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **قَبْلَهُمْ / مِنْهُمْ** } الضميران عائدان إلى معلوم من المقام غير مذكور في الكلام، كما تقدّم في قوله أوّل السورة من قوله { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} [2].

البطش: القوّة على الغير.

التنقيب: مشتق من النقْب (بسكون القاف) بمعنى الثقب، فيكون بمعنى: خرقوا، واستعير لمعنى: ذلَّلوا وأخضعوا، أي: تصرفوا في الأرض بالحفر والغرس والبناء، فيكون في معنى قوله تعالى { وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا } [الروم:9]

{ **الْبِلادِ** } التعريف للجنس، أي: في الأرض، كقوله تعالى { الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ } [الفجر:11].

{ **هَلْ مِنْ مَحِيصٍ** } بدل اشتمال من { أَهْلَكْنَا }، أي: إهلاكا لا منجًى منه. ويجوز أنّ تكون الجملة مستأنفة. والاستفهام إنكاري بمعنى النفي، ولذلك دخلت { مِنْ } على الاسم الذي بعد الاستفهام، كما يقال: ما من محيص، وهذا قريب من قوله تعالى { كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ } [ص:3].

المحيص: مصدر ميمي من حاص إذا عدل وجاد، أي: لم يجدوا محيصا من الإهلاك، وهو قريب من قوله تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ } [مريم:98].

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** } يجوز أن تكون الإشارة بذلك إلى إهلاك القرون الأشد بطشا، ويجوز أن تكون إلى جميع ما تقدّم من استدلال وتهديد وتحذير من يوم الجزاء.

الذكرى: التذكرة العقلية، أي: تدبّر الأحوال التي قضت عليهم بالإهلاك ليقيسوا عليها أحوالهم فيعلموا أن سينالهم ما نال أولئك، وهذا قياس عقلي يدركه اللبيب من تلقاء نفسه دون احتياج إلى منبّه.

القلب: العقل وإدراك الأشياء على ما هي عليه.

إلقاء السمع: مستعار لشدّة الإصغاء للقرآن ومواعظ الرسول صلى الله عليه وسلم.

الشهيد: المشاهد، وصيغة المبالغة فيه للدلالة على قوّة المشاهدة للمذكِّر، أي: تحديق العين إليه للحرص على فهم مراده ممّا يقارن كلامه من إشارة أو سحنة فإنّ النظر يعين على الفهم.

وهذه حالة المؤمن، ففي الكلام تنويه بشأن المؤمنين وتعريض بالمشركين بأنّهم بعداء عن الانتفاع بالذكريات والعبر. وإلقاء السمع مع المشاهدة يوقظ العقل للذكرى والاعتبار إن كان للعقل غفلة.

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ } [38].

مناسبة اتصال هذه الآية بما قبلها أنّه لما نزل قوله تعالى { أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا - إلى قوله - لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ } [6-10] وكان ذلك قريبا ممّا وُصف في التوراة من ترتيب المخلوقات إجمالا، ثمّ نزل قوله بعد ذلك { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ} [15]، كان بعض اليهود بمكّة يقولون: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع، وهذا مكتوب في سفر التكوين من التوراة، والاستراحة تؤذن بالنصب والإعياء، فلمّا فرغت الآية من تكذيب المشركين في أقوالهم عطفت إلى تكذيب اليهود.

فهذا تأويل موقع هذه الآية في هذا المحلّ، مع ما حكى ابن عطية من الإجماع على أنّ السورة كلّها مكية، وقد أشرنا إلى ذلك في الكلام على طليعة السورة، فقول من قال نزلت في يهود المدينة تكلّف، إذ لم يكن اليهود مقصورين على المدينة من بلاد العرب، بل كانوا يتردّدون إلى مكة.

{ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** } معطوفة على الجملة التي قبلها، عطف القصة على القصة، وقعت معترضة بين الكلام السابق وبين ما فرع عنه من قوله { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } [39]. تكملة لما وُصف من خلق السماوات في قوله تعالى { أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا - إلى قوله - مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [7/6]، ليتوصّل به إلى قوله { وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ }، إبطالا لمقالة اليهود.

{ **وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ** } واو الحال، لأن لمعنى الحال هنا موقعا عظيما من تقييد ذلك الخلق العظيم في تلك المدّة القصيرة بأنّه لا ينصب خالقه، لأن الغرض من معظم هذه السورة بيان إمكان البعث، إذ أحاله المشركون بما يرجع إلى ضيق القدرة الإلهية عن إيقاعه، فكانت هذه الآيات كلّها مشتملة على إبراز معنى سعة القدرة الإلهية. والمعنى: ما أصابنا تعب.

{ **مَسَّنَا** } حقيقة المسّ: اللمس، أي: وضع اليد على شيء وضعا غير شديد بخلاف الدفع واللطم. فعُبّر عن نفي أقل الإصابة بنفي المسّ لنفي أضعف أحوال الإصابة.

اللغوب: الإعياء من الجري والعمل الشديد.

{ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ [39] وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ [40] }.

تفريع على ما تقدّم كلّه من قوله تعالى { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ } [2]، ومناسبة وقعه هذا الموقع ما تضمّنه قوله تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ } [36] من التعريض بتسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: فاصبر على ما يقول المشركون من التكذيب بما أخبرتهم من البعث وبالرسالة، وقد جمع ذلك كلّه الموصول { مَا يَقُولُونَ }.

{ **عَلَى مَا يَقُولُونَ** } الضمير عائد إلى المشركين الذين هم المقصود من هذه المواعظ والنُذر، ابتداء من قوله تعالى { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ } [2].

{ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ** } عطف على الجملة السابقة، فهو من تمام التفريع، أي: اصبر على أقوال أذاهم وسخريّتهم. ولعلّ وجه هذا العطف أنّ المشركين كانوا يستهزئون بالنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إذا قاموا إلى الصلاة، مثل قصة إلقاء عقبة بن أبي

معيط سَلا الجزور على ظهر النبيّ صلى الله عليه وسلم حين سجد في المسجد الحرام في حجر الكعبة.

{ **وَسَبِّحْ** } المراد بالتسبيح هنا: الصلاة وهو من أسماء الصلاة. قال ابن عطية: أجمع المتأمّلون على أنّ التسبيح هنا الصلاة. **قلتُ**: ولذلك صار فعل التسبيح منزّلا منزلة اللازم لأنّه في معنى: صل.

{ **بِحَمْدِ رَبِّكَ** } الباء للملابسة، لأنّ الصلاة تُقرأ في كل ركعة منها الفاتحة وهي حمد لله تعالى.

{ **قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ** } جاء في صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله: كنّا جلوسا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر فقال: " **إنّكم سترون ربّكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تُغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها** "، يعني بذلك العصر والفجر. ثم قرأ جرير { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ }.

وعن ابن عباس: قبل الغروب: الظهر والعصر. وعن قتادة: العصر.

{ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ** } الجمهور على أن التسبيح فيه هو الصلاة، وعن أبي الأحوض أنّه قول: سبحان الله.

فعلى أنّ التسبيح الصلاة قال ابن زيد: صلاة المغرب وصلاة العشاء .

وقيل: هذه المذكورات كلّها نوافل، فالذي قبل طلوع الشمس ركعتا الفجر، والذي قبل الغروب ركعتان قبل غروب الشمس قاله أبو برزة وأنس بن مالك [يعني بعد المغرب]، والذي من الليل قيام الليل، قاله مجاهد. ويأتي على هذا الوجه الاختلاف في محمل الأمر على الندب إن كان عاما، أو على الوجوب إن كان خاصا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، كما سيأتي في سورة المزّمل. وقريب من هذه الآية قوله تعالى { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً } [الإنسان:24-26]، وقريب منها أيضا قوله تعالى { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ } [الطور:49/48].

{ **وَأَدْبَارَ السُّجُودِ** } يجوز أن يكون معطوفا على قوله تعالى { قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ }، ويجوز أن يكون معطوفا على قوله تعالى { وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ }.

الإدبار: (بكسر الهمزة) حقيقته الانصراف، لأنّ المنصرف يستدبر من كان معه، واستعير هنا للانقضاء، أي: انقضاء السجود، والسجود: الصلاة، قال تعالى { وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } [العلق:19].

أي: بعد الصلوات، قاله ابن زيد، فهو أمر بالرواتب التي بعد الصلوات. وهو عام خصّصته السنّة بأوقات النوافل، ومُجمل بيَّنت السنة مقاديره، وبيَّنت أنّ الأمر فيه أمر ندب وترغيب لا أمر إيجاب.

{ **وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ [41] يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ [42] إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ [43]** }.

{ **وَاسْتَمِعْ** } عطف على جملة { سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } [39]، فالأمر بالاستماع مُفرَّع بالفاء التي فُرّع بها الأمر بالصبر على ما يقولون. فهو لاحق بتسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم، فلا يكون المسموع إلّا من نوع ما فيه عناية به وعقوبة لمكذبيه.

والأمر بالاستماع حقيقته الأمر بالإنصات والإصغاء. والابتداء بالأمر فيه تشويق.

وللمفسرين ثلاث طرق في محمل { **وَاسْتَمِعْ** }:

فالذي نحاه الجمهور حمل الاستماع على حقيقته، وإذ كان المذكور عقب فعل السمع لا يصلح لأن يكون مسموعا، فيقدّر: استمع نداء المنادي، أو استمع خبرهم، أو استمع الصيحة يوم ينادي المنادي.

ونحاه ابن عطية على المجاز، أي: انتظر. قال: " الآية في معنى الوعيد للكفار، فقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم تحسّس هذا اليوم وارتقبه فإنّ فيه تبيّن صحة ما قلته ". ولم أر من سبقه إلى هذا المعنى، ومثله في تفسير الفخر وفي تفسير النسفي. ولعلّهما اطلعا عليه لأنّهما متأخران عن ابن عطية.

وللزمخشري طريقة أخرى، فقال يعني: واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة. وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبَر به. ولم أر من سبقه إلى هذا وهو محمل حسن دقيق.

{ **يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ** } لك أن تجعله مفعولا فيه لـ { وَاسْتَمِعْ }، وأن تجعله ظرفا في موقع الخبر المقدّم، وتجعل المبتدأ قوله { ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ }، ويكون تقدير النظم: واستمع ذلك يوم الخروج يوم ينادي المنادي، ويكون اسم الإشارة لمجرد التنبيه.

{ **الْمُنَادِ** } تعريف الجنس، أي يوم ينادي منادٍ، أي: من الملائكة، وهو الملك الذي ينفخ النفخة الثانية فتتكون الأجساد وتحل فيها أرواح الناس للحشر، قال تعالى { ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } [الزمر:68]. كتب في المصحف بدون ياء. وذلك جار على اعتبار أنّ العرب يعاملون المنقوص المعرّف باللام معاملة المنكر وخاصة في الأسجاع والفواصل، فاعتبروا عدم رسم الياء في آخر الكلمة مراعاة لحال الوقف كما هو غالب أحوال الرسم، لأنّ الأسجاع مبنية على سكون الأعجاز.

{ **مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ** } التنوين للنوعية، إذ لا يتعلق الغرض بتعيينه.

{ **قَرِيبٍ** } للإشارة إلى سرعة حضور المنادين، وهو الذي فسّرته الجملة اللاحقة، لأنّ المعروف أنّ النداء من مكان قريب لا يخفى على السامعين بخلاف النداء من كان بعيدا.

{ **يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ** } بدل مطابق من { يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ } وقوله { ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ } خبر المبتدأ.

{ **بالحق** } بمعنى: بالصدق وهو هنا الحشر، وصف { بِالْحَقِّ } إبطالا لزعم المشركين أنّه اختلاق.
الخروج: مغادرة الدار أو البلد، وأطلق الخروج على التجمّع في المحشر لأن الحي إذا نزحوا عن أرضهم قيل: خرجوا، يقال: خرجوا بقضّهم وقَضيضهم.
{ **ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ** } علم بالغلبة على يوم البعث، أي: الخروج من الأرض. واسم الإشارة جيء به لتهويل المشار إليه وهو { يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ }، فأريد كمال العناية بتمييزه لاختصاصه بهذا الخبر العظيم.
{ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ** } تذييل، أي: أنّ هذا الإحياء، بعد أن أمتناهم، هو من شؤوننا بأنّا نحييهم ونحيي غيرهم ونميتهم ونميت غيرهم.
والمقصود هو قوله { وَنُمِيتُ }، وأمّا قوله { نُحْيِي } فإنه لاستيفاء معنى تصرف الله في الخلق.

{ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ } [44].

بيان لجملة { ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ } [42]، أو بدل اشتمال منها مع ما في المعاد منها من تأكيد لمرادفه.
ويجوز استئناف استدلال على إمكان الحشر ووصف حال من أحواله، وهو تشقّق الأرض عنهم، أي: عن أجساد مثيلة لأجسادهم وعن الأجساد التي لم يلحقها الفناء.
{ **سِرَاعاً** } حال من ضمير { عَنْهُمْ } وهو جمع سريع، أي: سراعا في الخروج، أو في المشي الذي يعقبه إلى محل الحساب.
{ **عَلَيْنَا يَسِيرٌ** } تقديم المجرور للاختصاص، أي: هو يسير في جانب قدرتنا لا كما زعمه نفاة الحشر.

{ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ } [45].

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } [39]، فهو إيغال في تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم، وتعريض بوعيدهم. فالخبر مستعمل مجازا في وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّ الله سيعاقب أعداءه.
{ **وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ** } تطمين للرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه غير مسؤول عن عدم اهتدائهم، لأنّه إنّما بُعث داعيا وهاديا، وليس مبعوثا لإرغامهم على الإيمان.
الجبّار: مشتق من جَبَره على الأمر: بمعنى أكرهه.
{ **فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ** } تفريع، لأنّه ناشئ عن نفي كونه جبّارا عليهم، وهذا كقوله تعالى { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ } [الغاشية:22/21].

خُصّ التذكير هنا بالمؤمنين لأنّه أراد التذكير الذي ينفع المذكَّر. فالمعني: فذكر بالقرآن فيتذكّر من يخاف وعيد. وهذا كقوله تعالى { إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا } [النازعات:45].

{ وَعِيدِ } كتب في المصحف بدون ياء المتكلّم فقرأه الجمهور بدون ياء في الوصل والوقف على أنّه من حذف التخفيف. وقرأه ورش عن نافع بإثبات الياء في الوصل. وقرأه يعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

سورة الذّاريات

تُسمَّى هذه السورة (**والذّاريات**) بإثبات الواو، تسميةً لها بحكاية الكلمتين الواقعتين في أوّلها. وبهذا عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، وابن عطية في تفسيره، والقرطبي.

وتُسمَّى أيضا (**سورة الذاريات**) بدون الواو اقتصارا على الكلمة التي لم تقع في غيرها من سور القرآن. وكذلك عنونها الترمذي في جامعه وجمهور المفسّرين. وكذلك هي في المصاحف التي وقفنا عليها من مشرقية ومغربية قديمة.

وهي **مكّية بالاتفاق.**

وقد **عُدَّت** السورة السادسة والستين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد. نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية.

واتفق أهل عَدِّ الآيات على أنّ **آيها ستون آية.**

أغراض السورة

*/ تحقيق وقوع البعث والجزاء.

*/ إبطال مزاعم المكذّبين بالبعث، وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ورميهم بأنّهم يقولون بغير تثبّت، ووعيدهم بعذاب يفتنهم.

*/ وعد المؤمنين بنعيم الخلد، وذكر ما استحقّوا به تلك الدرجة من الإيمان والإحسان.

*/ الاستدلال على وحدانية الله، وعلى إمكان البعث، وعلى أنّه واقع لا محالة.

*/ التعريض بالإنذار بما حاق بالأمم التي كذّبت رسل الله، وبيان الشبه التام بينهم وبين أولئك.

*/ تلقين هؤلاء المكذِّبين الرجوع إلى الله وتصديق النبيّ صلى الله عليه وسلم ونبذ الشرك.

*/ معذرة الرسول صلى الله عليه وسلم من تبعة إعراضهم، والتسجيل عليهم بكفران نعمة الخلق والرزق. ووعيدهم على ذلك بمثل ما حلّ بأمثالهم.

{ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً [1] فَالْحَامِلاتِ وِقْراً [2] فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً [3] فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً [4] إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ [5] وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ [6] }.

القسم المفتتح به مراد منه تحقيق المقسَم عليه وتأكيد وقوعه، وقد أقسم الله بعظيم من مخلوقاته، وهو في المعنى: قَسَمٌ بقدرته وحكمته، ومُتضمِّن تشريف تلك المخلوقات بما في أحوالها من نعم ودلالة على الهدى والصلاح، وفي ضِمْن ذلك تذكير بنعمة الله فيما أوجد فيها.

والمُقْسَم بها صفات تقتضي موصوفاتها، فآل إلى القَسَم بالموصوفات لأجل تلك الصفات العظيمة. وفي ذلك إيجاز دقيق. كما أنّ في طي ذكر الموصوفات تكثيرا لما تؤذن به الصفات من موصوفات صالحة بها، لتذهب أفهام السامعين في تقديرها كلّ مذهب ممكن.

وعطف تلك الصفات بالفاء يقتضي تناسبها وتجانسها، فيجوز أن تكون صفات لجنس واحد وهو الغالب في عطف الصفات بـ (الفاء)، ويجوز أن تكون مختلفة الموصوفات، إلّا أنّ موصوفاتها متقاربة متجانسة، ويكثر ذلك في عطف البقاع المتجاورة، وقد تقدّم ذلك في سورة الصافات.

واختلف أئمة السلف في محمل هذه الأوصاف وموصوفاتها. وأشهر ما روي عنهم في ذلك ما روي عن علي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد: " { الذَّارِيَاتِ } الرياح لأنّها تذرو التراب، و{ الْحَامِلاتِ وِقْراً } السحاب، و{ الْجَارِيَاتِ } السفن، و{ الْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً } الملائكة "، وهو يقتضي اختلاف الأجناس المقسَم بها.

وتأويله أنّ كل معطوف عليه يسبِّب ذكر المعطوف لالتقائهما في الجامع الخيالي، فالرياح تذكِّر بالسحاب، وحمل السحاب وقر الماء يذكر بحمل السفن، والكل يذكِّر بالملائكة.

ومن المفسِّرين من جعل هذه الصفات الأربع وصفا للرياح، قاله في الكشاف، ونقل بعضه عن الحسن واستحسنه الفخر، وهو الأنسب لعطف الصفات بالفاء.

{ **وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً** } الأحسن أن يُحمل (**الذرو**) على نشر قطع السحاب نشرا يشبه الذرو.

الذرو: حقيقته رمى أشياء مجتمعة ترمى في الهواء لتقع على الأرض، مثل الحبّ عند الزرع ومثل الصوف.

وأصله ذرو الرياحُ التراب، فشُبِّه به دفع الريح قطع السحاب حتّى تجتمع فتصير سحابا كاملا.

كما قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ } [الروم: 48].

والذرو وإن كان من صفة الرياح فإنّ كون المذروّ سحابا يؤول إلى أنّه من أحوال السحاب.

وقيل: ذروها التراب، وذلك قبل نشرها السحب، وهو مقدمة لنشر السحاب.

{ **ذَرْواً** } نصب على المفعول المطلق لإرادة تفخيمه بالتنوين، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى المفعول، أي: المذرو، ويكون نصبه على المفعول به.

{ **الْحَامِلاتِ وِقْراً** } هي الرياح حين تجمع السحاب وقد ثَقُلَ بالماء، شُبِّه جمعها إيّاه بالحمل، لأنّ شأن الشيء الثقيل أن يحمله الحامل، وهذا في معنى قوله { وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ } [الروم: 48]. وقوله تعالى { وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ } [الرعد:12]، وقوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ } [النور:43].

الوِقر: (بكسر الواو) الشيء الثقيل.

ويجوز أن تكون الحاملات الأسحبة التي ملئت ببخار الماء الذي يصير مطرا، عطفت بالفاء على الذاريات بمعنى الرياح لأنّها ناشئة عنها فكأنّها هي.

{ **الْجَارِيَاتِ يُسْراً** } الرياح تجري بالسحاب بعد تراكمه وقد صار ثقيلا بماء المطر، فالتقدير: فالجاري بذلك الوِقر يسرا. و{ يُسْراً } وصف لمصدر محذوف نصب على النيابة عن المفعول المطلق.

اليسر: اللين والهون، أي: الجاريات جريا ليّنا هيّنا شأن السير بالثقل.

{ **الْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً** } الرياح التي تنتهي بالسحاب إلى الموضع الذي يبلغ عنده نزول ما في السحاب من الماء، أو هي السحب التي تُنزل ما فيها من المطر على مواضع مختلفة. وإسناد التقسيم إليها على المعنيين مجاز.

وروي عن الحسن: " السحب يُقسّم الله بها أرزاق العباد" . يريد قوله تعالى { وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً - إلى قوله - رِزْقاً لِلْعِبَادِ } [ق:9-11].

ومن رشاقة هذا التفسير، (جعل هذه الصفات الأربع وصفا للرياح)، أنّ فيه مناسبة بين المقسَم به والمقسَم عليه، وهو قوله تعالى { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ }، فإنّ أحوال الرياح المذكورة هنا مبدؤها: **نفخ، فتكوين، فإحياء**، وكذلك البعث مبدؤه: نفخ في الصور، فالتئام أجساد الناس التي كانت معدومة أو متفرقة، فبث الأرواح فيها فإذا هم قيام ينظرون.

{ **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ** } أي: إنّ الذي توعدونه لصادق. والخطاب للمشركين كما هو مقتضى التأكيد بالقسم وكما يقتضيه تعقيبه بقوله تعالى { إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ } [8].

{ **إِنَّمَا** } كتب في المصاحف متصلة وهو على غير قياس الرسم المصطلح عليه من بعد، لأنّهما كلمتان لم تصيرا كلمة واحدة، بخلاف (إنّما) التي هي للقصر. ولم يكن الرسم في زمن كتابة المصاحف في أيام الخليفة عثمان قد بلغ تمام ضبطه.

{ **تُوعَدُونَ** } يجوز أن يكون من الوعيد الذي ماضيه أوعد، وهو مبنى للمجهول. والذي أوعِدوه عذاب الآخرة وعذاب الدنيا، مثل الجوع في سني القحط السبع الذي هو دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم بقوله: " **اللهم اجعلها عليهم سنينا كسنين يوسف** "، وهو الذي أشار إليه قوله تعالى { فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الدخان:11/10]. ومثل عذاب السيف والأسر يوم بدر

الذي توعَّدهم الله به في قوله تعالى { يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ } [الدخان:16].

ويجوز أن يكون من الوعد، أي: الإخبار بشيء يقع في المستقبل مثل قوله { إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } [يونس:55].

ويكون المراد: الوعد بالبعث.

{ **لَصَادِقٌ** } مجاز عقلي، إذ الصادق هو المُوعَدُ به على نحو { فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ } [الجاثية:21].

الدين: الجزاء. والمراد: إثبات البعث الذي أنكروه.

{ **لَوَاقِعٌ** } واقع في المستقبل، بقرينة جعله مرتَّبا في الذكر على ما يوعدون، وإنّما يكون حصول الموعود به في الزمن المستقبل، وفي ذكر الجزاء، زيادة على الكناية به عن إثبات البعث، تعريض بالوعيد على إنكار البعث.

{ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ** [7] **إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ** [8] **يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ** [9] }.

هذا قَسَم أيضا لتحقيق اضطراب أقوالهم في الطعن في الدين، وهو كالتذييل للذي قبله، لأنّ ما قبله خاص بإثبات الجزاء. وهذا يعمّ إبطال أقوالهم الضالة. فالقَسَم لتأكيد المقسَم عليه لأنّهم غير شاعرين بحالهم المقسَم على وقوعه، ومتهالكون على الاستزادة منه، فهم منكرون لما في أقوالهم من اختلاف واضطراب جاهلون به جهلا مركّبا.

ومناسبة هذا القسم في وصف السماء بأنها ذات حُبك، أي: طرائق، لأنّ المُقْسَم عليه: إنّ قولهم مختلف طرائق قددا، ولذلك وُصِف المُقْسَم به ليكون إيماء إلى نوع جواب القَسَم.

الحُبُك: (بضمتين) جمع حِباك، ككتاب وكتب ومثال ومثل، أو جمع حَبيكة مثل طريقة وطرق، وهي مشتقة من **الحَبْك** (بفتح فسكون) وهو إجادة النسج وإتقان الصنع. فيجوز أن يكون المراد بحُبك السماء: نجومها، لأنّها تشبه الطرائق الموشّاة في الثوب المحبوك المتقن، روي عن الحسن وسعيد بن جبير.

وقيل: طرائق المجرّة التي تبدو ليلا في قبّة الجو. وقيل: طرائق السحاب.

وفُسّر الحُبك بإتقان الخلق. روي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة.

وإجراء هذا الوصف على السماء إدماج أُدْمِج به الاستدلال على قدرة الله تعالى مع الامتنان بحسن المرأى.

القول المختلف: المتناقض الذي يخالف بعضه بعضا فيقتضي بعضه إبطال بعض.

{ **إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ** } هو جميع أقوالهم في القرآن وفي الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك أقوالهم في دين الإشراك، فإنّها مختلفة مضطربة متناقضة.

قالوا القرآن: سحر وشعر، وقالوا { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا } [الفرقان:5]، وقالوا { إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ } [صٓ:7]، وقالوا { لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا } [الأنفال:31]، وقالوا { وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ }

[فصلت:5]، وقالوا: وحي الشياطين.

وقالوا في الرسول صلى الله عليه وسلم أقوالا: شاعر، ساحر، مجنون، كاهن، يعلّمه بشر، بعد أن كانوا يلقّبونه الأمين.

وقالوا في أصول شركهم: بتعدّد الآلهة مع اعترافهم بأنّ الله خالق كل شيء، وقالوا { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ } [الزمر:3]، وممّا حكاه القرآن عنهم { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا } [لأعراف:28].

{ **يُؤْفَكُ** } يُصرف. والأَفْك (بفتح الهمزة وسكون الفاء): الصَرْفُ. وأكثر ما يُستعمل في الصرف عن أمر حسن، قاله مجاهد كما في اللسان، وهو ظاهر كلام أئمة اللغة. وذلك مدلوله في مواقعه من القرآن.

وإنّما حذف فاعل { يُؤْفَكُ } وأبهم مفعوله بالموصولية للاستيعاب مع الإيجاز.

{ **عَنْهُ** } قيل: الضمير عائد إلى { إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ }، وأنّ معنى { يُؤْفَكُ عَنْهُ } يصرف بسببه، أي: يُصرف المصروفون عن الإيمان بسبب قولهم المختلف، فتكون { عَنْ } للتعليل، كقوله تعالى { وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ } [هود:53]

وقيل: الضمير عائد إلى {مَا تُوعَدُونَ} [5]، أو عائد إلى { الدِّين } [6]، أي: الجزاء أن يؤفك عن الإيمان بالبعث، وحرف (عن) للمجاوزة.

{ **مَنْ أُفِكَ** } المراد المشركون المصروفون عن التصديق.

والمراد بالذي فعل الإفك المجهول: المشركون الصارفون لقومهم عن الإيمان، وهما الفريقان اللذان تضمّنهما قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت:26].

وقد حمّلهم الله بهاتين الجملتين تبعة أنفسهم وتبعة المغرورين بأقوالهم، كما قال تعالى { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ } [العنكبوت:13].

{ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ [10] الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ [11] }.

دعاء بالهلاك على أصحاب ذلك القول المختلف، لأنّ المقصود بقتلهم أنّ الله يُهلكهم، ولذلك يكثر أن يقال: قاتله الله، ثم أجري مجرى اللعن والتحقير والتعجيب من سوء أحوال المدعو عليه بمثل هذا.

وجملة الدعاء لا تعطف لأنّها شديدة الاتصال بما قبلها، ممّا أوجب ذلك الوصف لدخولهم في هذا الدعاء، كما كان تعقيب الجمل التي قبلها بها إيماء إلى أنّ ما قبلها سبب للدعاء عليهم، وهذا من بديع الإيجاز.

الخرص: الظن الذي لا حجّة لصاحبه عليه، فهو معرّض للخطأ في ظنّه، وذلك كناية عن الضلال عمدا أو تساهلا. وقد تقدّم في قوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام:116].

{ **الْخَرَّاصُونَ** } هم أصحاب القول المختلف، فأفاد أنّ قولهم المختلف ناشئ عن خواطر لا دليل عليها.
فالمراد هنا: الخرص بالقول في ذات الله وصفاته.
والخرص في أصول الاعتقاد مذموم لأنّها لا تبنى إلّا على اليقين لخطر أمرها، وهو أصل محلّ الذم في هذه الآية. وأمّا الخرص في المعاملات بين الناس فلا يذم هذا الذم، وبعضه مذموم إذا أدى إلى المخاطرة والمقامرة. وقد أذن في بعض الخرص للحاجة. ففي الموطأ عن زيد بن ثابت : " أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم أذن في بيع العرايا بخرصها ". وتفصيل ذلك في كتب الفقه.
الغَمْرَة: المرة من الغَمْر، وهو الإحاطة، ويفسِّرها ما تضاف إليه، كقوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ } [الأنعام:93]، فإذا لم تقيّد بإضافة فإن تعيينها بحسب المقام، كقوله تعالى { فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ } [المؤمنين:54].
المعنى: في شغل، أي: ما يشغلهم من معاداة الإسلام شغلا لا يستطيعون معه أن يتدبّروا في دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم.
السهو: الغفلة. والمراد أنّهم مُعرضون إعراضا كإعراض الغافل وما هم بغافلين، فإنّ دعوة القرآن تقرع أسماعهم كل حين. واستعمال مادة السهو في هذا المعنى نظير استعمالها في قوله تعالى { الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ } [الماعون:5].

{ يَسْأَلونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ [12] يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ [13] ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ [14] }.
هذه الجملة يجوز أن تكون حالا من ضمير { قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ } [10]، وأنّ تكون استئنافا بيانيا ناشئا عن جملة { قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ }، لأنها أفادت تعجيبا من سوء عقولهم وأحوالهم، فهو مثار سؤال في نفس السامع يتطلّب البيان، فأجيب بأنّهم يسألون عن يوم الدين سؤال متهكّمين، يعنون أنّه لا وقوع ليوم الدين، كقوله تعالى {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ النَّبَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ } [النبأ:1-3].
{ **أَيَّانَ يَوْمُ الدِّين** } مقول قول محذوف دل عليه { يَسْأَلونَ }، لأنّ في فعل السؤال معنى القول. أي: يقولون: أيّان يوم الدين. ولك أن تجعلها بدلا من جملة { يَسْأَلون } لتفصيل إجماله، وهو من نوع البدل المطابق.
{ **أَيَّانَ** } اسم استفهام عن زمان فعل، أي: متى يوم الدين.
{ **يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنون** } جواب لسُؤْلهم جرى على الأسلوب الحكيم من تلقّي السائل بغير ما يتطلّب، إذ هم حين قالوا: أيان يوم الدين أرادوا التهكّم والإحالة، فتلقّى كلامهم بغير مرادهم، لأنّ في الجواب ما يشفي

وقع تهكّمهم. والمعنى: يوم الدين يقع يوم تصلون النار ويقال لكم: ذوقوا فتنتكم.
الفتن: أصله الاختيار. وشاع إطلاقه على معان منها إذابة الذهب على النار في البوتقة لاختبار ما فيه من معدن غير الذهب، ولا يذاب إلّا بحرارة نار شديدة. فهو هنا كناية عن الإحراق الشديد.
{ **ذوقوا فِتْنَتَكُمْ** } مقول قول محذوف دلّ عليه الخطاب، أي: يقال لهم حينئذ ذوقوا فتنتكم، أي: عذابكم. والأمر مستعمل في التنكيل.
الذوق: مستعار للإحساس القوي، لأنّ اللسان أشدّ الأعضاء إحساسا.
{ **فِتْنَتَكُمْ** } إضافة فتنة إلى ضمير المخاطبين يومئذ من إضافة المصدر إلى مفعوله. وفي الإضافة دلالة على اختصاصها لهم لأنّهم استحقوها بكفرهم، ويجوز أن تكون الإضافة من إضافة المصدر إلى فاعله. والمعنى: ذوقوا جزاء فتنتكم. قال ابن عباس: أي: تكذيبكم. ويقوم من هذا الوجه أن يُجعل الكلام موجها بتذكير المخاطبين في ذلك اليوم ما كانوا يفتنون به المؤمنين من التعذيب، مثل ما فتنوا بلالا وخبابا وعمارا وشميسة وغيرهم، أي: هذا جزاء فتنتكم. نظير قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيق } [البروج:10].
{ **هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ** } الجملة استئناف في مقام التوبيخ وتعديد المجارم.
والإشارة إلى الشيء الحاضر نصب أعينهم. أي: هذا هو العذاب الذي كنتم تطلبون تعجيله، فالسين والتاء للطلب. وأقوالهم في هذا كثيرة حكاها القرآن، كقوله تعالى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين } [الملك:25].

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [15] آخِذِينَ ما آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ [16] كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ [17] وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [18] وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ [19] }.

اعتراض قابل به حال المؤمنين يوم الدين، على عادة القرآن في اتباع النذارة بالبشارة، والترهيب بالترغيب.
{ **إِنّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** } نظير قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [الدخان:52/51].
{ **جَنَّاتٍ** } الجمع باعتبار جمع المتّقين، وهي جنات كثيرة مختلفة، وفي الحديث: " **إنّها لجنان كثيرة، وإنّه لفي الفردوس** ". والتنكير للتعظيم.
{ **آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ** } أنّهم قابلون ما أعطاهم، أي: راضون به، فالأخذ مستعمل في صريحه وكنايته، كناية رمزية عن كون ما يؤتونه أكمل في جنسه. وأيضا مستعمل في حقيقته ومجازه، لأنّ ما يؤتيهم الله

بعضه ممّا يُتناول باليد كالفواكه والشراب والرياحين، وبعضه لا يتناول باليد كالمناظر الجميلة والأصوات الرقيقة والكرامة والرضوان وذلك أكثر من الأوّل.

روى أبو سعيد الخدري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أنّ الله تعالى يقول: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربّنا وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربّنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا ".**

{ **رَبُّهُمْ** } في إيثار التعبير عن الجلالة بوصف (ربّ) مضاف إلى ضمير المتّقين معنى من اختصاصهم بالكرامة، والإيماء إلى أنّ سبب ما آتاهم هو إيمانهم بربوبيّته.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ** } تعليل لجملة { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ }، أي: كان ذلك جزاء لهم عن إحسانهم، كما قيل للمشركين { ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ } [14].

{ **قَبْلَ ذَٰلِكَ** } فائدة الظرف أن يؤتى بالإشارة إلى ما ذكر من الجنّات والعيون وما آتاهم ربهم ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيحصل بسبب تلك الإشارة تعظيم شأن المشار إليه. أي: أنّهم كانوا في الدنيا مطيعين لله تعالى واثقين بوعده.

المحسنون: فاعلوا الحسنات وهي الطاعات.

{ **كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** } بدل من جملة ْ { كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ } بدل بعض من كلّ، لأنّ هذه الخصال الثلاث هي بعض من الإحسان في العمل. وهذا كالمثال لأعظم إحسانهم، فإنّ ما ذُكر من أعمالهم دال على شدّة طاعتهم لله ابتغاء مرضاته ببذل أشدّ ما يُبذل على النفس وهو شيئا:

أولهما: راحة النفس في وقت اشتداد حاجتها إلى الراحة، وهو الليل كلّه وخاصة آخره، إذ يكون فيه قائم الليل قد تعب واشتد طلبه للراحة.

ثانيهما: المال الذي تشحّ به النفوس غالبا.

وقد تضمَّنت هذه الأعمال الأربعة أصلي إصلاح النفس وإصلاح الناس. وذلك جماع ما يرمي إليه التكليف من الأعمال، فإنّ صلاح النفس تزكية الباطن والظاهر:

*/ ففي قيام الليل إشارة إلى تزكية النفس باستجلاب رضى الله تعالى.

*/ وفي الاستغفار تزكية الظاهر بالأقوال الطيّبة الجالبة لمرضاة الله عز وجل.

*/ وفي جعلهم الحق في أموالهم للسائلين نفع ظاهر للمحتاج المظهر لحاجته.

*/ وفي جعلهم الحق للمحروم نفع المحتاج المتعفّف عن إظهار حاجته، الصابر على شدّة الاحتياج.

{ **كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** } أي: كانوا يهجعون قليلا من الليل. وليست { مَا } نافية.
الهجوع: النوم الخفيف وهو الغِرار.
ودلّت الآية على أنّهم كانوا يهجعون قليلا من الليل وذلك اقتداء بأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى { قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ } [المزمل:2-4]. وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يأمرهم بذلك، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنّ رسول الله قال له: " **ألم أُخْبَر أنّك تقوم الليل وتصوم النهار** ". قال: نعم. قال: " **لا تفعل إنّك إن فعلت ذلك نفهت النفس وهجمت العين** ".
وقال له: " **قم ونم، فإنّ لنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا** ".
{ **قَلِيلاً** } انتصب على الظرف لأنّه وُصِف بالزمان بقوله { مِنَ اللَّيْلِ }. والتقدير: زمنا قليلا من الليل.
{ **وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** } أي: فإذا آذن الليل بالانصرام سألوا الله أن يغفر لهم بعد أن قدّموا من التهجّد ما يرجون أن يقرّبهم إلى رضى الله تعالى. وهذا دلّ على أنّ هجوعهم الذي يكون في خلال الليل قبل السحر.
فأمّا في السحر فهم يتهجّدون، ولذلك فسر ابن عمر ومجاهد الاستغفار بالصلاة في السحر. وهذا نظير قوله تعالىَ { وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ } [آل عمران:17]، وليس المقصود طلب الغفران بمجرد اللسان.
الأسحار: جمع سحر وهو آخر الليل. وخُصَّ هذا الوقت لكونه يكثر فيه أن يغلب النوم على الإنسان فيه.
والجمع باعتبار تكرّر قيامهم في كل سحر.
{ **وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** } هو النصيب الذي يعطونه إيّاهما، أطلق عليه لفظ الحق؛ إمّا لأنّ الله أوجب على المسلمين الصدقة بما تيسّر قبل أن يفرض عليهم الزكاة، فإن الزكاة فرضت بعد الهجرة،
أو لأنّهم ألزموا ذلك أنفسهم حتّى صار كالحقّ للسائل والمحروم. ونظيرها في [المعارج:25/24].
السائل: الفقير المظهر فقره فهو يسأل الناس.
المحروم: الفقير الذي لا يُعطى الصدقة لظنّ الناس أنّه غير محتاج من تعفّفه عن إظهار الفقر، وهو الصنف الذي قال الله تعالى في شأنهم { يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ } [البقرة:273]، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **ليس المسكين الذي تردّه اللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان ولكن المسكين الذي ليس له غنى ويستحيي ولا يسأل الناس إلحافا** ".
وإطلاق اسم المحروم ليس حقيقة لأنّه لم يسأل الناس ويحرموه، ولكن لمّا كان مآل أمره إلى ما يؤول إليه أمر المحروم لترفّعه وعدم السؤال. والمقصود من هذه الاستعارة ترقيق النفوس عليه وحثّ الناس على البحث عنه ليضعوا صدقاتهم في موضع يحب الله وضعها فيه.

{ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِين } [20].

الجملة متصلة بالقَسَم وجوابه من قوله { وَالذَّارِيَاتِ – إلى قوله - وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ } [1-7]، وما بين هاتين الجملتين اعتراض. فبعد أن حقَّق وقوع البعث بتأكيده بالقسم، انتقل إلى تقريبه بالدليل لإبطال إحالتهم إيّاه، فيكون هذا الاستدلال كقوله { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى } [فصلت:39].

{ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ } يجوز أن تكون معطوفة على جملة جواب القَسَم وهي { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ } [5]، والمعنى: وفي ما يُشاهد من أحوال الأرض آيات للموقنين، وهي الأحوال الدالة على إيجاد موجودات بعد إعدام أمثالها وأصولها، مثل إنبات الزرع الجديد بعد أن باد الذي قبله وصار هشيما.

وهذه دلائل واضحة متكرّرة لا تحتاج إلى غوص الفكر، فلذلك لم تقرن هذه الآيات بما يدعو إلى التفكّر كما قرن قوله تعالى { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [21].

{ وَفِي الْأَرْضِ } تقديم الخبر للاهتمام والتشويق إلى ذكر المبتدأ.

{ آيَاتٌ } وأعلم أنّ الآيات المرموقة من أحوال الأرض صالحة للدلالة أيضا على تفرّده تعالى بالإلهية في كيفية خلقها وتيسيرها للحيوان و الإنسان، وكيف قُسِّمت إلى سهل وجبال وبحر، ونظام إنباتها الزرع والشجر، وما يخرج من ذلك من منافع للناس، ولهذا حذف تقييد { آيَاتٌ } بمتعلّق ليعمّ كلّ ما تصلح الآيات التي في الأرض أن تدلّ عليه.

{ لِلْمُوقِنِينَ } اللام معلّق بـ { آيَاتٍ }، وخصت الآيات بـ { الْمُوقِنِينَ } لأنّهم الذين انتفعوا بدلالتها فأكسبتهم الإيقان بوقوع البعث. وأوثر وصف الموقنين هنا دون الذين أيقنوا لإفادة أنّهم عُرفوا بالإيقان. وهذا الوصف يقتضي مدحهم بثقوب الفهم، لأنّ الإيقان لا يكون إلّا عن دليل، ودلائل هذا الأمر نظرية. ومدحهم أيضا بالإنصاف وترك المكابرة، لأنّ أكثر المنكرين للحق تحملهم المكابرة أو الحسد على إنكار حق.

{ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [21].

عطف على السابقة. والخطاب موجّه إلى المشركين. والاستفهام إنكاري، أنكر عليهم عدم الإبصار للآيات. فالتقدير: وفي أنفسكم آيات أفلا تبصرون؟ تفريعا على الجملة المعطوفة فيقدّر الوقف على { أَنْفُسَكُمْ } .

{ فِي أَنْفُسِكُم } تقديمه على متعلقه للاهتمام بالنظر في خلق أنفسهم وللرعاية على الفاصلة.

الإبصار: هنا مستعار للتدبّر والتفكر، أي: كيف تتركون النظر في آيات كائنة في أنفسكم.

والمعني: ألا تتفكّرون في خلق أنفسكم: كيف أنشأكم الله من ماء وكيف خلقكم أطوارا، أليس كل طور هو إيجاد خلق لم يكن موجودا قبل. فالموجود في الصبي لم يكن موجودا فيه حين كان جنينا. والموجود في الكهل لم يكن فيه حين كان غلاما. وما هي عند التأمّل إلّا مخلوقات مستجدّة كانت معدومة فكذلك إنهاء الخلق بعد الموت. وهذا التكوين العجيب كما يدل على إمكان الإيجاد بعد الموت يدلّ على تفرد مكوّنه تعالى بالإلهية، إذ لا يقدر على إيجاد مثل الإنسان غير الله تعالى، فإنّ بواطن أحوال الإنسان وظواهرها عجائب من الانتظام والتناسب، وأعجبها خلق العقل وحركاته واستخراج المعاني، وخلق النطق والإلهام إلى اللغة، وخلق الحواس، وحركة الدورة الدموية وانتساق الأعضاء الرئيسة، وتفاعلها، وتسوية المفاصل، والعضلات، والأعصاب، والشرايين.

{ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُون } [22].

بعد أن ذُكر دلائل الأرض ودلائل الأنفس، التي هي من علائق الأرض عُطف ذكر السماء للمناسبة، وتمهيدا للقَسَم الذي بعده بقوله { فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ } [23]، ولما في السماء من آية المطر الذي به تنبت الأرض بعد الجفاف. فالمعنى: وفي السماء آية المطر، فعدل عن ذكر المطر إلى الرزق إدماجا للامتنان في الاستدلال، فإنّ الدليل في كونه مطرا يحيي الأرض بعد موتها. وهذا قياس تمثيل للنبت، أي: في السماء المطر الذي ترزقون بسببه.

الرزق: هنا هو المطر الذي تحمله السحب. و**السماء**: طبقات الجو. وتقديم المجرور على متعلّقه للتشويق وللاهتمام بالمكان، وللردّ على الفاصلة.

{ وَمَا تُوعَدُونَ } إدماج بين أدلة إثبات البعث لقصد الموعظة الشاملة للوعيد على الإشراك والوعد على الإيمان إن آمنوا، تعجيلا بالموعظة عند سنوح فرصتها.

{ تُوعَدُونَ } في إيثار هذه صيغة خصوصية من خصائص إعجاز القرآن، فإنّ هذه الصيغة صالحة لأن تكون مصوغة من الوعد، وصالحة لأن تكون من الإيعاد، فاحتملت للبشارة والإنذار.

وكون ذلك في السماء يجوز أن يكون معناه: أنّه محقّق في علم أهل السماء. ويجوز أن يكون المعنى: أنّ مكان حصوله في السماء.

{ **فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ** } [23].

بعد أن أُكِّد الكلام بالقسم بـ { الذَّارِيَاتِ } [1] وما عطف عليها، فُرِّع على ذلك، زيادة تأكيد، بالقَسَم بخالق السماء والأرض على أنّ ما يوعدون حقّ، فهو عطف على السابق ومناسبته قوله { وَمَا تُوعَدُونَ } [22].

وإظهار اسم السماء والأرض دون ذكر ضميرهما لإدخال المهابة في نفوس السامعين بعظمة الربّ سبحانه.

{ **إِنَّهُ لَحَقٌّ** } الضمير عائد إلى { مَا تُوعَدُونَ } [22]. وهذا من رد العَجُز على الصدر لأنّه ردّ على قوله تعالى أوّل السورة { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ } [5]، وانتهى الغرض.

{ **مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ** } زيادة تقرير لوقوع ما أوعِدوه بأن شُبِّه بشيء معلوم كالضرورة لا امتراء في وقوعه، وهو كون المخاطبين ينطقون. وهو من التمثيل بالأمور المحسوسة.

{ **تَنْطِقُونَ** } جيء بالمضارع، دون أن يقال: نطقكم، ليفيد التشبيه بنطقهم المتجدّد، وهو أقوى في الوقوع لأنّه محسوس.

{ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ** [24] **إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ** [25] **فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ** [26] **فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ** [27] **فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ** [28] **فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ** [29] **قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** [30] }.

انتقال من الإنذار والموعظة والاستدلال إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المماثلة للمخاطبين في الكفر وتكذيب الرُّسل. والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا، وغُيّر أسلوب الكلام من خطاب المنذرين، مواجهةً، إلى أسلوب التعريض، تفنُّنًا، بذكر قصة إبراهيم لتكون توطئة للمقصود من ذكر ما حلّ بقوم لوط حين كذّبوا رسولهم، فالمقصود: هو ما بعد قوله { قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ } [31].

وكان في الابتداء بذكر قوم لوط في هذه الآية على خلاف الترتيب الذي جرى عليه اصطلاح القرآن في ترتيب قصص الأمم المكذّبة بابتدائها بقوم نوح ثم عاد ثم ثمود ثم قوم لوط، أنّ المناسبة للانتقال من وعيد المشركين إلى العبرة بالأمم الماضية:

أنّ المشركين وُصفوا آنفا بأنّهم { فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ } [11]، فكانوا في تلك الغمرة أشبه بقوم لوط، إذ قال الله فيهم { لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ } [الحجر:72].

ولأنّ العذاب الذي عُذّب به قوم لوط كان حجارة أُنزلت عليهم من السماء مُشبَّهة بالمطر. وقد سُمِّيت مطرا في قوله تعالى { وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ } [الفرقان:40]، وقوله تعالى { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ } [هود:82].

ولأنّ في قصة حضور الملائكة عند إبراهيم وزوجه عبرة بإمكان البعث، فقد تضمَّنت بشارتها بمولود يولد لها بعد اليأس من الولادة. وذلك مثل البعث بالحياة بعد الممات.

{ **هَلْ أَتَاكَ** } لمّا وُجِّه الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم بهذا القول عُرف أنّ المقصود الأصلي تسليته على ما لقيه من تكذيب قومه. ويتبع ذلك تعريض بالسامعين حين يُقرأ عليهم القرآن أو يبلغهم بأنّهم صائرون إلى مثل ذلك العذاب لاتحاد الأسباب.

وتقدّم القول في نظيره عند قوله تعالى { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ } [ص:21] وأنّه افتتاح للأخبار المهمّة.

الضيف: اسم يقال للواحد وللجمع لأنّ أصله مصدر ضاف: إذا مال، فأطلق على الذي يميل إلى بيت أحد لينزل عنده. ثم صار اسما، فإذا لوحظ أصله أطلق على الواحد وغيره ولم يؤنّثوه ولا يجمعونه، وإذا لوحظ الاسم جمعوه للجماعة وأنثوه للأنثى فقالوا أضياف وضيوف وامرأة ضيفة. وهو هنا اسم جمع ولذلك وصف بـ { الْمُكْرَمِينَ }، وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي } [الحجر:68].

والمعني به الملائكة الذي أظهرهم الله لإبراهيم عليه السلام فأخبروه بأنّهم مرسلون من الله لتنفيذ العذاب لقوم لوط، وسمّاهم الله ضيفا نظرا لصورة مجيئهم في هيئة الضيف، كما سمّى المَلَكين الذين جاءا داود خصما في قوله تعالى { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ } [صّ:21]، وذلك من الاستعارة الصورية.

{ **الْمُكْرَمِينَ** } لإكرام إبراهيم إيّاهم، كما جرت عادته مع الضيف، فهو الذي سنَّ القِرى، ففيه مدح له، وأيضا إشارة لمكانتهم، كقوله تعالى { بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ } [الأنبياء:26]، وقوله { كِرَاماً كَاتِبِينَ } [الانفطار:11].

{ **إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ** } الظرف يتعلق بـ { حَدِيثُ } لما فيه من معنى الفعل، أي: خبّرْهم حين دخلوا عليه.

{ **قَالَ سَلاماً قَالَ سَلامٌ** } تقدم نظيره في [هود:69].

{ **قَوْمٌ مُنْكَرُونَ** } من كلام إبراهيم. والظاهر أنّه قاله خفتًا، إذ ليس من الإكرام أن يجاهر الزائر بذلك.

المنكر: الذي يُنكره غيره، أي: لا يعرفه. أطلق هنا على من يُنْكَر حاله ويُظنّ أنّه حالٌ غير معتاد، أي: يُخشى أنّه يُضمِر السوء، كما في قوله تعالى { فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } [هود:70]. وقصّة ضيف إبراهيم تقدّمت في [هود:69-76].

{ **فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ** } قال أبو عبيد القاسم بن سلام: إنّ الروغان ميلٌ في المشي عن الاستواء إلى الجانب مع إخفاء إرادته. فانتزع منه الزمخشري أنّ إخفاء إبراهيم ميله إلى أهله من حسن الضيافة كيلا يوهم الضيف أنّه يريد أن يحضر لهم شيئا فلعلّ الضيف أن يكُفَّه عن ذلك ويعذره، وهذا منزع لطيف.

وكان منزل إبراهيم الذي جرت عنده هذه القصة بموضع يُسمَّى (بلوطات مَمْرا) من أرض جبرون.

{ **سَمِينٍ** } ووصف في [هود:69] بـ { حَنِيذٍ }، أي: مشويّ، فهو عجل سمين شواه وقرّبه إليهم، وكان الشوا أسرع طبخ أهل البادية.

{ **فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ** } أي: وضعه قريبا منهم، أي: لم ينقلهم من مجلسهم إلى موضع آخر بل جعل الطعام بين أيديهم. وهذا من تمام الإكرام للضيف.

{ **فَرَاغَ / فَجَاءَ / فَقَرَّبَهُ** } مجيء (الفاء) لعطف الأفعال دلالة على أنّ هذه الأفعال وقعت في سرعة، والإسراع بالقِرى من تمام الكرم.

{ **قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ** } بدل اشتمال من جملة { قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ }.

{ **أَلَا** } كلمة واحدة، وهي حرف عرض، أي: رغبة في حصول الفعل الذي تدخل عليه.

والعرض على الضيف عقب وضع الطعام بين يديه زيادة في الإكرام.

{ **فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً** } الفاء فصيحة، لإفصاحها عن جملة مقدَّرة يقتضيها ربط المعنى، أي: فلم يأكلوا فأوجس منهم خيفة، كقوله تعالى { أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ } [الشعراء: 63]، وقد صرّح بذلك في قوله تعالى { فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } [هود:70].

{ **فَأَوْجَسَ** } أحسّ في نفسه ولم يُظهر.

{ **قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ** } قالوا ذلك لأنّهم علموا ما في نفسه ممّا ظهر على ملامحه من الخوف، وتقدم نظيره في [هود:70]. و**الغلام** الذي بشَّروه به هو **إسحاق** لأنّه هو ابن سارة، وهو الذي وقعت البشارة به في هذه القصة في التوراة، ووصف هنا بـ { عَلِيمٌ }، وأمّا الذي ذُكرت البشارة به في [الصافات:101] فهو إسماعيل ووصف بـ { حَلِيمٌ }. ولذلك فامرأة إبراهيم الحادث عنها هنا هي سارة، وهي التي ولدت بعد أن أيست، أمّا هاجر فقد كانت فتاة ولدت في مقتبل عمرها.

{ **فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ** } أقبلت امرأته حين سمعت البشارة لها بغلام، أي أقبلت على مجلس إبراهيم مع ضيفه. وفي [هود:71] { وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ }.

الصرَّة: الصياح، ومنه اشتق الصرير. و{ فِي } للظرفية المجازية، وهي الملابسة.

الصَّكّ: اللطم، وصكّ الوجه عند التعجّب يُرى عند النساء. نظيره وضع اليد على الفم في قوله تعالى { فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ } [إبراهيم:9].

العجوز: يستوي في المذكّر والمؤنّث، مشتقّ من العجز، ويطلق على كبر السنّ لملازمة العجز له غالبا.

العقيم: يستوي فيه المذكر والمؤنث إذا جرى على موصوف مؤنث، مشتق من عَقَمها الله، إذا خلقها لا تحمل بجنين، وكانت سارة لم تحمل قط.

{ **قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ** } قول الملائكة إشارة إلى الحادث، وهو التبشير بغلام. والكاف للتشبيه، أي: مثل قولنا قال ربك، فنحن بلَّغنا ما أُمِرنا بتبليغه.

{ **إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** } تعليل للجملة السابقة المتقضية أنّ الملائكة ما أخبروا إبراهيم إلّا تبليغا من الله، وأنّ الله صادق وعده، وأنّه لا موقع لتعجّب امرأة إبراهيم لأنّ الله { الْحَكِيمُ } يدبّر تكوين ما يريده، و{ الْعَلِيمُ } لا يخفى عليه حالها من العجز والعقم.

وهذه المحاورة بين الملائكة وسارة وقع مثلها بينهم وبين إبراهيم، كما قُصَّ في [الحجر:53-56]، فحُكي هنا ما دار بينهم وبين سارة، وحُكي هناك ما دار بينهم وبين إبراهيم، والمقام واحد والحالة واحدة، كما بُيّن في [هود:72] { قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ }.

{ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُون [31] قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ [32] لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ [33] مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ [34] }.

علم إبراهيم من محاورتهم، فيما ذُكر في هذه الآية وما ورد ذكره في آيات أخرى، أنّهم ملائكة مرسلون من عند الله فسألهم عن الشأن الذي أرسلوا لأجله. فهم وإن كانوا قد بشّروه بأمر عظيم إلّا أنّه لم يعلم هل ذلك هو قصارى ما جاءوا لأجله. وحُكي فعل القول بدون عاطف لأنّه في سياق المحاورة.

{ **فَمَا خَطْبُكُمْ** } الفاء، فيما حكي من كلام إبراهيم، فصيحة مؤذنة بكلام محذوف. وتقديره: إذ كنتم مرسلين من جانب الله تعالى فما الخطب الذي أرسلتم من أجله؟

وقد علم إبراهيم أن نزول الملائكة بتلك الصورة لا تكون بمجرد بشارته بابن يولد له ولزوجه، إذ كانت البشارة تحصل له بالوحي، فكان من علم النبوّة أنّ إرسال الملائكة إلى الأرض بتلك الصورة لا يكون إلّا لخطب، قال تعالى { مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ } [الحجر:8].

الخطب: الحدث العظيم والشأن المهم، وإضافته إلى ضميرهم لأدنى ملابسة.

{ **قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ** } المراد بالقوم المجرمين: أهل سدوم وعمورية، وهم قوم لوط.
وتقدّمت قصتهم في [الأعراف:80-84]، و[هود:69-83].

{ **لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ** } الإرسال هنا مجاز في الرمي، كما يقال: أرسل سهمه على الصيد.

الحجارة: اسم جمع للحجر، ومعنى كون الحجارة من طين: أنّ أصلها طين تحجّر بصهر النار، وهي حجارة بركانية من كبريت قذفتها الأرض من الجهة التي صارت بحيرة تدعى اليوم (بحيرة لوط) نزلت على قرى قوم لوط فأهلكتهم.

المسوَّمة: التي عليها السَّومة أي: العلامة.

المسرفون: المفرطون في العصيان، وذلك بكفرهم وشيوع الفاحشة فيهم، فالمسرفون هم نفسهم { قَوْمٍ مُجْرِمِينَ }، عدل عن ضميرهم إلى الوصف الظاهر، لتسجيل إفراطهم في الإجرام.

{ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [35] فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [36] وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [37] }.

ليست الجملة من حكاية كلام الملائكة بل هي تذييل لقصة محاورة الملائكة مع إبراهيم.

{ فَأَخْرَجْنَا } الفاء فصيحة، لأنّها تفصح عن كلام مقدّر هو ما ذُكر في سورة هود من مجيء الملائكة إلى لوط وما حدث بينه وبين قومه، فالتقدير: فحلُّوا بقرية لوط فأمرناهم بإخراج من كان فيها من المؤمنين فأخرجوهم. وضمير { فَأَخْرَجْنَا } ضمير عظمة الجلالة.

وإسناد الإخراج إلى الله لأنّه أمر به الملائكة أن يبلّغوه لوطا، ولأنّ الله يسَّر إخراج المؤمنين ونجاتهم إذ أخَّر نزول الحجارة إلى أن خرج المؤمنون، وهم لوط وأهله إلّا امرأته.

{ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } للإشارة إلى أنّ إيمانهم هو سبب نجاتهم، أي: إيمانهم برسالة لوط.

{ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } في الكلام تنويه بشأن الإيمان والإسلام، أي: أنّ الله نجّاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولهم لا لأجل أنّهم أهل لوط.

المؤمن: هو المصدّق بما يجب التصديق به. و**المسلم**: المنقاد إلى مقتضى الإيمان، ولا نجاة إلّا بمجموع الأمرين، فحصل في الكلام، مع التفنّن في الألفاظ، الإشارة إلى التنويه بكليهما وإلى أنّ النجاة باجتماعهما.

والآية تشير إلى أنّ امرأة لوط كانت تظهر الانقياد إلى زوجها وتضمر الكفر وممالأة أهل القرية على فسادهم، قال تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا } [التحريم:10]. فبيت لوط كان كلّه من المسلمين ولم يكن كلّه من المؤمنين، فلذلك لم ينج منهم إلّا الذين اتصفوا بالإيمان والإسلام معا.

{ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } أي: أنّ القرية بقيت خرابا لم تعمر، فكان ما فيها من آثار الخراب آية للذين يخافون عذاب الله، قال تعالى { وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ } [الحجر:76].

أو يعود الضمير إلى ما يؤخذ من مجموع قوله { قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ } [32]، على تأويل الكلام بالقصة، أي: تركنا في قصّتهم آية.

الترك: حقيقته مفارقة شخص مكانا مبقيا على شيء له به تعلّق.

{ **لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** } هم المؤمنون بالبعث والجزاء من أهل الإسلام وأهل الكتاب دون المشركين فإنّهم لما لم ينتفعوا بدلالة ذلك. كما قال تعالى { فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ } [ق:45].
المعنى: أنّ الذين يخافون اتعظوا بآية قوم لوط فاجتنبوا مثل أسباب هلاكهم، وأنّ الذين أشركوا لا يتّعظون فيوشك أن ينزل عليهم عذاب أليم.

{ **وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** [38] **فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون** [39] **فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ** [40] }.
{ **وَفِي مُوسَى** } عطف على قوله { فِيهَا آيَةً } [37].
وهو من عطف الجملة على الجملة، لتقدير فعل: تركنا، بعد واو العطف، وحذف مضاف، فيكون التقدير: وتركنا في قصة موسى آية حين أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين.
وأعقب قصة قوم لوط بقصة موسى وفرعون لشهرة أمر موسى وشريعته، ولما بين القصّتين من تناسب في أنّ العذاب الذي عُذِّب به الأمّتان عذاب أرضي، إذ عُذِّب قوم لوط بالحجارة التي هي من طين، وعُذِّب قوم فرعون بالغرق في البحر. ثم ذكر عاد وثمود وكان عذابهما سماويا إذ عُذِّبت عاد بالريح وثمود بالصاعقة.
السلطان المبين: الحجّة الواضحة، وهي المعجزات التي أظهرها لفرعون من انقلاب العصا حية، وما تلاها من الآيات الثمان.
التولِّي: حقيقته الانصراف عن المكان.
الركن: حقيقته ما يُعتمد عليه من بناء ونحوه، ويُسمَّى الجسد ركنا لأنّه عماد عمل الإنسان.
{ **فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ** } تمثيل لهيئة رفضه دعوة موسى بهيئة المنصرف عن شخص.
{ **مُلِيمٌ** } الذي يجعل غيره لائما عليه، أي: وهو مذنب ذنبا يلومه الله عليه، أي: يؤاخذه به. والمعنى: أنّه مستوجب العقاب، كما في قوله تعالى حكاية عن إبليس { فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ } [ابراهيم:22].

{ **وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ** [41] **مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ** [42] }.
نظم هذه الآية مثل نظم قوله تعالى { وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ } [38]، انتقل إلى العبرة بأمّة من الأمم العربية وهم عاد، وهم أشهر العرب البائدة.
{ **الرِّيحَ الْعَقِيمَ** } الريح التي لا نفع فيها، تلك المنافع التي ترجى عادة؛ من إثارة السحاب وإلقاح الأشجار.

أي: هي ضارة. والعرب يكرهون العقم في مواشيهم، أي: ريح كالناقة العقيم لا تثمر نسلا ولا دَرًّا.
فوصف الريح بالعقيم تشبيه بليغ في الشؤم، قال تعالى { أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ } [الحج:55].
{ **مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ** } صفة ثانية، أوحال، فهو ارتقاء في مضرَّة هذه الريح.
أي: ما تذر من شيء أتت عليه في حال من أحوال تدميرها إلّا في حال قد جعلته كالرميم.
{ **تَذَرُ** } صيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة.
الرميم: العظم الذي بَلِيَ. يقال: رمَّ العظم، إذا بلِي، أي: جعلته مفتَّتًا.

{ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ [43] فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ [44] فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ [45] }.

أُتبعت قصة عاد بقصة ثمود لتقارنهما غالبا في القرآن من أجل أنّ ثمود عاصرت عادا وخلفتها في عظمة الأمم، قال تعالى { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ } [الأعراف:74]، ولاشتهارهما بين العرب.
{ **وَفِي ثَمُودَ** } عطف على { وَفِي عَادٍ }، أو على { وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً }. والمعنى: وتركنا آية للمؤمنين في ثمود في حال قد أخذتهم الصاعقة، أي: في دلالة أخذ الصاعقة إيّاهم، على أنّ سببه هو إشراكهم وتكذيبهم وعتوّهم عن أمر ربهم. فالمؤمنون اعتبروا بتلك فسلكوا مسلك النجاة من عواقبها، وأمّا المشركون فإصرارهم على كفرهم سيوقعهم في عذاب من جنس ما وقعت فيه ثمود.
{ **إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ** } كلام جامع لما أنذرهم به صالح رسولهم وذكّرهم فيه، من نحو قوله { وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً } [الأعراف:74]، وقوله { أتتركون فيما هنا آمنين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ } [الشعراء:148]، وقوله { هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهِ } [هود:61]. ونحو ذلك ممّا يدلّ على أنّهم أعطوا ما هو متاع، أي: نفع في الدنيا، فكانت الأقوال التي قالها رسولهم تذكيرا بنعمة الله عليهم يجمعها { تَمَتَّعُوا حَتَّى حين }.
على أنّه يجوز أن يكون رسولهم قال لهم هذه الكلمة الجامعة ولم تحك في القرآن إلّا في هذا الموضع، فقد علمتَ من المقدمة السابعة، من مقدّمات هذا التفسير، أنّ أخبار الأمم تأتي موزّعة على قصصهم في القرآن.
{ **تَمَتَّعُوا** } أمر مستعمل في إباحة المتاع. وقد جُعل المتاع بمعنى النعمة في مواضع كثيرة، كقوله تعالى { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ } [الرعد:26]، وقوله { وإن أدري لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأنبياء:111].
{ **حِينٍ** } زمن مبهم، جُعل نهاية لما مُتِّعوا به من النعم. وذلك الأجل: إمّا أن يراد به أجل كلّ واحد منهم الذي

تنتهي إليه حياته، وإمّا أن يراد به أجل الأمّة الذي ينتهي إليه بقاؤها. وهذا نحو قوله تعالى { يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً } [هود:3]، فكما قال الله للناس على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ذلك فلعلّه قاله لثمود على لسان صالح عليه السلام.

وليس قوله { وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ } بمشير إلى قوله في الآية الأخرى { فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ } [هود:65] ونحوه، لأنّ ذلك الأمر مستعمل في الإنذار والتأييس من النجاة بعد ثلاثة أيام فلا يكون لقوله بعده { فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ } مناسبة لتعقيبه به بـ (الفاء)، لأنّ الذي تفيده (الفاء) يقتضي أنّ ما بعدها مرتّب في الوجود على ما قبلها.

العتو: الكبر والشدّة. وضمِّن { فَعَتَوْا } معنى أعرضوا، فعدي بـ { عَنْ }، أي: فأعرضوا عمّا أمرهم الله على لسان رسوله صالح عليه السلام.

{ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ** } إصابتها إيّاهم إصابة تشبه أخذ العدو عدوّه.

{ **وَهُمْ يَنْظُرُونَ** } حال من ضمير النصب في { أَخَذَتْهُمُ }، أي: أخذتهم في حال نظرهم إلى نزولها، لأنّهم لمّا رأوا بوارقها الشديدة علموا أنّها غير معتادة فاستشرفوا ينظرون إلى السحاب فنزلت عليهم الصاعقة وهم ينظرون. وذلك هول عظيم زيادة في العذاب، فإنّ النظر إلى النقمة يزيد صاحبها ألما، كما أنّ النظر إلى النعمة يزيد المُنعَم مسرَّة، قال تعالى { وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } [البقرة: 50].

{ **فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ** } تفريع على { وَهُمْ يَنْظُرُونَ }، أي: فما استطاعوا أن يدفعوا ذلك حين رؤيتهم بوادره. فالقيام مجاز للدفاع، كما يقال: هذا أمر لا يقوم له أحد، أي: لا يدفعه أحد.

{ **وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ** } أي: ما نصرهم أحد فانتصروا.

{ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّـهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ } [46].

{ **وَقَوْمَ** } قرأ الجمهور بالنصب بتقدير (اذكر)، أو بفعل محذوف يدلّ عليه ما ذُكر من القصص قبله، تقديره: وأهلكنا قوم نوح، وهذا من عطف الجمل وليس من عطف المفردات. وقرأ أبو عمروا وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالجر { وَقَوْمِ } عطفا على { ثَمُودَ } [43]. على تقدير: وفي قوم نوح.

{ **مِنْ قَبْلُ** } أي: أنّهم أُهلكوا قبل أولئك، فهم أوّل الأمم المكذبين رسولهم أهلكوا.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ** } تعليل لما تضمّنه القول السابق من كونهم عوقبوا. فالمعنى: أنّهم أُهلكوا كذلك لأنهم كانوا قوما فاسقين.

وأخِّر الكلام على قوم نوح لما عرض من تجاذب المناسبات بما علمته سابقا. ولذلك كان قوله { مِنْ قَبْلُ تنبيها على وجه مخالفة عادة القرآن في ترتيب حكاية أحوال الأمم على حسب ترتيبهم في الوجود.

{ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ [47] وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ [48] وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [49] }.

لمّا كانت شبهة نفاة البعث قائمة على توهُّم استحالة إعادة الأجسام بعد فنائها أُعقِب تهديدهم بما يقوِّض توهُّمهم، فوُجِّه إليهم الخطاب يذكِّرهم بأنّ الله خلق أعظم المخلوقات ولم تكن شيئا، فلا تعدّ إعادة الأشياء الفانية بالنسبة إليها إلّا شيئا يسيرا، كما قال تعالى { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [غافر:57].

وهذه الجمل إلى قوله تعالى { إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ } [51] معترضة بين جملة { وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ } [46] وجملة { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ } [52].

وابتدئ بخلق السماء لأنّ السماء أعظم مخلوق يشاهده الناس، وعُطف عليه خلق الأرض، عطف الشيء على مخالفه لاقتران المتخالفين في الجامع الخيالي. وعُطف عليها خلق أجناس الحيوان لأنّها قريبة للأنظار لا يكلِّف النظر فيها والتدبّر في أحوالها ما يرهق الأذهان.

{ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } استعير لخلق السماء فعل (البناء) لأنّ منظر السماء فيما يبدو للأنظار شبيه بالقبة، ونصب القبة يُدعى بناء.

وهذا استدلال بأثر الخلق الذي عاينوا أثره ولم يشهدوا كيفيته، لأنّ أثره ينبئ عن عظيم كيفيّته، وأنّها أعظم ممّا يُتصور في كيفية إعادة الأجسام البالية.

الأَيْد: القوّة. وأصله جمع يد، ثم كثر إطلاقه حتّى صار اسما للقوّة، وتقدّم عند قوله تعالى { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ } [ص:17]. والمعنى: بنيناها بقدرة لا يقدر أحد مثلها.

{ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } التذييل زيادة في التأكيد. والواو اعتراضية. وتأكيد الخبر لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر سعة قدرة الله تعالى إذ أحالوا إعادة المخلوقات بعد بلاها.

المُوسِع: اسم فاعل من أوسع، إذا كان ذا وُسع، أي: قدرة. وتصاريفه من السعة، وهي امتداد مساحة المكان ضد الضيق، واستعير معناها للوفرة في أشياء، مثل عمومها في قوله تعالى { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } [لأعراف:156]، ووفرة المال مثل قوله تعالى { لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ } [الطلاق: 7].

وجاء في أسمائه تعالى الواسع، { إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة:115]، وهو عند إجرائه على الذات يفيد كمال صفاته الذاتية: الوجود، والحياة، والعلم، والقدرة، والحكمة.

{ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ } القول فيه كالقول في { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا } [47]. وكذلك القول في الاستدلال بذلك على إمكان البعث. واستغنى هنا عن إعادة { بِأَيْدٍ } [47]، لدلالة ما قبله عليه.

الفرش: بسط الثوب ونحوه للجلوس والاضطجاع.
{ **فَرَشْنَاهَا** } استعارة تبعية، شُبِّه تكوين الله الأرض على حالة البسط بفرش البساط ونحوه.
وفي ذلك دلالة على قدرة الله وحكمته إذ جعل الأرض مبسوطة لمّا أراد أن يجعل فوقها من يعمرها.
{ **فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ** } تفريع ثناء الله على نفسه، تذكيرا بعظمته ونعمته، أي: فنعم الماهدون نحن. وفيه تلقين الناس الثناء على الله فيما صنع لهم فيها من منّة ليشكروه بذلك الثناء، كما في قوله تعالى { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الفاتحة:2].
{ **الْمَاهِدُونَ** } صيغة الجمع للتعظيم مثل ضمير الجمع في الله، وروعي في وصف خلق الأرض ما يبدو للناس من سطحها لأنّه الذي يهمّ الناس في الاستدلال على قدرة الله، دون تعرض إلى تكويرها، إذ لا يبلغون إلى إدراكه، كما روعي في ذكر السماء ما يبدو من قبّة أجواءها دون بحث عن ترامي أطرافها وتعدّد عوالمها لمثل ذلك.
{ **وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** } لما أشعر قوله تعالى { وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ } [48] بأنّ في ذلك نعمة على الموجودات التي على الأرض أُتبع ذلك بصفة خلق تلك الموجودات لما فيه من دلالة على تفرّد الله تعالى بالخلق المستلزم بتفرّده بالإلهية.
الزوج: الذكر والأنثى. والمراد بـ { **شَيْءٍ** } النوع من جنس الحيوان. وتثنية زوج هنا لأنّه أريد به ما يُزوّج من ذكر وأنثى.
وهذا استدلال عليهم بخلق يشاهدون كيفيّاته وأطواره كلّما لفتوا أبصارهم، وقدحوا أفكارهم، وهو خلق الذكر والأنثى ليكون منهما إنشاء خلق جديد يخلف ما سلفه، وذلك أقرب تمثيل لإنشاء الخلق بعد الفناء. وهو البعث الذي أنكروه.
{ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** } أي: تتفكَّرون في الفروق بين الممكنات والمستحيلات، وتتفكّرون في مراتب الإمكان فلا يختلط عليكم الاستبعاد وقلة الاعتياد بالاستحالة فتتوهَّموا الغريب محالا. فالجملة تعليل لجملة { خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} أي: رجاء أن يكون في الزوجين تذكّر لكم، أي دلالة مغفول عنها.
فالتذكّر مستعمل في عادة التفكّر في الأشياء، ومراجعة أنفسهم فيما أحالوه، ليعلموا بعد إعادة النظر أنّ ما أحالوه ممكن ولكنّهم لم يألفوا فاشتبه عليهم الغريب بالمحال فأحالوه. فلما كان تجديد التفكّر، المغفول عنه، شبيها بتذكّر الشيء المنسي أطلق عليه { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }، وهذا في معنى قوله تعالى {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ } [الواقعة:60-62]، فقد ذُيّل هنالك بالحث على التذكُّر، كما ذُيّل هنا برجاء التذكّر. فأفاد أنّ خلق الذكر والأنثى من نطفة هو النشأة الأولى وهي الدالة على النشأة الآخرة.

{ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ [50] وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ [51] }.

بعد أن بيَّن ضلال هؤلاء في تكذيبهم بالبعث بيانا بالبرهان الساطع، ومثَّل حالهم بحال الأمم الذين سلفوهم في التكذيب بالرسل وما جاءوا به، جمعا بين الموعظة للضالين وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وكانت فيما مضى من الاستدلال دلالة على أنّ الله متفرّد بخلق العالم، وفي ذلك إبطال إشراكهم مع الله آلهة أخرى، أقبل على تلقين الرسول صلى الله عليه وسلم ما يستخلصه لهم عقب ذلك، بأنّ يدعوهم إلى الرجوع إلى الحق بقوله { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ }.

{ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ } مقول قول محذوف والتقدير: فقل فرُّوا، دلّ عليه قوله تعالى { إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ }، فإنّه كلام لا يصدر إلّا من قائل ولا يستقيم أن يكون كلام مبلّغ. وحذف القول كثير الورود في القرآن وهو من ضرب إيجازه.

وقد غُيِّر أسلوب الموعظة إلى توجيه الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم هذه الموعظة لأن لتعدّد الواعظين تأثيرًا على نفوس المخاطبين بالموعظة.

والأنسب بالسياق أنَّ الفرار إلى الله مستعار للإقلاع عن ما هم فيه من الإشراك وجحود البعث.

فالمواجه بـ { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ } المشركون لأنّ المؤمنين قد فرّوا إلى الله من الشرك.

الفرار: الهروب، أي: سرعة مفارقة المكان تجنبا لأذى يلحقه فيه، فيُعدّى بـ (من) الابتدائية للمكان الذي به الأذى، يقال: فر من بلد الوباء، وللشيء الذي يؤذي، يقال: فرّ من العدو.

{ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ } تعليل للأمر بـ { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ }، باعتبار أنّ الغاية من الإنذار قصد السلامة من العقاب، فصار الإنذار بهذا الاعتبار تعليلا للأمر بالفرار إلى الله، أي: التوجّه إليه وحده.

{ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً } عطف على { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ }، نهي عن نسبة الإلهية إلى أحد غير الله. جُمع بين الأمر والنهي مبالغة في التأكيد بنفي الضدّ لإثبات ضدّه، كقوله { وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى } [طه:79].

ومن لطائف فخر الدين أنّ قوله تعالى { إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ } جمع الرسول والمرسَل إليهم والمرسِل.

{ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } [52].

{ كَذَلِكَ } فصل خطاب تدلّ على إنهاء حديث والشروع في غيره، أو الرجوع إلى حديث قبله أتى عليه الحديث الأخير. والتقدير: الأمر كذلك. والإشارة إلى ما مضى من الحديث، فيكون ما بعد اسم الإشارة متصلا بأخبار الأمم التي تقدّم ذكرها.

أعقب تهديد المشركين بأن يحلّ بهم ما حل بأمم المكذّبين لرسل الله من قبلهم، بتنظيرهم بهم في مقالهم.
ولك أن تجعل الجملة بتمامها مبدأ استئناف، أو عودا إلى الإنحاء على المشركين في قولهم المختلف، واسم الإشارة راجع إلى قوله تعالى { إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ } [8]، أي: مثل قولهم المختلف قال الذين من قبلهم لمّا جاءتهم الرسل، فيكون قوله { كَذَلِكَ } في محل حال وصاحب الحال { الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }.
وعلى كلا الوجهين فالمعنى: أنّ حال هؤلاء كحال الذين سبقوهم ممّن كانوا مشركين أن يصفوا الرسول بأنّه ساحر أو مجنون، فكذلك سيجيب هؤلاء عن قولك { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ } بمثل جواب قبلهم فلا مطمع في ارعوائهم عن عنادهم.
{ مِنْ رَسُولٍ } للتنصيص على إرادة العموم، أي: أنّ كل رسول قال فيه فريق من قومه: هو ساحر، أو مجنون، أي: قال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون، مثل قوم نوح، إذ لم يكن السحر معروفا في زمانهم قالوا { إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ } [المؤمنون:25]، وقد يجمعون القولين مثل قول فرعون في موسى عليه السلام.
{ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } القصر المستفاد من الاستثناء قصر ادعائي لأنّ للأمم أقوالا غير ذلك وأحوالا أخرى، وإنّما قُصروا على هذا اهتماما بذكر هذه الحالة العجيبة من البهتان، إذ يرمون أعقل الناس بالجنون وأقومهم بالسحر.

{ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [53].

الجملة استئناف بياني لأنّ تماثل هؤلاء الأمم في مقالة التكذيب يثير سؤال سائل عن منشأ هذا التشابه.
والاستفهام مستعمل في التعجّب من تواطئهم على هذا القول على طريقة التشبيه البليغ، أي: كأنّهم أوصى بعضهم بعضا بأن يقولوه.
{ أَتَوَاصَوْا } الضمير عائد إلى ما سبق من الموصول ومن الضمير الذي أضيف إليه { مِنْ قَبْلِهِمْ }، أي: أوصى بعضهم بعضا حتّى بلغت الوصية إلى القوم الحاضرين.
{ بِهِ } عائد على المصدر المأخوذ من فعل { إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } [52]، أي: أتواصوا بهذا القول.
والفعل يتعدّى إلى المُوصَى عليه بـ (الباء) كقوله تعالى { وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [العصر:3].
{ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } إضراب عن مفاد الاستفهام من التشبيه أو عن التواصي به، ببيان سبب التواطؤ على هذا القول. أي: ما هو بتواصٍ ولكنّه تماثل في منشأ ذلك القول، أي: سبب التماثل تشابه التفكير والدواعي للمقالة، إذ جميعهم قوم طاغون.
{ قَوْمٌ طَاغُونَ } إيذان بأنّ الطغيان راسخ في نفوسهم بحيث يكون من مقوّمات قوميّتهم.

{ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ [54] وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ [55] }.

تفريع على قوله تعالى { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ - إلى قوله - بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [53/52] المُشعر بأنّهم بُعَداء عن أن تقنعهم الآيات والنُّذر، فتولَّ عنهم، أي: اعرض عن الإلحاح في جدالهم.

فقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على إيمانهم ويغتمّ من أجل عنادهم في كفرهم، فكان الله يعاود تسليته الفينة بعد الفينة، كما في قوله تعالى { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [الشعراء:3]، وقوله تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً } [الكهف:6]، وقوله تعالى { وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } [النحل:127].

فالتولّي مراد به هذا المعنى، وإلّا فإن القرآن جاء بعد أمثال هذه الآية بدعوتهم وجدالهم غير مرّة.

{ **فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ** } فُرِّع على أمره بالتولّي عنهم إخباره بأنّه لا لوم عليه في إعراضهم عنه.

وصيغ الكلام في صيغة الجملة الاسمية، دون: لا نلومك، للدلالة على ثبات مضمون الجملة في النفي.

{ **فَمَا أَنْتَ** } جيء بضمير المخاطب مسندا إليه دون أن يقول: فلا ملام عليك، أو نحوه، للاهتمام بالتنويه بشأن المخاطب وتعظيمه.

{ **بِمَلُومٍ** } زيدت الباء في الخبر المنفي لتوكيد نفي أن يكون ملوما.

{ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** } عُطف على { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ } احتراس، كي لا يتوهَّم أحد أنّ الإعراض إبطال للتذكير، بل التذكير باقٍ، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكَّر الناس بعد أمثال هذه الآيات، وليكون الاستمرار على التذكير زيادة في إقامة الحجّة على المعرضين، ولئلا يزدادوا طغيانا، فيقولوا: ها نحن أولاء قد أفحمناه فكفّ عما يقوله.

{ **وَذَكِّرْ** } الأمر مراد به الدوام على التذكير وتجديده.

{ **تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** } اقتصر في تعليل الأمر بالتذكير على علّة واحدة، وهي انتفاع المؤمنين بالتذكير، لأنّ فائدة ذلك محقّقة، ولإظهار العناية بالمؤمنين في المقام الذي أُظهرت فيه قلّة الاكتراث بالكافرين.

قال تعالى { فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى } [الأعلى:9-11].

والنفع الحاصل من الذكرى هو رسوخ العلم بإعادة التذكير لما سمعوه، واستفادة علم جديد فيما لم يسمعوه أو غفلوا عنه. وظهور حجّة المؤمنين على الكافرين، وتكرّر عجز المشركين عن المعارضة ووفرة الكلام المعجز.

{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [56] مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ[57]}

الأظهر أنّ هذا معطوف على جملة { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ } [52]، التي هي ناشئة عن قوله تعالى { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ - إلى قوله - وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ} [51/50]، عطف الغرض على الغرض لوجود المناسبة.

فبعد أن نظَّر حالهم بحال الأمم التي صمَّمت على التكذيب من قبلهم أعقبه بذكر شنيع حالهم من الانحراف عمّا خُلقوا لأجله وغُرِز فيهم.

{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } خبر مستعمل في التعريض بالمشركين الذين انحرفوا عن الفطرة التي خُلقوا عليها فخالفوا سنّتها اتباعا لتضليل المضلّين.

الجنّ: جنس من المخلوقات مستتر عن أعين الناس، وهو جنس شامل للشياطين، قال تعالى عن إبليس { كَانَ مِنَ الْجِنِّ } [الكهف:50]. وما ذكر الله الجنّ هنا إلّا لتنبيه المشركين بأنّ الجنّ غير خارجين عن العبودية لله تعالى. وقد حكى الله عن الجنّ قول قائلهم { وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً } [الجن:4].

وتقديم الجن في الذكر للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدونهم، ليعلموا أنّ الجنّ عباد الله تعالى، فهو نظير قوله تعالى { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ } [الأنبياء:26].

الإنس: اسم جمع واحدُه إنسيّ بياء النسبة إلى جمعه.

العبادة: في اللغة العربية، قبل حدوث المصطلحات الشرعية، دقيق الدلالة، وكلمات أيمة اللغة فيه خفيّة والذي يستخلص منها: أنّها إظهار الخضوع للمعبود واعتقاد أنّه يملك نفع العابد وضره ملكا ذاتيا مستمرا، فالمعبود إله للعابد كما حكى الله قول فرعون { وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ } [المؤمنون: 47].

{ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } قصر علّة خلق الله الإنس والجن على إرادته أن يعبدوه، والظاهر أنّه قصر إضافي وأنّه من قبيل قصر الموصوف على الصفة، وأنّه قصر قلب باعتبار مفعول { يَعْبُدُونَ }، أي: إلّا ليعبدوني وحدي، فهو رد للإشراك، وليس هو قصرا حقيقيا، فإنّا وإن لم نطّلع على مقادير حكم الله تعالى من خلق الخلائق، لكنّا نعلم أنّ الحكمة من خلقهم ليست مجرّد أن يعبدوه، لأنّ حكم الله تعالى من أفعاله كثيرة لا نحيط بها، وذكر بعضها كما هنا لا يقتضي عدم وجود حكمة أخرى، ألا ترى أنّ الله ذكر حِكَما للخلق غير هذه، كقوله تعالى { وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } [هود:119/118]، بله ما ذكره من حكمة خلق بعض الإنس والجنّ، كقوله في خلق عيسى عليه السلام { وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا } [مريم:21].

وعن مجاهد وزيد بن أسلم تفسير قوله { إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } بمعنى: إلّا لآمرهم وأنهاهم.

{ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ } كناية عن عدم الاحتياج إليهم لأنّ أشد الحاجات في العرف حاجة الناس إلى الطعام واللباس والسكن وإنما تحصل بالرزق وهو المال.

{ **مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ** } معنى الإرادة هنا الرضى والمحبّة، وليس معناها الصفة الإلهية التي تخصّص الممكن ببعض ما يجوز عليه على وفق العلم، التي اشتق منه اسمه تعالى (**المريد**)، لأنّ إطلاق الإرادة على ذلك إطلاق آخر، فليس المراد هنا تعليل تصرفات الخلق الناشئة عن اكتسابهم، على اصطلاح الأشاعرة، أو عن قدرتهم، على اصطلاح المعتزلة، على تقارب ما بين الاصطلاحين.

والكلام تقرير لمعنى { إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } بإبطال بعض العلل والغايات التي يقصدها الصانعون .

الرزق: هنا المال، كقوله تعالى { فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ } [العنكبوت:17]، وقوله تعالى { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } [الرعد:26]، وقوله تعالى { وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ } [الطلاق:7].

ويطلق الرزق على الطعام كقوله تعالى { وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً } [مريم:62]، ويمنع من إرادته هنا عطف { وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ }.

{ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } [58].

تعليل لجملتي { مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ } [57].

وإظهار اسم الجلالة إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر لأنّ مقتضاه: إنّي أنا الرّزّاق، فعدل عن الإضمار إلى الاسم الظاهر لتكون هذه الجملة مستقلة بالدلالة لأنّها سُيِّرت مسير الكلام الجامع والأمثال.

الرَّزَّاق: كثير الإرزاق.

ذو القوّة: صاحب القدرة. ومن خصائص (ذُو) أن تضاف إلى أمر مهم، فعُلم أنّ القوّة هنا قوّة مطلقة.

المتين: الشديد، وهو هنا وصف لذي القوّة، أي: شديد القوّة.

{ **الْمَتِينُ** } عُدّ في أسمائه تعالى. قال الغزالي: وذلك يرجع إلى معاني القدرة. وفي (معارج النور شرح الأسماء): " المتين: كمال في قوّته بحيث لا يُعارض ولا يُداني ".

المعنى: أنّه المستغني غنًى مطلقا فلا يحتاج إلى شيء، فلا يكون خلقه الخلق لتحصيل نفع له ولكن لعمران الكون، وإجراء نظام العمران يكون باتباع الشريعة التي يجمعها معنى العبادة في قوله { إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [56].

{ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ } [59].

تفريع على { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [56]، باعتبار أنّ المقصود من سياقه إبطال عبادتهم غير الله، أي: فإذا لم يُفْردني المشركون بالعبادة فإنّ لهم ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم، تلميح إلى ما تقدّم من ذكر ما عوقبت به الأمم السالفة من قوله { قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ - إلى قوله – فَاسِقِينَ }[32-46]

الذين ظلموا: الذين أشركوا من العرب، و**الظلم**: هنا الشرك بالله.
الذَّنوب (بفتح الذال): الدلو العظيمة يَستسقي بها السُّقاة على القليب، كما ورد في حديث الرؤيا: " ثم أخذها أبو بكر ففزع ذنوبا أو ذنوبين ". ولا تُسمَّى ذنوبا إلّا إذا كانت ملأى.
والكلام تمثيل لهيئة تساوي حظ الذين ظلموا من العرب بحظوظ الذين ظلموا من الأمم السالفة بهيئة الذين يستقون من قليب واحد إذ يتساوون في أنصبائهم من الماء، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس، وأطلق على الأمم الماضية اسم وصف { أَصْحَابِهِمْ } باعتبار الهيئة المشبَّه بها، إذ هي هيئة جماعات الورد يكونون متصاحبين.
والكلام تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم. والمقصود: أن يسمعه المشركون، فهو تعريض. وبهذا الاعتبار أكِّد الخبر بـ (إن) لأنّهم كانوا مكذِّبين بالوعيد.
{ **فَلا يَسْتَعْجِلُونِ** } تفريع على التأكيد، لأنّهم كانوا يستعجلون بالعذاب استهزاء وإشعارا بأنّه وعد مكذوب.
وعدي الاستعجال إلى ضمير الجلالة وهم إنّما استعجلوه النبيّ صلى الله عليه وسلم لإظهار أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم مُخْبر عن الله تعالى، توبيخا لهم وإنذارا بالوعيد.
والنهي مستعمل في التهكم إظهارا لغضب الله عليهم. وحذفت ياء المتكلّم للتخفيف.
<u>وفي الآية من اللطائف</u> تمثيل ما سيصيب الذين كفروا بالذنوب، والذنوب يناسب القليب وقد كان مثواهم يوم بدر القليب الذي رميت فيه أشلاء سادتهم. ولعلّ هذا ممّا يشمل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين وقف على القليب يوم بدر: { قد وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً } [الأعراف:44].
{ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ } [60]
فُرِّع على وعيدهم إنذار آخر بالويل، أو إنشاء زجر.
الويل: الشرّ وسوء الحال، وتقدّم في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ } [البقرة:79]، وتنكيره للتعظيم.
والكلام <u>يحتمل</u> الإخبار بحصول ويل، أي: عذاب وسوء حال لهم يوم أوعدوا به، <u>ويحتمل</u> إنشاء الزجر والتعجيب من سوء حالهم في يوم أوعدوه.
الذين كفروا: هم الذين ظلموا، عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر لما فيه من تأكيد الاسم السابق تأكيدا بالمرادف، مع ما في صفة الكفر من الإيماء إلى أنّهم لم يشكروا نعمة خالقهم.
{ **مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ** } هو زمن حلول العذاب <u>فيحتمل</u> أنّه يراد يوم القيامة، <u>ويحتمل</u> حلول العذاب في الدنيا، وأيًّا ما كان فمضمون هذه الجملة مغاير لمضمون التي قبلها.
{ **يَوْمِهِمُ** } إضافته إلى ضميرهم للدلالة على اختصاصه بهم، أي: هو معين لجزائهم، كما أضيف يوم إلى ضمير المؤمنين في قوله تعالى { وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } [الأنبياء:103].

ولمّا كان المضاف إليه ضمير الكفار المعيَّنين، وهم كفّار مكة، ترجّح أن يكون المراد من هذا اليوم يوما خاصا بهم وإنّما هو يوم بدر، لأنّ يوم القيامة لا يختصّ بهم بل هو عام لكفّار الأمم كلّهم، بخلاف (اليوم) الذي في [الأنبياء:103]. لأنّ ضمير الخطاب فيه عائدا إلى { الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى } [الأنبياء:101]. { **مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ** } مع قوله في أول السورة { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ } [5]، رد العجز على الصدر، ففيه إيذان بانتهاء السورة وذلك من براعة المقطع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطور

سُمِّيت هذه السورة عند السلف (**سورة الطور**) دون واو قبل الطور. ففي جامع الطواف من الموطإ حديث مالك عن أمّ سلمة قالت: فطُفتُ ورسول الله يصلي إلى جنب البيت يقرأ بـ : " الطور وكتاب مسطور ".

أي: يقرأ بسورة الطور ولم تُرد يقرأ بالآية، لأنّ الآية فيها { وَالطُّورِ } بالواو، وهي لم تذكر الواو.

وفي تفسير سورة الطور من صحيح البخاري عن جبير بن مطعم قال: " سمعت النبيّ يقرأ في المغرب بالطور فلمّا بلغ هذه الآية { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ } [37/35]، كاد قلبي أن يطير ". وكان جبير بن مطعم مشركا قدم على النبيّ صلى الله عليه وسلم في فداء أسرى بدر، وأسلم يومئذ.

وكذلك وقعت تسميتها في ترجمتها من جامع الترمذي وفي المصاحف التي رأيناها، وكثير من التفاسير.

وهي **مكية جميعها بالاتفاق.**

وهي السورة **الخامسة والسبعون في ترتيب نزول السور**. نزلت بعد (سورة نوح) وقبل (سورة المؤمنون).

وعَدَّ أهل المدينة ومكة آيها سبعا وأربعين، وعدّها أهل الشام وأهل الكوفة تسعا وأربعين، وعدّها أهل البصرة ثمانيا وأربعين.

أغراض السورة

*/ التهديد بوقوع العذاب يوم القيامة للمشركين المكذِّبين بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من إثبات البعث، وبالقرآن المتضمّن ذلك فقالوا: هو سحر.

*/ مقابلة وعيدهم بوعد المتّقين المؤمنين، وصفة نعيمهم ووصف تذكّرهم خشية، وثنائهم على الله.

*/ تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم وإبطال أقوالهم فيه وانتظارهم موته.

*/ تحدّيهم بأنّهم عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن.

*/ إبطال خليط من تكاذيبهم بإعادة الخلق، وببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ليس من كُبرائهم، وبكون الملائكة بنات الله، وإبطال تعدّد الآلهة، وذكر استهزائهم بالوعيد.

*/ أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بتركهم وأن لا يحزن لذلك، فإنّ الوعيد حال بهم في الدنيا ثم في الآخرة، وأمره بالصبر، ووعده بالتأييد، وأمره بشكر ربّه في جميع الأوقات.

{ وَالطُّورِ [1] وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ [2] فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ [3] وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ [4] وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ [5] وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ [6] إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ [7] مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ [8] }.

القسم للتأكيد وتحقيق الوعيد، ومناسبة الأمور المَقْسَم بها للمُقْسَم عليه أنّ هذه الأشياء المقسم بها من شؤون بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون وكان هلاك فرعون ومن معه من جرّاء تكذيبهم موسى عليه السلام.

الطُّور: الجبل باللغة السريانية، قاله مجاهد. وأُدخل في العربية، وهو من الألفاظ المعرَّبة الواقعة في القرآن. وغلب عَلَما على طور سيناء الذي ناجى فيه موسى عليه السلام، وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول شريعة التوراة.

{ وَالطُّورِ } القسم به باعتبار شرفه بنزول كلام الله فيه ونزول الألواح على موسى. وفي ذكر الطور إشارة إلى تلك الألواح لأنّها اشتهرت بذلك الجبل فسميت طور المعرَّب بتوراة.

وأمّا الجبل الذي خوطب فيه موسى من جانب الله فهو جبل (حوريب) واسمه في العربية (الزبير)، ولعلّه بجانب الطور، كما في قوله تعالى { آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً } [القصص:29].

وتقدّم عند قوله تعالى { وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ } [البقرة:63].

والقسم بالطور توطئة للقسم بالتوراة التي أنزل أوّلها على موسى في جبل الطور.

{ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ } التوراة كلّها التي كتبها موسى عليه السلام بعد نزول الألواح، وضمَّنها كلّ ما أوحى الله إليه ممّا أمر بتبليغه في مدّة حياته.

وهي الإسفار الأربعة المعروفة عند اليهود: (سفر التكوين - سفر الخروج - سفر العدد - سفر التثنية).

وهي التي قال الله تعالى في شأنها { وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } [الأعراف:154].

{ كِتَابٌ } التنكير للتعظيم. وإجراء الوصفين عليه لتميزه بأنّه كتاب مشرَّف مراد بقاؤه، مأمور بقراءته.

المسطور: هو المكتوب. والسطر: كتابة طويلة لأنّها تُجعل سطورا، أي: صفوفا من الكتابة، قال تعالى { وَمَا يَسْطُرُونَ } [القلم:1]، أي: يكتبون.

الرَقّ: (بفتح الراء بعدها قاف مشدّدة) الصحيفة تُتّخذ من جلد مرقّق أبيض ليُكتب عليه.

المنشور: المبسوط غير المطوي. أي: أقسم بحال نشره لقراءته، وهي أشرف أحواله لأنّها حالة حصول الاهتداء به للقارئ والسامع. وكان اليهود يكتبون التوراة في ورق ملصق بعضها ببعض أو محيط بعضها ببعض، فتصير قطعة واحدة ويطوونها طيًّا أسطوانيا لتحفظ، فإذا أرادوا قراءتها نشروا مطويها، ومنه ما في حديث الرجم: " فنشروا التوراة ".

وليس مراد بكتاب مسطور القرآن لأنّ القرآن لم يكن يومئذ مكتوبا سطورا ولا هو مكتوبا في رقّ.
ومناسبة القسم بالتوراة أنّها الكتاب الموجود الذي فيه ذكر الجزاء وإبطال الشرك، وللإشارة إلى أنّ القرآن، الذي أنكروا أنّه من عند الله، ليس بدعا فقد نزلت قبله التوراة.
والقسم بالتوراة يقتضي أنّ التوراة يومئذ لم يكن فيها تبديل لما كتبه موسى. لذلك قيل في تأويل قوله تعالى { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ } [المائدة: 13]:
قال ابن عباس: تأويله أنّه تحريف بسوء فهم وليس تبديلا لألفاظ التوراة.
وقيل: تأويله أنّ التحريف وقع بعد نزول هذه السورة حين ظهرت الدعوة المحمدية وجَبَهت اليهود دلالةُ مواضع من التوراة على صفات النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم.
وقيل: تأويله بأنّ القسم بما فيه من الوحي الصحيح.
البيت المعمور: عن الحسن أنّه **الكعبة**، وهذا الأنسب بعطفه على الطور، ووصفه بـ { الْمَعْمُورِ } لأنّه لا يخلو من طائف به، وعمران الكعبة هو عمرانها بالطائفين، قال تعالى { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } [التوبة:18].
ومناسبة القَسَم سبق القَسَم بكتاب التوراة فعُقِّب ذلك بالقَسَم بمواطن نزول القرآن، فإنّ ما نزل من القرآن أُنزِل بمكة وما حولها مثل جبل حراء. فيكون توسيط القَسَم بالكعبة في أثناء ما أقسم به من شؤون شريعة موسى عليه السلام إدماجًا.
وفي الطبري: أنّ عليًّا سئل: ما البيت المعمور؟ فقال: بيت في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبدا، يقال له: الضُّرَاح. (بضم الضاد المعجمة وتخفيف الراء وحاء مهملة). وأنّ مجاهدا والضحاك وابن زيد قالوا مثل ذلك. وعن قتادة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" هل تدرون ما البيت المعمور**؟ قال: **فإنه مسجد في السماء تحته الكعبة ..."** إلى آخر الخبر.
وثمة أخبار كثيرة متفاوتة في أنّ في السماء موضعا يقال له : البيت المعمور، لكن الروايات في كونه المراد من هذه الآية ليست صريحة.
السقف المرفوع: فسَّروه بالسماء لقوله تعالى { وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً } [الأنبياء:32]، وقوله تعالى { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا } [الرحمن:7]، فالرفع حقيقي. ومناسبة القسم بها أنّها مصدر الوحي كله التوراة والقرآن.
البحر: يجوز أن يراد به البحر المحيط بالكرة الأرضية. وعندي: أنّ المراد (بحر القلزم / البحر الأحمر).
ومناسبة القَسَم به أنّه أُهلك به فرعون وقومه حين دخله موسى وبنو إسرائيل فلحق بهم فرعون.
{ **الْمَسْجُورِ** } قيل المملوء، مشتقًّا من السجر وهو الملء والإمداد. فهو صفة كاشفة قصد منها التذكير بحال

خلق الله إيّاه مملوءا ماء دون أن تملأه أودية أو سيول، أو هي للاحتراز عن إرادة الوادي إذ الوادي ينقص فلا يبقى على ملئه وذلك دال على عظم القدرة.

والظاهر عندي: أنّ وصفه بالمسجور للإيماء إلى الحالة التي كان بها هلاك فرعون بعد أن فرق الله البحر لموسى وبني إسرائيل ثم أسجره، أي: أفاضه على فرعون وملئه.

و(الواوات) التي في هذه الآية (واوات) قسم لأنّ شأن القسم أن يعاد ويكرّر، ولذلك كثيرا ما يعيدون المقسم به، وإنّما يعطفون بالفاء إذا أرادوا صفات المقسم به. ويجوز صرف (الواو) الأولى للقسم واللاتي بعدها عاطفات على القسم، و المعطوف على القسم قسم.

{ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ** } عذاب الله المقسم على وقوعه هو عذاب الآخرة، لقوله تعالى { يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً - إلى قوله – تُكَذِّبُونَ } [9-14]، وأمّا عذاب المكذِّبين في الدنيا فسيجيء في قوله تعالى { وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ } [47].

{ **لَوَاقِعٌ** } تحقيق وقوع عذاب الله يوم القيامة إثبات للبعث بطريقة الكناية القريبة، وتهديد للمشركين بطريقة الكناية التعريضية. وحُذف المتعلّق وتقديره: على المكذِّبين، أو بالمكذِّبين، كما دلّ عليه قوله بعد { فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } [الطور:11] أي: المكذِّبين بك، بقرينة { رَبِّكَ }.

الوقوع: أصله النزول من علو، واستعمل مجازا للتحقُّق وشاع ذلك، فالمعنى: أنّ عذاب ربك لمتحقّق.

{ **مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ** } خبر ثان عن { عَذَابٌ }، أو حال منه، أي: ما للعذاب دافع يدفعه عنهم.

الدفع: إبعاد الشيء عن شيء باليد، وأطلق هنا على الوقاية مجازا بعلاقة الإطلاق، أي: لا يقيهم من عذاب الله أحد بشفاعة أو معارضة.

{ **مِنْ** } زيدت في النفي لتحقيق عمومه وشموله، أي: نفي جنس الدافع.

روى أحمد بن حنبل عن جبير بن مطعم قال: قدمت المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأكلّمه في أسارى بدر فدُفعت إليه وهو يصلّي بأصحابه صلاة المغرب فسمعته يقرأ { وَالطُّورِ } إلى { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ } فكأنما صدع قلبي ". وفي رواية: " فأسلمت خوفا من نزول العذاب وما كنت أظنّ أن أقوم من مقامي حتّى يقع بي العذاب ".

{ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً [9] وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً [10] فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [11] الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ [12] }.

{ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً } يجوز أن يتعلّق بقوله تعالى { لَوَاقِعٌ } [7]، على أنّه ظرف له، فيكون قوله تعالى { فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } تفريعا على الجملة كلّها، ويكون العذاب عذاب الآخرة.

ويجوز أن يكون الكلام قد تمّ عند قوله تعالى { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ } [7]، فيكون قوله تعالى { يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً } متعلقا بقوله تعالى { فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } وقُدِّم الظرف على عامله للاهتمام. والتقدير: إن حل ذلك اليوم فويل للمكذبين. وقوله { يَوْمَئِذٍ } على هذا الوجه، أريد به التأكيد للظرف.

المَوْر: بفتح الميم وسكون الواو: التحرّك باضطراب، ومور السماء: هو اضطراب أجسامها من الكواكب واختلال نظامها، وذلك عند انقراض عالم الحياة الدنيا.

سير الجبال: انتقالها من مواضعها بالزلازل التي تحدث عند انقراض عالم الدنيا، قال تعالى { إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا - إلى قوله - يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ } [الزلزلة:1-6].

{ مَوْراً / سَيْراً } تأكيد الفعلين بالمصدر لرفع احتمال المجاز، أي: هو مور حقيقي وتنقّل حقيقي.

الويل: سوء الحال البالغ منتهى السوء، وتقدّم عند قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } [البقرة:79]، وتقدم قريبا في [الذاريات:60].

{ لِلْمُكَذِّبِينَ } حُذف المتعلق لظهوره من المقام، أي: الذين يكذّبون بما جاءهم به الرسول من توحيد الله والبعث والجزاء والقرآن.

الخوض: الاندفاع في الكلام الباطل والكذب. والمراد خوضهم في تكذيبهم بالقرآن، مثل ما حكى الله عنهم في قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت:26]. وهو المراد بقوله تعالى { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } [الأنعام:68].

{ يَلْعَبُونَ } حالية. واللعب: هنا الاستهزاء، قال تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } [التوبة:65].

{ **يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا** [13] **هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ** [14] **أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ** [15] **اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** [16] }.

{ **يَوْمَ يُدَعُّونَ** } بدل من { يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً } [9]، وهو بدل اشتمال.

الدع: الدفع العنيف، وذلك إهانة لهم وغلظة عليهم، أي: يوم يساقون إلى نار جهنم سوقا بدفع، وفيه تمثيل حالهم بأنّهم خائفون متقهقرون فتدفعهم الملائكة الموكَّلون بإزجائهم إلى النار.

{ **دَعًّا** } التنكير للتعظيم، وهو لمعنى التأكيد.

{ **هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ** } مقول قول محذوف دلّ عليه السياق. وتقديره: يقال لهم، أو مقولا لهم. والقائل هم الملائكة الموكلون بإيصالهم إلى جهنم.

{ **هَذِهِ** } للمشار إليه القريب المؤنث تومئ إلى أنّهم بلغوها وهم على شفاها، والمقصود التوطئة لما سيرد.

{ **التي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ** } الموصول وصلته لتنبيه المخاطبين على فساد رأيهم إذ كذَّبوا بالحشر والعقاب.

{ **أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ** } فُرِّع على التنبيه السابق تنبيه آخر على ضلالتهم في الدنيا. إذ كانوا حين يسمعون الإنذار بيوم البعث والجزاء يقولون: هذا سحر، وإذا عُرض عليهم القرآن قالوا: قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه وفي آذانهم وقر ومن بيننا وبينك حجاب، فللمناسبة بين ما في صلة الموصول من معنى التوقيف على خطئهم وبين التهكّم عليهم بما كانوا يقولونه دخلت فاء التفريع. وهو من جملة ما يقال لهم المحكي بالقول المقدّر.

{ **أَمْ** } منقطعة، والاستفهام الذي تقتضيه مستعمل في التوبيخ والتهكّم. والتقدير: بل أنتم لا تبصرون.

{ **لَا تُبْصِرُونَ** } تهكّم، أي: فلعلّكم تزعمون أنّكم لا ترون نارا كما كنتم تقولون { بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } [فصلت:5]، أي: فلا نراك، وتقولون { إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا } [الحجر:15].

وجيء بالمسند إليه مخبرا عنه بخبر فعلي لإفادة تقوّي الحكم.

{ **اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } مستأنفة هي بمنزلة النتيجة المترقّبة من التوبيخ والتغليظ السابقين، أي: ادخلوها فاصطلوا بنارها.

يقال: صَلِيَ النار يصلاها، إذ قاسى حرّها.

{ **اصْلَوْهَا** } الأمر إمّا مُكنًّى به عن الدخول، لأنّ الدخول لها يستلزم الاحتراق بنارها، وإمّا مستعمل مجازا في التنكيل.

{ **فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا** } الأمر للتسوية، ويفيد الجزع، لأنّ كليهما لا يخفّفان عنهم شيئا من العذاب، ألا ترى أنّهم يقولون { سَوَاءٌ أم صبرنا ما لنا من محيص } [إبراهيم:21] لأنّ جرمهم عظيم.

{ **سَوَاءٌ عَلَيْكُم** } خبر مبتدأ محذوف، تقديره : ذلك سواء عليكم. والجملة مؤكِّدة لجملة { فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا } فلذلك فصلت عنها ولم تعطف.

{ **إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } تعليل لجملة { اصْلَوْهَا }، وعليه فجملتا { فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ } معترضتان بين جملة { اصْلَوْهَا } والجملة الواقعة تعليلا لها.

{ **إِنَّمَا** } الحصر المستفاد قصر قلب، بتنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد أنّ ما لقوه من العذاب ظلم لم يستوجبوا مثل ذلك من شدّة ما ظهر عليهم من الفزع.

{ **تُجْزَوْنَ** } عُدّي إلى { مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } بدون (الباء) خلافا لقوله بعده { كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [19]، ليشمل القصر مفعول الفعل المقصور، أي: تجزون مثل عملكم لا أكثر منه، فينتفي الظلم عن مقدار الجزاء كما انتفى الظلم عن أصله، ولهذه الخصوصية لم يعلّق معمول الفعل بـ (الباء) إذ جعل الجزاء بمنزلة نفس الفعل.

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ [17] فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ [18] كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [19] }.

استئناف بياني، معترضة بين ما قبلها وجملة { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ} [30]. بعد أن ذُكر حال المكذِّبين وما يقال لهم، فمن شأن السامع أن يتساءل عن حال أضدادهم، وهم الفريق الذين صدَّقوا الرسول صلى الله عليه وسلم، وخاصة إذ كانوا السامعون المؤمنين، وعادة القرآن تعقيب الإنذار بالتبشير وعكسه.

{ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ** } تأكيد الخبر للاهتمام به.

{ **جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ** } التنكير للتعظيم، أي: في أيّة جنّات وأيّ نعيم.

الفاكه: وصف من فكِه كفرح، إذا طابت نفسه وسُرّ.

{ **بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُم** } الباء للسببية، والمعنى: أنّ ربّهم أرضاهم بما يحبّون.

{ **رَبِّهِمْ** } استحضار الجلالة بهذا الوصف للإشارة إلى عظيم ما آتاهم، إذ العطاء يناسب حال المعطي، وفيه تقريب لهم وتعظيم.

{ **وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** } حال، و(الواو) حالية أو عاطفة علي { فَاكِهِينَ } الذي هو حال من المتّقين. والمقصود من ذكر هذه الحالة: إظهار التباين بين حال المتّقين وحال المكذّبين زيادة في الامتنان، فإنّ النعمة

تزداد حسن وقع في النفس عند ملاحظة ضدّها. وفيه أيضا أنّ وقايتهم عذاب الجحيم عدل، لأنّهم لم يقترفوا ما يوجب العقاب. وأمّا ما أعطوه من النعيم فذلك فضل من الله وإكرام منه لهم.

{ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } مقول قول محذوف في موضع الحال أيضا، تقديره: يقال لهم، أو مقولا لهم. وهذا القول مقابل ما يقال للمكذبين { اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [16].

وحُذف مفعول { كُلُوا وَاشْرَبُوا } لإفادة عموم النعيم، أي: كلوا كلّ ما يؤكل واشربوا كلّ ما يشرب، وهو عموم عرفي، أي: ممّا تشتهون.

{ **هَنِيئاً** } أي: أنّه سالم ممّا يكدر. اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول وقع وصفا للمصدرين (أكلا وشربا).

{ **بِمَا** } الـ (ما) موصولة، و(الباء) سببية، أي: بسبب العمل الصالح الذي يومئ إليه قوله تعالى { الْمُتَّقِينَ }.

وفي هذا القول زيادة كرامة لهم بإظهار أنّ ما أُوتُوه من الكرامة عوض عن أعمالهم.

{ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَه وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ } [20].

حال من ضمير { كُلُوا وَاشْرَبُوا } [19]، أي: يقال لهم كلوا وأشربوا حال كونهم متكئين، أي: وهم في حال أهل الترف المعهود في الدنيا، فقد كان أهل الرفاهية يأكلون متّكئين. كما في قوله تعالى { أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً} [يوسف:31]، وفي الحديث: " **أمّا أنا فلا آكل متّكئا** ".

وكان الأكاسرة ومرازبة الفرس يأكلون متكئين وكذلك كان أباطرة الرومان.

السرر: جمع سرير، وهو ما يضطجع عليه.

المصفوفة: المتقابلة، أي: مجتمعين للتأنّس كقوله تعالى { عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ } [الصافات:44].

{ **وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ** } عطف على { مُتَّكِئِينَ }، في موضع الحال. أي: قرنّاهم بنساء حور عين.

و(الباء) للمصاحبة وليس للتعدية، أي :جعلنا حورا عينا معهم، فإنّه لم يسمع في فصيح الكلام : تزوج بامرأة.

ولم يعد فعل { زَوَّجْنَاهُمْ } إلى { حُورٌ } بنفسه على المفعولية كما في قوله { زَوَّجْنَاكَهَا } [الأحزب:37]، لأنّ { وَزَوَّجْنَاهُمْ } في هذه الآية ليس بمعنى، أنكحناهم، إذ ليس المراد عقد النكاح. فالتزويج هنا وارد بمعناه الحقيقي في اللغة وهو جعل الشيء المفرد زوجا.

حور: صفة لنساء المؤمنين في الجنة، وهنّ النساء اللاتي كنّ أزواجا لهم في الدنيا إن كنّ مؤمنات، ومن يخلقهنّ الله في الجنّة.

{ **عَيْنٍ** } صفة ثانية، وحقّها أن تعطف ولكن كثر ترك العطف.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** } [21].

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ** } اعتراض بين ذكر كرامات المؤمنين. والتعبير بالموصول إظهار في مقام الإضمار لتكون الصلة إيماء إلى أنّ سبب إلحاق ذرّيّاتهم بهم في نعيم الجنة هو إيمانهم، وكون الذرّيّات آمنوا بسبب إيمان آبائهم.

{ **بِإِيمَانٍ** } يحتمل أن يكون التنكير للتعظيم، أي: بإيمان عظيم، وعظمته بكثرة الأعمال الصالحة، فيكون ذلك شرطا في إلحاقهم بآبائهم، ويكون من النعمة جعلهم في مكان واحد.

ويحتمل أن يكون للنوعية، أي: ما يصدق عليه حقيقة الإيمان.

وعلى الاحتمالين هو نعمةٌ جمع الله بها للمؤمنين أنواع المسرّة؛ بسعادتهم بمزاوجة الحور وبمؤانسة الإخوان المؤمنين وباجتماع أولادهم ونسل بهم، وذلك أن في طبع الإنسان التأنّس بأولاده وحبّه اتصالهم به.

{ **وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ** } وما نقصناهم من أعمالهم، يقال: آلته حقّه، إذا نقصه إيّاه، وهو من باب ضرب ومن باب علم. وتقدّم عند قوله تعالى { لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً } [الحجرات:14]. و(الواو) للحال.

{ **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** } معترضة بين جملة { وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ } وبين جملة { وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ } [22]، قصد منها تعليل الجملة التي قبلها، وهي بما فيها من العموم صالحة للتذييل مع التعليل.

{ **كُلُّ امْرِئٍ** } يعمّ أهل الآخرة كلّهم، وليس المراد من المتّقين خاصة.

والمعنى: انتفى إنقاصُنا إيّاهم شيئا من عملهم لأنّ كل أحد مَقْرون بما كسب ومُرْتهن عنده.

بما كسبوا: جزاء ما كسبوا، لأنّه الذي يقترن بصاحب العمل، وأمّا نفس العمل فقد انقضى في أبّانه.

الكسب: يطلق على ما يحصّله المرء بعمله لإرادة نفع نفسه.

رهين: فعيل بمعنى مفعول من الرهن وهو الحبس.

{ **وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُون** [22] **يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ** [23] }.

عطف على { فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ } [17].

الإمداد: إعطاء المدد، وهو الزيادة. أي: زدناهم على ما ذُكر من النعيم فاكهة ولحما ممّا يشتهون.

{ **يَتَنَازَعُونَ** } حال من ضمير الغائب في { وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ }. والتنازع أطلق هنا على التداول والتعاطي.

وأصله تفاعل من نزع الدلو من البئر عند الاستقاء، فإنّ الناس كانوا إذا وردوا للاستقاء نزع أحدهم دلوه من الماء ثم ناول الدلو لمن حوله، وربّما كان الرجل القوي الشديد ينزع من البئر للمستقين كلّهم يكفيهم تعب

النزع، ويُسمَّى (الماتح). ثم استعير أو جُعل مجازا عن المداولة والمعاورة في مناولة كؤوس الشراب.
وقيل: تنازعهم الكأس مجاذبة بعضهم كأس بعض للمداعبة.
{ **لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ** } يجوز أن تكون صفة لـ { **كَأْساً** } إن فُهم الكأس بمعنى الإناء المعروف، فهو على تقدير: لا لغو ولا تأثيم لصاحبها. وإن فهم الكأس مرادا به الخمر كانت (في) مستعارة للسببية، أي: لا لغو يقع بسبب شربها. والمعنى على كلا الوجهين: أنّها لا يخالط شاربيها اللغو والإثم. أي: أنّ الخمر التي استُعملت الكأس لها ليست كخمور الدنيا.
اللغو: سقط الكلام والهذيان الذي يصدر عن خلل العقل.
التأثيم: ما يؤثم به فاعله شرعا أو عادة من فعل أو قول، ممّا لا يخلو عنه الندامى غالبا، فأهل الجنّة منزَّهون عن ذلك كلّه.

{ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ } [24].

عطف على جملة { يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً } [23]، فهو من تمامه وواقع موقع الحال مثله، وجيء به في صيغة المضارع للدلالة على التجدّد والتكرّر.
الطواف: مشي متكرّر ذهابا ورجوعا وأكثر ما يكون على استدارة، ومنه طواف الكعبة.
وسُمِّي مشي الغلمان بينهم طوافا لأنّ شأن مجالس الأحبة والأصدقاء أن تكون حلقة ودوائر ليستووا في مرآهم، كما أشار إليه قوله تعالى { عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ } [الصافات:44].
ومنه جُعلت مجالس الدروس حلقا، وكانت مجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم حلقا.
الغلمان: جمع غلام، وحقيقته من كان في سن يقارب البلوغ أو يبلغه، ويطلق على الخادم، لأنّهم كانوا أكثر ما يتّخذون خدمهم من الصغار لعدم الكلفة في حركاتهم وعدم استثقال تكليفهم.
{ **غِلْمَانٌ لَهُمْ** } خدمة لهم. وليس هؤلاء الغلمان بمملوكين للمؤمنين وإنّما خُلقوا لأجلهم، كما في قوله تعالى { وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ } [الإنسان:19].
{ **كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ** } شُبِّهوا بذلك في حسن المرأى. و**اللؤلؤ**: الدرّ. و**المكنون**: المخزون لنفاسته على أربابه فلا يُتحلَّى به إلّا في المحافل والمواكب، فلذلك يبقى على لمعانه وبياضه.

{ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ [25] قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ [26] فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ [27] إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ [28] }.

عطف على جملة { يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا } [23]. والتقدير: وقد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

ولمّا كان إلحاق ذرّيّاتهم بهم مقتضيا مشاركتهم إيّاهم في النعيم كما تقدّم آنفا عند قوله { أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ } [21]، كان هذا التساؤل جاريا بين الجميع من الأصول والذرّيّات سائلين و مسؤولين.

الإشفاق: توقّع المكروه وهو ضدّ الرجاء، وهذا التوقّع متفاوت عند المتسائلين بحسب تفاوت ما يوجبه من التقصير في أداء حق التكليف، أو من العصيان. ولذلك فهو أقوى في جانب ذريات المؤمنين الذين ألحقوا بأصولهم بدون استحقاق. ويجوز أن تكون المقالة صادرة من الذين آمنوا يخاطبون ذرّيّاتهم الذين ألحقوا بهم ولم يكونوا يحسبون أنهم سيلحقون بهم. أي: يقولون لهم: إنّا كنّا قبل مشفقين عليكم.

{ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ } إغراق في الشكر عنهم وعن ذرياتهم. أي: منَّ علينا بالعفو عنكم فأذهب عنا الحزن، ووقانا جميعا عذاب السموم.

السَموم: (بفتح السين) أصله اسم الريح التي تهبّ من جهة حارة جدًّا فتكون جافة شديدة الحرارة، وهي معروفة في بلاد العرب تهلك من يتنشّقها. وأطلق هنا على ريح جهنم على سبيل التقريب بالأمر المعروف. كما أطلقت على العنصر الناري في قوله تعالى { وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ } [الحجر:27].

{ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ } تعليل لمنّة الله عليهم، وثناء على الله بأنّه استجاب لهم، أي: كنّا في الدنيا ندعوه. وحُذف متعلّق { نَدْعُوهُ } للتعميم، أي: كنا نبتهل إليه في أمورنا كلّها.

{ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ } موقعها التعليل على الوجهين في القراءة { إِنَّهُ / أَنَّهُ }.

البَرُّ: المحسن في رفق. و**الرحيم**: شديد الرحمة.

{ هُوَ } ضمير الفصل لإفادة الحصر، وهو لقصر صفتي { الْبَرُّ } و{ الرَّحِيمُ } على الله تعالى، وهو قصر ادعائي للمبالغة باعتبار القوّة، فإنّ غير الله لا يبلغ بالمبرّة والرحمة مبلغ ما لله، وباعتبار عموم المتعلّق، وباعتبار الدوام لأنّ الله برّ في الدنيا والآخرة.

{ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ } [29]

تفريع على ما تقدّم كلّه من قوله تعالى { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ } [7]، لأنّه تضمّن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على تكذيب المكذِّبين والافتراء عليه، وعُقِّب بهذا لأنّ من الناس مؤمنين به متيقّنين أنّ الله أرسله.

فكان ما تضمّنه يقتضي أنّ في استمرار التذكير حكمة أرادها الله، وهي ارعواء بعض المكذِّبين عن تكذيبهم وازدياد المصدِّقين توغّلا في إيمانهم. فالأمر مستعمل في طلب الدوام.

{ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ } لمّا كان أثر التذكير أهم بالنسبة إلى فريق المكذِّبين ليهتدي من شرح قلبه للإيمان روعي ما يزيد النبيّ صلى الله عليه وسلم ثباتا على التذكير من تبرئته ممّا يواجهونه به من قولهم: هو كاهن أو هو مجنون، فربط الله جأش رسوله صلى الله عليه وسلم وأعلمه بأنّ براءته من ذلك نعمة أنعم بها عليه.

قيل: الآية ردّ على مقالة شيبة بن ربيعة، قال في رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو كاهن، وعلى عقبة بن أبي معيط إذ قال: هو مجنون، ويدلّ لكونه ردًّا على مقالة سبقت أنّه أتبعه بقوله { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ } [30].

الكاهن: الذي ينتحل معرفة ما سيحدث من الأمور وما خفي ممّا هو كائن ويخبر به بكلام ذي أسجاع قصيرة. وكان أصل الكلمة موضوعة لهذا المعنى غير مشتقة، ونظيرها في العبرية (الكوهين) وهو حافظ الشريعة والمفتي بها، وهو من بني لاوي. وتقدّم ذكر الكهانة عند قوله تعالى { وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ } [الشعراء:210].

{ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [30].

عن الخليل: كلّ ما في سورة الطور من { أَمْ } فاستفهام وليس بعطف، يعني أنّ المعنى على الاستفهام لا على عطف المفردات. وهذا ضابط ظاهر. ومراده: أنّ الاستفهام مقدّر بعد { أَمْ } وهي منقطعة، وهي للإضراب عن مقالتهم المردودة بقوله تعالى { فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ } [29]، للانتقال إلى مقالة أخرى وهي قولهم هو شاعر، وعدل عن الإتيان بحرف (بل) مع أنّه أشهر في الإضراب الانتقالي، لقصد تضمُّن { أَمْ } للاستفهام. والمعنى: أم أيقولون شاعر. والاستفهام المقرّر إنكاري.

ومناسبة هذا الانتقال مقالاتهم التي يردُّون بها دعوته، فلمّا أشير إلى بعضها بقوله تعالى { فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ } [29] انتقل إلى إبطال صفة أخرى.

عن الضحاك ومجاهد: أنّ قريشا اجتمعوا في دار الندوة فكثرت آراؤهم في محمد صلى الله عليه وسلم، فقال بنو عبد الدار: هو شاعر تربّصوا به ريب المنون، فسيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى، فافترقوا على هذه المقالة، فنزلت هذه الآية فحكت مقالتهم كما قالوها.

التربّص: مبالغة في: الرَّبص، وهو الانتظار.

الريب: هنا الحدثان، وفُسِّر بصرف الدهر. وعن ابن عباس: " ريب في القرآن شك إلّا مكانا واحدا في الطور { رَيْبَ الْمَنُونِ } ".

المنون: من أسماء الموت ومن أسماء الدهر، ويُذكّر. وقد فُسِّر هنا بكلا المعنيين.

{ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ } [31].

وردت الجملة مفصولة بدون عطف لأنّها وقعت في مقام المحاورة لسبقها بجملة { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ } [30]، فإن أمر أحد بأن يقول بمنزلة قوله: فأُمِر بقوله.

{ تَرَبَّصُوا } الأمر مستعمل في التسوية، أي: سواء عندي تربّصهم بي وعدمه.

{ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ } تفريع، أي: فإنّي متربّص بكم كتربّصكم بي، إذا لا ندري أيُّنا يصيبه ريب المنون قبل.

وفي الكلام إشارة إلى وقعة بدر إذ أصابهم من الحدثان القتل والأسر، فتكون الآية مشيرة إلى صريح قوله تعالى { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ } [التوبة:52]. وإنّما قال هنا { مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ } ليشير إلى أنّ النبيّ يتربّص بهم ريب المنون في جملة المتربّصين من المؤمنين.

{ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [32].

{ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا } إضراب انتقال دعا إليه ما في الاستفهام الإنكاري المقدّر بعد { أَمْ } من معنى التعجّب من حالهم كيف يقولون مثل ذلك القول السابق ويستقرّ ذلك في إدراكهم وهم يدَّعون أنّهم أهل عقول لا تلتبس عليهم أحوال الناس، فهم لا يجهلون أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بحال الكهان ولا المجانين ولا الشعراء، وقد أبى عليهم الوليد بن المغيرة أن يقول مثل ذلك في قصة معروفة.

{ تَأْمُرُهُمْ } الأمر هنا مستعار للباعث. أي: تبعثهم أحلامهم على هذا القول.

الحلم: العقل، قال الراغب: المانع من هيجان الغضب. وفي القاموس: هو الأناة.

{ بِهَذَا } الإشارة إلى المذكور من القول المعرَّض به في قوله تعالى { فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ } [29]، والمصرّح به في قوله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [30]،

المعنى: أن الأحلام الراجحة لا تأمر بمثله. وفيه تعريض بأنّهم أضاعوا أحلامهم حين قالوا ذلك.

{ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } إضراب انتقالي أيضا متّصل بالذي قبله، انتقل به إلى استفهام عن اتصافهم بالطغيان. والاستفهام المقدّر مستعمل: إمّا في التشكيك باعثا على التأمّل في حالهم، لأنّ شأن المتأمّل أن يتأكد بأنّهم طاغون، وإمّا مستعمل في التقرير لكلّ سامع إذ يجدهم طاغين.

{ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ [33] فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ [34] }.

انتقال متصل بقوله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ } [30]. وهذا حكاية لإنكارهم أن يكون القرآن وحيا من الله، فزعموا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم تقوّله على الله. فالاستفهام إنكار لقولهم وهم قد أكثروا من الطعن وتمالؤوا عليه ولذلك جيء في حكايته عنهم بصيغة المضارع { يَقُولُونَ } المفيدة للتجدّد.

التقوّل: نسبة كلام إلى أحد لم يقله، ويتعدَّى إلى الكلام بنفسه ويتعدّى إلى من ينسب إليه بحرف (على)، قال تعالى { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِين } [الحاقة:45/44].

{ تَقَوَّلَهُ } ضمير النصب عائد إلى القرآن المفهوم من المقام.

{ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ } التعجيل بتكذيبهم قبل الإدلاء بالحجّة عليهم، وليكون ورود الاستدلال المفرّع على هذا القول بمنزلة دليل ثان. والمعنى: أنّ دلائل تنزيه النبيّ صلى الله عليه وسلم عن تقوّل القرآن بيّنة لديهم ولكن الزاعمين ذلك يأبون الإيمان فهم يبادرون إلى الطعن دون نظر ويلقون المعاذير سترا لمكابرتهم.

{ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ } لمّا كانت مقالتهم هذه طعنا في القرآن، وهو المعجزة القائمة على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت دعواهم أنّه تقوّله على الله من تلقاء نفسه قد تروج على الدهماء، تصدّى القرآن لبيان إبطالها بأن تحدّاهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين في أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم تقوله من تلقاء نفسه. أي: فعجزهم عن أن يأتوا بمثله دليل على أنّهم كاذبون.

ولذلك قال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ } [هود:14/13]، كما قال تعالى { فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام: 33].

الإتيان بالشي: إحضاره من مكان آخر. واختير هذا الفعل دون: فليقولوا مثله، ونحوه، لقصد الإعذار لهم بأن يُقبَل منهم كلام مثله ولو من أحد غيرهم، وتقدّم عند قوله تعالى { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ } [البقرة:23].

الحديث: الإخبار بالحوادث، وأصل الحوادث أنّها الواقعات حديثا، ثم تُوسّع فأطلقت على الواقعات، ولو كانت قديمة، كقولهم: حوادث سنة كذا، وتبع ذلك إطلاق الحديث على الخبر مطلقا، وتُوسّع فيه أيضا فأُطلق على الكلام ولو لم يكن إخبارا، ومنه إطلاق الحديث على كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم.

فيجوز أن يكون الحديث هنا قد أُطلق على الكلم مجازا بعلاقة الإطلاق. ويجوز أن يكون الحديث هنا أطلق على الأخبار. فإنّهم كانوا يقولون إنّ القرآن أساطير الأولين، أي: أخبار عن الأمم الماضين، فقيل لهم: فليأتوا بأخبار مثل أخباره.

{ مِثْلِهِ } أي: المثلية في فصاحته وبلاغته، وهي خصوصيات يدركونها إذا سمعوها ولا تحيط قرائحهم بإيداعها في كلامهم. وقد بيّنّا أصول الإعجاز في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير.

{ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ } في زعمهم أنّه تقوّله، أي: فإن لم يأتوا بكلام مثله فهم كاذبون. وهذا إلهاب لعزيمتهم ليأتوا بكلام مثل القرآن حتّى لا يكون عجزهم حجّة على كذبهم.

{ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ [35] أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ [36] }.

إضراب انتقالي إلى إبطال ضرب آخر من شبهتهم في إنكارهم البعث، وقد علمتَ، في أوّل السورة، أنّ من أغراضها إثبات البعث والجزاء، على أنّ ما جاء بعده من وصف يوم الجزاء وحال أهله قد اقتضته مناسبات نشأت عنها تلك التفاصيل، فإذ وُفِّي حقُّ ما اقتضته تلك المناسبات ثُني عنان الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث وإبطال شبهتهم التي تعلّلوا بها من نحو قولهم { أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً } [الإسراء:49].

{ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ } أي: أنّ ما خلقه الله من بدء الخلق أعظم من إعادة خلق الإنسان.

{ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ } حرف (من) يجوز أن يكون للابتداء، فيكون معنى الاستفهام المقدّر بعد (أم) تقريريًّا.

والمعنى: أيقرُّون أنّهم خُلقوا بعد أن كانوا عدما؟ فكما خُلقوا من عدم في نشأتهم الأولى يُنْشأون من عدم في النشأة الآخرة، وذلك إثبات لإمكان البعث فيكون في معنى قوله { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } [الأنبياء:104].

ومعنى { شَيْءٍ } على هذا الوجه: الموجود، فغير شيء: المعدوم، والمعنى: أخُلِقوا من عدم؟

ويجوز أن تكون (من) للتعليل، فيكون الاستفهام المقدّر بعد (أم) إنكاريًّا، ويكون اسم { شَيْءٍ } صادقا على ما يصلح لمعنى التعليل المستفاد من حرف (من) التعليلية، والمعنى: إنكار أن يكون خلقهم بغير حكمة، وهذا إثبات أنّ البعث واقع لأجل الجزاء على الأعمال. فيكون في معنى قوله تعالى { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون:115]، وقوله تعالى { مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ } [الحجر:85].

ولحرف { مِنْ } في هذا الكلام الوقع البديع إذ كانت على احتمال معنييها دليلا: على إمكان البعث، وعلى وقوعه، وعلى وجوب وقوعه وجوبا تقتضيه الحكمة الإلهية العليا.

ولعلّ العدول عن صوغ الكلام بالصيغة الغالبة في الاستفهام التقريري، والعدول عن تعيين ما أضيف إليه {غَيْرِ} إلى الإتيان بلفظ مبهم وهو لفظ { شَيْءٍ }، روعي فيه الصلاحية لاحتمال المعنيين، وذلك من منتهى البلاغة.

{ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ } إضراب انتقال أيضا، والاستفهام المقدّر بعد { أَمْ } إنكاري، أي: أهم الخالقون؟ وإذ كانوا لم يدَّعوا ذلك فالإنكار مرتَّب على تنزيلهم منزلة من يزعمون أنّهم خالقون.

{ **الْخَالِقُونَ** } حُذف المفعول لقصد العموم، أي: الخالقون للمخلوقات، وعلى هذا جرى الطبري وقدّره المفسّرون عدا الطبري: أم هم الخالقون أنفسهم؟

{ **أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** } يظهر لي أنّها بدل من جملة { أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ }، بدل مفصّل من مجمل إن كان مفعول { الْخَالِقُونَ } المحذوف مرادا به العموم وكان المراد بالسماء والأرض ذاتيهما مع من فيهما، أو بدل بعض من كلّ، إن كان المراد بالسماء والأرض ذاتيهما فقط، فيكون تخصيص السماوات والأرض بالذكر لعظم خلقهما.

والمعنى: أم هم الخالقون للسماوات والأرض؟ والاستفهام إنكاري، والكلام كناية عن إثبات أنّ الله خالق السماوات والأرض.

{ **بَلْ لا يُوقِنُونَ** } إضراب إبطال على مضمون الجملتين اللتين قبله، أي: لم يُخلقوا من غير شيء ولا خلقوا السماوات والأرض، فإنّ ذلك بيّن لهم، ولكنّهم لا يوقنون بالبعث فهم ينكرونه بدون حجّة ولا شبهة، بل رانت المكابرة على قلوبهم.

{ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ } [37].

{ **أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ** } انتقال بالعودة إلى ردّ جحودهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولذلك غُيّر أسلوب الإخبار فيه إلى مخاطبة النبيّ صلى الله عليه وسلم { رَبِّكَ }، وكان الأصل الذي ركّزوا عليه جحودهم توهُّم أنّ الله لو أرسل رسولا من البشر لكان الأحقّ بالرسالة رجلا عظيما من عظماء قومهم، كما حكى الله عنهم قولهم { أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا } [ص:8]، وقوله تعالى { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31]، (مكة والطائف).

المعنى: إبطال أن يكون لهم تصرّف في شؤون الربوبية فيجعلوا الأمر على مشيئتهم، فالاستفهام إنكاري بتنزيلهم في إبطال النبوّة، عمّن لا يرضونه، منزلة من عندهم خزائن الله يخلعون الخلع منها على من يشاؤون ويمنعون من يشاؤون.

الخزائن: جمع خزينة وهي البيت، أو الصندوق الذي تخزن فيه الأقوات أو المال، وما هو نفيس عند خازنه. وتقدم عند قوله تعالى { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ } [يوسف:55]. وهي هنا مستعارة لما في علم الله وإرادته من إعطاء الخير للمخلوقات، ومنها اصطفاء من هيّأه من الناس لتبليغ الرسالة عنه إلى البشر.

وقد تقدّم قوله تعالى { وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام: 124]، وقال تعالى { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [القصص:68].

وقد سلك معهم هنا مسلك الإيجاز في الاستدلال بإحالتهم على مجمل أجمله قوله { أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ } لأنّ المقام مقام غضب عليهم لجرأتهم على الرسول صلى الله عليه وسلم في نفي الرسالة عنه بوقاحة من قولهم: كاهن، ومجنون، وشاعر. بخلاف آية الأنعام فإنّها ردت عليهم تعريضهم أنفسهم لنوال الرسالة.

{ **أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ** } إنكار لأن يكون لهم تصرّف في عطاء الله تعالى ولو دون تصرّف المالك، مثل تصرّف الوكيل والخازن، وهو ما عُبِّر عنه بالمصيطرون.

المصيطر: (يقال بالصاد والسين) اسم فاعل من (صيطر / سيطر)، إذا حفظ وتسلَّط، وهو فعل مشتق من سيطر إذا قطع، ومنه الساطور، وهو حديد يقطع به اللحم والعظم.

وفي معنى الآية قوله تعالى { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ } [الزخرف:32].

{ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ } [38].

لمّا نُفي أن يكون لهم تصرّف قوي أو ضعيف في مواهب الله تعالى على عباده أعقبه بنفي أن يكون لهم اطلاع على ما قدّره الله لعباده، اطلاعا يخوّلهم إنكار أن يرسل الله بشرا أو يوحي إليه، وذلك لإبطال قولهم { تَقَوَّلَهُ } [33]، وقولهم { نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [30] المقتضي أنّهم واثقون بأنّهم يشهدون هلاكه.

{ **يَسْتَمِعُونَ** } حُذف المفعول ليعم كلاما من شأنه أن يُسمع من الأخبار المغيَّبة.

{ **أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ** } سلك في نفي علمهم بالغيب طريق التهكّم بهم بإنكار أن يكون لهم سلم يرتقون به إلى السماء ليستمعوا ما يجري في العالم العلوي من أمر تتلقّاه الملائكة أو أهل الملأ الأعلى بعضهم مع بعض فيسترقوا بعض العلم ممّا هو محجوب عن الناس. إذ من المعلوم عند الجميع أنّه لا سلّم يصل أهل الأرض بالسماء.

{ **يَسْتَمِعُونَ فِيهِ** } أي: يرتقون به إلى السماء فيستمعون وهم فيه، أي: وهم كائنون فيه لا يفارقونه.

وإسناد الاستماع إلى ضمير جماعتهم على اعتبار أنّ المستمع سفير عنهم على عادة استعمال الكلام العربي من إسناد فعل بعض القبيلة إلى جميعها، ألا ترى أنّه قال بعد هذا { فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ }، أي: من استمع منهم لأجلهم، أي: أرسلوه للسمع.

{ **فِيهِ** } ظرفية مجازية اشتهرت حتّى ساوت الحقيقة لأنّ الراقي في السلم يكون كلّه عليه، فالسلم له كالظرف للمظروف، وإن كان في الحقيقة استعلاء ثمّ شاع في الكلام فقالوا: صعد في السُّلَّم، ولم يقولوا: صعد على السلم ولذاك اعتبرت ظرفية حقيقية، أي: حقيقة عرفية. بخلاف الظرفية في قوله { وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ } [طه:71] لأنّه لم يشتهر أن يقال: صلبه في جذع، بل يقال: صلبه على جذع، فلذلك كانت استعارة.

{ **فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** } الفاء لتفريع هذا الأمر التعجيزي على النفي المستفاد من استفهام الإنكار.

و(لام الأمر) مستعمل في إرادة التعجيز بقرينة انتفاء أصل الاستماع.

فالمعنى: فما يأتي مستمع منهم بحجّة تدلّ على صدق دعواهم.

السلطان: الحجّة، أي: حجّة على صدقهم في نفي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، أو في كونه على وشك الهلاك. كأن يقولوا: آية صدقنا فيما ندّعيه وسمعناه من حديث الملأ الأعلى، أننا سمعنا أنّه يقع غدا حادث كذا وكذا مثلا، مما لا قبل للناس بعلمه، فيقع كما قالوا. وهذا معنى وصف السلطان بالمبين، أي: المظهر لصحّة الدعوى.

{ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ } [39].

لمّا جرى نفي أن تكون لهم مطالعة الغيب من الملأ الأعلى إبطالا لمقالاتهم في شؤون الربوبية أعقب ذلك بإبطال نسبتهم لله بنات استقصاءً لإبطال أوهامهم في المغيَّبات من العالم العلوي.

فالجملة معترضة بين التي تسبقها والتي تلحقها، ويقدّر الاستفهام إنكارا لأن يكون لله البنات.

ودليل الإنكار لنفس الأمر (استحالة الولد على الله تعالى)، ولكن لمّا كانت عقول أكثر المخاطبين بهذا الرد غير مستعدة لإدراك دليل الاستحالة، وكان اعتقادهم البنات لله منكرا، تُصُدِّيَ لدليل الإبطال وسُلِك في إبطاله دليل إقناعي يتفطّنون به إلى خطل رأيهم، وهو قوله { وَلَكُمُ الْبَنُونَ }.

فهذا مبالغة في تشنيع قولهم، فليس المراد أنّهم لو نسبوا لله البنين لكان قولهم مقبولا لأنّهم لم يقولوا ذلك فلا طائل تحت إبطاله.

{ وَلَكُمُ الْبَنُونَ } تغير أسلوب الغيبة المتبع ابتداء من قوله { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ } [30]، إلى أسلوب الخطاب التفات مكافحة لهم بالردّ بجملة الحال. وتقديم { لَكُمُ } لإفادة الاختصاص.

{ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ } [40].

هذا مرتبط بقوله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ } [33]، وقوله تعالى { أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ } [37]، إذ كلّ ذلك إبطالٌ للأسباب التي تحملهم على زعم انتفاء النبوّة عن محمد صلى الله عليه وسلم.

فبعد أن أبطل وسائل اكتساب العلم، بما زعموه، عاد إلى إبطال الدواعي التي تحملهم على الإعراض عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولأجل ذلك جاء هذا الكلام على أسلوب الكلام الذي اتصل به، أسلوب خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال هنا { أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً } وقال هنالك { أم عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ }.

والاستفهام المقدّر بعد { أَمْ } مستعمل في التهكّم بهم بتنزيلهم منزلة من يتوجّس خيفة من أن يسألهم الرسول صلى الله عليه وسلم أجرا على إرشادهم. والتهكّم استعارة مبنية على التشبيه، والمقصود ما في التهكّم من

معنى أنّ ما نشأ عنه الخوف أمر لا ينبغي أن يخطر بالبال.

{ **تَسْأَلُهُمْ** } جيء بالمضارع لإفادة التجدّد، أي: تسألهم سؤالا متكرّرا لأنّ الدعوة متكرّرة.

{ **فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ** } تفريع لما فيه من بيان الملازمة بين سؤال الأجر وبين تجهّم من يسأل والتحّرج منه. أي: ما سألتهم أجرا فيَثْقُل غُرمه عليهم، لأنّ الاستفهام في معنى النفي.

{ **مِنْ** } للتعليل، أي: مثقلون من أجل مغرم حُمل عليهم.

المَغرم: (بفتح الميم) مصدر ميمي، وهو الغُرم. وهو ما يُفرض على أحد من عوض يدفعه.

المُثقل: أصله المُحمَّل بشيء ثقيل، وهو هنا مستعار لمن يُطالب بما يعسر عليه أداؤه، شُبِّه طلبه أداء ما يعسُر عليه بحمل الشيء الثقيل.

{ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ } [41].

هذا نظير الإضراب والاستفهام في قوله تعالى { أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ } [37]، أي: بل أعندهم الغيب فهم يكتبون ما يجيدونه فيه ويروونه للناس؟ أي: ما عندهم الغيب حتّى يكتبوه.

<u>فبعد أن ردّ عليهم إنكارهم</u> الإسلام بأنّهم كالذين سألهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أجرا على تبليغها <u>أعقبه بردٍّ آخر</u> بأنّهم كالذين أطّلعوا على أنّ عند الله ما يخالف ما أدّعى الرسول صلى الله عليه وسلم إبلاغه عن الله، فهم يكتبون ما اطّلعوا عليه فيجدونه مخالفا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **عِنْدَهُمُ** } ا تؤذن بمعنى الاختصاص والاستئثار، أي: استأثروا بمعرفة الغيب فعلموا ما لم يعلمه غيرهم.

الغيب: هنا مصدر بمعنى الفاعل، أي: ما غاب عن علم الناس. والتعريف تعريف الجنس

{ **فَهُمْ يَكْتُبُونَ** } الكتابة هنا <u>يجوز أنّها مستعارة للجزم</u> الذي لا يقبل التخلّف، كقوله تعالى { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } [الأنعام:54]، لأن شأن الشيء الذي يراد تحقيقه والدوام عليه أن يُكتب ويُسجل. فيكون الخبر في قوله تعالى { فَهُمْ يَكْتُبُونَ } مستعملا في معناه من إفادة النسبة الخبرية.

<u>ويجوز أن تكون الكتابة على حقيقتها</u>، أي: فهم يسجّلون ما اطّلعوا عليه من الغيب ليبقى معلوما لديهم.

ويكون الخبر من قوله تعالى { فَهُمْ يَكْتُبُونَ } مستعملا في معنى الفرض والتقدير تبعا لفرض قوله تعالى { أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ }.

<u>وحاصل المعنى</u>: أنّهم لا قبل لهم بإنكار ما جحدوه ولا بإثبات ما أثبتوه.

{ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ } [42].

انتقال من نقض أقوالهم وإبطال مزاعمهم إلى إبطال نواياهم وعزائمهم من التبييت للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولدعوة الإسلام من الإضرار والإخفاق، وفي هذا كشف لسرائرهم وتنبيه للمؤمنين للحذر من كيدهم.

{ كَيْداً } حُذف المتعلّق ليعمّ كلّ ما يستطيعون أن يكيدوه، فكانت هذه الجملة بمنزلة التتميم لنقض غزلهم والتذييل بما يعمّ كلّ عزم يجري في الأغراض التي جرت فيها مقالاتهم.

الكيد: والمكر متقاربان وكلاهما إخفاء الضرّ بوجوه الإخفاء تغريرا بالمقصود له الضرّ.

{ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ } إظهار في مقام الإضمار، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: فهم المكيدون، لما تؤذن به الصلة من وجه حلول الكيد بهم، لأنّهم كفروا بالله.

{ هُمُ } ضمير الفصل أفاد القصر، أي: الذين كفروا المكيدون دون من أرادوا الكيد بهم. فالله يدافع عن رسوله صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين وعن دينه كيدهم ويوقعهم فيما نووا إيقاعهم فيه.

<u>وإطلاق اسم الكيد على ما يجازيهم الله به</u> عن كيدهم من نقض غزلهم إطلاق على وجه <u>المشاكلة</u>، بتشبيه إمعان الله إيّاهم في نعمة إلى أن يقع بهم العذاب بفعل الكائد لغيره، وقد تقدم قوله تعالى { وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِين } [الأنفال:30]. <u>وهذا تهديد صريح لهم</u>، ومن مظاهر هذا التهديد ما حلّ بهم يوم بدر على غير ترقّب منهم.

{ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [43].

هذا آخر سهم في كنانة الردّ عليهم وأشدّ رمي لشبح كفرهم، وهو شبح الإشراك، وهو أجمع ضلال تنضوي تحته الضلالات. وظاهر أنّ الاستفهام المقدّر بعدْ { أَمْ } استفهام إنكاري.

لمّا كان ما نُعي عليهم من أوّل السورة ناقضا لأقوالهم ونواياهم، وكان ما هم فيه من الشرك أعظم لم يُترك عَدُّ ذلك عليهم، لاشتهاره، بعد استيفاء الغرض المسوق له الكلام لهذه المناسبة، ولذلك كان هذا المُنْتَقَلُ إليه بمنزلة التذييل لما قبله لأنّه ارتقاء إلى الأهم في نوعه، والأهمّ يُشبه الأعمّ فكان كالتذييل. ونظيره في الارتقاء في كمال النوع قوله تعالى { فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ - إلى قوله - ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا } [البلد:13-17].

{ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ } إتمام للتذييل وتنهية المقصود من فضح حالهم.

{ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ [44] فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ [45] يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ [46] }.

عطف على جملة { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ } [30] وما بعدها من الجمل الحالية لأقوالهم بمناسبة اشتراك معانيها مع ما في هذه الجملة في تصوير بهتانهم ومكابرتهم الدالة على أنّهم أهل البهتان، فلو رأوا كسفا ساقطا من السماء وقيل لهم: هذا كسف نازل كابروا وقالوا: هو سحاب مركوم.

{ **وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً** } يجوز أن يكون تلويحا إلى ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً - إلى قوله - أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [الإسراء:90-92].

والمعنى: إن يروا كسفا من السماء، ممّا سألوا أن يكون آية على صدقك، لا يذعنوا ولا يؤمنوا ولا يتركوا البهتان بل يقولوا: هذا سحاب، وهذا المعنى مروي عن قتادة. وهو من قبيل قوله تعالى { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ } [الحجر:15/14].

الكِسف: (بكسر الكاف) القطعة، ويقال: كسفه. وقد تقدّم في [الإسراء:92].

{ **مِنَ السَّمَاءِ** } صفة لـ { كِسَفاً }، و{مِنَ} تبعيضية، أي: قطعة من السماء مثل القطع التي تسقط من الشهب.

المركوم: المجموع بعضه فوق بعض، وهو السحاب الممطر، قال تعالى { ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً } [النور: 43].

والمعنى: إن يقع ذلك في المستقبل يقولوا سحاب، وهذا لا يقتضي أنّه يقع.

{ **فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ** } المقصود من الكلام السابق أنّهم يقولون ذلك عنادا مع تحقّقهم أنّه ليس سحابا. ولكون المقصود أنّ العناد شيمتهم فُرّع عليه أن أَمَر الله رسولَه صلى الله عليه وسلم بأن يتركهم، أي: يترك عرض الآيات عليهم، أي: أن لا يسأل الله إظهار ما اقترحوه من الآيات، لأنّهم لا يقترحونها طلبا للحجة ولكنهم يكابرون، قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } [يونس:97/96]. وليس المراد ترك دعوتهم وعرض القرآن عليهم.

ويجوز أن يكون الأمر في قوله { فَذَرْهُمْ } مستعملا في تهديديهم لأنّهم يسمعونه حين يُقرأ عليهم القرآن، كما يقال للذي لا يرعوي عن غيّه: دعه فإنّه لا يقلع.

{ **حَتَّى** } أفادت الغاية أنّه يتركهم إلى الأبد لأنّهم بعد أن يُصعقوا لا تعاد محاجّتهم بالأدلة والآيات.

{ **يُلاقُوا** } استعارة لوقوعه، شُبّه اليوم وهو الزمان بشخص غائب على طريقة المكنية، وإثبات الملاقاة إليه تخييل. والملاقاة مستعارة أيضا للحلول فيه، والإتيان بالموصول للتنبيه على خطئهم في إنكاره.

اليوم الذي فيه يصعقون: ذلك هو يوم الحشر، قال تعالى { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ } [الزمر:68].

{ **يَوْمَهُمُ** } إضافة اليوم إلى ضميرهم لأنّهم اشتهروا بإنكاره وعُرفوا بالذين لا يؤمنون بالآخرة. ونظيره قوله تعالى { وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } [الأنبياء:103].

الصعق: الإغماء من خوف أو هلع، قال تعلى { وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً } [الأعراف:143]، وأصله مشتقّ من الصاعقة، لأنّ المصاب بها يُغمى عليه أو يموت، يقال: صَعِق، (بفتح فكسر)، وصُعِق (بضم وكسر).

{ **يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً** } بدل من { يَوْمِهِمْ } وفتحته فتحة إعراب لأنّه أضيف إلى معرب.

الإغناء: جعل الغير غنيًّا، أي: غير محتاج إلى ما تقوم به حاجياته، وإذا قيل: أغنى عنه كان معناه: أنّه قام مقامه في دفع حاجة كان حقّه أن يقوم هو بها، ويُتوسع فيه بحذف مفعوله لظهوره من المقام.

المراد هنا: لا يغني عنهم شيئا من العذاب، المفهوم من إضافة { يَوْمَ } إلى ضميرهم، ومن الصلة في قوله تعالى { الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ }.

{ **كَيْدُهُمْ** } من إضافة المصدر إلى فاعله، أي: ما يكيدون به، وهو المشار إليه بقوله { أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً} [42] أي: لا يستطيعون كيدا يومئذ كما كانوا في الدنيا.

فالمعنى: لا كيد لهم اليوم يغني عنهم، وهذا ينفي عنهم التخلص بوسائل من فعلهم.

{ **وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ** } عطف لنفي أن يتخلَّصوا من العذاب بنصرة غيرهم.

{ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [47].

جملة معترضة، أي: وإنّ لهم عذابا في الدنيا قبل عذاب الآخرة، وهو عذاب الجوع في سني القحط، وعذاب السيف يوم بدر.

{ **لِلَّذِينَ ظَلَمُوا** } إظهار في مقام الإضمار لأنّ مقتضى الظاهر أن يقال: وإنّ لهم عذابا، جريا على أسلوب قوله تعالى { فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ } [45]، فخولف مقتضى الظاهر لإفادة علة استحقاقهم العذاب في الدنيا بأنّها الإشراك بالله. فالظلم هنا بمعنى الإشراك.

{ **دُونِ** } أصلها المكان المنفصل عن شيء انفصالا قريبا، وكثر إطلاقه على الأقل، يقال: هو في الشرف دون فلان، وعلى السابق لأنّه أقرب حلولا من المسبوق، وعلى معنى (غير)، وهي في هذه الآية صالحة للثلاثة الأخيرة، إذ المراد عذاب في الدنيا هو أقل من عذاب الآخرة، قال تعالى { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ } [السجدة:21]، وهو مغاير له كما هو بيّن.

{ **إِنَّ** } ولكون هذا العذاب مستبعدا عندهم وهم يرون أنفسهم في نعمة مستمرة، أُكِّد الخبر، والتأكيد مراعى فيه شكّهم حين يسمعون القرآن، كما دلّ عليه تعقيبه بقوله تعالى { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ }.

{ **وَلَكِنَّ** } الاستدراك راجع إلى مفاد التأكيد، أي: هو واقع لا محالة ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك، أي: لا يخطر ببالهم، وذلك من بطرهم وزهوهم. ومفعول { لا يَعْلَمُونَ } محذوف اختصارا للعلم به.
{ **أَكْثَرَهُمْ** } أسند عدم العلم إلى أكثرهم دون جميعهم لأنّ فيهم أهل رأي ونظر يتوقّعون حلول الشرّ.

{ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ [48] وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُوم [49] }.

{ **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** } عطف على جملة { فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ } [45]، وما بينهما اعتراض.

لمّا كان مفتتح السورة خطابا للنبيّ صلى الله عليه وسلم من قوله تعالى { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ } [7]، المسوق مساق التسلية له، وكان ما في معظمها من الأخبار ما يخالطه في نفسه صلى الله عليه وسلم من الكدر والأسف على ضلال قومه وبعدهم عما جاءهم به من الهدى، خُتمت السورة بأمره بالصبر تسلية له، وبأمره بالتسبيح وحمد الله شكرا له على تفضيله بالرسالة.

{ **لِحُكْمِ رَبِّكَ** } ما حَكَم به وقدَّره من انتفاء إجابة بعضهم ومن إبطاء إجابة أكثرهم. و(اللام) يجوز أن تكون بمعنى (على)، فيكون لتعدية فعل { اصْبِرْ }، كقوله تعالى { وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُون } [المزمل:10]، ويجوز فيها معنى (إلى)، أي: اصبر إلى أن يحكم الله بينك وبينهم، فيكون في معنى قوله تعالى { وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ } [يونس:109]، ويجوز أن تكون للتعليل فيكون {لِحُكْمِ رَبِّكَ} هو ما حكم به من إرساله إلى الناس، أي: اصبر لأنّك تقوم بما وجب عليك.

{ **فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** } تفريع العلّة على المعلول، أي: { اصْبِرْ } لأنّك بأعيننا، أي: بمحل العناية والكلاءة منا. يقال: هو بمرأى مني ومسمع، أي لا يخفى علي شأنه. وذكر العين تمثيل لشدة الملاحظة، وهذا التمثيل كناية عن لازم الملاحظة من نصر والجزاء والحفظ.

{ **بِأَعْيُنِنَا** } الجمع إمّا مبالغة في التمثيل كأن الملاحظة بأعين عديدة، كقوله تعالى { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا } [هود:37]، وهو من قبيل قوله تعالى { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ } [الذريات:47].

ولك أن تجعل الجمع باعتبار تعدّد متعلقات الملاحظة؛ فملاحظة للذب عنه، وملاحظة لتوجيه الثواب ورفع الدرجة، وملاحظة لجزاء إعداده بما يستحقونه، وملاحظة لنصره عليهم بعموم الإيمان به، وهذا الجمع على نحو قوله تعالى { وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا } [القمر:14/13] لأنّ عناية الله بأهل السفينة تتعلّق بإجرائها وتجنيب الغرق عنها وسلامة ركّابها واختيار الوقت لإرسائها وسلامة الركاب في هبوطهم.

{ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُوم }

التسبيح: التنزيه، والمراد ما يدل عليه من قول، وأشهر ذلك هو قول سبحان الله وما يرادفه من الألفاظ، ولذاك كثر إطلاق التسبيح وما يشتق منه على الصلوات في آيات كثيرة وآثار.

{ **بِحَمْدِ رَبِّكَ** } الباء للمصاحبة، جمعا بين تعظيم الله بالتنزيه عن النقائص وبين الثناء عليه بأوصاف الكمال.

{ **حِينَ تَقُومُ** } وقت الهبوب من النوم، وهو وقت استقبال أعمال اليوم، وعنده تتجدد الأسباب التي من أجلها أمر بالصبر والتسبيح والحمد.

قيل: التسبيح : الصلاة، والقيام: القيام لها: إما للنوافل، وإمّا للصلاة الفريضة وهي الصبح.

وعن عوف بن مالك وابن مسعود وجماعة: أنّ المراد بالقيام القيام من المجلس لما روى الترمذي عن أبي هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" من جلس مجلسا فكثر فيه لَغَطُهُ فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أنّ لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلّا غُفر له ما كان في مجلسه ذلك".**

{ **مِنَ اللَّيْلِ** } أي: زمنا هو بعض الليل.

{ **فَسَبِّحْهُ** } اكتفاء، أي: واحمده.

{ **وَإِدْبَارَ النُّجُوم** } انتصب على الظرفية لأنه على تقدير: ووقت إدبار النجوم.

الإدبار: رجوع الشيء من حيث جاء لأنه ينقلب إلى جهة الدبر، أي: الظهر.

إدبار النجوم: أي: عند احتجابها. ، فإطلاق الإدبار هنا مجاز في المفارقة والمزايلة.

فإدبار النجوم: وقت السحر، وهو وقت يستوفي فيه الإنسان حظه من النوم ويبقى فيه ميل إلى استصحاب الدعة، فأمر بالتسبيح فيه ليفصل بين النوم المحتاج إليه وبين التناوم الناشئ عن التكاسل، ثمّ إن وجد في نفسه بعد التسبيح حاجة إلى غفوة من النوم اضطجع قليلا إلى أن يحين وقت صلاة الصبح، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضطجع بعد صلاة الفجر حتّى يأتيه المؤذن بصلاة الصبح.

النجوم: جمع نجم وهو الكوكب الذي يضيء في الليل غير القمر، وتقدّم عند قوله تعالى { وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ } [النحل:12].

والآية تشير إلى أوقات الرغائب من النوافل وهي صلاة الفجر والأشفاع بعد العشاء وقيام آخر الليل.

وقيل: أشارت إلى الصلوات الخمس بوجه الإجمال وبيّنته السنة.

سم الله الرحمن الرحيم

سورة النجم

سُمِّيت (**سورة النجم**) بغير واو في عهد أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم.

ففي الصحيح عن ابن مسعود: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم فسجد بها فما بقي أحد من القوم إلّا سجد، فأخذ رجل كفا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه. وقال: يكفني هذا. قال عبد الله: فلقد رأيته بعد قُتل كافرا. وهذا الرجل هو أمية بن خلف. وعن ابن عباس مثل ذلك. فهذه تسمية لأنّها ذُكر فيها النجم.

وسمُّوها (**سورة والنجم**) بواو، بحكاية لفظ القرآن الواقع في أوّلها، وكذلك ترجمها البخاري في التفسير والترمذي في جامعه. ووقعت في المصاحف بالوجهين.

وسمُّوها (**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى**)، كما في حديث زيد بن ثابت في الصحيحين: " أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى } فلم يسجد ". أي: في زمن آخر غير الوقت الذي ذكره ابن مسعود وابن عباس.

وهذا كله اسم واحد متوسّع فيه، فلا تعدّ هذه السورة بين السور ذوات أكثر من اسم.

وهي مكية، قال ابن عطية: بإجماع المتأوّلين. وعن ابن عباس وقتادة: استثناء قوله تعالى { الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ } [32]، قالا: هي آية مدنية. وسنده ضعيف.

وعن ابن مسعود هي أوّل سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة.

وهي السورة الثالثة والعشرون في عدِّ ترتيب السور. نزلت بعد سورة الإخلاص وقبل سورة عبس.

وعدّ جمهور العادّين **آيها إحدى وستين**، وعدَّها أهل الكوفة اثنتين وستين.

قال ابن عطية: **سبب نزولها** أنّ المشركين قالوا: إنّ محمدا يتقوّل القرآن ويختلق أقواله، فنزلت السورة في ذلك.

أغراض السورة

*/ تحقيق أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فيما يبلّغه عن الله تعالى وأنّه منزّه عمَّا ادعوه.

*/ إثبات أنّ القرآن وحي من عند الله بواسطة جبريل.

*/ تقريب صفة نزول جبريل بالوحي في حالين، زيادة في تقرير أنّه وحي من الله واقع لا محالة.

*/ إبطال إلهية أصنام المشركين.

*/ إبطال قولهم في اللات والعزى ومناة بنات الله، وأنّها أوهام لا حقائق لها وتنظير قولهم فيها بقولهم في الملائكة أنهم إناث.

*/ ذكر جزاء المعرضين والمهتدين وتحذيرهم من القول في هذه الأمور بالظنّ دون حجّة.

*/ إبطال قياسهم عالم الغيب على عالم الشهادة وأنّ ذلك ضلال في الرأي قد جاءهم بضدّه الهدى من الله، وذكر لذلك مثال من قصة الوليدين المغيرة، أو قصة ابن أبي سرح.

*/ إثبات البعث والجزاء.

*/ تذكيرهم بما حلّ بالأمم ذات الشرك من قبلهم، وبمن جاء قبل محمد صلى الله عليه وسلم من الرسل أهل الشرائعّ. وأن القرآن حوى كتب الأنبياء السابقين.

*/ إنذارهم بحادثة تحلّ بهم قريبا.

*/ ما تخلّل ذلك من معترضات ومستطردات لمناسبات.

{ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى [1] مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى [2] وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى [3] }.

أقسم الله تعالى بعظيم من مخلوقاته دال على عظيم صفاته. والكلام موجّه من الله تعالى إلى المشركين الطاعنين في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

النجم: الكوكب، أي: الجرم الذي يبدو للناظرين لامعا في جو السماء ليلا.

والتعريف باللام، يجوز أن يكون للجنس كقوله تعالى { وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } [النحل: 16]، وقوله { وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ } [الرحمن:6]. ويحتمل تعريف العهد، وأشهر النجوم بإطلاق اسم النجم عليه (الثريا) لأنّهم كانوا يوقّتون بأزمان طلوعها مواقيت الفصول ونضج الثمار. وقيل: (الشِّعرى اليمانية) وهي العبور وكانت معظَّمة عند العرب وعبدتها خزاعة.

ويجوز أن يكون المراد الشهاب، وبهُويّه: سقوطه من مكانه إلى مكان آخر، قال تعالى { إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ } [الصافات:7/6]، وقال تعالى { وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ } [الملك:5].

{ وَالنَّجْمِ } القسم به لما في خلقه من الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى، ألا ترى إلى قول الله حكاية عن إبراهيم { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي } [الأنعام:76].

{ إِذَا هَوَى } تقييد القسم بالنجم بوقت غروبه لإشعار غروب ذلك المخلوق العظيم بعد أوجِّه في شرف الارتفاع في الأفق على أنّه تسخير لقدرة الله تعالى.

الهُويّ: السقوط، أطلق هنا على غروب الكوكب، استعارة لاقتراب اختفائه. ويجوز أن يراد سقوط الشهاب حين يلوح للناظر أنّه يجري في أديم السماء، فهو هُوي حقيقي، فيكون الهويّ قد استعمل في حقيقته ومجازه.

وفي ذكر حالة غروب النجم احتراس من أن يتوهّم المشركون أنّ في القسم بالنجم إقرارا لعبادة نجم الشِّعرى، وأنّ القسم به اعتراف بأنّه إله، إذ كان بعض قبائل العرب يعبدونها. ومن مناسبات هذا يجيء قوله تعالى { وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى } [49].

فيكون قوله تعالى { إِذَا هَوَى } إشعارا بأن النجوم كلها مسخرة لقدرة الله ولا اختيار لها، فليست أهلا لأن تعبد، فحصل المقصود من القسم بما فيها من الدلالة على القدرة الإلهية مع الاحتراس عن اعتقاد عبادتها.

ومناسبة هذا القسم، أنّ الكلام مسوق لإثبات أنّ القرآن وحي من الله مُنزّل من السماء فشابه حال نزوله الاعتباري حال النجم في حالة هُويّه مشابهة تمثيلية حاصلة من نزول شيء منير إنارة معنوية نازل من محل رفعة معنوية، أو هو إشارة إلى مشابهة حالة نزول جبريل من السماوات بحالة نزول النجم من أعلى مكانه إلى أسفله.

{ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } جواب القسم.
الضلال: عدم الاهتداء إلى الطريق الموصول إلى المقصود، وهو مجاز في سلوك ما ينافي الحق.
الغواية: فساد الرأي وتعلّقه بالباطل.
الصاحب: الملازم للذي يضاف إليه وصف صاحب، والمراد هنا محمد صلى الله عليه وسلم.
{ صَاحِبُكُمْ } تعريض بأنّهم أهل بهتان إذ نسبوا إليه ما ليس منه في شيء مع شدّة اطلاعهم على أحواله.
{ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى } عطف على جواب القسم، وهذا وصف كمال لذاته. والكلام الذي ينطق به هو القرآن لأنّهم قالوا فيه { إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ } [الفرقان:4]، وقالوا { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا } [الفرقان:5].
الهوى: ميل النفس إلى ما تحبه أو تحب أن تفعله دون أن يقتضيه العقل السليم الحكيم، ولذلك يختلف الناس في الهوى ولا يختلفون في الحق، وقد يحب المرء الحق والصواب. فالمراد بالهوى إذا أطلق أنّه الهوى المجرّد عن الدليل.
واعلم أن تنزيهه صلى الله عليه وسلم عن النطق عن هوى يقتضي التنزيه عن أن يفعل أو يحكم عن هوى لأنّ التنزّه عن النطق عن هوى أعظم مراتب الحكمة. ولذلك ورد في صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه يمزح ولا يقول إلّا حقا.
وهنا تم إبطال قولهم فحسن الوقف على قوله { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى }.
{ هَوَى / الْهَوَى } جناس شبه تام.

{ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى [4] عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى [5] ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى [6] وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى [7] ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى [8] فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى [9] فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى [10] }.

استئناف بياني لجملة { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى } [3].
{ إِنْ هُوَ } يجوز أن يعود الضمير إلى معلوم من سياق الرد عليهم: القرآن، لأنهم زعموا في أقوالهم المردودة بقوله تعالى { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } [2] أنّ القرآن سحر، أو شعر، أو كهانة، أو أساطير الأولين، أو إفك افتراه.
وإن كان النبيّ صلى الله عليه وسلم ينطق بغير القرآن عن وحي، كما في حديث الحديبية في جوابه للذي سأله: وما يفعل المعتمر؟ وكقوله صلى الله عليه وسلم: **" إنّ روح القدس نفث في روعي إن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها "**. ومثل جميع الأحاديث القدسية التي فيها قال الله تعالى ونحوه.
وفي سنن أبي داود و الترمذي من حديث المقدام بن معد يكرب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" إنّي**

أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلُّوه وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه ".

وقد ينطق صلى الله عليه وسلم عن اجتهاد.

الوحي: تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ } [النساء:163].

{ **يُوحَى** } مؤكِّدة لجملة { إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ } مع دلالة المضارع على أنّ ما ينطق به متجدّد وحيه غير منقطع. والمتعلق محذوف تقديره: إليه، أي: إلى صاحبكم.

وتُرك فاعل الوحي لضرب من الإجمال الذي يعقبه التفصيل، لأنّه سيرد بعده ما يبيّنه.

{ **عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى** } مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان كيفية الوحي. وضمير الغائب عائد إلى الوحي، أو إلى ما عاد إليه ضمير { هُوَ }، أي: القرآن، وهو في محل المفعول الأوّل من (علّم)، والمفعول الثاني محذوف، والتقدير: علَّمه إيّاه.

ويجوز جعل ضمير الغائب عائدا إلى { صَاحِبُكُمْ } والمحذوف عائد إلى { وَحْيٌ }، إبطالا لقول المشركين { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } [النحل:103].

{ **شَدِيدُ الْقُوَى** } صفة لمحذوف يدلّ عليه ما يُذكر بعدُ ممّا هو من شؤون الملائكة، أي: مَلَك شديد القوى.

واتفق المفسرون على أنّ المراد: **جبريل عليه السلام**.

المِرَّة: (بكسر الميم وتشديد الراء المفتوحة) تطلق على قوّة الذات وتطلق على متانة العقل وأصالته، وهو المراد هنا، لأنّه قد تقدّم قبله ووصف بشديد القوى.

وتخصيص جبريل بهذا الوصف يشعر بأنّه المَلَك الذي ينزل بفيوضات الحكمة على الرسل والأنبياء.

{ **فَاسْتَوَى** } مفرّع على ما تقدّم من قوله تعالى { عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى }. والفاء للتفصيل، والمستوي هو جبريل. والمعنى: قيامه بعزيمة لتلقّي رسالة الله، كما يقال: استقلّ قائما، فاستواء جبريل هو مبدأ التهيّؤ لقبول الرسالة من عند الله، ولذلك قُيِّد هذا الاستواء بجملة الحال في قوله تعالى { **وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى** }، أي: قبل أن ينزل إلى العالم الأرضي.

الأفق: اسم للجوّ الذي يبدو للناظر ملتقى بين طرف منتهى النظر من الأرض وبين منتهى ما يلوح كالقبّة الزرقاء، وغلب إطلاقه على ناحية بعيدة عن موطن القوم. ومنه أفق المشرق وأفق المغرب.

{ **الْأَعْلَى** } يفيد أنّه ناحية من جو السماء. وذكر هذا ليرتب عليه قوله تعالى:

{ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى** } عطف على جملة { فَاسْتَوَى }، والتراخي الذي تفيده { ثُمَّ } تراخ رتبي، لأنّ الدنو ليبلّغ الوحي هو الأهم في هذا المقام.

الدنوّ: القرب، وإذ قد كان فعل الدنو قد عُطف على { فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى } عُلِم أنه دنا إلى العالم

الأرضي، أي: نزل إلى الأرض بعد أن تلقّى ما يبلّغه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **فَتَدَلَّى** } انخفض من علوٍ قليلا، أي: ينزل من طبقات إلى ما تحتها كما يتدلّى الشيء المعلق في الهواء، بحيث لو رآه الرائي يحسبه متدلّيًا، وهو ينزل من السماء غير مُنْقَضٍّ.

{ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى** } عن سعيد بن المسيب: القاب صدر القوس العربية حيث يُشدّ عليه السير الذي يتنكَّبه صاحبه، ولكلّ قوس قاب واحد. وقيل: يطلق القوس في لغة أهل الحجاز على ذراع يُذرع به (ولعله مصدر **قَاسَ** فسُمِّي به ما يقاس به).

القوس: آلة من عود نَبْع، مقوّسة يُشدّ بها وتر من جلد ويرمي عنها السهام والنشاب وهي في مقدار الذراع عند العرب.

وحاصل المعني: أنّ جبريل كان على مسافة قوسين من النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولعلّ الحكمة في هذا البعد أنّ هذه الصفة حكاية لصورة الوحي الذي كان في أوائل عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالنبوّة، فكانت قواه البشرية يومئذ غير معتادة لتحمّل اتصال القوّة الملكية بها مباشرة.

ألا ترى أنّه لمّا اتصل به في غار حراء، وهو الذي عبّر عنه في حديثه بالغط، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **فغطّني حتّى بلغ مني الجهد** ". ثم كانت تعتريه الحالة الموصوفة في حديث نزول أوّل الوحي المشار إليها في سورة المدثر وسورة المزمل، قال تعالى { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً } [المزمل:5].

ولمراعاة حكمة الرفق بالنبيّ كان جبريل يتمثل للنبيّ صلى الله عليه وسلم في صورة إنسان، من ذلك حديث عمر الشهير في بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

{ **أَوْ أَدْنَى** } و{أَوْ} هنا للتخيير في التقدير، وهو مستعمل في التقريب، أي: إن أراد أحد تقريب هذه المسافة فهو مخيّر بين أن يجعلها قاب قوسين أو أدنى.

{ **فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى** } تفريع على قوله تعالى { فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى }، وهذا التفريع هو المقصود من البيان وما قبله تمهيد له، وهو تمثيل لأحوال عجيبة بأقرب ما يفهمه الناس لقصد بيان إمكان تلقي الوحي عن الله تعالى، إذ كان المشركون يحيلونه، فبيَّن لهم إمكان الوحي بوصف طريق الوحي إجمالا. وهذه كيفية من صور الوحي.

{ **أَوْحَى** } الضمير عائد إلى الله المعلوم من قوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } [4].

{ **عَبْدِهِ** } إيثار التعبير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بهذا العنوان إظهار في مقام الإضمار، والإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف.

{ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى [11] أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى [12]** }.

الأظهر أنّ هذا ردٌّ لتكذيب من المشركين فيما بلغهم من الخبر عن رؤية النبيّ صلى الله عليه وسلم جبريل، وهو الذي يؤذن به قوله بعد { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى }.

{ **الْفُؤَادُ** } اللام عوض عن المضاف إليه، أي: فؤاده، وعليه فيكون تفريع الاستفهام في قوله {أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى} استفهاما إنكاريا لأنّهم ماروه.

{ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى** } يجوز أن يكون تأكيدا لمضمون قوله تعالى { فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ } [9]، فإنه يؤذن بأنّه بمرأى من النبيّ صلى الله عليه وسلم برفع احتمال المجاز في تشبيه القرب، أي: هو قرب حسي وليس مجرد اتصال روحاني، فيكون الاستفهام في قوله { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى } مستعملا في الفرض والتقدير، أي: أفستكذِّبونه فيما يرى بعينيه كما كذَّبتموه فيما بلّغكم عن الله.

الفؤاد: العقل في كلام العرب، قال تعالى { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً } [القصص:10].

الكذب: أطلق هنا على التخييل والتلبيس من الحواس، كما يقال: كذبته عينه.

{ **أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى** } تفريع على جملة { مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى }. والاستفهام مستعمل، كما تقدّم، إمّا في الإنكار أو الفرض والتقدير.

{ **عَلَى** } تعدية الفعل فيهما بحرف الاستعلاء لتضمُّنه معنى الغلبة، أي: هَبْكُم غالبتموه على عبادتكم الآلهة، وعلى الإعراض عن سماع القرآن ونحو ذلك أتغلبونه على ما رأى ببصره.

{ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى [13] عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى [14] عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى [15] إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى [16] مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى [17] لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى [18]** }.

أي: إن كنتم تجحدون رؤيته لجبريل في الأرض فلقد رآه رؤية أعظم منها إذ رآه في العالم العلوي، فهذا من الترقِّي في بيان مراتب الوحي، والعطف عطف قصة على قصة، أبتدئ بالأضعف وعُقِّب بالأقوى.

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد الكلام بلام القسم وحرف التحقيق لأجل ما في هذا الخبر من الغرابة من حيث هو قد رأى جبريل ومن حيث أنّه عُرج به إلى السماء، ومن الأهمية من حيث هو دال على عظيم منزلة محمد صلى الله عليه وسلم.

{ رَآهُ } ضمير الرفع عائد إلى { صَاحِبُكُمْ } [2]، وضمير النصب عائد إلى جبريل.

{ **نَزْلَةً** } فعل من النزول فهو مصدر دال على المرّة. والنزول هنا الحلول في المكان.

{ **أُخْرَى** } بالنسبة إلى ما في قوله تعالى { ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى } [8]، فإنّ التدلِّي نزول بالمكان الذي بلغ إليه.

{ **عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى** } متعلّق بـ { رَآهُ } وخُصَّت بالذكر رؤيته لجبريل عند سدرة المنتهى لعظيم شرف المكان، وبما حصل عنده من آيات ربه الكبرى، ولأنّها منتهى العروج في مراتب الكرامة.

{ **سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى** } اسم أطلقه القرآن على مكان علوي فوق السماء السابعة، وقد ورد التصريح بها في حديث المعراج من الصحاح عن جمع من الصحابة.

ولعلَّ ذلك المكان شُبِّه بالسدرة، التي هي واحدة شجر السدر، إمّا في صفة تفرّعه، وإمّا في كونه حدًّا انتهى إليه قرب النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى موضع لم يبلغه قبله ملك. فلعلَّه مبني على اصطلاح عندهم بأن يجعلوا في حدود البقاع سدرا.

والاضافة يجوز أن تكون بيانية. ويجوز كونها تعريف السدرة بمكان ينتهي إليه لا يتجاوزه أحد لأن ما وراءه لا تطيقه المخلوقات.

السدرة: واحدة السدر وهو شجر النبق قالوا: ويختص بثلاث أوصاف: ظل مديد، وطعم لذيذ، ورائحة ذكية. فجُعلت السدرة مثلا لذلك المكان كما جُعلت النخلة مثلا للمؤمن.

جنّة المأوى: الجنّة المعروفة بأنّها مأوى المتّقين، فإنّ الجنّة منتهى مراتب ارتقاء الأرواح الزكية.

{ **إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى** } ظرف مستقرّ في موضع الحال من { سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى } أريد به التنويه بما حفّ بهذا المكان من الجلال والجمال. وفي حديث الإسراء: " **حتّى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ما هي** ". وفي رواية: " **غشيها نور من الله ما يستطيع أحد أن ينظر إليها** ".

وما حصل فيه للنبيّ صلى الله عليه وسلم من التشريف بتلقّي الوحي مباشرة من الله دون واسطة الملك ففي حديث الإسراء: " **حتّى ظهرت بمستوًى أسمع فيه صريف الأقلام ففرض الله على أمتي خمسين صلاة** ".

{ **مَا يَغْشَى** } إبهام للتفخيم الإجمالي، وأنّه تضيق عنه عبارات الوصف في اللغة.

{ **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى** } معترضة وهي في معنى جملة { وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى } إلى آخرها، أي: رأى جبريل رؤية لا خطأ فيها ولا زيادة على ما وصف، أي: لا مبالغة.

الزيغ: الميل عن القصد، أي: ما مال بصره إلى مرئي آخر غير ما ذكر، و**الطغيان**: تجاوز الحد.

{ **لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى** } تذييل، أي: رأى آيات أخرى كبرى غير سدرة المنتهى، وجنة المأوى، وما غشي السدرة من البهجة والجلال.

الآيات: دلائل عظمة الله تعالى التي تزيد الرسول ارتفاعا.

{ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى [19] وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى [20] أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى [21] تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى [22] إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَان إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى [23] }.

لمّا تضمّن الحديث عن صفة الوحي الإشارة إلى شرف الرسول صلى الله عليه وسلم الذي وُصف بالعروج في المنازل العليا، والإشارة إلى شرف جبريل عليه السلام إذ وصف بصفات الكمال ومنازل العزة، كان ذلك ممّا يثير موازنة هذه الأحوال الرفيعة بحال أعظم آلهتهم الثلاث في زعمهم (اللّات / العُزّى / مَناة)، التي هي أحجار مقرّها الأرض لا تملك تصرّفا ولا يُعرج بها إلى رفعة. فكان هذا التّضاد جامعا خياليا يقتضي تعقيب ذكر تلك الأحوال بذكر أحوال هاته.

فانتقل الكلام من غرض إثبات النبيّ صلى الله عليه وسلم موحًى إليه بالقرآن، إلى إبطال عبادة الأصنام، ومناط الإبطال قوله تعالى { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ }.

{ **أَفَرَأَيْتُمُ** } الفاء لتفريع الاستفهام وما بعده على جملة { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى } [12] المُفرَّعة على جملة { مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى } [11]. والروية يجوز أن تكون بصرية تتعدّى إلى مفعول واحد، ويكون الاستفهام تقريريًّا تهكّميا، أي: كيف ترون اللات والعزى ومناة بالنسبة لما وصف في عظمة الله تعالى وشرف ملائكته وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم؟ وهذا تهكّم بهم وإبطال لإلهية تلك الأصنام بطريق الفحوى، ودليله العيان. وأكثر استعمال (أَرَأَيْتَ) أن تكون للرؤية البصرية.

وعليه تكون جملة { أَلَكُمُ الذَّكَرُ } وما بعدها، استئنافا وارتقاء في الردّ، أو بدل اشتمال من جملة { أَفَرَأَيْتُمُ }، لأنّ مضمونها ممّا تشتمل عليه مزاعمهم. كانوا يزعمون أنّ اللّات والعُزّى ومناة بنات الله، كما حكى ابن عطية وصاحب الكشاف، وسياق الآيات يقتضيه.

ويجوز أن تكون الرؤية علمية، أي: أزعمتم اللّات والعُزّى ومناة؟ فحذف المفعول الثاني اختصارا لدلالة قوله: { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى } عليه، والتقدير: أزعمتموهنّ بنات الله؟ أتجعلون له الأنثى وأنتم تبتغون الأبناء الذكور؟ وعليه تكون جملة { أَلَكُمُ الذَّكَرُ } وما بعدها، بيانا للإنكار وارتقاء في إبطال مزاعمهم، أي: أتجعلون لله البنات خاصة وتغتبطون لأنفسكم بالبنين الذكور؟

اللّات: صنم كان لثقيف بالطائف، وكانت قريش وجمهور العرب يعبدونه، وله شهرة عند قريش، وهو صخرة مربعة بنوا عليها بناء. يقولون: أصل صخرته موضع كان يجلس عليه رجل في الجاهلية يلتّ السويق للحاج، فلمّا مات اتخذوا مكانه معبدا. والألف واللام في أوّل { اللَّاتَ } زائدتان، ولعلّ ذلك لأنّ أصله: **لات**، بمعنى معبود، فلما أرادوا جعله علما على معبود خاص أدخلوا عليه لام تعريف العهد.

{ **الْعُزّى** } فُعْلَى من العِزّ: اسم صنم حجر أبيض عليه بناء، وقال الفخر: كان على صورة نبات، ولعلّه يعني: أنّ الصخرة فيها صورة شجر، وكان ببطن (نخلة) فوق (ذات عرق) وكان الجمهور العرب يعبدونها وخاصة قريش. وقد قال أبو سفيان يوم أحد يخاطب المسلمين: لنا العُزّى ولا عُزّى لكم.

وذكر الزمخشري في تفسير الفاتحة أنّ العرب كانوا إذ شرعوا في عمل قالوا: باسم اللّات باسم العّزى.

{ **مَنَاةَ** } عَلَم مرتجل، وهو مؤنث، وكان صخرة، وقد عبده جمهور العرب، وكان موضعه في المشلَّل حذو (قديد) بين مكّة والمدينة، وكان الأوس والخزرج يطوفون حوله في الحجّ عوضا عن الصفا والمروة، فلمّا حجّ المسلمون وسعَوا بين الصفا والمروة تحرّج الأنصار، فنزل فيهم قوله تعالى { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا } [البقرة:158]. كما في حديث عائشة.

{ **وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى** } ووصفها بالثالثة لأنّها كذلك في الذكر، وهو صفة كاشفة، وبالأخرى صفة كاشفة أيضا. فالحاصل من الصفتين تأكيد ذكرها، لأنّ اللّات والعزّى عند قريش وعند جمهور العرب أشهر من مناة لبعد مكان مناة عن بلادهم، ولأن ترتيب مواقع بيوت هذه الأصنام كذلك، فاللات في أعلى تهامة بالطائف، والعُزّى في وسطها بـ (نخلة) بين مكة والطائف، ومناة بـ (المشلّل) بين مكة والمدينة.

<u>وقال ابن عطية</u>: كانت مناة أعظم هذه الأوثان قدرا وأكثرها عبادة.

<u>والأحسن</u> أنّ قوله تعالى { الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى } جرى على أسلوب العرب إذا أخبروا عن متعدّد، وكان فيه من يُظنّ أنّه غير داخل في الخبر لعظمة أو تباعد عن التلبّس بمثل ما تلبّس به نظراؤه، أن يختموا الخبر فيقولوا وفلان هو الآخر. ووجهه هنا أنّ عُبّاد مناة كثيرون في قبائل العرب فنبّه على أنّ كثرة عَبَدَتها لا يزيدها قوّة على بقية الأصنام، وكلّ ذلك جار مجرى التهكّم والتسفيه.

{ **أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى** } ارتقاء في الإبطال والتهكّم والتسفيه كما تقدّم، وهي مجاراة لاعتقادهم أنّ تلك الأصنام الثلاثة بنات الله، وأنّ الملائكة بنات الله. أي: أجعلتم لله بنات خاصة وأنتم تعلمون أنّ لكم أولادا ذكورا وإناثا، وأنّكم تفضّلون الذكور وتكرهون الإناث؟ فكان في هذا زيادة تشنيع لكفرهم.

وتقديم المجرور في { أَلَكُمُ الذَّكَرُ } للاهتمام بالاختصاص الذي أفاده اللام اهتماما في مقام التهكّم والتسفيه.

وتقديم المجرور في { وَلَهُ الْأُنْثَى } لإفادة الاختصاص، أي: دون الذكر.

{ **تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى** } تعليل للإنكار والتهكّم المفاد من الاستفهام في { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى }، أي: قد جُرتم في القسمة وما عدلتم فأنتم أحقّاء بالإنكار.

{ **إِذاً** } حرف جواب أريد به جواب الاستفهام الإنكاري، أي: يترتّب على ما زعمتم أنّ ذلك قسمة ضيزى.

{ **ضِيزَى** } وزنه فُعْلَى بضم الفاء، من ضَازَه حقّه: إذا نقصه، وأصل عين ضاز همزة ثم كثر في كلامهم تخفيف الهمزة. قال الكسائي: يجوز ضاز يضيز، وضاز يضوز. لكن الأكثر في كلامهم اعتبار العين ياء

فقالوا: ضازه حقّه ضيزا ولم يقولوا ضَوْزا، لأنّ الضَّوز لوك التمر في الفم.

{ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا } استئناف يكرُّ بالإبطال على معتقدهم من أصله بعد إبطاله بما هو من لوازمه، وفي هذه الجملة احتراس لئلّا يتوهَّم متوهِّم إنكار نسبتهم البنات لله أنّ مصبَّ الإنكار على زعمهم أنّها بنات وليست بذكور.

{ هِيَ } الضمير عائد إلى اللّات والعُزّى ومناة. أي: ليست هذه الأصنام إلّا أسماء لا مسمَّيات لها ولا حقائق ثابتة، وهذا كقوله تعالى { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا } [يوسف:40].

<u>والقصر إضافي</u>، أي: هي أسماء لا حقائق عاقلة متصرفة كما تزعمون، وليس القصر حقيقيا لأنّ لهاته الأصنام مسمّيات، وهي الحجارة أو البيوت التي يقصدونها بالعبادة ويجعلون لها سدنة.

{ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } تعليل لمعنى القصر بطريقة الاكتفاء، لأنّ كونها لا حقائق لها في عالم الشهادة أمر محسوس إذ ليست إلّا حجارة. وأمّا كونها لا حقائق لها من عالم الغيب فلأن عالم الغيب لا طريق إلى إثبات ما يحتويه إلّا بإعلام من عالم الغيب سبحانه، أو بدليل العقل، كدلالة العالم على وجود الصانع وبعض صفاته.

السلطان: الحجّة.

إنزالها من الله: الإخبار بها، وهذا كناية عن انتفاء أن تكون عليها حجّة، لأنّ وجود الحجّة يستلزم ظهورها.

<u>وعُبّر عن الإخبار</u> الموحى به بفعل (أنزل) لأنّه إخبار يرد من العالم العلوي فشُبّه بإدلاء جسم من أعلى إلى أسفل<u>. وكذلك عُبّر</u> عن إقامة دلائل الوجود بالإنزال لأنّ النظر الفكري من خلق الله. كما سُمِّي خلق السكينة في قلوب المؤمنين إنزالا في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ } [الفتح:4]. فاستعمال {مَا أَنْزَلَ } هنا من استعمال اللفظ في معنييه المجازيين.

وفي معنى الآية قوله تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ } [الحج:17]، وتقدّم قوله { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } [يوسف:40]

{ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى } هذا تحويل عن خطاب المشركين الذي كان ابتداؤه من أوّل السورة، وهو من ضروب الالتفات، وهو استئناف بياني.

{ يَتَّبِعُونَ } الضمير عائد إلى الذين كان الخطاب موجّها إليهم. وجيء بالمضارع للدلالة على أنّهم مستمرّون على اتباع الظنّ وما تهواه نفوسهم، وذلك يدلّ على أنّهم اتبعوا ذلك من قبل بدلاله لحن الخطاب أو فحواه.

<u>أعقب</u> نفي أن تكون لهم حجّة على الخصائص التي يزعمونها لأصنامهم، أو على أنّ الله سماهم بتلك الأسماء، <u>بإثبات</u> أنّهم استندوا فيما يزعمونه إلى الأوهام وما تحبّه نفوسهم من عبادة الأصنام ومحبة سدنتها ومواكب زيارتها، وغرورهم بأنّها تسعى في الوساطة لهم عند الله تعالى بما يرغبون في حياتهم، فتلك أوهام

وأماني محبوبة لهم يعيشون في غرورها.

{ **الظَّنَّ** } أصله الاعتقاد غير الجازم، ويُطلق على العلم الجازم إذا كان متعلِّقا بالمغيَّبات، كما في قوله تعالى { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ } [البقرة:46].

وكثر إطلاقه في القرآن على الاعتقاد الباطل، كقوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام:116]، ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث** ". وهو المراد هنا بقرينة عطف { وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } عليه كما عُطف { وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } على نظيره في الأنعام.

وهو كناية عن الخطأ باعتبار لزومه له غالبا، كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } [الحجرات:12].

وهذا التفنن في معاني الظنّ في القرآن يشير إلى وجوب النظر في الأمر المظنون حتّى يُلحِقه المسلم بما يناسبه من حُسن أو ذمّ على حسب الأدلة، ولذلك استنبط علماؤنا: أنّ الظنّ لا يغني في إثبات أصول الاعتقاد وأنّ الصائب منه تناط به تفاريع الشريعة.

{ **وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ** } ما لا باعث عليه إلّا الميل الشهواني دون الأدلة، فإنّ كان الشيء المحبوب قد دلّت الأدلة على حقيقته فلا يزيده حبّه إلّا قَبولًا، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمساجد** "، وقال " **وجُعلت قرة عيني في الصلاة** ".

فمناط الذم في هذه الآية هو قصر اتباعهم على ما تهواه أنفسهم.

وللظنّ في المعاملات بين الناس والأخلاق النفسانية أحكام ومراتب غير ما له في الديانات، أصولها وفروعها، فمنه محمود ومنه مذموم.

{ **الْأَنْفُسُ** } التعريف عوض عن المضاف إليه، أي: وما تهواه أنفسهم.

وعطف { وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } على { الظَّنَّ } عطف العلة على المعلول، أي: أنّ الذي يبعثهم على اتباع الظنّ أنّه موافق لهواهم وإلفهم.

{ **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى** } حالية مقرّرة للتعجيب من حالهم، أي: يستمرّون على اتّباع الظنّ والهوى في حال أنّ الله أرسل إليهم رسولا بالهدى.

ولام القسم لتأكيد الخبر للمبالغة فيما يتضمّنه من التعجيب من حالهم، كأنّ المخاطب يشك في أنّه جاءهم ما فيه هدى مقنع لهم، وذلك لاستمرارهم على ضلالهم استمرارا لا يُظنّ مثله بعاقل.

{ **رَبِّهِمْ** } التعبير عن الجلالة بهذا العنوان لزيادة التعجيب من تصاممهم عن سماع الهدى، مع أنّه ممّن تجب طاعته، فكان ضلالهم مخلوطا بالعصيان والتمرّد على خالقهم.

{ **الْهُدَى** } التعريف للدلالة على معنى الكمال، أي: الهدى الواضح.

{ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى [24] فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى [25] }.

إضراب انتقالي ناشئ عن قوله تعالى { وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } [23]. والاستفهام المقدّر بعد { أَمْ } إنكاري قُصد به إبطال نوال الإنسان ما يتمنّاه، وأن يجعل ما يتمناه باعثا عن أعماله ومعتقداته، بل عليه أن يتطلّب الحق من دلائله وعلاماته وإن خالف ما يتمنّاه. وهذا ترويض للنفوس على تحمّل ما يخالف أهواءها.

{ **لِلْإِنْسَانِ** } تعريف الجنس ووقوعه في حيز الإنكار، المساوي للنفي، جعله عاما في كلّ إنسان.

{ **مَا تَمَنَّى** } الموصول بمنزلة المعرّف بلام الجنس، ووقوعه في حيّز الاستفهام الإنكاري، الذي بمنزلة النفي، يقتضي العموم، أي: ما للإنسان شيء ممّا تمنّى، أي: ليس الشيء جاريا على إرادته بل على إرادة الله وقد شمل ذلك كلّ هوى دعاهم إلى الإعراض عن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك تمنّيهم شفاعة الأصنام، وهو الأهم من أحوال الأصنام عندهم، وذلك ما يؤذن به قوله بعد هذا { وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً } [26]. وتمنّيهم أن يكون الرسول ملكا وغير ذلك، نحو قوله تعالى { لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31]، وقولهم { ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ} [يونس:15].

{ **فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى** } فُرّع على الإنكار أنّ الله مالك الآخرة والأولى، أي: فهو يتصرّف في أحوال أهلهما بحسب إرادته لا بحسب تمني الإنسان. وهذا إبطال لمعتقدات المشركين التي منها يقينهم بشفاعة أصنامهم.

والتفريع تصريح بمفهوم القصر الإضافي. وتقديم المجرور لإفادة الحصر، أي: لله لا للإنسان.

{ **الْآخِرَةُ** } العالم الأخروي، { **الْأُولَى**} العالم الدنيوي. والمراد بهما ما يحتويان عليه من الأمور، والمقصود من ذكرهما تعميم الأشياء مثل قوله تعالى { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } [الرحمن:17].

وقُدِّمت { الْآخِرَةُ } للاهتمام بها والتنبيه إلى أنّها التي يجب أن يكون اعتناء المؤمنين بها، لأنّ الخطاب في هذه الآية للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين، مع ما في هذا التقديم من الرعاية للفاصلة.

{ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى } [26].

لمّا بيَّن الله أنّ أمور الدارين بيد الله تعالى وأن ليس للإنسان ما تمنّى، ضرب لذلك مثالا من الأماني التي هي أعظم أماني المشركين وهي قولهم في الأصنام { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [الزمر:3]، وقولهم فيهم { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18]، فبيَّن إبطال قولهم بطريق فحوى الخطاب، وهو أنّ الملائكة، الذين لهم شرف المنزلة، لا يملكون الشفاعة إلّا إذا أذن الله في ذلك. فكيف يكون للمشركين ما تمنّوا من شفاعة الأصنام وهي حجارة في الأرض.

فهذه مناسبة عطف هذه الجملة على جملة { أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى } [24] وليس هذا الانتقال اقتضابا لبيان عظم أمر الشفاعة.

{ **كَمْ** } اسم يدلّ على كثرة العدد، وهو مبتدأ والخبر {لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُم }. وتقدّم في قوله تعالى { سَلْ بَنِي إِسْرائيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ } [البقرة:211]، وقوله تعالى { وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا } [الأعراف:4].

{ **فِي السَّمَاوَاتِ** } صفة لـ { مَلَكٍ }، والمقصود منها بيان شرفهم بشرف العالم الذي هم أهله، وهو عالم الفضائل ومنازل الأسرار.

{ **لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً** } خبر عن { كَمْ }، أي: لا تغني شفاعة أحدهم، فهو عام بوقوع الفعل في سياق النفي، و{ **شَيْئاً** } مفعول مطلق للتعميم، أي: شيئا من الإغناء، لزيادة التنصيص على عموم النفي.

<u>والمراد</u>: أنّهم لا يجرأون على الشفاعة عند الله، فلذلك عُقِّب بالاستثناء بقوله تعالى:

{ **إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى** } أي: إلّا من بعد أن يأذن الله لأحدهم في الشفاعة ويرضى بقبولها في المشفوع له.

{ **لِمَنْ يَشَاءُ** } من الملائكة، أي: فإذا أذن لأحدهم قُبلت شفاعته.

<u>المعنى</u>: أنّ الملائكة لا يزالون يتقرّبون بطلب إلحاق المؤمنين بالمراتب العليا، كما دلّ عليه قوله تعالى { وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا } [غافر:8]، وقوله تعالى { وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ } [الشورى:5].

{ **وَيَرْضَى** } عطف على { لِمَنْ يَشَاءُ } للإشارة إلى أنّ إذن الله بالشفاعة يجري على حسب إرادته إذا كان المشفوع له أهلا لن يُشفع له. وفي هذا الإبهام تحريض للمؤمنين أن يجتهدوا في التعرّض لرضى الله عنهم ليكونوا أهلا للعفو عمّا فرّطوا فيه من الأعمال.

{ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى [27] وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً [28] }.

{ **إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ** } اعتراض واستطراد لمناسبة ذكر الملائكة، وتبعا لما ذُكر آنفا من جعل المشركين اللات والعزى ومناة بنات لله، بقوله { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى - إلى قوله - أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى } [19-21]، ثُنِّي إليهم عنان الردّ والإبطال لزعمهم أنّ الملائكة بنات الله، جمعا بين ردِّ باطلين متشابهين.

{ **إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ** } كان مقتضى الظاهر أن يُعبِّر عن المردود عليهم بضمير الغيبة تبعا لقوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ } [28]، فعدل عن الإضمار إلى الإظهار بالموصولية لما تُؤذن به الصلة من

التوبيخ لهم والتحقير لعقائدهم، إذ كفروا بالآخرة وقد تواتر إثباتها على ألسنة الرسل وعند أهل الأديان المجاورين لهم من اليهود والنصارى والصابئة.

{ **تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى** } التسمية مطلقة هنا على التوصيف، لأنّ الاسم قد يطلق على اللفظ الدال على المعنى وقد يطلق على المدلول المسمّى ذاتا كان أو معنى. أي: أنّهم يزعمون الملائكة إناثا وذلك توصيف، قال تعالى { وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً } [الزخرف:19].

{ **وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ** } حال من ضمير { يسَمُّونَ }، أي يثبتون للملائكة صفات الأنثى في حال انتفاء علم منهم بذلك، وإنّما هو تخيّل وتوهّم، إذ العلم لا يكون إلّا عن دليل، فنفي العلم مراد به نفيه ونفي الدليل على طريقة الكناية.

{ **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً** } موقع هذه الجملة ذو شعب: فإنّ فيها بيانا لجملة { وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ }، وعودا إلى جملة { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } [23]، وتأكيدا لمضمونها، وتوطئة لتفريع { فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا } [29].

{ **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ** } استعير الاتباع للأخذ بالشيء واعتقاد مقتضاه، أي: ما يأخذون في ذلك إلّا بدليل الظنّ المخطئ. وأطلق الظنّ على الاعتقاد المخطئ، كما هو غالب إطلاقه، وقرينته هنا بيّنة.

{ **وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً** } أُظهر لفظ { الظَّنَّ } دون ضميره لتكون الجملة مستقلّة بنفسها فتسير مسير الأمثال.

نفي الإغناء: نفي الإفادة، أي: لا يفيد شيئا من الحقّ.

{ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [29] ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى [30] }.

{ **فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ** } بعد أن وصف مداركهم الباطلة وضلالهم فرَّع عليه أمر نبيّه صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم، ذلك لأنّ ما تقدّم من وصف ضلالهم كان نتيجة إعراضهم عن ذكر الله، وهو التولّي عن الذكر، فحقَّ أن يكون جزاؤهم عن ذلك الإعراض إعراضا عنهم، فإنّ الإعراض والتولّي مترادفان أو متقاربان.

{ **مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا** } هم الفريق الذين أعرضوا عن القرآن، وهم المخاطبون آنفا بقوله تعالى { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ } [2]، وقوله تعالى { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى } [19]، والمُخبر عنهم بقوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ } [28]، وقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } [27].

والإعراض والتولِّي كلاهما مستعمل هنا في مجازه؛ فأمّا الإعراض فهو مستعار لترك المجادلة أو لترك الاهتمام بسلامتهم من العذاب وغضب الله، وأمّا التولِّي فهو مستعار لعدم الاستماع أو لعدم الامتثال.

الإعراض: حقيقته لفت الوجه عن الشيء، لأنّه مشتق من (العارض) وهو صفحة الخد، لأنّ الكاره لشيء يصرف عنه وجهه.

التولّي: حقيقته الإدبار والانصراف.

وإعراض النبيّ صلى الله عليه وسلم عنهم، المأمور به هنا، مراد به عدم الاهتمام بنجاتهم لأنّهم لم يقبلوا الإرشاد، وإلّا فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم مأمور بإدامة دعوتهم للإيمان، فكما كان يدعوهم قبل نزول هذه الآية فقد دعاهم غير مرة بعد نزولها، على أنّ الدعوة لا تختصّ بهم فإنّها ينتفع بها المؤمنون، ومن لم يسبق منه إعراض من المشركين. وبهذا تعلم ألّا علاقة لهذه الآية وأمثالها بالمتاركة ولا هي منسوخة بآيات القتال.

وقد تقدّم الكلام على ذلك في قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء[63]، وقوله تعالى { وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام:106]، فضمّ إليه ما هنا.

{ **عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا** } جيء بالاسم الظاهر في مقام الإضمار، دون أن يقال: فأعرض عنهم، لما تؤذن به صلة الموصول من علّة الأمر بالإعراض عنهم، ومن ترتّب تولّيهم عن ذكر الله على ما سبق وصفه من ضلالهم، إذ لم يتقدّم وصفهم بالتولِّي عن الذكر وإنّما تقدّم وصف أسبابه.

{ **ذِكْرِنَا** } هو القرآن.

{ **وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** } كناية عن عدم الإيمان بالحياة الآخرة.

{ **ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ** } اعتراض، وهو استئناف بياني بُيِّن به سبب جهلهم بوجود الحياة الآخرة، لأنّه لغرابته ممّا يسأل عنه السائل، وفيه تحقير لهم وازدراء بهم بقصور معلوماتهم.

{ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى** } تعليل لجملة { فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى }، وهو تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم، والخبر مستعمل في معنى أنّه متولِّي حسابهم وجزائهم، على طريقة الكناية، وفيه وعيد للضالين.

والتوكيد المفاد بـ { إِنَّ } وبضمير الفعل { هُوَ } راجع إلى المعنى الكنائي، وأمّا كونه تعالى أعلم بذلك فلا مقتضى لتأكيدها لمّا كان المخاطب به النبيّ صلى الله عليه وسلم. والمعنى: هو أعلم منك بحالهم.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل مفيد القصر وهو قصر حقيقي. والمعنى: أنت لا تعلم دخائلهم فلا تتحسر عليهم.

{ **وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى** } تتميم، وفيه وعد للمؤمنين وبشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى [31] الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى [32] }.

عطف على قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ } [30]، فبعد أن ذكر أنّ لله أمور الدارين بقوله { فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى } [25]، انتقل إلى أهم ما يُجزي في الدارين من أحوال الناس الذين هم أشرف ما على الأرض بمناسبة الآية السابقة [30] المشار بها إلى الجزاء، والمتضمّنة لإثبات البعث والجزاء.

{ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } المقصود الأصلي من هذا الكلام { وَمَا فِي الْأَرْضِ } إذ هم متعلّق الجزاء، وإنّما ذُكر معه { مَا فِي السَّمَاوَاتِ } على وجه التتميم للإعلام بإحاطة ملك الله لما احتوت عليه العوالم كلّها. ونكتة الابتداء بالتتميم دون تأخيره، الذي هو مقتضى ظاهر في التتميمات، هي الاهتمام بالعالم العلوي لأنّه أوسع وأشرف، وليكون المقصود، وهو قوله تعالى { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا } مقترنا بما يناسبه في بناء الجملة، لأنّ المجزيين هم أهل الأرض.

{ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى } متعلّق بما في الخبر من معنى الكون المقدّر في الجار والمجرور المخبر به عن { مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ }، أي: علّة ذلك الملك أن يجزي الذين أساءوا والذين أحسنوا من أهل الأرض، وهم الذين تصدر منهم الإساءة والإحسان.

فـ (اللام) في { لِيَجْزِيَ } لام التعليل، جُعل الجزاء علّة لثبوت ملك الله لما في السماوات والأرض.

{ بِمَا عَمِلُوا } بمثل ما عملوا، أي: جزاء مماثلا لما عملوا.

الحسنى: صفة لموصوف محذوف يدلّ عليه { يَجْزِيَ } وهي المثوبة بمعنى الثواب.

{ بِالْحُسْنَى } أي: بالمثوبة الحسنى، أي: بأفضل ممّا عملوا، وفيه إشارة إلى مضاعفة الحسنات، كقوله تعالى { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا } [النمل:89].

وجاء ترتيب التفصيل لجزاء المسيئين والمحسنين على وفق ترتيب إجماله الذي في قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى } [30]، على طريقة اللف والنشر المرتّب.

{ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ } صفة { الَّذِينَ أَحْسَنُوا }، أي: الذين أحسنوا واجتنبوا كبائر الإثم والفواحش، أي: فعلوا الحسنات واجتنبوا المنهيات، وذلك جامع التقوى. وهذا تنبيه على أنّ اجتناب ما ذُكر يُعدّ من الإحسان، لأنّ فعل السيّئات ينافي وصفهم بالذين احسنوا.

{ كَبَائِرَ الْإِثْمِ } الآثام الكبيرة فيما شرع الله، وهي ما شدّد الدين التحذير منه، أو ذكر وعيدا بالعذاب أو

وَصف على فاعله حدًّا.

{ **وَالْفَوَاحِشَ** } العطف يقتضي المغايرة، ولكنّها مغايرة بالعموم والخصوص الوجهي، فالفواحش أخصّ من الكبائر وهي أقوى إثما.

الفواحش: الفعلات التي يُعدّ فاعلها متجاوزا الكبائر، مثل الزنى والسرقة وقتل الغيلة، وقد تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ } [لأعراف: 33]، وفي قوله تعالى { إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ } [النساء:31].

اللَّمَم: لغة، اسم مصدر أَلَمَّ بالمكان إلماما إذا حلّ به ولم يُطل المكث. وفي الشريعة، الفعل الحرام الذي هو دون الكبائر والفواحش في تشديد التحريم. وهذا النوع يسميه علماء الشريعة الصغائر في مقابلة الكبائر.

ومن المفسرين من فسّر اللمم بالهمّ بالسيئة ولم يفعلها، فهو إلمام مجازي.

{ **إِلَّا اللَّمَمَ** } استثناء منقطع، لأنّ اللمم ليس من كبائر الإثم ولا من الفواحش. فالاستثناء بمعنى الاستدراك. ووجهه أنّ ما سُمِّي باللمم ضربٌ من المعاصي المُحذَّر منها في الدين، فقد يظنّ الناس أنّ النهي عنها يُلحقها بكبائر الإثم فلذلك حقّ الاستدراك، وفائدة هذا الاستدراك عامة وخاصة:

أمّا العامة فلكي لا يعامل المسلمون مرتكب شيء منها معاملة من يرتكب الكبائر.

وأمّا الخاصة فرحمة بالمسلمين الذين قد يرتكبونها فلا يفُل ارتكابها من نشاط طاعة المسلم. فهذا الاستدراك بشارة لهم. وليس المعنى أنّ الله رخص في إتيان اللمم.

{ **إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ** } تعليل لاستثناء اللّمم من اجتنابهم كبائر الإثم والفواحش شرطا في ثبوت وصف {الَّذِينَ أَحْسَنُوا} لهم.

{ **رَبَّكَ** } في بناء الخبر على جعل المسند إليه { رَبُّكَ } دون الاسم العلم إشعار بأنّ سعة المغفرة رفق بعباده الصالحين، شأن الرب مع مربوبه الحقّ. وفي إضافة (ربّ) إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم دون ضمير الجماعة إيماء إلى أنّ هذه العناية بالمحسنين من أمّته قد حصلت لهم ببركته.

الواسع: كثير المغفرة، استعيرت السعة لكثرة الشمول لأنّ المكان الواسع يمكن أن يحتوي على العدد الكثير ممّن يحل فيه، قال تعالى { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً } [غافر:7].

{ **هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى** } الخطاب للمؤمنين، ووقوعه عقب قوله تعالى { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى } ينبئ عن اتصال معناه بمعنى ذلك، فهو غير موجّه لليهود كما في أسباب النزول للواحدي وغيره.

والجملة استئناف بياني لجملة { إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ } لما تضمّنته الأخيرة من الامتنان، فكأنّ السامعين لمّا سمعوا ذلك الامتنان شكروا الله وهجس في نفوسهم خاطر البحث عن سبب هذه الرحمة بهم فأجيبوا بأنّ ربهم

أعلم بحالهم من أنفسهم فهو يُدبِّر لهم ما لا يخطر ببالهم، ونظيره ما في الحديث القدسي: **" أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ".**

{ **إِذْ أَنْشَأَكُمْ** } ظرف متعلّق بـ { أَعْلَمُ }، أي: هو أعلم بالناس من وقت إنشائه إيّاهم من الأرض.

{ **وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ** } يختص بسعة المغفرة والرفق بهذه الأمة، وهو مقتضى قوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة:185].

الأجنة: جمع جنين، وهو نسل الحيوان ما دام في الرحم، وهو فعيل بمعنى مفعول لأنّه مستور.

{ **فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ** } صفة كاشفة، إذ الجنين لا يقال إلّا على ما في بطن أمّه. وفائدة هذا الكشف أن فيه تذكيرا باختلاف أطوار الأجنة من وقت العلوق إلى الولادة، وإشارة إلى إحاطة علم الله تعالى بتلك الأطوار.

{ **فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ** } اعتراض بين جملة { هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ } وجملة { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى } [33]، والفاء لتفريع الاعتراض، وهو تحذير للمؤمنين من العجب بأعمالهم الحسنة عجبا يحدثه المرء في نفسه أو يدخله أحد على غيره بالثناء عليه بعمله.

{ **تُزَكُّوا** } مضارع (زكّى) الذي هو من التضعيف المراد منه نسبة المفعول إلى أصل الفعل، أي: لا تنسبوا لأنفسكم الزكاة.

<u>المعنى</u>: لا تحسبوا أنفسكم أزكياء وابتغوا زيادة التقرب إلى الله، أو لا تثقوا بأنّكم أزكياء فيدخلكم العجب بأعمالكم، <u>ويشمل ذلك ذكر المرء أعماله الصالحة</u> للتفاخر بها، أو إظهارها للناس، ولا يجوز ذلك إلّا إذا كان فيه جلب مصلحة عامة، كما قال يوسف عليه السلام { اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [يوسف:55].

<u>ويشمل تزكية المرء غيره</u>، فيرجع { أَنْفُسَكُمْ } إلى معنى قومكم أو جماعتكم، مثل قوله تعالى { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ } [النور:61]، أي: ليسلّم بعضكم على بعض. <u>والمعنى</u>: فلا يُثني بعضكم على بعض بالصلاح والطاعة لئلا يغيّره ذلك.

وقد ورد النهي في أحاديث عن تزكية الناس بأعمالهم. ومنه حديث أم عطيّة حين مات عثمان بن مظعون في بيتها ودخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت أم عطية: رحمة الله عليك أبا السائب (كنية عثمان بن مظعون) فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" وما يدريك أن الله أكرمه "**، فقالت: إذا لم يُكرمه الله فمن يكرمه الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" أمّا هو فقد جاءه اليقين وإنّي لأرجو له الخير وإنّي والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي "**. قالت أم عطية: فلا أزكي أحدا بعد ما سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد شاع من آداب عصر النبوّة بين الصحابة التحرّز من التزكية وكانوا يقولون إذ أثنوا على أحد: لا أعلم عليه إلّا خيرا ولا أزكي على الله أحدا.

فلا يدخل في هذا النهي الإخبار عن أحوال الناس بما يُعلم منهم وجُرِّبوا فيه؛ من ثقة وعدالة في الشهادة والرواية، وقد يُعبَّر عن التعديل بالتزكية وهو لفظ لا يراد به معنى قوله تعالى { فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ }، بل هو لفظ اصطلح عليه الناس بعد نزول القرآن ومرادهم منه واضح.

{ **هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى** } في موقع البيان لسبب النهي أو لأهم أسبابه، أي: فوّضوا ذلك إلى الله إذ هو أعلم بمن اتقى، أي: بحال من اتقى من كمال تقوى أو نقصها أو تزييفها.

{ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى [33] وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى [34] أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى [35] }.

الفاء لتفريع الاستفهام التعجيبي على قوله تعالى { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى } [31]، إذ كان حال هذا الذي تولّى وأعطى قليلا وأكدا جهلًا بأنّ للإنسان ما سعى، وقد حصل في وقت نزول الآية المتقدّمة أو قبلها حادث أنبأ عن سوء الفهم لمراد الله من عباده مع أنّه واضح لمن صرف حقّ فهمه. ففُرّع على ذلك كلّه تعجيب من انحراف أفهامهم.

{ **أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى** } اتفق المفسّرون والرواة على أنّ المراد به هنا معيّن، ولعلّ ذلك وجه التعبير عنه بلفظ { الَّذِي } دون كلمة (مَنْ). واختلفوا في تعيينه.

*/ روى الطبري والقرطبي عن مجاهد وابن زيد أن المراد به الوليد بن المغيرة، قالوا: كان يجلس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ويستمع إلى قراءته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظه فقارب أن يسلم فعاتبه رجل من المشركين (لم يُسمُّوه) وقال: لِمَ تركت دين الأشياخ وضلَّلتهم وزعمت أنّهم في النار، كان ينبغي أن تنصرهم، فكيف يُفعل بآبائك؟ فقال : إني خشيت عذاب الله فقال: اعطني شيئا وأنا أحمل عنك كلّ عذاب كان عليك فأعطاه، ولما سأله الزيادة بخل عنه وتعاسر وأكدى. وهو الراجح عندي.

*/ وروى القرطبي عن السدي: أنها نزلت في العاصي بن وائل السهمي.

*/ وعن محمد بن كعب: نزلت في أبي جهل.

*/ وعن الضحاك: نزلت في النضر بن الحارث.

{ **وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى** } أشار إلى ما أعطاه للذي ادّعى تحمّل العذاب عنه. ووصف عطاؤه بأنّه قليل توطئة لذمّه بأنّه مع قلّة ما أعطاه قد شح به فقطعه. فحصل التعجيب من حال الوليد كلّه تحقيرا لعقله وأفن رأيه.

{ **وَأَكْدَى** } يقال: أكدى الذي يحفر، إذا اعترضته كُدية، أي: حجر لا يستطيع إزالته.

{ **أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ** } استئناف بياني من قوله تعالى { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى }، والاستفهام للتعجيب والإنكاري على توهّمه أنّ استئجار أحد ليتحمّل عنه عذاب الله ينجيه، أي: ما عنده علم الغيب. كناية عن الخطأ.

وتقديم المسند على المسند إليه للاهتمام بهذه العندية العجيب ادعاؤها، وللإشارة إلى بعده عن هذه المنزلة.

علم الغيب: معرفة العوالم المغيَّبة.

{ **فَهُوَ يَرَى** } تفريع على التعجيب، أي: فهو يشاهد أمور الغيب، والرؤية بصرية ومفعولها محذوف، والتقدير: فهو يرى الغيب. والمعنى: أنّه آمن نفسه من تبعة التولي عن الإسلام ببذل شيء لمن تحمّل عنه التبعة، كأنّه يعلم الغيب ويشاهد أنّ ذلك يدفع عنه العقاب.

وتقديم الضمير المسند إليه على فعله المسند دون أن يقول: فيرى، لإفادة تقوّي الحكم. وهذا التقوّي بناء على ما أظهر من اليقين بالصفقة التي عاقد عليها، وهو أدخل في التعجيب من حاله.

{ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى [36] وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى [37] أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [38] }.

{ أَمْ } لإضراب الانتقال إلى متعجَّبٍ منه وإنكارٍ عليه آخر، وهو جهله بما عليه أن يعلمه الذين يخشون الله تعالى من علم ما جاء على ألسنة الرسل الأوّلين، فإن كان هو لا يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فهلّا تطلّب ما أخبرت به رسل من قبل، طالما ذكر هو وقومُه أسماءهم وشرائعهم في الجملة، وطالما سأل هو وقومُه أهل الكتاب عن أخبار موسى، فهلّا سأل عمّا جاء عنهم في هذا الغرض الذي يسعى إليه، وهو طلب النجاة من عذاب الله، فينبّئه العالمون. فإنّ شريعة إبراهيم مأثور بعضها عند العرب، وشريعة موسى معلومة عند اليهود.

فالاستفهام المقدر بعد { أَمْ } إنكار مثل الاستفهام المذكور قبلها في قوله تعالى {أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ}.

والتقدير: بل ألم ينبّأ بما في صحف موسى وإبراهيم؟

{ **صُحُفِ وَمُوسَى** } هي التوراة. وهي مشتهرة عند أهل الكتاب، والعرب يخالطون اليهود في خيبر وقريظة والنضير وتيما، ويخالطون نصارى نجران، وقد قال الله تعالى { فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى } [القصص:48].

{ **وَإِبْرَاهِيمَ** } صحف إبراهيم ما سجّل فيها ما أوحى الله إليه، وهي المذكورة في قوله تعالى { إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } [الأعلى:19/18]. وروى ابن حيان والحاكم عن أبي ذر أنّه سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الكتب التي أنزلت على الأنبياء فذكر له منها عشرة صحائف أنزلت على

إبراهيم، أي: أنزل عليه ما هو مكتوب فيها.

وإنّما خصّ هذه الصحف بالذكر لأنّ العرب يعرفون إبراهيم وشريعته ويسمّونها الحنيفية وربّما ادعى بعضهم أنّه على أثارة منها، مثل: زيد بن عمرو بن نفيل.

وتقديم { صُحُفِ وَمُوسَى } لأنّها اشتهرت بسعة ما فيها من الهدى والشريعة، وأمّا صحف إبراهيم فكان المأثور منها أشياء قليلة. وقُدِّرت بعشر صحف، أي: مقدار عشر ورقات بالخط القديم، تَسَع الورقة قرابة أربع آيات من آي القرآن بحيث يكون مجموع ما في صحف إبراهيم مقدار أربعين آية.

وإنّما قدّم في سورة الأعلى صحف إبراهيم على صحف موسى مراعاة لوقوعهما بدلا من الصحف الأولى فقُدِّم في الذكر أقدمها.

{ **الَّذِي وَفَّى** } وصف إبراهيم بذلك تسجيل على المشركين بأنّ إبراهيم بلّغ ما أوحي إليه إلى قومه وذرّيّته ولكنّ العرب أهملوا ذلك واعتاضوا عن الحنفية بالإشراك. وحذف المتعلّق لإفادة الشمول، وفيه معنى المدح.

{ **أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** } يجوز أن يكون بدلا من { بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ } بدل مفصّل من مجمل. والتقدير: أم لم ينبأ بأنّه لا تزر وازرة وزر أخرى.

ويجوز أن تكون (أن) تفسيرية، فسَّرت ما في صحف موسى وإبراهيم، لأنّ ما من الصحف شيء مكتوب، والكتابة فيها بمعنى القول دون حروفه، فصلح ما في صحف موسى وإبراهيم لأن تفسّره (أن) التفسيرية.

{ **تَزِرُ** } من مضارع وَزر، إذا فعل وزرا.

{ **وَازِرَةٌ** } التأنيث بتأويل: نفس، وكذلك تأنيث { **أُخْرَى** }.

وهذا ممّا كان في صحف إبراهيم، ومنه ما حكى الله في قوله تعالى { وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الشعراء:87-89].

وحُكي في التوراة عن إبراهيم أنّه قال في شأن قوم لوط: " أفتُهلك البار مع الآثم ".

وأمّا نظيره في صحف موسى ففي التوراة: " لا يقتل الآباء عن الأولاد لا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل " [سفر التثنية، إصحاح: 24]. وحكى الله عن موسى قوله { أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا } [الأعراف:155].

{ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى } [39].

يصحّ أن تكون عطفا على المجرور بـ (الباء) { بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ }، فتكون { أَنْ } مخفَّفة من الثقيلة، ويصحّ أن تكون عطفا على { أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى }، فتكون { أَنْ } تفسيرية، وعلى كلا الاحتمالين، تكون { أَنْ } تأكيدا لنظيرتها في المعطوف عليها.

{ **لِلْإِنْسَانِ** } تعريف الجنس، ووقوعه في سياق النفي يفيد العموم.

السعي: العمل والاكتساب، وأصل السعي: المشي، فأُطلق على العمل مجازا مرسلا أو كناية. والمراد هنا عمل الخير بقرينة ذكر لام الاختصاص، وبأن جُعل مقابلا لقوله { أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [38].

والمعنى: لا تحصل لأحد فائدة عمل إلّا ما عمله بنفسه، فلا يكون عمل غيره نافعا له.

وهذه الآية حكاية عن شرعي إبراهيم وموسى، وإذ قد تقرر أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، تدل هذه الآية على أنّ عمل أحد لا يجزئ عن أحد فرضا أو نفلا على العين.

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ومحملها: فعن عكرمة أنّ قوله تعالى { وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى } حكاية عن شريعة سابقة فلا تلزم في شريعتنا، يريد أنّ شريعة الإسلام نسخت ذلك فيكون قبول عمل أحد عن غيره من خصائص هذه الأمّة.

واعلم أنّ أدلة لحاق ثواب بعض العمال إلى غير من عملها ثابتة على الجملة وإنّما تتردّد الأنظار في التفصيل أو التعميم، وقد قال الله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } [الطور:21] وقد بيّنّا شيئا من المسألة هناك.

وفي حديث مسلم: " **إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوا له** ".

وثبتت أخبار صحاح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم تدلّ على أنّ عمل أحد عن آخر يجزى عن المنوب عنه:

*/ ففي الموطأ حديث الفضل بن عباس أنّ امرأة من خثعم سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إنّ فريضة الله على عباده في الحجّ أدركت أبي شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة أفيجزئ أنّ أحج عنه؟

قال: " **نعم حجّي عنه** ".

*/ وفي حديث ابن عباس أنّ رجلا قال: يا رسول الله إنّ أمّي توفيت أفينفعها إن تصدّقت عنها؟ قال: " **نعم** ".

*/ وفي حديث عمرو بن العاص وقد اعتق أخوه هشام عن أبيهم العاص بن وائل عبيدا فسأل عمرو رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يفعل مثل فعل أخيه فقال له: " **لو كان أبوك مسلما فأعتقتم عنه أو تصدقتم عنه أو حججتم عنه بلغه ذلك** ".

*/ وروي أنّ عائشة أعتقت عن أخيها عبد الرحمن بعد موته رقابا واعتكفت عنه.

*/ وفي صحيح البخاري عن ابن عمر وابن عباس أنّهما أفتيا امرأة جعلت أمّها على نفسها صلاة بمسجد قباء ولم تف بنذرها، أن تصلّي عنها بمسجد قباء.

*/ وأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم سعد ابن عبادة أن يقضي نذرا نذرته أمّه، قيل كان عتقا، وقيل صدقة.

وممّا يجب تقديمه أن تعلم أنّ التكاليف الواجبة على العين، فرضا أو سنّة، لها مقاصد مترتبة عن فعلها، فإذا قام بها غيره عنه فات المقصود من مخاطبة أعيان المسلمين بها، وكذا اجتناب المنهيات لا تُتصور فيها النيابة.

فأمّا الإيمان فأمره بيّن لأنّ ماهية الإيمان لا يُتصور فيها التعدّد.

وأمّا ما عدا الإيمان من شرائع الإسلام الواجبة:

*/ فما كان من عمل الأبدان، فليس للإنسان إلّا ما سعى منه ولا يجزئ عنه سعي غيره لأن المقصود من الأمور العينية المطالب بها المرء بنفسه هو ما فيها من تزكية النفس وارتياضها على الخير كما تقدم آنفا. ومثل ذلك الرواتب من النوافل والقربات حتى يصلح الإنسان ويرتاض على مراقبة ربه بقلبه وعمله والخضوع له تعالى ليصلح بصلاح الأفراد صلاح مجموع الأمة والنيابة تُفِيت هذا المعنى.

*/ وما كان من أفعال الخير غير معيّن بالطلب؛ كالقرب النافلة فإنّ فيه مقصدين مقصد ملحق بالمقصد الذي في الأعمال المعيّنة بالطلب، ومقصد تكثير الخير في جماعة المسلمين بالأعمال والأقوال الصالحة، وهذا الاعتبار الثاني لا تُفِيته النيابة.

وللمسألة تفاصيل وتفريعات تجدها في كتب الفقه.

{ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى [40] ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى [41] }.

يجوز أن تكون عطفا على جملة { أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [38]، فهي من تمام تفسير قوله تعالى { بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ} [37/36]. وقد يكون مضمون هذه الجملة في شريعة إبراهيم ما حكاه الله عنه من قوله { وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ } [الشعراء:87].

ويجوز أن لا يكون مضمون هذا القول مشمولا لما في صحف موسى وإبراهيم، فعطفه على (ما) الموصولة من قوله تعالى { بما فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ} عطف المفرد على المفرد. وعليه فلا نتطلب ثبوت مضمون هذه الجملة في شريعة إبراهيم عليه السلام.

{ **سَوْفَ** } حرف استقبال، والأكثر أن يراد به المستقبل البعيد.

{ **يُرَى** } يشاهد عند الحساب، كما في قوله تعالى { وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً } [الكهف:49].

فيجوز أن تُجسَّم الأعمال فتصير مشاهَدة. وأمور الآخرة مخالفة لمعتاد أمور الدنيا.

ويجوز أن تُجعل علامات على الأعمال يُعلن بها عنها، كما في قوله تعالى { نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ } [التحريم:8]، وما في الحديث: " **يُنصَب لكل غادر لواء يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان** ".

فيقدّر مضاف، يكون الكلام باعتباره: وأنّ عنوان سعيه سوف يرى.

ويجوز أن يكون ذلك بإشهار العمل والسعي، كما في قوله تعالى { أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ } [لأعراف:49]، وكما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من سمَّع بأخيه فيما يكره سمَّع الله به سامع خلقه يوم القيامة "**، فتكون الرؤية مستعارة للعلم لقصد تحقّق العلم وإشهاره. وحكمة ذلك تشريف المحسنين بحسن السمعة، وانكسار المسيئين بسوء الأحدوثة.

{ **ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى** } وهو المقصود من الجملة.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لأنّ حصول الجزاء أهمّ من إظهاره أو إظهار المجزي عنه.

{ **يُجْزَاهُ** } ضمير النصب عائد إلى السعي، أي: يُجزى عليه، أو يجزى به، فحذف حرف الجر ونصب على نزع الخافض، فقد كثر أن يقال: جزاه عمله، وأصله: جزاه على عمله أو جزاه بعمله.

الأوفى: اسم تفضيل من الوفاء وهو التمام والكمال، والتفضيل مستعمل هنا في القوّة، وهو منزوع المفاضلة.

والمعنى: أنّ الجزاء على الفعل من حسن أو سيّئ موافق للمجزيِّ عليه، قال تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ } [النساء: 173]، وقال تعالى { وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ } [هود:109]، وقال تعالى { وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ } [النور:39]، وقال تعالى { فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً } [الإسراء:63].

{ **وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى** } [42].

القول في موقعها كالقول في موقع جملة { وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى } [40] سواء.

فيجوز أن تكون هذه الجملة معطوفة على جملة { وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى }، فتكون تتمّة لما في صحف موسى وإبراهيم، ويكون الخطاب في قوله { إِلَى رَبِّكَ } التفاتا من الغيبة إلى الخطاب، والمخاطب غير معيّن، فكأنّه قيل: وأنّ إلى ربه المنتهى، وقد يكون نظيرها من كلام إبراهيم ما حكاه الله عنه بقوله { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الصافات:99].

ويجوز أنّها ليست مما اشتملت عليه صحف موسى وإبراهيم، ويكون عطفها عطف مفرد على مفرد.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. وعليه فلا نتطلب لها نظيرا من كلام إبراهيم عليه السلام.

والرجوع إلى الله: الرجوع إلى حكمه المحض وسبيله. فالكلام على حذف مضاف دلّ عليه السياق.

{ **رَبِّكَ** } تشريف للنبيّ صلى الله عليه وسلم والتعريض بالتهديد لمكذّبيه، لأنّ شأن الربّ الدفاع عن مربوبه.

{ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى } [43].

موقع هذه الجملة في عطفها مثل موقع جملة { وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى } [40] في الاحتمالين، فإنّ كانت ممّا شملته صحف إبراهيم كانت حكاية لقوله { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء:80].

انتقال من الاعتبار بأحوال الآخرة إلى الاعتبار بأحوال الدنيا، وضمير { هُوَ } عائد إلى { رَبُّكَ } [42].

الضحك: أثر سرور النفس، و**البكاء**: أثر الحزن.

ولا يخلو الإنسان من حالي حزن وسرور، فذكر الضحك والبكاء يفيد الإحاطة بأحوال الإنسان بإيجاز، ويرمز إلى أسباب الفرح والحزن، ويُذكّر بالصانع الحكيم، ويُبشِّر إلى أنّ الله هو المتصرّف في الإنسان لأنّه خلق أسباب فرحه ونكده وألهمه إلى اجتلاب ذلك بما في مقدوره وجعل حدا عظيما من ذلك خارجا على مقدور الإنسان، وذلك لا يمتري فيه أحد.

والمناسبة لذكره في هذا المقام أنّ الجزاء الأوفى لسعي الناس: بعضه سار لفريق وبعضه محزن لفريق آخر.

{ **هُوَ** } أفاد ضمير الفصل قصرا لصفة خلق أسباب الضحك والبكاء على الله تعالى لإبطال الشريك في التصرّف، فتبطل الشركة في الإلهية.

وإسناد الإضحاك والإبكاء إلى الله تعالى لأنّه خالق قوتي الضحك والبكاء في الإنسان، وذلك خلق عجيب، ولأنّه خالق طبائع الموجودات التي تجلب أسباب الضحك والبكاء من سرور وحزن.

{ **أَضْحَكَ وَأَبْكَى** } لم يذكر المفعول لأنّ القصد إلى الفعلين لا إلى مفعوليهما، فالفعلان منزلان منزلة اللازم. أي: أوجد الضحك والبكاء.

ولمّا كان هذا الغرض من إثبات انفراد الله تعالى بالتصرف في الإنسان بما يجده الناس في أحوال أنفسهم من خروج أسباب الضحك والبكاء على قدرتهم تعيّن أنّ المراد: أضحك وأبكى في الدنيا، ولا علاقة لهذا بالمسرّة والحزن الحاصلين في الآخرة.

وفي هذه الآية محسِّن الطباق بين الضحك والبكاء وهمّا ضدان.

وتقديم الضحك على البكاء لأن فيه امتنانا بزيادة التنبيه على القدرة، وحصل بذلك مراعاة الفاصلة.

{ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا } [44]

موقع الجملة كموقع جملة { وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى } [43]. فإن كان مضمونها ممّا شملته صحف إبراهيم كان المحكي بها من كلام إبراهيم ما حكاه الله عنه بقوله { وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } [الشعراء:81].

انتقل من الاعتبار بانفراد الله بالقدرة على إيجاد أسباب المسرّة والحزن، إلى العبرة بانفراده تعالى بالقدرة

على الإحياء والإماتة، وهما حالتان لا يخلو الإنسان عن إحداهما، فإن الإنسان أوّل وجوده نطفة ميّتة ثمّ يتدرّج في أطوار الخلق، ثم ينفخ فيه الروح، ثم يصير إلى حياة، وذلك بتدبير الله تعالى وقدرته.

ولعل المقصود هو العبرة بالإماتة لأنّها أوضح عبرة، وللردّ عليهم قولهم { وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية:24]، وأنّ عطف { وَأَحْيَا } تتميم واحتراس، كما في قوله { الذِّي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ } [الملك:2].

{ **هُوَ** } ضمير الفصل للقصر، على نحو قوله تعالى { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى }، ردا على أهل الجاهلية كما أسلفنا. فليس المراد الحياة الآخرة لأنّ المتحدث عنهم لا يؤمنون بها، ولأنّها مستقبلة والمتحدَّث عنه ماض.

{ **أَمَاتَ وَأَحْيَا** } منزلان منزلة اللازم، كما تقدّم في قوله تعالى { أَضْحَكَ وَأَبْكَى } [43]، إظهارا لبديع القدرة على هذا الصنع الحكيم، مع التعريض بالاستدلال على كيفية البعث وإمكانه حيث أحاله المشركون.

وفي هذه الآية مُحسِّن الطباق أيضا لما بين الحياة والموت من التضاد.

{ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى [45] مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى [46] }.

هذه الآية وإن كانت مستقلّة بإفادة أنّ الله خالق الأزواج من الإنسان خلقا بديعا من نطفة فيصير إلى خصائص نوعه، وذلك ما لا يجهله المخاطبون، فما كان ذكرها إلّا تمهيدا وتوطئة لقوله لاحقا { وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى } [47].

وموقعها كموقع جملة { وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى } [40]. ومناسبة الانتقال إليها أنّ فيها كيفية ابتداء الحياة.

{ **الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى** } من خصوص الإنسان، لأنّ سياق الكلام للاعتبار ببديع صنع الله وذلك أشدّ اتفاقا في خلقة الإنسان، ولأن اعتبار الناس بما في أحوال أنفسهم أقرب وأمكن، ولأنّ بعض الأزواج من الذكور والإناث لا يتخلّق من نطفة بل من بيض وغيره.

ووجه هذا التركيب، دون أن يقول: وأنّه خلق الإنسان من نطفة، كما في قوله تعالى { فَلْيَنْظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ } [الطارق:6/5] أمران:

الأوّل: إدماج الامتنان، في أثناء ذكر الانفراد بالخلق، بنعمة أن خلق لكلّ إنسان زوجة، كما قال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا} [الروم:21].

الثاني: الإشارة إلى أنّ لكلا الزوجين حظّا من النطفة التي منها يُخلق الإنسان.

النطفة: فعلة مشتقة من: نطف الماء، إذا قطر، فالنطفة ماء قليل، وسُمِّي ما منه النسل نطفة بمعنى منطوف، أي: مصبوب؛ فماء الرجل مصبوب، وماء المرأة أيضا مصبوب.

{ **تُمْنَى** } تُدفق، وفسَّروه بمعنى تُقذف أيضا. وقيل: بمعنى تراق، وجعلوا تسمية الوادي الذي بقرب مكة مِنًى لأنّه تراق به دماء البدن من الهدايا. وبُني الفعل إلى المجهول لأنّ النطفة تدفعها قوة طبيعية في الجسم خفية.

وفي الجمع بين الذكر والأنثى مُحسِّن الطباق لما بين الذكر والأنثى من شبه التضاد.
ولم يؤت في هذه الجملة بضمير الفصل كما في اللتين قبلها لعدم الداعي إلى القصر إذ لا ينازع أحد في أن الله خالق الخلق.

{ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى } [47]

كان مقتضى الظاهر من التنظير أن يُقدّم قوله { وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى } [48] على قوله { وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى } لما في قوله { وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى } من الامتنان وإظهار الاقتدار المناسبين لقوله { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ } [45/43]. إذ ينتقل من نعمة الخلق إلى نعمة الرزق، كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } [الشعراء:79/78]، وقوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ } [الروم:40]، ولكن عدل عن ذلك على طريقة تشبه الاعتراض <u>ليقرن بين البيانين ذكر قدرته على النشأتين</u>.
{ وَأَنَّ عَلَيْهِ } كأنّه حق واجب، لأنّ الله وعد بحصولها بما اقتضته الحكمة الإلهية، لظهور أنّ الله لا يكرهه شيء، فالمعنى: أنّ الله أراد النشأة الأخرى، وهذا كقوله تعالى { كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } [الأنعام:12].
{ النَّشْأَةَ } المرّة من الإنشاء، أي: الإيجاد والخلق.
{ الْأُخْرَى } مؤنث الأخير، أي: النشأة التي لا نشأة بعدها، وهي مقابل النشأة الأولى التي تضمّنها قوله تعالى { وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى } [45]. وهذه المقابلة هي مناسبة ذكر هذه النشأة الأخرى.

{ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى } [48].

{ أَغْنَى } جعل غنيًا، أي: أعطى ما به الغنى، والغنى التمكّن من الانتفاع بما يحب الانتفاع به.
{ أَقْنَى } يظهر أنّ المعنى ضد معنى { أَغْنَى } رعيا لنظائره التي زاوجت بين الضدّين من قوله { أَضْحَكَ وَأَبْكَى } [43]، و{ أَمَاتَ وَأَحْيَا } [44]، و{ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى } [45].
عن ابن عباس: أقنى: أرضى، أيّ أغناه حتى أرضاه، فيكون زيادة في الامتنان.
وعن مجاهد وقتادة والحسن: أقنى: أخدم، فيكون مشتقًّا من القنّ وهو العبد، أو المولود في الرقّ.
{ هُوَ } والإتيان بضمير الفصل لقصر صفة الإغناء والإقناء عليه تعالى دون غيره، وهو قصر ادعائي لمقابلة ذهول الناس عن شكر نعمة الله تعالى بإسنادهم الأرزاق لوسائله العادية، مع عدم التنبّه إلى أنّ الله

أوجد مواد الإرزاق وأسبابها وصرف موانعها.
وموقع الجملة كموقع جملة { وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى } [40].

{ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى } [49].

هذه الجملة لا يجوز اعتبارها معطوفة على جملة { أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [38]} إذ لا تصحّ لأن تكون ممّا في صحف موسى وإبراهيم، لأنّ الشّعرى لم تعبد في زمن إبراهيم ولا في زمن موسى عليهما السلام، فيتعيّن أن تكون معطوفة على (ما) الموصولة من قوله تعالى { بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى } [37/36].

الشِّعْرَى: اسم نجم من نجوم برج الجوزاء شديد الضياء ويسمَّى (كلب الجبّار)، لأنّ برج الجوزاء يُسمَّى (الجبّار) عند العرب، وهو من البروج الربيعية، أي: التي تكون مدة حلول الشمس فيها في فصل الربيع.
ولم أقف على وجه تسميتها (الشِّعْرَى)، وتوصف الشّعرى باليمانية لأنّها إلى جهة اليمن.
وكان كوكب الشّعرى عبدته خُزاعة والذي سنّ عبادته رجل من سادة خزاعة يكنى **أبا كبشة**. واختلف في اسمه فقيل: **جزء** (بجيم وزاي وهمزة). وعن الدارقطني أنّه: **وجز** (بواو وجيم وزاي).
والذي عليه الجمهور أنّ الشّعرى لم يعبدها من العرب إلّا خزاعة. وفي تفسير القرطبي أنّ حِمْير عبدوه.
وكانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا كبشة لمخالفته إيّاهم في عبادة الأصنام. وكانوا يصفونه بابن أبي كبشة. وقيل: لأنّ أبا كبشة كان من أجداد النبيّ صلى الله عليه وسلم من قبل أمّه.
وتخصيص الشعرى بالذكر أنّه تقدّم ذكر اللات والعزى ومناة وهي معبودات وهمية لا مسمّيات لها، كما قال تعالى { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا } [23]، وأعقبها بإبطال إلهية الملائكة، وهي من الموجودات المجردات الخفية، ثمّ أعقب ذلك بإبطال عبادة الكواكب، وخزاعة أجوار لأهل مكّة فلما عبدوا الشّعرى ظهرت عبادة الكواكب في الحجاز.
وإثبات أنّها مخلوقة لله تعالى دليل على إبطال إلهيتها لأنّ المخلوق لا يكون إلها، وذلك مثل قوله تعالى { لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ } [فصلت:37].
{ **هُوَ** } الإتيان بضمير الفصل يفيد قصر مربوبية الشعرى على الله تعالى.

{ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى [50] وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى [51] وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى [52] }.

لمّا استُوفي ما يستحقّه مقام النداء على باطل أهل الشرك من تكذيبهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وطعنهم في القرآن، ومن عبادة الأصنام، وقولهم في الملائكة، وفاسد معتقدهم في أمور الآخرة، وتنكّبهم عما ينفعهم في الدنيا، وكان معظم شأنهم في هذه الضلالات شبيها بشأن أمم الشرك البائدة، نُقل الكلام إلى تهديدهم بخوف أن يحلّ بهم ما حلّ بتلك الأمم البائدة، فذُكر من تلك الأمم أشهرها عند العرب وهم: عاد، وثمود، وقوم نوح، وقوم لوط. ولكون هلاك هؤلاء معلوما لم تقرن الجملة بضمير الفصل.

فموقع هذه الجملة كموقع الجمل التي قبلها في احتمال كونها زائدة على ما في صحف موسى وإبراهيم، واحتمال كونها ممّا شملته الصحف المذكورة، فإنّ إبراهيم كان بعد عاد وثمود وقوم نوح، وكان معاصرا للمؤتفكة عالما بهلاكها.

{ عَاداً الْأُولَى } لأنّها أوّل العرب ذكرًا، وهم أوّل العرب البائدة، وهم أوّل أمّة أهلكت بعد قوم نوح.

وأمّا القول بأنّ عادا هذه لما هلكت خلفتها أمّة أخرى تعرف بـ (عاد إرم) أو (عاد الثانية) كانت في زمن العماليق فليس بصحيح.

ويجوز أن يكون { الْأُولَى } وصفا كاشفا، أي: عادا السابقة. وقيل: { الْأُولَى } صفة عظمة، أي: الأولى في مراتب الأمم قوة وسعة. وتقدّم التعريف بعاد في [الأعراف:65].

{ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى } تقدّم ذكر ثمود في [الأعراف:73].

{ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ } تقدّم ذكر نوح وقومه في [آل عمران:33] وفي [الأعراف:59].

وإنّما قُدِّم في الآية ذكر عاد وثمود على ذكر قوم نوح، مع أنّ هؤلاء أسبق، لأنّ عادا وثمودا أشهر في العرب وأكثر ذكرا بينهم، وديارهم في بلاد العرب.

{ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى } تعليل للكلام السابق.

{ إِنَّهُمْ كَانُوا } ضمير الجمع يجوز أن يعود إلى قوم نوح، أي: كانوا أظلم وأطغى من عاد وثمود. ويجوز أن يكون عائد إلى جميعهم، والمعنى: أنّ تلك الأقوام أظلم وأطغى من قومك الذين كذّبوك، فتكون تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الرسل من قبله لقوا من أممهم أشدّ ممّا لقيه هو، وفيه إيماء إلى أنّ الله مُبْقٍ على أمّة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يهلكها لأنّه قدر دخول بقيتها في الإسلام.

{ هُمْ أَظْلَمَ } ضمير الفصل لتقوية الخبر.

{ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى [53] فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى [54] }.

المؤتفكة: صفة لموصوف محذوف يدلّ عليه اشتقاق الوصف كما سيأتي، والتقدير: القرى المؤتفكة، وهي قرى قوم لوط الأربع وهي (سدوم - عمورة - آدمة – صبوييم). ووصفت في [التوبة:70] بالمؤتفكات، لأنّ وصف جمع المؤنث يجوز أن يُجمع وأن يكون بصيغة المفرد المؤنث.

ويجوز أن تكون المؤتفكة هنا وصفا للأمّة، أي: لأمّة لوط، ليكون نظيرا لذكر عاد وثمود وقوم نوح، كما في قوله تعالى { وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ } [الحاقة:9].

الائتفاك: الانقلاب، يقال: أفكها فاتفكت. والمعنى: التي خُسف بها فجُعل عاليها سافلها.

{ أَهْوَى } أسقط، أي: جعلها هاوية. والإهواء: الإسقاط، يقال: أهواه فهوى، ومعنى ذلك: أنّه أسقطها في باطن الأرض، وذلك من أثر زلازل وانفجارات أرضية بركانية.

غشّاها: غطاها وأصابها من أعلى.

{ مَا غَشَّى } فاعل {غَشَّاهَا} ، و(ما) موصولة، وجيء بصلتها من مادة وصيغة الفعل الذي أسند إليها، وذلك لا يفيد خبرا جديدا زائدا على مفاد الفعل. والمقصود منه التهويل، كأنّ المتكلّم أراد أن يبيّن بالموصول والصلة وصف فاعل الفعل فلم يجد لبيانه أكثر من إعادة الفعل، إذ لا يستطاع وصفه.

والذي غشّاها هو مطر من الحجارة المحمّاة، وهي حجارة بركانية قُذفت من فوهات كالآبار كانت في بلادهم ولم تكن ملتهبة من قبل قال تعالى { وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ } [الفرقان:40]، وقال تعالى { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ } [هود:82]. وفاضت عليها مياه غمرت بلادهم فأصبحت بحرا ميّتا.

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى } [55].

تفريعُ فذلكةٍ لما ذكر من أوّل السورة:

ممّا يختص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم من ذلك، كقوله تعالى { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى - إلى قوله - لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى } [2- 18].

وممّا يشمله ويشمل غيره من قوله تعالى { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى - إلى قوله - هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى } [43-49]، فإنّ ذلك خليط من نعم وضدّها على نوع الإنسان، وفي مجموعها نعمة تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم وأمّته بمنافع الاعتبار بصنع الله.

ثمّ من قوله تعالى { وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى } [50] إلى هنا، فتلك نقم من الضالين والظالمين لنصر رسل الله، وذلك نعمة على جميع الرسل، ونعمة خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم وهي بشارته بأن الله سينصره.
فجميع ما عُدِّد من النعم على أقوام والنقم عن آخرين هو نعم محضة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين.
{ **فَبِأَيِّ** } و(أي) اسم استفهام يُطلب به تمييز متشارك في أمر يعمُّ بما يميز البعض عن البقية.
مستعمل هنا في التسوية كناية عن تساوي ما عُدِّد من الأمور في أنّها نِعَم على الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ ليس لواحد من هذه المعدودات نقص عن نظائره في النعمة. والمقصود من هذا الاستفهام تذكير النبيّ صلى الله عليه وسلم بهذه النِعم. أي: أنك لا تحصل لك مِرية في واحدة من آلاء ربّك، فإنّها سواء.
{ **رَبِّكَ** } الخطاب الأظهر أنّه للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو مناسب لذكر الآلاء، والموافق، في عرف القرآن، لإضافة (ربّ) إلى ضمير المفرد المخاطب. وجوزوا أن يكون الخطاب لغير معيّن من الناس، باعتبار أنّه لا يخلو شيء ممّا عُدِّد سابقا عن نعمة لبعض الناس.
الآلاء: النِعم، وهو جمع مفرده **إِلَى**، (بكسر الهمزة وبفتحها مع فتح اللام مقصورا)، ويقال: إِلْي، وأَلْي، (بسكون اللام فيهما وآخره ياء متحركة).
التماري: التشكّك، وهو تفاعل من المرية. ولا يعرف فعل مجرّد للمراء، وإنّما يقال: امترى، إذا شك.
فإنّ كان الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، كان { تَتَمَارَى } مطاوع (ماراه)، والمعنى: فبأي آلاء ربك يشكّكونك، وهذا ينظر إلى قوله تعالى { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى } [12] ، أي: لا يستطيعون أن يشكّكوك في حصول آلاء ربك التي هي نِعَم النبوّة، والتي منها رؤية جبريل عند سدرة المنتهى. فالكلام مسوق لتأييس المشركين من الطمع في الكفّ عنهم.
وإن كان الخطاب لغير معين، كان { تَتَمَارَى } تفاعلا مستعملا في المبالغة في حصول الفعل.

{ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى } [56].

استئناف ابتدائي أو فذلكة لما تقدّم على اختلاف الاعتبارين في مرجع اسم الإشارة؛
فإن جعلتَ اسم الإشارة راجعا إلى **القرآن** فإنّه لحضوره في الأذهان ينزل منزلة شيء محسوس حاضر بحيث يشار إليه، فالكلام انتقال اقتضابي تنهيةٌ لما قبله وابتداء لما بعد اسم الإشارة، على أسلوب قوله تعالى { هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ } [ابراهيم 52]. والكلام موجه إلى المخاطبين بمعظم ما في هذه السورة، فلذلك اقتصر على وصف الكلام بأنّه نذير، دون أن يقول: نذير وبشير، كما قال في الآية الأخرى { إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف:188]. والإنذار بعضه صريح، مثل قوله { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا } [31]، وبعضه تعريض كقوله تعالى { وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى } [50] وقوله { وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى } [42]

وإن جعلتَ اسم الإشارة عائدا إلى ما تقدّم من أوّل السورة بتأويله بالمذكور، تكون الإشارة إلى الكلام المتقدّم تنزيلا لحضوره في السمع منزلة حضوره في المشاهدة بحيث يشار إليه.

النذير: حقيقته المخبر عن حدوث حدث مضر بالمخبَر (بالفتح)، وجمعه: نُذُر. ويطلق النذير على الإنذار، وهو خبر المخبر على طريقة المجاز العقلي. ومنه قوله تعالى { فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ } [الملك:17]، وقوله تعالى { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ } [القمر:23]، أي: بالمنذرين.

وإطلاق نذير على ما هو كلام، (القرآن أو بعض آياته)، مجاز عقلي أو استعارة على رأي جمهور أهل اللغة { **النُّذُرِ الْأُولَى** } السالفة، أي: أنّ معنى هذا الكلام من معاني الشرائع الأولى، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " إنّ ممّا أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت ". أي: من كلام الأنبياء قبل الإسلام.

{ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ [57] لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ [58] }.

تتنزل هذه الجملة من التي قبلها منزلة البيان للإنذار الذي تضمّنه قوله تعالى { هَذَا نَذِيرٌ } [56].

فالمعنى: هذا نذير بآزفة قرُبت، وفي ذكر فعل القُرب فائدة أخرى زائدة على البيان وهي أنّ المنذَر به دنا وقته، فإنّ أزفت معناه: قرُب، وحقيقته القرب المكاني، واستعير لقرب الزمان لكثرة ما يعاملون الزمان معاملة المكان. والتنبيه على قرب المنذَر به من كمال الإنذار للبدار بتجنّب الوقوع فيما ينذَر به.

{ **الْآزِفَةُ** } جيء لفعل { أَزِفَتِ } بفاعل من مادة الفعل للتهويل على السامع لتذهب النفس كل مذهب ممكن في تعيين هذه الحادثة التي أزفت.

وتأنيث { الْآزِفَةُ } بتأويل الوقعة، أو الحادثة، كما يقال: نزلت به نازلة، أو وقعت الواقعة، وغشيته غاشية، والعرب يستعملون التأنيث دلالة على المبالغة في النوع، ولعلّهم راعوا أنّ الأنثى مصدر كثرة النوع.

والتعريف تعريف الجنس، ومنه زيادة تهويل بتمييز هذا الجنس من بين الأجناس، لأنّ في استحضاره زيادة تهويل لأنّه حقيق بالتدبّر في المَخلص منه، نظير التعريف في { الْحَمْدُ لِلَّهِ } [الفاتحة:2].

والكلام يحتمل آزفة في الدنيا من جنس ما أهلك به عاد وثمود وقوم نوح، فهي استئصالهم يوم بدر، ويحتمل آزفة وهي القيامة.

{ **لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ** } مستأنفة بيانية، أو صفة لـ { الْآزِفَةُ }.

{ **كَاشِفَةٌ** } يجوز أن يكون مصدر بوزن فاعلة كالعافية، ويجوز أن يكون اسم فاعل قرن بهاء التأنيث للمبالغة. أي: ليس لها كشف.

الكشف: يجوز أن يكون بمعنى التعرية مراد به الإزالة مثل ويكشف الضرّ، وذلك ضدّ ما يقال: غشيه الضرّ.

فالمعنى: لا يستطيع أحد إزالة وعيدها غير الله. والإخبار كناية عن تحقيق وقوعها.
ويجوز أن يكون بمعنى إزالة الخفاء، أي: لا يُبيِّن وقتها أحد غير الله، كقوله تعالى { لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ } [الأعراف:187]. فالمعنى: أن الله هو العالم بوقتها لا يعلمه أحد إلا إذا شاء أن يطلع عليه أحدا من خلقه.

{ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ [59] وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ [60] وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ [61] }.

تفريع على { هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى } [56]، وما عطف عليه وبُيِّن به من بيان أو صفة، فُرِّع عليه استفهام إنكار وتوبيخ.
الحديث: الكلام والخبر.
{ **هَذَا** } الإشارة إلى ما ذُكر من الإنذار بأخبار الذين كذّبوا الرسل، فالمراد بالحديث بعض القرآن بما في قوله تعالى { أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ } [الواقعة:81].
{ **تَعْجَبُونَ** } العجب هنا الاستبعاد والإحالة، كقوله تعالى { أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [هود:73]، أو كناية عن الإنكار.
الضحك: هنا ضحك الاستهزاء. و**البكاء**: مستعمل في لازمه من خشية الله، كقوله تعالى { وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً } [الإسراء:109].
{ **سَامِدُونَ** } من السَّمود، وهو ما في المرء من الإعجاب بالنفس، يقال: سَمد البعير، إذا رفع رأسه في سيره، مُثِّل به حال المتكبّر المعرض عن النصح المُعجَب بما هو فيه.
وقيل: السمود: الغناء بلغة حِمْير، والمعنى: فرحون بأنفسكم تتغنون بالأغاني لقلة الاكتراث بما تسمعون من القرآن.

{ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا } [63].

تفريع على الإنكار والتوبيخ المُفرَّعين على الإنذار بالوعيد، فُرِّع عليه أمرهم بالسجود لله، لأنّ ذلك التوبيخ من شأنه أن يعمق في قلوبهم فيكفهم عمّا هم فيه من البطر والاستخفاف بالداعي إلى الله.
ومقتضى تناسق الضمائر أنّ الخطاب موجَّه إلى المشركين.
السجود: يجوز أن يراد به الخشية، كقوله تعالى { وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ } [الرحمن:6]. والمعنى: أمرهم بالخضوع إلى الله والكف عن تكذيب رسوله وعن إعراضهم عن القرآن، لأنّ ذلك كلّه استخفاف بحق الله، وكان عليهم لمَّا دعوا إلى الله أن يتدبَّروا وينظروا في دلائل صدق الرسول والقرآن.

ويجوز أن يكون المراد سجود الصلاة، والأمر به كناية عن الأمر بأن يسلموا، فإن الصلاة شعار الإسلام، ألا ترى إلى قوله تعالى { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ } [المدثر:43/42]، أي: من الذين شأنهم الصلاة. وقد جاء نظيره الأمر بالركوع في قوله { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ } [المرسلات:48]. فيجوز فيه المحملان.

{ **وَاعْبُدُوا** } أمرهم بعبادة الله، لأنّهم إذا خضعوا له حقّ الخضوع عبدوه وتركوا عبادة الأصنام.

وقد ثبت في الأخبار الصحيحة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ النجم فسجد فيها (أي: عند قوله { فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا }) وسجد من كان معه من المسلمين والمشركين. كما أوردناه في مطلع السورة.

وروي أنّ عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود كانا يسجدان عند هذه الآية في القراءة في الصلاة.

وفي أحكام ابن العربي أنّ ابن عمر سجد فيها، وفي الصحيحين والسنن عن زيد بن ثابت قال قرأت: النجم عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يسجد فيها.

وفي سنن ابن ماجه عن أبي الدرداء سجدتُ مع النبيّ صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصّل شيء.

وعن أبي بن كعب: كان آخر فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم ترك السجود في المفصّل.

وعن ابن عباس: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يسجد في المفصل منذ تحول إلى المدينة، وسورة النجم من المفصل.

واختلف العلماء في السجود عند هذه الآية:

فقال مالك: سجدة النجم ليست من عزائم القرآن أي ليست ممّا يسن السجود عندها.

وقال أبو حنيفة: هي من عزائم السجود. ونسب ابن العربي في أحكام القرآن مثله إلى الشافعي، وهو المعروف في كتب الشافعية والحنابلة.

وإنّما سجد النبيّ صلى الله عليه وسلم فيها، وإن كان الأمر في قوله { فَاسْجُدُوا } مُفرَّعا على خطاب المشركين بالتوبيخ، لأنّ المسلمين أولى بالسجود لله.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القمر

اسمها بين السلف (**سورة اقتربت الساعة**). ففي حديث أبي واقد الليثي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الفطر والأضحى. وبهذا الاسم عنون لها البخاري في كتاب التفسير.

وتُسمَّى (**سورة القمر**)، وبذلك ترجمها الترمذي. وتُسمَّى (**سورة اقتربت**)، حكاية لأوّل كلمة فيها.

وهي مكية كلّها عند الجمهور.

وهي السورة **السابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور** عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الطارق وقبل سورة ص.

وعدد آيها خمس وخمسون باتفاق أهل العدد.

وسبب نزولها ما رواه الترمذي عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبيّ صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر بمكة، فنزلت { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ - إلى قوله - سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } [2/1].

وفي أسباب النزول للواحدي بسنده إلى عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد محمد صلى الله عليه وسلم فقالت قريش هذا سحر ابن أبي كبشة سَحَركم، فسألوا السُفَّار، فقالوا: نعم قد رأينا، فأنزل الله عز وجل { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ } [1].

وكان **نزولها في حدود سنة خمس قبل الهجرة** ففي الصحيح أنّ عائشة قالت: " أُنزل على محمد بمكّة، وإنّي لجارية ألعب، { بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } [46] ".

أغراض السورة

*/ تسجيل مكابرة المشركين في الآيات المبيّنة، وأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن مكابرتهم.

*/ إنذارهم باقتراب القيامة وبما يلقونه حين البعث من الشدائد.

*/ تذكيرهم بما لقيته الأمم أمثالهم من عذاب الدنيا لتكذيبهم رسل الله، وأنّهم سيلقون مثل ما لقي أولئك.

*/ إنذارهم بقتال يُهزمون به، ثم لهم عذاب الآخرة وهو أشدّ.

*/ إعلامهم بإحاطة الله علما بأفعالهم وأنّه مجازيهم شرّ الجزاء ومجاز المتّقين خير الجزاء.

*/ إثبات البعث، ووصف بعض أحواله.

*/ في خلال ذلك، تكرير التنويه بهدي القرآن وحكمته.

{ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ } [1].

من عادة القرآن أن ينتهز الفرصة لإعادة الموعظة والتفكير حين يتضاءل تعلّق النفوس بالدنيا، وتُفكّر فيما بعد الموت، وتعير آذانها لداعي الهدى. فتتهيأ لقبول الحقّ في مظان ذلك، وكم كان مثل هذا الانتهاز سببا في إيمان قلوب قاسية. فإذا أظهر الله الآيات على يد رسوله صلى الله عليه وسلم لتأييد صدقه، ألحق ذلك بإعادة التذكير، كما قال تعالى { وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً } [الإسراء:59].

وجمهور المفسِّرين على أن هذه الآية نزلت شاهدة على المشركين بظهور آية كبرى ومعجزة من معجزات النبيّ صلى الله عليه وسلم وهي معجزة انشقاق القمر.

*/ ففي صحيح البخاري وجامع الترمذي عن أنس بن مالك قال: " سأل أهل مكّة النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر، (زاد الترمذي عنه فانشق القمر بمكة فرقتين)، فنزلت { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ - إلى قوله - سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } [القمر:2] ".

وكثرة روّاة هذا الخبر تدلّ على أنّه كان خبرا مستفيضا.

*/ وظاهر بعض الروايات لحديث ابن مسعود عند الترمذي أنّ الآية نزلت قبل حصول انشقاق القمر الواقع بمكة لمّا سأل المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم آية، أو سألوه انشقاق القمر فأراهم انشقاق القمر.

*/ وعن الحسن وعطاء أن انشقاق القمر يكون عند القيامة واختاره القشيري، وروي عن البلخي. وقال الماوردي: هو قول الجمهور، ولا يُعرف ذلك للجمهور.

وليس لفظ هذه الآية صريحا في وقوعه، ولكن ظاهرها يقتضيه كما في الشفاء.

وخبر انشقاق القمر معدود من مباحث المعجزات من كتب السيرة ودلائل النبوّة.

فإن كان نزول هذه الآية واقعا بعد حصول الانشقاق كما اقتضاه حديث ابن مسعود في جامع الترمذي، فتصدير السورة بـ { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ } للاهتمام بالموعظة كما قدّمناه آنفا، إذ قد تقرّر المقصود من تصديق المعجزة. فجُعلت تلك المعجزة وسيلة للتذكير باقتراب الساعة على طريقة الإدماج بمناسبة أنّ القمر كائن من الكائنات السماوية ذات النظام المساير لنظام الجو الأرضي فلمّا حدث تغيّر في نظامه لم يكن مألوفا ناسب تنبيه الناس للاعتبار بإمكان اضمحلال هذا العالم. وكان فعل الماضي { انْشَقَّ } مستعملا في حقيقته.

وإن كان نزولها قبل حصول الانشقاق كما اقتضاه حديث أنس بن مالك، فهو إنذار باقتراب الساعة وانشقاق القمر الذي هو من أشراط الساعة، ومع الإيماء إلى أنّ الانشقاق سيكون معجزة لما يسأله المشركون.

ويُرجّح هذا المحمل قوله تعالى عقبه { وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } [2]، كما سيأتي.

{ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ } يجوز أن يكون قد حدث خسف عظيم في كرة القمر أحدثت في وجهه هوّة لاحت للناظرين

في صورة شقّه إلى نصفين بينهما سواد حتّى يُخيّل أنّه منشق إلى قمرين، فالتعبير عنه بالانشقاق مطابق للواقع لأنّ الهوة انشقاق، وموافق لمرأى الناس لأنّهم رأوه كأنّه مشقوق.

ويجوز أن يكون قد حصل في الأفق بين سمت القمر وسمت الشمس مرور جسم سماوي من نحو بعض المذنّبات حجب ضوء الشمس عن وجه القمر بمقدار ضل ذلك الجسم على نحو ما يُسمَّى بالخسوف الجزئي، وليس في لفظ أحاديث أنس بن مالك عند مسلم والترمذي، وابن مسعود وابن عباس عند البخاري ما يناكده. وبهذا الوجه يظهر اختصاص ظهور ذلك بمكة دون غيرها من العالم، وأمّا على الوجه الأول فإنّما لم يشعر به غير أهل مكة من الأرض لأنّهم لم يكونوا متأهّبين إليه إذ كان ذلك ليلا وهو وقت غفلة أو نوم، ولأنّ القمر ليس ظهوره في حد واحد لأهل الأرض فإنّ مواقيت طلوعه تختلف باختلاف البلدان.

{ **وَانْشَقَّ** } مطاوع شقّه، والشقّ: تفرّق بين أديم جسم ما، بحيث لا تنفصل قطع مجموع ذلك الجسم، ويُسمَّى أيضا تصدُّعا، كما يقع في عود أو جدار.

فإطلاق الانشقاق على حدوث هوّة في سطح القمر إطلاق حقيقي، وإطلاقه على انطماس بعض ضوئه استعارة، وإطلاقه على تفرقة نصفين مجاز مرسل.

الاقتراب: أصله صيغة مطاوعة، أي: قبول فعل الفاعل، وهو هنا للمبالغة في القرب، فإن حُمل على حقيقة القرب فهو قرب اعتباري، أي: قرب حلول الساعة فيما يأتي من الزمان، قُربا نسبيا بالنسبة لما مضى من الزمان ابتداء من خلق السماء والأرض، على نحو قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **بعثت أنا والساعة كهاتين** "، وأشار بسباته والوسطى.

فإنّ تحديد المدّة من وقت خلق العالم أو من وقت خلق الإنسان أمر لا قبل للناس به وما يوجد في كتب اليهود مبني على الحسد والتوهّمات، قال ابن عطية: " وكل ما يروى من التحديد في عمر الدنيا فضعيف واهن ".

وفائدة هذا الاعتبار أن يُقبل الناس على نبذ الشرك وعلى الاستكثار من الأعمال الصالحات واجتناب الآثام لقرب يوم الجزاء.

الساعة: عَلَم بالغلبة على وقت فناء هذا العالم. ويجوز أن يراد بالساعة ساعة معهودة أنذروا بها في آيات كثيرة، وهي ساعة استئصال المشركين بسيوف المسلمين.

{ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } [2].

يجوز أن يكون تذييلا للإخبار بانشقاق القمر، فيكون المراد بـ { آيَةٍ }: القمر. فقد جاء في بعض الآثار: أنّ المشركين لمّا رأوا انشقاق القمر قالوا: هذا سحر محمد بن أبي كبشة. وفي رواية قالوا: قد سَحَر محمد القمر.

ويجوز أن يكون كلاما مستأنفا من ذكر أحوال تكذيبهم ومكابرتهم.

وعلى كلا الوجهين فإنّ وقوع { آيَةً }، وهو نكرة في سياق الشرط، يفيد العموم.
وجيء بهذا الخبر في صورة الشرط للدلالة على أنّ هذا ديدنهم ودأبهم.
{ **يَرَوْا** } الضمير عائد إلى ضمير غير مذكور في الكلام دال عليه المقام وهو المشركون.
{ **مُسْتَمِرٌّ** } يجوز أن يكون مشتقا من فعل (مَرَّ) الذي هو مجاز في الزوال، والسين والتاء للتقوية في الفعل، أي: لا يبقى القمر منشقا. ويجوز أن يكون مشتقا من (المِرَّة) بكسر الميم، أي: القوّة، والسين والتاء للطلب، أي: طلب لفعله قوة. والمعنى: هذا سحر معروف متكرّر، أي: معهودا منه مثله.

{ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ } [3].
{ **وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** } هذا إخبار عن حالهم فيما مضى بعد أن أخبر عن حالهم في المستقبل.
ومقابلة ذلك بهذا فيه شبه احتباك، كأنّه قيل: وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سحر، وقد رأوا الآيات وأعرضوا وقالوا: سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وسيكذبون ويتبعون أهواءهم.
{ **وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** } عطف العلّة على المعلول، لأنّ تكذيبهم لا دافع لهم إليه إلّا اتباع ما تهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهدوه واشتهر دوامه.
{ **أَهْوَاءَهُمْ** } الهوى اسم جنس يصدق بالواحد والمتعدّد، فعدل عن الإفراد إلى الجمع لمزاوجة ضمير الجمع المضاف إليه، وللإشارة إلى أنّ لهم أصنافا متعدّدة من الأهواء: من حب الرئاسة، ومن حسد المؤمنين على ما آتاهم الله، ومن حبّ اتباع ملّة آبائهم، ومن محبّة أصنامهم، وإلف لعوائدهم.
{ **وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ** } تذييل للكلام السابق من قوله { وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا - إلى قوله - أَهْوَاءَهُمْ } [3/2]، فهو اعتراض بين جملة { وَكَذَّبُوا} وجملة { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ } [4]، وهو جار مجرى المثل.
{ **كُلِّ** } من أسماء العموم.
أمر: اسم يدّل على جنس عال ومثله (شيء – موجود - كائن)، ويتخصَّص بالوصف، كقوله تعالى { وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ } [النساء: 83] وقد يتخصَّص بالعقل أو العادة كما تخصَّص (شيء) في قوله تعالى عن ريح عاد { تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ } [الأحقاف: 25] أي: من الأشياء القابلة للتدمير.
مستقِر: (بكسر القاف) اسم فاعل من استقرّ، أيّ قَرَّ، والسين والتاء للمبالغة، مثل السين والتاء في استجاب.
والمعنى: أن إعراضهم عن الآيات وافتراءهم عليها بأنّها سحر ونحوه وتكذيبهم وتمالؤهم على ذلك لا يوهن وقعها في النفوس ولا يعوق إنتاجها. فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم صائر إلى مصير أمثاله الحقّ، من الانتصار والتمام واقتناع الناس به وتزايد أتباعه، وأنّ اتّباعهم أهواءهم واختلاق معاذيرهم صائر إلى مصير

أمثاله الباطلة، من الانخذال والافتضاح وانتقاص الأتباع.

وتضمّن هذا التذييل بإجماله تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وتهديدا للمشركين، واستدعاء لنظر المتردِّدين.

{ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ [4] حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ [5] }.

عطف على جملة { وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } [3]، أي: جاءهم في القرآن من أنباء الأمم، ومن الحجج البيّنة ما هو أشد في الحجّة من انشقاق القمر.

المزدجر: مصدر ميمي، وهو مصاغ بصيغة اسم المفعول الذي فعله زائد على ثلاثة أحرف. وازدجره بمعنى زجره، ومادة الافتعال فيه للمبالغة. أي: ما فيه مانع لهم من ارتكاب ما ارتكبوه. والمعنى: ما هو زاجر لهم.

وهذا كقوله تعالى { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [الأحزاب:21] أي: هو أسوة.

{ **حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ** } بدل من { مَا }، أي: جاءتهم حكمة بالغة.

الحكمة: إتقان الفهم وإصابة العقل. والمراد هنا الكلام الذي يتضمّن الحكمة ويفيد سامعه حكمة، فوصف الكلام بالحكمة مجاز عقلي كثير الاستعمال، وتقدّم في قوله تعالى { وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً } [البقرة:269].

البالغة: الواصلة، أي: واصلة إلى المقصود، مفيدة لصاحبها.

{ **فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ** } تفريع، أي: جاءهم ما فيه مزدجر فلم يغن ذلك، أي: لم يحصل فيه الإقلاع عن ضلالهم.

والمضارع للحال والاستقبال، أي: ما هي مغنية، كما لم تغن عنهم فيما مضى.

<u>ويحتمل</u> أن تكون (مَا) استفهامية للإنكار، أي: ماذا تفيد النذر من أمثالهم المكابرين المصرّين، أي: لا غناء لهم في تلك الأنباء. فإنّ الأنباء تتضمّن إرسال الرسل من الله منذرين لقومهم فما أغنوهم ولم ينتفعوا بهم.

{ **النُّذُرُ** } آيات القرآن، جُعلت كلّ آية كالنذير: وجمعت على نُذُر، وتقدّم عند قوله تعالى { هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى } [النجم:56].

{ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ [6] خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ [7] مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ [8] }.

{ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ** } تفريع على { فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ } [5]، أي: أعرض عن مجادلتهم فإنّهم لا تفديهم النذر، كقوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا } [النجم:29]، أي: أنّك قد بلّغت فما أنت بمسؤول عن استجابتهم. كقوله تعالى { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ } [الذاريات:54].

وهذه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتطمين له بأنّه ما قصَّر في أداء الرسالة.

ولا تعلق لهذه الآية بأحكام قتالهم إذ لم يكن السياق له ولا حدثت دواعيه يومئذ، فلا وجه للقول بأنّها منسوخة.

{ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ }

استئناف بياني وقع معترضا بين جملة { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ } [4] وجملة { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ } [9].

والبيان تطلّبه ما تضمّنه الأمر بالتولِّي عنهم من إشارة إلى غضب ووعيد، من شأنه أن يثير في نفس السامع تساؤلا عن مجمل هذا الوعيد.

{ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ } وإذ قد كان المتوعَّد به شيئا يحصل يوم القيامة قُدِّم الظرف على عامله، وهو { يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ }، ليحصل بتقديمه إجمال يفصّله بعض التفصيل ما يذكر بعده، فإذا سمع السامع هذا الظرف علم أنه ظرف لأهوال تذكر بعده. وقد عُدَّ سبعة من مظاهر الأهوال.

أوّلها : دعاء الداعي، فإنّه مؤذن بأنّهم محضَرون إلى الحساب، لأنّ مفعول { يَدْعُ } محذوف بتقدير: يدعوهم الداعي، بدلالة ضمير { عَنْهُمُ }.

ثانيها: أنّه يدعو إلى شيء عظيم، لأنّ ما في لفظ { شَيْءٍ } من الإبهام يُشعر بأنّه مهول، وما في تنكيره من التعظيم يُجسِّم ذلك الهول.

ثالثها: وصف شيء بأنّه { نُكُرٍ }، أي: موصوف بأنّه تنكره النفوس وتكرهه. **والنُكُر**: (بضمّتين) صفة، وهذا الوزن قليل في الصفات، ومنه قولهم: روضة أُنُف، أي: جديدة لم ترعها الماشية، ورجل شُلُل، أي: خفيف سريع في الحاجات، ورجل سُجُح، أي: سمح.

رابعها: { خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ }، أي: ذليلة، ينظرون من طرف خفي لا تثبت أحداقهم في وجوه الناس، وهي نظرة الخائف المفتضح، وهو كناية، لأنّ ذلّة الذليل وعزّة العزيز تظهران في عيونهما.

خامسها: تشبيههم بالجراد المنتشر في الاكتظاظ واستتار بعضهم ببعض من شدّة الخوف، زيادة على ما يفيده التشبيه من الكثرة والتحرّك.

سادسها: وصفهم بمهطعين، **والمهطع**: الماشي سريعا مادا عنقه، وهي مشية مذعور غير ملتف إلى شيء.

سابعها : قولهم: {هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ}، وهو قول من أثر ما في نفوسهم من خوف. و{ **عَسِرٌ** } صفة مشبّهة من العسر وهو الشدّة والصعوبة. ووصف اليوم بـ { عَسِرٌ } وصف مجازي عقلي باعتبار كونه زمانا لأمور عَسِرة شديدة من شدّة الحساب وانتظار العذاب.

{ شَيْءٍ نُكُرٍ } أُبهم للتهويل، وذلك هو أهوال الحساب وإهانة الدفع ومشاهدة ما أُعدَّ لهم من العذاب.

{ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ } انتصب على الحال من الضمير المقدّر في { يَدْعُ الدَّاعِ }، وإمّا من ضمير { يَخْرُجُونَ }.

{ **يَقُولُ الْكَافِرُونَ** } إظهار في مقام الإضمار لوصفهم بهذا الوصف الذميم، وفيه تفسير الضمائر السابقة.
الأجداث: جمع جدث وهو القبر، وقد جعل الله خروج الناس إلى الحشر من مواضع دفنهم في الأرض، كما قال تعالى { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } [طه:55].
الجراد: اسم جمع واحده جرادة، الحشرة المعروفة.
المنتشر: المنبثّ على وجه الأرض. والمراد هنا (الدَّبَى) وهو فراخ الجراد قبل أن تظهر له الأجنحة، فإذا تمّ خلقه خرج من الأرض يزحف بعضه فوق بعض. وهذا شبيه قوله تعالى { يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ } [القارعة:4]. وهذا التشبيه تمثيلي لأنّه تشبيه هيئة خروج الناس من القبور متراكمين بهيئة خروج الجراد.

{ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ } [9].

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ } [4]، فإنّ من أشهرها تكذيب قوم نوح رسولهم، وسبق الإنباء به في القرآن في السور النازلة قبل هذه السورة. والخبر مستعمل في التذكير وليُفرَّع عليه ما بعده. فالمقصود النعي عليهم عدم ازدجارهم بما جاءهم من الأنباء بتعداد بعض المهمّ منها.
{ **قَبْلَهُمْ** } فائدة ذكر الظرف تقرير تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: أنّ هذه شنشنة أهل الضلال، كقوله تعالى { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ } [فاطر:4].
{ **قَوْمِ نُوحٍ** } عُرِّفوا بالإضافة إلى اسمه إذ لم يكن لهم اسم يعرفون به.
وأسند التكذيب إلى جميع القوم لأنّ الذين صدّقوه عدد قليل، فإنّه ما آمن به إلّا قليل كما تقدّم في [هود:36].
{ **فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا** } الفاء لتفريع الإخبار بتفصيل تكذيبهم إيّاه بأنّهم قالوا { مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ }، على الإخبار بأنّهم كذّبوه على الإجمال، وإنّما جيء بهذا الأسلوب لأنّه لمّا كان المقصود من الخبر الأوّل تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم فُرّع عليه الإخبار بحصول المشابهة بين تكذيب قوم نوح رسولهم وتكذيب المشركين محمدا صلى الله عليه وسلم في أنّه تكذيب لمن أرسله الله واصطفاه بالعبودية الخاصة، وفي أنّه تكذيب مشوب ببهتان، إذ قال كلا الفريقين لرسوله: مجنون، ومشوب ببذاءة إذ آذى كلا الفريقين رسولهم وازدجروه فمحلّ التفريع هو وصف نوح بعبودية الله تكريما له، والإخبار عن قومه بأنّهم افتروا عليه وصفه بالجنون، واعتدوا عليه بالأذى والازدجار.
فأصل تركيب الكلام: كذبت قبلهم قوم نوح فقالوا: مجنون وازدجر. ولمّا أريد الإيماء إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ابتداء جعل ما بعد التسلية مفرّعا بفاء التفريع ليظهر قصد استقلال ما قبله ولولا ذلك لكان الكلام غنيا عن الفاء إذ كان يقول: كذبت قوم نوح عبدنا.

وأعيد فعل { كَذَّبُوا } لإفادة توكيد التكذيب، أي: هو تكذيب قوي، كقوله تعالى { وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ } [الشعراء:130]، وقوله تعالى { رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا } [القصص:63].

ويجوز أن يكون فعل { **كَذَّبَتْ** } مستعملا في معنى: أنّهم اعتقدوا كذبه، فتفريع { فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا } عليه تفريع تصريحهم بتكذيبه على اعتقادهم كذبه. فيكون فعل { فَكَذَّبُوا } مستعملا في معنى غير الذي استعمل فيه فعل {كَذَّبَتْ}، والتفريع ظاهر على هذا الوجه. وهذا الوجه كما في قوله تعالى { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي } [سبأ:45].

{ **وَازْدُجِرَ** } معطوف على { قَالُوا } وهو افتعل من **الزجر**. وصيغة الافتعال هنا للمبالغة مثلها: افتقر. ونكتة البناء للمجهول التوصّل إلى حذف ما يسند إليه فعل الازدجار، وهو ضمير { قَوْمِ نُوحٍ }، فعدل عن أن يقال: وازدجروه، محاشاة للدال على ذات نوح، وهو ضمير، من أن يقع مفعولا لضميرهم.

المعنى: أنّهم نهوه عن ادعاء الرسالة بغلظة. كما حكى الله عنهم ذلك في أكثر من موضع، قال تعالى { قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [لأعراف:66]، وقال تعالى { قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ } [الشعراء:116]، وقال تعالى { وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ } [هود:38].

{ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ [10] فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ [11] وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ [12] وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ [13] تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ [14]** }.

تفريع على { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ } [9] وما تفرّع عليه.

{ **مَغْلُوبٌ** } مجاز، شبَّه يأسه من أجابتهم لدعوته بحال الذي قاتل أو صارع فغلبه مقاتله، وقد حكى الله تعالى في [نوح:1-23] كيف سلك مع قومه وسائل الإقناع بقبول دعوته فأعيته الحيل.

{ **فَانْتَصِرْ** } حُذف المتعلق للإيجاز وللرعي على الفاصلة، والتقدير: فانتصر لي، أي: انصرني.

{ **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ** } مُفرَّعة على جملة { فَدَعَا رَبَّهُ }، ففُهم من التفريع أنّ الله استجاب دعوته، وأنّ إرسال هذه المياه عقاب لقوم نوح. وحاصل المعنى: فأرسلنا عليهم الطوفان.

والجملة مركّب تمثيلي لهيئة اندفاق الأمطار من الجو بهيئة خروج الجماعات من أبواب الدار.

المنهمر: المنصبّ، أي: المصبوب، يقال: همر الماء إذا صبّه. أي: نازل بقوة.

{ **وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ** } تعدية فعل { فَجَّرْنَا } إلى اسم الأرض تعدية مجازية إذ جُعلت الأرض من كثرة عيونها كأنّها عين تتفجّر. وهو إجمال جيء من أجله بالتمييز له بقوله { عُيُوناً } لبيان هذه النسبة. إذ المعنى: وفجرنا عيون الأرض، وهو مثل قوله تعالى { وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً } [مريم:4].

التفجير: إسالة الماء، يقال: تفجّر الماء، إذا سال، قال { حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً } [الإسراء:9].

التقاء الماء: تجمّع ماء الأمطار مع ماء عيون الأرض فالالتقاء مستعار للاجتماع، كما يلتقي الجيشان.

{ **عَلَى أَمْرٍ** } يجوز أن تكون { عَلَى } بمعنى (في)، كقوله تعالى { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا } [القصص:15]، والظرفية مجازية. ويجوز أن تكون { عَلَى } للاستعلاء المجازي، أي: ملابسا لأمر قد قُدِّر ومُتمكّنا منه. ومعنى التمكّن: شدّة المطابقة لما قُدِّر، وأنّه لم يحد عنه قيد شعرة.

الأمر: الحال والشأن، وتنوينه للتعظيم.

{ **قَدْ قُدِرَ** } أي: أُتقن وأُحكم بمقدار، يقال: قَدَره (بالتخفيف) إذا ضبطه وعيّنه، كما قال تعالى { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [49].

{ **وَحَمَلْنَاهُ** } معطوفة على التفريع عطف احتراس. انتقال إلى وصف إنجاء نوح من ذلك الكرب العظيم.

والمعنى: فأغرقناهم ونجيناه. وعدّي فعل (حملنا) إلى ضمير نوح دون من معه من قومه لأنّ هذا الحمل كان إجابة لدعوته ولنصره، فهو المقصود الأوّل من هذا الحمل، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى { فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا } [الأعراف:72]، وقوله تعالى { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ } [المؤمنون:28]، ونحوه من الآيات الدالة على أنّه المقصود بالإنجاء وأنّ نجاة قومه بمعيّته.

{ **عَلَى** } للاستعلاء المجازي وهو التمكّن، كقوله { إِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ } [المؤمنون:28]، وإلّا فإنّ استقراره في السفينة كائن في جوفها، كما قال تعالى { إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة:11]، وقوله تعالى { قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [هود:40].

{ **ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ** } صفة السفينة، أقيمت مقام الموصوف لأنّ في هذه الصفة بيان متانة هذه السفينة وإحكام صنعها. وفي ذلك إظهار لعناية الله بنجاة نوح ومن معه، فإنّ الله أمره بصنع السفينة وأوحى إليه كيفية صنعها ولم تكن تُعرف سفينة قبلها، قال تعالى { وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } [هود:37].

وعادة البلغاء إذا احتاجوا لذكر صفة بشيء وكان ذكرها دالا على موصوفها أن يستغنوا عن ذكر الموصوف إيجازا، كما قال تعالى { أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ } [سبأ:11]، أي: دروعا سابغات.

الحمل: رفع الشيء على الظهر أو الرأس لنقله { وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ } [النحل:7]، وله مجازات كثيرة.

الألواح: جمع لوح وهو القطعة المسوّاة من الخشب.

الدُّسر: جمع دِسار، وهو المسمار.

{ **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ** } الباء للملابسة.

أعين: جمع عين بإطلاقه المجازي، وهو الاهتمام والعناية. والجمع لتقوية المعنى لأنّ الجمع أقوى من المفرد، أي: بحراسات منّا وعنايات. ويجوز أن يكون الجمع باعتبار أنواع العنايات بتنوع آثارها. وأصل استعمال لفظ العين في مثله تمثيل بحال الناظر إلى الشيء المحروس مثل الراعين، كما يقال للمسافر: عين الله عليك، ثم شاع ذلك حتّى ساوى الحقيقة فجمع بذلك الاعتبار. كقوله تعالى { فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور:48]. وقول النابغة: علمتك ترعاني بعين بصيرة.

{ **جَزَاءً** } مفعول لأجله لـ { فَتَحْنَا } وما عطف عليه، أي: فعلنا ذلك كله جزاء لنوح.

{ **مَنْ كَانَ كُفِرَ** } هو نوح، فإنّ قومه كفروا به، أي: لم يؤمنوا بأنّه رسول، وكان كفرهم به منذ جاءهم بالرسالة فلذلك أقحم هنا فعل { كَانَ }، أي: لمن كُفر منذ زمان مضى. وحُذف متعلّق لدلالة الكلام عليه. وتقديره: كُفر به، أو لأنّه نصح لهم ولقي في ذلك أشد العناء فلم يشكروا له بل كفروه، فهو مكفور. وذلك ما حكي في قوله تعالى { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً - إلى قوله - ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً } [نوح:5-9].

{ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [15].

ضمير المؤنث عائد إلى { ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ }، أي: السفينة. والترك كناية عن الإبقاء وعدم الإزالة، قال تعالى { وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً } [الذاريات:37]، وقال تعالى { وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ } [البقرة:17].

أي: أبقينا سفينة نوح محفوظة من البلى لتكون آية، تأييدا للرسل وتخويفا بأوّل عذاب عُذبت به أمّة كذبت رسولها. فكانت حجّة دائمة مثل ديار ثمود.

الآية: الحجة. وأصل الآية الأمارة التي يصطلح عليها شخصان فأكثر، قال تعالى { قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ } [آل عمران:41].

{ **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** } فُرّع على إبقاء السفينة آية استفهام عمّن يتذكّر بتلك الآية وهو استفهام مستعمل في معنى التحضيض على التذكّر بهذه الآية واستقصاء خبرها. والتحضيض موجَّه إلى جميع من تبلغه هذه الآيات.

{ **مُدَّكِرٍ** } أصله مذتكر مفتعل من الذُكر (بضم الذال)، وهو التفكّر في الدليل. قلبت تاء الافتعال دالا لتقارب مخرجيهما، وأدغم الذال في الدال لذلك، وقراءة هذه الآية مروية بخصوصها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. وتقدم في قوله تعال { وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ } [يوسف [45].

{ **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** } [16].

تفريع على القصة بما تضمّنته من قوله تعالى { فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ } [11] إلى آخره.

{ **فَكَيْفَ** } الفاء للتفريع و(كيف) للاستفهام عن حالة العذاب. وهو عذاب قوم نوح بالطوفان. والاستفهام مستعمل في التعجيب من شدّة هذا العذاب الموصوف. والجملة في معنى التذييل، وهو تعريض بتهديد المشركين أن يصيبهم عذاب جزاء تكذيبهم وإعراضهم وأذاهم كما أصاب قوم نوح.

{ **نُذُرِ** } أصله: نُذُرِي. وحذف ياء المتكلّم في الكلام في الوقف فصيح، وكثر في القرآن عند الفواصل.

النُذر: جمع نذير الذي هو اسم مصدر أنذر كالنذارة، وتقدّم آنفا [5]، وإنّما جمعت لتكرّر النذارة من الرسول لقومه طلبا لإيمانهم.

{ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** } [17].

لما كانت هذه النذارة بُلِّغت بالقرآن، والمشركون معرضون عن استماعه حارمين أنفسهم من فوائده، ذُيّل خبرها بتنويه شأن القرآن بأنّه من عند الله وأنّ الله يسَّره وسهَّله لتذكّر الخلق بما يحتاجونه من التذكير ممّا هو هدى وإرشاد. وهذا التيسير ينبئ بعناية الله به مثل قوله { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر:9] تبصرةً للمسلمين ليزدادوا إقبالا على مدارسته، وتعريضا بالمشركين عسى أن يرعووا عن صدودهم عنه، كما أنبأ عنه قوله { فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ }.

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد الخبر باللام وحرف التحقيق مراعى فيه حال المشركين الشاكين في أنّه من عند الله.

التيسير: إيجاد اليسر في شيء؛ من فعل، كقوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ } [البقرة:185]، أو قول، كقوله تعالى { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [الدخان:58].

اليُسْر: السهولة، وعدم الكلفة في تحصيل المطلوب من شيء.

وإذ كان القرآن كلاما **فمعنى تيسيره** يرجع إلى تيسير ما يراد من الكلام وهو فهم السامع المعاني التي عناها المتكلّم به دون كلفة على السامع ولا إغلاق، وهذا اليسر يحصل من جانب الألفاظ وجانب المعاني:

فأمّا من جانب الألفاظ، فذلك بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التراكيب، أي: فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها، بحيث يخفّ حفظها على الألسنة.

وأمّا من جانب المعاني، فبوضوح انتزاعها من التراكيب، ووفرة ما تحتوي عليه التراكيب منها من مغازي الغرض المسوقة هي له، وبتولّد معان من معان أخر كلّما كرّر المتدبّر تدبُّره في فهمها.

ووسائل ذلك لا يحيط بها الوصف وتقدّم بسطها في المقدمة العاشرة، من مقدّمات هذا التفسير، ومن أهمها: إيجاز اللفظ ليسرع تعلّقه بالحفظ، وإجمال المدلولات لتذهب نفوس السامعين في انتزاع المعاني منها كلّ مذهب يسمح به اللفظ والغرض والمقام، ومنها الإطناب بالبيان إذا كان في المعاني بعض الدقة والخفاء.

ويتأتى ذلك بتأليف نظم القرآن بلغة هي أفصح لغات البشر وأسمح ألفاظا وتراكيب بوفرة المعاني، وبكون تراكيبه أقصى ما تسمح به تلك اللغة، فهو خيار من خيار من خيار. قال تعالى { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } [الشعراء:195].

وقد فرض الله على العلماء تبيينه تصريحا، كقوله تعالى { لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } [النحل:44]، وتعريضا، كقوله تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ } [آل عمران: 187]، فإنّ هذه الأمّة أجدر بهذا الميثاق. وفي الحديث الشريف: **" ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده "** .

{ **لِلذِّكْرِ** } اللام متعلقة بـ { يَسَّرْنَا } وهي ظرف لغو غير مستقر، وهي (لام) تدلّ على أن الفعل الذي تعلّقت به فُعِل لانتفاع مدخول هذه الـ (لام) به، فمدخولها لا يراد منه مجرّد تعليل فعل الفاعل، ولكن يراد أنّ مدخول هذه الـ (لام) علة خاصة مراعاة في تحصيل فعل الفاعل لفائدته.

الذكر: مصدر ذكر الذي هو التذكّر العقلي لا اللساني، والذي يرادفه الذُكر (بضم الذال) اسما للمصدر. فالذكر هو تذكُّر ما في تذكّره نفع ودفع ضر، وهو الاتعاظ والاعتبار.

والمعنى: أن القرآن سُهِّلت دلالته لأجل انتفاع الذكر بذلك التيسير، فجعلت سرعة ترتيب التذكّر على سماع القرآن بمنزلة منفعة للذكر لأنّه يشيع ويروج بها كما ينتفع طالب شيء إذا يُسّرت له وسائل تحصيله، وقُرّبت له أباعدها. ويؤول المعنى إلى: يسَّرنا القرآن للمتذكِّرين.

{ **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** } تفريع، والقول فيه كالقول في نظيره المتقدم آنفا [15]، إلّا أنّ بين الادِّكارين فرقا دقيقا؛ فالادِّكار السالف ادّكار اعتبار عن مشاهدة آثار الأمّة البائدة، والادّكار هنا ادّكار عن سماع مواعظ القرآن البالغة وفهم معانيه والاهتداء به.

{ **كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** [18] **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ** [19] **تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ** [20] }.

موقعها كموقع جملة { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ } [9]، فكان المقتضى أن تعطف عليها، وإنّما فصلت ليكون في الكلام تكرير التوبيخ والتهديد والنعي عليهم عقب قوله تعالى { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَر حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ } [5/4]. ومقام التوبيخ والنعي يقتضي التكرير.

{ **كَذَّبَتْ عَادٌ** } الحكم على عاد بالتكذيب عموم عرفي بناء على أنّ معظمهم كذّبوه وما آمن به إلّا نفر قليل، قال تعالى { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا } [هود:58].

{ **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** } تفريع على التذكير بتكذيب عاد، قبل أن يُذكر في الكلام ما يُشعر بأنّ الله عذّبهم فضلا عن وصف عذابهم. فالاستفهام مستعمل في التشويق للخبر الوارد بعده، وهو مجاز مرسل لأنّ الاستفهام يستلزم طلب الجواب والجواب يتوقف على صفة العذاب وهي لمّا تذكر فيحصل الشوق إلى معرفتها، وهو أيضا مُكَنًّى به عن تهويل ذلك العذاب. وفي هذا الاستفهام إجمال لحال العذاب، وهو إجمال يزيد التشويق إلى ما يبينه بعده. ونظيره قوله تعالى { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ - ثم قوله - عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ } [النبأ:2/1]

{ **وَنُذُرِ** } عطف على { عَذَابِي } بتقدير مضاف دلّ عليه المقام، والتقدير: وعاقبة نذري. أي: كيف كان تحقيق الوعيد الذي أنذرهم. أي: هي هنا موعظة من تحقّق وعيد الله إيّاهم.

نُذر: جمع نذير بالمعنى المصدري، كما تقدم في [5]، وقد علمت بما ذكرنا أنّ جملة { فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ } هذه ليست تكرير لنظيرها السابق في خبر قوم نوح [16]، ولا اللاحق في آخر قصة عاد [21]، للاختلاف الذي علمته بين مفادها ومفاد مماثلها وإن اتّحدت ألفاظهما.

والبليغ يتفطن للتغاير بينهما فيصرفه عن توهّم أن تكون هذه تكريرا، فإنّه لمّا لم يسبق وصف عذاب عاد لم يستقم أن تكون تعجيبا من حالة عذابهم.

{ **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ** }

بيان للإجمال الذي في قوله تعالى { فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ }. وهو في صورة جواب الاستفهام الصوري. وكلتا الجملتين يفيد تعريضا بتهديد المشركين بعذاب على تكذيبهم.

وجملة البيان إنّما تصف حال العذاب دون حال الإنذار أو حال رسولهم، وهو اكتفاء، لأنّ التكذيب يتضمّن مجيء نذير إليهم، وفي مفعول { كَذَّبَتْ عَادٌ } المحذوف إشعار برسولهم الذي كذّبوه، وبَعْث الرسول وتكذيبهم إيّاه يتضمّن الإنذار، لأنّهم لمّا كذّبوه حقّ عليهم إنذارهم.

{ **عَلَيْهِمْ** } تعدية إرسال الريح إلى ضميرهم هي كإسناد التكذيب إليهم بناء على الغالب، وقد أنجى الله هودا

والذين معه كما علمت آنفا، أو هو عائد إلى المكذِّبين بقرينة قوله تعالى { كَذَّبَتْ عَادٌ }.
الصرصر: الشديدة القوية يكون لها صوت، وتقدّم في [فصلت:16].
{ **يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ** } أوّل أيام الريح التي أَرسلت على عاد، كما في قوله تعالى { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ } [فصلت:16]، وقوله { سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً } [الحاقة:7].
النحس: سوء الحال.
{ **يَوْمِ نَحْسٍ** } من إضافة الزمان إلى ما يقع فيه، كقولهم: يوم فتح مكّة. وإنّما يضاف اليوم إلى النحس باعتبار المنحوس، فهو يوم نحس للمعذبين ويوم نصر للمؤمنين. وليس في الأيام يوم يوصف بنحس أو بسعد لأنّ كلّ يوم تحدث فيه نحوس لقوم وسعود لآخرين، وما يروى من أخبار في تعيين بعض أيّام السنة للنحس هو من أغلاط القصّاصين فلا يلقي المسلم الحقّ إليها سمعه.
{ **مُسْتَمِرٌّ** } صفة { نَحْسٍ }، أي: نحس دائم عليهم، فعُلم من الاستمرار أنّه أبادهم إذ لو نجوا لما كان النحس مستمرّا. وليس صفة لـ { يَوْمِ } إذ لا معنى لوصفه بالاستمرار. وتقدّم الكلام في اشتقاق مستمر عند قوله تعالى { وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } [2]. ويجوز أن يكون من المرارة مستعارة للكراهية والنفرة فهو وصف كاشف لأنّ النحس مكروه.
النزع: الإزالة بعنف لئلّا يبقى اتصال بين المزال وبين ما كان متّصلا به، ومنه نزع الثياب.
الأعجاز: جمع عَجُز: وهو أسفل الشيء، وشاع إطلاق العجز على آخر الشيء، لأنّهم يعتبرون الأجسام منتصبة على الأرض فأوّلاها ما كان إلى السماء وآخرها ما يلي الأرض.
وأطلق الأعجاز هنا على أصول النخل، لأنّ أصل الشجرة هو في آخرها ممّا يلي الأرض.
{ **مُنْقَعِرٍ** } اسم فاعل انقعر مطاوع قعره، أي: بلغ قعره بالحفر، يقال: قعر البئر إذا انتهى إلى عمقها.
أي: كأنّهم أعجاز نخل قُعرت دواخله، وذلك يحصل لعود النخل إذا طال مكثه مطروحا.
منقعر: وصف روعي في إفراده وتذكيره صورة لفظ نخل دون عدد مدلوله خلافا لما في قوله تعالى { كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ } [الحاقة:7]، وقوله تعالى { وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ } [الرحمان:11].
وسئل المبرّد: ما الفرق بين قوله تعالى { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً } [الأنبياء:81]، وقوله تعالى { جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ } [يونس:12]، وقوله تعالى { أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ } [الحاقة:7] وقوله تعالى { أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ }؟ فقال: كل ما ورد عليك من هذا الباب فإن شأت رددته إلى اللفظ تذكيرا أو إلى المعنى تأنيثا ".

{ **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** } [21].

تكرير لنظيره السابق عقب قصة قوم نوح [16]، لأنّ مقام التهويل والتهديد يقتضي تكرير ما يفيدهما.

والاستفهام هنا على حالة العذاب، وهي الحالة الموصوفة في قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً - إلى قوله – مُنْقَعِرٍ } [20/19]، والاستفهام مستعمل في التعجيب.

{ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** } [22].

تكرير لنظيره السابق في خبر قوم نوح [17].

{ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ** [23] **فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ** [24] **أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ** [25] }.

القول في موقعها كالقول في موقع جملة { كَذَّبَتْ عَادٌ } [18]. وكذلك القول في إسناد حكم التكذيب إلى ثمود، وهو اسم القبيلة، معتبر فيه الغالب الكثير. فإنّ صالحا قد آمن به نفر قليل، كما حكاه الله في [الأعراف:75].

ثمود: ممنوع من الصرف باعتبار العَلَمية والتأنيث المعنوي، أي: على تأويل الاسم بالقبيلة.

النُذر: جمع نذير الذي هو اسم مصدر أنذر، أي: كذَّبوا بالإنذارات التي أنذرهم الله بها على لسان رسوله.

وإنّما فُصِّل تكذيب ثمود وأُجمِل تكذيب عاد لقصد بيان المشابهة بين تكذيب ثمود وتكذيب قريش، إذ تشابهت أقوالهم.

{ **فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ** } القول في انتظام هذه الجملة بعد جملة { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ } كالقول في جملة { فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا } [9] بعد جملة { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ } [9].

وهذا قول قالوه لرسولهم لمّا أنذرهم بالنُذر، لأنّ قوله تعالى { كَذَّبَتْ } يؤذن بمخبر، إذ التكذيب يقتضي وجود مُخبر. وهو كلام شافهوا به صالحا، وهو الذي عَنَوْه بقولهم { أَبَشَرًا مِنَّا }. وعدلوا عن الخطاب إلى الغيبة.

{ **أَبَشَرًا** } انتصب على المفعولية لـ { نَتَّبِعُهُ } على طريقة الاشتغال، وقُدِّم لاتصاله بهمزة الاستفهام لأنّ حقَّها التصدير واتصلت به دون أن تدخل على { نَتَّبِعُهُ } لأنّ محل الاستفهام الإنكاري هو كون البشر متبوعا لا اتباعهم له، ومثله { أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا }، وهذا من دقائق مواقع أدوات الاستفهام كما بُيِّن في علم المعاني.

أي: أنكروا أن يرسل الله إلى الناس بشرا مثلهم، أي: لو شاء الله لأرسل ملائكة.

{ **وَاحِداً** } وصف، إمّا بمعنى أنّه منفرد في دعوته لا أتباع له ولا نصراء، أي: ليس ممَّن يُخشى، أي: بعكس قول أهل مدين { وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ } [هود:91]. وإمّا بمعنى أنّه من جملة آحاد

الناس، أي: ليس من أفضلنا. وإمّا بمعنى أنّه منفرد في ادعاء الرسالة لا سلف له فيها.

{ **إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ** } تعليل لإنكار أن يتّبعوا بشرا منهم، تقديره: أنتبعك وأنت بشر واحد منا.

{ **إِذاً** } حرف جواب هي رابطة الجملة بالتي قبلها.

{ **لَفِي** } للظرفية المجازية، جعلوا تلبّسهم بالضلال والجنون كتلبّس المظروف بالظرف.

الضلال: عدم الاهتداء إلى الطريق، أرادوا: إنّا إذن مخطئون في أمرنا.

{ **سُعُرٍ** } الجنون، يقال بضم العين وسكونها. وفسَّر أبن عباس السُّعر بالعذاب، على أنّه جمع سعير.

{ **أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا** } تعليل للاستفهام الإنكاري.

{ **أُلْقِيَ** } حقيقته رُمِيَ من اليد إلى الأرض، وهو هنا مستعار لإنزال الذكر من السماء، قال تعالى { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً } [المزمل:5].

{ **مِنْ بَيْنِنَا** } حال من ضمير { عَلَيْهِ }، أي: كيف يُلقى عليه الذكر دونا، يريدون أنّ فيهم من هو أحقّ منه.

{ **بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ** } إضراب عن ما أنكروه بقولهم { أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا }، أي: لم ينزل الذكر عليه من بيننا بل هو كذّاب فيما ادعاه، بطِر متكبّر.

{ **أَشِرٌ** } (بكسر الشين وتخفيف الراء) أسم فاعل **أَشِر**، إذ فرح وبَطَر. المعنى: هو معجب بنفسه مدع.

{ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ } [26].

مقول قول محذوف دلّ عليه السياق تقديره: قلنا لنذيرهم. وذلك مبني على أنّ قوله تعالى آنفا { فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ } [25]، كلام أجابوا به نذارة صالح إيّاهم المقدّرة من قوله { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ } [23].

{ **سَيَعْلَمُونَ** } في قراءة الجمهور، وقرأ ابن عامر وحمزة { سَتَعْلَمُونَ } (بتاء الخطاب)، وهي تحتمل أن يكون هذا حكاية كلام من الله لصالح على تقدير: قلنا له: قل لهم، ففيه حذف قول. ويحتمل أن يكون خطابا من الله لهم بتقدير: قلنا لهم ستعلمون. ويحتمل أن يكون خطابا للمشركين على جعل الجملة معترضة.

{ **غَداً** } للزمن المستقبل القريب. والمراد به في الآية يوم نزول عذابهم المستقرب. أي: حين يرون المعجزة وتلوح لهم بوارق العذاب يعلمون أنّهم الكذّابون الأشرون لا صالح.

{ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ [27] وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ [28] فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ [29] }.

بيان لجملة { سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ } [26]، باعتبار ما تضمَّنته الجملة المبيَّنة (بفتح الياء) من الوعيد وتقريب زمانه وأنّ فيه تصديق الرسول الذي كذَّبوه.

{ **إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ** } إشارة إلى قصّة معجزة صالح أنّه أخرج لهم ناقة من صخرة، وكانت تلك المعجزة مقدِّمة الأسباب التي عُجِّل لهم العذاب لأجلها، فذِكْر هذه القصة في جملة البيان توطئة وتمهيد.

الإرسال: مستعار لجعلها آية لصالح. وقد عُرف خلق خوارق العادات لتأييد الرسل باسم الإرسال في القرآن كما قال تعالى { وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً } [الإسراء:59]. شبهت الناقة بشاهد أرسله الله لتأييد رسوله. وهذا مؤذن بأنّ في هذه الناقة معجزة، وقد سمَّاها الله آية في قوله حكاية عنهم وعن صالح { فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ } [الشعراء:155/154].

{ **مُرْسِلُو النَّاقَةِ** } اسم الفاعل مستعمل في الاستقبال مجازا بقرينة قوله تعالى { فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ }، عدل على أن يقال: سنرسل، إلى صيغة اسم الفاعل الحقيقية في الحال <u>لتقريب زمن الاستقبال من زمن الحال</u>.

{ **فِتْنَةً لَهُمْ** } حال مقدّر، أي: تفتنهم. وتقدير معنى الكلام: إنّا مرسلو الناقة آية لك وفتنة لهم.

{ **فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ** } عُدّي الارتقاب إلى ضميرهم على تقدير مضاف يقتضيه الكلام لأنّه <u>لا يرتقب ذواتهم وإنّما يرتقب أحوالا تحصل لهم</u>. والمعنى: فارتقب ما يحصل لهم من الفتنة عند ظهور الناقة.

الارتقاب: الانتظار، ارتقب مثل: رقب، وهو أبلغ دلالة من رقب، لزيادة المبنى فيه.

الاصطبار: الصبر القوي، وهو كالارتقاب أيضا أقوى دلالة من الصبر، أي: أصبر صبرا لا يعتريه ملل ولا ضجر، أي: أصبر على تكذيبهم ولا تيأس من النصر عليهم، وحُذف المتعلّق ليعمّ كلّ حال تستدعي الضجر. <u>التقدير</u>: وأصطبر على أذاهم وعلى ما تجده في نفسك من انتظار النصر.

{ **وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ** } معطوفة على جملة { إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ } باعتبار أنّ الوعد بخلق آية الناقة يقتضي كلاما محذوفا، تقديره: فأرسلنا لهم الناقة وقلنا نبئهم أنّ الماء قسمة بينهم. على طريقة العطف والحذف، ومثل هذا الحذف كثير في إيجاز القرآن.

{ **الْمَاءُ** } التعريف للعهد، أي: ماء القرية الذي يستقون منه، فإنّ لكلّ محلة ينزلها قوم ماءً لسقياهم، قال تعالى { وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ } [القصص:23].

{ **قِسْمَةٌ** } أي: مقسوم، فهو من الإخبار بالمصدر للتأكيد والمبالغة.

{ **بَيْنَهُمْ** } الضمير عائد إلى المعلوم من المقام بعد ذكر الماء، إذ من المتعارف أنّ الماء يستقي منه أهل

القرية لأنفسهم وماشيتهم، ولمّا ذُكرت الناقة عُلم أنّها لا تستغني عن الشرب فغُلِّب ضمير العقلاء على ضمير الناقة الواحدة، وإذ لم يكن للناقة مالك خاص أمر الله لها بنوبة في الماء. وقد جاء في قوله تعالى { قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ } [الشعراء:155].

وهذا مبدأ الفتنة، فقد روي أنّ الناقة كانت في يوم شربها تشرب ماء البئر كلّه فشحُّوا بذلك وأضمروا صدّها عن الماء، فأبلغهم صالح أنّ الله ينهاهم عن أن يمسُّوها بسوء.

الشِرب: (بكسر الشين) نوبة الاستقاء من الماء.

{ **مُحْتَضَرٌ** } (بفتح الضاد) اسم مفعول من الحضور وهو ضدّ الغيبة. وهذا من جملة ما أُمر رسولهم بأن ينبّئهم به. أي: لا يحضر القوم في يوم شرب الناقة، وهي بإلهام الله لا تحضر في أيام شرب القوم.

{ **فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ** } فنادوا صاحبهم الذي أغروه بقتلها وهو (قُدَار بن سالف)، ويعرف عند العرب بـ (أحمر). ولم أقف على سبب وصفه بأحمر وأحسب أنّه لبياض وجهه . ففي الحديث: " **بُعثت إلى الأحمر والأسود** ".

وكان (قُدَار) من سادتهم وأهل العزّة منهم، وشبَّهه النبيّ صلى الله عليه وسلم بأبي زمعة (يعني الأسود بن المطلب بن أسد) في قوله: فانتُدب لها رجل ذو منعة في قومه كأبي زَمعة.

{ **فَنَادَوْا** } نداؤهم إيّاه نداء الإغراء بالناقة، وإنّما نادوه لأنّه مشتهر بالإقدام وقلّة المبالاة لعزّته.

{ **صَاحِبَهُمْ** } للإشارة إلى أنّهم راضون بفعله، إذ هم مصاحبون له وممالئون.

{ **تَعَاطَى** } مطاوع عاطاه وهو مشتقّ من: عطا يعطو، إذا تناول. وصيغة تفاعل تقتضي تعداد الفاعل، شُبِّه تخوُّف القوم من قتلها لِمَا أنذرهم به رسولهم من الوعيد وتردُّدهم في الإقدام على قتلها بالمعاطاة، فكلّ واحد حين يُحجم عن مباشرة ذلك ويشير بغيره كأنّه يعطي ما بيده إلى يد غيره حتّى أخذه (قُدَار).

{ **فَعَقَرَ** } عطف بالفاء للدلالة على سرعة إتيانه ما دعوه لأجله.

العقر: أصله ضرب البعير بالسيف على عراقيبه ليسقط إلى الأرض جاثيا فيتمكن الناحر من نحره. وغلب إطلاقه على قتل البعير، كما هنا، إذ ليس المراد أنّه عقرها بل قتلها بنبله.

{ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ } [30].

القول فيه كالقول في نظيره الواقع في قصة قوم نوح [16]، فليس هو تكريرا ولكنّه خاص بهذه القصة.

{ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ } [31]

جواب قوله تعالى { فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ } [30]، فهو مثل موقع قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ } [19] في قصة عاد كما تقدّم.

الصيحة: الصاعقة، وهي المعبَّر عنها بـ (الطاغية) في [الحاقة:5]، وبـ (الرجفة) في [الأعراف:78] ، وهي صاعقة عظيمة خارقة للعادة أهلكتهم، ولذلك وُصفت بـ **{ واحِدَةً }** للدلالة على أنّها خارقة للعادة إذ أتت على قبيلة كاملة وهم أصحاب الحجر.

{ فَكَانُوا } بمعنى: فصاروا، وتجيء (كان) بمعنى (صار) حين يراد بها كون متجدِّد لم يكن من قبل.

الهشيم: ما يبسَ وجفَّ من الكلأ ومن الشجر، وهو مشتق من (الهَشْم) وهو الكَسْر، لأنّ اليابس من ذلك يصير سريع الانكسار. والمراد هنا شي خاص منه وهو ما جفّ من أغصان العُضاه والشوك وعظيم الكلأ كانوا يتّخذون منه حظائر لحفظ أغنامهم من الريح والعادية، ولذلك أضيف الهشيم إلى المحتضر.

{ الْمُحْتَظِرِ } (بكسر الظاء المعجمة) الذي يعمل الحظيرة ويبنيها، وذلك بأنّه يجمع الهشيم ويلقيه على الأرض ليرصفه بعد ذلك سياجا لحظيرته، فالمشبَّه به هو الهشيم المجموع في الأرض قبل أن يُسيَّج، ولذلك قال { كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ } ولم يقل: كهشيم الحظيرة، لأنّ المقصود بالتشبيه حالته قبل أن يرصَّف ويصفَّف وقبل أن تُتَّخذ منه الحظيرة.

{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [32].

تكرير ثان بعد نظيريه السالفين في قصة قوم نوح [17]، وقصة عاد [22]، تذييلا لهذه القصة كما ذُيِّلت بنظيريه القصتان السالفتان، اقتضى التكرير مقام الامتنان والحثّ على التدبّر بالقرآن لأنّ التدبّر فيه يأتي بتجنّب الضلال ويرشد إلى مسالك الاهتداء.

{ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ [33] **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ** [34] **نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ** [35] **}**.

القول في مفرداته كالقول في نظائره، وقصة قوم لوط تقدّمت في [الأعراف:80-84] وغيرها.

{ قَوْمُ لُوط } عُرف قوم لوط بالإضافة إليه، إذ لم يكن لتلك الأمّة اسم يعرفون به عند العرب.

ولم يُحْكَ هنا ما تلقّى به قوم لوط كما حُكي في القصص الثلاث قبل هذه، وقد حُكي ذلك في سورة الأعراف وفي [هود:77-83]، وفي [الحجر:57-79]، لأنّ سورة القمر بُنيت على تهديد المشركين عن إعراضهم عن

الاتعاظ بآيات الله التي شاهدوها وآثار آياته على الأمم الماضية التي علموا أخبارها وشهدوا آثارها، فلم يكن ثمّة مقتض لتفصيل أقوال تلك الأمم إلّا ما كان منها مشابها لأقوال المشركين في تفصيله، ولم تكن أقوال قوم لوط بتلك المثابة، فلذلك أقتصر فيها على حكاية ما هو مشترك بينهم وبين المشركين؛ وهو تكذيب رسولهم وإعراضهم عن نذره.

{ **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً** } استئناف بياني ناشئ عن الإخبار عن قوم لوط بأنّهم كذّبوا بالنذر.

الحاصب: الريح التي تحصب، أي: ترمي بالحصباء ترفعها من الأرض لقوّتها، وتقدّم في قوله تعالى { فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً } [العنكبوت:40].

{ **إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ** } الاستثناء حقيقي لأنّ آل لوط من جملة قومه.

آل لوط: قرابته وهم بناتُه، ولوط داخل بدلالة الفحوى. وقد ذُكر في آيات أخرى أنّ زوجة لوط لم يُنجها الله ولم يذكر ذلك هنا اكتفاء بما وقع ذكره، وتنبيها على أنّ من لا يؤمن بالرسول لا يُعد من آله، كما قال تعالى { يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ} [هود:46].

{ **بِسَحَرٍ** } أي: في وقت السحر، للإشارة إلى إنجائهم قبيل حلول العذاب بقومهم، لقوله بعده { وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ }.

{ **نِعْمَةً** }انتصب على الحال من ضمير المتكلّم، أي: إنعاما منّا.

{ **مِنْ عِنْدِنَا** } تنويه بشأن هذه النعمة لأنّ ظرف { عِنْدَ } يدلّ على الادّخار والاستئثار مثل { لَدُنْ } في قوله تعالى { منْ لَدُنَّا }. فذلك أبلغ من أن يقال: نعمة منّا أو أنعمنا.

{ **كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ** } معترضة، وهي استئناف بياني عن جملة { نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ } باعتبار ما معها من الحال، أي: إنعاما لأجل أنّه شكر، ففيه إيماء بأنّ إهلاك غيرهم لأنّهم كفروا، وهذا تعريض بإنذار المشركين وبشارة للمؤمنين.

{ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ } [36].

عطف على جملة { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً } [34].

{ **لَقَدْ** } تأكيد الكلام بلام القسم وحرف التحقيق يقصد منه تأكيد الغرض الذي سيقت القصة لأجله، وهو موعظة قريش الذين أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتماروا بالنذر.

البطشة: المرّة من البطش، وهو أخذ بعنف لعقاب ونحوه، وتقدّم في قوله تعالى { أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا } [الأعراف:195]، وهي هنا تمثيل للإهلاك السريع مثل قوله { يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى } [الدخان:16].

التماري: تفاعل من المِراء وهو الشك. وصيغة المفاعلة للمبالغة. وضُمِّنت معنى: كذّبوا فعدي بـ (الباء)، وتقدّم عند قوله تعالى { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى } [النجم:55].

{ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ } [37].

إجمال لما ذُكر في غير هذه السورة في قصة قوم لوط أنّه نزل به ضيف فرام قومه الفاحشة بهم وعجز لوط عن دفع قومه إذ اقتحموا بيته وأنّ الله أعمى أعينهم فلم يروا كيف يدخلون.

المراودة: محاولة رضى الكاره شيئا بقَبول ما كرهه، وهي مفاعلة من راد يرود رودا، إذا ذهب ورجع في أمر، مُثِّلت هيئة من يُكرِّر المراجعة والمحاولة بهيئة المنصرف ثم الراجع. وضمِّن الفعل معنى دفعوه وصرفوه فعدي بـ { عَنْ }.

وأسند المراودة إلى ضمير قوم لوط، وإن كان المراودون نفرًا منهم، لأنّ ما راودوا عليه هو مراد جميع القوم بقطع النظر عن تعيين من يفعله.

{ **عَنْ ضَيْفِهِ** } يتعلّق بفعل { رَاوَدُوهُ } بتقدير مضاف، أي: عن تمكينهم من ضيوفه.

{ **فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ** } مقول قول محذوف دل عليه سياق الكلام للنفر الذين طُمست أعينهم: وهو العمى. أي: ألقى الله في نفوسهم أنّ ذلك عقاب لهم.

{ **وَنُذُرِ** } عطف على العذاب باعتبار أنّ العذاب تصديق للنذر، أي: ذوقوا آثار نُذري، بتقدير مضاف.

{ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ } [38].

القول في تأكيده بلام القسم تقدّم آنفا في نظيره.

التصبيح: الكون في زمن الصباح وهو أوّل النهار.

البكرة: أوّل النهار وهو وقت الصبح، ذُكر هنا للدلالة على تعجيل العذاب لهم. وقد جاء في الآية الأخرى قوله تعالى { إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ } [هود:81].

{ **عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ** } العذاب الثابت الدائم الذي يجري على قوّة واحدة، لم يقلع حتّى استأصلهم. وكان عذابهم الخسف ومطر الحجارة، وهو مذكور في سورة الأعراف وسورة هود.

{ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ } [39].

تفريع قول محذوف خوطبوا به مراد به التوبيخ؛ إمّا بأن ألقي في روعهم عند حلول العذاب، وإمّا بأن ألقى الله في أسماعهم صوتا. والخطاب لجميع الذين أصابهم العذاب المستقرّ، وبذلك لم تكن هذه الجملة تكريرا.

{ فَذُوقُوا } استعمل الذوق في الإحساس بالعذاب مجازا مرسلا بعلاقة التقييد في الإحساس.

{ نُذُرِ } حذفت ياء المتكلّم تخفيفا.

وفائدة الإعلام بما قيل لهم في الموضعين أن يتجدّد عند استماع كلّ نبإ من ذلك إدّكار للمشركين واتعاظ.

{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [40].

تكرير ثالث تنويها بشأن القرآن للخصوصية التي تقدّمت في المواضع التي كُرّر فيها نظيره وما يقاربه وخاصة في نظيره الموالي هو له. ولم يُذكر هنا { فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ } [30]، اكتفاء بحكاية التنكيل بقوم لوط في التعريض بتهديد المشركين.

{ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ [41] **كَذَّبُوا بِآياتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ** [42] **}.**

لمّا كانت دعوة موسى عليه السلام غير موجّهة إلى أمّة القبط، وغير مراد منها التشريع لهم، ولكنّها موجَّهة إلى فرعون وأهل دولته، الذين بأيديهم تسيير أمور المملكة، ليسمحوا بإطلاق بني إسرائيل من الاستعباد ويمكّنوهم من الخروج مع موسى، خُصّ بالنذر هنا آل فرعون، أي: فرعون وآله لأنّه يصدر عن رأيهم، ألا ترى أنّ فرعون لم يستأثر بردّ دعوة موسى بل قال لمن حوله { أَلا تَسْتَمِعُونَ } [الشعراء:25]، وقال { فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } [الشعراء:35]، وقالوا { أَرْجِهْ وَأَخَاهُ } [الشعراء:36].

ولذلك لم يكن أسلوب الإخبار عن فرعون ومن معه مماثلا لأسلوب الإخبار عن قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، إذ صدر الإخبار عن أولئك بجملة **{ كَذَّبَتْ }** وخولف في الإخبار عن فرعون فصدر بجملة **{ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ }** وإن كان مآل هذه الأخبار الخمسة متماثلا.

{ وَلَقَدْ جَاءَ } القول في تأكيد الخبر بالقسم وحرف التحقيق كالقول في نظائره المتقدّمة.

الآل: القرابة، ويطلق مجازا على من له شدّة اتصال بالشخص، كما في قوله تعالى { أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } [غافر:46]. وكان الملوك الأقدمون ينوطون وزارتهم ومشاورتهم بقرابتهم لأنّهم يأمنون كيدهم.

النُّذر: جمع نذير: اسم مصدر بمعنى الإنذار. ووجه جمعه أنّ موسى كرَّر إنذارهم.

وإسناد التكذيب إليهم بناء على ظاهر حالهم وإلّا فقد آمن منهم رجل واحد كما في سورة غافر.

{ **كَذَّبُوا بِآياتِنَا كُلِّهَا** } بدل اشتمال من جملة { جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ }، لأن مجيء النذر إليهم ملابس للآيات، وظهور الآيات مقارن لتكذيبهم بها، فمجيء النذر مشتمل على التكذيب لأنّه مقارن مقارنه.

{ **بِآيَاتِنَا** } إشارة إلى آيات موسى المذكورة في قوله { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ } [الأعراف:133]، وهي تسع آيات؛ منها الخمس المذكورة في آية الأعراف والأربع الأخر هي: (انقلاب العصا حية - ظهور يده بيضاء - سِنو القحط - انفلاق البحر).

{ **كُلِّهَا** } تأكيد لـ { بِآيَاتِنَا }، إشارة إلى كثرتها وأنّهم لم يؤمنوا بشيء منها.

الأخذ: مستعار للانتقام، وقد تقدّم عند قوله تعالى { أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ } [النحل:47/46]. وهذا الأخذ هو إغراق فرعون ورجال دولته وجنده الذين خرجوا لنصرته كما تقدّم في [الأعراف:136].

{ **أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ** } انتصب على المفعولية المطلقة مُبيِّنا لنوع الأخذ بأفظع ما هو معروف للمخاطبين من أخذ الملوك والجبابرة.

العزيز: الذي لا يُغلب. و**المقتدر**: الذي لا يَعْجِز. وأريد بذلك أنّه أخذ لم يبق على العدو.

{ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ } [43].

هذه الجملة كالنتيجة لحاصل القصص عن الأمم التي كذّبت الرسل، ولذلك فصلت ولم تعطف. وقد غُيِّر أسلوب الكلام من كونه موجَّها للرسول صلى الله عليه وسلم إلى توجيهه للمشركين لينتقل من التعريض إلى التصريح اعتناء بمقام الإنذار والإبلاغ.

<u>والاستفهام يجوز</u> أن يكون على حقيقته، ويكون من المحسِّن البديعي الذي سمَّاه أهل الأدب بـ (تجاهل العارف). وهو هنا للتوبيخ لعدم اعتبارهم بما حل بأمثالهم حتّى كأنّهم يحسبون كفّارهم خيرا من الكفار الماضين المتحدَّث عن قصصهم.

{ **كُفَّارُكُمْ** } الضمير لأهل مكة وهم أنفسهم الكفار، فإضافة لفظ كفّار إلى ضميرهم إضافة بيانية.

{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي. وما يقدر بعدها من استفهام مستعمل في الإنكار. والتقدير: بل ألكم براءة في الزبر حتّى تكونوا آمنين من العقاب.

البراءة: الخلاص والسلامة ممّا يضرّ أو يشقّ أو يُكلِّف كلفة. والمراد هنا: الخلاص من المؤاخذة والمعاقبة.

{ **الزُّبُرِ** } جمع زبور، وهو الكتاب، وزبور بمعنى مزبور. أي: براءة كُتبت في كتب الله السالفة.

<u>المعنى</u>: ألكم براءة في الزبر أنّ كفاركم لا ينالهم العقاب الذي نال أمثالهم من الأمم السابقة.

والآية تؤذن بارتقاب عذاب ينال المشركين في الدنيا دون العذاب الأكبر.

{ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ [44] سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ [45] }.

{ **أَمْ** } منقطعة لإضراب انتقالي، والاستفهام المقدّر بعدها مستعمل في التوبيخ، فإن كانوا قد صرَّحوا بذلك فظاهر، وإن كانوا لم يصرِّحوا به فهو إنباء بأنّهم سيقولونه.

وغُيِّر أسلوب الكلام من الخطاب الموجَّه إلى المشركين بقوله { أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ } [43]، إلى أسلوب الغيبة رجوعا إلى الأسلوب الجاري من أول السورة بعد أن قُضي حقّ الإنذار بتوجيه الخطاب إلى المشركين.

والكلام بشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتعريض بالنذارة للمشركين مبني على أنّهم تُحدِّثهم نفوسهم بذلك وأنّهم لا يحسبون حالهم وحال الأمم التي سيقت إليهم قصصها متساوية، أي: نحن منتصرون على محمد صلى الله عليه وسلم لأنّه ليس رسول الله فلا يؤيّده الله.

{ **جَمِيعٌ** } اسم للجماعة الذين أمرهم واحد، وليس هو بمعنى الإحاطة.

المعنى: بل أيدعون أنّهم يغالبون محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأنّهم غالبون لأنّهم جميع لا يُغلبون.

منتصر: وصف { جَمِيعٌ } جاء بالإفراد مراعاة للفظ { جَمِيعٌ } وإنّ كان معناه متعدّدا.

{ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** } جواب عن قولهم { نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ }، فلذلك لم تعطف الجملة على التي قبلها. وهذا بشارة لرسوله صلى الله عليه وسلم.

الهَزْم: الغلب، والسين لتقريب المستقبل، كقوله تعالى { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ } [آل عمران:12]. وبني الفعل للمجهول لظهور أنّ الهازم المسلمون.

{ **الْجَمْع** } التعريف للعهد، أي: الجمع المعهود من قوله { نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ }ن والمعنى: سيهزم جمعهم. وهذا معنى قول النحاة: اللام عوض عن المضاف إليه.

{ **يُوَلُّونَ** } يجعلون غيرهم يلي، فهو يتعدَّى بالتضعيف إلى مفعولين، وقد حُذف مفعوله الأوّل هنا للاستغناء عنه إذ الغرض الإخبار عنهم بأنّهم إذا جاء الوغى يفرُّون ويولُّونكم الأدبار.

{ **الدُّبُرْ** } الظهر، وهو ما أدبر، أي: كان وراء، وعكسه القُبُل. وأُفرد الدبر، والمراد الجمع، لأنّه جنس يصدق بالمتعدِّد، أي: يولّي كلّ أحد منهم دبره، وذلك لرعاية الفاصلة ومزاوجة القرائن.

وقد ثبت في الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا خرج لصفّ القتال يوم بدر تلا هذه الآية قبل القتال، إيماء إلى تحقيق وعد الله بعذابهم في الدنيا.

رُوي عن عكرمة أنّ عمر بن الخطاب قال: لمّا نزلت { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } جعلت أقول: أي جمع يُهزم؟ فلمّا كان يوم بدر رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع، ويقول: { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } ". أي: لم يتبيَّن له المراد بالجمع الذي سيُهزم ويولِّي الدبر، فإنّه لم يكن يومئذ قتال ولا كان يخطر لهم ببال.

{ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } [46].

{ بَلِ } للإضراب الانتقالي، وهو انتقال من الوعيد بعذاب الدنيا، كما حلّ بالأمم قبلهم، إلى الوعيد بعذاب الآخرة. قال تعالى { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [السجدة:21].

وعذاب الآخرة أعظم فلذلك قال { وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ }، وقال في الآية الأخرى { وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } [طه:127]، وفي الآية الأخرى { وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى } [فصلت:16].

الساعة: عَلَم بالغلبة في القرآن على يوم الجزاء.

الموعد: يوم الوعد، وهو هنا وعد سوء، أي: وعيد. وهذا إجمال.

{ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } تفصيل لما أُجمل من الوعيد. ووجه العطف أنّه أريد جعله خبرا مستقلًّا.

{ أَدْهَى } اسم تفضيل من (دهاه) إذا أصابه بداهية. أي: داهية الخلود في النار أشدّ من داهية عذاب الدنيا.

أَمَرّ: أي: أشد مرارة. واستعيرت المرارة للإحساس بالمكروه، على طريقة تشبيه المعقول الغائب بالمحسوس المعروف.

{ وَالسَّاعَةُ } أعيدت دون أن يؤتى بضميرها لقصد التهويل، ولتكون الجملة مستقلة بنفسها فتسير كالمثل.

{ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ [47] يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ [48] }.

بيان لقوله { وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } [46].

{ إِنّ } اقتران الكلام بها لفائدتين: إحداهما، الاهتمام بصريحه الإخباري، وثانيهما، تأكيد ما تضمّنه من التعريض بالمشركين، لأنّ الكلام وإن كان موجَّها للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو لا يشك في ذلك، فإنّ المشركين يبلغهم ويشيع بينهم، وهم لا يؤمنون بعذاب الآخرة، فكانوا جديرين بتأكيد الخبر في جانب التعريض، فتكون { إِنّ } مستعملة في غرضيها من التوكيد والاهتمام.

{ الْمُجْرِمِينَ } التعبير عنهم بذلك إظهار في مقام الإضمار لإلصاق وصف الإجرام بهم.

الضلال: يطلق على ضدّ الهدى ويطلق على الخسران، وأكثر المفسّرين على أنّ المراد به هنا المعنى الثاني. فعن ابن عباس: المراد: الخسران في الآخرة.

{ سُعُرٍ } جمع سعير، وهو النار، وجمع السعير لأنّه قويّ شديد.

السحب: الجرّ، وهو في النار أشدّ من ملازمة المكان، لأنّ به يتجدّد مماسة نار أخرى، فهو أشد تعذيبا.

{ عَلَى وُجُوهِهِمْ } جُعل السحب على الوجوه إهانة لهم.

{ **ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** } مقول قول محذوف، والجملة مستأنفة. والذوق مستعار للإحساس. وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة والمجازاة.

المسّ: مستعمل في الإصابة على طريقة المجاز المرسل.

سقر: عَلَم على جهنم، ولذلك فهو ممنوع من الصرف للعَلَمية والتأنيث، لأنّ جهنم اسم مؤنث معنًى، اعتبروا فيه أنّ مسمَّاه نار والنار مؤنثة. وهو مشتقّ من السَّقْر (بسكون القاف) وهو التهاب في النار.

{ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** } [49].

استئناف وقع تذييلا لما قبله من الوعيد والإنذار والاعتبار بما حلّ بالمكذبين، وهو أيضا توطئة للقول اللاحق { وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ } [50]. والمعنى: إنّا خلقنا وفعلنا كلّ ما ذُكر من الأفعال وأسبابها وآلاتها، وسلطّناه على مستحقّيه لأنّا خلقنا كلّ شيء بقدر، أي: فإذا علمتم هذا فانتبهوا إلى أنّ ما أنتم عليه من التكذيب والإصرار المماثل لما كانت عليه الأمم السالفة.

واقتران الخبر بحرف (إنّ) يقال فيه ما قلناه في قوله { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ } [47].

الخلق: أصله إيجاد ذات بشكل مقصود، فهو حقيقة في إيجاد الذوات، ويطلق مجازا على إيجاد المعاني التي تشبه الذوات في التميّز والوضوح، كقوله تعالى { وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً } [العنكبوت:17].

فإطلاقه هنا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه.

{ **شَيْءٍ** } معناه موجود من الجواهر والأعراض، أي: خلقنا كل الموجودات جواهرها وأعراضها بقدر.

ومما يشمله عموم { كُلَّ شَيْءٍ } خلق جهنم للعذاب.

القدَر: (بتحريك الدال) مرادف القدْر (بسكونها)، وهو تحديد الأمور وضبطها.

{ **بِقَدَرٍ** } الباء للملابسة، والمجرور ظرف مستقر، فهو في حكم المفعول الثاني لفعل { خَلَقْنَاهُ } لأنّه مقصود بذاته، إذ ليس المقصود الإعلام بأنّ كل شيء مخلوق لله، فإنّ ذلك لا يحتاج إلى الإعلام به بله تأكيده، بل المقصود إظهار معنى العلم والحكمة في الجزاء، كما في قوله تعالى { وكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ } [الرعد:8].

وممّا يستلزمه معنى القدر أنّ كلّ شيء مخلوق هو جار على وفق علم الله وإرادته لأنّه خالق أصول الأشياء وجاعل القوى فيها لتنبعث عنها آثارها ومتولّداتها، فهو عالم بذلك ومريد لوقوعه.

أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت { يوَم يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [49/48].

قال عياض في (الإكمال): " ظاهره أنّ المراد بالقدر هنا مراد الله ومشيئته وما سيق به قدره من ذلك، وهو دليل مساق القصة التي نزلت بسببها الآية ".

وقال الباجي في (المنتقى): يحتمل من جهة اللغة معاني: أحدها: أن يكون القدر ههنا بمعنى مُقدَّر لا يزاد عليه ولا يُنقص، كما قال تعالى { جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً } [الطلاق: 3].

والثاني: أنّ المراد أنّه بقدرته، كما قال تعالى { بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ } [القيامة:4].

والثالث: بقدر، أي: نخلقه في وقته، أي: نقدّر له وقتا نخلقه فيه ".

قلتُ: وإذا كان لفظ { بِقَدَرٍ } جنسا، ووقع معلّقا بفعل متعلق بضمير { كُلِّ شَيْءٍ } الدال على العموم، كان ذلك اللفظ عاما للمعاني كلّها، فكلّ ما خلقه الله فخلْقه بقدر جاريا على حكمته.

{ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ } [50].

عطف على قوله تعالى { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [49]، فهو داخل في التذييل، أي: خلقنا كل شيء بعلم، فالمقصود منه وما يصلح له معلوم لنا، فإذا جاء وقته الذي أعدَّدناه حصل دفعة واحدة لا يسبقه اختبار ولا نظر ولا بداء. وسياتي تحقيق هذا الكلام في آخر تفسير هذه الآية.

والغرض من هذا تحذيرهم من أن يأخذهم العذاب بغتة في الدنيا عند وجود ميقاته وسبق إيجاد أسبابه ومقوّماته التي لا يتفطّنون لوجودها، وفي الآخرة بحلول الموت ثم بقيام الساعة.

{ **وَمَا أَمْرُنَا** } الأمر هنا يجوز أن يكون بمعنى الشأن، فيكون المراد به الشأن المناسب لسياق الكلام، وهو شأن الخلق والتكوين، أي: وما شأن خلقنا الأشياء.

ويجوز أن يكون بمعنى الإذن، فيراد به أمر التكوين وهو المعبر عنه بكلمة { كُنْ }، والمآل واحد.

{ **إِلَّا وَاحِدَةٌ** } على الاحتمالين في معنى { **أَمْرُنَا** }، وصف لموصوف محذوف دلّ عليه الكلام، وهو خبر عن أمرنا. والتقدير: إلّا كلمة واحدة، وهي كلمة { **كُنْ** }، كما في قوله تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يس:82].

وصح الإخبار عن (أَمْرُنَا)، وهو مذكّر، بـ { وَاحِدَةً }، وهو مؤنّث، باعتبار معنى الأمر هنا (كلمة: كن).

والمقصود: الكناية عن أسرع ما يمكن من السرعة، أي: وما أمرنا إلّا كلمة واحدة.

ولا ينافي هذا قوله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } [قّ:38] ونحوه، فخلق ذلك قد انطوى على مخلوقات كثيرة لا يحصر عددها، كما قال تعالى { يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ } [الزمر:6]، فكلّ خلق منها يحصل بكلمة واحدة كلمح البصر على أن بعض المخلوقات تتولّد منه أشياء وآثار فيعتبر تكوينه عند إيجاد أوله.

{ **كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** } في موضع الحال من { أَمْرِنَا }، باعتبار الإخبار عنه بأنّه كلمة واحدة، أي: حصول مرادنا بأمرنا كلمح بالبصر، وهو تشبيه في سرعة الحصول. وهذا تشبيه في تقريب الزمان.

وقد جاء في قوله تعالى { وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ } [النحل:77]، فزيد هنالك { أوْ هُوَ أَقْرَبُ } لأنّ المقام للتحذير من مفاجأة الناس بها قبل أن يستعدّوا لها، فهو حقيق بالمبالغة في التقريب، بخلاف ما في هذه الآية فإنّه لتمثيل أمر الله وذلك يكفي فيه مجرد التنبيه إذ لا يتردّد السامع في التصديق به.
وقد أفادت هذه الآية إحاطة علم الله بكل موجود، وإيجاد الموجودات بحكمة، وصدورها عن إرادة وقدرة.
اللمح: النظر السريع واخلاس النظر، يقال: لمح البصر، ويقال: لمح البرق، كما يقال: لمع البرق.

{ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** } [51].
التُفت من طريق الغيبة إلى الخطاب، ومرجع الخطاب هم المشركون لظهور أنّهم المقصود بالتهديد، وهو تصريح بما تضمَّنه قوله تعالى { أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ } [43]، فهو بمنزلة النتيجة لقوله تعالى { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ - إلى قوله - كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ } [50/49].
{ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا** } الخبر مستعمل في التهديد بالإهلاك وبأنّه يفاجئهم قياسا على إهلاك الأمم السابقة، وهذا المقصد هو الذي لأجله أُكِّد الخبر بـ (لام القسم) وحرف التحقيق (قد)، أمّا إهلاك من قبلهم فهو معلوم لا يحتاج إلى تأكيد. ولك أن تجعل مناط التأكيد إثبات أنّ إهلاكهم كان لأجل شركهم وتكذيبهم الرسل.
فإنّ قوم نوح بقوا أزمانا فما أقلعوا عن إشراكهم حتّى أخذهم الطوفان بغتة. وكذلك عاد وثمود كانوا غير مصدِّقين بحلول العذاب بهم فلمّا حل بهم العذاب بغتة، وقوم فرعون خرجوا مقتفين موسى وبنى إسرائيل واثقين بأنّهم مدركوهم واقتربوا منهم وظنوا أنهم تمكنوا منهم فما راعهم إلّا أن أنجى الله بني إسرائيل وانطبق البحر على الآخرين.
المعنى: فكما أهلكنا أشياعكم نهلككم، وكذلك كان، فإن المشركين لمّا حلوا ببدر، وهم أوفر عَددا وعُددا، كانوا واثقين بأنّهم هازمون المسلمين، فقال أبو جهل وقد ضرب فرسه وتقدّم إلى الصف: اليوم ننتصر من محمد وأصحابه، فلم تجُل الخيل جولة حتّى شاهدوا صناديدهم صرعى ببدر : أبا جهل وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأميّة ين خلف وغيرهم، في سبعين رجلًا، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة.
الأشياع : جمع شيعة: الجماعة الذين يؤيّدون من يضافون إليه، وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً } [الأنعام:159].
وأطلق الأشياع هنا على الأمثال والأشباه في الكفر على طريق الاستعارة بتشبيههم، وهم منقرضون، بأشياع موجودين.
{ **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** } تفريع على الإنذار، وتقدّم نظيره [15].

{ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ } [52].

يجوز أن يكون الضمير المرفوع في قوله { فَعَلُوهُ } عائدا إلى { أَشْيَاعَكُمْ } [51]، والمعنى : أهلكناهم بعذاب الدنيا وهيَّأنا لهم عذاب الآخرة، فكُتب في صحائف الأعمال كلّ ما فعلوه من الكفر وفروعه.

فالكتابة في الزبر وقعت هنا كناية عن لازمها وهو المحاسبة، وعن لازم لازمها وهو العقاب بعد المحاسبة.

وهذا الخبر مستعمل في التعريض بالمخاطبين بأنّهم إذا تعرَّضوا لما يوقع عليهم الهلاك في الدنيا فليس ذلك قصارى عذابهم فإنّ بعده حسابا عليه في الآخرة يعذبون به، وهذا كقوله تعالى { وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ } [الطور:47].

ويجوز عندي أن يكون الضمير المرفوع في قوله { فَعَلُوهُ } عائدا إلى { الْجَمْعُ } من قوله { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ } [45]، أو إلى { الْمُجْرِمِينَ } في قوله تعالى { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ } [47]، والمعنى: كل شيء فعله المشركون من شرك وأذى للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمسلمين معدود عليهم مهيّأ عقابهم عليه لأنّ الإخبار عن إحصاء أعمال الأمم الماضية قد أغنى عنه الإخبار عن إهلاكهم، فالأجدر تحذير الحاضرين من سوء أعمالهم.

{ **وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ** } العموم مراد به خصوص ما كان من الأفعال عليه مؤاخذة في الآخرة.

{ **الزُّبُرِ** } جمع زَبور وهو الكتاب، مشتق من الزَّبر، وهو الكتابة، والجمع هنا لأنّ لكل واحد كتاب أعماله، قال تعالى { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتَابَكَ } [الإسراء:14/13].

{ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ } [53].

كالتذييل للآية السابقة، فكلّ صغير وكبير أعمّ من كل شيء فعلوه، والمعنى: كلّ شيء حقير أو عظيم مستطر، أي: مكتوب مسطور، أي: كل ذلك يعلمه الله ويحاسب عليه. كناية عن العلم والجزاء.

مستطر: اسم مفعول من سطر إذا كتب سطورا، كقوله تعالى { وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ } [الطور:2].

وهذا المعنى كقوله تعالى { وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [الأنعام: 59]، وقوله تعالى { لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [سبأ:3].

الصغير: مستعار للشيء الذي لا يهتم به الناس ولا يؤاخذ عليه فاعله، أو لا يؤاخذ مؤاخذة عظيمة.

الكبير: مستعار لما له شأن من الصلاح وما له شأن من الفساد وما هو دون ذلك، وذلك أفضل الأعمال الصالحة وما دونه من الأعمال الصالحة، وكذلك كبائر الإثم والفواحش وما دونها من اللمم والصغائر.

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ [54] فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ [55] }.

استئناف بياني، لأنّه لمّا ذُكر أنّ كلّ صغير وكبير مستطر، على إرادة أنّه معلوم ومجازا عليه، وقد عُلم جزاء المجرمين من قوله تعالى { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ } [47]، كانت نفس السامع بحيث تتشوّف إلى مقابل ذلك من جزاء المتّقين، وجريا على عادة القرآن من تعقيب النذارة بالبشارة والعكس.

{ **إِنَّ** } افتتاح هذا الخبر بحرف التأكيد للاهتمام به.

{ **فِي جَنَّاتٍ** } للظرفية المجازية التي هي بمعنى التلبّس القويّ، كتلبس المظروف بالظرف.

نَهَر: (بفتحتين) لغة في نَهْر (بفتح فسكون). والمراد به اسم الجنس الصادق المتعدد لقوله تعالى {مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ } [الأعراف:43].

{ **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ** } إمّا في محل الحال من المتّقين، وإمّا في محل الخبر الثاني لـ { إنّ }.

المقعد: مكان القعود. والقعود هنا بمعنى الإقامة المطمئنّة، كما في قوله { اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ } [التوبة:46].

الصدق: أصله مطابقة الخبر للواقع ثم شاعت له استعمالات نشأت عن مجاز أو استعارة ترجع إلى معنى مصادفة أحد الشيء على ما يناسب كمال أحوال جنسه، فيقال: هو رجل صدق، أي: تمام رُجلة.

قال تعالى { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ } [يونس:93]، وجاء في دعاء لإبراهيم عليه السلام { وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ } [الشعراء:84].

فمقعد صدق: مقعد كامل في جنسه مرضي للمستقرّ فيه فلا يكون فيه استفزاز ولا زوال.

{ **عِنْدَ** } عندية تشريف وكرامة، والظرف خبر بعد خبر.

المليك: فعيل بمعنى المالك مبالغة وهو أبلغ من ملك.

مقتدر: أبلغ من قادر وتنكيره للتعظيم.

بسم الله الرحمان الرحيم

سورة الرَّحمان

وردت تسميتها بـ (**سورة الرحمان**) بأحاديث منها ما رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله قال: **"** خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ سورة الرحمان **"**.

وفي تفسير القرطبي أنّ قيس بن عاصم المنقري قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم: **"** اتل عليّ ما أُنزل عليك، فقرأ عليه سورة الرحمان، فقال : أعدها، فأعادها ثلاثا، فقال : إنّ له لحلاوة ..."

وكذلك سُمِّيت في كتب السنة وفي المصاحف.

ووجه تسميه هذه السورة بسورة الرحمان أنّها ابتدئت باسمه تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ [1].

وذكر في الإتقان : أنّها تُسمَّى (عروس القرآن) لما رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عليّ أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" لكلّ شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمان "**. وهذا لا يعدوا أن يكون ثناءً على هذه السورة وليس هو من التسمية في شيء، كما روي أنّ سورة البقرة (فسطاط القرآن).

[الظاهر أن معنى: **لكل شيء عروس،** أي: لكل جنس أو نوع واحد من جنسه يزيّنه، تقول العرب: عرائس الإبل أكرمها، فإنّ العروس تكون مكرّمة مزينة مرعية من جمع الأهل بالخدمة والكرامة].

وقد قيل: **إنّ سبب نزولها** قول المشركين المحكي في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمِ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ [الفرقان:60].

وقيل: سبب نزولها قول المشركين ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل:103]. فردّ الله عليهم بأنّ الرحمان هو الذي علم النبيّ صلى الله عليه وسلم القرآن.

وهي مكية في قول جمهور الصحابة والتابعين، وروى جماعة عن ابن عباس أنّها مدنية، نزلت في صلح الحديبية عندما أبى سُهيل بن عمرو أن يكتب في رسم الصلح ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾.

ونُسب إلى ابن مسعود أيضا أنّها مدنية. وعن ابن عباس : أنّها مكية سوى آية منها هي قوله ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كَلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [29].

والأصح أنّها مكية كلّها، وهي في مصحف ابن مسعود أوّل المفصل.

وإذا صح أنّ سبب نزولها قول المشركين ﴿ وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ تكون نزلت بعد سورة الفرقان.
وهي من أوّل السور نزولا فقد أخرج أحمد في مسنده بسند جيد عن أسماء بنت أبي بكر قالت: " سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصلّي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون، يقرأ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [13] ". وهذا يقتضي أنّها نزلت قبل سورة الحجر.
وللاختلاف فيها لم تُحقّق رتبتها في عداد نزول سور القرآن.
وإذ كان الأصح إنّها مكية وأنّها نزلت قبل سورة الحج وقبل سورة النحل وبعد سورة الفرقان، فالوجه أن تُعد ثالثة وأربعين بعد سورة الفرقان وقبل سورة فاطر.
وعَدَّ أهل المدينة ومكة آيها سبعا وسبعين، وأهل الشام والكوفة ثمانا وسبعين لأنّهم عدوا { الرَّحْمَنُ } آية، وأهل البصرة ستا وسبعين.

أغراض السورة

*/ ابتدئت بالتنويه بالقرآن.

*/ التنويه بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله هو الذي علّمه القرآن ردًّا على مزاعم المشركين الذين يقولون ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل:103]، وردًّا على مزاعمهم أنّ القرآن أساطير الأوّلين أو أنّه سحر أو كلام كاهن أو شعر.

*/ التذكير بدلائل قدرة الله تعالى في ما أتقن صنعه مُدمجًا في ذلك التذكير بما في ذلك كلّه من نعم.

*/ خلق الجنّ وإثبات جزائهم.

*/ الموعظة بالفناء، وتخلّص من ذلك إلى التذكير بيوم الحشر والجزاء.

*/ ختمت بتعظيم الله والثناء عليه.

*/ تخلّل ذلك إدماج التنويه بشأن العدل، والأمر بتوفية أصحاب الحقوق حقوقهم، وحاجة الناس إلى رحمة الله فيما خلق لهم، ومن أهمها نعمة العلم ونعمة البيان، وما أعدّ من الجزاء للمجرمين ومن الثواب والكرامة للمتّقين، ووصف نعيم المتّقين.

ومن بديع أسلوبها

- ✓ افتتاحها الباهر باسمه ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء الله لم يتقدّمه غيره.
- ✓ التعداد في مقام الامتنان والتعظيم بقوله ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إذ تكرّر فيها إحدى وثلاثين مرة وذلك أسلوب عربي جليل كما سنبينه.

{ **الرَّحْمَنُ [1] عَلَّمَ الْقُرْآنَ [2]** }.

يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ { الرَّحْمَنُ } وَاقِعًا مَوْقِعَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي يُرَادُ لَفْظُهَا لِلتَّنْبِيهِ عَلَى غَلَطِ الْمُشْرِكِينَ إِذْ أَنْكَرُوا هَذَا الِاسْمَ قَالَ تَعَالَى { قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الْفُرْقَانِ:60]، فَيَكُونُ مَوْقِعُهُ شَبِيهًا بِمَوْقِعِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ.

فَكَانَ فِيهِ تَشْوِيقُ جَمِيعِ السَّامِعِينَ إِلَى الْخَبَرِ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ، إِذْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ لَا يَأْلَفُونَ هَذَا الِاسْمَ، فَهُمْ إِذَا سَمِعُوا هَذِهِ الْفَاتِحَةَ تَرَقَّبُوا مَا سَيَرِدُ مِنَ الْخَبَرِ عَنْهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ إِذَا طَرَقَ أَسْمَاعَهُمْ هَذَا الِاسْمُ اسْتَشْرَفُوا لِمَا سَيَرِدُ مِنَ الْخَبَرِ الْمُنَاسِبِ لِوَصْفِهِ هَذَا مِمَّا هُمْ مُتَشَوِّقُونَ إِلَيْهِ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ.

وَأُوثِرَ اسْتِحْضَارُ الْجَلَالَةِ باسم الرحمان دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَأْبَوْنَ ذِكْرَهُ، فَجَمَعَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ بَيْنَ رَدَّيْنِ عَلَيْهِمْ، مَعَ مَا لِلْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى ثَبَاتِ الْخَبَرِ، وَلِأَنَّ مُعْظَمَ هَذِهِ السُّورَةِ تَعْدَادٌ لِلنِّعَمِ وَالْآلَاءِ فافتتاحها باسم الرحمان بَرَاعَةُ اسْتِهْلَالٍ.

وَقَدْ أُخْبِرَ عَنْ هَذَا الِاسْمِ بِأَرْبَعَةِ أَخْبَارٍ مُتَتَالِيَةٍ غَيْرِ مُتَعَاطِفَةٍ رَابِعُهَا هُوَ جُمْلَةُ { الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ } [5]، لِأَنَّهَا جِيءَ بهَا على نمط التعديد فِي مقَام الامتنان والتوقيف على الْحَقَائِق والتبكيت للخصم فِي إنكارهم صَرِيح بَعْضهَا، وإعراضهم عَن لَوَازِم بَعْضهَا كَمَا سَيَأْتِي، فَفَصَلَ جُمْلَتِي { خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ } [4/3] عَنْ جُمْلَةِ { عَلَّمَ الْقُرْآنَ } خِلَافَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ لِنُكْتَةِ التَّعْدِيدِ لِلتَّبْكِيتِ.

وَعطَفَ عَلَيْهَا أَرْبَعَةً أخر بِحرف الْعَطف مِنْ قَوْلِهِ تعالى { وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ } [6-10]، وَكُلُّهَا دَالَّةٌ عَلَى تَصَرُّفَاتِ اللَّهِ لِيُعْلِمَهُمْ أَنَّ الِاسْمَ الَّذِي اسْتَنْكَرُوهُ هُوَ اسْمُ اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسَمَّى وَاحِدٌ.

{ **عَلَّمَ الْقُرْآنَ** } جِيءَ بِالْمُسْنَدِ فِعْلًا مُؤَخَّرًا عَنِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ لِإِفَادَةِ التَّخْصِيصِ، أَي: هُوَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ لَا بَشَرٌ عَلَّمَهُ، وَحَذَفَ الْمَفْعُولَ الْأَوَّلَ لِفِعْلِ عَلَّمَ الْقُرْآنَ لِظُهُورِهِ، وَالتَّقْدِيرُ: عَلَّمَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِأَنَّهُمُ ادَّعَوْا أَنَّهُ مُعَلَّمٌ وَإِنَّمَا أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ مُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَهَذَا تَبْكِيتٌ أَوَّلٌ.

{ **الْقُرْآنَ** } انْتَصَبَ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ ثَانٍ لِفِعْلِ { عَلَّمَ }، وَهَذَا الْفِعْلُ هُنَا مُعَدًّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ لِأَنَّهُ وَرَدَ عَلَى أَصْلِ مَا يُفِيدُهُ التَّضْعِيفُ مِنْ زِيَادَةِ مَفْعُولٍ آخَرَ مَعَ فَاعِلِ فِعْلِهِ الْمُجَرَّدِ، وَهَذَا الْمَفْعُولُ هُنَا يَصْلُحُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ التَّعْلِيمُ إِذْ هُوَ اسْمٌ لِشَيْءٍ مُتَعَلِّقٍ بِهِ التَّعْلِيمُ وَهُوَ الْقُرْآنُ، كَقَوْلِه تَعَالَى { وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ } [المائدة:110]، وَقَوْلِهِ تعالى { وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ } [يس:69].

وَقَدْ عَدَّدَ اللَّهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ نِعَمًا عَظِيمَةً عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً فِي الْآخِرَةِ وَقَدَّمَ أَعْظَمَهَا وَهُوَ نِعْمَةُ الدِّينِ لِأَنَّ بِهِ صَلَاحَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، وَبِاتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُ يَحْصُلُ لَهُمُ الْفَوْزُ فِي الْآخِرَةِ. وَلَمَّا كَانَ دِينُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلَ الْأَدْيَانِ، وَكَانَ هُوَ الْمُنَزَّلَ لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْإِبَّانِ، وَكَانَ مُتَلَقًّى مِنْ أَفْضَلِ الْوَحْيِ وَالْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ وَهُوَ الْقُرْآنُ، قَدَّمَهُ فِي الْإِعْلَامِ وَجَعَلَهُ مُؤْذِنًا بِمَا يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الدِّينِ وَمُشِيرًا إِلَى النِّعَمِ الْحَاصِلَةِ

بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَدْيَانِ كَمَا قَالَ تعالى { هَذَا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } [الْأَنْعَام:92].
وَمُنَاسَبَةُ اسْمِ الرحمان لِهَذِهِ الِاعْتِبَارَاتِ مُنْتَزَعَةٌ مِنْ قَوْلِهِ تعالى { وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ } [الْأَنْبِيَاء:107].
الْقُرْآنَ: اسْمٌ غَلَبَ عَلَى الْوَحْيِ اللَّفْظِيِّ الَّذِي أُوحِيَ بِهِ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْإِعْجَازِ بِسُورَةٍ مِنْهُ وتعبُّد أَلْفَاظه.

{ خَلَقَ الْإِنْسانَ } [3]

خَبَرٌ ثَانٍ، وَالْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ جِنْسُ الْإِنْسَانِ وَهَذَا تَمْهِيدٌ لِلْخَبَرِ الْآتِي وَهُوَ {عَلَّمَهُ الْبيانَ } [4]. وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ لَا يُنَازِعُونَ فِيهَا وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا أَعْرَضُوا عَنْ مُوجِبِهَا، وَهُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، سِيقَ لَهُمُ الْخَبَرُ بِهَا عَلَى أُسْلُوبِ التَّعْدِيدِ بِدُونِ عَطْفٍ، كَالَّذِي يَعُدُّ لِلْمُخَاطَبِ مَوَاقِعَ أَخْطَائِهِ وغفلته، وَهَذَا تبكيث ثَانٍ.
فَفِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ دَلَالَتَانِ:
أُولَاهُمَا: الدَّلَالَةُ عَلَى تَفَرُّدِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِلَهِيَّةِ.
وَثَانِيَتُهُمَا: الدَّلَالَةُ عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْإِنْسَانِ.
الْخَلْقُ: نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ لِأَنَّ فِيهَا تَشْرِيفًا لِلْمَخْلُوقِ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ غَيَاهِبِ الْعَدَمِ إِلَى مَبْرَزِ الْوُجُودِ فِي الْأَعْيَانِ، وَقَدَّمَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِمَا عَلِمْتَ آنِفًا مِنْ مُنَاسَبَةِ إِرْدَافِهِ بِتَعْلِيمِ الْقُرْآنِ.
وَمَجِيءُ الْمُسْنَدِ فِعْلًا بَعْدَ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ يُفِيدُ تَقَوِّي الْحُكْمِ. وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَهُ لِلتَّخْصِيصِ بِتَنْزِيلِهِمْ مَنْزِلَةَ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ لِأَنَّهُمْ عبدُوا غيره.

{ عَلَّمَهُ الْبيانَ } [4].

خَبَرٌ ثَالِثٌ تَضَمَّنَ الِاعْتِبَارَ بِنِعْمَةِ الْإِبَانَةِ عَنِ الْمُرَادِ، وَالِامْتِنَانِ بِهَا بَعْدَ الِامْتِنَانِ بِنِعْمَةِ الْإِيجَادِ، أَيْ: عَلَّمَ جِنْسَ الْإِنْسَانِ أَنْ يُبَيِّنَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ لِيُفِيدَه غَيْرُهُ وَيَسْتَفِيدُ هُوَ.
الْبَيَانُ: الْإِعْرَابُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ مِنَ الْمَقَاصِدِ وَالْأَغْرَاضِ وَهُوَ النُّطْقُ وَبِهِ تَمَيُّزُ الْإِنْسَانِ عَنْ بَقِيَّةِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ، فَهُوَ مَنْ أَعْظَمَ النِّعَمِ. وَأمّا الْبَيَان بِغَيْر النُّطْقِ مِنْ إِشَارَةٍ وَإِيمَاءٍ وَلَمْحِ النَّظَرِ فَهُوَ أَيْضًا مِنْ مُمَيِّزَاتِ الْإِنْسَانِ وَإِنْ كَانَ دُونَ بَيَانِ النُّطْقِ.
وَمَعْنَى تَعْلِيمِ اللَّهِ الْإِنْسَانَ الْبَيَانَ: أَنَّهُ خَلَقَ فِيهِ الِاسْتِعْدَادَ لِعِلْمِ ذَلِكَ وَأَلْهَمَهُ وَضْعَ اللُّغَةِ لِلتَّعَارُفِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها } [الْبَقَرَة:31]. وَفِيه الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ نِعْمَةَ الْبَيَانِ أَجَلُّ النِّعَمِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

وَفِيهِ مِنَ التَّبْكِيتِ مَا عَلِمْتَهُ آنِفًا، وَوَجْهُهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَشْكُرُوهُ عَلَى نِعْمَةِ الْبَيَانِ إِذْ صَرَفُوا جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ بَيَانِهِمْ فِيمَا يُلْهِيهِمْ عَنْ إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ وَفِيمَا يُنَازِعُونَ بِهِ مَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْهدى.

{ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ } [5].

خَبَرٌ رَابِعٌ عَنِ الرحمان. وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ عَلَى التَّفَرُّدِ بِخَلْقِ كَوْكَبِ الشَّمْسِ وَكُرَةِ الْقَمَرِ، وَامْتِنَانٌ بِمَا أَوْدَعَ فِيهِمَا مِنْ مَنَافِعَ لِلنَّاسِ، وَنِظَامِ سَيْرِهِمَا الَّذِي بِهِ تَدْقِيقُ نِظَامِ مُعَامَلَاتِ النَّاسِ وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ عِنْدَ تَغَيُّرَاتِ أَجْوَائِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ. وَيَتَضَمَّنُ الْإِمْتِنَان بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مَنَافِعِهِمْ.

وَفِي كَوْنِ هَذَا الْخَبَرِ جَارِيًا عَلَى أُسْلُوبِ التَّعْدِيدِ مَا قَدْ عَلِمْتَ آنِفًا مِنَ التَّبْكِيتِ، وَوَجْهُهُ أَنَّهُمْ غَفَلُوا عَمَّا فِي نِظَامِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ذَلِكَ النِّظَامُ مِنْ تَفَرُّدِ اللَّهِ بِتَقْدِيرِهِ، فَاشْتَغَلَ بَعْضُهُمْ بِعِبَادَةِ الشَّمْسِ وَبَعْضُهُمْ بِعِبَادَةِ الْقَمَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } [فصلت:37].

وَجِيءَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ اسْمِيَّةً لِلتَّهْوِيلِ بِالْإِبْتِدَاءِ بِاسْمِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ حُسْبَانَهُمَا ثَابِتٌ لَا يَتَغَيَّرُ مُنْذُ بَدْءِ الْخَلْقِ مُؤْذِنٌ بِحِكْمَةِ الْخَالِقِ. وَاسْتُغْنِيَ، بِجَعْلِ اسْمِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مُسْنَدًا إِلَيْهِمَا، عَنْ تَفْكِيكِ الْمُسْنَدِ إِلَى مُسْنَدَيْنِ: أَحَدُهُمَا: يَدُلُّ عَلَى الْإِسْتِدْلَالِ، وَالْآخَرُ يَدُلُّ عَلَى الْإِمْتِنَانِ، كَمَا وَقَعَ فِي قَوْلِهِ {خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ } [الرحمان:4/3].

الْحُسْبَانُ: مَصْدَرُ حَسَبَ بِمَعْنَى عَدَّ مِثْلَ الْغُفْرَانِ. وَالْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ، وَالتَّقْدِيرُ: كَائِنَانِ بِحُسْبَانٍ، أَيْ: بِمُلَابَسَةِ حُسْبَانٍ، أَيْ: لِحِسَابِ النَّاسِ مَوَاقِعَ سَيْرِهِمَا. وَالْحُسْبَانُ كِنَايَةٌ عَنِ انْتِظَامِ سَيْرِهِمَا انْتِظَامًا مُطَّرِدًا لَا يَخْتَلُّ حِسَابُ النَّاسِ لَهُ وَالتَّوْقِيتُ بِهِ. وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً } [الْأَنْعَامِ:96].

وَإِسْنَادُ هَذِهِ الْمُلَابَسَةِ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مَجَازِيٌّ عَقْلِيٌّ لِأَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ سَبَبٌ لِتَلَبُّسِ النَّاسِ بِحِسَابِهِمَا، وَاقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ دُونَ بَقِيَّةِ الْكَوَاكِبِ وَإِنْ كَانَ فِيهَا حُسْبَانُ الْأَنْوَاءِ، وَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ، مِثْلِ الْجَوْزَاءِ، وَالشِّعْرَى، وَمَنْزَلَةِ الْأَسَدِ، وَالثُّرَيَّا، لِأَنَّ هَذَيْنِ الْكَوْكَبَيْنِ هُمَا الْبَادِيَانِ لِجَمِيعِ النَّاسِ لَا يَحْتَاجُ تَعَقُّلُ أَحْوَالِهِمَا إِلَى تَعْلِيمِ تَوْقِيتٍ مِثْلَ الْكَوَاكِبِ الْأُخْرَى.

<u>وَلِأَنَّ السُّورَةَ بُنِيَتْ عَلَى ذِكْرِ الْأُمُورِ الْمُزْدَوجَةِ</u>، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُزْدَوِجَانِ فِي مَعَارِفِ عُمُومِ النَّاسِ، فَالشَّمْسُ كَوْكَبٌ سَمَاوِيٌّ لِأَنَّهُ أَعْلَى مِنَ الْأَرْضِ، وَالْقَمَرُ كَوْكَبٌ أَرْضِيٌّ لِأَنَّهُ دُونَ الْأَرْضِ وَتَابِعٌ لَهَا كَبَقِيَّةِ أَقْمَارِ الْكَوَاكِبِ، فَذِكْرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كَذِكْرِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْمَشْرِقِ وَالْمغْرب، والبحرين.

{ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ } [6].

عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ { الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ } [5]، عَطَفَ الْخَبَرَ عَلَى الْخَبَرِ لِلْوَجْهِ الَّذِي تَقَدَّمَ، لِأَنَّ سُجُودَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ انْتِقَالٌ مِنَ الْاِمْتِنَانِ بِمَا فِي السَّمَاءِ مِنَ الْمَنَافِعِ إِلَى الْاِمْتِنَانِ بِمَا فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ لَفْظَ النَّجْمُ وَاسِطَةَ الْاِنْتِقَالِ لِصَلَاحِيَّتِهِ لِأَنَّهُ يُرَادُ مِنْهُ نُجُومُ السَّمَاءِ وَمَا يُسَمَّى نَجْمًا مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ.

وَعُطِفَتْ الْجُمْلَةُ وَلَمْ تُفْصَلْ فَخَرَجَتْ مِنْ أُسْلُوبِ تَعْدَادِ الْأَخْبَارِ إِلَى أُسْلُوبِ عَطْفِ بَعْضِ الْأَخْبَارِ عَلَى بَعْضٍ.

فَالْإِخْبَارُ بِسُجُودِ النَّجْمِ وَالشَّجَرِ أُرِيدَ بِهِ الْإِيقَاظُ إِلَى مَا فِي هَذَا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى عَظِيمِ الْقُدْرَةِ دَلَالَةٍ رَمْزِيَّةٍ.

وَجُعِلَتِ الْجُمْلَةُ مُفْتَتَحَةً بِالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ لِتَكُونَ عَلَى صُورَةِ فَاتِحَةِ الْجُمْلَةِ الَّتِي عطفت هِيَ عَلَيْهَا. وَأُتِيَ بِالْمُسْنَدِ فِعْلًا مُضَارِعًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَجَدُّدِ هَذَا السُّجُودِ وَتَكَرُّرِهِ، عَلَى مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ } [الرَّعْد:15].

النَّجْمُ: يُطْلَقُ اسْمَ جَمْعٍ عَلَى نُجُومِ السَّمَاءِ، قَالَ تَعَالَى { وَالنَّجْمِ إِذا هَوى } [النَّجْم:1]، وَيُطْلَقُ مُفْرَدًا فَيُجْمَعُ عَلَى نُجُومٍ، قَالَ تَعَالَى { وَإِدْبارَ النُّجُومِ } [الطّور:49]. وَاختاره مُجَاهِدٍ.

وَيُطْلَقُ النَّجْمُ عَلَى النَّبَاتِ وَالْحَشِيشِ الَّذِي لَا سُوقَ لَهُ فَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالتُّرَابِ. وَبه قال ابْنِ عَبَّاسٍ.

الشَّجَرُ: النَّبَاتُ الَّذِي لَهُ سَاقٌ وَارْتِفَاعٌ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ.

السُّجُودُ: يُطْلَقُ عَلَى وَضْعِ الْوَجْهِ عَلَى الْأَرْضِ بِقَصْدِ التَّعْظِيمِ، وَيُطلق على الْوُقُوعُ عَلَى الْأَرْضِ مَجَازًا مُرْسَلًا بِعَلَاقَةِ الْإِطْلَاقِ، أَوِ اسْتِعَارَةً وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: " نَخْلَةٌ سَاجِدَةٌ "، إِذَا أَمَالَهَا حِمْلُهَا.

فَسُجُودُ نُجُومِ السَّمَاءِ نُزُولُهَا إِلَى جِهَاتِ غُرُوبِهَا، وَسُجُودُ نَجْمِ الْأَرْضِ الْتِصَاقُهُ بِالتُّرَابِ كَالسَّاجِدِ، وَسُجُودُ الشَّجَرِ تَطَأْطُؤُهُ بِهُبُوبِ الرِّيَاحِ وَدُنُوُّ أَغْصَانِهِ لِلْجَّانِينَ لِثِمَارِهِ وَالْخَابِطِينَ لِوَرَقِهِ، فَفِعْلُ يَسْجُدانِ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَيَيْنِ مَجَازِيَّيْنِ وَهُمَا الدُّنُوُّ لِلْمُتَنَاوِلِ وَالدَّلَالَةُ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْ شَبَّهَ ارْتِسَامَ ظِلَالِهِمَا عَلَى الْأَرْضِ بِالسُّجُودِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ } [الرَّعْد:15].

{ وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ [7] أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ [8] وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ [9] }.

اطَّرَدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أُسْلُوبُ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ مَا يُشْبِهُ الضِّدَّيْنِ بَعْدَ مُقَابَلَةِ ذِكْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ بِذِكْرِ النَّجْمِ وَالشَّجَرِ، فَجِيءَ بِذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاءِ وَخَلْقِ الْأَرْضِ. وَعَادَ الْكَلَامُ إِلَى طَرِيقَةِ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْمُسْنَدِ الْفِعْلِيِّ كَمَا فِي قَوْلِه تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ } [2/1].

{ **وَالسَّماءَ رَفَعَها** } رَفْعُ السَّمَاءِ يَقْتَضِي خَلْقَهَا. وَذُكِرَ رَفْعُهَا لِأَنَّهُ مَحَلُّ الْعِبْرَةِ بِالْخَلْقِ الْعَجِيبِ.

{ **رَفَعَها** } خلقهَا مَرْفُوعَة إِذْ كَانَت مَرْفُوعَةً بِغَيْرِ أَعْمِدَةٍ. عَلَى أَنَّ فِي مُجَرَّدِ الرَّفْعِ إِيذَانًا بِسُمُوِّ الْمَنْزِلَةِ وَشَرَفِهَا لِأَنَّ فِيهَا مَنْشَأَ أَحْكَامِ اللهِ وَمَصْدَرَ قَضَائِهِ، وَلِأَنَّهَا مَكَانُ الْمُلَائِكَةِ، وَهَذَا مِن اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ فِي حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ.

وَتَقْدِيمُ { السَّمَاءَ } عَلَى الْفِعْلِ النَّاصِبِ لَهُ زِيَادَةٌ فِي الِاهْتِمَامِ بِالِاعْتِبَارِ بِخَلْقِهَا.

{ **الْمِيزانَ** } أَصْلُهُ اسْمُ آلَةِ الْوَزْنِ، وَالْوَزْنُ تَقْدِيرُ تَعَادُلِ الْأَشْيَاءِ وَضَبْطُ مَقَادِيرِ ثِقَلِهَا وَهُوَ مِفْعَالٌ مِنَ الْوَزْنِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ } [الْأَعْرَاف:8]، وَشَاعَ إِطْلَاقُ الْمِيزَانِ عَلَى الْعَدْلِ بِاسْتِعَارَةِ لَفْظِ الْمِيزَانِ لِلْعَدْلِ عَلَى وَجْهِ تَشْبِيهِ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ.

<u>وَالْمِيزَانُ هَنَا مُرَادٌ بِهِ الْعَدْلَ</u>، مِثْلَ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ } [الْحَدِيد:25]، لِأَنَّهُ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ، أَيْ: عَيَّنَهُ لِإِقَامَةِ نِظَامِ الْخَلْقِ.

الْوَضْعُ: هُنَا مستعار للجعل فَهُوَ كَالْإِنْزَالِ فِي [الْحَدِيد:25]. وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيِّ : " وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بِئْرُ حَاءٍ وَأَنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ ". أَي: اجْعَلْهَا لِمَا يَدُلُّكَ اللَّهُ عَلَيْهِ. فَإِطْلَاقُ الْوَضْعِ فِي الْآيَةِ بَعْدَ ذِكْرِ رَفْعِ السَّمَاءِ مُشَاكَلَةٌ ضِدِّيَّةٌ وَإِيهَامُ طِبَاقٍ مَعَ قَوْلِهِ { رَفَعَها } فَفِيهِ مُحَسِّنَانِ بَدِيعِيَّانِ.

وَقَرَنَ ذَلِكَ مَعَ رَفْعِ السَّمَاءِ تَنْوِيهًا بِشَأْنِ الْعَدْلِ بِأَنْ نُسِبَ إِلَى الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَهُوَ عَالَمُ الْحَقِّ وَالْفَضَائِلِ، وَأَنَّهُ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ أَي: هُوَ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ. وَلذَلِك تكَرّر ذَكْر الْعَدْلِ مَعَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاءِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ } [الْحِجْر:85]، وَقَوْلُهُ تعالى { وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ مَا خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ } [الدُّخَانِ:39/38].

{ **أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ** } <u>يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (أَنْ) هنا تَفْسِيرِيَّةً</u> لِأَنَّ فِعْلَ وَضَعَ الْمِيزَانَ فِيهِ مَعْنَى أَمْرِ النَّاسِ بِالْعَدْلِ. وَفِي الْأَمْرِ مَعْنَى الْقَوْلِ دُونَ حُرُوفِهِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يَأْتِي تَفْسِيرُهُ بِحَرْفِ (أَنْ) التَّفْسِيرِيَّةِ. فَتَكُونُ (لَا) نَاهِيَةً. <u>وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (أَنْ) مَصْدَرِيَّةً</u> بِتَقْدِيرِ (لَامِ الْجَرِّ) مَحْذُوفَةٍ قَبْلَهَا. وَالتَّقْدِيرُ: لِئَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَعَلَى كِلَا الِاحْتِمَالَيْنِ يُرَادُ بِالْمِيزَانِ مَا يَشْمَلُ الْعَدْلَ وَيَشْمَلُ مَا بِهِ تَقْدِيرُ الْأَشْيَاءِ الْمَوْزُونَةِ وَنَحْوِهَا فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ. وَلَفْظُ الْمِيزانِ يَسْمَحُ بِإِرَادَةِ الْمَعْنَيَيْنِ عَلَى طَرِيقَةِ اسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْهِ.

الطُّغْيَانُ: دَحْضُ الْحَقِّ عَمْدًا وَاحْتِقَارًا لِأَصْحَابِهِ.

<u>فَمَعْنَى الطُّغْيَانِ فِي الْعَدْلِ</u> الِاسْتِخْفَافُ بِإِضَاعَتِهِ وَضَعْفُ الْوَازِعِ عَنِ الظُّلْمِ.

<u>وَمَعْنَى الطُّغْيَانِ فِي وَزْنِ الْمُقَدَّرَاتِ</u> تَطْفِيفُهُ.

{ **فِي الْمِيزانِ** } ظَرْفِيَّةٌ مَجَازِيَّةٌ تُفِيدُ النَّهْيَ عَنْ أَقَلِّ طُغْيَانٍ عَلَى الْمِيزَانِ، أَي: لَيْسَ النَّهْيُ عَنْ إِضَاعَةِ الْمِيزَانِ كُلِّهِ بَلِ النَّهْيُ عَنْ كُلِّ طُغْيَانٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ.

{ **وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ** } عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ { أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ } عَلَى احْتِمَالِ كَوْنِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهَا تَفْسِيرِيَّةً. وَعَلَى جُمْلَةِ { وَوَضَعَ الْمِيزانَ } على احْتِمَال كَون الْمَعْطُوفِ عَلَيْهَا تَعْلِيلًا.

الْإِقَامَةُ: جَعْلُ الشَّيْءِ قَائِمًا، وَهُوَ تَمْثِيلٌ لِلْإِتْيَانِ بِهِ عَلَى أكمل مَا يُرَاد لَهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تعالى { وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ } [الْبَقَرَةِ:3].

الْوَزْنُ: حَقِيقَتُهُ تَحْقِيقُ تَعَادُلِ الْأَجْسَامِ فِي الثِّقَلِ، وَهُوَ هَنَا مُرَادٌ بِهِ مَا يَشْمَلُ تَقْدِيرُ الْكَمِّيَّاتِ وَهُوَ الْكَيْلُ وَالْمِقْيَاسُ.

الْقِسْطُ: الْعَدْلُ وَهُوَ مُعَرَّبٌ مِنَ الرُّومِيَّةِ وَأَصْلُهُ (قِسْطَاسٌ) ثُمَّ اخْتُصِرَ فِي الْعَرَبِيَّةِ فَقَالُوا مَرَّةً: قِسْطَاسٌ، وَمَرَّةً: قِسْطٌ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ } [الْأَنْبِيَاءِ:47]. وَالْبَاءُ لِلْمُصَاحَبَةِ.
<u>وَالْمَعْنَى</u>: اجْعَلُوا الْعَدْلَ مُلَازِمًا لِمَا تَقُوِّمُونَهُ مِنْ أُمُورِكُمْ.

وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْهَدُونَ إِلَى التَّطْفِيفِ فِي الْوَزْنِ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ } [المطففين:1-3]. فَلَمَّا كَانَ التَّطْفِيفُ سُنَّةً مِنْ سُنَنِ الْمُشْركين تصدت الْآيَةِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَيْهِ.

الْإِخْسَارُ: جَعْلُ الْغَيْرِخَاسِرًا، وَالْخَسَارَةُ النَّقْصُ.

<u>فَعَلَى حَمْلِ الْمِيزَانِ عَلَى مَعْنَى الْعَدْلِ</u> يَكُونُ الْإِخْسَارُ جَعْلَ صَاحِبِ الْحَقِّ خَاسِرًا مَغْبُونًا.

<u>وعَلى حَمْلِ الْمِيزَانِ عَلَى مَعْنَى آلَةِ الْوَزْنِ</u> يَكُونُ الْإِخْسَارُ بِمَعْنَى النَّقْصِ، أَي: لَا تَجْعَلُوا الْمِيزَانَ نَاقِصًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ } [هود:84].

{ وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ [10] فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ [11] وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ [12] }.

عَطْفٌ عَلَى { وَالسَّماءَ رَفَعَها } [7]، وَهُوَ مُقَابِلُهُ فِي الْمُزَاوَجَةِ (الْوَضْعِ / الرَّفْعَ)، فَحَصَلَ مُحَسِّنُ الطِّبَاقِ مَرَّتَيْنِ.

{ **وَضَعَها لِلْأَنامِ** } خَفَضَهَا لَهُمْ، أَي: جَعَلَهَا تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ وَجُنُوبِهِمْ لِتَمْكِينِهِمْ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا بِجَمِيعِ مَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ مَنَافِعَ وَمُعَالَجَاتٍ. وَاللَّامُ فِي { لِلْأَنامِ } لِلْأَجَلِ.

الْأَنَامُ: اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ أَهْلِ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ فِيهِ، وَفَسَّرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ بِقَوْلِهِ: " الْخَلْقُ، وَهُوَ كُلُّ مَا ظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ فِيهَا رُوحٌ ". وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمْعٍ مِنَ التَّابِعِينَ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: أَنَّهُ الْإِنْسَانُ فَقَطْ. وَهُوَ اسْمُ جَمْعٍ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ. <u>وَسِيَاقُ الْآيَةِ يُرَجِّحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ **الْإِنْسَانُ**</u>، لِأَنَّهُ فِي مَقَامِ

الْإِمْتِنَانِ وَالْإِعْتِنَاءِ بِالْبَشَرِ، كَقَوْلِهِ تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً } [الْبَقَرَة:29].

{ **فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ** } مُبَيِّنَةٌ لِجُمْلَةِ السابقة، وَتَقْدِيمُ { فِيها } عَلَى الْمُبْتَدَأِ لِلِاهْتِمَامِ بِمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ الْأَرْضُ.

الْفَاكِهَةُ: اسْمٌ لِمَا يُؤْكَلُ تَفَكُّهًا لَا قُوتًا، مُشْتَقَّةٌ مِنْ فَكِهَ كَفَرِحَ، قَالَ تَعَالَى { فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ } [الْوَاقِعَة:65].

مثل الثِّمَار والمكسّرات مِنُ لَوْزٍ وَجَوْزٍ وَفُسْتُقٍ.

{ **وَالنَّخْلُ** } عطَف عَلَى الْفَاكِهَةِ، وَهُوَ شَجَرُ التَّمْرِ، وَهُوَ أَهَمُّ شَجَرِ الْفَاكِهَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ فِيهِمْ، وَهُوَ يُثْمِرُ أَصْنَافًا مِنَ الْفَاكِهَةِ مِنْ رَطْبٍ وَبُسْرٍ وَمِنْ تَمْرٍ، وَهُوَ فَاكِهَةٌ وَقُوتٌ.

{ **ذاتُ الْأَكْمامِ** } وَصْفٌ لِلتَّحْسِينِ، فَهُوَ اعْتِبَارٌ بِأَطْوَارِ ثَمَرِ النَّخْلِ، وَامْتِنَانٌ بِجَمَالِهِ وَحُسْنِهِ، كَقَوْلِهِ { وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النَّحْل:6]، فَامْتَنَّ بِمَنَافِعِهَا وَبِحُسْنِ مَنْظَرِهَا.

الْأَكْمَامِ: جَمْعُ كِمٍّ (بِكَسْرِ الْكَافِ) وَهُوَ وِعَاءُ ثَمَرِ النَّخْلَةِ، وَيُقَالُ لَهُ: الْكُفُرَّى، فَلَيْسَتِ الْأَكْمَامُ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فَتَعَيَّنَ أَنَّ ذِكْرَهَا مَعَ النّخل للتحسين.

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ: هُوَ الْحُبُّ الَّذِي لِنَبَاتِهِ سَنَابِلُ وَلَهَا وَرَقٌ وَقَصَبٌ فَيَصِيرُ تِبْنًا، وَذَلِكَ الْوَرَقُ وَالْقَصَبُ هُوَ الْعَصْفُ، أَي: الَّذِي تَعْصِفُهُ الرِّيَاحُ. وَهَذَا وَصَفٌ لِحَبِّ الشَّعِيرِ وَالْحِنْطَةِ، وَبِهِمَا قِوَامُ حَيَاةِ مُعْظَمِ النَّاسِ، وَكَذَلِكَ مَا أَشْبَهَهُمَا مِنْ نَحْوِ السُّلْتِ وَالْأُرْزِ.

وَسُمِّيَ الْعَصْفُ عَصْفًا لِأَنَّ الرِّيَاحَ تَعْصِفُهُ، أَيْ تُحَرِّكُهُ، وَوَصَفَ الْحَبَّ بِأَنَّهُ ذُو الْعَصْفِ لِلتَّحْسِينِ وَلِلتَّذْكِيرِ بِمِنَّةِ جَمَالِ الزَّرْعِ حِينَ ظُهُورِهِ فِي سُنْبُلِهِ فِي حُقُولِهِ، نَظِيرَ وَصْفِ النَّخْلِ بِذَاتِ الْأَكْمَامِ، وَلِأَنَّ فِي الْمَوْصُوفِ وَوَصْفِهِ أَقْوَاتَ الْبَشَرِ وَحَيَوَانِهِمْ.

الرَّيْحانُ: مَا لَهُ رَائِحَةٌ ذَكِيَّةٌ مِنَ الْأَزْهَارِ وَالْحَشَائِشِ وَهُوَ فَعْلَانُ مِنَ الرَّائِحَةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ بِهِ مَا لَهُ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ. وَهَذَا اعْتِبَارٌ وَامْتِنَانٌ بِالنَّبَاتِ الْمُودَعَةِ فِيهِ الْأَطْيَابُ مِثْلَ الْوَرْدِ وَالْيَاسَمِينِ وَمَا يُسَمَّى بالريحان الْأَخْضَر.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [13].

الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ المنن المدمجة مَعَ دَلَائِلِ صِدْقِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَقِّيَّةِ وَحْيِ الْقُرْآنِ، وَدَلَائِلُ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحِكْمَتُهُ بِاسْتِفْهَامٍ عَنْ تَعْيِينِ نِعْمَةٍ مِنْ نعم الله يَتَأَتَّى لَهُمْ إِنْكَارُهَا، وَهُوَ تَذْيِيلٌ لِمَا قَبْلَهُ.

أَيِّ: اسْتِفْهَامٌ عَنْ تَعْيِينِ وَاحِدٍ مِنَ الْجِنْسِ الَّذِي تُضَافُ إِلَيْهِ، وَهِيَ هُنَا مُسْتَعْمَلَةٌ فِي التَّقْرِيرِ بِذِكْرِ ضِدِّ مَا يُقَرِّبُهُ.

أَي: لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَجْحَدَ نِعَمَ اللهِ.

الْآلَاءُ: النِّعَمُ، جَمْعُ **إِلْيٍ** (بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ اللَّامِ)، وَ**أَلْيٍ** (بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ اللَّامِ وَيَاءٍ فِي آخِرِهِ)

وَيُقَالُ **أَلْوٌ** بِوَاوٍ عِوَضُ الْيَاءِ، وَهُوَ النِّعْمَةُ.

{ **رَبِّكُمَا** } ضَمِيرُ الْمُثَنَّى خِطَابٌ لِفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ بِالْقُرْآنِ. وَالْوَجْهُ عِنْدِي أَنَّهُ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَنْقَسِمُ إِلَيْهِمَا جِنْسُ الْإِنْسَانِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِه تعالى { خَلَقَ الْإِنْسانَ } [3]، وَهُمُ الْمُخَاطَبُونَ بِقَوْلِهِ تعالى { أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ } [8]، وَالْمُنْقَسِمُ إِلَيْهِمَا { لِلْأَنامِ } الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ. أَي: أَنَّ نِعَمَ اللهِ عَلَى النَّاسِ لَا يَجْحَدُهَا كَافِرٌ بَلْهَ الْمُؤْمِنُ. وَكُلُّ فَرِيقٍ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الْاِسْتِفْهَامُ بِالْمَعْنَى الَّذِي يُنَاسِبُ حَالَهُ.

وَالْمَقْصُودُ الْأَصْلِيُّ: التَّعْرِيضُ بِالْمُشْرِكِينَ وَتَوْبِيخِهِمْ عَلَى أَنْ أَشْرَكُوا فِي الْعِبَادَةِ مَعَ الْمُنْعِمِ غَيْرَ الْمُنْعِمِ، وَالشَّهَادَةُ عَلَيْهِمْ بِتَوْحِيدِ الْمُؤْمِنِينَ.

{ **تُكَذِّبانِ** } التَّكْذِيبُ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَى الْجَحْدِ وَالْإِنْكَارِ مَجَازًا لِتَشْنِيعِ هَذَا الْجَحْدِ.

وَقَالَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ: هُوَ خِطَابٌ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَهَذَا بَعِيدٌ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ لِخَطَابِ النَّاسِ وَوَعْظِهِمْ وَلَمْ يَأْتِ لِخِطَابِ الْجِنِّ، فَلَا يَتَعَرَّضُ الْقُرْآنُ لِخِطَابِهِمْ. وَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ الْجِنِّ فَهُوَ فِي سِيَاقِ الْحِكَايَةِ عَنْ تَصَرُّفَاتِ اللهِ فِيهِمْ وَلَيْسَ لِتَوْجِيهِ الْعَمَلِ بِالشَّرِيعَةِ.

{ **خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ** [14] **وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ** [15] }.

هَذَا انْتِقَالٌ إِلَى الْاِعْتِبَارِ بِخَلْقِ اللهِ الْإِنْسَانَ وَخَلْقِهِ الْجِنَّ.

وَالْقَوْلُ فِي مَجِيءِ الْمسند فعلا كَالْقَوْلِ فِي قَوْلِهِ تعالى { عَلَّمَ الْقُرْآنَ } [2].

{ **الْإِنْسانَ** } الْمُرَادُ آدَمُ وَهُوَ أَصْلُ الْجِنْسِ.

{ **مِنْ صَلْصالٍ** } تَقَدَّمَ نَظِيرِهِ فِي [الْحِجْرِ:26]. وَالصَّلْصَالُ: الطِّينُ الْيَابِسُ.

الْفَخَّارُ: الطِّينُ الْمَطْبُوخُ بِالنَّارِ وَيُسَمَّى الْخَزَفَ. وَظَاهِرُ كَلَامِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ قَوْلَهُ تعالى { كَالْفَخَّارِ } صِفَةٌ لِـ {صَلْصالٍ }، وَلَمْ يُعَرِّجُوا عَلَى فَائِدَةِ هَذَا الْوَصْفِ. وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنْ يَكُونَ كَالْفَخَّارِ حَالًا مِنَ الْإِنْسَانَ، أَي: خَلَقَهُ مِنْ صَلْصَالٍ فَصَارَ الْإِنْسَانُ كَالْفَخَّارِ فِي صُورَةٍ خَاصَّة وصلابة. وَالْمعْنَى: أَنَّهُ صَلْصَالٌ يَابِسٌ يُشْبِهُ يَبِسَ الطِّينِ الْمَطْبُوخِ، وَالْمُشَبَّهُ غَيْرُ الْمُشَبَّهِ بِهِ، وَقَدْ عَبَّرَ عَنْهُ بِالْحَمَأِ الْمَسْنُونِ، وَالطِّينِ اللَّازِبِ، وَالتُّرَابِ.

{ **الْجَانَّ** } الْجِنُّ، وَالْمُرَادُ بِهِ إِبْلِيسُ وَمَا خَرَجَ عَنْهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ، وَقَدْ حَكَى اللهُ عَنْهُ قَوْلَهُ { خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } [ص:76].

الْمارِجُ: الْمُخْتَلِطُ ،وَهُوَ اسْمُ فَاعِلٍ بِمَعْنَى اسْمِ الْمَفْعُولِ مِثْلِ دَافِقٍ، أَي: خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ خَلِيطٍ من النَّار، أَيْ: مُخْتَلِطٍ بِعَنَاصِرٍ أُخْرَى، إِلَّا أَنّ النَّار أَغْلَبُ عَلَيْهِ، كَمَا كَانَ التُّرَابُ أَغْلَبَ عَلَى تَكْوِينِ الْإِنْسَانِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: هُوَ خَلْقُ الْإِنْسَانِ بِقَرِينَةِ تَذْيِيلِه بِقَوْلِهِ تعالى { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [16]، وَإِنَّمَا قُرِنَ بِخَلْقِ الْجَانِّ إِظْهَارًا لِكَمَالِ النِّعْمَةِ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ مَادَّةٍ لَيِّنَةٍ قَابِلًا لِلتَّهْذِيبِ وَالْكَمَالِ.

وَهُوَ أَيْضًا تَذْكِيرٌ وَمَوْعِظَةٌ بِمَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ قُدْرَةِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ فِي خَلْقِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ وَجِنْسِ الْجَانِّ.
وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى مَا سَبَقَ فِي الْقُرْآنِ النَّازِلِ قَبْلَ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ تَفْضِيلِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْجَانِّ إِذْ أَمَرَ اللَّهُ الْجَانَّ بِالسُّجُودِ لِلْإِنْسَانِ، وَمَا ينطوي فِي ذَلِكَ مِنْ وَفْرَةِ مَصَالِحِ الْإِنْسَانِ عَلَى مَصَالِحِ الْجَانِّ، وَمِنْ تَأَهُّلِهِ لِعُمْرَانِ الْعَالِمِ لِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا مَنْ طِينَتِهِ إِذِ الْفَضِيلَةُ تَحْصُلُ مِنْ مَجْمُوعِ أَوْصَافٍ لَا مِنْ خصوصيات مُفْرَدَة.

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [16].

هَذَا تَوْبِيخٌ عَلَى عَدَمِ الِاعْتِرَافِ بِنِعَمِ اللهِ تَعَالَى، جِيءَ فِيهِ بِمِثْلِ مَا جِيءَ بِهِ فِي نَظِيرِهِ الَّذِي سَبَقَهُ لِيَكُونَ التَّوْبِيخُ بِكَلَامٍ مِثْلَ سَابِقِهِ، وَذَلِكَ تَكْرِيرٌ مِنْ أُسْلُوبِ التَّوْبِيخِ، فَحَقُّ هَذَا أَنْ يُسَمَّى بِالتَّعْدَادِ لَا بِالتَّكْرَارِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ تكريرا لِمُجَرَّدِ التَّأْكِيد.
{ **فَبِأَيِّ** } الفاء هُنَا تَفْرِيعٌ عَلَى قَوْلِهِ تعالى { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } [17]، لِأَنَّ رُبُوبِيَّتَهُ تَقْتَضِي الِاعْتِرَافَ لَهُ بِنِعْمَةِ الْإِيجَادِ وَالْإِمْدَادِ. وَفَائِدَةُ التَّكْرِيرِ تَوْكِيدُ التَّقْرِيرِ بِمَا لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ نِعَمٍ عَلَى المخاطبين، وتعريض بتوبيخهم على إشراكهم بِاللَّهِ أَصْنَامًا لَا نِعْمَةَ لَهَا عَلَى أَحَدٍ، وَكُلُّهَا دَلَائِلُ عَلَى تَفَرُّدِ الْإِلَهِيَّةِ.
وَعَنِ ابْنِ قُتَيْبَةَ: " أَنَّ اللهَ عَدَّدَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ نَعْمَاءَهُ، وَذَكَّرَ خَلْقَهُ آلَاءَهُ ثُمَّ أَتْبَعَ كُلَّ خِلَّةٍ وَصَفَهَا، وَنِعْمَةٍ وَضَعَهَا بِهَذِهِ، وَجَعَلَهَا فَاصِلَةً بَيْنَ كُلِّ نِعْمَتَيْنِ لِيُنَبِّهَهُمْ عَلَى النِّعَمِ وَيُقَرِّرْهُمْ بِهَا ".
وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ [بن عُمَيْر البَجلِيّ الْكُوفِي النَّيْسَابُورِي توفّي (سنة ٢٨٢هـ) له تفْسِير للقُرْآن]: " التَّكْرِيرُ طَرْدٌ لِلْغَفْلَةِ وَتَأْكِيدٌ لِلْحُجَّةِ ".

{ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } [17].

استئناف ابْتِدَائِيٌّ فِيهِ بَيَانٌ لِجُمْلَةِ { الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ } [5]، وَعَطَفَ { وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } لِأَجْلِ مَا ذَكَرْتُهُ آنِفًا مِنْ مُرَاعَاةِ الْمُزَاوَجَةِ.
الْمَشْرِقُ: جِهَةُ شُرُوقِ الشَّمْسِ، وَ**الْمَغْرِبُ**: جِهَةُ غُرُوبِهَا.
وَتَثْنِيَةُ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ فِي فَصْلَيِ الشِّتَاءِ وَالرَّبِيعِ مِنْ سَمْتٍ وَفِي فَصْلَيِ الصَّيْفِ وَالْخَرِيفِ مِنْ سَمْتٍ آخَرَ، وَبِمُرَاعَاةِ وَقْتِ الطُّولِ وَوَقْتِ الْقِصَرِ، وَكَذَلِكَ غُرُوبُهَا، وَهِيَ فِيمَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ يَنْتَقِلُ طُلُوعُهَا وَغُرُوبُهَا فِي دَرَجَاتٍ مُتَقَارِبَةٍ فَقَدْ يُعْتَبَرُ ذَلِكَ فَيُقَالُ: الْمَشَارِقُ وَالْمَغَارِبُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ } [الْمَعَارِجِ:40].
وَرُبُوبِيَّةُ الله تَعَالَى للمشرقين وَالْمَغْرِبَيْنِ بِمَعْنَى الْخلق وَالتَّصَرُّف.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [18].

تَكْرِيرٌ كَمَا علمت آنِفا.

{ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ** [19] **بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيانِ** [20] }.

خَبَرٌ آخَرُ عَن { الرَّحْمَنُ } [1]، قَصَدَ مِنْهُ الْعِبْرَةَ بِخَلْقِ الْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَذَلِكَ خَلْقٌ عَجِيبٌ دَالٌّ عَلَى عَظَمَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.

وَمُنَاسَبَةُ ذِكْرِهِ عَقِبَ مَا قَبْلَهُ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ وَكَانَتِ الْأَبْحُرُ وَالْأَنْهَارُ فِي جِهَاتِ الْأَرْضِ نَاسَبَ الِانْتِقَالَ إِلَى الِاعْتِبَارِ بخلقهما والامتنان بِمَا أودعهما مِنْ مَنَافِعِ النَّاسِ.

الْمَرَجُ: لَهُ معَان كَثِيرَة، وأوّلاها فِي هَذَا الْكَلَامِ أَنَّهُ الْإِرْسَالُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: مرج الدَّابَّة، إذا أَرْسَلَهَا تَرْعَى فِي الْمَرَجِ، وَهُوَ الْأَرْضُ الْوَاسِعَةُ ذَاتُ الْكَلَأِ الَّذِي لَا مَالك لَهُ، أَيْ: تَرْكُهَا تَذْهَبُ حَيْثُ تَشَاءُ.

وَالْمَعْنَى: أَرْسَلَ الْبَحْرِينِ لَا يَحْبِسُ مَاءَهُمَا عَنِ الْجَرْيِ حَاجِزٌ.

يَلْتَقِيَانِ: يَتَّصِلَانِ بِحَيْثُ يَصُبُّ أَحَدُهُمَا فِي الْآخَرِ.

الْبَحْرُ: الْمَاءُ الْغَامِرُ جُزْءًا عَظِيمًا مِنَ الْأَرْضِ يُطْلَقُ عَلَى الْمَالِحِ وَالْعَذْبِ.

وَالْمُرَادُ تَثْنِيَةُ نَوْعَيِ الْبَحْرِ وَهُمَا الْبَحْرُ الْمِلْحُ وَالْبَحْرُ الْعَذْبُ. كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هَذَا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ } [فاطر:12]. وَالتَّعْرِيفُ تَعْرِيفُ الْعَهْدِ الْجِنْسِيِّ.

فَالْمَقْصُودُ مَا يَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ وَهُمَا نَهْرُ الْفُرَاتِ وَبَحْرُ الْعَجَمِ الْمُسَمَّى الْيَوْمَ بِالْخَلِيجِ الْفَارِسِيِّ.

وَالْتِقَاؤُهُمَا انْصِبَابُ مَاءِ الْفُرَاتِ فِي الْخَلِيجِ الْفَارِسِي. فِي شاطىء الْبَصْرَةِ، وَالْبِلَادِ الَّتِي عَلَى الشَّاطِئِ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْخَلِيجِ الْفَارِسِيِّ تُعْرَفُ عِنْدَ الْعَرَبِ بِبِلَادِ الْبَحْرِينِ لِذَلِكَ.

{ **بَيْنَهُما بَرْزَخٌ** } الْفَاصِلُ بَيْنَ الْمَاءَيْنِ بِحَيْثُ لَا يُغَيِّرُ أَحَدُ الْبَحْرَيْنِ طَعْمَ الْآخَرِ بِجِوَارِهِ. وَذَلِكَ بِمَا فِي كُلِّ مَاءٍ مِنْهُمَا مِنْ خَصَائِصَ تَدْفَعُ عَنْهُ اخْتِلَاطَ الْآخَرِ بِهِ. وَهَذَا مِنْ مَسَائِلِ الثِّقَلِ النَّوْعِيِّ.

الْبَرْزَخُ: الْحَاجِزُ الْفَاصِلُ، وَالْبَرْزَخُ الَّذِي بَيْنَ هَذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ مَضِيقُ (بَابِ الْمَنْدَبِ) حَيْثُ يَقَعُ مَرْسَى عَدَنَ وَمَرْسَى زَيْلَعَ. وَذِكْرُ الْبَرْزَخِ تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ، أَيْ: بَيْنَهُمَا مِثْلُ الْبَرْزَخِ

{ **لَا يَبْغِيانِ** }، أَيْ لَا يَبْغِي أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ، أَيْ: لَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ فَيُفْسِدُ طَعْمَهُ، فَاسْتُعِيرَ لِهَذِهِ الْغَلَبَةِ لَفْظُ الْبَغْيِ الَّذِي حَقِيقَتُهُ الِاعْتِدَاءُ وَالتَّظَلُّمُ.

وَلَمَّا كَانَ فِي خَلْقِ الْبَحْرَيْنِ نِعَمٌ عَلَى النَّاسِ عَظِيمَةٌ؛ مِنْهَا مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ جَمِيعِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَسِيرُونَ فِيهِمَا كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ } [النَّحْل:14]، وَقَالَ { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [يُونُس:22].

وَاسْتِخْرَاجُ سَمَكِهِ وَالتَّطَهُّرُ بِمَائِهِ. وَمِنْهَا مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ، وَهِيَ مَا لِأَمْلَاحِ الْبَحْرِ مِنْ تَأْثِيرٍ فِي تَنْقِيَةِ هَوَاءِ الْأَرْضِ وَاسْتِجْلَابِ الْأَمْطَارِ وَتَلَقِّي الْأَجْرَامِ الَّتِي تَنْزِلُ مِنَ الشُّهُبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [21].

تَكْرِيرٌ كَمَا عَلِمْتُهُ مِمَّا تَقَدَّمَ، وَوَقَعَ هُنَا اعْتِرَاضًا بَيْنَ أَحْوَال الْبَحْرِين.

{ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ } [22].

حَالٌ ثَالِثَةٌ. ثُمَّ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْبَحْرَيْنِ: بَحْرَيْنِ مَعْرُوفَيْنِ مِنَ الْبِحَارِ الْمِلْحَةِ تَكُونُ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ { مِنْهُمَا } ابْتِدَائِيَّةً لِأَنَّ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ يَكُونَانِ فِي الْبَحْرِ الْمِلْحِ.

وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْبَحْرَيْنِ: الْبَحْرُ الْمِلْحُ، وَالْبَحْرُ الْعَذْبُ كَانَتْ (مِنْ) فِي قَوْلِه { مِنْهُمَا } لِلسَّبَبِيَّةِ، أَيْ: يَخْرُجُ اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ بِسَبَبِهِمَا، أَيْ بِسَبَبِ مَجْمُوعِهِمَا.

قَالَ الزجاجُ: قَدْ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ فَإِذَا خَرَجَ مِنْ أَحَدِهِمَا شَيْءٌ فَقَدْ خَرَجَ مِنْهُمَا وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى { أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً } [نوح:16/15]، وَالْقَمَر فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ: هُوَ مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ، أَيْ: مِنْ أَحَدِهِمَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31]، أَيْ: مِنْ إِحْدَاهُمَا.

الْمَرْجانُ: حَيَوَانٌ بَحَرِيٌّ ذُو أَصَابِعَ دَقِيقَةٍ يَنْشَأُ لَيِّنًا ثُمَّ يَتَحَجَّرُ وَيَتَلَوَّنُ بِلَوْنِ الْحُمْرَةِ وَيَتَصَلَّبُ كُلَّمَا طَالَ مُكْثُهُ فِي الْبَحْرِ فَيُسْتَخْرَجُ مِنْهُ كَالْعُرُوقِ تُتَّخَذُ مِنْهُ حِلْيَةٌ وَيُسَمَّى بِالْفَارِسِيَّةِ (بِسَذْ). وَقَدْ تَتَفَاوَتُ الْبِحَارُ فِي الْجَيِّدِ مِنْ مَرْجَانِهَا. وَيُوجَدُ بِبَحْرِ طَبَرْقَةَ عَلَى الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ فِي شَمَالِ الْبِلَادِ التُّونِسِيَّةِ.

وَبَيْنَ قَوْله تعالى { مَرَجَ } [19] وَقَوله تعالى { وَالْمَرْجانُ } الجناس المذيّل.

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [23].

تَكْرِيرٌ لِنَظِيرِهِ الْمُتَقَدّم أَوّلا.

{ وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ } [24].

عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ { يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ } [22]، لِأَنَّ هَذَا مِنْ أَحْوَالِ الْبَحْرِينِ وَقَدْ أَغْنَتْ إِعَادَةُ لَفْظِ الْبَحْرِ عَنْ ذِكْرِ ضَمِيرِ الْبَحْرِينِ الرَّابِطِ لِجُمْلَةِ الْحَالِ بِصَاحِبِهَا.

{ **وَلَهُ الْجَوارِ** } اللَّامُ لِلْمِلْكِ وَهُوَ مِلْكُ تَسْخِيرِ السَّيْرِ فِيهَا، قَالَ تَعَالَى { وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا } [الشورى:32-34].

فَالْمَعْنَى: أَنَّ الْجَوَارِيَ فِي الْبَحْرِ فِي تَصَرُّفِهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى { وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } [الْحَج:65].

وَالْإِخْبَارُ عَنِ الْجَوَارِي بِأَنَّهَا لَهُ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ إِنْشَاءَ النّاس لِلسُّفُنِ لَا يُخْرِجُهَا عَنْ ملك الله.

الجوار: صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ مُتَعَلِّقُهُ { فِي الْبَحْرِ }. وَالتَّقْدِيرُ: السُّفُنُ الْجَوَارِي.

{ **الْجَوارِ** } كُتِبَ بِدُونَ يَاءٍ اعْتِدَادًا بِحَالَةِ النُّطْقِ بِهِ فِي الْوَصْلِ إِذْ لَا يَقِفُ الْقَارِئُ عَلَيْهِ وَلِذَلِكَ قُرَاهُ جَمِيعُ الْعَشَرَةِ بِدُونَ يَاءٍ فِي حَالَةِ الْوَصْلِ وَالْوَقْفِ لِأَنَّ الْوَقْفَ عَلَيْهِ نَادِرٌ.

{ **الْمُنْشَآتُ** } (بِفَتْحِ الشِّينِ) عند الجمهور، فَهُوَ اسْمُ مَفْعُولٍ، إِذَا أُوجِدَ وَصُنِعَ، أَي: الَّتِي أَنْشَأَهَا النَّاسُ بِإِلْهَامٍ مِنَ اللهِ، فَحَصَلَ مِنَ الْكَلَامِ مِنَّتَانِ؛ مِنَّةُ تَسْخِيرِ السُّفُنِ لِلسَّيْرِ فِي الْبَحْرِ وَمِنَّةُ إِلْهَامِ النَّاس لإنشائها.

وقرأه حَمْزَةُ وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ (بِكَسْرِ الشِّينِ) فَهُوَ اسْمُ فَاعِلٍ. فَيَجُوزُ أَن يكون المنشِئات مُشْتَقًّا مَنْ أَنْشَأَ السَّيْرُ إِذَا أَسْرَعَ، أَي: الَّتِي يَسِيرُ بِهَا النَّاسُ سَيْرًا سَرِيعًا. قَالَ مُجَاهِد: المنشئات الَّتِي رُفِعَتْ قُلُوعُهَا.

وَالْآيَةُ تَحْتَمِلُ الْمَعْنَيَيْنِ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ.

{ **كَالْأَعْلامِ** } أَي: الْجِبَالِ، تَعْظِيمًا لشَأْنِهَا فِي صُنْعِهَا الْمُقْتَضِي بَدَاعَةَ إِلْهَامِ عُقُولِ الْبَشَرِ لِصُنْعِهَا، وَالْمُقْتَضِي عِظَمَ الْمِنَّةِ بِهَا لِأَنّ السفن الْعَظِيمَة أَمْكَنُ لِحَمْلِ الْعَدَدِ الْكَثِيرِ مِنَ النَّاس وَالْمَتَاع.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [25].

تَكْرِيرٌ لنظيره السَّابِق.

{ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ [26] وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [27] }.

لَمَّا كَانَ قَوْله تعالى { وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ } [24] مُؤْذِنًا بِنِعْمَةِ إِيجَادِ أَسْبَابِ النَّجَاةِ مِنَ الْهَلَاكِ وَأَسْبَابِ السَّعْيِ لِتَحْصِيلِ مَا بِهِ إِقَامَةَ الْعَيْشِ إِذْ يَسَّر لِلنَّاسِ السُّفُنَ عَوْنًا لهم عَلَى الْأَسْفَارِ وَقَضَاءَ الْأَوْطَارِ مَعَ السَّلَامَةِ مِنْ طُغْيَانِ مَاءِ الْبِحَارِ، وَكَانَ وَصْفُ السُّفُنِ بِأَنَّهَا كَالْأَعْلَامِ تَوْسِعَةً فِي هَذِهِ النِّعْمَةِ أَتْبَعَهُ بِالْمَوْعِظَةِ، بِأَنَّ هَذَا لَا يَحُولُ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ مَا قَدَّرَهُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْفَنَاءِ، عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ فِي الْفُرَصِ لِلْمَوْعِظَةِ وَالتَّذْكِيرِ، كَقَوْلِهِ تعالى { أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ } [النِّسَاء:78].

وَفَائِدَةُ هَذَا أَنْ لَا يَنْسَوا الِاسْتِعْدَادَ لِلْحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ بِفِعْلِ الصَّالِحَاتِ، وَأَنْ يَتَفَكَّرُوا فِي عَظِيمِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى وَيُقْبِلُوا

عَلَى تَوْحِيدِهِ وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ.

وَالْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ، وَوُقُوعُها عَقِبَ مَا عَدَّدَ مِنَ النِّعَمِ فِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ مَصِيرَ نِعَمِ الدُّنْيَا إِلَى الْفَنَاءِ.

{ **مَنْ عَلَيْها** } النَّاس، لأَنَّهم الْمَقْصُود بِهَذِهِ الْعِبَرِ، وَلِذَلِكَ جِيءَ بـ (مَنْ) الْمَوْصُولَةِ الْخَاصَّةِ بِالْعُقَلَاءِ. وضَمِيرُ {عَلَيْهَا } مُرَادٌ بِهِ الْأَرْضَ بِقَرِينَةِ الْمَقَامِ. وَمِثْلُهُ فِي الْقُرْآنِ كثير وَفِي كَلَامِ الْبُلَغَاءِ.

<u>الْمَعْنَى</u>: أَنَّ مَصِيرَ جَمِيعِ مَنْ عَلَى الْأَرْضِ إِلَى الفناء، وَهَذَا تذكير بِالْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْجَزَاءِ.

فَانٍ: صَائِرٌ إِلَى الْفَنَاءِ، فَهَذَا مِنِ اسْتِعْمَالِ اسْمِ الْفَاعِلِ لِزَمَانِ الِاسْتِقْبَالِ بِالْقَرِينَةِ، مِثْلِ قوله تعالى { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ } [الزمر:30].

{ **وَجْهُ رَبِّكَ** } ذَاتُهُ، فَذِكْرُ الْوَجْهِ هُنَا جَارٍ عَلَى عُرْفِ كَلَامِ الْعَرَبِ. قَالَ فِي الْكَشَّافِ: " وَالْوَجْهُ يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْجُمْلَةِ وَالذَّاتِ ". وَأُضِيفَ إِلَى اسْمِهِ تَعَالَى لَفْظُ (الْوَجْهِ) بِمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهَا مَا هُنَا، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تعالى { فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ } [الْبَقَرَة:115]، وَقَوْلُهُ تعالى { إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ } [الْإِنْسَان:9].

وَقَدْ عَلِمَ السَّامِعُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَجْهٌ بِالْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ.

وَاصْطَلَحَ عُلَمَاءُ الْعَقَائِدِ عَلَى تَسْمِيَةِ مِثْلِ هَذَا بِالْمُتَشَابِهِ، وَكَانَ السّلف يحجمون عَنِ الْخَوْض فِي ذَلِكَ مَعَ الْيَقِينِ بِاسْتِحَالَةِ ظَاهِرِه عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ تَنَاوَلَهُ عُلَمَاء التَّابِعين وَمَنْ بعدهمْ بالتأويل تدريجا <u>إِلَى أَنِ اتَّضَحَ وَجْهُ التَّأْوِيلِ بِالْجَرْيِ عَلَى قَوَاعِدِ عِلْمِ الْمَعَانِي</u> فَزَالَ الْخَفَاءُ، واندفع الْجفَاء، وكلا الْفَرِيقَيْنِ خِيرَةُ الْحُنَفَاءِ.

{ **رَبِّكَ** } ضَمِيرُ الْمُخَاطَبِ خِطَابٌ للنبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهِ تَعْظِيمٌ لِقَدْرِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَالْمَقْصُودُ تَبْلِيغُهُ إِلَى الَّذِينَ يُتْلَى عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لِيَذَّكَّرُوا وَيَعْتَبِرُوا.

<u>وَيَجُوزُ</u> أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ لِيَعُمَّ كُلَّ مُخَاطَبٍ.

{ **ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** } لَمَّا كَانَ الْوَجْهُ هُنَا بِمَعْنَى الذَّاتِ وُصِفَ بِالْعَظَمَةِ وَالْإِكْرَامِ، أَي: الْمُنْعِمِ عَلَى عِبَادِهِ.

ذو الْجَلَالِ: تضمّن الوصف جَمِيعَ الصِّفَاتِ الرَّاجِعَةِ إِلَى التَّنْزِيهِ عَنِ النَّقْصِ.

الْإِكْرَامِ: تضمّن الوصف جَمِيعَ صِفَاتِ الْكَمَالِ الْوُجُودِيَّةِ وَصِفَاتِ الْجَمَالِ كَالْإِحْسَانِ.

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [28].

تَكْرِيرٌ كَمَا تَقَدَّمَ، وَهَذَا الْمَوْقِعُ يُنَادِي عَلَى أَنَّ لَيْسَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَذْيِيلًا لِجُمْلَةِ { كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ } [26]، لأَنَّها لا تتَضَمَّنُ نِعْمَةً، إِذْ لَيْسَ فِي الفناء نعْمَة. وإِنَّمَا هُوَ تَفْرِيعٌ عَلَى جُمْلَةِ { وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ } كَمَا عَلِمتَ مِنْ أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ مُعَامَلَةَ خَلْقِهِ مُعَامَلَةَ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا تَصْدُرُ عَنْهُ السَّفَاسِفُ، الْكَرِيمُ الَّذِي لَا يَقْطَعُ إِنْعَامَهُ، وَذَلِكَ مِنَ الآلاء الْعَظِيمَة.

{ يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } [29].

{ يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ } اسْتِئْنَافٌ، وَالْمَعْنَى أَنَّ النَّاسَ تَنْقَرِضُ مِنْهُمْ أَجْيَالٌ وَتَبْقَى أَجْيَالٌ وَكَلٌّ بَاقٍ مُحْتَاجٌ إِلَى أَسْبَابِ بَقَائِهِ وَصَلَاحِ أَحْوَالِهِ. فَالْجَمِيعُ يَسْأَلُونَهُ؛ فَسُؤَالُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ، وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ وَيَسْأَلُونَ رِضَى اللَّهُ تَعَالَى. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَهُمُ الْبَشَرُ، يَسْأَلُونَهُ نِعَمَ الْحَيَاةِ وَالنَّجَاةِ فِي الْآخِرَةِ وَرَفْعَ الدَّرَجَاتِ.

{ يَسْئَلُهُ } حُذِف المفعول لِإِفَادَةِ التَّعْمِيمِ، أَيْ: يَسْأَلُونَهُ حَوَائِجَهُمْ وَمَهَامِّهِمْ.

{ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ النصب فِي { يَسْئَلُهُ } أَوْ تذييلا لجملة { يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ }، أَيْ: كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ من الشؤون لِلسَّائِلِينَ وَغَيْرِهِمْ.

{ يَوْمٍ } مُسْتَعْمَلٌ مَجَازًا فِي الْوَقْتِ بِعَلَاقَةِ الْإِطْلَاقِ، إِذِ الْمَعْنَى: كُلُّ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَلَوْ لَحْظَةً، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْيَوْمِ الْوَقْتَ الْخَاصَّ الَّذِي يَمْتَدُّ مِنَ الْفَجْرِ إِلَى الْغُرُوبِ. وَإِطْلَاقُ الْيَوْمِ وَنَحْوِهِ عَلَى مُطْلَقِ الزَّمَانِ كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ كَقَوْلِهِمْ: الدَّهْرُ يَوْمَانِ؛ يَوْمٌ نُعْمٌ وَيَوْمٌ بُؤْسٌ.

الشَّأْنُ: الشَّيْءُ الْعَظِيمُ وَالْحَدَثُ الْمُهِمُّ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ وَأَعْمَالٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَهُوَ تَعَالَى يَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُحْيِي وَيُمِيتُ وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَإِذَا كَانَ فِي تَصَرُّفِهِ كُلُّ شَأْنٍ فَمَا هُوَ أَقَلُّ مِنَ الشَّأْنِ أَوْلَى بِكَوْنِهِ مِنْ تَصَرُّفِهِ.

{ فِي } ظَرْفِيَّةٌ مَجَازِيَّةٌ مُسْتَعَارَةٌ لِشِدَّةِ التَّلَبُّسِ وَالتَّعَلُّقِ بِتَصَرُّفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَنْزِلَةِ إِحَاطَةِ الظَّرْفِ بِالْمَظْرُوفِ.

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [30].

تَكْرِير لنظائره.

{ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ } [31].

هَذَا تَخَلُّصٌ مِنَ الِاعْتِبَارِ بِأَحْوَالِ الْحَيَاةِ الْعَاجِلَةِ إِلَى التَّذْكِيرِ بِأَحْوَالِ الْآخِرَةِ وَالْجَزَاءِ فِيهَا، انْتُقِلَ إِلَيْهِ بِمُنَاسَبَةِ اشْتِمَالِ مَا سَبَقَ مِنْ دَلَائِلَ سَعَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى تَعْرِيضٍ بِأَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ أَهْلٌ لِلتَّوْحِيدِ بِالْإِلَهِيَّةِ وَمُسْتَحَقٌّ الْإِفْرَادَ بِالْعِبَادَةِ، وَإِذْ قَدْ كَانَ الْمُخَاطَبُونَ بِذَلِكَ مُشْرِكِينَ مَعَ اللَّهِ فِي الْعِبَادَةِ انْتُقِلَ إِلَى تَهْدِيدِهِمْ بِأَنَّهُمْ وَأَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الْجِنِّ الْمُسَوِّلِينَ لَهُمْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ سَيُعْرَضُونَ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فِيهِمْ.

{ سَنَفْرُغُ } حَرْفُ التَّنْفِيسِ مُسْتَعْمَلٌ فِي مُطلق التَّقْرِيب الْمُكَنَّى بِهِ عَنِ التَّحْقِيقِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي } [يُوسُف:98].

الْفَرَاغُ لِلشَّيْءِ: الْخُلُوُّ عَمَّا يُشْغِلُ عَنْهُ، وَهُوَ تَمْثِيلٌ لِلاِعْتِنَاءِ بِالشَّيْءِ، شُبِّهَ حَالُ الْمُقْبِلِ عَلَى عَمَلٍ دُونَ عَمَلٍ آخَرَ بِحَالِ الْوِعَاءِ الَّذِي أُفْرِغَ مِمَّا فِيهِ لِيُمْلَأَ بِشَيْءٍ آخَرَ.

وَالْمُنَاسِبُ لِسِيَاقِ الْآيَةِ، بِاعْتِبَارِ السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ، أَنْ تُحْمَلَ عَلَى مَعْنَى الْإِقْبَالِ عَلَى أُمُورِ الثَّقَلَيْنِ فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّ بَعْدَهُ { يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ } [41].

الثَّقَلانِ: تَثْنِيَةُ ثَقَلٍ، وَهَذَا الْمُثَنَّى اسْمٌ مُفْرَدٌ لِمَجْمُوعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ. وَأَحْسَبُ أَنَّ (الثَّقَلَ) هُوَ الْإِنْسَانُ لِأَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْأَرْضِ، فَهُوَ كَالثِّقَلِ عَلَى الدَّابَّةِ، وَأَنَّ إِطْلَاقَ هَذَا الْمُثَنَّى عَلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ، وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا مِمَّا لَا يَرْتَضِيهِ الْمُتَأَمِّلُ. وَقَدْ عُدَّ هَذَا اللَّفْظُ بِهَذَا الْمَعْنَى مِمَّا لا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ، فَلَا يُطْلَقُ عَلَى نَوْعِ الْإِنْسَانِ بِانْفِرَادِهِ اسْمُ الثَّقَلِ. وَأَظُنُّ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ لَمْ يُطْلَقْ عَلَى مَجْمُوعِ النَّوْعَيْنِ قَبْلَ الْقُرْآنِ فَهُوَ مِنْ أَعْلَامِ الْأَجْنَاسِ بِالْغَلَبَةِ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَهُ أَهْلُ الْإِسْلَامِ.

{ **أَيُّهَ** } كُتِبَ فِي الْمُصْحَفِ بِهَاءٍ لَيْسَ بَعْدَهَا أَلْفٌ وَهُوَ رَسْمٌ مُرَاعَى فِيهِ حَالَ النُّطْقِ بِالْكَلِمَةِ فِي الْوَصْلِ إِذْ لَا يُوقَفُ عَلَى مِثْلِهِ، فَقَرَأَهَا الْجُمْهُورُ بِفَتْحَةٍ عَلَى الْهَاءِ دُونَ أَلِفٍ فِي حَالَتَي الْوَصْلِ وَالْوَقْفِ. وَقَرَأَهَا أَبُو عَمْرٍو وَالْكِسَائِيُّ بِأَلِفٍ بَعْدَ الْهَاءِ فِي الْوَقْفِ. وَقَرَأَهُ ابْنُ عَامِرٍ بِضَمِّ الْهَاءِ تَبَعًا لِضَمِّ الْيَاءِ الَّتِي قَبْلَهَا وَهَذَا من الإتباع.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [32].

تَكْرِيرٌ لِنَظَائِرِهِ وَلَيْسَ هُوَ خِطَابًا لِلثَّقَلَيْنِ وَلَا تَذْيِيلًا لِلْجُمْلَةِ الَّتِي قَبِلَهُ إِذْ لَيْسَ فِي الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهُ ذِكْرُ نِعْمَةٍ عَلَى الثَّقَلَيْنِ بَلْ هِيَ تهديد لهما.

{ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطانٍ } [33].

هَذَا مَقُولُ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ، وَلَيْسَ خِطَابًا لِلْإِنْسِ وَالْجِنَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

التَّقْدِيرُ: فَنَقُولُ لَكُمْ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ } [الْأَنْعَام:128]، أَيْ فَنَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ.

الْمَعْشَرُ: اسْمٌ لِلْجَمْعِ الْكَثِيرِ الَّذِي يُعَدُّ عَشَرَةً عَشَرَةً دُونَ آحَادٍ.

وَهَذَا إِعْلَانٌ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَجِدُونَ مَنْجًى مِنْهَا، وَهُوَ تَرْوِيعٌ لِلضَّالِّينَ وَالْمُضِلِّينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ بِمَا يَتَرَقَّبُهُمْ من الْجَزَاء السيّئ، لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يُقَالُ لِجَمْعٍ مُخْتَلِطٍ إِلَّا وَالْمَقْصُودُ أَهْلُ الْجِنَايَةِ مِنْهُمْ فَقَوْلُهُ { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ } عَامٌّ مُرَادٌ بِهِ الْخُصُوصَ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ بَعْدَهُ { يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ } [35].

النُّفُوذُ / النَّفَاذُ: جَوَازُ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ وَخُرُوجُهُ مِنْهُ.

{ **إِنِ اسْتَطَعْتُمْ** } الشَّرْطُ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعْجِيزِ، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ { **فَانْفُذُوا** }، الَّذِي هُوَ جَوَابُ هَذَا الشَّرْطِ.

<u>الْمَعْنَى</u>: إِنْ قَدَرْتُمْ عَلَى الِانْفِلَاتِ مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ فَافْلِتُوا. وَهَذَا مُؤْذِنٌ بِالتَّعْرِيضِ بِالتَّخْوِيفِ مِمَّا سَيَظْهَرُ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ مِنَ الْعِقَابِ لِأَهْلِ التَّضْلِيلِ.

الْأَقْطَارُ: جَمْعُ قُطْرٍ (بِضَمِّ الْقَافِ وَسُكُونِ الطَّاءِ) وَهُوَ النَّاحِيَةُ الْوَاسِعَةُ مِنَ الْمَكَانِ الْأَوْسَعِ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا } [الْأَحْزَابِ:14].

{ **السَّمَاواتِ وَالْأَرْضِ** } ذِكْرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِتَحْقِيقِ إِحَاطَةِ الْجِهَاتِ كُلِّهَا تَحْقِيقًا لِلتَّعْجِيزِ، أَيْ: فَهَذِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أَمَامَكُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ فَاخْرُجُوا مِنْ جِهَةٍ مِنْهَا فِرَارًا مِنْ مَوْقِفِكُمْ هَذَا.

{ **وَالْأَرْضِ** } هُنَا <u>إِمَّا</u> أَنْ تَكُونَ الْأَرْضَ الَّتِي فِي الدُّنْيَا وَذَلِكَ حِينَ الْبَعْثِ، <u>وَإِمَّا</u> أَنْ تَكُونَ أَرْضَ الْحَشْرِ وَهِيَ الَّتِي سَمَّاهَا الْقُرْآن { بِالسَّاهِرَةِ } { النَّازِعَاتِ:14]، قَالَ تَعَالَى { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ } [إِبْرَاهِيم:48]، <u>وَإِمَّا</u> أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ جَارِيًا مَجْرَى الْمَثَلِ الْمُسْتَعْمَلِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي إِحَاطَةِ الْجِهَاتِ. وَهَذِهِ الْمَعَانِي لَا تَتَنَافَى، وَهِيَ مِنْ حَدِّ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ.

{ **لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ** } بَيَانٌ لِلتَّعْجِيزِ الَّذِي فِي الْجُمْلَةِ، فَإِنَّ السُّلْطَانَ: الْقُدْرَةُ، أَيْ: لَا تَنْفُذُونَ مِنْ هَذَا الْمَأْزِقِ إِلَّا بِقُدْرَةٍ عَظِيمَةٍ تَفُوقُ قُدْرَةَ اللهِ الَّذِي حَشَرَكُمْ لِهَذَا الْمَوْقِفِ، وَأَنَّى لَكُمْ هَاتِهِ الْقُوَّةُ.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [34].

الْقَوْلُ فِيهِ كَالْقَوْلِ فِي نَظِيرِهِ الْمَذْكُور قبله.

{ **يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ** } [35].

اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ عَنْ جُمْلَةِ { إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا } [33]، لِأَنَّ ذَلِكَ الْإِشْعَارَ بِالتَّهْدِيدِ يُثِيرُ فِي نُفُوسِهِمْ تَسَاؤُلًا عَمَّا وَرَاءَهُ.

{ **عَلَيْكُما** } الضَمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَهُوَ عَامٌّ مُرَادٌ بِهِ الْخُصُوصَ بِالْقَرِينَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ بَعْدَهُ { وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ } [الرحمان:46]. وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّهُمْ مُعَاقَبُونَ بَعْدَ أَنْ عَرَّضَ لَهُمْ بِذَلِكَ تَعْرِيضًا بِقَوْلِهِ تعالى { إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا } [33].

{ **يُرْسَلُ عَلَيْكُما** } أي: أَنَّ ذَلِكَ يَعْتَرِضُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَلِجُوا فِي جَهَنَّمَ، أَيْ: تُقْذَفُونَ بِشُوَاظٍ مِنْ نَارٍ تَعْجِيلًا لِلسُّوءِ.

الشُّوَاظُ: (بِضَمِّ الشِّينِ وَكَسْرِهَا) اللَّهَبُ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُ دُخَانٌ لِأَنَّهُ قَدْ كَمُلَ اشْتِعَالُهُ، وَذَلِكَ أَشَدُّ إِحْرَاقًا.

النُّحَاسُ: يُطْلَقُ عَلَى الدُّخَانِ الَّذِي لَا لَهَبَ مَعَهُ. وَبِهِ فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَتَبِعَهُمَا الْخَلِيلُ. وَيُطْلَقُ النُّحَاسُ عَلَى الصُّفْرِ وَهُوَ الْقِطْرُ. وَبِهِ فَسَّرَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا. فَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الصُّفْرُ الْمُذَابُ.

{ **فَلا تَنْتَصِرانِ** } فَلَا تَجِدَانِ مَخْلِصًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا تَجِدَانِ نَاصِرًا. والنَّاصِرُ: هَنَا مُرَادٌ مِنْهُ حَقِيقَتُهُ وَمَجَازُهُ. أَيْ: لَا تَجِدَانِ مَنْ يَدْفَعُ عَنْكُمَا ذَلِكَ وَلَا مَلْجَأً تتّقيان بِهِ.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [36].

تَكْرِيرٌ، وَالْقَوْلُ فِيهِ كَالْقَوْلِ فِي الَّذِي وَقَعَ قبله قَرِيبا.

{ **فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ** [37] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [38] **فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ** [39] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [40] }.

تَفْصِيلٌ لِلْخَبَرِ الْمُجْمَلِ فِي قَوْلِهِ تعالى { سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ } [31] إِلَى آخِرِه، بِتَعْيِينِ وَقْتِهِ وَشَيْءٍ مِنْ أَهْوَالِ مَا يَقَعُ فِيهِ لِلْمُجْرِمِينَ، وَبَشَائِرِ مَا يُعْطَاهُ الْمُتَّقُونَ مِنَ النَّعِيمِ وَالْحُبُورِ.

{ **فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ** } انْشِقَاقُ السَّمَاءِ مِنْ أَحْوَالِ الْحَشْرِ، أَيْ: فَإِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى { فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّماءُ } [الحاقة:16/15]، وَهَذَا هُوَ الِانْشِقَاقُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تعالى { وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ } [الْفُرْقَانِ:26/25].

{ **وَرْدَةً كَالدِّهانِ** } تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ، أَيْ: كَانَتْ كَوَرْدَةٍ.

الْوَرْدَةُ: وَاحِدَةُ الْوَرْدِ، وَهُوَ زَهْرٌ أَحْمَرُ مِنْ شَجَرَةٍ دَقِيقَةٍ ذَاتِ أَغْصَانٍ شَائِكَةٍ.

وَوَجْهُ الشَّبَهِ، قِيلَ: هُوَ شِدَّةُ الْحُمْرَةِ، أَيْ يَتَغَيَّرُ لَوْنُ السَّمَاءِ الْمَعْرُوفُ فَيَصِيرُ لَوْنُهَا أَحْمَر، قَالَ تَعَالَى { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ } [إِبْرَاهِيم:48].

وَيَجُوزُ عِنْدِي: أَنْ يَكُونَ وَجْهُ الشَّبَهِ كَثْرَةَ الشُّقُوقِ كَأَوْرَاقِ الْوَرْدَةِ.

الدِّهَانُ: (بِكَسْرِ الدَّالِ) دُرْدِيُّ الزَّيْتِ. وَهَذَا تَشْبِيهٌ ثَانٍ لِلسَّمَاءِ فِي التَّمَوُّجِ وَالِاضْطِرَابِ.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ جُمْلَةِ الشَّرْطِ وَجُمْلَةِ الْجَوَابِ. تَكْرِيرٌ لِلتَّقْرِيرِ وَالتَّوْبِيخِ كَمَا هُوَ بيّن.

{ **فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ** } جَوَابُ شَرْطِ (إِذَا). وَاقْتَرَنَ بِالْفَاءِ لِأَنَّهَا صَدَرَتْ بِاسْمِ زمَان وَهُوَ (يَوْمَئِذٍ) وَذَلِكَ لَا يَصْلُحُ لِدُخُولِ (إِذَا) عَلَيْهِ.

وَالمعنى: نَفْيُ السُّؤَالِ الَّذِي يُرِيدُ بِهِ السَّائِلُ مَعْرِفَةَ حُصُولِ الْأَمْرِ الْمُتَرَدِّدِ فِيهِ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَلا

يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ } [الْقَصَص:78]. وَلَيْسَ هُوَ الَّذِي فِي قَوْله تَعَالَى { فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ } [الْحجر:93/92]، وَقَوْلِهِ تعالى { وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ } [الصافات:24]، فَإِنَّ ذَلِكَ لِلتَّقْرِيرِ وَالتَّوْبِيخِ، فَإِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَّسِعُ الزَّمَانِ، فَفِيهِ مُوَاطِنٌ لَا يُسْأَلُ أَهْلُ الذُّنُوبِ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، وَفِيهِ مُوَاطِنٌ يُسْأَلُونَ فِيهَا سُؤَالَ تَقْرِيرٍ وَتَوْبِيخٍ.

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } تَكْرِيرٌ للتقرير والتوبيخ.

{ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ } [41].

هَذَا اسْتِئْنَاف بياني ناشىء عَنْ قَوْلِهِ تعالى { فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ } [39]، أَيْ: يُسْتَغْنَى عَنْ سُؤَالِهِمْ بِظُهُورِ عَلَامَاتِهِمْ لِلْمَلَائِكَةِ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُونَ أَخْذَ عِقَابٍ وَيُسَاقُونَ إِلَى الْجَزَاءِ.

السِّيمَا: الْعَلَامَةُ. وَتَقَدَّمَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ } [الْبَقَرَة:273].

{ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ } وَ(الْ) هنا عِوَضٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، أَيْ: بِنَوَاصِيهِمْ وَأَقْدَامِهِمْ وَهُوَ اسْتِعْمَالٌ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ. وَالْأَخْذُ أَخذ تمكن لَا يُفْلِتُ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ } [العلق:15].

النَّوَاصِي: جَمْعُ نَاصِيَةٍ وَهِيَ الشّعْر الَّذِي فِي مُقَدَّمِ الرَّأْسِ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها } [هُودٍ:56].

الْأَقْدَامُ: جَمْعُ قَدَمٍ، وَهُوَ ظَاهِرُ السَّاقِ، إشارة إلى موضِعُ الْقَيْدِ.

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [42].

تَكْرِيرٌ كَمَا تَقَدَّمَ فِي نَظِيرِهَا الَّذِي قبلهَا.

{ هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ [43] يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ [44] }.

هَذَا مِمَّا يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَة على رُؤُوس الْمَلَأِ.

{ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ } وَصْفُ جَهَنَّمُ بِذَلِكَ تَسْفِيهٌ لِلْمُجْرِمِينَ وَفَضْحٌ لَهُمْ.

{ يَطُوفُونَ } حَالٌ مِنَ { الْمُجْرِمُونَ }، أَيْ: قَدْ تَبَيَّنَ سَفَهُ تَكْذِيبِهِمْ بِجَهَنَّمَ اتِّضَاحًا بَيِّنًا بِظُهُورِهَا لِلنَّاسِ وَبِأَنَّهُمْ يَتَرَدَّدُونَ خِلَالَهَا.

الطَّوَافُ: تَرْدَادُ الْمَشْيِ وَالْإِكْثَارِ مِنْهُ، يُقَالُ: طَافَ بِهِ، وَطَافَ عَلَيْهِ، وَمِنْهُ الطَّوَافُ بِالْكَعْبَةِ، وَالطَّوَافُ بِالصَّفَا

وَالْمَرْوَةِ، قَالَ تَعَالَى { فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما } [الْبَقَرَةِ:158].

الْحَمِيمُ: الْمَاءُ الْمُغَلَّى شَدِيدُ الْحَرَارَةِ.

وَالْمَعْنَى: يَمْشُونَ بَيْنَ مَكَانِ النَّارِ وَبَيْنَ الْحَمِيمِ، فَإِذَا أَصَابَهُمْ حَرُّ النَّارِ طَلَبُوا التَّبَرُّدَ فَلَاحَ لَهُمُ الْمَاء فَذَهَبُوا إِلَيْهِ فَأَصَابَهُمْ حَرُّهُ فَانْصَرَفُوا إِلَى النَّارِ دَوَالَيْكَ وَهَذَا كَقَوْلِهِ { وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ } [الْكَهْف:29].

آنٍ: اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ أَنَى، إِذَا اشتدّت حرارته.

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [45].

مِثْلُ مَوْقِعِ الَّذِي قَبْلَهُ فِي التكرير.

{ وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ [46] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [47] **ذَواتا أَفْنانٍ** [48] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [49] **فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ** [50] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [51] **فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ** [52] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [53] **}**.

عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ { يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ } [41] إِلَى آخِرِهَا، وَهُوَ أَظْهَرُ، لِأَنَّ قَوْلَهُ { يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ } يُفِيدُ مَعْنَى أَنَّهُمْ فِيهَا. وهذا انْتِقَالٌ مِنْ وَصْفِ جَزَاءِ الْمُجْرِمِينَ إِلَى ثَوَابِ الْمُتَّقِينَ.

{ لِمَنْ خافَ } لَامُ الْمِلْكِ، أَيْ: يُعْطَى مَنْ خَافَ رَبَّهُ وَيُمَلَّكُ جَنَّتَيْنِ، وَلَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جِنْسَ الْخَائِفِينَ لَا خَائِفٌ مُعَيَّنٌ، فَهُوَ مِنْ صِيَغِ الْعُمُومِ الْبَدَلِيِّ، بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ: وَلِلْخَائِفِ مَقَامَ رَبِّهِ.

{ جَنَّتانِ } ذُكِرَتِ الْجَنَّاتُ فِي الْقُرْآنِ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ غَيْرُ مَرَّةٍ وَسَيَجِيءُ بَعْدَ هَذَا قَوْلُهُ تعالى { وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ } [62]. فَالْمُرَادُ جِنْسَانِ مِنَ الْجَنَّاتِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ التَّثْنِيَةُ مُسْتَعْمَلَةً كِنَايَةً عَنِ التَّعَدُّدِ، وَهُوَ اسْتِعْمَالٌ مَوْجُودٌ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ وَفِي الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى { ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ } [الْملك:4].

وَإِيثَارُ صِيغَةِ التَّثْنِيَةِ هُنَا لِمُرَاعَاةِ الْفَوَاصِلِ السَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ فَقَدْ بُنِيَتْ قَرَائِنُ السُّورَةِ عَلَيْهَا وَالْقَرِينَةُ ظَاهِرَةٌ، وَإِلَيْهِ يَمِيلُ كَلَامُ الْفَرَّاءِ، وَعَلَى هَذَا فَجَمِيعُ مَا أُجْرِيَ بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ فِي شَأْنِ الْجَنَّتَيْنِ فَمُرَادٌ بِهِ الْجَمْعُ.

وَقِيلَ: أُرِيدُ جَنَّتَانِ تَحُفَّانِ بِقصور الْجَنَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مساكنهم آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ } [سبأ:15]. فَهُمَا جَنَّتَانِ بِاعْتِبَارِ يُمْنَةِ الْقَصْرِ وَيُسْرَتِهِ وَالْقَصْرُ فَاصِلٌ بَيْنَهُمَا.

الْمَقَامُ: أَصْلُهُ مَحَلُّ الْقِيَامِ، وَمَصْدَرٌ مِيمِيٌّ لِلْقِيَامِ، وَعَلَى الْوَجْهَيْنِ يُسْتَعْمَلُ مَجَازًا فِي الْحَالَةِ وَالتَّلَبُّسِ، كَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَجِيرُهُ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ، وَيُطْلَقُ عَلَى الشَّأْنِ وَالْعَظْمَةِ. إِنْ كَانَتْ عَلَى اعْتِبَارِ الْمَقَامِ لِلْخَائِفِ، فَهُوَ

بِمَعْنَى الْحَالِ، وَإِضَافَتُهُ إِلَى رَبِّهِ تُشْبِهُ إِضَافَةَ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَفْعُولِ، أَيْ: بَيْنَ يَدَيْهِ.
وَإِنْ كَانَتْ عَلَى اعْتِبَارِ الْمَقَامِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ بِمَعْنَى الشَّأْنِ وَالْعَظَمَةِ. وَإِضَافَتُهُ كَالْإِضَافَةِ إِلَى الْفَاعِلِ.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْمَوْصُوفِ وَالصِّفَةِ وَهِيَ تَكْرِيرٌ لِنَظَائِرِهَا.

ذَوَاتَا: تَثْنِيَةُ ذَاتٍ، وَ(الْوَاوُ) أَصْلِيَّةٌ لِأَنَّ أَصْلَ ذَاتٍ: ذَوَةٌ، وَالْأَلِفُ الَّتِي بَعْدَ (الْوَاوِ) إِشْبَاعٌ لِلْفَتْحَةِ لَازِمٌ لِلْكَلِمَةِ.
وَقِيلَ: الْأَلِفُ أَصْلِيَّةٌ وَأَنَّ أَصْلَ (ذَاتٍ) : ذَوَاتٌ، فَخُفِّفَتْ فِي الْإِفْرَادِ وَرَدَّتْهَا التَّثْنِيَةُ إِلَى أَصْلِهَا، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ } [سَبَأٍ:16].

الْأَفْنَانُ: جَمْعُ **فَنَنٍ** (بِفَتْحَتَيْنِ)، وَهُوَ الْغُصْنُ. وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَفْنَانٌ عَظِيمَةٌ كَثِيرَةُ الْإِيرَاقِ وَالْإِثْمَارِ بِقَرِينَةِ أَنَّ الْأَفْنَانَ لَا تَخْلُو عَنْهَا الْجَنَّاتُ فَلَا يُحْتَاجُ إِلَى ذِكْرِ الْأَفْنَانِ لَوْلَا قَصْدُ مَا فِي التَّنْكِيرِ مِنَ التَّعْظِيمِ.

{ **فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ** } تَثْنِيَةُ { عَيْنانِ } جَارٍ عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي تَثْنِيَةِ { جَنَّتانِ }.
وَفُصِلَ بَيْنَ الْأَفْنَانِ وَبَيْنَ ذِكْرِ الْفَاكِهَةِ بِذِكْرِ الْعَيْنَيْنِ مَعَ أَنَّ الْفَاكِهَةَ بِالْأَفْنَانِ أَنْسَبُ، لِأَنَّهُ لَمَّا جَرَى ذِكْرُ الْأَفْنَانِ، وَهِيَ مِنْ جَمَالِ مَنْظَرِ الْجَنَّةِ أُعْقِبَ بِمَا هُوَ مِنْ مَحَاسِنِ الْجَنَّاتِ وَهُوَ عُيُونُ الْمَاءِ جَمْعًا لِلنَّظِيرِينَ، ثُمَّ أُعْقِبَ ذَلِكَ بِمَا هُوَ مِنْ جَمَالِ الْمَنْظَرِ، أَعْنِي: الْفَوَاكِهَ فِي أَفْنَانِهَا وَهِي مِنْ مَلَذَّاتِ الذَّوْقِ.

{ **مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ** } وَأَنْوَاعُ فَوَاكِهِ الْجَنَّةِ كَثِيرَةٌ وَلَيْسَ لِكُلِّ فَاكِهَةٍ نَوْعَانِ: فَإِمَّا أَنْ نَجْعَلَ التَّثْنِيَةَ بِمَعْنَى الْجَمْعِ وَنَجْعَلَ إِيثَارَ صِيغَةِ التَّثْنِيَةِ لِمُرَاعَاةِ الْفَاصِلَةِ وَلِأَجْلِ الْمُزَاوَجَةِ مَعَ نَظَائِرِهَا مِنْ قَوْلِهِ تعالى { وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ } إِلَى هُنَا. وَإِمَّا أَنْ نَجْعَلَ تَثْنِيَةَ زَوْجانِ لِكَوْنِ الْفَوَاكِهِ بَعْضُهَا يُؤْكَلُ رَطْبًا وَبَعْضُهَا يُؤْكَلُ يَابِسًا مِثْلَ الرُّطَبِ وَالتَّمْرِ وَالْعِنَبِ وَالزَّبِيبِ.

{ **مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ** } بَيَانٌ لِـ { زَوْجانِ } مُقَدَّمٌ عَلَى الْمُبَيَّنِ لِرَعْيِ الْفَاصِلَةِ.
وَتَخَلُّلُ هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ بِآيَاتِ { **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } جَارٍ عَلَى وَجْهِ الِاعْتِرَاضِ وَعَلَى أَنَّهُ مُجَرَّدُ تَكْرِيرٍ كَمَا تقدّم أولاها.

{ مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ } [54].

حَالٌ مِنْ { لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ } [46]، وَجِيءَ بِالْحَالِ صِيغَةَ جمع بِاعْتِبَار معنى صَاحِبِ الْحَالِ وَصَلَاحِيَةِ لَفْظِهِ لِلْوَاحِدِ وَالْمُتَعَدِّدِ، لَا بِاعْتِبَارِ وُقُوعِ صِلَتِهِ بِصِيغَةِ الْإِفْرَادِ، فَإِنَّ ذَلِكَ اعْتِبَارٌ بِكَوْنِ (مَنْ) مُفْرَدَةَ اللَّفْظِ.
الْمَعْنَى: أُعْطُوا الْجِنَانَ وَاسْتَقَرُّوا بِهَا وَاتَّكَأُوا عَلَى فُرُشٍ.

الِاتِّكَاءُ: افْتِعَالٌ مِنَ الْوَكْءِ (مَهْمُوزُ اللَّامِ) وَهُوَ الِاعْتِمَادُ، فَصَارَ الِاتِّكَاءُ اسْمًا لِاعْتِمَادِ الْجَالِسِ وَمِرْفَقِهِ إِلَى الْأَرْضِ وَجَنْبِهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَهِيَ هَيْئَةٌ بَيْنَ الِاضْطِجَاعِ عَلَى الْجَنْبِ وَالْقُعُودِ، وَالِاتِّكَاءُ جِلْسَةُ أَهْلِ التَّرَفِ

الْمَخْدُومِينَ. وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً } [يُوسُفَ:31].
فُرُشٌ: جَمْعُ فِرَاشٍ كَكِتَابٍ وَكُتُبٍ. وَالْفِرَاشُ أَصْلُهُ مَا يُفْرَشُ، أَيْ: يُبْسَطُ عَلَى الْأَرْضِ لِلنَّوْمِ وَالِاضْطِجَاعِ. ثُمَّ أَطْلَقَ الْفِرَاشُ عَلَى السَّرِيرِ الْمُرْتَفِعِ عَلَى الْأَرْضِ بِسُوقٍ لِأَنَّهُ يُوضَعُ عَلَيْهِ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُفْرَشَ عَلَى الْأَرْضِ، كما في قَوْلِهِ تعالى { عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ } [الْوَاقِعَةِ:16/15]، وَفِي قوله تعالى { عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ } [الصَّافَّاتِ:44].
الْبَطَائِنُ: جَمْعُ بِطَانَةٍ (بِكَسْرِ الْبَاءِ) وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْبَطْنِ ضِدِّ الظَّهْرِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ هُنَا مَجَازٌ عَنِ الْأَسْفَلِ. يُقَالُ لِلْجِهَةِ السُّفْلَى: بَطْنٌ، وَلِلْجِهَةِ الْعُلْيَا ظَهْرٌ، فَيُقَالُ: بَطَنْتُ ثَوْبِي بِآخَرَ إِذَا جَعَلَ تَحْتَ ثَوْبِهِ آخَرَ، فَبِطَانَةُ الثَّوْبِ دَاخِلُهُ وَمَا لَا يَبْدُو مِنْهُ، وَضِدُّ الْبِطَانَةِ الظِّهَارَةُ (بِكَسْرِ الظَّاءِ)، وَمِنْ كَلَامِهِمْ: أَفْرَشَنِي ظَهْرَ أَمْرِهِ وَبَطْنَهُ، أَيْ عَلَانِيَّتَهُ وَسِرَّهُ.
فَالْبِطَانَةُ هِيَ الثَّوْبُ الَّذِي يُجْعَلُ عَلَى الْفِرَاشِ، وَالظِّهَارَةُ الثَّوْبُ الَّذِي يُجْعَلُ فَوْقَ الْبِطَانَةِ لِيَظْهَرَ، فَتَكُونُ الظِّهَارَةُ أَحْسَنَ مِنَ الْبِطَانَةِ فِي الْفِرَاشِ الْوَاحِدِ.
الْإِسْتَبْرَقُ: صِنْفٌ رَفِيعٌ مِنَ الدِّيبَاجِ الْغَلِيظِ. وَالدِّيبَاجُ: نَسِيجٌ غَلِيظٌ مِنْ حَرِيرٍ.
قَالَ الْفَخْرُ: هُوَ مُعَرَّبٌ عَنِ الْفَارِسِيَّةِ عَنْ كَلِمَةِ (اسْتبرك) بِكَافٍ فِي آخِرِهِ عَلامَة تَصْغِير (ستبر) بِمَعْنَى ثَخِينٍ، فَأَبْدَلُوا الْكَافَ قَافًا خَشْيَةَ اشْتِبَاهِ الْكَافِ بِكَافِ الْخِطَابِ. وَتَقَدَّمَ فِي [الْكَهْفِ:31].
{ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ } مَا يُقْطَفُ مِنَ الثَّمَرِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ ثَمَرَ الْجَنَّةِ دَانٍ مِنْهُمْ وَهُمْ عَلَى فُرُشِهِمْ.

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [55].
هُوَ مثل نَظَائِره.

{ فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ [56] فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ [57] كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ [58] }.

{ **فِيهِنَّ** } الضَمِيرُ عَائِدٌ إِلَى { فُرُشٍ }.
{ **قاصِراتُ الطَّرْفِ** } صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: نِسَاءٌ، وَشَاعَ الْمَدْحُ بِهَذَا الْوَصْفِ فِي الْكَلَامِ حَتَّى نَزَلَ مَنْزِلَةَ الْإِسْمِ. أي: نِسَاءٌ فِي نَظَرِهِنَّ مِثْلُ الْقُصُورِ، وَالْغَضُّ خِلْقَةٌ فِيهِنَّ.
الْقُصُورُ: مِثْلُ الْغَضِّ، مِنْ صِفَاتِ عُيُونِ الْمَهَا وَالظِّبَاءِ.

الطَّمْثُ: (بِفَتْحِ الطَّاءِ وَسُكُونِ الْمِيمِ) مَسِيسُ الْأُنْثَى الْبِكْرِ، أَيْ: مِنْ أَبْكَارٍ. وَعُبِّرَ عَنِ الْبَكَارَةِ بِذلك إِطْنَابًا فِي التَّحْسِينِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى { فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً } [الْوَاقِعَة:36].

وَهَؤُلَاءِ هُنَّ نِسَاءُ الْجَنَّةِ لَا أَزْوَاجَ الْمُؤْمِنِينَ اللَّائِي كُنْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

{ **إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ** } أَيْ: لَمْ يطمثهنّ أحد قبل، وَ{ وَلا جَانٌّ } تَتْمِيمٌ وَاحْتِرَاسٌ، وَهُوَ إِطْنَابٌ دَعَا إِلَيْهِ أَنَّ الْجَنَّةَ دَار ثَوَاب لصالحي الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

{ **كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ** } نَعْتٌ أَوْ حَالٌ مِنْ قاصِراتُ الطَّرْفِ. وَوَجْهُ الشَّبَهِ بِالْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ فِي لَوْنِ الْحُمْرَةِ الْمَحْمُودَةِ، أَيْ: حُمْرَةِ الْخُدُودِ، كَمَا يُشَبَّهُ الْخَدُّ بِالْوُرُدِ، وَيُطْلَقُ الْأَحْمَرُ عَلَى الْأَبْيَضِ فَمِنْهُ قوله صلى الله عليه وسلم: " **بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ** ".

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [59]

هُوَ مثل نَظَائِره.

{ هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلاَّ الْإِحْسانُ } [60].

تَذْيِيلٌ لِلْجُمَلِ الْمَبْدُوءَةِ بِقَوْلِهِ تعالى { وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ } [46]، أَيْ: لِأَنَّهُمْ أَحْسَنُوا فَجَازَاهُمْ رَبُّهُمْ بِالْإِحْسَانِ.

<u>الْإِحْسَانُ الْأَوَّلُ</u>: الْفِعْلُ الْحَسَنُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: أحسن فِي كَذَا.

<u>الْإِحْسَانُ الثَّانِي</u>: إِعْطَاءُ الْحَسَنِ، وَهُوَ الْخَيْرُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَحْسَنَ إِلَى فُلَانٍ.

وَالْاِسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلٌ فِي النَّفْيِ، وَلِذَلِكَ عُقِّبَ بِالْاِسْتِثْنَاءِ فَأَفَادَ حَصْرَ مُجَازَاةِ الْإِحْسَانِ فِي أَنَّهَا إِحْسَانٌ، وَهَذَا الْحَصْرُ إِخْبَارٌ عَنْ كَوْنِهِ الْجَزَاءَ الْحَقَّ وَمُقْتَضَى الْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ.

وَعُلِمَ مِنْهُ أَنَّ جَزَاءَ الْإِسَاءَةِ السُّوءُ، قَالَ تَعَالَى { جَزاءً وِفاقاً } [النبأ:26].

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [61].

الْقَوْلُ فِيهِ مِثْلُ الْقَوْلِ فِي نَظَائِره.

{ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ [62] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** [63] **مُدْهَامَّتَانِ** [64] **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ** [65] **فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ** [66] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [67] **فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ** [68] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [69] **}**.

عطْفٌ عَلَى قَوْله تعالى { جَنَّتانِ } [46]، أَيْ: وَمِنْ دُونِ تِينِكَ الْجَنَّتَيْنِ جَنَّتَانِ، أَيْ: لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ.

{ **وَمِنْ دُونِهِمَا** } يُحْتَمَلُ أَنَّ (دُونَ) بِمَعْنَى (غَيْرَ)، أَيْ: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ وَجَنَّتَانِ أُخْرَيَانِ غَيْرُهُمَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ } [يُونُس:26].

وَوُصِفَ مَا فِي هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ بِمَا يُقَارِبُ مَا وُصِفَ بِهِ مَا فِي الْجَنَّتَيْنِ الْأَوَّلِين وَصْفًا سَلَكَ فِيهِ مَسْلَكَ الْإِطْنَابِ أَيْضًا لِبَيَانِ حُسْنِهِمَا تَرْغِيبًا فِي السَّعْيِ لِنَيْلِهِمَا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، فَذَلِكَ مُوجَبُ تَكْرِيرِ بَعْضِ الْأَوْصَافِ أَو مَا يقرب مِنَ التَّكْرِيرِ بِالْمُتَرَادِفَاتِ. وَيَكُونُ لِكُلِّ الْجَنَّاتِ الْأَرْبَعِ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ لَا يَنْتَقِلْنَ مِنْ قُصُورِهِنَّ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (دُونَ) بِمَعْنَى (أَقَلّ)، أَيْ: لِنُزُولِ الْمَرْتَبَةِ، أَيْ: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ أقلّ من الْأَوَّلين فَيَقْتَضِي ذَلِك أَن هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ لِطَائِفَةٍ أُخْرَى مِمَّنْ خَافُوا مَقَامَ رَبِّهِمْ هُمْ أَقَلُّ مِنَ الْأَوَّلِينَ فِي دَرَجَةِ مَخَافَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَلَعَلَّ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ الَّذِينَ وَرَدَ ذِكْرُهُمْ فِي [الْوَاقِعَةِ:27]، والجنتين المذكورتين قبلهمَا فِي قَوْلِهِ تعالى { وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ - إلى قوله - كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ } [46-58]، جَنَّتَا السَّابِقَيْنِ الْوَارِدِ ذِكْرَهُمْ في قوله تعالى { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } [الْوَاقِعَةِ:10].

{ **مُدْهامَّتانِ** } وَصْفٌ مُشْتَقٌّ مِنَ **الدُّهْمَةِ** (بِضَمِّ الدَّالِ) وَهِيَ لَوْنُ السَّوَادِ. وَوَصَفَ الْجَنَّتَيْنِ بِالسَّوَادِ مُبَالَغَةً فِي شِدَّةِ خُضْرَةِ أَشْجَارِهِمَا حَتَّى تَكُونَا بِالْتِفَافِ أَشْجَارِهَا وَقُوَّةِ خُضْرَتِهَا كَالسَّوْدَاوَيْنِ، لِأَنَّ الشَّجَرَ إذا كَانَ ريّان اشْتَدَّتْ خُضْرَةُ أَوْرَاقِهِ حَتَّى تَقْرُبَ مِنَ السَّوَادِ.

نَضَّاخَتانِ: فَوَّارَتَانِ بِالْمَاءِ، وَالنَّضْخُ (بِخَاءٍ مُعْجَمَةٍ فِي آخِرِهِ) أَقْوَى مِنَ النَّضْحِ (بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ) الَّذِي هُوَ الرَّشُّ. وَقَدْ وُصِفَ الْعَيْنَانِ هُنَا بِغَيْرِ مَا وُصِفَ بِهِ الْعَيْنَانِ فِي الجنتين الْمَذْكُورَتَيْنِ؛

فَقِيلَ: هُمَا صِنْفَانِ مُخْتَلِفَانِ فِي أَوْصَافِ الْحُسْنِ يُشِيرُ اخْتِلَافُهُمَا إِلَى أَنَّ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ دُونَ الْأَوَّلَيْنِ فِي الْمَحَاسِنِ، وَلِذَلِكَ جَاءَ هُنَا { فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ }، وَجَاء سابقا { فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ } [52].

وَقِيلَ: الْوَصْفَانِ سَوَاءٌ، وَعَلَيْهِ فَالْمُخَالَفَةُ تَفَنُّنٌ.

{ **فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ** } عَطْفٌ عَلَى { فاكِهَةٌ } مِنْ بَابِ عَطْفِ الْجُزْئِيِّ عَلَى الْكُلِّيِّ تَنْوِيهًا بِبَعْضِ أَفْرَادِ الْجَنَّتَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ } [الْبَقَرَةِ:98].

وَجَاءَتْ جُمَلُ { **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } مُعْتَرِضَاتٌ بَيْنَ { جَنَّتانِ } وَصِفَاتِهَا اعْتِرَاضًا لِلِازْدِيَادِ مِنْ تَكْرِيرِ التَّقْرِيرِ وَالتَّوْبِيخِ لِمَنْ حُرِمُوا مِنْ تِلْكَ الجنات.

{ فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ [70] فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ [71] حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ [72] فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ [73] لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ [74] }.

{ **فِيهِنَّ** } الضَمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْجَنَّاتِ الْأَرْبَعِ؛ الْجَنَّتَيْنِ الْأَوْلَيَيْنِ وَالْجَنَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ مِنْ دُونِهِمَا.

<u>فَيَجُوزُ</u> أَنْ يَكُونَ لصَاحب الجنتين الْأَوَّلين جَنَّتَانِ أُخْرَيَانِ فَصَارَتْ لَهُ أَرْبَعُ جَنَّاتٍ.

<u>وَيَجُوزُ</u> أَنْ يَكُونَ تَوْزِيعًا عَلَى مَنْ خَافُوا رَبَّهُمْ كَمَا تَقَدَّمَ.

خَيْراتٌ: صِفَةٌ لِمَحْذُوفٍ يُنَاسِبُ صِيغَةَ الْوَصْفِ، أَيْ: نِسَاءٌ خَيْرَاتٌ، وَخَيْرَاتٌ مُخَفَّفٌ مِنْ خَيِّرَاتٍ (بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ) مُؤَنَّثُ خَيِّرٌ، وَهُوَ الْمُخْتَصُّ بِأَنَّ صِفَتَهُ الْخَيْرُ ضِدُّ الشَّرِّ. وَخُفِّفَ فِي الْآيَةِ طَلَبًا لِخِفَّةِ اللَّفْظِ مَعَ السَّلَامَة من اللَّبْسِ بِمَا أُتْبِعَ بِهِ من وَصْفِ { **حِسانٌ** } الَّذِي هُوَ جَمْعُ حَسْنَاءَ.

حُورٌ: بَدَلٌ مِنْ { خَيْراتٌ }. والحور: جَمْعُ حَوْرَاءَ وَهِيَ ذَاتُ الْحَوَرِ (بِفَتْحِ الْوَاوِ)، وَهُوَ وَصْفٌ مُرَكَّبٌ مِنْ مَجْمُوعِ شِدَّةِ بَيَاضِ أَبْيَضِ الْعَيْنِ وَشِدَّةِ سَوَادِ أَسْوَدِهَا وَهُوَ مِنْ مَحَاسِنِ النِّسَاءِ، وَتَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ } [الدُّخَان:54].

الْمَقْصُورَات: اللَّاء قُصِرْن عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ التَّرَفِ فِي نِسَاءِ الدُّنْيَا، فهنّ اللائي لَا يَحْتَجْنَ إِلَى مُغَادَرَةِ بِيُوتِهِنَّ لِخِدْمَةٍ، أَيْ: هُنَّ مَخْدُومَاتٌ مُكَرَّمَاتٌ.

الْخِيَامُ: جَمْعُ خَيْمَةٍ وَهِيَ الْبَيْتُ، وَأَكْثَرُ مَا تُقَالُ عَلَى الْبَيْتِ مَنْ أَدَمٍ أَوْ شَعْرٍ تُقَامُ عَلَى الْعَمَدِ، وَقَدْ تُطْلَقُ عَلَى بَيْتِ الْبِنَاءِ.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } اعتراض بَيْنَ الْبَدَلِ وَالْمُبْدَلِ مِنْهُ وَبَيْنَ الصِّفَتَيْنِ لِقَصْدِ التَّكْرِيرِ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَقْتَضِيهِ.

{ **لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ** } تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِيها آنِفا [56].

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [75].

تَكْرِيرٌ فِي آخِرِ الْأَوْصَافِ لِزِيَادَةِ التَّقْرِير والتوبيخ.

{ مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ } [76].

مُتَّكِئِينَ: حَالٌ مِنْ { وَلِمَنْ خاف مَقامَ رَبِّهِ } [46]، كُرِّرَتْ بِدُونَ عَطْفٍ لِأَنَّهَا فِي مَقَامِ تَعْدَادِ النِّعَمِ وَهُوَ مَقَامٌ يَقْتَضِي التَّكْرِيرَ اسْتِئْنَافًا.

الرَّفْرَفُ: ضَرْبٌ مِنَ الْبُسُطِ، وَهُوَ اسْمُ جَمْعِ رفرفة، وَهِي مَا يُبْسَطُ عَلَى الْفِرَاشِ لِيُنَامَ عَلَيْهِ، وَهِيَ تُنْسَجُ عَلَى

شِبْهِ الرِّيَاضِ وَيَغْلُبُ عَلَيْهَا اللَّوْنُ الْأَخْضَرُ.

{ **خُضْرٍ** } وَصْفٌ كَاشِفٌ لِاسْتِحْضَارِ اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ لِأَنَّهُ يَسُرُّ النَّاظِرَ. وَكَانَتِ الثِّيَابُ الْخُضْرُ عَزِيزَةً وَهِيَ لِبَاسُ الْمُلُوكِ وَالْكُبَرَاءِ.

حِسانٍ: جَمْعُ حَسْنَاءُ وَهُوَ صِفَةٌ لِـ { رَفْرَفٍ } إِذْ هُوَ اسْمُ جَمْعٍ.

{ **عَبْقَرِيٍّ** } وَصْفٌ لِمَا كَانَ فَائِقًا فِي صِنْفِهِ عَزِيزَ الْوُجُودِ، وَهُوَ نِسْبَةٌ إِلَى **عَبْقَرٍ** (بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ فَفَتْحَ) اسْمَ بِلَادِ الْجِنِّ فِي مُعْتَقَدِ الْعَرَبِ فَنَسَبُوا إِلَيْهِ كُلَّ مَا تَجَاوَزَ الْعَادَةَ فِي الْإِتْقَانِ وَالْحُسْنِ، حَتَّى كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْأَصْنَافِ الْمَعْرُوفَةِ فِي أَرْضِ الْبَشَرِ، قَالَ زُهَيْرٌ:

بِخَيْلٍ عَلَيْهَا جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ	جَدِيرُونَ يَوْمًا أَنْ يَنَالُوا وَيَسْتَعْلُوا

فَشَاعَ ذَلِكَ فَصَارَ الْعَبْقَرِيُّ وَصْفًا لِلْفَائِقِ فِي صِنْفِهِ كَمَا قَالَ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا حَكَاهُ مِنْ رُؤْيَا الْقَلِيبِ الَّذِي اسْتَسْقَى مِنْهُ : " **ثُمَّ أَخَذَهَا** (أَي: الذَّنُوبِ) **عُمَرُ فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ** ".

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [77].

هَذِهِ الْجُمْلَةُ آخِرُ الْجُمَلِ الْمُكَرَّرَةِ وَبِهَا انْتَهَى الْكَلَامُ الْمَسُوقُ لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَى تَفَرُّدِ اللهِ بالإنعام وَالتَّصَرُّف.

{ تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ } [78].

إِيذَانٌ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ وَفَذْلَكَةً لِمَا بُنِيَتْ عَلَيْهِ السُّورَةُ مِنَ التَّذْكِيرِ بِعَظَمَةِ اللهِ تَعَالَى وَنَعْمَائِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

{ **تَبارَكَ** } إِنْشَاءُ ثَنَاءٍ عَلَى اللهِ تَعَالَى مُبَالَغٍ فِيهِ بِصِيغَةِ التَّفَعُّلِ الَّتِي إِذَا كَانَ فِعْلُهَا غَيْرَ صَادِرٍ مِنِ اثْنَيْنِ فَالْمَقْصُودُ مِنْهَا الْمُبَالَغَةُ. وَالْمَعْنَى: وَصْفُهُ تَعَالَى بِكَمَالِ الْبَرَكَةِ.

الْبَرَكَةُ: الْخَيْرُ الْعَظِيمُ وَالنَّفْعُ، وَقَدْ تُطْلَقُ الْبَرَكَةُ عَلَى عُلُوِّ الشَّأْنِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْفُرْقَانِ.

الْإِسْمُ: مَا دَلَّ عَلَى ذَاتٍ سَوَاءَ كَانَ عَلَمًا مِثْلَ لَفْظِ (اللهِ)، أَوْ كَانَ صِفَةً مِثْلَ الصِّفَاتِ الْعُلَى وَهِيَ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، فَأَيُّ اسْمٍ قَدَّرْتَ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ فَهُوَ دَالٌّ عَلَى ذَاتِ اللهِ تَعَالَى.

وَأُسْنِدَ { تَبارَكَ } إِلَى { اسْمُ } وَهُوَ مَا يُعْرَفُ بِهِ الْمُسَمَّى دُونَ أَنْ يَقُولَ: تَبَارَكَ رَبُّكَ، كَمَا في قوله تعالى { تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ } [الْفُرْقَانَ:1]، وَفي قَوله تعالى { فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ } [الْمُؤْمِنُونَ:14]، لقصد الْمُبَالَغَةِ فِي وَصفه تَعَالَى بِصِفَةِ الْبَرَكَةِ عَلَى طَرِيقَةِ الْكِنَايَةِ لِأَنَّهَا أَبْلَغُ مِنَ التَّصْرِيحِ.

فَذِكْرُ { اسْمُ } مُرَاعًى فِيهِ أَنَّ مَا عدّد من شؤون اللهِ تَعَالَى وَنِعَمِهِ لَا تُحِيطُ بِهِ الْعِبَارَةُ، فَعُبِّرَ عَنْهُ بِهَذِهِ الْمُبَالَغَةِ، إِذْ هِيَ أَقْصَى مَا تَسْمَحُ بِهِ اللُّغَةُ فِي التَّعْبِيرِ، لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُمْ مَحْقُوقُونَ لِلَّهِ تَعَالَى بِشُكْرٍ يُوَازِي عِظَمَ نِعَمِهِ.

{ **رَبِّكَ** } فِي اسْتِحْضَارِ الْجَلَالَةِ بِعُنْوَانِ (رَبِّ) مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطب، وَهُوَ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِشَارَةٌ إِلَى مَا فِي مَعْنَى (الرَّبِّ) مِنَ السِّيَادَةِ الْمَشُوبَةِ بِالرَّأْفَةِ وَالتَّنْمِيَةِ، وَإِلَى مَا فِي الْإِضَافَةِ مِنَ التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَإِلَى كَوْنِ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْوَاسِطَةُ فِي حُصُولِ تِلْكَ الْخَيِّرَاتِ لِلَّذِينِ خَافُوا مَقَامَ رَبِّهِمْ بِمَا بَلَّغَهُمْ مِنَ الْهُدَى.

{ **ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ** } في قِرَاءَةِ الْجُمْهُورُ مَجْرُورًا صِفَةً لِـ { رَبِّكَ } وَهُوَ كَذَلِكَ مَرْسُومٌ فِي غَيْرِ الْمُصْحَفِ الشَّامِيّ. وَقَرَأَهُ ابْنُ عَامِرٍ { ذُو الْجَلالِ } صِفَةً لِـ { اسْمُ } كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى { وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ } [27]. وَكَذَلِكَ هُوَ مَرْسُومٌ فِي غَيْرِ مُصْحَفِ أَهْلِ الشَّامِ. وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ عَلَى الِاعْتِبَارَيْنِ.

وَلَكِنَّ إِجْمَاعَ الْقُرَّاءِ عَلَى رَفْعِ ذُو الْجَلالِ في { وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ } وَاخْتِلَافُ الرِّوَايَةِ فِي جَرِّ ذِي الْجَلالِ هُنَا يُشْعِرُ بِأَنَّ لَفْظَ (وَجْهُ) أَقْوَى دَلَالَةٍ عَلَى الذَّاتِ مَنْ لَفْظِ اسْمُ.

الْجَلَالُ: الْعَظَمَةُ، وَهُوَ جَامِعٌ لِصِفَاتِ الْكَمَالِ اللَّائِقَةِ بِهِ تَعَالَى.

الْإِكْرَام: إِسْدَاءُ النِّعْمَةِ وَالْخَيْرِ، فَهُوَ إِذْنٌ حَقِيقٌ بِالثَّنَاءِ وَالشُّكْرِ.

بسم الله الرحمان الرحيم

سورة الواقعة

سُمّيت هذه السورة (**الواقعة**) بتسمية النبيّ صلى الله عليه وسلم. روى الترمذي عن ابن عباس قال : قال أبو بكر: يا رسول الله قد شِبْتَ، قال : **شَيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كوّرت "**، [قال الترمذي حديث حسن غريب].

وكذلك سمّيت في عصر الصحابة. روى أحمد عن جابر بن سمرة قال : " كان رسول الله يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور ". وهكذا سُمّيت في المصاحف وكتب السنّة، فلا يُعرف لها اسم غير هذا.

وهي مكية، قال أبن عطية : باجتماع من يُعتدُّ به من المفسّرين. وقيل: فيها آيات مدنية، أي: نزلت في السفر، وهذا كلّه غير ثابت ".

وَهِيَ السُّورَةُ **السَّادِسَةُ وَالْأَرْبَعُونَ** فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ عِنْدَ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ طه وَقَبْلَ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ.

وَقَدْ عَدَّ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالشَّامِ **آيها تِسْعًا وَتِسْعِينَ**، وَعدَّهَا أَهَّلُ الْبَصْرَةِ سَبْعًا وَتِسْعِينَ وَأَهْلُ الْكُوفَةِ سِتًّا وَتِسْعِينَ.

وَهَذِهِ السُّورَةُ جَامِعَةٌ لِلتَّذْكِيرِ، قَالَ مَسْرُوق: " مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ نَبَأَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَنَبَأَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَنَبَأَ أَهْلِ النَّارِ وَنَبَأَ أَهْلِ الدُّنْيَا وَنَبَأَ أَهْلِ الْآخِرَةِ فَلْيَقْرَأْ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ ".

أغراض السُّورَة

*/ التَّذْكِيرُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَتَحْقِيقُ وُقُوعِهِ.

*/ وَصْفُ مَا يُعْرَضُ لِهَذَا الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ عِنْدَ سَاعَةِ الْقِيَامَةِ.

*/ صِفَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَبَعْضُ نَعِيمِهِم، وصِفَةُ أَهْلِ النَّارِ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَأَنَّ ذَلِكَ لِتَكْذِيبِهِمْ بِالْبَعْثِ.

*/ إِثْبَاتُ الْحَشْرِ وَالْجَزَاءِ وَالْإِسْتِدْلَالِ عَلَى إِمْكَانِ الْخَلْقِ الثَّانِي بِمَا أَبْدَعَهُ اللَّهُ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ.

*/ الْإِسْتِدْلَالُ بِدَلَائِلِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى.

*/ الْإِسْتِدْلَالُ بِنَزْعِ اللهِ الْأَرْوَاحَ مِنَ الْأَجْسَادِ وَالنَّاسُ كَارِهُونَ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مَنْعَهَا مِنَ الْخُرُوجِ، عَلَى أَنَّ الَّذِي قَدِرَ عَلَى نَزْعِهَا بِدُونِ مُدَافِعٍ قَادِرٌ عَلَى إِرْجَاعِهَا مَتى أَرَادَ.

*/ تَأْكِيدُ أَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَأَنَّهُ نعمة أنعم الله بِهَا عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَشْكُرُوهَا وَكَذَّبُوا بِمَا فِيهِ.

{ إِذَا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ [1] لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ [2] }.

افْتِتَاحُ السُّورَةِ بِالظَّرْفِ الْمُتَضَمِّنِ الشَّرْطَ، افْتِتَاحٌ بَدِيعٌ لِأَنَّهُ يَسْتَرْعِي الْأَلْبَابَ لِتَرَقُّبِ مَا بَعْدَ هَذَا الشَّرْطِ الزَّمَانِيِّ، مَعَ مَا فِي الْإِسْمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ مِنَ التَّهْوِيلِ بِتَوَقُّعِ حَدَثٍ عَظِيمٍ يَحْدُثُ.

{ **إِذَا** } ظَرْفُ زَمَانٍ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِالْكَوْنِ الْمُقَدَّرِ فِي قَوْلِهِ تعالى { فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } [12]، وَقَوْلِهِ تعالى { فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ } [28]، وَقَوْلِهِ تعالى { فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ } [42]. وَضُمِّنَ { إذا } مَعْنَى الشَّرْطِ.

{ **لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ** } اسْتِئْنَاف بياني ناشىء عَنْ قَوْلِهِ تعالى { إذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ }، وَهُوَ اعْتِرَاض بَين جملة { إذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ } وَجُمْلَةِ { فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ } [8].

وَجَوَابُ الشَرْطِ قَوْلُهُ تعالى { فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ } [9/8]، فيُفيد جَوَابًا لِلشَّرْطِ وَيُفِيدُ تَفْصِيلَ جُمْلَةِ { وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً } [7]، وَتَكُونُ (الْفَاءُ) مُسْتَعْمَلَةً فِي مَعْنَيَيْنِ: رَبَطِ الْجَوَابِ، وَالتَّفْرِيعِ، وَتَكُونُ جُمْلَةُ { لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ } وَمَا بَعْدَهُ اعْتِرَاضًا.

الْوَاقِعَةُ: أَصْلُهَا الْحَادِثَةُ الَّتِي وَقَعَتْ، أَيْ: حَصَلَتْ. وَمِنْ ذَلِكَ حَادِثَةُ الْحَرْبِ يُقَالُ: وَاقِعَةُ الْقَادِسِيَّةِ.

رَاعَوْا فِي تأنيثها معنى الْحَادِثِ أَوِ الْكَائِنَةِ أَوِ السَّاعَةِ، وَهُوَ تَأْنِيثٌ كَثِيرٌ فِي اللُّغَةِ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ.

وَالْمُرَادُ بِالْوَاقِعَةِ هُنَا **الْقِيَامَةُ**، فَجُعِلَ هَذَا الْوَصْفُ عَلَمًا لَهَا بِالْغَلَبَةِ فِي اصْطِلَاحِ الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى { فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ } [الحاقة:15]، كَمَا سُمِّيَتِ (الصَّاخَّةُ) وَ(الطَّامَّةُ) وَ(الْآزِفَةُ).

{ **لِوَقْعَتِهَا** } لَامُ التَّوْقِيتِ، كما في قوله تعالى { أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } [الْإِسْرَاء:78]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى { فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ } [الطَّلَاق:1]. وَهِيَ بِمَعْنَى (عِنْدَ)، وَأَصْلُهَا لَامُ الْإِخْتِصَاصِ شَاعَ اسْتِعْمَالُهَا فِي اخْتِصَاصِ الْمُوَقَّتِ بِوَقْتِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا } [الْأَعْرَاف:143].

وَفِي الْحَدِيثِ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: " **الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا** ".

{ **كَاذِبَةٌ** } يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْمَ فَاعِلٍ مِنْ كَذَبَ الْمُجَرَّدُ، جَرَى عَلَى التَّأْنِيثِ لِلدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُ وَصْفٌ لِمَحْذُوفٍ مُؤَنَّثِ اللَّفْظِ. وَتَقْدِيرُهُ هُنَا: نَفْسٌ، أَيْ: تَنْتَفِي كُلُّ نَفْسٍ كَاذِبَةٍ.

فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَذَبَ اللَّازِمِ إِذَا قَالَ خِلَافَ مَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَذَلِكَ أَنَّ مُنْكِرِي الْقِيَامَةِ يَقُولُونَ: لَا تَقَعُ الْقِيَامَةُ فَيَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ فَإِذَا وَقَعَتِ آمَنَتِ النُّفُوسُ كُلُّهَا بِوُقُوعِهَا فَلَمْ تَبْقَ نَفْسٌ تُكَذِّبُ. وَذَلِكَ التَّقْدِيرُ كُلُّهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَقَامُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَذَبَ الْمُتَعَدِّي، مِثْلَ الَّذِي فِي قَوْلِهِمْ: كَذَبَتْ فَلَانا نَفْسُهُ، أَيْ: حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِحَدِيثِ كَذِبٍ، وَذَلِكَ أَنَّ اعْتِقَادَ الْمُنْكِرِ لِلْبَعْثِ اعْتِقَادٌ سَوَّلَهُ لَهُ عَقْلُهُ الْقَاصِرُ، فَكَأَنَّ نَفْسَهُ حَدَّثَتْهُ حَدِيثًا كَذَبَتْهُ بِهِ.

وَالْمَعْنَى: إِذَا وَقَعَتِ الْقِيَامَةُ تَحَقَّقَ مُنْكِرُوهَا ذَلِكَ فَأَقْلَعُوا عَنِ اعْتِقَادِهِمْ أَنَّهَا لَا تَقَعُ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ ضَلُّوا فِي اسْتِدْلَالِهِمْ، وَهَذَا وَعِيدٌ بِتَحْذِيرِ الْمُنْكِرِينَ لِلْقِيَامَةِ مِنْ خِزْيِ الْخَيْبَةِ وَسَفَاهَةِ الرَّأْيِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَشْرِ.

{ **خافِضَةٌ رافِعَةٌ** } [3].

خَبَرَانِ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ ضمير { الْواقِعَةُ } [1]، أَيْ: هِيَ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ، أَيْ: يَحْصُلُ عِنْدَهَا خَفْضُ أَقْوَامٍ كَانُوا مُرْتَفِعِينَ وَرَفْعُ أَقْوَامٍ كَانُوا مُنْخَفَضَيْنِ، وَذَلِكَ بِخَفْضِ الْجَبَابِرَةِ وَالْمُفْسِدِينَ، الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا فِي رِفْعَةٍ وَسِيَادَةٍ، وَبِرَفْعِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا لَا يَعْبَأُون بِأَكْثَرِهِمْ، وَهِيَ أَيْضًا خَافِضَةُ جِهَاتٍ كَانَتْ مُرْتَفِعَةً كَالْجِبَالِ، رَافِعَةُ مَا كَانَ مُنْخَفِضًا بِسَبَبِ الِانْقِلَابِ بِالرَّجَّاتِ الْأَرْضِيَّةِ.

وَإِسْنَادُ الْخَفْضِ وَالرَّفْعِ إِلَى الْوَاقِعَةِ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ إِذْ هِيَ وَقْتُ ظُهُورِ ذَلِكَ.

وَفِي الآية مُحَسِّنُ الطباق مَعَ الإغراب، بِثُبُوتِ الضِّدَّيْنِ لشَيْءٍ وَاحِد.

{ **إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا** [4] **وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا** [5] **فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا** [6] **وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً** [7] }.

{ **إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ** } بَدَلٌ مِنْ جُمْلَةِ { إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ } [1]، وَهُوَ بَدَلُ اشْتِمَالٍ. أي: رَجَّهَا رَاجٌّ، وَهُوَ مَا يَطْرَأُ فِيهَا مِنَ الزَّلَازِلِ وَالْخَسْفِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

الرَّجُّ: الِاضْطِرَابُ وَالتَّحَرُّكُ الشَّدِيدُ.

{ **رَجًّا** } تَأْكِيدُهُ بِالْمَصْدَرِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَحَقُّقِهِ وَلِيَتَأَتَّى التَّنْوِينُ الْمُشْعِرُ بِالتَّعْظِيمِ وَالتَّهْوِيلِ.

الْبَسُّ: يُطْلَقُ بِمَعْنَى الْتَفَتُّتِ، وَهُوَ تَفَرُّقُ الْأَجْزَاءِ الْمَجْمُوعَةِ. أَيْ: فُتِّتَتِ الْجِبَالُ وَنُسِفَتْ، فَيَكُونُ كَقَوْلِه تَعَالَى { وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً } [طه:106/105].

وَيُطْلَقُ الْبَسُّ أَيْضًا عَلَى السَّوْقِ لِلْمَاشِيَةِ، يُقَالُ: بَسَّ الْغَنَمَ، إِذَا سَاقَهَا. وَفِي الْحَدِيثِ: " **فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبِسُّونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ". فَهُوَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى { وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ } [الْكَهْف:47]، وَقَوْلِهِ تعالى { وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ } [النبأ:20].

{ **بَسًّا** } كَالتَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تعالى { رَجًّا }، لِإِفَادَةِ التَّعْظِيمِ بِالتَّنْوِينِ.

{ **فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا** } تَفْرِيعٌ عَلَى { بُسَّتِ الْجِبالُ } لَائِق بمعنى الْبَسِّ، لِأَنَّ الْجِبَالَ إِذَا سُيِّرَتْ فَإِنَّمَا تَسَيَّرُ تَسْيِيرًا يُفَتِّتُهَا وَيُفَرِّقُهَا، أَيْ: تَسْيِيرَ بَعْثَرَةٍ وَارْتِطَامٍ. تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ، أَيْ: فَكَانَتْ كَالْهَبَاءِ الْمُنْبَثِّ.

الْهَبَاءُ: مَا يَلُوحُ فِي خُيُوطِ شُعَاعِ الشَّمْسِ مِنْ دَقِيقِ الْغُبَارِ، كقَوْلِهِ تَعَالَى { فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً} [الْفُرْقَان:23].

الْمُنْبَثُّ: اسْمُ فَاعِلِ انْبَثَّ، مُطَاوِعُ بَثَّهُ، إِذَا فَرَّقَهُ. وَاخْتِيرَ هَذَا الْمُطَاوِعُ لِمُنَاسَبَتِهِ مَعَ قَوْلِهِ { وَبُسَّتِ الْجِبالُ }.

{ **وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً** } الْخِطَابُ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ، وَهَذَا تَخَلُّصٌ لِلْمَقْصُودِ مِنَ السُّورَةِ وَهُوَ الْمَوْعِظَةُ.

الْأَزْوَاجُ: الْأَصْنَافُ. وَالزَّوْجُ يُطْلَقُ عَلَى الصِّنْفِ وَالنَّوْعِ، كَقَوْلِه تَعَالَى { فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ } [الرَّحْمَن:52]، وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ الصِّنْفَ إِذَا ذُكِرَ يُذْكَرُ مَعَهُ نَظِيرُهُ غَالِبًا فَيكون زوجا.

{ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ [8] وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ [9] وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ [10] أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ [11] فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ [12] }.

{ **فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ** } الْفَاءَ لِرَبْطِ الْجَزَاءِ مَعَ التَّفْصِيلِ لِلْإِجْمَالِ، وَتَكُونُ الجُمْلَةُ جَوَابًا لِـ (إِذَا) الثَّانِيَةِ [4]، آئِلًا إِلَى كَوْنِهِ جَوَابًا لِـ (إِذَا) الْأُولَى [1]، لِأَنَّ الثَّانِيَةَ مُبْدَلَةٌ مِنْهَا.

وَقَدْ أَفَادَ التَّفْصِيلُ أَنَّ الْأَصْنَافَ ثَلَاثَةٌ:

<u>صِنْفٌ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ</u>، وَهُمُ الَّذِينَ يُجْعَلُونَ فِي الْجِهَةِ الْيُمْنَى فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي الْمَحْشَرِ. وَالْيَمِينُ جِهَةُ عِنَايَةٍ وَكَرَامَةٍ فِي الْعُرْفِ، وَاشْتُقَّتْ مِنَ الْيُمْنِ، أَي: الْبَرَكَةِ.

<u>صِنْفٌ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ</u>، وَهِيَ اسْمُ جِهَةٍ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الشُّؤْمِ، وَهُوَ ضِدُّ الْيُمْنِ فَهُوَ الضُّرُّ وَعَدَمُ النَّفْعِ وَقد سُمِّيَا فِي الْآيَةِ الْآتِيَةِ { أَصْحابُ الْيَمِينِ } [27] و{ أَصْحابُ الشِّمالِ } [41]، فَجُعِلَ الشِّمَالُ ضِدَّ الْيَمِينِ، كَمَا جُعِلَ الْمَشْأَمَةُ هُنَا ضِدَّ الْمَيْمَنَةِ إِشْعَارًا بِأَنَّ حَالَهُمْ حَالُ شُؤْمٍ وَسُوءٍ.

وَكُلُّ ذَلِكَ <u>مُسْتَعَارٌ لِمَا عُرِفَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ</u> مِنْ إِطْلَاقِ هَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى الْكِنَائِيِّ الَّذِي شَاعَ حَتَّى سَاوَى الصَّرِيحَ، وَأَصْلُهُ جَاءَ مِنَ الزَّجْرِ وَالْعِيَافَةِ إِذْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ حُصُولَ خَيْرٍ مِنْ أَغْرَاضِهِمْ مِنْ مُرُورِ الطَّيْرِ أَوِ الْوَحْشِ مِنْ يَمِينِ الزَّاجِرِ إِلَى يَسَارِهِ وَيَتَوَقَّعُونَ الشَّرَّ مِنْ مُرُورِهِ بِعَكْسِ ذَلِكَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ } [الصَّافَّاتِ:28]، وَعِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ } [الْأَعْرَافِ:131]، وَعِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ } [يس:18].

وَلِذَلِكَ اسْتُغْنِيَ هُنَا عَنِ الْإِخْبَارِ عَنْ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ بِخَبَرٍ فِيهِ وَصْفُ بَعْضِ حَالَيْهِمَا بِذِكْرِ مَا هُوَ إِجْمَالٌ لِحَالَيْهِمَا مِمَّا يَشْعُرُ بِهِ مَا أُضِيفَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ مِنْ لَفْظَيِ الْمَيْمَنَةِ وَالْمَشْأَمَةِ بِطَرِيقَةِ الْاِسْتِفْهَامِ الْمُسْتَعْمَلِ فِي التَّعْجِيبِ مِنْ حَالِ الْفَرِيقَيْنِ، وَهُوَ تَعْجِيبٌ تُرِكَ عَلَى إِبْهَامِهِ هُنَا لِتَذْهَبَ نَفْسُ السَّامِعِ كُلَّ مَذْهَبٍ مُمْكِنٍ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ،

{ **مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ / مَا أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ** } الـ (مَا) فِي الْمَوْضِعَيْنِ اسْمُ اسْتِفْهَامٍ، وَ(أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَاب الْمَشْأَمَةِ) خَبَرَانِ عَنْها، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ } [الْحَاقَّةُ:2/1]، وَقَوْلِهِ تعالى { الْقارِعَةُ مَا الْقارِعَةُ } [الْقَارِعَةُ:2/1].

{ **أَصْحَابُ** } فِي الْمَوْضِعَيْنِ إِظْهَارٌ، لِأَنّ مقَام التعجيب وَالتَّشْهِيرِ يَقْتَضِي الْإِظْهَار، بِخِلَاف مقَام قَوْلِهِ تَعَالَى { وَما أَدْراكَ مَا هِيَهْ } [القارعة:10].

الصِّنْفُ الثَّالِثُ فِي الْعَدِّ، { **وَالسَّابِقُونَ** } وَهُمُ الصِّنْفُ الأَفْضَلُ مِنَ الأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ، وَوَصْفُهُمْ بِالسَّبْقِ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ سَابِقُونَ أَمْثَالَهُمْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ عُبِّرَ عَنْهُمْ بِأَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ، فَهُمْ سَابِقُونَ إِلَى الْخَيْرِ، فَالنَّاسُ لَا يَتَسَابَقُونَ إِلَّا لِنَوَالِ نَفِيسٍ مَرْغُوبٍ، وَأَمَّا الشَّرُّ والضرّ فهم يتكعكعون عَنْهُ.

السَّبْقِ: حَقِيقَتُهُ وُصُولُ أَحَدٍ مَكَانًا قَبْلَ وُصُولِ أَحَدٍ آخَرَ. وَهُوَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ.

فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعْمَلًا فِي الْمُبَادَرَةِ وَالْإِسْرَاعِ إِلَى الْخَيْرِ فِي الدِّينِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ } [التوبة:100].

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعْمَلًا فِي الْمُغَالَبَةِ فِي تَحْصِيلِ الْخَيْرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى { أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ } [الْمُؤْمِنِينَ:61].

{ **السَّابِقُونَ** } الثَّانية يَجُوزُ جَعْلُها خَبَرًا عَنِ الْأُولى كَمَا أَخْبَرَ عَنْ أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ بِأَنَّهُمْ مَا أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ. وَيَجُوزُ جَعْلُها تَأْكِيدًا لِلْأُولى.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ حَالَهُمْ بَلَغَتْ مُنْتَهَى الْفَضْلِ وَالرِّفْعَةِ بِحَيْثُ لَا يَجِدُ الْمُتَكَلِّمُ خَبَرًا يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُمْ أَدَلَّ عَلَى مَرْتَبَتِهِمْ مِنَ اسْمِ السَّابِقُونَ، فَهَذَا الْخَبَرُ أَبْلَغُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى شَرَفِ قَدْرِهِمْ مِنَ الْإِخْبَارِ بِـ (مَا) الْإِسْتِفْهَامِيَّةُ التَّعَجِيبِيَّةِ فِي قَوْلِهِ { مَا أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ }. مَعَ مَا فِي اشْتِقَاقِ لَقَبِهِمْ مِنَ (السَّبْقِ) مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى بُلُوغِهِمْ أَقْصَى مَا يَطْلُبُهُ الطَّالِبُونَ.

فَمَآلُ جُمْلَةِ { مَا أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ } وَنَظِيرَتُهَا وَجُمْلَةُ { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } هُوَ التعجيب مِنْ حَالِهِمْ وَطَرِيقُهُ هُوَ الْكِنَايَةُ وَلَكِنَّ بَيْنَ الْكِنَايَتَيْنِ فَرْقًا بِأَنَّ إِحْدَاهُمَا كَانَتْ مِنْ طَرِيقِ السُّؤَالِ عَنِ الْوَصْفِ، وَالْأُخْرَى مِنْ طَرِيقِ تَعَذُّرِ التَّعْبِيرِ بِغَيْرِ ذَلِكَ الْوَصْفِ.

وَحَذْفُ مُتَعَلِّقِ السَّابِقُونَ فِي الْآيَةِ لِقَصْدِ جَعْلِ وَصْفِ السَّابِقُونَ بِمَنْزِلَةِ اللَّقَبِ لَهُمْ، وَلِيُفِيدَ الْعُمُومَ، أَيْ أَنَّهُمْ سَابِقُونَ فِي كُلِّ مَيْدَانٍ تَتَسَابَقُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ الزَّكِيَّةُ، كَقَوْلِهِ { وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ } [المطففين:26].

وَأُخِّرَ السَّابِقُونَ فِي الذِّكْرِ عَنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ لِتَشْوِيقِ السَّامِعِينَ إِلَى مَعْرِفَةِ صِنْفِهِمْ بَعْدَ أَنْ ذُكِرَ الصِّنْفَانِ الْآخَرَانِ مِنَ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ، تَرْغِيبًا فِي الْإِقْتِدَاءِ.

{ **أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** } مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا لِأَنَّهَا جَوَابٌ عَمَّا يُثِيرُهُ قَوْلُهُ تعالى { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } مِنْ تَسَاؤُلِ السَّامِعِ عَنْ أَثَرِ التَّنْوِيهِ بِهِمْ.

{ **أُولئِكَ** } فِي جَعْلِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ اسْمَ إِشَارَةٍ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُمْ أَحْرِيَاءُ بِمَا يُخْبِرُ عَنْهُ مِنْ أَجْلِ الْوَصْفِ الْوَارِدِ قَبْلَ اسْمِ الْإِشَارَةِ وَهُوَ أَنّهم السَّابِقُون، عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ } [الْبَقَرَة:5].

وَبِذَلِكَ كَانَ هَذَا ابْتِدَاءَ تَفْصِيل لجزاء الْأَصْنَاف الثَّلَاثَةِ عَلَى طَرِيقَةِ النَّشْرِ بَعْدَ اللَّفِّ، نَشْرًا مُشَوَّشًا تَشْوِيشًا اقْتَضَتْهُ مُنَاسَبَةُ اتِّصَالِ الْمَعَانِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ صِنْفٍ أَقْرَبَ ذِكْرًا، ثُمَّ مُرَاعَاةُ الْأَهَمِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الصِّنْفَيْنِ

الْبَاقِيِيْنِ، فَكَانَ بَعْضُ الْكَلَامِ آخِذًا بِحُجُزِ بَعْضٍ.

الْمُقَرَّبُ: أَبْلَغُ من الْقَرِيب لِدَلَالَةِ صِيغَتِهِ عَلَى الِاصْطِفَاءِ وَالِاجْتِبَاءِ، وَذَلِكَ قُرْبٌ مَجَازِيٌّ، أَيْ: شُبِّهَ بِالْقُرْبِ فِي مُلَابَسَةِ الْقَرِيب والاهتمام بشؤونه، فَإِنّ الْمُطِيع بمجاهدته فِي الطَّاعَةِ يَكُونُ كَالْمُتَقَرِّبِ إِلَى اللهِ، أَيْ: طَالِبِ الْقُرْبِ مِنْهُ، فَإِذَا بَلَغَ مَرْتَبَةً عَالِيَةً مِنْ ذَلِكَ قَرَّبَهُ اللهُ، أَيْ: عَامَلَهُ مُعَامَلَةَ الْمُقَرَّبِ الْمَحْبُوبِ.

كَمَا جَاءَ:في الحديثالقدسي: " **وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرجله الَّذِي يَمْشِي بِهَا وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ** ". وَكُلُّ هَذِهِ الْأَوْصَافِ مَجَازِيَّةٌ تَقْرِيبًا لِمَعْنَى التَّقْرِيبِ.

وَلَمْ يُذْكَرْ مُتَعَلِّقُ { الْمُقَرَّبُونَ } لِظُهُورِ أَنَّهُ مُقَرَّبٌ مِنَ اللهِ، أَيْ: مِنْ عِنَايَتِهِ وَتَفْضِيلِهِ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يُذْكَرْ زَمَانُ التَّقْرِيبِ وَلَا مَكَانُهُ لِقَصْدِ تَعْمِيمِ الْأَزْمَانِ وَالْبِقَاعِ الِاعْتِبَارِيَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

{ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ [13] وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ [14] }.

اعْتِرَاضٌ بَيْنَ جُمْلَةِ { فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } [12] وَجُمْلَةِ { عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ } [15]. وَهَذَا الِاعْتِرَاضُ يُقْصَدُ مِنْهُ التَّنْوِيهُ بِصِنْفِ السَّابِقين وتفضيلهم بطريق الْكِنَايَةِ عَنْ ذَلِكَ بِلَفْظَيْ { ثُلَّةٌ / قَلِيلٌ } الْمُشْعِرَيْنَ بِأَنَّهُمْ قُلٌّ مِنْ كُثْرٍ، فَيَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ صِنْفٌ عَزِيزٌ لِمَا عُهِدَ فِي الْعُرْفِ مِنْ قِلَّةِ الْأَشْيَاءِ النَّفِيسَةِ.

مَعَ بِشَارَةِ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّ حَظَّهُمْ فِي هَذَا الصِّنْفِ كَحَظِّ الْمُؤْمِنِينَ السَّالِفِيْنَ أَصْحَابِ الرُّسُلِ، لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا قَدْ سَمِعُوا فِي الْقُرْآنِ وَفِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَنْوِيهًا بِثَبَاتِ الْمُؤْمِنَيْنِ السَّالِفِيْنَ مَعَ الرُّسُلِ وَمُجَاهَدَتِهِمْ فَرُبَّمَا خَامَرَ نُفُوسَهُمْ أَنَّ تِلْكَ صِفَةٌ لَا تُنَالُ بَعْدَهُمْ فَبَشَّرَهُمُ اللهُ بِأَنَّ لَهُمْ حَظًّا مِنْهَا.

وَلِمَا فِي هَذَا الِاعْتِرَاضِ مِنَ الْإِشْعَارِ بِالْعِزَّةِ قُدِّمَ عَلَى ذِكْرِ مَا لَهُمْ مِنَ النَّعِيمِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى عَظِيمِ كَيْفِيَّتِهِ الْمُنَاسِبَةِ لوصفهم بـ { السَّابِقُونَ } بِخِلَافِ مَا يَأْتِي فِي أَصْحَابِ الْيَمِينِ.

{ **ثُلَّةٌ** } خَبَرٌ عَنْ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: هُمْ ثُلَّةٌ، وَمُعَادُ الضَّمِيرِ الْمُقَدَّرِ { السَّابِقُونَ }، أَيِ: السَّابِقُونَ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ.

الثُّلَّةُ: (بِضَمِّ الثَّاءِ) اسْمٌ لِلْجَمَاعَةِ مِنَ النَّاسِ مُطْلَقًا قَلِيلًا كَانُوا أَوْ كَثِيرًا.

{ **الْأَوَّلِينَ** } الْمُتَقَدِّمُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ فِي الزَّمَانِ، لِأَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الَّذِي تَقَدَّمَ فِي صِفَةٍ مَا، كَالْوُجُودِ أَوِ الْأَحْوَالِ، عَلَى غَيْرِهِ الَّذِي هُوَ الْآخِرَ أَوِ الثَّانِي، فَالْأَوَّلِيَّةُ أَمْرٌ نِسْبِيٌّ يُبَيِّنُهُ سِيَاقُ الْكَلَامِ حَيْثُمَا وَقَعَ.

فَالظَّاهِرُ أَنَّ { الْأَوَّلِينَ } هُنَا مُرَادٌ بِهِمُ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِنَاءً عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ الْخِطَابَ فِي قَوْلِهِ تعالى { وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلَاثَةً } [7]، خِطَابٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ بِعُنْوَانِ أَنَّهُمْ نَاسٌ، لِأَنَّ الْمُنْقَرِضِينَ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ مِنْ أُمَةٍ أَوْ قَبِيلَةٍ أَوْ أَهْلِ نحلة يُدعونَ بالأوّليين، قَالَ تَعَالَى { أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ } [48].

{ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ } وُصِفَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ بِالْآخِرِينَ فِي حَدِيثِ فَضْلِ الْجُمُعَةِ: **" نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ".**

وَإِذْ قَدْ وُصِفَ السَّابِقُونَ بِمَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ أَهْلُ السَّبْقِ إِلَى الْخَيْرِ وَوُصِفَتْ حَالُهُمْ فِي الْقِيَامَةِ عَقِبَ ذَلِكَ فَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ الصَّالِحِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَدْيَانِ الْإِلَهِيَّةِ ابْتِدَاءً مِنْ عَصْرِ آدَمَ إِلَى بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمُ الَّذِينَ جَاءَ فِيهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى { مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النبيّين وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ } [النِّسَاء:69]. فَلَا جَرَمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِـ { الْأَوَّلِينَ } الْأُمَمُ الْأُولَى كُلُّهَا، وَكَانَ مُعْظَمُ تِلْكَ الْأُمَمِ أَهْلَ عِنَادٍ وَكُفْرٍ وَلَمْ يَكُنِ الْمُؤْمِنُونَ فِيهِمْ إِلَّا قَلِيلا كَمَا تنبئ بِهِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ. وَلَا جَرَمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِـ { الْآخِرِينَ } الْأُمَّةُ الْأَخِيرَةُ وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ.

فَالسَّابِقُونَ طَائِفَتَانِ طَائِفَةٌ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ وَمَجْمُوعُ عَدَدِهَا فِي مَاضِي الْقُرُونِ كَثِيرٌ؛ مِثْلُ أَصْحَابِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِينَ رَافَقُوهُ فِي التِّيهِ، وَمِثْلُ أَصْحَابِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمِثْلُ الْحَوَارِيِّينَ، وَطَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَهُمُ الَّذِينَ أَسْرَعُوا لِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَصَحِبُوا النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ } [التَّوْبَة:100].

{ عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ [15] مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقَابِلِين [16] يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ [17] بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ [18] لَا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ [19] وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ [20] وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ [21] وَحُورٌ عِينٌ [22] كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ [23] جَزَاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ [24] لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً [25] إِلاَّ قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً [26]}.

هَذَا تَبْشِيرٌ بِبَعْضِ مَا لَهُمْ مِنَ النَّعِيمِ مِمَّا تَشْتَاقُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِتَشْوِيقِهِمْ إِلَى هَذَا الْمَصِيرِ فَيَسْعَوْا لِنَوَالِهِ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ، وَلَيْسَ الِاقْتِصَارُ عَلَى الْمَذْكُورِ هُنَا بِمُقْتَضٍ حَصْرَ النَّعِيمِ فِيمَا ذُكِرَ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى { وَفِيها مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ } [الزخرف:71].

السُّرُرُ: جَمْعُ سَرِيرٍ، وَهُوَ كُرْسِيٌّ طَوِيلٌ مُتَّسِعٌ يَجْلِسُ عَلَيْهِ الْمُتَّكِئُ وَالْمُضْطَجِعُ، يُتَّخَذُ مِنْ مُخْتَلِفِ الْأَعْوَادِ وَيَتَّخِذُهُ الْمُلُوكُ مِنْ ذهب وَمن فضَّة وَمِنْ عَاجٍ وَمِنْ نَفِيسِ الْعُودِ. وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ } [الصَّافَّاتِ:44].

الْمَوْضُونَةُ: وَإِنَّمَا تُوضَنُ سُطُوحُهَا، وَهِيَ مَا بَيْنَ سُوقِهَا الْأَرْبَعِ، حَيْثُ تُلْقَى عَلَيْهَا الطَّنَافِسُ أَوِ الزَّرَابِيُّ لِلْجُلُوسِ وَالِاضْطِجَاعِ لِيَكُونَ ذَلِكَ الْمَفْرَشُ وَثِيرًا فَلَا يُؤْلِمُ الْمُضْطَجِعَ وَلَا الْجَالِسَ.

وَقال بَعْضُهُمْ: مَرْمُولَةٍ، أَيْ: مَنْسُوجَةٍ بِقُضْبَانِ الذَّهَبِ.

الْإِتِّكَاءُ: اضْطِجَاعٌ مَعَ تَبَاعُدِ أَعْلَى الْجَنْبِ، وَالِاعْتِمَادِ عَلَى الْمِرْفَقِ، وَتَقَدَّمَ فِي [الرَّحْمَن:54].

التَّقَابُلُ: مِنْ تَمَامِ النَّعِيمِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْأُنْسِ بِمُشَاهَدَةِ الْأَصْحَابِ وَالْحَدِيثِ مَعَهُمْ.

{ **يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ** } بَيَانٌ لِجُمْلَةِ { فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } [12] وَقَرِيبٌ مِنْهُ ما فِي [الصَّافَّاتِ:45].

الطَّوَافُ: الْمَشْيُ الْمُكَرَّرُ حَوْلَ شَيْءٍ، وَهُوَ يَقْتَضِي الْمُلَازَمَةَ لِلشَّيْءِ.

{ **وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ** } أَيْ: دَائِمَيْنِ عَلَى الطَّوَافِ عَلَيْهِمْ وَمُنَاوَلَتِهِمْ لَا يَنْقَطِعُونَ عَنْ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: بِأَنَّهُمْ مُخَلَّدُونَ فِي صِفَةِ الْوِلْدَانِ، أَيْ بِالشَّبَابِ وَالْغَضَاضَةِ.

الْأَكْوَابُ: جَمْعُ كُوبٍ، وَهُوَ إِنَاءٌ لَا عُرْوَة لَهُ، كَالْقَدَحِ.

الْأَبَارِيقُ: جَمْعُ إِبْرِيقَ وَهُوَ إِنَاءٌ تُحْمَلُ فِيهِ الْخَمْرُ لِلشَّارِبِينَ فَتُصَبُّ فِي الْأَكْوَابِ، وَالْإِبْرِيقُ لَهُ خُرْطُومٌ وَعُرْوَةٌ.

الْكَأْسُ: إِنَاءٌ لِلْخَمْرِ كَالْكُوبِ إِلَّا أَنَّهُ مُسْتَطِيلٌ ضَيِّقُ الْمَشْرَبِ، وَتَقَدَّمَ فِي [الصَّافَّاتِ:45]. وَالْكَأْسُ جِنْسٌ يَصْدُقُ بِالْوَاحِدِ وَالْمُتَعَدِّدِ فَلَيْسَ إِفْرَادُهُ هُنَا لِلْوَحْدَةِ، فَإِنّ المُرَاد كؤوس كَثِيرَةٌ، كَمَا اقْتَضَاهُ جَمْعُ أَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ، وَإِنَّمَا أُوثِرَتْ صِيغَةُ الْمُفْرَدِ لِأَنَّ فِي لفظ كؤوس ثِقَلًا بِوُجُودِ هَمْزَةٍ مَضْمُومَةٍ فِي وَسَطِهِ، مَعَ ثِقَلِ صِيغَةِ الْجَمْعِ.

{ **مَعِينٍ** } الْجَارِي، وَالْمُرَادُ بِهِ الْخَمْرُ الَّتِي لِكَثْرَتِهَا تَجْرِي فِي الْمَجَارِي كَمَا يَجْرِي الْمَاءُ، وَلَيْسَتْ قَلِيلَةٌ عَزِيزَةٌ كَمَا هِيَ فِي الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى { وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ } [مُحَمَّد:15].

وَلَيْسَ الْمُرَادُ بـ { مَعِينٍ } الْمَاءَ لِأَنَّ الْكَأْسَ لَيْسَتْ مِنْ آنِيَةِ المَاء وَإِنَّمَا آنيتهما الْأَقْدَاحُ، كما فِي قوله { يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ } [الصَّافَّاتِ:45-47].

التَّصْدِيعُ: الْإِصَابَةُ بِالصُّدَاعِ، وَهُوَ وَجَعُ الرَّأْسِ مِنَ الْخُمَارِ النَّاشِئِ عَنِ السُّكْرِ، أَيْ: لَا تُصِيبُهُمُ الْخَمْرُ بِصُدَاعٍ.

{ **عَنْهَا** } أَيْ: لَا يَقَعُ لَهُم صداع ناشىء عَنْهَا. اسْتُعْمِلَتْ (عَنْ) هنا فِي مَعْنَى السَّبَبِيَّةَ.

{ **وَلا يُنْزِفُونَ** } أَيْ لَا يَعْتَرِيهِمْ نَزْفٌ بِسَبَبِهَا كَمَا يَحْصُلُ لِلشَّارِبِينَ فِي الدُّنْيَا. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ { يُنْزَفُونَ } بِفَتْحِ الزَّايِ مَنْ أَنْزَفَ الَّذِي هَمْزَتُهُ لِلتَّعْدِيَةِ. وَقَرَأَهُ حفص وحَمْزَة وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ بِكَسْرِ الزَّايِ مِنْ أَنْزَفَ الْمَهْمُوزِ الْقَاصِرِ إِذا سكر وذهر عَقْلُهُ.

النَّزْفُ: اخْتِلَاطُ الْعَقْلِ، وَفِعْلُهُ مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ يُقَالُ: نُزِفَ عَقْلُهُ.

الْفَاكِهَةُ: الثِّمَار والنقول كَاللَّوْزِ وَالْفُسْتُقِ، وَتَقَدَّمَ فِي [الرَّحْمَن:11]. وَعَطْفُ فاكِهَةٍ على { بِأَكْوابٍ }، أَيْ: وَيَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ بِفَاكِهَةٍ.

{ **مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ** } أَيْ: يَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ بِفَاكِهَةٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي يَخْتَارُونَهَا. فَالْفِعْلُ يُفِيدُ قُوَّة الِاخْتِيَار.

{ **وَلَحْمِ طَيْرٍ** } هُوَ أَرْفَعُ اللُّحُومِ وَأَشْهَاهَا وَأَعَزُّهَا. وَعَطْفُه عَلَى فاكِهَة كَعَطْفِ فاكِهَةٍ عَلَى { بِأَكْوابٍ }.

الِاشْتِهَاءُ: مَصْدَرُ اشْتَهَى، وَهُوَ افْتِعَالٌ مِنَ الشَّهْوَةِ الَّتِي هِيَ: مَحَبَّةُ نَيْلِ شَيْءٍ مَرْغُوبٍ فِيهِ مِنْ مَحْسُوسَاتٍ وَمَعْنَوِيَّاتٍ، يُقَالُ: شَهِيٌّ كَرَضِيٌّ، وَشَهَا كَدَعَا. وَالْأَكْثَرُ أَنْ يُقَالَ: اشْتَهَى، وَالِافْتِعَالُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ.

وَتَقْدِيمُ ذِكْرِ الْفَاكِهَةِ عَلَى ذِكْرِ اللَّحْمِ قَدْ يَكُونُ لِأَنَّ الْفَوَاكِهَ أَعَزُّ. وَبِهَذَا يَظْهَرُ وَجْهُ الْمُخَالَفَةِ بَيْنَ الْفَاكِهَةِ وَلَحْمِ طَيْرٍ فَجُعِلَ التَّخْيِرُ لِلْأَوَّلِ. وَالِاشْتِهَاءُ لِلثَّانِي، لِأَنَّ الِاشْتِهَاءَ أَعْلَقُ بِالطَّعَامِ مِنْهُ بِالْفَوَاكِهِ، فَلَذَّةُ كَسْرِ الشَّاهِيَةِ بِالطَّعَامِ لَذَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى لَذَّةِ حُسْنِ طَعْمِهِ، وَكَثْرَةُ التَّخَيُّرِ لِلْفَاكِهَةِ هِيَ لَذَّةُ تَلْوِينِ الْأَصْنَافِ.

{ **وَحُورٌ عِينٌ** } عَطْفٌ عَلَى { وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ }، أَيْ: وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ حُورٌ عِينٌ.

الْحُورُ الْعِينُ: النِّسَاءُ ذَوَاتُ الْحَوَرِ، وَتَقَدَّمَ فِي [الرَّحْمَنِ:72]. وَذَوَاتُ الْعَيْنِ: وَهُوَ سِعَةُ الْعَيْنِ، وَتَقَدَّمَ فِي [الصَّافَّاتِ:48].

الْأَمْثَالُ: الْأَشْبَاهُ. وَدُخُولُ كَافِ التَّشْبِيهِ عَلَى (أَمْثَالِ) لِلتَّأْكِيدِ، مِثْلُ قَوْلِهِ { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى:11].

وَالْمَعْنَى: هُنَّ أَمْثَالُ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ.

اللُّؤْلُؤُ: الدُّرُّ، وَتَقَدَّمَ تَبْيِينُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً } [الْحَجّ:23].

الْمَكْنُونِ: الْمَخْزُونُ الْمُخَبَّأُ لِنَفَاسَتِهِ، وَتَقَدَّمَ فِي [الصَّافَّاتِ:49].

{ **جَزَاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ** } انْتَصَبَ { جَزاءً } عَلَى الْمَفْعُولِ لِأَجْلِهِ لِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْله { الْمُقَرَّبُونَ } [11]، أَيْ: أَعْطَيْنَاهُمْ ذَلِكَ جَزَاءً، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَزاءً مَصْدَرًا جَاءَ بَدَلًا عَنْ فِعْلِهِ، وَالتَّقْدِيرُ: جَازَيْنَاهُمْ جَزَاءً. وَالْجُمْلَةُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ اعْتِرَاضٌ تُفِيدُ إِظْهَارَ كَرَامَتِهِمْ بِحَيْثُ جَعَلَتْ أَصْنَاف النَّعيم الَّذين حَظُوا بِهِ جَزَاءً عَلَى عَمَلٍ قَدَّمُوهُ، وَذَلِكَ إِتْمَامٌ لِكَوْنِهِمْ مُقَرَّبِينَ.

{ **لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً** } ثُمَّ أَكْمَلَ وَصْفَ النَّعِيمِ، وَهِيَ نِعْمَةٌ رُوحِيَّةٌ، فَإِنَّ سَلَامَةَ النَّفْسِ مِنْ سَمَاعِ مَا يَكْرَهُ سَمَاعَهُ مِنَ الْأَذَى نِعْمَةٌ بِرَاحَةِ الْبَالِ وَشُغْلِهِ بِسَمَاعِ الْمَحْبُوبِ.

{ **فِيهَا** } الضَمِيرُ عَائِدٌ إِلَى { جَنَّاتِ النَّعِيمِ } [12].

اللَّغْوُ: الْكَلَامُ الَّذِي لَا يُعْتَدُّ بِهِ كَالْهَذَيَانِ، وَالْكَلَامُ الَّذِي لَا مُحَصِّلَ لَهُ.

التَّأْثِيمُ: اللَّوْمُ وَالْإِنْكَارُ، وَهُوَ مَصْدَرُ أَثَّمَ، إِذَا نَسَبَ غَيْرَهُ إِلَى الْإِثْمِ.

{ **إِلاَّ قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً** } نِعْمَةٌ أُخْرَى مِنَ الْإِنْعَامِ بِالْمَسْمُوعِ الَّذِي يُفِيدُ الْكَرَامَةَ. وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ { لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً } بِطَرِيقَةِ تَأْكِيدِ الشَّيْءِ بِمَا يُشْبِهُ ضِدَّهُ، الْمُشْتَهِرَ فِي الْبَدِيعِ بِاسْمِ تَأْكِيدِ الْمَدْحِ بِمَا يُشْبِهُ الذَّمَّ، وَلَهُ مَوْقِعٌ عَظِيم من البلاغة، كَقَوْلِه النَّابِغَةِ:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ	بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

اِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ بِحَسَبِ حَاصِلِ الْمَعْنَى، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ انْتِصَابَ { قِيلًا } عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ لَا عَلَى الْبَدَلِيَّةِ مِنْ { لَغْواً }.

{ **سَلاماً** } الْأَوَّلُ مَقُولُ { قِيلًا }، أَيْ: هَذَا اللَّفْظُ الَّذِي تَقْدِيرُهُ: سَلَّمْنَا سَلَامًا، فَهُوَ جُمْلَةٌ مَحْكِيَّةٌ بِالْقَوْلِ.

{ **سَلاماً** } الثَّانِي تَكْرِيرٌ لِـ { سَلاماً } الْأَوَّلِ تَكْرِيرًا لَيْسَ لِلتَّأْكِيدِ بَلْ لِإِفَادَةِ التَّعَاقُبِ، أَيْ: سَلَامًا إِثْرَ سَلَامٍ،

كَقَوْلِهِ تَعَالَى { كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا } [الْفجْر:21].
أَوْ مُشَارًا بِهِ إِلَى كَثْرَةِ الْمُسَلِّمِينَ، فَهُوَ مُؤْذِنٌ مَعَ الْكَرَامَةِ بِأَنَّهُمْ مُعَظَّمُونَ مُبَجَّلُونَ.
وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْوَجْهَيْنِ أَنَّ الْأَوَّلَ يُفِيدُ التَّكْرِيرَ بِتَكْرِيرِ الْأَزْمِنَةِ، وَالثَّانِي يُفِيد التّكْرَار بتكرار الْمُسْلِمِينَ.
وَهَذَا الْقِيلُ يَتَلَقَّوْنَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِالْجَنَّةِ، قَالَ تَعَالَى { وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ } [الرَّعْد:24/23]، وَيَتَلَقَّاهُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ } [يُونُس:10].
{ **سلاماً** } جِيءَ بِهِ مَنْصُوبًا دُونَ الرَّفْعِ، مَعَ كَوْنِ الرَّفْعِ أَدَلَّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ، كَمَا ذَكَرُوهُ فِي قَوْلِهِ تعالى { قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ } [هُودٍ69]، وَفِي [الذَّارِيَاتِ:25]، لِأَنَّهُ أُرِيدَ جَعْلُهُ بَدَلًا من { قِيلًا }.

{ وَأَصْحابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحابُ الْيَمِينِ [27] فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ [28] وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ [29] وَظِلٍّ مَمْدُودٍ [30] وَماءٍ مَسْكُوبٍ [31] وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ [32] لَا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ [33] وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ [34] }.
عَوْدٌ إِلَى نَشْرِ مَا وَقَعَ لَفُّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى { وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً } [7]، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ { فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ } [8]. وَعَبَّرَ عَنْهُمْ هُنَا بِـ { أَصْحابُ الْيَمِينِ }، وَهُنَالِكَ بِـ { أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ } لِلتَّفَنُّنِ.
{ **وَأَصْحابُ الْيَمِينِ** } عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ { أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ } [8] عطف الْقِصَّة عل الْقِصَّةِ.
{ **مَا أَصْحابُ الْيَمِينِ** } خَبَرٌ عَنْ أَصْحابُ الْيَمِينِ بِإِبْهَامٍ يُفِيدُ التَّنْوِيهَ بِهِمْ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ } [8].
{ **فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ** } تبيين لما في الجملة السابقة من إبهام.
السِّدْرُ: شَجَرٌ مِنْ شَجَرِ الْعِضَاهِ ذُو وَرَقٍ عَرِيضٍ مُدَوَّرٍ وَهُوَ صِنْفَانِ:
الصنف الأوّل عُبْرِيٌّ (بِضَمِّ الْعَيْنِ وَسُكُونِ الْمُوَحَّدَةِ وَيَاءِ نَسَبٍ) نِسْبَةً إِلَى الْعِبْرِ (بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَسُكُونِ الْمُوَحَّدَةِ) عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، وَهُوَ عِبْرُ النَّهْرِ، أَيْ: ضَفَّتِهِ، لَهُ شَوْكٌ ضَعِيفٌ فِي غُصُونِهِ لَا يَضِيرُ. وَهو أَجْوَدُ السِّدْرِ، وَهُوَ يُشْبِهُ شَجَرَ الْعُنَّابِ، وَوَرَقُهُ كَوَرَقِ الْعُنَّابِ، يُجْعَلُ غَسُولًا يُنَظَّفُ بِهِ، يُخْرِجُ مَعَ الْمَاءِ رَغْوَةً كَالصَّابُونِ. وَثَمَرُ هَذَا الصِّنْفِ هُوَ النَّبِقُ (بِفَتْحِ النُّونِ وَكَسْرِ الْمُوَحَّدَةِ وَقَافٍ) يُشْبِهُ ثَمَرَ الْعُنَّابِ إِلَّا أَنَّهُ أَصْفَرُ مُزٌّ (بِالزَّايِ) يُفَوِّحُ الْفَمَ وَيُفَوِّحُ الثِّيَابَ وَيُتَفَكَّهُ بِهِ.
الصِّنْفُ الثَّانِي الضَّالُ (بِضَادٍ سَاقِطَةٍ وَلَامٍ مُخَفَّفَةٍ) وَهُوَ ذُو شَوْكٍ. وَهُوَ السِّدْرُ الْبَرِّيُّ الَّذِي لَا يَنْبُتُ عَلَى الْمَاءِ فَلَا يَصْلُحُ وَرَقُهُ لِلْغَسُولِ، وَثَمَرُهُ عَفِصٌ لَا يَسُوغُ فِي الْحَلْقِ وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ، وَيَخْبِطُ الرُّعَاةُ وَرَقَهُ لِلرَّاعِيَةِ.

وَلَمَّا كَانَ السِّدْرُ مِنْ شَجَرِ الْبَادِيَةِ وَكَانَ مَحْبُوبًا لِلْعَرَبِ وَلَمْ يَكُونُوا مُسْتَطِيعِينَ أَنْ يَجْعَلُوا مِنْهُ فِي جَنَّاتِهِمْ وَحَوَائِطِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا يَعِيشُ إِلَّا فِي الْبَادِيَةِ، خُصَّ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ شَجَرِ الْجَنَّةِ إِغْرَابًا بِهِ وَبِمَحَاسِنِهِ الَّتِي كَانَ مَحْرُومًا مِنْهَا مَنْ لَا يَسْكُنُ الْبَوَادِي، وَبِوَفْرَةِ ظِلِّهِ وَتَهَدُّلِ أَغْصَانِهِ وَنَكْهَةِ ثَمَرِهِ.

{ **مَخْضُودٍ** } أَي: الْمُزَالِ شَوْكُهُ، فَقَدْ كَمُلَتْ مَحَاسِنُهُ بِانْتِفَاءِ مَا فِيهِ مِنْ أَذًى.

الطَّلْحُ: شَجَرٌ مِنْ شَجَرِ الْعِضَاهِ وَاحِدُهُ طَلْحَةٌ، وَهُوَ مِنْ شَجَرِ الْحِجَازِ يَنْبُتُ فِي بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ، شَدِيدُ الطُّولِ، غَلِيظُ السَّاقِ. مِنْ أَصْلَبِ شَجَرِ الْعِضَاهِ عُودًا، وَأَغْصَانُهُ طِوَالٌ عِظَامٌ شَدِيدَةُ الِارْتِفَاعِ فِي الْجَوِّ وَلَهَا شَوْكٌ كَثِيرٌ قَلِيلَةُ الْوَرَقِ شَدِيدَةُ الْخُضْرَةِ كَثِيرَةُ الظِّلِّ مِنَ الْتِفَافِ أَغْصَانِهَا، وَصَمْغُهَا جَيِّدٌ وَشَوْكُهَا أَقَلُّ الشَّوْكِ أَذًى، وَلَهَا نَوْرٌ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، وَتُسَمَّى هَذِهِ الشَّجَرَةُ (أُمَّ غَيْلَانَ).

الْمَنْضُودُ: الْمُتَرَاصُّ الْمُتَرَاكِبُ بِالْأَغْصَانِ لَيْسَتْ لَهُ سُوقٌ بَارِزَةٌ، أَوِ الْمُنَضَّدُ بِالْحِمْلِ، أَي: النُّوَّارِ فَتَكْثُرُ رَائِحَتُهُ.

<u>وَفُسِّرَ الطَّلْحُ بِشَجَرِ الْمَوْزِ</u>، رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ كَثِيرٍ، وَنُسِبَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَالِامْتِنَانُ بِهِ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ امْتِنَانٌ بِثَمَرِهِ لِأَنَّهُ ثَمَر طيّب لذيد، وَلِشَجَرِهِ مِنْ حُسْنِ الْمَنْظَرِ، وَلَمْ يَكُنْ شَائِعًا فِي بِلَادِ الْعَرَبِ لِاحْتِيَاجِهِ إِلَى كَثْرَةِ الْمَاءِ.

{ **وَظِلٍّ مَمْدُودٍ** } الَّذِي لَا يَتَقَلَّصُ كَظِلِّ الدُّنْيَا، وَهُوَ ظِلٌّ حَاصِلٌ مِنَ الْتِفَافِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ وَكَثْرَةِ أَوْرَاقِهَا.

سَكْبُ الْمَاءِ: صَبُّهُ، وَأُطْلِقَ هُنَا عَلَى جَرْيِهِ بِقُوَّةٍ يُشْبِهُ السَّكْبَ، وَهُوَ مَاءُ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ.

{ **وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ** } تَقَدَّمَتْ آنِفًا.

{ **لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ** } وَصْفٌ بِانْتِفَاءِ ضِدِّ الْمَطْلُوبِ، إِذِ الْمَطْلُوبُ أَنَّهَا دَائِمَةٌ مَبْذُولَةٌ لَهُمْ. وَالنَّفْيُ هُنَا أَوْقَعُ مِنَ الْإِثْبَاتِ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَة وصف وتوكيد، وَهُمْ لَا يَصِفُونَ بِالنَّفْيِ إِلَّا مَعَ التَّكْرِيرِ بِالْعَطْفِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ } [النُّور:35].

وَجُمِعَ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ لِأَنَّ فَاكِهَةَ الدُّنْيَا لَا تَخْلُو مِنْ أَحَدِ ضِدَّيْ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ، فَإِنَّ أَصْحَابَهَا يَمْنَعُونَهَا فَإِنْ لَمْ يَمْنَعُوهَا فَإِنَّ لَهَا إِبَّانًا تَنْقَطِعُ فِيهِ.

الْفُرُشُ: جَمْعُ فِرَاشٍ (بِكَسْرِ الْفَاءِ) وَهُوَ مَا يُفْرَشُ، وَتَقَدَّمَ فِي [الرَّحْمَنِ:54].

مَرْفُوعَةٍ: وَصْفٌ لـ { فُرُشٍ }، أَيْ: مَرْفُوعَةٍ عَلَى الْأَسِرَّةِ، أَيْ: لَيْسَتْ مَفْرُوشَةً فِي الْأَرْضِ.

<u>وَيَجُوزُ</u> أَنْ يُرَادَ بِالْفُرُشِ الْأَسِرَّةُ، مِنْ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ مَا يحل فِيهِ.

{ **إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشاءً** [35] **فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكارًا** [36] **عُرُبًا أَتْرابًا** [37] **لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ** [38] }.

لَمَّا جَرَى ذِكْرُ الْفُرُشِ وَهِيَ مِمَّا يُعَدُّ لِلِاتِّكَاءِ وَالِاضْطِجَاعِ وَقْتَ الرَّاحَةِ فِي الْمَنْزِلِ يخْطر بالبال بادىء ذِي بَدْءٍ مُصَاحَبَةُ الْحُورِ الْعِينِ مَعَهُمْ فِي تِلْكَ الْفُرُشِ فَيُتَشَوَّفُ إِلَى وَصْفِهِنَّ، فَكَانَتْ جُمْلَةُ { إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشاءً } بَيَانًا، لِأَنَّ الْخَاطِرَ بِمَنْزِلَةِ السُّؤَالِ عَنْ صِفَاتِ الرَّفِيقَاتِ.

{ **أَنْشَأْناهُنَّ** } ضَمِيرُ الْمُؤَنَّثِ عَائِدٌ إِلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ فِي الْكَلَامِ وَلَكِنَّهُ مَلْحُوظٌ فِي الْأَفْهَام.

الْإِنْشَاءُ: الْخَلْقُ وَالْإِيجَادُ، فَيَشْمَلُ إِعَادَةَ مَا كَانَ مَوْجُودًا وَعُدِمَ، فَقَدْ سَمَّى اللَّهُ الْإِعَادَةَ إِنْشَاءً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ } [العنكبوت:20]. فَيَشْمَلُ نساء الْمُؤمنِينَ اللائي كُنَّ فِي الدُّنْيَا أَزْوَاجًا لِمَنْ صَارُوا إِلَى الْجَنَّةِ، وَيَشْمَلُ إِيجَادَ نِسَاءٍ أُنُفًا يُخْلَقْنَ فِي الْجَنَّةِ لِنَعِيمِ أَهْلِهَا.

{ **فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكارًا** } شَامِلٌ لِلصِّنْفَيْنِ.

الْعُرُبُ: جَمْعُ عَرُوبٍ (بِفَتْحِ الْعَيْنِ)، وَيُقَالُ: عَرِبَةٌ (بِفَتْحٍ فَكَسْرٍ) فَيُجْمَعُ عَلَى عَرِبَاتٍ كَذَلِكَ، وَهُوَ اسْمٌ خَاصٌّ بِالْمَرْأَةِ. وَقَدِ اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ أَهْلِ اللُّغَةِ فِي تَفْسِيرِهِ. وَأحسن مَا يجمعها أَنَّ العَرُوبَ: الْمَرْأَةُ الْمُتَحَبِّبَةُ إِلَى الرَّجُلِ، بِأَنْ تُكْثِرَ الضَّحِكَ وَاللَّهْو، والتي تحسن إظهار الخضوع. أي: اللعوب في غير فُحش.

الْأَتْرَابُ: جَمْعُ تِرْبٍ (بِكَسْرِ الْمُثَنَّاةِ الْفَوْقِيَّةِ وَسُكُونِ الرَّاءِ) وَهِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي سَاوَى سِنُّهَا سِنَّ مَنْ تُضَافُ هِيَ إِلَيْهِ مِنَ النِّسَاءِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ التِّرْبَ خَاصٌّ بِالْمَرْأَةِ، وَأَمَّا الْمُسَاوِي فِي السِّنِّ مِنَ الرِّجَالِ فَيُقَالُ لَهُ: قَرْنُ وِلْدَةٍ.

فَالْمَعْنَى: أَنَّهُنَّ جُعِلْنَ فِي سِنٍّ مُتَسَاوِيَةٍ لَا تَفَاوُتَ بَيْنَهُنَّ، أَيْ: هُنَّ فِي سِنِّ الشَّبَابِ الْمُسْتَوِي، فَتَكُونُ مَحَاسِنُهُنَّ غَيْرَ مُتَفَاوِتَةٍ فِي جَمِيعِ جِهَاتِ الْحُسْنِ.

{ **لِأَصْحابِ الْيَمِينِ** } اللَّامُ يتنازعها { أَنْشَأْنَاهُنَّ } و{ فَجَعَلْنَاهُنَّ } لِإِفَادَةِ تَوْكِيدِ الِاعْتِنَاءِ بِأَصْحَابِ الْيَمِينِ الْمُسْتَفَادِ مِنَ الْمَقَامِ مِنْ قَوْلِهِ تعالى { وَأَصْحابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحابُ الْيَمِينِ } [27].

وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أُعْطِيَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ لَيْسَ مُخَالِفًا لِأَنْوَاعِ مَا أُعْطِيَ لِلسَّابِقِينَ وَلَا أَنَّ مَا أُعْطِيَ لِلسَّابِقِينَ مُخَالِفٌ لِمَا أُعْطِيَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ، فَإِنَّ الظِّلَّ وَالْمَاءَ الْمَسْكُوبَ وَكَوْنَ أَزْوَاجِهِمْ عُرُبًا أَتْرَابًا لَمْ يَذْكُرْ مِثْلُهُ لِلسَّابِقِينَ وَهُوَ ثَابِتٌ لَهُمْ لَا مَحَالَةَ إِذْ لَا يَقْصُرُونَ عَنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَكَذَلِكَ مَا ذُكِرَ لِلسَّابِقِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَكْوَابِهِمْ وَأَبَارِيقِهِمْ وَلَحْمِ الطَّيْرِ وَكَوْنِ أَزْوَاجِهِمْ حُورًا عِينًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا، لَمْ يَذْكُرْ مِثْلَهُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَعَ أَنَّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ. وَقَدْ ذُكِرَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أَنَّهُمْ أُعْطُوا أَشْيَاءَ لَمْ يُذْكَرْ إِعْطَاؤُهَا لَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِثْلَ قَوْلِهِ { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ } [يُونُس:10]، فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ تَوْزِيعَ النَّعِيمِ وَلَا قَصْرَهُ وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ تَعْدَادُهُ وَالتَّشْوِيقُ إِلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّ السَّابِقِينَ أَعْلَى مَقَامًا مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ بِمُقْتَضَى السِّيَاقِ. وَقَدْ أَشَارَ إِلَى تَفَاوُتِ الْمَقَامَيْنِ أَنَّهُ ذَكَرَ فِي نَعِيمِ السَّابِقِينَ أَنَّهُ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لِلْوَجْهِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ فِيهَا وَلَمْ يُذْكَرْ مِثْلُهُ فِي نَعِيمِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَجُمَاعُ الْغَرَضِ مِنْ ذَلِكَ التَّنْوِيهُ بكلا الْفَرِيقَيْنِ.

{ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ [39] وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ [40] }.

أَيْ: أَصْحَابُ الْيَمِينِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ، وَالْكَلَامُ فِيهِ كَالْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ تعالى { ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ } [14/13].

وَإِنَّمَا أُخِّرَ هَذَا عَنْ ذِكْرِ مَا لَهُمْ مِنَ النَّعِيمِ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ عِزَّةَ هَذَا الصِّنْفِ وَقِلَّتِهِ دُونَ عِزَّةِ صِنْفِ السَّابِقِينَ، فَالسَّابِقُونَ أَعَزُّ. وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ مِنْ مُسْتَتْبَعَاتِ التَّرَاكِيبِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْ تَرْتِيبِ نظم الْكَلَامِ.

{ وَأَصْحَابُ الشِّمالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمالِ [41] فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ [42] وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ [43] لَا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ [44] }.

إفضاء إِلَى الصِّنْف الثَّالِثِ مِنَ الْأَزْوَاجِ الثَّلَاثَةِ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْمَشَاقَّةِ.

{ مَا أَصْحَابُ الشِّمالِ } الْقَوْلُ فِيها وَمَوْقِعُ جُمْلَةِ **{ فِي سَمُومٍ }** بَعْدَهَا كَالْقَوْلِ فِي جُمْلَةِ { وَأَصْحابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ } [28/27].

السَّمُومُ: الرِّيحُ شَّدِيدُ الْحَرَارَةِ الَّذِي لَا بَلَلَ مَعَهُ وَكَأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ السُّمِّ، وَهُوَ مَا يُهْلك إِذْ لَاقَى الْبَدَنَ.

الْحَمِيمُ: الْمَاءُ شَّدِيدُ الْحَرَارَةِ.

الْيَحْمُومُ: الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ، عَلَى وَزْنِ يَفْعُولَ مُشْتَقٌّ مِنَ **الْحُمَمِ**: اسْمٌ لِلْفَحْمِ. وَالْحُمَمَةُ: الْفَحْمَةُ.

{ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ } لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ ظِلُّ دُخَانِ لَهَبِ جَهَنَّمَ، وَالدُّخَانُ الْكَثِيفُ لَهُ ظِلٌّ لِأَنَّهُ بِكَثَافَتِهِ يَحْجُبُ ضَوْءَ الشَّمْسِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ مِنَ الدُّخَانِ ظِلُّهُ لِمُقَابَلَتِهِ بـ { وَظِلٍّ مَمْدُودٍ } [30] الْمُعَدّ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، أَيْ: لَا ظِلَّ لِأَصْحَابِ الشِّمَالِ سِوَى ظِلِّ الْيَحْمُومِ. وَهَذَا مِنْ قَبِيلِ التَّهَكُّمِ.

{ لَا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ } لِتَحْقِيقِ مَعْنَى التَّهَكُّمِ وُصِفَ هَذَا الظِّلُّ بِمَا يُفِيدُ نَفْيَ الْبَرْدِ عَنْهُ وَنَفْيَ الْكَرَمِ، فَبَرْدُ الظِّلِّ مَا يَحْصُلُ فِي مَكَانِهِ مِنْ دَفْعِ حَرَارَةِ الشَّمْسِ، وَكَرَمُ الظِّلِّ مَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ فِي الظِّلَالِ مِثْلَ سَلَامَتِهِ مِنْ هُبُوبِ السَّمُومِ عَلَيْهِ، وَسَلَامَةِ الْمَوْضِعِ الَّذِي يَظِلُّهُ مِنَ الْحَشَرَاتِ وَالْأَوْسَاخِ، وَسَلَامَةِ أَرْضِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، إِذِ الْكَرِيمُ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ هُوَ الْجَامِعُ لِأَكْثَرِ مَحَاسِنِ نَوْعِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29]. فَوُصِفَ ظِلُّ الْيَحْمُومِ بِوَصْفٍ خَاصٍّ، وَهُوَ انْتِفَاءُ الْبُرُودَةِ عَنْهُ، وَاتْبِعَ بِوَصْفٍ عَامٍّ، وَهُوَ انْتِفَاءُ كَرَامَةِ الظِّلَالِ عَنْهُ، فَفِي الصِّفَةِ بِنَفْيِ مَحَاسِنِ الظِّلَالِ تَذْكِيرٌ لِلسَّامِعِينَ بِمَا حُرِمَ مِنْهُ أَصْحَابُ الشِّمَالِ عَسَى أَنْ يَحْذَرُوا أَسْبَابَ الْوُقُوعِ فِي الْحِرْمَانِ.

{ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ [45] وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ [46] وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ [47] أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ [48] }.

تَعْلِيلٌ لِمَا يَلْقَاهُ أَصْحَابُ الشِّمَالِ مِنَ الْعَذَابِ، فَيَتَعَيَّنُ أَنَّ مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا التَّعْلِيلُ كَانَ مِنْ أَحْوَالِ كُفْرِهِمْ وَأَنَّهُ مِمَّا لَهُ أَثَرٌ فِي إِلْحَاقِ الْعَذَابِ بِهِمْ، بِقَرِينَةِ قوله تعالى { وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ...}.

فَأَمَّا إِصْرَارُهُمْ عَلَى الْحِنْثِ وَإِنْكَارُهُمُ الْبَعْثَ فَلَا يَخْفَى تَسَبُّبُهُ فِي الْعَذَابِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَوَعَّدَهُمْ عَلَيْهِ فَلَمْ يُقْلِعُوا عَنْهُ، وَإِنَّمَا يَبْقَى النَّظَرُ فِي قَوْلِهِ:

{ **إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ** } فَإِنَّ التَّرَفَ فِي الْعَيْشِ لَيْسَ جَرِيمَةً فِي ذَاتِهِ، وَكَمْ مِنْ مُؤْمِنٍ عَاشَ فِي تَرَفٍ، وَلَيْسَ كُلُّ كَافِرٍ مُتْرَفًا فِي عَيْشِهِ، فَلَا يَكُونُ التَّرَفُ سَبَبًا مُسْتَقِلًّا فِي تَسَبُّبِ الْجَزَاءِ الَّذِي عُومِلُوا بِهِ.

<u>فَتَأْوِيلُ هَذَا التَّعْلِيلِ</u>: **إِمَّا بِأَنْ يَكُونَ** الْإِتْرَافُ سَبَبًا بِاعْتِبَارِ ضَمِيمَةِ مَا ذُكِرَ بَعْدَهُ إِلَيْهِ بِأَنْ كَانَ إِصْرَارُهُمْ عَلَى الْحِنْثِ وَتَكْذِيبُهُمْ بِالْبَعْثِ جريمتين عظمتين لِأَنَّهُمَا مَحْفُوفَتَانِ بِكُفْرِ نِعْمَةِ التَّرَفِ الَّتِي خَوَّلَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا، عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ } [82]. فَيَكُونُ الْإِتْرَافُ جُزْءَ سَبَبٍ وَلَيْسَ سَبَبًا مُسْتَقِلًّا، وَفِي هَذَا مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا } [المزمل:11].

وَإِمَّا بِأَن يُرَاد أَنْ التَّرَفَ فِي الْعَيْشِ عَلَّقَ قُلُوبَهُمْ بِالدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا فَكَانَ ذَلِكَ مُمْلِيًا عَلَى خَوَاطِرِهِمْ إِنْكَارَ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ التَّرَفَ الَّذِي هَذَا الْإِنْكَارُ عَارِضٌ لَهُ وَشَدِيدُ الْمُلَازَمَةِ لَهُ، فَوِزَانُهُ وِزَانُ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } [مُحَمَّد:12].

ويكون تفسير { مُتْرَفِينَ }، على هذا التأويل، بِمَعْنَى: مُتَكَبِّرِينَ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ.

الْمُتْرَفُ: اسْمُ مَفْعُولٍ مَنْ أَتْرَفَهُ، أَيْ جَعَلَهُ ذَا تُرْفَةٍ (بِضَمِّ التَّاءِ وَسُكُونِ الرَّاءِ)، أَيْ نِعْمَةٍ وَاسِعَةٍ، وَبِنَاؤُهُ لِلْمَجْهُولِ لِعَدَمِ الْإِحَاطَةِ بِالْفَاعِلِ الْحَقِيقِيِّ لِلْإِتْرَافِ كَشَأْنِ الْأَفْعَالِ الَّتِي الْتُزِمَ فِيهَا الْإِسْنَادُ الْمَجَازِيُّ الْعَقْلِيُّ الَّذِي لَيْسَ لِمِثْلِهِ حَقِيقَةٌ عَقْلِيَّةٌ، وَلَا يُقَدَّرُ بِنَحْوِ: أَتْرَفَهُ اللَّهُ، لِأَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا يُقَدِّرُونَ ذَلِكَ، فَهَذَا مِنْ بَابِ: قَالَ قَائِلٌ، وَسَأَلَ سَائِلٌ.

{ **قَبْلَ ذلِكَ** } أَيْ: كَانُوا قَبْلَ الْيَوْمِ، وَهُوَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

{ **يُصِرُّونَ** } يَثْبُتُونَ عَلَيْهِ لَا يَقْبَلُونَ زَحْزَحَةً عَنْهُ، أَي: لَا يُصْغُونَ لِلدَّعْوَةِ إِلَى النَّظَرِ فِي بُطْلَانِ عَقِيدَةِ الشِّرْكِ.

{ **وَكانُوا يُصِرُّونَ / وَكانُوا يَقُولُونَ** } صِيغَةُ الْمُضَارِعِ تُفِيدُ تَكَرُّرَ الْإِصْرَارِ وَالْقَوْلِ مِنْهُم. وفعل { كَانُوا } لِإِفَادَةِ أَنَّ ذَلِكَ دَيْدَنُهُمْ.

الْحِنْثُ: الذَّنْبُ وَالْمَعْصِيَة وَمَا يتَحَرَّج مِنْهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: حَنَثَ فِي يَمِينِهِ، أَيْ: أَهْمَلَ مَا حَلَفَ عَلَيْهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حِنْثَ الْيَمِينِ، كقوله تعالى { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها } [الْأَنْعَام:109]، وَقَدْ جَاءَتْهُمْ آيَةُ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

الْعَظِيمُ: الْقَوِيُّ فِي نَوْعِهِ، أَي: الذَّنْبِ الشَّدِيدِ.

وَالْحِنْثُ الْعَظِيمِ هُوَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ. قَالَ تَعَالَى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لُقْمَان:13]. وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: " قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: **أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ** ".

{ **وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ** } أي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ اسْتِحَالَةَ الْبَعْثِ بَعْدَ تِلْكَ الْحَالَةِ.

{ **أَإِذا مِتْنا** } الِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ كِنَايَةٌ عَنِ الْإِحَالَةِ وَالِاسْتِبْعَادِ، نَظِيرُهُ { أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً } [الصَّافَّات:16].

{ **أَوَآباؤُنا** } قَرَأَ الْجُمْهُورُ (بِفَتْحِ الْوَاوِ) عَلَى أَنَّهَا وَاوَ عَطْفٍ عَطَفَت اسْتِفْهَامًا عَلَى اسْتِفْهَامٍ، وَقُدِّمَتْ هَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ على حرف الْعَطف لِصَدَارَةِ الِاسْتِفْهَامِ، وَأُعِيدَ الِاسْتِفْهَامُ تَوْكِيدًا لِلِاسْتِبْعَادِ.

{ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ [49] لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [50] }.

لمّا جَرَى تَعْلِيلُ مَا يُلَاقِيهِ أَصْحَابُ الشِّمَالِ مِنَ الْعَذَابِ، بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ كُفْرَانِ النِّعْمَةِ، وَكَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ وَعِيدَ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ إِنْكَارُهُمُ الْبَعْثَ أَدْخَلَ فِي اسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يُخَاطِبَهُمْ بِتَحْقِيقِ وُقُوعِ الْبَعْثِ وَشُمُولِهِ لَهُمْ وَلِآبَائِهِمْ وَلِجَمِيعِ النَّاسِ.

{ **قُلْ** } الافْتِتَاحَ بِالْأَمْرِ بِالْقَوْلِ لِلِاهْتِمَامِ بِهِ، كَمَا افْتُتِحَ بِهِ نَظَائِرُهُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ لِيَكُونَ ذَلِكَ تَبْلِيغًا عَنِ اللهِ تَعَالَى

الْأَوَّلِينَ: مَنْ يَصْدُقُ عَلَيْهِ وَصْفُ (أَوَّلِ) بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

الْآخِرِينَ: مَنْ يَصْدُقُ عَلَيْهِ وَصْفٌ (آخَرُ) بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ قبله.

{ **لَمَجْمُوعُونَ** } أي: أَنَّهُمْ يُبْعَثُونَ وَيُحْشَرُونَ جَمِيعًا، وَلَيْسَ الْبَعْثُ عَلَى أَفْوَاجٍ فِي أَزْمَانٍ مُخْتَلِفَةٍ كَمَا كَانَ مَوْتُ النَّاسِ بَلْ يُبْعَثُ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ. وَهَذَا إِبْطَالٌ لِمَا اقْتَضَاهُ عَطْفُ { أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ } فِي كَلَامِهِمْ مِنِ اسْتِنْتَاجِ اسْتِبْعَادِ الْبَعْثِ، لِأَنَّهُمْ عَدُّوا سَبْقَ مَنْ سَبِقَ مَوْتُهُمْ أَدَلُّ عَلَى تَعَذُّرِ بَعْثِهِمْ بَعْدَ أَنْ مَضَتْ عَلَيْهِمُ الْقُرُونُ وَلَمْ يُبْعَثْ فَرِيقٌ مِنْهُمْ.

الْمِيقَاتُ: هُنَا لِمَعْنَى الْوَقْتِ وَالْأَجَلِ، وَأَصْلُهُ اسْمُ آلَةٍ لِلْوَقْتِ وَتَوَسَّعُوا فِيهِ فَأَطْلَقُوهُ عَلَى الْوَقْتِ نَفْسِهِ بِحَيْثُ تُعْتَبَرُ الْمِيمُ وَالْأَلِفُ غَيْرَ دَالَّتَيْنِ عَلَى مَعْنًى، وَتَوَسَّعُوا فِيهِ تَوَسُّعًا آخَرَ فَأَطْلَقُوهُ عَلَى مَكَانٍ لِعَمَلٍ مَا. وَلَعَلَّ ذَلِكَ مُتَفَرِّعٌ عَلَى اعْتِبَارِ مَا فِي التَّوْقِيفِ مِنَ التَّحْدِيدِ وَالضَّبْطِ، وَمِنْهُ مَوَاقِيتُ الْحَجِّ، وَهِيَ أَمَاكِنٌ يُحْرِمُ الْحَاجُّ عِنْدَهَا لَا يَتَجَاوَزُهَا. وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ: " لَمْ يُوَقِّتْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْخَمْرِ حَدًّا مُعَيَّنًا ".

وَقد ضُمِّن { لَمَجْمُوعُونَ } مَعْنَى مَسُوقُونَ، فَتَعَلَّقَ بِهِ مَجْرُورُهُ بِحَرْفِ (إِلَى) لِلِانْتِهَاءِ، وَإِلَّا فَإِنَّ ظَاهِرَ

مَجْمُوعُونَ أَنْ يُعَدَّى بِحَرْفِ (فِي).
{ **مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ** } إِضَافَةُ مِيقاتٍ إِلَى يَوْمٍ مَعْلُومٍ لِأَنَّ التَّجَمُّعَ وَاقِعٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. وَهَذَا تَعْرِيضٌ بِالْوَعِيدِ بِمَا يَلْقَوْنَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي جحدوه.

{ **ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ** [51] **لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ** [52] **فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ** [53] **فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ** [54] **فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ** [55] }.

هَذَا مِنْ جُمْلَةِ مَا أُمِرَ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَهُ لَهُمْ. وَالْخِطَابُ مُوَجَّهٌ لِلْمَقُولِ إِلَيْهِمْ مَا أُمِرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَقُولَهُ لَهُمْ، فَلَيْسَ فِي هَذَا الْخِطَابِ الْتِفَاتٌ كَمَا قَدْ يُتَوَهَّمُ.
{ **ثُمَّ** } لِلتَّرْتِيبِ الرُّتَبِيِّ، فَإِنّ فِي التَّصْرِيحِ بتفصيل جَزَائِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَا هُوَ أَعْظَمُ وَقْعًا فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّعْرِيضِ الْإِجْمَالِيِّ بِالْوَعِيدِ الَّذِي اسْتُفِيدَ مِنْ قَوْلِهِ تعالى { إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ } [50/49].
وَهَذَا التَّرَاخِي الرُّتَبِيُّ مِثْلُ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ } [التغابن:7].
وهو بِمَنْزِلَةِ الِاعْتِرَاضِ بَيْنَ جُمْلَةِ { إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ } [49] وَجُمْلَةِ { خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ } [57].
{ **أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ** } فِي نِدَائِهِمْ بِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ إِيمَاءً إِلَى أَنَّهُمَا سَبَبُ مَا لَحِقَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ السَّيِّئِ، وَوَصْفُهُمْ بِذَلِكَ نَاظِرٌ إِلَى قَوْلِهِم { أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً } [47].
وَقُدِّم وَصفُ { الضَّالُّونَ } عَلَى وَصْفِ { الْمُكَذِّبُونَ } مُرَاعَاةً لِتَرْتِيبِ الْحُصُولِ، لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ فَكَذَّبُوا بِالْبَعْثِ، لِيَحْذَرُوا مِنَ الضَّلَالِ وَيَتَدَبَّرُوا فِي دَلَائِلِ الْبَعْثِ، وَذَلِكَ مُقْتَضَى خِطَابِهِمْ بِهَذَا الْإِنْذَارِ بِالْعَذَابِ الْمُتَوَقَّعِ.
{ **لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ** } (مِنْ) الأولى ابْتِدَائِيَّةٌ، أَي: آكِلُونَ أَكْلًا يُؤْخَذُ مِنْ شَجَرِ الزَّقُّومِ، و(مِنْ) الثَّانِيَة بَيَانِيَّةٌ لِأَنَّ الشَّجَرَ هُوَ الْمُسَمَّى بِالزَّقُّومِ.
شَجَرُ الزَّقُّومِ: مِنْ شَجَرِ الْعَذَابِ، تَقَدَّمَ فِي [الدُّخَان:43].
{ **فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ** } يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (عَلَى) هنا لِلِاسْتِعْلَاءِ، أَيْ: شَارِبُونَ فَوْقَهُ الْحَمِيمَ، وَيَجُوزُ مَعَ ذَلِكَ اسْتِفَادَةُ مَعْنَى (مَعَ) تعجيبا من فظاعة حَالِهِمْ، أَي: يَشْرَبُونَ هَذَا الْمَاءَ الْمُحْرِقَ مَعَ مَا طَعِمُوهُ مِنْ شَجَرِ الزَّقُّومِ الْمَوْصُوفَةِ فِي آيَةٍ أُخْرَى بِأَنَّهَا { يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ } [الدُّخان:46/45]، فَيُفِيدُ أَنَّهُمْ يَتَجَرَّعُونَهُ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ امْتِنَاعًا.
الْحَمِيمُ: الْمَاءُ شَدِيدُ الْغَلَيَانِ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ } [الْأَنْعَامِ:70]. وَتَقَدَّمَ قَرِيبًا [42].
{ **فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ** } تَفْظِيعُ حَالِهِمْ فِي جَزَائِهِمْ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ من الترف فِي الدُّنْيَا بِمَلْءِ بُطُونِهِمْ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مَلْئًا أَنْسَاهُمُ التَّفَكُّرَ فِي مَصِيرِهِمْ.

{ **مِنْهَا** } وَتَأْنِيثُ ضَمِيرِ الشَّجَرِ هنا لِأَنَّ ضَمَائِرَ الْجَمْعِ لِغَيْرِ الْعَاقِلِ تَأْتِي مُؤَنَّثَةً غَالِبًا. وَأَمَّا ضَمِيرُ { عَلَيْهِ } فَإِنَّمَا جَاءَ بِصِيغَةِ الْمُذَكَّرِ لِأَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى الْأَكْلِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ قَوْلِهِ تعالى { لَآكِلُونَ }، أَيْ: عَلَى ذَلِكَ الْأَكْلِ، بِتَأْوِيلِ الْمَصْدَرِ بِاسْمِ الْمَفْعُولِ، مِثْلِ الْخَلْقِ بِمَعْنَى الْمَخْلُوقِ.

{ **فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ** } التشبيه لزيادة التفضيع.

{ **فَشَارِبُونَ** } الْفَاءُ عَطْفٌ عَلَى { لَآكِلُونَ } لِإِفَادَةِ تَعْقِيبِ أَكْلِ الزَّقُّومِ بِـ { شُرْبَ الْهِيمِ } دُونَ فَتْرَةٍ وَلَا اسْتِرَاحَةٍ. وَإِعَادَةُ الفعل تَوْكِيدٌ لَفْظِيٌّ لِنَظِيرِهِ، وَفَائِدَتُهُ زِيَادَةُ تَقْرِيرِ مَا فِي هَذَا الشُّرْبِ مِنَ الْأُعْجُوبَةِ وَهِيَ أَنَّهُ مَعَ كَرَاهَتِهِ يَزْدَادُونَ مِنْهُ كَمَا تَرَى الْأَهْيَمَ، فَيَزِيدُهُمْ تَفْظِيعًا لِأَمْعَائِهِمْ، لِإِفَادَةِ التَّعْجِيبِ مِنْ حَالِهِمْ.

الْهِيمُ: جَمْعُ أَهْيَمَ، وَهُوَ الْبَعِيرُ الَّذِي أَصَابَهُ الْهُيَامُ (بِضَمِّ الْهَاءِ)، وَهُوَ دَاءٌ يُصِيبُ الْإِبِلَ يُورِثُهَا حُمَّى فِي الْأَمْعَاءِ فَلَا تَزَالُ تَشْرَبُ وَلَا تُرْوَى. أَي: شَارِبُونَ مِنَ الْحَمِيمِ شُرْبًا لَا يَنْقَطِعُ فَهُوَ مُسْتَمِرَّةٌ آلَامَهُ.

{ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ } [56].

اعْتِرَاضٌ بَيْنَ جُمَلِ الْخِطَابِ مُوَجَّهٌ إِلَى السَّامِعِينَ غَيْرَهُمْ فَلَيْسَ فِي ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ الْتِفَاتٌ.

{ **هَذَا** } إِشَارَةٌ إِلَى مَا ذُكِرَ مِنْ أَكْلِ الزَّقُّومِ وَشُرْبِ الْهِيمِ.

النُّزُلُ: (بِضَمِّ النُّونِ وَضَمِّ الزَّايِ وَسُكُونِهَا) مَا يُقَدَّمُ لِلضَّيْفِ مِنْ طَعَامٍ. وَهُوَ هُنَا تَشْبِيهٌ تَهَكُّمِيٌّ.

{ **يَوْمَ الدِّينِ** } يَوْمَ الْجَزَاءِ.

أَيْ: هَذَا جَزَاؤُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، نَظِيرَ قَوْلِهِ آنِفًا { جزاءً بما كانُوا يَعْمَلُونَ } [24].

{ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ } [57].

أَعْقَبَ إِبْطَالَ نفيهم الْبَعْث بِالِاسْتِدْلَالِ عَلَى إِمْكَانِهِ وَتَقْرِيبِ كَيْفِيَّةِ الْإِعَادَةِ الَّتِي أَحَالُوهَا فَاسْتَدَلَّ عَلَى إِمْكَانِ إِعَادَةِ الْخَلْقِ بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُعِيدَ خَلْقَهُمْ، قَالَ تَعَالَى { كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } [الْأَنْبِيَاء:104] لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ إِثْبَاتَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ.

<u>يَجُوزُ</u> أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ تَمَامِ مَا أُمِرَ النبيّ صلى الله عليه وسلّم بِأَنْ يَقُولَهُ لَهُمْ، <u>وَيَجُوزُ</u> أَنْ يَكُونَ اسْتِئْنَافًا مُسْتَقِلًّا. وَالْخِطَابُ عَلَى كِلَا الْوَجْهَيْنِ مُوَجَّهٌ لِلسَّامِعِينَ فَلَيْسَ فِي ضَمِيرِ خَلَقْنَاكُمْ الْتِفَات.

{ **نَحْنُ** } تقديم الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْمُسْنَدِ الْفِعْلِيِّ لِإِفَادَةِ تَقَوِّي الْحُكْمِ رَدًّا عَلَى إِحَالَتِهِمْ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَادِرًا عَلَى إِعَادَةِ خَلْقِهِمْ بَعْدَ فَنَاءِ مُعْظَمِ أَجْسَادِهِمْ حِينَ يَكُونُونَ تُرَابًا وَعِظَامًا، فَهَذَا تَذْكِيرٌ لَهُمْ بِمَا ذُهِلُوا عَنْهُ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ

خلقهمْ أوّل مرّة وَهُوَ الَّذِي يُعِيد خلقهمْ ثَانِي مرّة، فَإِنَّهُم، وَإِن كَانُوا يعلمُونَ أَنّ الله خَلَقَهُمْ، لَمَّا لَمْ يَجْرُوا عَلَى مُوجَبِ ذَلِكَ الْعلم، بإحالتهم إِعَادَة الْخَلْقِ، نُزِّلُوا مَنْزِلَةَ مَنْ يَشُكُّ فِي أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ.

{ **فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ** } فُرِّع على هَذَا التَّذْكِيرِ تَحْضِيضُهُمْ عَلَى التَّصْدِيقِ، أَيْ: بِالْخَلْقِ الثَّانِي وَهُوَ الْبَعْثُ، فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي لَمْ يُصَدِّقُوا بِهِ.

{ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ [58] أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ [59] }.

تَفْرِيعٌ عَلَى { نَحْنُ خَلَقْناكُمْ } [57]، أَيْ: تَدَبَّرُوا فِي خَلْقِ النَّسْلِ لِتَعْلَمُوا أَنَّ إِعَادَةَ الْخَلْقِ تُشْبِهُ ابْتِدَاءَهُ.

{ **أَفَرَأَيْتُمْ** } الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ بِتَعْيِينِ خَالِقِ الْجَنِينِ مِنَ النُّطْفَةِ، إِذْ لَا يَسَعُهُمْ إِلَّا أَنْ يُقِرُّوا بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ النَّسْلِ مِنَ النُّطْفَةِ وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ قُدْرَتَهُ عَلَى مَا هُوَ مِنْ نَوْعِ إِعَادَةِ الْخَلْقِ.

وَفِعْلُ الرُّؤْيَةِ مِنْ بَابِ (ظَنَّ) لِأَنَّهُ لَيْسَ رُؤْيَةَ عَيْنٍ. وَقَالَ الرَّضِيُّ: " لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الِاسْتِخْبَارِ عَنْ حَالَةٍ عَجِيبَةٍ لِشَيْءٍ ".

{ **أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ** } ابْتُدِئَ الِاسْتِدْلَالُ بِتَقْدِيمِ هذه الجُمْلَةِ زِيَادَةً فِي إِبْطَالِ شُبْهَتِهِمْ، إِذْ قَاسُوا الْأَحْوَالَ الْمُغَيَّبَةَ عَلَى الْمُشَاهَدَةِ. والقول تَمْهِيدٌ لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ خَالِقُ الْأَجِنَّةِ بِقُدْرَتِهِ، وَأَنَّ تِلْكَ الْقُدْرَة لَا تقصر عَن الْخَلْق الثَّانِي عِنْدَ الْبَعْثِ.

وَقَدْ حَصَلَ مِنْ نَفْيِ الْخَلْقِ عَنْهُمْ وَإِثْبَاتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى مَعْنَى قَصْرِ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

{ **أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ** } زِيَادَةً فِي تَقْرِيرِ إِسْنَادِ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ. وَيَجُوزُ أَنْ نَجْعَلَ { أَمْ } مُنْقَطِعَةً بِمَعْنَى (بَلْ) لِأَنَّ الِاسْتِفْهَامَ لَيْسَ بِحَقِيقِيٍّ، فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِهِ طَلَبُ تَعْيِينِ الْفَاعِلِ، وَيَكُونُ الكَلَامُ قَدْ تَمَّ عِنْدَ قَوْلِهِ { تَخْلُقُونَهُ }.

وَالْمَعْنَى: أَتَظُنُّونَ أَنْفُسَكُمْ خَالِقِينَ النَّسَمَةَ مِمَّا تَمْنُونَ.

{ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ [60] عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ [61] }.

{ **نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ** } اسْتِدْلَالٌ بِإِمَاتَةِ الْأَحْيَاءِ عَلَى أَنَّهَا مَقْدُورَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وهم مُوقِنُونَ بِهَا وخاضعون لها، فَإِنَّ الَّذِي قَدِرَ عَلَى خَلْقِ الْمَوْتِ بَعْدَ الْحَيَاةِ قَادِرٌ عَلَى الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ، إِذِ الْقُدْرَةُ عَلَى حُصُولِ شَيْءٍ تَقْتَضِي الْقُدْرَةَ عَلَى ضِدِّهِ، فَوَضَحَ دَلِيلُ إِمْكَانِ الْبَعْثِ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ } [الْحَج:66].

ثمَّ هُوَ مَعَ ذَلِك تَنْبِيه على أَنّ الْمَوْت جعله الله طورا من أطوار الْإِنْسَان لحكمة الِانْتِقَال بِهِ إِلَى الْحَيَاة الأبدية بعد إعداده لَهَا، لِتَتِمَّ الْمُنَاسبَةُ بَين ذَلِك الْعَالم وَبَين عامريه. وَقد مضى الْكَلَام على ذَلِك عِنْد تَفْسِير قَوْله تَعَالَى { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لَا تُرْجَعُونَ } [الْمُؤمنِينَ:115].

{ **قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ** } جِيءَ بِهذا التَّعْبِيرِ دُونَ: نَحْنُ نُمِيتُكُمْ، لإفادة أَنَّ الْمَوْتَ مَجْعُولٌ عَلَى تَقْدِيرٍ مَعْلُومٍ مُرَادٍ، مَعَ مَا فِي مَادَّةِ { قَدَّرْنَا } مِنَ التَّذْكِيرِ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ لِتَتَوَجَّهَ أَنْظَارُ الْعُقُولِ إِلَى مَا فِي طَيِّ ذَلِكَ مِنْ دَقَائِقَ وَهِيَ كَثِيرَةٌ، وَخَاصَّةٌ فِي تَقْدِيرِ مَوْتِ الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ سَبِيلٌ إِلَى الْحَيَاةِ الْكَامِلَةِ إِنْ أَخَذَ لَهَا أَسْبَابَهَا.

{ **بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ** } اسْتِعَارَةٌ مَكْنِيَّةٌ إِذْ شُبِّهَ الْمَوْتُ بِمَقْسُومٍ وَرُمِزَ إِلَى الْمُشَبَّهِ بِهِ بِكَلِمَةِ { بَيْنَكُمُ } الشَّائِعِ اسْتِعْمَالُهَا فِي الْقِسْمَةِ. وَفِي هَذِهِ الِاسْتِعَارَةِ كِنَايَةٌ عَنْ كَوْنِ الْمَوْتِ فَائِدَةً وَمَصْلَحَةً لِلنَّاسِ؛ أَمَّا فِي الدُّنْيَا لِئَلَّا تَضِيقَ بِهُمُ الْأَرْضُ وَالْأَرْزَاقُ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلِلْجَزَاءِ الْوِفَاقِ.

{ **وما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ على أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لَا تَعْلَمُونَ** } هَذَا نَتِيجَةٌ لِمَا سَبَقَ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى أَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُعطَفَ بِـ (فَاءِ التَّفْرِيعِ) وَيُتْرَكَ عَطْفُهُ فَعَدَلَ عَنِ الْأَمْرَيْنِ، وَعُطِفَ بِـ (الْوَاوِ) عَطْفَ الْجُمَلِ فَيَكُونُ جُمْلَةً مُسْتَقِلَّةً مَقْصُودًا لِذَاتِهِ لِأَنَّ مَضْمُونَهُ يُفِيدُ النَّتِيجَةَ، وَيُفِيدُ تَعْلِيمًا اعْتِقَادِيًّا، فَيَحْصُلُ الْإِعْلَامُ بِهِ تَصْرِيحًا وَتَعْرِيضًا؛

فَالصَّرِيحُ مِنْهُ التَّذْكِيرُ بِتَمَامِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ وَلَا تَضِيقُ قُدْرَتُهُ عَنْ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ يُبَدِّلُهُمْ خَلْقًا آخَرَ فِي الْبَعْثِ مُمَاثِلًا لِخَلْقِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

وَيُفِيدُ تَعْرِيضًا بِالتَّهْدِيدِ بِاسْتِئْصَالِهِمْ وَتَعْوِيضِهِمْ بِأُمَّةٍ أُخْرَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ } [إِبْرَاهِيم:20/19]. وَلَوْ جِيءَ بِالْفَاءِ لَضَاقَتْ دلَالَة الْكَلَام عَن الْمَعْنَيَيْنِ الْآخَرَيْنِ.

السَّبْقُ: مَجَازٌ مِنَ الْغَلَبَةِ وَالتَّعْجِيزِ لِأَنَّ السَّبْقَ يَسْتَلْزِمُ أَنَّ السَّابِقَ غَالِبٌ لِلْمَسْبُوقِ. فَالْمَعْنَى: وَمَا نَحْنُ بِمَغْلُوبِينَ.

{ **على أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ** } يَتَعَلَّقُ { بِمَسْبُوقِينَ }، لِأَنَّهُ يُقَالُ: غَلَبَهُ عَلَى كَذَا، إِذَا حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَوَالِهِ.

وَأَصْلُهُ: غَلَبَهُ عَلَى كَذَا، أَيْ: تَمَكَّنَ مِنْ كَذَا دُونَهُ. وَيَكُونُ الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ تعالى { أَمْثالَكُمْ }.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ { عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ } فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضمير { قَدَّرْنا } [60]، أَيْ: قَدَّرْنَا الْمَوْتَ عَلَى أَنْ نُحْيِيَكُمْ فِيمَا بَعْدُ، إِدْمَاجًا لِإِبْطَالِ قَوْلِهِمْ { أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [47]، فَتَكُونُ {عَلَى} بِمَعْنَى (مَعَ) وَتَكُونُ حَالًا مُقَدَّرَةً. وَيَكُونُ مُتَعَلِّقُ (مَسْبُوقِينَ) مَحْذُوفًا دَالًّا عَلَيْهِ الْمَقَامُ، أَيْ: مَا نَحْنُ بِمَغْلُوبِينَ فِيمَا قَدَّرْنَاهُ مِنْ خَلْقِكُمْ وَإِمَاتَتِكُمْ، وَيُجْعَلُ الْوَقْفُ على قوله تعالى { بِمَسْبُوقِينَ }.

{ **أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ** } نُبَدِّلُ بِكُمْ أَمْثَالَكُمْ، أَيْ: نَجْعَلُ أَمْثَالَكُمْ بَدَلًا.

الْأَمْثَالُ: جَمْعُ مِثْلٍ (بِكَسْرِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْمُثَلَّثَةِ) وَهُوَ النَّظِيرُ، أَيْ: نَخْلُقُ ذَوَاتٍ مُمَاثِلَةٍ لِذَوَاتِكُمُ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا وَنُودِعُ فِيهَا أَرْوَاحَكُمْ. وَهَذَا يُؤْذِنُ بِأَنَّ الْإِعَادَةَ عَنْ عَدَمٍ لَا عَنْ تَفْرِيقٍ. وَقَدْ تَرَدَّدَ فِي تَعْيِينِ ذَلِكَ عُلَمَاءُ

السُّنَّةِ وَالْكَلَامِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُفِيدَ مَعْنَى التَّهْدِيدِ بِالِاسْتِئْصَالِ، أَيْ: لَوْ شِئْنَا اسْتِئْصَالَكُمْ لَمَا أَعْجَزْتُمُونَا، فَيَكُونُ إِدْمَاجًا لِلتَّهْدِيدِ فِي أَثْنَاءِ الِاسْتِدْلَالِ وَيَكُونُ مِنْ بَابِ قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ } [إبْرَاهِيم:19].

{ **وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ** } عَطْفٌ عَلَى نُبَدِّلَ، أَيْ مَا نَحْنُ بِمَغْلُوبِينَ عَلَى إِنْشَائِكُمْ.

وَهَذَا الْعَطْفُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَطْفَ مُغَايِرٍ بِالذَّاتِ فَيَكُونُ إِنْشَاؤُهُمْ شَيْئًا آخَرَ غَيْرَ تَبْدِيلِ أَمْثَالِهِمْ.

أَيْ: نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، فَتَبْدِيلُ أَمْثَالِهِمْ: خَلْقُ أَجْسَادٍ أُخْرَى تُودَعُ فِيهَا الْأَرْوَاحُ

وَأَمَّا إِنْشَاؤُهُمْ: فَهُوَ نَفْخُ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ الْمَيِّتَةِ الْكَامِلَةِ وَفِي الْأَجْسَادِ الْبَالِيَةِ بَعْدَ إِعَادَتِهَا بِجَمْعِ مُتَفَرِّقِهَا أَوْ بِإِنْشَاءِ أَمْثَالِهَا مِنْ ذَوَاتِهَا مِثْلِ (عَجْبِ الذَّنَبِ).

وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَطْفَ مُغَايِرٍ بِالْوَصْفِ بِأَنْ يُرَادَ الْإِشَارَةُ إِلَى كَيْفِيَّةِ التَّبْدِيلِ إِشَارَةً عَلَى وَجْهِ الْإِبْهَامِ.

وَعُطِفَ بِـ (الْوَاوِ) دُونَ (الْفَاءِ) لِأَنَّهُ بِمُفْرَدِهِ تَصْوِيرٌ لِقُدْرَةِ الله تَعَالَى وحكمته بعد مَا أَفَادَهُ قَوْلُهُ تعالى { أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ } مِنْ إِثْبَاتِ أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى الْبَعْثِ.

{ **فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ** } الـ (مَا) هنا صَادِقَةٌ عَلَى الْكَيْفِيَّةِ، أَوِ الْهَيْئَةِ الَّتِي يَتَكَيَّفُ بِهَا الْإِنْشَاءُ، أَيْ: فِي كَيْفِيَّةٍ لَا تَعْلَمُونَهَا، إِذْ لَمْ تُحِيطُوا عِلْمًا بِخَفَايَا الْخِلْقَةِ. وَهَذَا الْإِجْمَالُ جَامِعٌ لِجَمِيعِ الصُّوَرِ الَّتِي يَفْرِضُهَا الْإِمْكَانُ فِي بَعْثِ الْأَجْسَادِ لِإِيدَاعِ الْأَرْوَاحِ.

{ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ }. [62].

أُعْقِبَ دَلِيلُ إِمْكَانِ الْبَعْثِ،الذي جيء به لِلتَّنْبِيهِ عَلَى صَلَاحِيَّةِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ لِذَلِكَ وَلِسَدِّ مَنَافِذِ الشُّبْهَةِ، بِدَلِيلٍ مِنْ قِيَاسِ التَّمْثِيلِ، وَهُوَ تَشْبِيهُ النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ بِالنَّشْأَةِ الْأُولَى، الْمَعْلُومَةِ عِنْدَهُمْ بِالضَّرُورَةِ، فَنُبِّهُوا لِيَقِيسُوا عَلَيْهَا النَّشْأَةَ الثَّانِيَةَ فِي أَنَّهَا إِنْشَاءٌ مِنْ أَثَرِ قُدْرَةِ اللهِ وَعِلْمِهِ، وَفِي أَنَّهُمْ لَا يُحِيطُونَ عِلْمًا بِدَقَائِقِ حُصُولِهَا.

{ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى** } الْعِلْمُ الْمُثْبَتُ هنا هُوَ الْعِلْمُ الْإِجْمَالِيُّ، وَالْإِجْمَالِيُّ كَافٍ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى التَّفْصِيلِيِّ إِذْ لَا أَثَرَ لِلتَّفْصِيلِ فِي الِاعْتِقَادِ. والْعِلْمُ الْمَنْفِيُّ فِي قَوْله تعالى { مَا لَا تَعْلَمُونَ } [61]، هُوَ الْعِلْمُ التَّفْصِيلِيُّ.

وَفِي الْمُقَابَلَةِ بين قَوْله تعالى { فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ } وَقَوْلِهِ تعالى { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ } مُحَسِّنُ الطِّبَاقَ.

{ **فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ** } لَمَّا كَانَ عِلْمُهُمْ بِالنَّشْأَةِ الْأُولَى كَافِيًا لَهُمْ فِي إِبْطَالِ إِحَالَتِهِمُ النَّشْأَةَ الثَّانِيَةَ رَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْبِيخِ مَا لَمْ يُرَتِّبْ مِثْلَهُ عَلَى قَوْلِهِ السابق { وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ } [61/60]. أَيْ هَلَّا تَذَكَّرْتُمْ بِذَلِكَ فَأَمْسَكْتُمْ عَنِ الْجَحْدِ، وَهَذَا تَجْهِيلٌ لَهُمْ فِي تَرْكِهِمْ قِيَاسَ الْأَشْبَاهِ عَلَى أَشْبَاهِهَا، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ آنِفًا { نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ } [57].

{ **تَذَكَّرُونَ** } جِيءَ بِالْمُضَارِعِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ بَابَ التَّذَكُّرِ مَفْتُوحٌ فَإِنْ فَاتَهُمُ التَّذَكُّرُ فِيمَا مَضَى فَلْيَتَدَارَكُوهُ الْآنَ.

{ **أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ** [63] **أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** [64] }.

انْتِقَالٌ إِلَى دَلِيلٍ آخَرَ عَلَى إِمْكَانِ الْبَعْثِ وَصَلَاحِيَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ لَهُ بِضَرْبٍ آخَرَ مِنْ ضُرُوبِ الْإِنْشَاءِ بَعْدَ الْعَدَمِ.

{ **أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ** } يجوز أن تكون الْفَاءُ لِتَفْرِيعِ مَا بَعْدَهَا عَلَى جُمْلَةِ { نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ } [57]، كَمَا فُرِّعَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تعالى { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ }، لِيَكُونَ الْغَرَضُ مِنْ هَذِهِ الْجُمَلِ مُتَّحِدًا وَهُوَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى إِمْكَانِ الْبَعْثِ، وَإِنْ كَانَ مَفْعُولُ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ مُخْتَلِفًا، وَسَيَجِيءُ نَظِيرُهُ فِي قَوْلِهِ بَعْدَهُ { أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ } [68]، وَقَوْلِهِ تعالى { أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ } [71].

وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ الْفَاءَ لِتَفْرِيعِ مُجَرَّدِ اسْتِدْلَالٍ على اسْتِدْلَالٍ. عَلَى أَنَّهُ لَمَّا آلَ الِاسْتِدْلَالُ السَّابِقُ إِلَى عُمُومِ صَلَاحِيَّةِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ جَازَ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُرَادًا بِهَا تَمْثِيلٌ بِنَوْعٍ عَجِيبٍ مِنْ أَنْوَاعِ تَعَلُّقَاتِ الْقُدْرَةِ بِالْإِيجَادِ دُونَ إِرَادَةِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى خُصُوصِ الْبَعْثِ، فَيَصِحُّ جَعْلُ الْفَاءِ تَفْرِيعًا عَلَى جُمْلَةِ { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ } مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا اقْتَضَتْ سِعَةَ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ.

وَمُنَاسِبَةُ الِانْتِقَالِ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بِخَلْقِ النَّسْلِ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ بِنَبَاتِ الزَّرْعِ هِيَ التَّشَابُهُ الْبَيِّنُ بَيْنَ تَكْوِينِ الْإِنْسَانِ وَتَكْوِينِ النَّبَاتِ، قَالَ تَعَالَى { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتًا } [نوح:17].

الْحَرْثُ: شَقُّ الْأَرْضِ لِيُزْرَعَ فِيهَا أَوْ يُغْرَسَ.

{ **مَا تَحْرُثُونَ** } ظَاهِرُ القول أنّ المقصود الْأَرْض إِلَّا أَنَّ هَذَا لَا يُلَائِمُ ضَمِيرَ { تَزْرَعُونَهُ } فَتَعَيَّنَ تَأْوِيلُ مَا تَحْرُثُونَ بِأَنْ يُقَدَّرَ: مَا تَحْرُثُونَ لَهُ، أَيْ: لِأَجْلِهِ، عَلَى طَرِيقَةِ الْحَذْفِ وَالْإِيصَالِ، وَالَّذِي يَحْرُثُونَ لِأَجْلِهِ هُوَ النَّبَاتُ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا ضَمِيرُ النَّصْبِ فِي { أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ } لِأَنَّهُ اسْتِفْهَامٌ فِي مَعْنَى النَّفْيِ وَالَّذِي يُنْفَى هُوَ مَا يَنْبُتُ مِنَ الْحَبِّ لَا بَذْرُهُ.

{ **أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** } بَيَانٌ لِلْجُمْلَةِ السابقة، كَمَا تَقَدَّمَ فِي { أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ } [59]. وَالِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ كالذي تقدّم.

{ **أَمْ** } مُنْقَطِعَةٌ لِلْإِضْرَابِ، كنَظِيرَتِهَا مِنْ قَوْلِهِ تعالى { أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ } [59].

وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ.

{ **نَحْنُ الزَّارِعُونَ** } كَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي نَفْيِ الزَّرْعِ عَنْهُمْ وَإِثْبَاتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى يُفِيدُ مَعْنَى قَصْرِ الْإِنْبَاتِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ قَصْرُ مُبَالَغَةٍ لِعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِزَرْعِ النَّاسِ.

{ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ [65] إِنَّا لَمُغْرَمُونَ [66] بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ [67] }.

مَوْقِعُ هذه الجملة كَمَوْقِعِ جُمْلَةِ { نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ } [60]، فِي أَنَّهَا اسْتِدْلَالٌ عَلَى انْفِرَادِهِ سبحانه بِالتَّصَرُّفِ إيجَادا وإعدامًا، تَكْمِلَةً لِدَلِيلِ إِمْكَانِ الْبَعْثِ.

{ **لَجَعَلْناهُ** } اللَّامُ مُفِيدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ. وَيَكْثُرُ اقْتِرَانُ جَوَابِ (لَوْ) بِهَذِهِ اللَّامِ إِذَا كَانَ مَاضِيًا مُثْبَتًا، كَمَا يَكْثُرُ تَجَرُّدُهُ عَنْهَا كَمَا سَيَجِيءُ فِي الْآيَةِ الْمُوَالِيَةِ لِهَذِهِ.

الْحُطَامُ: الشَّيْءُ الَّذِي حَطَّمَهُ حَاطِمٌ، أَيْ: كَسَّرَهُ وَدَقَّهُ، فَهُوَ بِمَعْنَى الْمَحْطُومِ.

<u>الْمَعْنَى</u>: لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مَا يَنْبُتُ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْأَرْضِ حُطَامًا بِأَنْ نُسَلِّطَ عَلَيْهِ مَا يُحَطِّمُهُ مِنْ بَرَدٍ أَوْ رِيحٍ أَوْ حَشَرَاتٍ، فَالْمُرَادُ جَعْلُهُ حُطَامًا قَبْلَ الِانْتِفَاعِ بِهِ.

{ **فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ** } تَفْرِيعٌ عَلَى جُمْلَةِ { لَجَعَلْناهُ حُطاماً }.

{ **فَظَلْتُمْ** } هُنَا بِمَعْنَى: صِرْتُمْ، أي: صرتم تقولون. وَعَلَى هَذَا حَمَلَهُ جَمِيعُ الْمُفَسِّرِينَ.

{ **تَفَكَّهُونَ** } أَعْضَلَ وَقْعُ هذا الفِعْلِ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَابْنِ زَيْدٍ: تَفَكَّهُونَ تَعْجَبُونَ، وَعَنْ عِكْرِمَةَ: تَتَلَاوَمُونَ، وَعَنِ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ: تَنْدَمُونَ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: تَحْزَنُونَ، وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: هُوَ تَلَهُّفٌ عَلَى مَا فَاتَ، وَالفِعْلُ مِنَ الْأَضْدَادِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: تَفَكَّهْتُ، أَيْ تَنَعَّمْتُ، وَتَفَكَّهْتُ، أَيْ حَزِنْتُ.

ذَلِكَ أَنَّ فِعْلَ { تَفَكَّهُونَ } مِنْ مَادَّةِ فَكِهَ وَالْمَشْهُورُ أَنَّ هَذِهِ الْمَادَّةَ تَدُلُّ عَلَى الْمَسَرَّةِ وَالْفَرَحِ وَلَكِنَّ السِّيَاقَ سِيَاقُ ضِدِّ الْمَسَرَّةِ، وَبَيَانُهُ بِقَوْلِهِ تعالى { إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ }.

{ **إِنَّا لَمُغْرَمُونَ** } تَنَدُّمٌ وَتَحَسُّرٌ. أَيْ: تَعْلَمُونَ أَنَّ حَطْمَ زَرْعِكُم حرمَان مِنَ اللهِ جَزَاءً لكفركم.

مُغْرَمُونَ: مِنَ الْغَرَامِ وَهُوَ الْهَلَاكُ: كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً } [65]. وَهَذَا شَبِيهٌ بِمَا فِي سُورَةِ الْقَلَمِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى { فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ - إِلَى قَوْلِهِ - إِنَّا كُنَّا طاغِينَ } [الْقَلَم:26-31].

<u>فَيَجُوزُ</u> أَنْ يَكُونَ المعنى جَارِيًا عَلَى ظَاهِرِ مَادَّةِ { تَفَكَّهُونَ } وَيَكُونُ ذَلِكَ تَهَكُّمًا بِهِمْ حَمْلًا لَهُمْ عَلَى مُعْتَادِ أَخْلَاقِهِمْ مِنَ الْهَزْلِ بِآيَاتِ اللهِ، وَقَرِينَةُ التَّهَكُّمِ مَا بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ عَنْهُمْ { إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ }.

<u>وَيَجُوزُ</u> أَنْ يَكُونَ مَحْمَلُ الْآيَةِ عَلَى جَعْلِ { تَفَكَّهُونَ } بِمَعْنَى تَنْدَمُونَ وَتَحْزَنُونَ.

{ أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ [68] أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ [69] }.

هَذَا عَلَى طَرِيقَةِ قَوْلِهِ تعالى { أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ } [63]، تَفْرِيعًا وَاسْتِفْهَامًا، وَفِعْلَ رُؤْيَةٍ.

<u>وَمُنَاسَبَةُ الِانْتِقَالِ</u> أَنَّ الْحَرْثَ إِنَّمَا يَنْبُتُ زَرْعُهُ وَشَجَرُهُ بَالْمَاءِ فَانْتَقَلَ مِنَ الِاسْتِدْلَال بتكوين النَّبَاتِ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ بِتَكْوِينِ الْمَاءِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الزَّرْعِ وَالشَّجَرِ.

{ **الَّذِي تَشْرَبُونَ** } وَصْفُ الْمَاءِ بِذَلِكَ إِدْمَاجٌ لِلْمِنَّةِ فِي الِاسْتِدْلَالِ، أَيِ: الْمَاءُ الْعَذْبُ الَّذِي تَشْرَبُونَهُ، فَإِنَّ شُرْبَ الْمَاءِ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَى الْإِنْسَانِ، لِيُقَابَلَ بِقَوْلِهِ بَعْدَهُ { لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ } [70].

وَالْمُرَادُ مَاءُ الْمَطَرِ.

{ **أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ** } أي: أَنْزَلْتُمُوهُ عَلَى بِلَادِكُمْ وَحُرُوثِكُمْ. وَمَاءُ الْمَطَرِ هُوَ مُعْظَمُ شَرَابِ الْعَرَبِ الْمُخَاطَبِينَ حِينَئِذٍ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ لِلْعَرَبِ: بَنُو مَاءِ السَّمَاءِ.

الْمُزْن: اسْم جَمْعُ مُزْنَةٍ وَهِيَ السَّحَابَةُ.

<u>وَوَجْهُ الِاسْتِدْلَالِ</u> إِنْشَاءُ مَا بِهِ الْحَيَاةُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَعْدُومًا، بِأَنْ كَوَّنَهُ اللَّهُ فِي السَّحَابِ بِحِكْمَةِ تَكْوِينِ الْمَاءِ. فَكَمَا اسْتَدَلَّ بِإِيجَادِ الْحَيِّ مِنْ أَجْزَاءَ مَيِّتَةٍ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالنَّبَاتِ اسْتُدِلَّ بِإِيجَادِ مَا بِهِ الْحَيَاةُ عَنْ عَدَمٍ تَقْرِيبًا لِإِعَادَةِ الْأَجْسَامِ بِحِكْمَةٍ دَقِيقَةٍ خَفِيَّةٍ. أَيْ: يَجُوزُ أَنْ يُمْطِرَ اللَّهُ مَطَرًا عَلَى ذَوَاتِ الْأَجْسَادِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَكُونُ سَبَبًا فِي تَخَلُّقِهَا أَجْسَادًا كَامِلَةً كَمَا كَانَتْ أُصُولُهَا، كَمَا تَتَكَوَّنُ الشَّجَرَةُ مِنْ نَوَاةِ أَصْلِهَا.

{ لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ } [70].

مَوْقِعُهَا كَمَوْقِعِ جُمْلَةِ { لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً } [65]، وَالْمَعْنَى: لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ غَيْرَ نَافِعٍ لَكُمْ.

فَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى نَقْضِ مَا فِي الْمَاءِ مِنَ الصَّلَاحِيَّةِ لِلنَّفْعِ بَعْدَ وُجُودِهِ.

{ **جَعَلْناهُ** } حُذِفَتْ اللَّامُ الَّتِي شَأْنُهَا أَنْ تَدْخُلَ عَلَى جَوَابِ (لَوْ) الْمَاضِي الْمُثْبَتِ لِأَنَّهَا لَامٌ زَائِدَةٌ لَا تُفِيدُ إِلَّا التَّوْكِيدَ، فَكَانَ حَذْفُهَا إِيجازا فِي الْكَلَام.

{ **فَلَوْلا تَشْكُرُونَ** } امْتِنَانٌ، تَحْضِيضًا لَهُمْ عَلَى الشُّكْرِ وَنَبْذِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ.

{ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ [71] أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ [72] }.

هُوَ مِثْلُ سَابِقِهِ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ.

<u>وَمُنَاسَبَةُ الِانْتِقَالِ</u> مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بِخَلْقِ الْمَاءِ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ بِخَلْقِ النَّارِ هِيَ مَا تَقَدَّمَ فِي مُنَاسَبَةِ الِانْتِقَالِ إِلَى خَلْقِ الْمَاءِ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بِخَلْقِ الزَّرْعِ وَالشَّجَرِ، فَإِنَّ النَّارَ تَخْرُجُ مِنَ الشَّجَرِ بِالِاقْتِدَاحِ وَتُذَكَّى بِالشَّجَرِ.

وَهَذَا اسْتِدْلَال عَلَى تَقْرِيبِ كَيْفِيَّةِ الْإِحْيَاءِ لِلْبَعْثِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الِاقْتِدَاحَ إِخْرَاجٌ، وَالزَّنْدُ الَّذِي بِهِ إِيقَادُ النَّارِ يَخْرُجُ مِنْ أَعْوَادٍ مَيِّتَةٍ.

{ **الَّتِي تُورُونَ** } إِدْمَاجٌ لِلِامْتِنَانِ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ } [68].

وَهُوَ أَيْضًا وَصْفٌ لِلْمَقْصُودِ مِنَ الدَّلِيلِ وَهُوَ النَّارُ الَّتِي تَقْتَدِحُ مِنَ الزَّنْدِ لَا النَّارُ الْمُلْتَهِبَةُ.

تُورُونَ: مُضَارِعُ أَوْرَى الزَّنْدَ إِذَا حَكَّهُ بِمِثْلِهِ لِيَسْتَخْرِجَ مِنْهُ النَّارَ، كَانُوا يَضَعُونَ عُودًا مِنْ (شَجَرِ النَّارِ) وَيَحُكُّونَهُ مِنْ أَعْلَاهُ بِعُودٍ مِثْلِهِ فَتَخْرُجُ النَّارُ مِنَ الْعُودِ الْأَسْفَلِ وَيُسَمَّى الْعُودُ الْأَعْلَى زَنْدًا (بِفَتْحِ الزَّايِ وَسُكُونِ النُّونِ) وَزِنَادًا (بِكَسْرِ الزَّايِ) وَيُسَمَّى الْأَسْفَلُ زَنْدَةً (بِهَاءِ تَأْنِيثٍ فِي آخِرِهِ)، شَبَّهُوا الْعُودَ الْأَعْلَى بِالْفَحْلِ وَشَبَّهُوا الْعُودَ الْأَسْفَلَ بِالطَّرُوقَةِ.

وَتَعْدِيَةُ تُورُونَ إِلَى ضَمِيرِ النَّارِ تَعْدِيَةً عَلَى تَقْدِيرِ مُضَافٍ، أَيْ: تُورُونَ شَجَرَتَهَا، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى { أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها }، وَقد شَاعَ هَذَا الْحَذْفُ فِي الْكَلَامِ، فَقَالُوا: أَوْرَى النَّارَ، كَمَا قَالُوا: أَوْرَى الزِّنَادَ.

{ **شَجَرَتَهَا** } الضمِيرُ عَائِدٌ إِلَى النَّارِ.

شَجَرَةُ النَّارِ: هِيَ جِنْسُ الشَّجَرِ الَّذِي فِيهِ حُرَّاقٌ، أَيْ: مَا يُقْتَدَحُ مِنْهُ النَّارُ، وَهُوَ شَجَرُ الزَّنْدِ أَوِ الزِّنَادِ، وَأَشْجَارُ النَّارِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا الْمَرْخُ (بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ) وَالْعَفَارُ (بِفَتْحِ الْعَيْنِ) وَالْعُشَرُ (بِضَمٍّ فَفَتْحٍ) وَالْكَلْخُ (بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ).

{ **أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ** } بَيَانٌ لِجُمْلَةِ { أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ }، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ } [59].

{ نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ } [73].

بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ جُمْلَةِ { أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ } [72]، أَيْ: إِنَّ إِنْشَاءَ النَّارِ كَانَ لِفَوَائِدَ وَحِكَمًا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ تَذْكِرَةً لِلنَّاسِ يَذْكُرُونَ بِهَا نَارَ جَهَنَّمَ.

الْمَتَاعُ: أَيْ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ زَمَانًا، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ } [النِّسَاءِ:77].

الْمُقْوِي: الدَّاخِلُ فِي الْقَوَاءِ (بِفَتْحِ الْقَافِ وَالْمَدِّ) وَهِيَ الْقَفْرُ، وَيُطْلَقُ الْمُقْوِي عَلَى الْجَائِعِ، لِأَنَّ جَوْفَهُ أقوت، أَي: خلت مِنَ الطَّعَامِ إِذْ كِلَا الْفِعْلَيْنِ مُشْتَقٌّ مِنَ الْقَوَى وَهُوَ الْخَلَاءُ. فَإِيثَارُ هَذَا الْوَصْفِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِيَجْمَعَ الْمَعْنَيَيْنِ، فَإِنَّ النَّارَ مَتَاعٌ لِلْمُسَافِرِينَ يَسْتَضِيئُونَ بِهَا فِي مَنَاخِهِمْ وَيَصْطَلُونَ بِهَا فِي الْبَرْدِ وَيَرَاهَا السَّائِرُ لَيْلًا فِي الْقَفْرِ فَيَهْتَدِي إِلَى مَكَانِ النُّزُلِ فَيَأْوِي إِلَيْهِمْ، وَمَتَاعٌ لِلْجَائِعِينَ يَطْبُخُونَ بِهَا طَعَامَهُمْ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ.

وَهَذَا إدماج للامتنان فِي خِلَالِ الِاسْتِدْلَالِ.

{ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } [74].

رُتِّبَ عَلَى مَا مَضَى مِنَ الْكَلَامِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى دَلَائِلِ عَظَمَةِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَعَلَى أَمْثَالٍ لِتَقْرِيبِ الْبَعْثِ الَّذِي أَنْكَرُوا خَبَرَهُ، وَعَلَى جَلَائِلِ النِّعَمِ الْمُدْمَجَةِ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ، أَنْ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يُنَزِّهَهُ تَنْزِيهًا خَاصًّا، فَإِنَّ لِلْعِبَادَاتِ مَوَاقِعَ تَكُونُ هِيَ فِيهَا أَكْمَلَ مِنْهَا فِي دُونِهَا، فَيَكُونُ لَهَا مِنَ الْفَضْلِ مَا يُجْزَلُ ثَوَابُهُ.

فَالرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَخْلُو عَنْ تَسْبِيحِ رَبِّهِ وَالتَّفَكُّرِ فِي عَظَمَةِ شَأْنِهِ وَلَكِنْ لِاخْتِلَافِ التَّسْبِيحِ وَالتَّفَكُّرِ، مِنْ تَجَدُّدِ مُلَاحَظَةِ النَّفْسِ، مَا يَجْعَلُ لِكُلِّ حَالٍ مِنَ التَّفَكُّرِ مَزَايَا تُكْسِبُهُ خَصَائِصَ وَتَزِيدُهُ ثَوَابًا.

فَالْجُمْلَةُ عَطْفٌ عَلَى قوله { قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَمَتاعاً لِلْمُقْوِين } [49-73]، وَهِيَ تَذْيِيلٌ.

التَّسْبِيحُ: التَّنْزِيهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ } [الْبَقَرَة:30].

اسْمُ الرَّبِّ: هُوَ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَاتِهِ وَجُمَاعِ صِفَاتِهِ، وَهُوَ اسْمُ الْجَلَالَةِ، أَيْ بِأَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ.

وَلَمَّا كَانَ الْكَلَامُ مَوْضُوعًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَا فِي النَّفْسِ كَانَ تَسْبِيحُ الِاسْمِ مُقْتَضِيًا تَنْزِيهَ مُسَمَّاهُ، وَكَانَ أَيْضًا مُقْتَضِيًا أَنْ يَكُونَ التَّسْبِيحُ بِاللَّفْظِ مَعَ الِاعْتِقَادِ لَا مُجَرَّدَ الِاعْتِقَادِ، لِأَنَّ التَّسْبِيحَ لَمَّا عُلِّقَ بِلَفْظِ اسْمٍ تَعَيَّنَ أَنَّهُ تَسْبِيحٌ لَفْظِيٌّ، أَيْ قُلْ كَلَامًا فِيهِ مَعْنَى التَّنْزِيهِ. وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا قَالَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: " إِنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تعالى { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ } [النَّصْر:3]، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: " **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي** ". يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ، أَيْ: يَتَأَوَّلُهُ عَلَى إِرَادَةِ أَلْفَاظِهِ.

{ **بِاسْمِ رَبِّكَ** } الْبَاءُ الدَّاخِلَة على (اسْمِ) زَائِدَةٌ لِتَوْكِيدِ اللُّصُوقِ، أَي: اتِّصَالُ الْفِعْلِ بِمَفْعُولِهِ، وَذَلِكَ لِوُقُوعِ الْأَمْرِ بِالتَّسْبِيحِ عَقِبَ ذِكْرِ عِدَّةِ أُمُورٍ تَقْتَضِيهِ، حَسْبَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ فَاءُ التَّرْتِيبِ، فَكَانَ حَقِيقًا بِالتَّقْوِيَةِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ، وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ تعالى { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } [الْأَعْلَى:1]، لِوُقُوعِهِ فِي صَدْرِ جُمْلَتِهِ.

وَهَذَا الْأَمْرُ شَامِلٌ لِلْمُسْلِمِينَ بِقَرِينَةِ أَنَّ الْقُرْآنَ مَتْلُوٌّ لَهُمْ وَأَنَّ مَا تَفَرَّعَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ لَا يَخْتَصُّ عِلْمُهُ بِالنبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أُمِرَ بِالتَّسْبِيحِ لِأَجْلِهِ فَكَذَلِكَ مَنْ عَلِمَهُ مِنَ الْمُسلمين.

{ **الْعَظِيمِ** } صَالِحٌ لِأَنْ يُجْعَلَ وَصْفًا لِـ { رَبِّكَ }، وَهُوَ عَظِيمٌ بِمَعْنَى ثُبُوتِ جَمِيعِ الْكَمَالِ لَهُ، وَهَذَا مَجَازٌ شَائِعٌ مُلْحَقٌ بِالْحَقِيقَةِ وَصَالِحٌ لِأَنْ يكون وصفا لاسم، وَالِاسْمُ عَظِيمٌ عَظَمَةً مَجَازِيَّةً لِيُمْنِهِ وَلِعَظَمَةِ المسمّى بِهِ.

{ فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ [75] وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ [76] إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ [77] فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ [78] لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ [79] تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ [80] }.

تَفْرِيعٌ عَلَى جُمْلَةِ { قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ } [50/49] يُعْرِبُ عَنْ خِطَابٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى مُوَجَّهٍ إِلَى الْمُكَذِّبِينَ بِالْبَعْثِ الْقَائِلِين { أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [47]، انْتَقَلَ بِهِ إِلَى التَّنْوِيهِ بِالْقُرْآنِ لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَذَّبُوا بِالْبَعْثِ، وَكَانَ إِثْبَاتُ الْبَعْثِ مِنْ أَهَمِّ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، زِيَادَةً عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِهِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ مِنْ إِبْطَالِ شِرْكِهِمْ وَأَكَاذِيبِهِمْ، فَلَمَّا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى خَطَئِهِمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ، فَقَدْ تَهَيَّأَ الْمَقَامُ لِلتَّنْوِيهِ بِشَأْنِهِ.

{ **فَلا أُقْسِمُ** } بِمَعْنَى: أُقْسِمُ، وَ(لَا) مَزِيدَةٌ لِلتَّوْكِيدِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى الْقَسَمِ لِأَنَّ الْأَمْرَ وَاضح الثُّبُوت، ثُمَّ كَثُرَ هَذَا الِاسْتِعْمَالُ فَصَارَ مُرَادًا تَأْكِيدُ الْخَبَرِ فَسَاوَى الْقَسَمَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ عَقِبَهُ { وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } وَهَذَا الْمعنى هُوَ الْأَنْسَبُ بِمَا وَقَعَ مِنْ مِثْلِهِ فِي الْقُرْآنِ. أي: وَإِنَّ الْمَذْكُورَ لَشَيْءٌ عَظِيمٌ يُقْسِمُ بِهِ الْمُقْسِمُونَ.

<u>وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَبَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ</u>: أَنَّهُمْ جَعَلُوا (لَا) حَرْفًا مُسْتَقِلًّا عَنْ فِعْلِ { أُقْسِمُ } وَاقِعًا جَوَابًا لِكَلَامٍ مُقَدَّرٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ }، رَدًّا عَلَى أَقْوَالِهِمْ فِي الْقُرْآنِ إِنَّهُ شِعْرٌ، أَوْ سِحْرٌ، أَوْ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، أَوْ قَوْلُ كَاهِنٍ، وَجَعَلُوا قَوْلَهُ { أُقْسِمُ } اسْتِئْنَافًا. أي: هُوَ لَيْسَ كَمَا تَزْعُمُونَ بَلْ أقسم أنّهُ قُرْآنٌ كريم.

{ **بِمَواقِعِ النُّجُومِ** } جَمْعُ مَوْقِعٍ، <u>يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَكَانَ الْوُقُوعِ</u>، أَيْ: مَحَالُّ وُقُوعِهَا مِنْ ثَوَابِتَ وَسَيَّارَةٍ.

وَالْوُقُوعُ يُطْلَقُ عَلَى السُّقُوطِ، فَمَوَاقِعُ النُّجُومِ مَوَاضِعُ غُرُوبِهَا، فَيَكُونُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ { وَالنَّجْمِ إِذا هَوَى } [النَّجْم:1]. وَالْقَسَمُ بِذَلِكَ مِمَّا شَمِلَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى { فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ } [المعارج:40].

وَجُعِل { بِمَواقِعِ النُّجُومِ } بِهَذَا الْمَعْنَى، مُقْسَمًا بِهِ لِأَنَّ تِلْكَ الْمَسَاقِطَ فِي حَالِ سُقُوطِ النُّجُومِ عِنْدَهَا تُذَكِّرُ بِالنِّظَامِ الْبَدِيعِ الْمَجْعُولِ لِسَيْرِ الْكَوَاكِبِ كُلَّ لَيْلَةٍ لَا يَخْتَلُّ وَلَا يَتَخَلَّفُ، وَتُذَكِّرُ بِعَظَمَةِ الْكَوَاكِبِ وَبِتَدَاوُلِهَا خِلْفَةً بَعْدَ أُخْرَى، وَذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ يَحِقُّ الْقَسَمُ بِهِ الرَّاجِعُ إِلَى الْقَسَمِ بِمُبْدِعِهِ.

<u>وَيُطْلَقُ الْوُقُوعُ عَلَى الْحُلُولِ فِي الْمَكَانِ</u>، يُقَالُ: وَقَعَتِ الْإِبِلُ، إِذَا بَرَكَتْ، وَوَقَعَتِ الْغَنَمُ فِي مَرَابِضِهَا، وَمِنْهُ جَاءَ اسْمُ (الْوَاقِعَةِ) لِلْحَادِثَةِ كَمَا تَقَدَّمَ، فَالْمَوَاقِعُ: مَحَالُّ وُقُوعِهَا وَخُطُوطُ سَيْرِهَا، فَيَكُونُ قَرِيبًا مِنْ قَوْلِهِ { وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ } [الْبُرُوجِ:1]. فتكون { الْمَوَاقِعُ }، على هذا الوجه، أَفْلَاكُ النُّجُومِ الْمَضْبُوطَةِ السَّيْرِ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَكَذَلِكَ بُرُوجُهَا وَمَنَازِلُهَا.

وَذِكْرُ (مَوَاقِعِ النُّجُومِ) عَلَى كِلَا الْمَعْنَيَيْنِ تَنْوِيهٌ بِهَا وَتَعْظِيمٌ لِأَمْرِهَا لِدَلَالَةِ أَحْوَالِهَا عَلَى دَقَائِقِ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي نِظَامِ سَيْرِهَا وَبَدَائِعِ قُدْرَتِهِ عَلَى تَسْخِيرِهَا.

{ **لَوْ تَعْلَمُونَ** } مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْمَوْصُوفِ وَصِفَتِهِ، وَهِيَ اعْتِرَاضٌ فِي اعْتِرَاضٍ.

وَالْعِلْمُ الَّذِي اقْتَضَى شَرْطُ (لَوْ) الِامْتِنَاعِيَّةِ عَدَمَ حُصُولِهِ لَهُمْ <u>إِنْ جَعَلْتَ ضَمِيرَ { إِنَّهُ } عَائِدًا عَلَى الْقَسَمِ</u> هُوَ الْعِلْمُ التَّفْصِيلِيُّ بِأَحْوَالِ مَوَاقِعِ النُّجُومِ، أَوْ نُزِّلَ ذَلِكَ الْعِلْمُ الْإِجْمَالِيُّ مَنْزِلَةَ الْعَدَمِ لِأَنَّهُمْ بِكُفْرِهِمْ لَمْ يَجْرُوا عَلَى مُوجَبِ ذَلِكَ الْعِلْمِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ، فَلَوْ عَلِمُوا مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَحْوَالُ مَوَاقِعِ النُّجُومِ مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى لَعَلِمُوا أَنَّهَا مَوَاقِعُ قُدْسِيَّةٌ لَا يَحْلِفُ بِهَا إِلَّا بَارٌّ فِي يَمِينِهِ وَلَكِنَّهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ.

<u>فَأَمَّا إِنْ جَعَلْتَ ضَمِيرَ { وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ } عَائِدًا إِلَى الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ</u>، فَالْمَعْنَى: لَوْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ لَمَا احْتَجْتُمْ إِلَى الْقَسَمِ.

<u>وَمَفْعُولُ تَعْلَمُونَ</u> مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ، أَيْ: لَوْ تَعْلَمُونَ دَلَائِلَ عَظَمَتِهِ.

وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ فِعْلَ تَعْلَمُونَ مُنَزَّلًا مَنْزِلَةَ اللَّازِمِ، أَيْ لَوْ كَانَ لَكُمْ عِلْمٌ، لَكِنَّكُمْ لَا تَتَّصِفُونَ بِالْعِلْمِ.

{ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ** } الضَمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ فِي الْكَلَامِ لِكَوْنِهِ مَعْلُومًا مُسْتَحْضَرًا لَهُمْ.

الْقُرْآنُ: الْكَلَامُ الْمَقْرُوءُ، أَيِ: الْمَتْلُوُّ الْمُكَرَّرُ، أَيْ: هُوَ كَلَامٌ مُتَّعَظٌ بِهِ مَحَلُّ تَدَبُّرٍ وَتِلَاوَةٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ } [يُونُسَ:61].

الْكَرِيمُ: النَّفِيسُ الرَّفِيعُ فِي نَوْعِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ } [النَّمْلِ:29].

وَهَذَا تَفْضِيلٌ لِلْقُرْآنِ عَلَى أَفْرَادِ نَوْعِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، مِثْلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَمَجَلَّةِ لُقْمَانَ، وَفَضْلُهُ عَلَيْهَا بِأَنَّهُ فَاقَهَا فِي اسْتِيفَاءِ أَغْرَاضِ الدِّينِ وَأَحْوَالِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ وَإِثْبَاتِ الْمُعْتَقَدَاتِ بِدَلَائِلِ التَّكْوِينِ.

{ **فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ** } بَعْدَ أَنْ وُصِفَ الْقُرْآنُ بِـ { كَرِيمٌ }، وُصِفَ وَصْفًا ثَانِيًا، وَذَلِكَ وَصْفُ كَرَامَةٍ لَا مَحَالَةَ، فَلَيْسَ لَفْظُ { كِتابٍ } وَلَا وَصْفُ { مَكْنُونٍ } مُرَادًا بِهِمَا الْحَقِيقَةُ إِذْ لَيْسَ فِي حَمْلِ ذَلِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ تَكْرِيمٌ، فَحَرْفُ (فِي) لِلظَّرْفِيَّةِ الْمَجَازِيَّةِ.

الْكِتَابُ الْمَكْنُونُ: مُسْتَعَارٌ لِمُوَافَقَةِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَمَعَانِيهِ مَا فِي عِلْمِ اللهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ وَأَمْرِهِ الْمَلَكَ بِتَبْلِيغِهِ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتلك شؤون مَحْجُوبَةً عَنَّا فَلِذَلِكَ وُصِفَ الْكِتَابُ بِالْمَكْنُونِ اشْتِقَاقًا مِنَ الِاكْتِنَانِ وَهُوَ الِاسْتِتَارُ، أَيْ: مَحْجُوبٌ عَنْ أَنْظَارِ النَّاسِ، فَهُوَ أَمْرٌ مُغَيَّبٌ لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إِلَّا اللهُ.

وَحَاصِلُ الْمَعْنَى: أَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي بَلَغَهُمْ وَسَمِعُوهُ مِنَ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ مُوَافِقٌ لِمَا أَرَادَ اللهُ إِعْلَامَ النَّاسِ بِهِ، وَمَا تَعَلَّقَتْ قُدْرَتُهُ بِإِيجَادِ نَظْمِهِ الْمُعْجِزِ، لِيَكْمُلَ لَهُ وَصْفُ أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْهُ بَشَرٌ.

{ **لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** } صِفَةٌ ثَانِيَةٌ لِـ { كِتابٍ }.

الْمُطَهَّرُونَ: الْمَلَائِكَةُ، وَالْمُرَادُ الطَّهَارَةُ النَّفْسَانِيَّةُ وَهِيَ الزَّكَاءُ. وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ.

وَفِي الْمُوَطَّأِ قَالَ مَالِكٌ: " أَحْسَنُ مَا سَمِعْتُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ { لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ } إِنَّهَا بِمَنْزِلَةِ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي فِي { عَبَسَ وَتَوَلَّى } قَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَ { كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرامٍ بَرَرَةٍ } [عبس:11-16] ". يُرِيدُ أَنَّ { الْمُطَهَّرُونَ } هُمُ السَّفَرَةُ الْكِرَامُ الْبَرَرَةُ وَلَيْسُوا النَّاسَ الَّذِينَ يَتَطَهَّرُونَ.

الْمَسّ: الْأَخْذِ. وَيُطْلَقُ الْمَسُّ عَلَى الْمُخَالَطَةِ وَالْمُطَالَعَةِ. وَفِي الْحَدِيثِ: " مَسَّ مِنْ طِيبِه "، أَيْ: أَخَذَ.

فَالْمَعْنَى: أَنَّ الْكِتَابَ لَا يُبَاشِرُ نَقْلَ مَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ لِتَبْلِيغِهِ إِلَّا الْمَلَائِكَةُ.

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كَمَا يَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ قَوْلَ كَاهِنٍ، فَإِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْكَاهِنَ يَتَلَقَّى مِنَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ مَا يَسْتَرِقُونَهُ مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ بِزَعْمِهِمْ، وَلَا هُوَ قَوْلُ شَاعِرٍ، إِذْ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ لِكُلِّ شَاعِرٍ شَيْطَانًا يُمْلِي عَلَيْهِ الشِّعْرَ، وَلَا هُوَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، لِأَنَّهُمْ يَعْنُونَ بِهَا الْحِكَايَاتِ الْمَكْذُوبَةِ الَّتِي يَتَلَهَّى بِهَا أَهْلُ الْأَسْمَارِ، فَقَالَ اللهُ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مُطَابِقٌ لِمَا عِنْدَ اللهِ الَّذِي لَا يُشَاهِدُهُ إِلَّا الْمَلَائِكَةُ الْمُطَهَّرُونَ.

{ **تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ** } مُبِيِّنَةٌ لِجُمْلَةِ { فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ } فَهِيَ تَابِعَةٌ لِصِفَةِ الْقُرْآنِ، أَيْ فَبُلُوغُهُ إِلَيْكُمْ كَانَ بِتَنْزِيلٍ مِنَ اللهِ، أَيْ: نَزَلَ بِهِ الْمَلَائِكَةُ.

وَفِي مَعْنَى نَظْمِ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى { وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ } [الحاقة:41-43].

وَإِذْ قَدْ ثَبَتَتْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ الشَّرِيفَةُ لِلْقُرْآنِ كَانَ حَقِيقًا بِأَنْ تُعَظَّمَ تِلَاوَتُهُ وَكِتَابَتُهُ، وَلِذَلِكَ كَانَ مِنَ الْمَأْمُورِ بِهِ أَنْ لَا يَمَسَّ مَكْتُوبَ الْقُرْآنِ إِلَّا الْمُتَطَهِّرُ تَشَبُّهًا بِحَالِ الْمَلَائِكَةِ فِي تَنَاوُلِ الْقُرْآنِ، بِحَيْثُ يَكُونُ مُمْسِكُ الْقُرْآنِ عَلَى حَالَةِ تَطَهُّرٍ دِينِيٍّ، وَهُوَ الْمَعْنى الَّذِي تومىء إِلَيْهِ مَشْرُوعِيَّةُ الطَّهَارَةِ لِمَنْ يُرِيدُ الصَّلَاةَ.

وروى الطَّبَرَانِيّ عَن عبد الله بن عمر قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **" لَا يمسّ الْقُرْآن إِلَّا طَاهِرٌ "**. قَالَ الْمَنَاوِيُّ: وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ وَجَعَلَهُ السُّيُوطِيُّ فِي مَرْتَبَةِ الْحَسَنِ.

فَهَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَتْ دَلِيلًا لِحُكْمِ مَسِّ الْقُرْآنِ بِأَيْدِي النَّاسِ وَلَكِنْ ذِكْرُ اللهِ إِيَّاهَا لَا يَخْلُو مِنْ إِرَادَةِ أَنْ يُقَاسَ النَّاسُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فِي أَنَّهُمْ لَا يَمَسُّونَ الْقُرْآنَ إِلَّا إِذَا كَانُوا طَاهِرِيْنَ كَالْمَلَائِكَةِ، أَيْ: بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ مِنْ طَهَارَةِ الْآدَمِيِّينَ.

فَثَبَتَ بِهَذَا أَنَّ الْأَمْرَ بِالتَّطَهُّرِ لِمَنْ يُمْسِكُ مَكْتُوبًا مِنَ الْقُرْآنِ قَدْ تَقَرَّرَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ صَدْرِ الْإِسْلَامِ فِي مَكَّةَ.

وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي مُقْتَضَى هَذَا الْأَمْرِ مِنْ وُجُوبٍ أَوْ نَدْبٍ:

فَالْجُمْهُورُ رَأَوْا وُجُوبَ أَنْ يَكُونَ مُمْسِكُ مَكْتُوبِ الْقُرْآنِ عَلَى وُضُوءٍ وَهُوَ قَوْلُ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَسَعْدٍ وَسَعِيدٍ وَعَطَاءٍ وَالزُّهْرِيِّ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ. قَالَ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ: " وَلَا يَحْمِلُ أَحَدٌ الْمُصْحَفَ لَا بِعِلَاقَتِهِ وَلَا عَلَى وِسَادَةٍ إِلَّا وَهُوَ طَاهِرٌ إِكْرَامًا لِلْقُرْآنِ وَتَعْظِيمًا لَهُ ".

وَقَالَ فَرِيقٌ: إِنَّ هَذَا أَمْرُ نَدْبٍ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيِّ، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ وَدَاوُدَ الظَّاهِرِيِّ.

وَقَدِ اعْتَبَرُوا هَذَا حُكْمًا لِمَا كُتِبَ فِيهِ الْقُرْآنُ بِقَصْدِ كَوْنِهِ مُصْحَفًا أَوْ جُزْءًا مِنْ مُصْحَفٍ أَوْ لَوْحًا لِلْقُرْآنِ وَلَمْ يَعْتَبِرُوهُ لِمَا يُكْتَبُ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ عَلَى وَجْهِ الِاقْتِبَاسِ أَوِ التَّضمِين أَو الِاحْتِجَاج.

وَالْمُرَادُ بِالطَّهَارَةِ عِنْدَ الْقَائِلِينَ بِوُجُوبِهَا الطَّهَارَةُ الصُّغْرَى، أَيِ: الْوُضُوءُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيّ: يَجُوزُ مَسُّ الْقُرْآنِ بِالطَّهَارَةِ الْكُبْرَى وَإِنْ لَمْ تَكُنِ الصُّغْرَى.

وَإِجْمَاعُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ غَيْرَ الْمُتَوَضِّئِ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَعَ اخْتِلَافِهِمْ فِي مَسِّ الْمُصْحَفِ لِغَيْرِ الْمُتَوَضِّئِ يُشْعِرُ بِأَنَّ مَسَّ الْمُصْحَفِ فِي نَظَرِهِمْ أَشَدُّ مُلَابَسَةً مِنَ النُّطْقِ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ.

قَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ: لَا يَجُوزُ لِلْجُنُبِ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَيَجُوزُ لِغَيْرِ الْمُتَوَضِّئِ.

وَقُلْتُ: شَاعَ بَيْنَ الْمُسلمين من عَهْدِ الصَّحَابَةِ الْعَمَلُ بِأَنْ لَا يَتْلُوَ الْقُرْآنَ مَنْ كَانَ جُنُبًا وَلَمْ يُؤْثَرْ عَنْهُمْ إِفْتَاءٌ بِذَلِكَ.

وَقَالَ أَحْمَدُ وَدَاوُدُ: تَجُوزُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ لِلْجُنُبِ. وَرَخَّصَ مَالِكٌ فِي قِرَاءَةِ الْيَسِيرِ مِنْهُ كَالْآيَةِ وَالْآيَتَيْنِ، وَلَمْ يَشْتَرِطْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الْوُضُوءَ عَلَى قَارِئِ الْقُرْآنِ.

وَاخْتُلِفَ فِي قِرَاءَتِهِ لِلْحَائِضِ وَالنُّفَسَاءِ. وَعَنْ مَالِكٍ فِي ذَلِكَ رِوَايَتَانِ، وَأَحْسَبُ أَنَّ رِوَايَةَ الْجَوَازِ مُرَاعًى فِيهَا أَنَّ انْتِقَاضَ طَهَارَتِهِمَا تَطُولُ مُدَّتَهُ فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي الترخيص.

{ أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ } [81].

الْفَاءُ تَفْرِيعٌ عَلَى مَا سِيقَ لِأَجْلِهِ الْكَلَامُ الَّذِي قَبْلَهَا فِي غَرَضِهِ مِنَ التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ.

{ **أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ** } أَطْبَقَ الْمُفَسِّرُونَ، عَدَا الْفَخْر، عَلَى أَنَّ اسْمَ الْإِشَارَةِ وَبَيَانه مُشِيرٌ إِلَى الْقُرْآنِ لِمُنَاسَبَةِ الِانْتِقَالِ مِنَ التَّنْوِيهِ بِشَأْنِهِ إِلَى الْإِنْكَارِ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ بِهِ. فَالتَّفْرِيعُ عَلَى قَوْلِهِ { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ } [77].

وَيَكُونُ الْعُدُولُ عَنِ الْإِضْمَارِ إِلَى اسْمِ الْإِشَارَةِ زِيَادَةُ التَّنْوِيهِ بِالْقُرْآنِ.

{ **الْحَدِيثِ** } الْقُرْآنُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى { فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ } [الْقَلَمِ:44]، وَقَوْلِهِ تعالى { أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ } [النَّجْمِ:59].

<u>وَأَمَّا الْفَخْرُ فَجَعَلَ الْإِشَارَةَ</u> إِلَى مَا تَحَدَّثُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ } [48/47].

وَإِنَّهُ لَكَلَامٌ جَيِّدٌ، وَلَوْ جَعَلَ الْمُرَادَ مِنْ { الْحَدِيثِ } جَمِيعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ أَصْلًا وَتَفْرِيعًا، أَيْ: مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي قَرَعَ أَسْمَاعَكُمْ، لَكَانَ أَجْوَدَ. وَإِطْلَاقُ الْحَدِيثِ عَلَى خَبَرِ الْبَعْثِ أَوْضَحُ لِأَنَّ الْحَدِيثَ يُرَادُ بِهِ الْخَبَرُ الَّذِي صَارَ حَدِيثًا لِلْقَوْمِ.

الْمُدْهِنُ: الَّذِي يُظْهِرُ خِلَافَ مَا يُبْطِنُ، يُقَالُ: أَدْهَنَ، وَيُقَالُ: دَاهَنَ، وَفُسِّرَ أَيْضًا بِالتَّهَاوُنِ وَعَدَمِ الْأَخْذِ بِالْحَزْمِ، وَفُسِّرَ بِالتَّكْذِيبِ.

<u>وَالِاسْتِفْهَامُ عَلَى كُلِّ التَّفَاسِيرِ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّوْبِيخِ</u>، أَيْ: كَلَامُكُمْ لَا يَنْبَغِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُدَاهَنَةً. أَيْ: قَدْ نَهَضَ بُرْهَانُ صِدْقِ الْقُرْآنِ، فَلَيْسَ إِصْرَارُكُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا مُدَاهَنَةً لِقَوْمِكُمْ تَخْشَوْنَ إِنْ صَدَّقْتُمْ بِهِ أَنْ تَزُولَ رِئَاسَتُكُمْ، فَيَكُونُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تعالى { فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الْأَنْعَام:33].

{ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ } [82].

إِذَا جَرَيْنَا عَلَى مَا فَسَّرَ بِهِ الْمُفَسِّرُونَ تَكُونُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ عَطْفًا عَلَى جُمْلَةِ { أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ } [81] عَطَفَ الْجُمْلَةِ عَلَى الْجُمْلَةِ، فَتَكُونُ دَاخِلَةً فِي حَيِّزِ الِاسْتِفْهَامِ وَمُسْتَقِلَّةً بِمَعْنَاهَا. وَالِاسْتِفْهَامُ الْمُقَدَّرُ بَعْدَ الْعَاطِفِ إِنْكَارِيٌّ.

وَإِذْ كَانَ التَّكْذِيبُ لَا يَصِحُّ أَنْ يُجْعَلَ رِزْقًا تَعَيَّنَ بِدَلَالَةِ الِاقْتِضَاءِ تَقْدِيرُ مَحْذُوفٍ يُفِيدُهُ الْكَلَامُ فَقَدَّرَهُ الْمُفَسِّرُونَ: شُكْرَ رِزْقِكُمْ، أَوْ نَحْوَهُ، أَيْ: تَجْعَلُونَ شُكْرَ اللَّهِ عَلَى رِزْقِهِ إِيَّاكُمْ أَنْ تُكَذِّبُوا بِقُدْرَتِهِ عَلَى إِعَادَةِ الْحَيَاةِ، لِأَنَّهُمْ عَدَلُوا عَنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ فَاسْتَنْقَصُوا قُدْرَتَهُ عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ، وَنَسَبُوا الزَّرْعَ لِأَنْفُسِهِمْ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْمَطَرَ تُمْطِرُهُ النُّجُومُ الْمُسَمَّاةُ بِالْأَنْوَاءِ.

وهو تَفْرِيعٌ عَلَى مَا تَضَمَّنَهُ الِاسْتِدْلَالُ بِتَكْوِينِ نَسْلِ الْإِنْسَانِ وَخَلْقِ الْحَبِّ، وَالْمَاءِ فِي الْمُزْنِ، وَالنَّارِ مِنْ أَعْوَادِ الِاقْتِدَاحِ، فَإِنَّ فِي مَجْمُوعِ ذَلِكَ حُصُولَ مُقَوِّمَاتِ الْأَقْوَاتِ وَهِيَ رِزْقٌ، وَالنَّسْلُ كذلك رِزْقٌ، يُقَالُ: رُزِقَ فُلَانٌ وَلَدًا.

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: " أَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ تَوْبِيخٌ لِلْقَائِلِينَ فِي الْمَطَرِ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللَّهُ رِزْقًا: هَذَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ".

وَالَّذِي نَحَاهُ الْفَخْرُ مَنْحًى آخَرَ فَجَعَلَ مَعْنَى { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ } تَكْمِلَةً لِلْإِدْهَانِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ [81]، فَقَالَ: " أَيْ: تَخَافُونَ أَنَّكُمْ إِنْ صَدَّقْتُمْ بِالْقُرْآنِ ومنعتم ضعفاءكم عَن الْكُفْرِ يَفُوتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ مَا تَرْبَحُونَهُ بِسَبَبِهِمْ فَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ ". أَيْ: فَيَكُونُ عَطْفًا على { مُدْهِنُونَ }، عَطْفُ فِعْلٍ عَلَى اسْمٍ شَبِيهٍ بِهِ، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ عَطْفِ الْمُفْرَدَاتِ، أَيْ: أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ صِدْقَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنَّهُمْ يُظْهِرُونَ تَكْذِيبَهُ إِبْقَاءً عَلَى مَنَافِعِهِمْ، فَيَكُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى { فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الْأَنْعَام:33]. وَعَلَى هَذَا يُقَدَّرُ قَوْلُهُ { أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ } مَجْرُورًا بِبَاءِ الْجَرِّ مَحْذُوفَةً، وَالتَّقْدِيرُ: وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ بِأَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ، أَيْ: تَجْعَلُونَ عِوَضَهُ بِأَنْ تُكَذِّبُوا بِالْبَعْثِ.

{ فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ [83] وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ [84] وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لَا تُبْصِرُونَ [85] فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ [86] تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ [87] }.

مُقْتَضَى فَاءِ التَّفْرِيعِ أَنَّ الْكَلَامَ الْوَاقِع بعدهَا ناشئ عَمَّا قَبْلَهُ عَلَى حَسَبِ تَرْتِيبِهِ، وَإِذْ قَدْ كَانَ الْكَلَامُ السَّابِقُ إِقَامَةَ أَدِلَّةٍ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ الْحَيَاةِ لِلنَّاسِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَعْقَبَ ذَلِكَ بِأَنَّ تِلْكَ الْأَدِلَّةَ أَيَّدَتْ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ إِثْبَاتِ الْبَعْثِ، وَأَنْحَى عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ وَضَحَتْ لَهُمُ الْحُجَّةُ وَلَكِنَّهُمْ مُكَابِرُونَ فِيهَا وَمُظْهِرُونَ الْجُحُودَ، وَهُمْ مُوقِنُونَ بِهَا فِي الْبَاطِنِ، وَكُلُّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ بِقُوَّةِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى إِيجَادِ مَوْجُودَاتٍ لَا تَصِلُ إِلَيْهَا مَدَارِكُ النَّاسِ، انْتَقَلَ الْكَلَامُ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَى إِثْبَاتِ الْبَعْثِ بِدَلِيلٍ لَا مَحِيصَ لَهُمْ عَنِ الِاعْتِرَافِ بِدَلَالَتِهِ.

فَالتَّفْرِيعُ عَلَى جُمْلَةِ { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ } [62]، وَهُوَ أَنَّ عَجْزَهُمْ عَنْ إِرْجَاعِ الرُّوحِ عِنْدَ مُفَارَقَتِهَا الْجَسَدَ يُنَبِّهُهُمْ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْمُفَارَقَةَ مُقَدَّرَةٌ فِي نِظَامِ الْخِلْقَةِ وَأَنَّهَا لِحِكْمَةٍ.

{ **فَلَوْلا** } الفَاءِ للتَّفْرِيعِ كما تقدّم، و(لَوْلا) حَرْفُ تحضيض مُسْتَعْمَلٌ هُنَا فِي التَّعْجِيزِ، لِأَنَّ الْمَحْضُوضَ إِذَا لَمْ يَفْعَلْ مَا حُضَّ عَلَى فِعْلِهِ فَقَدْ أَظْهَرَ عَجْزَهُ، وَالْفِعْلُ الْمَحْضُوضُ عَلَيْهِ { تَرْجِعُونَها }، أَيْ: تُحَاوِلُونَ رُجُوعَهَا.

{ **إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ** } الظَرْفُ مُتَعَلِّقٌ بِـ { تَرْجِعُونَها } مُقَدَّمٌ عَلَيْهِ لِتَهْوِيلِهِ وَالتَّشْوِيقِ إِلَى الْفِعْلِ الْمَحْضُوضِ عَلَيْهِ. وَالضَّمِيرُ الْمُسْتَتِرُ فِي { بَلَغَتِ } عائِدٌ عَلَى مَفْهُومٍ مِنَ الْعِبَارَاتِ لِظُهُورِ أَنَّ الَّتِي تَبْلُغُ الْحُلْقُومَ هِيَ **الرُّوحُ** حُذِفَ إِيجَازًا، نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى { حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ } [ص:32]، أَي: الشَّمْسُ.

{ **وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ** } حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ { بَلَغَتِ }، وَمَفْعُولُ { تَنْظُرُونَ } مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: تَنْظُرُونَ صَاحِبَ الرُّوحِ، بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ بَعْدَهُ { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ }، وَفَائِدَةُ هَذِهِ الْحَالِ تَحْقِيقُ أَنَّ اللَّهَ صَرَفَهُمْ عَنْ مُحَاوَلَةِ إِرْجَاعِهَا مَعَ شِدَّةِ أَسَفِهِمْ لِمَوْتِ الْأَعِزَّةِ.

{ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ** } فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ مَفْعُولِ { تَنْظُرُونَ } الْمَحْذُوفِ، أَوْ مُعْتَرِضَةٌ. وَأَيًّا مَا كَانَتْ فَهِيَ احْتِرَاسٌ لِبَيَانِ أَنَّ ثَمَّةَ حُضُورًا أَقْرَبُ مِنْ حُضُورِهِمْ عِنْدَ الْمُحْتَضِرِ وَهُوَ حُضُورُ التَّصْرِيفِ لِأَحْوَالِهِ الْبَاطِنَةِ.

قُرْبُ اللَّهِ: قُرْبُ عِلْمٍ وَقُدْرَةٍ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تعالى { وَجاءَ رَبُّكَ } [الْفَجْر:22]، أَوْ قُرْبُ مَلَائِكَتِهِ الْمُرْسَلِينَ لِتَنْفِيذِ أَمْرِهِ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تعالى { وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ } [الْأَعْرَاف:52]، أَيْ: جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ بِكِتَابٍ. قَالَ تَعَالَى { حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ } [الْأَعْرَاف:37].

{ **وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ** } مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ جُمْلَةِ { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ } وَجُمْلَةِ { فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ }. وَمَفْعُولُ تُبْصِرُونَ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ }. وَمَعْنَى الِاسْتِدْرَاكِ هنا رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ تعالى { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ } لِرَفْعِ تَوَهُّمٍ قَائِلٍ: كَيْفَ يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى الْمُحْتَضِرِ مِنَ الْعُوَّادِ الْحَاقِّينَ حَوْلَهُ وَهُمْ لا يَرَوْنَ شَيْئًا غَيْرَهُمْ.

{ **فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ** } كَلِمَةُ { فَلَوْلا } هنا تَأْكِيدٌ لَفْظِيٌّ لِنَظِيرِهَا السَّابِقِ أُعِيدَ لِتُبْنَى عَلَيْهِ جُمْلَةُ {تَرْجِعُونَها} لِطُولِ الْفَصْلِ. وَالجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ أَوْ حَالٌ مِنَ الْوَاوِ فِي { تَرْجِعُونَها }.

وَجَوَابُ شَرْطِ (إِنْ) مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ فِعْلُ { تَرْجِعُونَها }. والكلام فَرْضٌ، وَتَقْدِيرٌ فَـ (إِنْ) فِيهِ بِمَنْزِلَةِ (لَوْ)، أَيْ: لَوْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ، أَيْ: غَيْرَ مَجْزِيِّينَ عَلَى الْأَعْمَالِ.

مَدِينِين: مُجَازَيْنَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ. وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى حَمَلَهُ جُمْهُورُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ، وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ عَلَى الْإِجْمَالِ.

وَفِي الْقَوْلِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ سَوْقِ هَذَا الدَّلِيلِ إِبْطَالُ إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ الَّذِي هُوَ لِحِكْمَةِ الْجَزَاءِ.

{ **تَرْجِعُونَها** } ضَمِيرُ التَّأْنِيثِ عَائِدٌ إِلَى الرُّوحِ الدَّالِّ عَلَيْهِ التَّاءُ فِي قَوْلِهِ تعالى { إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ }.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ** } بَيَانٌ لِجُمْلَةِ { إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ }، يَرْجِعُ إِلَى مَا أَفَادَهُ التَّحْضِيضُ، وَمَوْقِعُ فَاءِ التَّفْرِيعِ

مِنْ إِرَادَةِ أَنَّ قَبْضَ الْأَرْوَاحِ لِتَأْخِيرِهَا إِلَى يَوْمِ الْجَزَاءِ، أَيْ: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي نَفْيِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ.

{ فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ [88] فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ [89] وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ [90] فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ [91] وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ [92] فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ [93] وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ [94] }.

لَمَّا اقْتَضَى الْكَلَامُ بِحَذَافِرِهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ، صَاحِبُ الرُّوحِ، صَائِرٌ إِلَى الْجَزَاءِ فُرِّعَ عَلَيْهِ إِجْمَالُ أَحْوَالِ الْجَزَاءِ فِي مَرَاتِبِ النَّاسِ إِجْمَالًا لِمَا سَبَقَ تَفْصِيلُهُ بِقَوْلِهِ { وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً - إِلَى قَوْلِهِ - لَا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ } [7-44]، لِيَكُونَ هَذَا فَذْلَكَةً لِلسُّورَةِ وَرَدًّا لِعَجُزِهَا عَلَى صَدْرِهَا.

{ **إِنْ كانَ** } الضَمِيرُ عَائِدٌ إِلَى مَا عَادَ إِلَيْهِ ضَمِيرُ { إِلَيْهِ } مِنْ قَوْلِهِ تعالى { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ } [85].

الْمُقَرَّبُونَ: هُمُ السَّابِقُونَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ } [11/10].

وَقَدْ ذُكِرَ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنْ هَؤُلَاءِ جَزَاءٌ لَمْ يُذْكَرْ لَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ لِيُضَمَّ إِلَى مَا أُعِدَّ لَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي تَوْزِيعِ الْقِصَّةِ.

الرَّوْحُ: (بِفَتْحِ الرَّاءِ) فِي قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ، وَهُوَ الرَّاحَةُ، أَيْ: هُوَ فِي رَاحَةٍ وَنَعِيمٍ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ } [يُوسُفَ:87]. وَقَرَأَهُ رُوَيْسٌ عَنْ يَعْقُوبَ بِضَمِّ الرَّاءِ.

الرَّيْحَانُ: شَجَرٌ لِوَرَقِهِ وَقُضْبَانِهِ رَائِحَةٌ ذَكِيَّةٌ شَدِيدُ الْخُضْرَةِ. وَتَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ } [الرَّحْمَنِ:12]. فَتَخْصِيصُهُ بِالذِّكْرِ قَبْلَ ذِكْرِ الْجَنَّةِ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَيْهِ إِيمَاء إِلَى كَرَامَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ، مِثْلُ قَوْلِهِ { وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } [الرَّعْد:24/23].

{ **فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ** } الْكَلَامُ إِجْمَالٌ لِلتَّنْوِيهِ بِهِمْ وَعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِمْ وَخَلَاصِهِمْ مِنَ الْمُكَدِّرَاتِ لِتَذْهَبَ نَفْسُ السَّامِعِ كُلَّ مَذْهَبٍ. و**السَّلَامُ**: اسْمٌ لِلسَّلَامَةِ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَيُطْلَقُ عَلَى التَّحِيَّةِ.

{ **لَكَ** } اللَّامُ فِي { لَكَ } لِلِاخْتِصَاصِ، وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الـ (كاف)، فَقِيلَ: كَافُ الْخِطَابِ مُوَجَّهَةٌ لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ، أَيْ: لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ هَذَا الْخَبَرَ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ السَّلَامَةَ الْحَاصِلَةَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ تَسُرُّ مَنْ يَبْلُغُهُ أَمْرُهَا. وَهَذَا كَمَا يُقَالُ: نَاهِيكَ بِهِ، وَحَسْبُكَ بِهِ، وَ{ مِنْ } ابْتِدَائِيَّةٌ، وَاللَّفْظُ جَرَى مَجْرَى الْمَثَلِ فَطُوِيَ مِنْهُ بَعْضُهُ، وَأَصْلُهُ: فَلَهُمُ السَّلَامَةُ سَلَامَةٌ تَسُرُّ مَنْ بَلَغَهُ حَدِيثُهَا.

وَقِيلَ: الْخِطَابُ لِلنَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقْرِيرُ الْمَعْنَى كَمَا تَقَدَّمَ لِأَنَّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَرُّ بِمَا يَنَالُهُ أَهْلُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْكَرَامَةِ عِنْدَ اللهِ وَهُمْ مِمَّنْ شَمَلَهُمْ لَفْظُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ.

وَقِيلَ: الْكَلَامُ عَلَى تَقْدِيرِ الْقَوْلِ، أَيْ: فَيُقَالُ لَهُ: سَلَامٌ لَكَ، أَيْ: تَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ. فَهِيَ بِشَارَةٌ لِلْمُخَاطَبِ عِنْدَ الْبَعْثِ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } [الرَّعْد:24/26].

فَهَذِهِ مَحَامِلُ لِهَذِهِ الْآيَةِ يُسْتَخْلَصُ مِنْ مَجْمُوعِهَا مَعْنَى الرِّفْعَةِ وَالْكَرَامَةِ.

الْمُكَذِّبُونَ الضَّالُّونَ: هُمْ أَصْحَابُ الشِّمَالِ. وَقُدِّمَ هُنَا وَصْفُ التَّكْذِيبِ عَلَى وَصْفِ الضَّلَالِ عَكْسَ مَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ } [51]، لِمُرَاعَاةِ سَبَبِ مَا نَالَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَهُوَ التَّكْذِيبُ، لِأَنَّ الْكَلَامَ هُنَا عَلَى عَذَابٍ قَدْ حَانَ حِينُهُ وَفَاتَ وَقْتُ الْحَذَرِ مِنْهُ فَبُيِّنَ سَبَبُ عَذَابِهِمْ وَذُكِّرُوا بِالَّذِي أَوْقَعَهُمْ فِي سَبَبِهِ لِيَحْصُلَ لَهُمْ أَلَمُ التَّنَدُّمِ.

النُّزُلُ: مَا يُقَدَّمُ لِلضَّيْفِ مِنَ الْقِرَى، وَإِطْلَاقُهُ هُنَا تَهَكُّمٌ، كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا { هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ } [56].

التَّصْلِيَةُ: مَصْدَرُ صَلَّاهُ المشدّد، إذا أَحْرَقَهُ وَشَوَاهُ، يُقَالُ: صَلَّى اللَّحْمَ تَصْلِيَةً، إِذَا شَوَاهُ، وَهُوَ هُنَا مِنَ الْكَلَامِ الموجَّه لإيهامه أَنّه يُصَلَّى لَهُ الشِّوَاءُ فِي نُزُلِهِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّهَكُّمِ. أَيْ: يُحَرَّقُ بِهَا.

الْجَحِيمُ: يُطْلَقُ عَلَى النَّارِ الْمُؤَجَّجَةِ، وَيُطْلَقُ عَلَمًا عَلَى جَهَنَّمَ دَارِ الْعَذَابِ الْآخِرَةِ.

{ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ } [95].

تَذْيِيلٌ لِجَمِيعِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ السُّورَةُ مِنَ الْمَعَانِي الْمُثْبَتَةِ. وَاشْتَمَلَ التَّذْيِيلُ عَلَى أَرْبَعَةِ مُؤَكِّدَاتٍ وَهِيَ: (إِنَّ)، وَلَامُ الِابْتِدَاءِ، وَضَمِيرُ الْفَصْلِ، وَإِضَافَةُ شبه المترادفين.

الْحَقُّ: الثَّابِتُ. و**الْيَقِينِ**: الْمَعْلُومُ جَزْمًا، وَالَّذِي لَا يَقْبَلُ التَّشْكِيكَ.

وَإِضَافَةُ حَقُّ إِلَى الْيَقِينِ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ، أَيْ: لَهُوَ الْيَقِينُ الْحَقُّ. وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ كَامِلًا فِي نَوْعِهِ وُصِفَ بِأَنَّهُ حَقُّ ذَلِكَ الْجِنْسِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: **" لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ "**.

فَالْمَعْنَى: أَنَّ الَّذِي قَصَصْنَا عَلَيْكَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ هُوَ الْيَقِينُ حَقُّ الْيَقِينِ.

{ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } [96].

تَفْرِيعٌ عَلَى تَحْقِيقِ أَنَّ مَا ذُكِرَ هُوَ الْيَقِينُ حَقًّا، فَإِنَّ مَا ذُكِرَ يَشْتَمِلُ عَلَى عَظِيمِ صِفَاتِ اللهِ وَبَدِيعِ صُنْعِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَيُبَشِّرُ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتَهُ بِمَرَاتِبَ مِنَ الشَّرَفِ وَالسَّلَامَةِ عَلَى مَقَادِيرِ دَرَجَاتِهِمْ وَبِنِعْمَةِ النَّجَاةِ مِمَّا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ، فَلَا جَرَمَ كَانَ حَقِيقًا بِأَنْ يُؤْمَرَ بِتَسْبِيحِ اللهِ تَسْبِيحًا اسْتَحَقَّهُ لِعَظَمَتِهِ، وَالتَّسْبِيحُ ثَنَاءٌ، فَهُوَ يَتَضَمَّنُ حَمْدًا لِنِعْمَتِهِ وَمَا هَدَى إِلَيْهِ مِنْ طُرُقِ الْخَيْرِ.

بسم الله الرحمان الرحيم

سورة الحديد

تُسمَّى من عهد الصحابة ﴿ **سورة الحديد** ﴾، فقد وقع في حديث إسلام عمر بن الخطاب عند الطبراني والبزّار أنّ عمر دخل على أخته قبل أن يُسلم فإذا صحيفة فيها أوّل سورة الحديد، فقرأ حتّى بلغ قوله تعالى ﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [7]، فأسلم. وكذلك سُمِّيت في المصاحف وفي كتب السنّة، لوقوع لفظ ﴿ الحديد ﴾ فيها في قوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [25].

وهذا اللفظ وإن ذكر في سورة الكهف في قوله تعالى ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ [الكهف:96]، وهي سابقة في النزول على سورة الحديد على المختار، فلم تُسمَّ به لأنّها سمِّيت باسم (الكهف) للاعتناء بقصة أهل الكهف، ولأنّ الحديد الذي ذُكر هنا مراد به حديد السلاح من سيوف ودروع وخوذ، تنويها به إذا هو أثر من آثار حكمة الله في خلق مادته وإلهام الناس صنعه لتحصل به منافع لتأييد الدين ودفاع المعتدين، كما قال تعالى ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرَهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [25].

وفي كون هذه السورة **مدنية أو مكية اختلاف قويّ** لم يُختلف مثله في غيرها.

فقال الجمهور: مدنيّة. وحكى ابن عطية عن النقّاش: أنّ ذلك إجماع المفسّرين.

وقيل: إنّ صدرها مكيّ لما رواه مسلم في صحيحه والنسائي وابن ماجة عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: " ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ - إلى قوله - وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [16]، إلّا أربع سنين. وعبد الله بن مسعود أوّل الناس إسلاما، فتكون هذه الآية مكية.

وهذا يعارضه ما رواه ابن مردويه عن أنس وابن عباس : أنّ نزول هذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة من ابتداء نزول القرآن، فيصار إلى الجمع بين الروايتين أو الترجيح، ورواية مسلم وغيره عن ابن مسعود أصحّ سندا، وكلام ابن مسعود يَرجَح على ما روي عن أنس وابن عباس لأنّه أقدم إسلاما وأعلم بنزول القرآن، وقد علمتَ آنفا أنّ صدر هذه السورة كان مقروءا قبل إسلام عمر بن الخطاب.

قال ابن عطية: " يُشبه صدرها أن يكون مكيا والله أعلم، ولا خلاف أنّ فيها قرآنا مدنيًّا ".

أقول: الذي يظهر أنّ صدرها مكيّ، كما توسّمه ابن عطية، وأنّ ذلك ينتهي إلى قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [9] وأنّ ما بعد ذلك بعضه نزل بالمدينة كما تقتضيه معانيه مثل حكاية أقوال المنافقين، وبعضه نزل بمكة مثل آية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [16] كما في حديث مسلم.

وفيها آية ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ قَبْلَ الفَتْحِ ﴾ [10]، وسواء كان المراد بالفتح في تلك الآية فتح مكة أو فتح الحديبية، فهي متعيّنة لأن تكون مدنيّة. فلا ينبغي الاختلاف في أنّ معظم السورة مدنيّ.

وقد عُدَّت السورة الخامسة والتسعين في ترتيب نزول السور جريا على قول الجمهور: إنّها مدنية، فقالوا: نزلت بعد سورة الزلزال وقبل سورة محمد.

وإن روعي قول ابن مسعود: إنّها نزلت بعد البعثة بأربع سنين. وما روي من أنّ سبب إسلام عمر بن الخطاب أنّه قرأ صحيفة لأخته فاطمة فيها صدر سورة الحديد لم يستقم هذا العدّ لأنّ العبرة بمكان نزول السورة لا نزول آخرها، فيُشكل موضعها في عدّ نزول السورة.

وعلى قول ابن مسعود يكون ابتداء نزولها آخر سنة أربع من البعثة فتكون من أقدم السور نزولا، فتكون نزلت قبل سورة الحجر وبعد غافر.

فالوجه أنّ معظم آياتها نزل بعد سورة الزلزال.

وعُدَّت آيها في عدّ أهل المدينة ومكة والشام ثمانا وعشرين، وفي عدّ أهل البصرة والكوفة تسعا وعشرين.

أغراض السورة

*/ التذكير بجلال الله تعالى، وصفاته العظيمة، وسعة قدرته وملكوته، وعموم تصرّفه، ووجوب وجوده، وسعة علمه، والأمر بالإيمان بوجوده، وبما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم، وما أنزل عليه من الآيات البيّنات.

*/ التنبيه لما في القرآن من الهدي وسبيل النجاة، والتذكير برحمة الله ورأفته بخلقه.

*/ التحريض على الإنفاق في سبيل الله، وأنّ المال عرض زائل لا يبقى منه لصاحبه إلّا ثواب ما انفق منه في مرضاة الله.

*/ التخلّص إلى ما أعدّ الله للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة من خير، وضدّ ذلك للمنافقين والمنافقات.

*/ تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي مِهْوَاةِ قَساوة الْقُلُوب الَّتِي وَقَعَ فِيهَا أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ إِهْمَالِ مَا جَاءَهُمْ مِنَ الْهُدَى حَتَّى قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَجَرَّ ذَلِكَ إِلَى الْفُسُوقِ كَثِيرًا مِنْهُمْ.

*/ التَّذْكِيرُ بِالْبَعْثِ. وَالدَّعْوَةُ إِلَى قِلَّةِ الِاكْتِرَاثِ بِالْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ.

*/ الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَى النَّوَائِبِ وَالتَّنْوِيهُ بِحِكْمَةِ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَالْكُتُبِ لِإِقَامَةِ أُمُورِ النَّاسِ عَلَى الْعَدْلِ الْعَامِّ.

*/ الْإِيمَاءُ إِلَى فَضْلِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

*/ تَنْظِيرُ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرِسَالَةِ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، عَلَى أَنَّ فِي ذُرِّيَّتِهِمَا مُهْتَدِينَ وَفَاسِقِينَ.

*/ أَنَّ اللَّهَ أَتْبَعَهُمَا بِرُسُلٍ آخَرِينَ، مِنْهُمْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي كَانَ آخِرَ رَسُولٍ أُرْسِلَ بِشَرْعٍ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ أَتْبَاعَهُ كَانُوا عَلَى سُنَّةِ مَنْ سَبَقَهُمْ؛ مِنْهُمْ مُؤْمِنٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ.

*/ ثُمَّ أَهَابَ بِالْمُسْلِمِينَ أَنْ يُخْلِصُوا الْإِيمَانَ، تَعْرِيضًا بِالْمُنَافِقِينَ، وَوَعَدَهُمْ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ وَأَنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُمْ عَلَى الْأُمَمِ، لِأَنَّ الْفضل بِيَدِهِ يوتيه من يَشَاء.

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [1].

افْتِتَاحُ السُّورَةِ بِذِكْرِ تَسْبِيحِ اللهِ وَتَنْزِيهِهِ مُؤْذِنٌ بِأَنَّ أَهَمَّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ إِثْبَاتُ وَصْفِ اللهِ بِالصِّفَاتِ الْجَلِيلَةِ الْمُقْتَضِيَةِ أَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَمَّا ضَلَّ فِي شَأْنِهِ أَهْلُ الضَّلَالِ مِنْ وَصْفِهِ بِمَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَأَوَّلُ التَّنْزِيهِ هُوَ نَفْيُ الشَّرِيكِ لَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّ الْوَحْدَانِيَّةَ هِيَ أَكْبَرُ صِفَةٍ ضَلَّ فِي كُنْهِهَا الْمُشْرِكُونَ وَالْمَانَوِيَّةُ وَنَحْوُهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّثْنِيَةِ وَأَصْحَابِ التَّثْلِيثِ وَالْبَرَاهِمَةِ، وَهِيَ الصِّفَةُ الَّتِي ينبئ عَنْهَا اسْمُهُ الْعَلَمُ (اللَّه)، لِمَا عَلِمْتَ فِي تَفْسِيرِ الْفَاتِحَةِ مِنْ أَنَّ أَصْلَهُ الْإِلَهُ، أَيِ: الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ. فَفِي الْقَوْلِ تَعْرِيضٌ بِالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَهْمَلُوا أَهَمَّ التَّسْبِيحِ وَهُوَ تَسْبِيحُهُ عَنِ الشَّرِيكِ وَالنِّدِّ.

وَأُتْبِعَ هَذَا الِاسْمَ بِصِفَاتٍ رَبَّانِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ اللهِ تَعَالَى وَتَنَزُّهِهِ عَنِ النَّقْصِ، هِيَ جَامِعَةٌ لِصِفَاتِ الْكَمَالِ:

(الْعَزِيزُ/ الْحَكِيمُ / لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ / يُحْيِي / وَيُمِيتُ / وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ / هُوَ الْأَوَّلُ / وَالْآخِرُ / وَالظَّاهِرُ / وَالْبَاطِنُ / وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

{ سَبَّحَ لِلَّهِ } صِيغَةِ الْمَاضِي لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ تَنْزِيهَهُ تَعَالَى أَمْرٌ مُقَرَّرٌ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ مِنْ قَبْلُ، وَأَلْهَمَهُ النَّاسَ وَأَوْدَعَ دَلَائِلَهُ فِي أَحْوَالِ مَا لَا اخْتِيَارَ لَهُ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ } [الرَّعْد:15]، وَقَوْلُهُ تعالى { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } [الْإِسْرَاء:44].

{ لِلَّهِ } لَامُ التَّبْيِينِ. وَفَائِدَتُهَا زِيَادَةَ بَيَانِ ارْتِبَاطِ الْمَعْمُولِ بِعَامِلِهِ لِأَنَّ فِعْلَ التَّسْبِيحِ مُتَعَدٍّ بِنَفْسِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّعْدِيَةِ بِحَرْفٍ، قَالَ تَعَالَى { فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ } [الْإِنْسَان:26]، فَاللَّامُ هُنَا نَظِيرُهُ اللَّامُ فِي قَوْلِهِمْ: شَكَرْتُ لَكَ، وَنَصَحْتُ لَكَ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَنُقَدِّسُ لَكَ } [الْبَقَرَة:30].

{ مَا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ } يَعُمُّ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا، فَإِنَّ { مَا } اسْمُ مَوْصُولٍ يَعُمُّ الْعُقَلَاءَ وَغَيْرَهُمْ، أَوْ هُوَ خَاصٌّ بِغَيْرِ الْعُقَلَاءِ فَجَرَى هُنَا عَلَى التَّغْلِيبِ، وَكُلُّهَا دَالٌّ عَلَى تَنْزِيهِ اللهِ تَعَالَى عَنِ الشَّرِيكِ؛ فَمِنْهَا دَلَالَةٌ بِالْقَوْلِ كَتَسْبِيحِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْهَا دَلَالَةٌ بِالْفِعْلِ كَتَسْبِيحِ الْمَلَائِكَةِ، وَمِنْهَا دَلَالَةٌ بِشَهَادَةِ الْحَالِ كَمَا تنبئ بِهِ أَحْوَالُ الْمَوْجُودَاتِ مِنَ الِافْتِقَارِ إِلَى الصَّانِعِ الْمُنْفَرِدِ بِالتَّدْبِيرِ.

فَإِنْ جُعِلَ عُمُومُ مَا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مَخْصُوصًا بِمَنْ يَتَأَتَّى مِنْهُمُ النُّطْقُ بِالتَّسْبِيحِ وَهُمُ الْعُقَلَاءُ كَانَ إِطْلَاقُ التَّسْبِيحِ عَلَى تَسْبِيحِهِمْ حَقِيقَةً. وَإِنْ حُمِلَ الْعُمُومُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَزِمَ تَأْوِيلُ فِعْلِ سَبَّحَ بِمَا يَشْمَلُ الْحَقِيقَةَ وَالْمَجَازَ.

الْعَزِيزُ: الَّذِي لَا يُغْلَبُ، وَهَذَا الْوَصْفُ يَنْفِي وُجُودَ الشَّرِيكِ فِي الْإِلَهِيَّةِ.

الْحَكِيمُ: الْمَوْصُوفُ بِالْحِكْمَةِ، وَهِيَ وَضْعُ الْأَفْعَالِ حَيْثُ يَلِيقُ بِهَا، وَهِيَ أَيْضًا الْعِلْمُ الَّذِي لَا يخطىء وَلَا يَتَخَلَّفُ وَلَا يَحُولُ دُونَ تَعَلُّقِهِ بِالْمَعْلُومَاتِ حَائِلٌ.

{ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [2]

اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ بِذِكْرِ صِفَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ الَّتِي مُتَعَلَّقُهَا أَحْوَالُ الْكَائِنَاتِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَاصَّةً أَهْلُ الْإِدْرَاكِ مِنْهُمْ. وَمَضْمُونُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ يُؤْذِنُ بِتَعْلِيلِ تَسْبِيحِ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ مَنْ لَهُ مُلْكُ الْعَوَالِمِ الْعُلْيَا وَالْعَالَمِ الدُّنْيَوِيِّ حَقِيقٌ بِأَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ صِفَاتِ كَمَالِهِ.

وَأَفَادَ تَعْرِيفُ الْمُسْنَدِ قَصْرَ الْمُسْنَدِ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، وَهُوَ قَصْرٌ ادعائي لعدم الِاعْتِدَاد بِمُلْكِ غَيْرِهِ فِي الْأَرْضِ إِذْ هُوَ مُلْكٌ نَاقِصٌ، أَوْ هُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ، إِذَا اعْتُبِرَتْ إِضَافَةُ مُلْكُ إِلَى مَجْمُوعِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّهُ لَا مُلْكَ لِمَالِكٍ عَلَى الْأَرْضِ كُلِّهَا بَلْهَ السَّمَاوَاتُ مَعَهَا. وَهَذَا مَعْنَى صِفَتِهِ تَعَالَى (الْمَلِكُ).

{ يُحْيِي وَيُمِيتُ } بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ مَضْمُونِ { لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ }، فَإِنَّ الْإِحْيَاءَ والإِمَاتَةَ ممّا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مَعْنَى مُلْكِ السَّمَاوَات وَالْأَرْض لِأَنَّهُمَا مِنْ أَحْوَالِ مَا عَلَيْهِمَا، وَتَخْصِيصُ هَذَيْنِ بِالذِّكْرِ لِلِاهْتِمَامِ بِهِمَا لِدَلَالَتِهِمَا عَلَى دَقِيقِ الْحِكْمَةِ فِي التَّصَرُّفِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ولظهور أَنّ هاذين الْفِعْلَيْنِ لَا يَسْتَطِيعُ الْمَخْلُوقُ ادِّعَاءَ أَنَّ لَهُ عَمَلًا فِيهِمَا، وللتذكير بِدَلِيل إِمْكَان الْبَعْثِ الَّذِي جَحَدَهُ الْمُشْرِكُونَ، وَلِلتَّعْرِيضِ بِإِبْطَالِ زَعْمِهِمْ إِلَهِيَّةَ أَصْنَامِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً } [الْفرْقَان:3].

وَمِنْ هَذَيْنِ الْفِعْلَيْنِ جَاءَ وَصْفُهُ تَعَالَى بِصِفَةِ (الْمُحْيِي والمميت). وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ } [الْبَقَرَة:28].

{ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } تُفِيدُ مَفَادَ التَّذْيِيلِ لِجُمْلَةِ { يُحْيِي وَيُمِيتُ } لِتَعْمِيمِ مَا دَلَّت عَلَيْهِ مِنْ بَيَانِ جُمْلَةِ { لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ }، وَإِنَّمَا عُطِفَتْ بِـ (الْوَاوِ) وَكَانَ حَقُّ التَّذْيِيلِ أَنْ يَكُونَ مَفْصُولًا لِقَصْدِ إِيثَارِ الْإِخْبَارِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِعُمُومِ الْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ مَوْجُودٍ، وَذَلِكَ لَا يُفِيتُ قَصْدَ التَّذْيِيلِ، لِأَنَّ التَّذْيِيلَ يحصل بِالْمَعْنَى.

{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [3]

{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ } اسْتِئْنَافٌ فِي سِيَاقِ تَبْيِينِ أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، بِأَنَّ مُلْكَهُ دَائِمٌ فِي عُمُومِ الْأَزْمَانِ وَتَصَرُّفٌ فِيهِمَا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، إِذْ هُوَ الْأَوَّلُ الْأَزَلِيُّ، وَأَنَّهُ مُسْتَمِرٌّ مِنْ قَبْلِ وُجُودِ كُلِّ مُحْدَثٍ وَمِنْ بَعْدِ فَنَائِهِ، إِذِ اللَّهُ هُوَ الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَذَلِكَ يَظْهَرُ مِنْ دَلَالَةِ الْآثَارِ عَلَى الْمُؤَثِّرِ، فَإِنَّ دَلَائِلَ تَصَرُّفِهِ ظَاهِرَةٌ لِلْمُتَبَصِّرِ بِالْعَقْلِ وَهُوَ مَعْنَى الظَّاهِرُ كَمَا يَأْتِي، وَأَنَّ كَيْفِيَّاتِ تَصَرُّفَاتِهِ مَحْجُوبَةٌ عَنِ الْحِسِّ، وَذَلِكَ مَعْنَى الْباطِنُ تَعَالَى كَمَا سَيَأْتِي.

{ هُوَ } لَيْسَ ضَمِيرَ فَصْلٍ وَلَكِنَّهُ ضَمِيرٌ يُعَبِّرُ عَنِ اسْمِ الْجَلَالَةِ لِاعْتِبَارِنَا الْجُمْلَةَ مُسْتَأْنَفَةً، وَلَوْ جَعَلْتَهُ ضَمِيرَ فَصْلٍ لَكَانَتْ أَوْصَافُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ أَخْبَارًا عَنْ ضَمِيرِ { هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [1].

وَقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَخْبَارٍ هِيَ صِفَاتٌ لِلَّهِ تَعَالَى.

{ **الْأَوَّلُ** } أَصْلُ مَعْنَاهُ الَّذِي حَصُلَ قَبْلَ غَيْرِهِ فِي حَالَةٍ تُبَيِّنُهَا إِضَافَةُ هَذَا الْوَصْفِ إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَى الْحَالَةِ مِنْ زَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ، فَقَدْ يَقَعُ مَعَ وَصْفِ (أَوَّلُ) لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا السَّبْقُ، وَقَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ مِنْ سِيَاقِ الْكَلَامِ، فَوَصْفُ { الْأَوَّلُ } لَا يَتَبَيَّنُ مَعْنَاهُ إِلَّا بِمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ الْكَلَامِ، وَلَا يُتَصَوَّرُ إِلَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَوْصُوفٍ آخَرَ هُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ فِي حَالَةٍ مَا. كَقَوْلِهِ تَعَالَى { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ } [الْأَنْعَام:14]، أَيْ: أَوَّلَهُمْ فِي اتِّبَاعِ الْإِسْلَامِ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ } [الْبَقَرَة:41]، أَيْ: أَوَّلَهُمْ كُفْرًا، وَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ } [الْأَعْرَاف:39]، أَيْ: أُولَاهُمْ فِي الدُّخُولِ إِلَى النَّارِ.

<u>وَأَشْهَرُ مَعَانِي الْأَوَّلِيَّةِ هُوَ السَّبقُ فِي الْوُجُودِ</u>، أَيْ: فِي ضِدِّ الْعَدَمِ، فَوَصْفُ اللهِ بِأَنَّهُ الْأَوَّلُ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ السَّابِقُ وُجُودُهُ عَلَى كُلِّ مَوْجُودٍ وُجِدَ أَوْ سَيُوجَدُ، دُونَ تَخْصِيصِ جِنْسٍ وَلَا نَوْعٍ وَلَا صِنْفٍ.

وَلِهَذَا لَمْ يُذْكَرْ لِهَذَا الْوَصْفِ هُنَا مُتَعَلِّقٌ (بِكَسْرِ اللَّامِ)، وَلَا مَا يَدُلُّ عَلَى مُتَعَلِّقٍ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ أَنَّهُ الْأَوَّلُ بِدُونِ تَقْيِيدٍ. وَيُرَادِفُ هَذَا الْوَصْفَ فِي اصْطِلَاحِ الْمُتَكَلِّمِينَ **صِفَةُ الْقِدَمِ**.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ يَسْتَلْزِمُ صِفَةَ الْغِنَى الْمُطْلَقِ، وَهِيَ عَدَمُ الِاحْتِيَاجِ إِلَى الْمُخَصِّصِ، أَيْ: مُخَصِّصٌ يُخَصِّصُهُ بالوجود بَدَلا عَنِ الْعَدَمِ، لِأَنَّ الْأَوَّلُ هُنَا مَعْنَاهُ الْمَوْجُودُ لِذَاتِهِ دُونَ سَبْقِ عَدَمٍ.

وَيَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ انْفِرَادُهُ تَعَالَى بِصِفَةِ الْوُجُودِ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرُ اللهِ وَاجِبًا وُجُودُهُ لَمَا كَانَ اللهُ مَوْصُوفًا بِالْأَوَّلِيَّةِ، فَالْمَوْجُودَاتُ غَيْرُ اللهِ مُمْكِنَةٌ، وَالْمُمْكِنُ لَا يَتَّصِفُ بِالْأَوَّلِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ، <u>فَلِذَلِكَ تَثْبُتُ لَهُ الْوَحْدَانِيَّةُ</u>، ثُمَّ هَذِهِ الْأَوَّلِيَّةُ فِي الْوُجُودِ تَقْتَضِي أَنْ تَثْبُتَ لِلَّهِ جَمِيعُ صِفَاتِ الْكَمَالِ اقْتِضَاءً عَقْلِيًّا بِطَرِيقِ الِالْتِزَامِ الْبَيِّنِ بِالْمَعْنَى الْأَعَمِّ.

{ **الْآخِرُ** } هُوَ ضِدُّ الْأَوَّلِ، فَأَصْلُهُ: هُوَ الْمَسْبُوقُ بِمَوْصُوفٍ بِصِفَةٍ مُتَحَدَّثٍ عَنْهَا فِي الْكَلَامِ أَوْ مُشَارٍ إِلَيْهَا فِيهِ بِمَا يُذْكَرُ مِنْ مُتَعَلِّقٍ بِهِ أَوْ تَمْيِيزِهِ، عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { هُوَ الْأَوَّلُ }.

وَوَصْفُ اللهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ الْآخِرُ بَعْدَ وَصْفِهِ بِأَنَّهُ الْأَوَّلُ، مَعَ كَوْنِ الْوَصْفَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ، يَقْتَضِي انفكاك جهتي الْأَوَّلِيَّةِ وَالْآخِرِيَّةِ، فَلَمَّا تَقَرَّرَ أَنَّ كَوْنَهُ { الْأَوَّلُ } مُتَعَلِّقٌ بِوُجُودِ الْمَوْجُودَاتِ اقْتَضَى أَنْ يَكُونَ وَصْفُهُ بِـ {الْآخِرُ} مُتَعَلِّقًا بِانْتِقَاضِ ذَلِكَ الْوُجُودِ، أَيْ: هُوَ الْآخِرُ بعد جَمِيعِ موجودات السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْله { نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها } [مَرْيَم:40]، وَقَوْلِهِ تعالى { كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ } [الْقَصَص:88].

<u>فَتَقْدِيرُ الْمَعْنَى</u>: الْآخِرُ فِي اسْتِمْرَارِ الْوُجُودِ الَّذِي تَقَرَّرَ بِوَصْفِهِ { الْأَوَّلُ }. وَلَيْسَ فِي هَذَا إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ زَائِلٌ يَنْتَابُهُ الْعَدَمُ، إِذْ لَا يُشْعِرُ وَصْفُ الْآخِرُ بِالزَّوَالِ لَا مُطَابَقَةً وَلَا الْتِزَامًا، وَهَذَا هُوَ **صِفَةُ الْبَقَاءِ** فِي اصْطِلَاحِ الْمُتَكَلِّمِينَ.

فَآلَ مَعْنَى الْآخِرُ إِلَى مَعْنَى (**الْبَاقِي**)، وَإِنَّمَا أُوثِرَ وَصْفُ الْآخِرُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ مُقْتَضَى الْبَلَاغَةِ لِيَتِمَّ الطِّبَاقُ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ الْمُتَضَادَّيْنِ، وَقَدْ عُلِمَ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ <u>أَنَّ الْبَقَاءَ غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِاللهِ تَعَالَى</u> وَأَنَّهُ لَا يُنَافِي الْحُدُوثَ عَلَى

خِلَافٍ فِي تَعْيِينِ الْحَوَادِثِ الْبَاقِيَةِ، بِخِلَافِ وصف الْقِدَم فَإِنَّهُ مُخْتَصٌّ بِاللَّهِ تَعَالَى وَمُتَنَافٍ مَعَ الْحُدُوثِ.

{ **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ** } فِي الْقَوْلِ دَلَالَةَ قَصْرٍ مِنْ طَرِيقِ تَعْرِيفِ جُزْأَيِ الْجُمْلَةِ. فَأَمَّا قَصْرُ الْأَوَّلِيَّةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْوُجُودِ فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا قَصْرُ الْآخِرِيَّةِ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ مَعْنَى الْبَقَاءِ، فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ الْبَقَاءُ فِي الْعَالَمِ الدُّنْيَوِيِّ عَرَضَ إِشْكَالُ الْمُتَعَارِضِ بِمَا وَرَدَ مِنْ بَقَاءِ الْأَرْوَاحِ، وَحَدِيثُ: " **أَنَّ عَجْبَ الذَّنْبِ لَا يَفْنَى وَأَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْهُ يُعَادُ** ". وَرَفْعُ هَذَا الْإِشْكَالِ أَنْ يُجْعَلَ الْقَصْرُ ادِّعَائِيًّا لِعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِبَقَاءِ غَيْرِهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ بَقَاءٌ غَيْرُ وَاجِبٍ بَلْ هُوَ بِجَعْلِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالْجَمْعُ بَيْنَ وَصْفَيِ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ فِيهِ مُحَسِّنُ الطِّبَاقِ.

{ **الظَّاهِرُ** } الْأَرْجَحُ أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الظُّهُورِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْخَفَاءِ فَيَكُونُ وَصْفُهُ تَعَالَى بِهِ مَجَازًا عَقْلِيًّا، فَإِنَّ إِسْنَادَ الظُّهُورِ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ ظُهُورُ أَدِلَّةِ صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ لِأَهْلِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَالتَّدَبُّرِ فِي آيَاتِ الْعَالَمِ، فَيَكُونُ الْوَصْفُ جَامِعًا لِصِفَتِهِ النَّفْسِيَّةِ، وَهِيَ الْوُجُودُ، إِذْ أَدِلَّةُ وُجُودِهِ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ، وَلِصِفَاتِهِ الْأُخْرَى مِمَّا دَلَّ عَلَيْهَا فِعْلُهُ مِنْ قُدْرَةٍ وَعِلْمٍ وَحَيَاةٍ وَإِرَادَةٍ، وَصِفَاتُ الْأَفْعَالِ مِنَ الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ كَمَا عَلِمْتَ فِي قَوْلِهِ تعالى { هُوَ الْأَوَّلُ } عَنِ النَّقْصِ، أَوْ مَا دَلَّ عَلَيْهَا تَنْزِيهُهُ عَنِ النَّقْصِ كَصِفَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ وَالْقِدَمِ وَالْبَقَاءِ وَالْغِنَى الْمُطْلَقِ وَمُخَالَفَةِ الْحَوَادِثِ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي يُنَاسِبُهُ الْمُقَابَلَةُ بِالْبَاطِنِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُشْتَقًّا مِنَ الظُّهُورِ الَّذِي هُوَ بمعنى الْغَلَبَةِ، كَالَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ } [الْكَهْف:20]، فَمَعْنَى وَصْفِهِ تَعَالَى بِـ { الظَّاهِرُ } أَنَّهُ الْغَالِبُ.

وَهَذَا لَا يُنَاسِبُ مُقَابَلَتَهُ بِـ { الْباطِنُ } إِلَّا عَلَى اعْتِبَارِ مُحَسِّنِ الْإِيهَامِ، وَمَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " **وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ** ". فَمَعْنَى فَاءِ التَّفْرِيعِ فِيهِ أَنَّ ظُهُورَهُ تَعَالَى سَبَبٌ فِي انْتِفَاءِ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ فَوْقَ اللَّهِ فِي الظُّهُورِ، أَيْ: فِي دَلَالَةِ الْأَدِلَّةِ عَلَى وُجُودِهِ وَاتِّصَافِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، فَدَلَالَةُ الْفَاءِ تَفْرِيعٌ لَا تَفْسِيرٌ.

{ **الْباطِنُ** } الْخَفِيُّ يُقَالُ: بَطَنَ، إِذَا خَفِيَ وَمَصْدَرُهُ بُطُونٌ.

وَمَعْنَى وَصْفِهِ تَعَالَى بِـ { الْباطِنُ } وَصْفُ ذَاتِهِ وَكُنْهِهِ لِأَنَّهُ مَحْجُوبٌ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ قَالَ تَعَالَى { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ } [الْأَنْعَام:103].

{ **وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ** } قَصْرٌ ادِّعَائِيٌّ، لِأَنَّ ظُهُورَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمَعْنَيَيْنِ ظُهُورٌ لَا يُدَانِيهِ ظُهُورُ غَيْرِهِ، وَبُطُونَهُ تَعَالَى لَا يُشْبِهُهُ بُطُونُ الْأَشْيَاءِ الْخَفِيَّةِ إِذْ لَا مَطْمَعَ لِأَحَدٍ فِي إِدْرَاكِ ذَاتِهِ وَلَا فِي مَعْرِفَةِ تَفَاصِيلِ تَصَرُّفَاتِهِ.

وَفِي الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا مُحَسِّنُ الْمُطَابَقَةِ. وَفَائِدَةُ إِجْرَاءِ الْوَصْفَيْنِ الْمُتَضَادَّيْنِ عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ اللَّهِ تَعَالَى لِيَتَدَبَّرَ الْعَالِمُونَ فِي مَوَاقِعِهَا.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْوَاوَاتِ الثَّلَاثَةَ الْوَاقِعَةَ بَيْنَ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ مُتَّحِدَةُ الْمَعْنَى تَقْتَضِي كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا عَطْفَ صِفَةٍ.

{ **وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } عَطَفَ عَلَى الجُمْلَةِ السابقة، عُطِفَتْ صِفَةُ عِلْمِهِ عَلَى صِفَةِ ذَاتِهِ، وَتَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ فِي [الْبَقَرَةِ:29].

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَما يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [4].

{ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** } مَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ اسْتِئْنَافٌ كَمَوْقِعِ جُمْلَةِ { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ } [3]، فَهَذَا اسْتِئْنَافٌ ثَانٍ مُفِيدٌ الِاسْتِدْلَالَ عَلَى انْفِرَادِهِ تَعَالَى بِالْإِلَهِيَّةِ لِيُقْلِعُوا عَنِ الْإِشْرَاكِ بِهِ. وَيُفِيدُ أَيْضًا بَيَانًا لِمَضْمُونِ جُمْلَةِ { لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ } [2]، وَجُمْلَةِ { وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [2]، فَإِنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى عَظِيمِ الْإِبْدَاعِ.

الْاسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ: تَمْثِيلٌ لِلْمُلْكِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تعالى { لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ } [2]، وَهَذَا مَعْنَى اسْمِهِ تَعَالَى (الْخَالِقُ)، وَتَقَدَّمَ قَرِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ فِي [الْأَعْرَافِ:11].

{ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها** } اسْتِئْنَافٌ لِتَقْرِيرِ عُمُومِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ فَكَانَ بَيَانَ جُمْلَةِ { وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [2]، وَجُمْلَةِ { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [3]، جَارِيًا عَلَى طَرِيقَةِ النَّشْرِ لِلَّفِّ عَلَى التَّرْتِيبِ، وَتَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي [سَبَأ:2].

{ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } عَطْفُ مَعْنًى خَاصٍّ عَلَى مَعْنًى شَمِلَهُ وَغَيْرَهُ لِقَصْدِ الِاهْتِمَامِ بِالْمَعْطُوفِ.

{ **مَعَكُمْ** } الْمَعِيَّةُ هنا تَمْثِيلٌ كِنَائِيٌّ عَنِ الْعلم بِجَمِيعِ أَحْوَالهم.

{ **أَيْنَ مَا** } ظَرْفٌ مُرَكَّبٌ مِنْ (أَيْنَ) وَهِيَ اسْمٌ لِلْمَكَانِ، وَ(مَا) الزَّائِدَةُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَعْمِيمِ الْأَمْكِنَةِ.

{ **وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } تَكْمِلَةٌ لِمَضْمُونِ الجملة السابقة، وَكَانَ حَقُّهَا أَنْ لَا تُعْطَفَ وَإِنَّمَا عُطِفَتْ تَرْجِيحًا لِجَانِبِ مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْخَبَرِ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ.

{ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } [5].

{ **لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ** } هَذَا تَأْكِيدٌ لِنَظِيرِهِ الَّذِي فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ كُرِّرَ لِيُبْنَى عَلَيْهِ قَوْلُهُ { وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ }، فَكَانَ ذِكْرُهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ مَبْنِيًّا عَلَيْهِ التَّصَرُّفُ فِي الْمَوْجُودَاتِ الْقَابِلَةِ لِلْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ فِي الدُّنْيَا، وَكَانَ ذِكْرُهُ هُنَا مَبْنِيًّا عَلَيْهِ أَنَّ أُمُورَ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا تَرْجِعُ إِلَى تَصَرُّفِهِ.

{ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } عَطَفَ عَلَى السابق، عَطْفَ الْخَاصِّ مِنْ وَجْهٍ عَلَى الْعَامِّ مِنْهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأُمُورِ الْجَارِيَةِ فِي الدُّنْيَا، وَعَطْفَ الْمُغَايِرِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأُمُورِ الَّتِي تَجْرِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَى مَا سَيَتَّضِحُ فِي تَفْسِيرِ مَعْنَى { الْأُمُورُ }.

{ وَإِلَى اللَّهِ } تَقْدِيمُ الْمَجْرُورِ عَلَى مُتَعَلِّقِهِ لِلِاهْتِمَامِ لَا لِلْقَصْرِ إِذْ لَا مُقْتَضَى لِلْقَصْرِ الْحَقِيقِيِّ وَلَا دَاعِيَ لِلْقَصْرِ الْإِضَافِيِّ إِذْ لَا يُوجَدُ مِنَ الْكُفَّارِ مَنْ يُثْبِتُ الْبَعْثَ وَلَا مَنْ زَعَمُوا أَنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ فِي تَصَرُّفِ غَيْرِ اللَّهِ.

وَإِظْهَارُ اسْمِ الْجَلَالَةِ دُونَ أَنْ يَقُولَ: وَإِلَيْهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ، لِتَكُونَ الْجُمْلَةُ مُسْتَقِلَّةً بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ فَتَكُونُ كَالْمَثَلِ صَالِحَةً لِلتَّسْيِيرِ.

الرُّجُوعُ: مُسْتَعَارٌ لِلْكَوْنِ فِي مَكَانٍ غَيْرِ الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ دُونَ سَبْقِ مُغَادَرَةٍ عَنْ هَذَا الْمَكَانِ.

{ الْأُمُورُ } جَمْعُ أَمْرٍ، وَاشْتُهِرَ فِي اللُّغَةِ أَنَّ الْأَمْرَ اسْمٌ لِلشَّأْنِ وَالْحَادِثِ فَيَعُمُّ الْأَفْعَالَ وَالْأَقْوَالَ.

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: " الْأُمُورُ هُنَا: جَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ لِأَنَّ (الْأَمْرَ وَالشَّيْءَ وَالْمَوْجُودَ) أَسْمَاءٌ شَائِعَةٌ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ: أَعْرَاضِهَا وَجَوَاهِرِهَا ". وَلَمْ أَرَهُ لِغَيْرِهِ.

وَفِي (الْمَحْصُول) وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ كُتُبِ أُصُولِ الْفِقْهِ: أَنَّ كَلِمَةَ (أَمْرٌ) مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ وَالشَّأْنِ وَالشَّيْءِ. وَلَمْ أَرَ عَزْوَ ذَلِكَ إِلَى مَعْرُوفٍ وَلَا أَتَوْا لَهُ بِمِثَالٍ سَالِمٍ عَنِ النَّظَرِ وَلَا أَحْسَبُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللُّغَةِ.

فَإِنْ أَخَذْنَا بِالْمَشْهُورِ فِي اللُّغَةِ، كَانَ الْمَعْنَى: تَرْجِعُ أَفْعَالُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ، أَيْ: فِي الْحَشْرِ، وَالْمُرَادُ: رُجُوعُ أَهْلِهَا لِلْجَزَاءِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، إِذْ لَا يَتَعَلَّقُ الرُّجُوعُ بِحَقَائِقِهَا، فَعَطْفُ قَوْلِهِ تعالى { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } تَتْمِيمٌ لِجُمْلَةِ { لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ }، أَيْ: لَهُ مُلْكُ الْعَوَالِمِ فِي الدُّنْيَا وَلَهُ التَّصَرُّفُ فِي أَعْمَالِ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَهْلِهَا فِي الْآخِرَةِ.

وَإِنْ أَخَذْنَا بِشُمُولِ اسْمِ الْأُمُورِ لِلذَّوَاتِ، كَانَ مُفِيدًا لِإِثْبَاتِ الْبَعْثِ، أَي: الذَّوَاتُ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا تَصِيرُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجَازِيهَا عَلَى أَعْمَالِهَا.

وَعَلَى كِلَا الِاحْتِمَالَيْنِ فَمَفَادُهُ مَفَادُ اسْمِهِ (**الْمُهَيْمِنُ**).

{ الْأُمُورُ } تَعْرِيفُ الْجَمْعِ مِنْ صِيَغِ الْعُمُومِ.

{ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ } [6].

{ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ } مُنَاسَبَةُ ذِكْرِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ أَنَّ تَقْدِيرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَتَعَاقُبَهُمَا مِنَ التَّصَرُّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُشَاهَدَةِ فِي أَحْوَالِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمُلَابَسَاتِ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ، فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ جُمْلَةِ { لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ } [5]، وَهُوَ أَيْضًا مُنَاسِبٌ لِمَضْمُونِ جُمْلَةِ { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } [5]، تَذْكِيرٌ لِلْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ الْمُتَصَرِّفَ فِي سَبَبِ الْفَنَاءِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

هُمَا اللَّذَانِ يُفْنِيَانِ النَّاسَ، وَقَدْ حَكَى اللهُ عَنْهُمْ قَوْلَهُمْ { وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية:24].
وَهَذَا مَعْنَى اسْمِهِ تَعَالَى (**الْمُدَبِّرُ**).
{ **وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ** } لَمَّا ذُكِرَ تَصَرُّفُ اللهِ فِي اللَّيْلِ، وَكَانَ اللَّيْلُ وَقْتَ إِخْفَاءِ الْأَشْيَاءِ، أُعْقِبَ ذِكْرُهُ بِأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِأَخْفَى الْخَفَايَا وَهِيَ النَّوَايَا، فَإِنَّهَا مَعَ كَوْنِهَا مَعَانِيَ غَائِبَةً عَنِ الْحَوَاسِّ كَانَتْ مَكْنُونَةً فِي ظُلْمَةِ بَاطِنِ الْإِنْسَانِ فَلَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا عَالِمٌ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ } [الْأَنْعَام:59]، وَقَوْلِهِ { أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ } [هود:5].
{ **بِذاتِ الصُّدُورِ** } مَا فِي خَوَاطِرِ النَّاسِ مِنَ النَّوَايَا، فـ (ذَاتِ) هُنَا مُؤَنَّثُ (ذُو) بِمَعْنَى صَاحِبَةٍ. وَالصُّحْبَةُ هُنَا بِمَعْنَى الْمُلَازَمَةِ. وَتَقَدَّمَ قوله تعالى { إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ } [الْأَنْفَال:43].
<u>وَقَدِ اشْتَمَلَ هَذَا الْمِقْدَارُ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هُنَا</u> عَلَى مَعَانِي سِتَّ عَشْرَةَ صِفَةً مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى وَهِيَ:
(اللَّهُ / الْعَزِيزُ / الْحَكِيمُ / الْمَلِكُ / الْمُحْيِي / الْمُمِيتُ / الْقَدِيرُ / الْأَوَّلُ / الْآخِرُ / الظَّاهِرُ / الْبَاطِنُ / الْعَلِيمُ / الْخَالِقُ / الْبَصِيرُ / الْوَاحِدُ / الْمُدَبِّرُ).
وَاعْلَمْ أَنَّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هُنَا يُرَجِّحُ أَنّه مكّيّ.

{ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ } [7].

اسْتِئْنَافٌ وَقَعَ مَوْقِعَ النَّتِيجَةِ بَعْدَ الِاسْتِدْلَالِ، فَإِنَّ أَوَّلَ السُّورَةِ قَرَّرَ خُضُوعَ الْكَائِنَاتِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ تَعَالَى الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا بِالْإِيجَادِ وَالْإِعْدَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَهُوَ الْقَدِيرُ عَلَيْهَا، وَأَنَّهُ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ مُطَّلِعٌ عَلَى مَا تُضْمِرُهُ ضَمَائِرُهُمْ وَأَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ فَمُحَاسِبُهُمْ، <u>فَلَا جَرَمَ تَهَيَّأَ الْمَقَامُ لِإِبْلَاغِهِمُ التَّذْكِيرَ بِالْإِيمَانِ</u> بِهِ، إِيمَانًا لَا يَشُوبُهُ إِشْرَاكٌ، وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ قَدْ تَبَيَّنَ صِدْقُهُ بِالدَّلَائِلِ الْمَاضِيَةِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى صِحَّةِ مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِمَّا كَانَ مَحَلَّ ارْتِيَابِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ، كَمَا سيأتي { وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ } [8].
فَذَلِكَ وَجْهُ عَطْفِ وَرَسُولِهِ عَلَى مُتَعَلِّقِ الْإِيمَانِ مَعَ أَنَّ الْآيَاتِ السَّابِقَةَ مَا ذَكَرَتْ إِلَّا دَلَائِلَ صِفَاتِ اللهِ دُونَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
{ **آمِنُوا** } الْخِطَابُ لِلْمُشْرِكِينَ، وَالْآيَةُ مَكِّيَّةٌ حَسْبَ مَا رُوِيَ فِي إِسْلَامِ عُمَرَ، وَهُوَ الَّذِي يُلَائِمُ اتِّصَالَ قَوْلِهِ تعالى { وَما لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [8] بِهَا.
{ **وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** } الْمُرَادُ هنا: الْإِنْفَاقُ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ الْإِيمَانُ بَعْدَ حُصُولِهِ، وَهُوَ الْإِنْفَاقُ عَلَى الْفَقِيرِ. وَتَخْصِيصُ الْإِنْفَاقِ بِالذِّكْرِ تَنْوِيهٌ بِشَأْنِهِ، وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا فِي اللَّذَّاتِ،

وَالْمُفَاخَرَةِ وَالْمُقَامَرَةِ، وَمُعَاقَرَةِ الْخَمْرِ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ الْقُرْآنُ بِذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، كَقَوْلِهِ تعالى { إِنَّهُ كانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ } [الحاقة:34]، وَقَوْلِهِ تعالى { بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا } [الْفَجْر:17-20]، وَقَوْلِهِ تعالى { أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ } [التكاثر:2/1]، إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

<u>وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ</u>، أي: الإِنْفَاق بتجهيز جَيش الْعسرَة. قَالَه ابْنُ عَطِيَّةَ عَنِ الضَّحَّاكِ، فَتَكُونُ الْآيَةُ مَدَنِيَّةً، وَيَكُونُ قَوْلُهُ تعالى { آمِنُوا } أَمْرًا بِالدَّوَامِ عَلَى الْإِيمَانِ، كَقَوْلِهِ تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [النِّسَاء:136].

{ **مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** } جِيءَ بِالْمَوْصُولِ دُونَ أَنْ يَقُولَ: وَأَنْفِقُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ لِمَا فِي صِلَةِ الْمَوْصُولِ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى غَفْلَةِ السَّامِعِينَ عَنْ كَوْنِ الْمَالِ لِلَّهِ جَعَلَ النَّاسَ كَالْخَلَائِفِ عَنْهُ فِي التَّصَرُّفِ فِيهِ مُدَّةً مَا، فَلَمَّا أَمَرَهُمْ بِالْإِنْفَاقِ مِنْهَا عَلَى عِبَادِهِ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِمْ أَنْ يَمْتَثِلُوا لِذَلِكَ كَمَا، يَمْتَثِلُ الْخَازِنُ أَمْرَ صَاحِبِ الْمَالِ إِذَا أَمَرَهُ بِإِنْفَاذِ شَيْءٍ مِنْهُ إِلَى مَنْ يُعَيِّنُهُ.

{ **مُسْتَخْلَفِينَ** } السِّينُ وَالتَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ فِي حُصُولِ الْفِعْلِ لَا لِلطَّلَبِ، لِاسْتِفَادَةِ الطَّلَبِ مِنْ فِعْلِ جَعَلَكُمْ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِتَأْكِيدِ الطَّلَبِ.

{ **فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ** } الْفَاءُ تَفْرِيعٌ وَتَسَبُّبٌ عَلَى الْأَمْرِ بِالْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ لِإِفَادَةِ تَعْلِيلِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لِأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنْفَقُوا أَعْدَدْنَا لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا.

<u>وَالْمَعْنَى عَلَى وَجْهِ كَوْنِ الْآيَةِ مَكِّيَّةً</u>: أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَيْنِكُمْ وَأَنْفَقُوا، أَيْ: سَبَقُوكُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ، لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ، أَيْ فَاغْتَنِمُوهُ وَتَدَارَكُوا مَا فَاتُوكُمْ بِهِ.

{ **مِنْكُمْ** } (مِنْ) لِلتَّبْعِيضِ، أَي: أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ بَعْضُ قومكم. وَهَذَا إغراء لَهُم بِأَن يماثلوهم.

{ وَما لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [8].

{ **وَما لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ** } ظَاهِرُ اسْتِعْمَالِ أَمْثَالِهِ أَنْ يَكُونَ اسْتِفْهَامًا مُسْتَعْمَلًا فِي التَّوْبِيخِ وَالتَّعْجِيبِ، وَهُوَ الَّذِي يُنَاسِبُ كَوْنَ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تعالى { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } مُسْتَعْمَلًا فِي الطَّلَبِ لَا فِي الدَّوَامِ.

وَتَكُونُ جُمْلَةُ { لَا تُؤْمِنُونَ } حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ الْمُسْتَتِرِ فِي الْكَوْنِ الْمُتَعَلِّقِ بِهِ الْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ. <u>وَالتَّقْدِيرُ</u>: وَمَا لَكُمْ كَافِرِينَ بِاللَّهِ.

{ **وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ** } حَالٌ ثَانِيَةٌ، وَ(الْوَاوُ) وَاوُ الْحَالِ لَا الْعَطْفِ، فهما حالان متداخلان. <u>وَالْمَعْنَى</u>: مَاذَا يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَقَدْ بَيَّنَ لَكُمُ الرَّسُولُ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ مَا فِيهِ بَلَاغٌ وَحُجَّةٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ حَقٌّ فَلَا عُذْرَ

لَكُمْ فِي عَدَمِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ فَقَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَاتُ حَقِّيَّتِهِ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ إِصْرَارَكُمْ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ مُكَابَرَةٌ وَعِنَادٌ.

{ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ } مِيثَاقٌ مِنَ اللَّهِ، أَيْ: مَا يُمَاثِلُ الْمِيثَاقَ مِنْ إِيدَاعِ الْإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ وَبِوَحْدَانِيَّتِهِ فِي الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ، فَكَأَنَّهُ مِيثَاقٌ قَدْ أُخِذَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ فِي الْأَزَلِ وَشَرْطِ التَّكْوِينِ، فَهُوَ نَامُوسٌ فِطْرِيٌّ. وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى } [الْأَعْرَاف:172].

<u>وَالْمَعْنَى</u>: أَنَّ النُّفُوسَ لَو خلت من الْعِنَادِ وَعَنِ التَّمْوِيهِ والتضليل كَانَتْ مُنْسَاقَةً إِلَى إِدْرَاكِ وُجُودِ الصَّانِعِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَكْشِفُ عَنْهُمْ مَا غَشَّى عَلَى إِدْرَاكِهِمْ من دُعَاء أئمة الْكُفْر.

{ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } مُسْتَأْنَفَةٌ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى { وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ }. وَاسم الفَاعل هنا مُسْتَعْمَلٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِقَرِينَةِ وُقُوعِهِ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ، أَيْ: فَقَدْ حَصَلَ مَا يَقْتَضِي أَنْ تُؤْمِنُوا مِنَ السَّبَبِ الظَّاهِرِ وَالسَّبَبِ الْخَفِيِّ الْمُرْتَكِزِ فِي الْجِبِلَّةِ.

وَيُرَجِّحُ هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ ظَاهِرَ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تعالى { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [7] أَنَّهُ لِطَلَبِ إِيجَادِ الْإِيمَانِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِهَا، وَأَنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ.

{ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ } [9].

اسْتِئْنَافٌ ثَالِثٌ انْتَقَلَ بِهِ الْخِطَابُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَهَذِهِ الْآيَةُ يَظْهَرُ أَنَّهَا مَبْدَأُ الْآيَاتِ الْمَدَنِيَّةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَيَزِيدُ ذَلِكَ وُضُوحًا عَطْفُ قَوْلِهِ تعالى { وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [10]، كَمَا سَيَأْتِي قَرِيبًا.

وأُسْلُوبُ نَّظْمِ الآيَة وَمَا عُطِفَ عَلَيها يَقْتَضِيَانِ أَنْ تَكُونَ اسْتِئْنَافًا انْتِقَالِيًّا هُوَ مِنْ حُسْنِ التَّخَلُّصِ إِلَى خِطَابِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَفُوتُهُ الدَّلَالَةُ عَلَى تَقْرِيرِ مَا قَبْلَهُ، لِأَنَّ التَّقْرِيرَ يَحْصُلُ مِنِ انْتِسَابِ الْمَعْنَيَيْنِ: مَعْنَى الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ، وَمَعْنَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ الْمُوَالِيَةِ.

فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ بِمَوْقِعِهَا وَمَعْنَاهَا وَعِلَّتِهَا وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا أَفَادَتْ بَيَانًا وَتَأْكِيدًا وَتَعْلِيلًا وَتَذْيِيلًا وَتَخَلُّصًا لِغَرَضٍ جَدِيدٍ، وَهِيَ أَغْرَاضٌ جَمَعَتْهَا جَمْعًا بَلَغَ حَدَّ الْإِعْجَازِ فِي الْإِيجَازِ، مَعَ أَنَّ كُلَّ جُمْلَةٍ مِنْهَا مُسْتَقِلَّةٌ بِمَعْنًى عَظِيمٍ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ وَالتَّذْكِيرِ والإرشاد والامتنان.

الرَّؤُوفُ: مِنْ أَمْثِلَةِ الْمُبَالَغَة فِي الاتصاف بِالرَّأْفَةِ وَهِيَ كَرَاهِيَةُ إِصَابَةِ الْغَيْرِ بِضُرٍّ.

الرَّحِيمُ: مِنَ الرَّحْمَةِ وَهِيَ مَحَبَّةُ إِيصَالِ الْخَيْرِ إِلَى الْغَيْرِ.

{ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ } تَأْكِيدُ الْخَبَرِ بِـ (إِنَّ) وَ(اللَّامِ) لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنْ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ قَدْ حَسِبُوهَا إِسَاءَةً لَهُمْ وَلِآبَائِهِمْ وَآلِهَتِهِمْ، فَقَدْ قَالُوا { أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْلا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها } [الْفرْقَان:42/41]. وَهَذَا يُرَجِّحُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [7] إِلَى هُنَا مَكِّيٌّ. فَإِنْ كَانَتِ الْآيَةُ مَدَنِيَّةً فَلِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ.

{ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [10].

{ وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ } الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَعْنَاهُ الْمَشْهُورُ، وَهُوَ الْإِنْفَاقُ فِي عَتَادِ الْجِهَادِ، لَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْدَ الْهِجْرَةِ، فَإِنَّ (سَبِيلَ اللَّهِ) غَلَبَ فِي الْقُرْآنِ إِطْلَاقُهُ عَلَى الْجِهَادِ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ عَقِبَهُ { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ }، لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُتَّصِلًا نُزُولُهُ مَعَ هَذَا، وَلَوْ حُمِلَ الْإِنْفَاقُ عَلَى مَعْنَى الصَّدَقَاتِ لَكَانَ مُقْتَضِيًا أَنَّهَا مَدَنِيَّةٌ لِأَنَّ الْإِنْفَاقَ بِهَذَا الْمَعْنَى لَا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَى الصَّدَقَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَلَا يُلَامُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى تَرْكِهِ.

<u>وَعَلَيْهِ فَالْخِطَابُ مُوَجَّهٌ لِلْمُؤْمِنِينَ</u>، فَقَدْ أُعِيدَ الْخِطَابُ بِلَوْنٍ غَيْرِ الَّذِي ابْتُدِئَ بِهِ. وَمِنْ لَطَائِفِهِ أَنَّهُ مُوَجَّهٌ إِلَى الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ ظَاهِرُهُمْ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ مُشْرِكُونَ فَهُمُ الَّذِينَ شَحُّوا بِالْإِنْفَاقِ.

وَوَجْهُ إِلْحَاقِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالْمَكِّيِّ، مِنَ السُّورَةِ مُنَاسَبَةُ اسْتِيعَابِ أَحْوَالِ الْمُمْسِكِينَ عَنِ الْإِنْفَاقِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ تَعْرِيضًا بِالتَّحْذِيرِ مِنْ خِصَالِ أَهْلِ الْكُفْرِ، إِذْ قَدْ سَبَقَهَا قَوْلُهُ تعالى { وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ } [7].

{ وَما لَكُمْ } الـ (مَا) اسْتِفْهَامِيَّةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي اللَّوْمِ وَالتَّوْبِيخِ عَلَى عَدَمِ إِنْفَاقِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

{ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ } (الْوَاوُ) وَاوُ الْحَالِ وَهُوَ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ { تُنْفِقُوا } بِاعْتِبَارِ أَنَّ عُمُومَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَشْمَلُ مَا فِيهِمَا فَيَشْمَلُ الْمُخَاطَبِينَ، فَذَلِكَ الْعُمُومُ هُوَ الرَّابِطُ.

<u>وَالتَّقْدِيرُ</u>: لِلَّهِ مِيرَاثُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

<u>وَالْمَعْنَى</u>: إِنْكَارُ عَدَمِ إِنْفَاقِ أَمْوَالِهِمْ فِيمَا دَعَاهُمُ اللَّهُ إِلَى الْإِنْفَاقِ فِيهِ وَهُمْ سَيَهْلَكُونَ وَيَتْرُكُونَ أَمْوَالَهُمْ، فَلَوْ أَنْفَقُوا بَعْضَ أَمْوَالِهِمْ فِيمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ لَنَالُوا رِضَى اللَّهِ وَانْتَفَعُوا بِمَالٍ هُوَ صَائِرٌ إِلَى مَنْ يَرِثُهُمْ.

{ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }

اسْتِئْنَاف بياني ناشئ عَمَّا يَجُولُ فِي خَوَاطِرِ كَثِيرٍ مِنَ السَّامِعِينَ مِنْ أَنَّهُمْ تَأَخَّرُوا عَنِ الْإِنْفَاقِ غَيْرَ نَاوِينَ تَرْكَهُ. وَأُدْمِجَ فِيهِ تَفْضِيلُ جِهَادِ بَعْضِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى بَعْضٍ لِمُنَاسَبَةِ كَوْنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ يَشْمَلُ إِنْفَاقَ الْمُجَاهِدِ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْعُدَّةِ وَالزَّادِ وَإِنْفَاقَهُ عَلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْ عُدَّتَهُ وَلَا زَادَهُ، وَلِأَنَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ وَلَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْفَاقَ، فَأُرِيدَ أَنْ لَا يُغْفَلَ ذِكْرُهُ فِي عِدَادِ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ، إِذِ الْإِنْفَاقُ فِيهَا وَسِيلَةٌ لَهَا.

{ لَا يَسْتَوِي } نَفْيُ التَّسْوِيَةِ مُرَادٌ بِهِ نَفْيُهَا فِي الْفَضِيلَةِ وَالثَّوَابِ، فَإِنَّ نَفْيَ التَّسْوِيَةِ فِي وَصْفٍ يَقْتَضِي ثُبُوتَ أَصْلِ ذَلِكَ الْوَصْفِ لِجَمِيعِ مَنْ نُفِيَتْ عَنْهُمُ التَّسْوِيَةُ، فَنَفْيُ التَّسْوِيَةِ كِنَايَةٌ عَنْ تَفْضِيل أحد جانبين وَتَنْقِيصِ الْجَانِبِ الْآخَرِ نَقْصًا مُتَفَاوِتًا. وَيُعْرَفُ الْجَانِبُ الْفَاضِلُ وَالْجَانِبُ الْمَفْضُولُ بِالْقَرِينَةِ أَوِ التَّصْرِيحِ فِي الْكَلَامِ، وَلَيْسَ تَقْدِيمُ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ فِي الذِّكْرِ بَعْدَ نَفْيِ التَّسْوِيَةِ بِمَقْتَضٍ أَنَّهُ هُوَ الْمُفَضَّلُ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى { لَا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ } [النِّسَاء:95]، وَقَدَّمَ فِي هَذِهِ الْآيَةَ الْجَانِبَ الْمُفَضَّلَ.

{ مَنْ أَنْفَقَ } عَامٌّ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ أَنْفَقَ.

{ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ } الظَّاهِرُ أَنَّهُ فَتْحُ مَكَّةَ فَإِنَّ هَذَا الْجِنْسَ الْمُعَرَّفَ صَارَ عَلَمًا بِالْغَلَبَةِ عَلَى فَتْحِ مَكَّةَ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ. وَإِنَّمَا كَانَ الْمُنْفِقُونَ قَبْلَ الْفَتْحِ وَالْمُجَاهِدُونَ قَبْلَهُ أَعْظَمَ دَرَجَةً فِي إِنْفَاقِهِمْ وَجِهَادِهِمْ لِأَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ كَانَ زَمَانَ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ كَانُوا أَكْثَرَ الْعَرَبِ، فَلَمَّا فُتِحَتْ مَكَّةُ دَخَلَتْ سَائِرُ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ أصبح الإنفاق والقتال أيسر لكثرة المسلمين وقلّة الكافرين.

وَقِيلَ الْمُرَادُ: صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالزُّهْرِيُّ، وَالشَّعْبِيُّ، وَعَامِرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَاخْتَارَهُ الطَّبَرِيّ. وَيُؤَيِّدهُ مَا رَوَاهُ الطَّبَرِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ ".

وَهُوَ الْمُلَائِمُ لِكَوْنِ هَذِهِ السُّورَةِ بَعْضُهَا مَكِّيٌّ وَبَعْضُهَا مَدَنِيٌّ فَيَقْتَضِي أَنَّ مَدَنِيَّهَا قَرِيبُ عَهْدٍ مِنْ مُدَّةِ إِقَامَتِهِمْ بِمَكَّةَ، وَإِطْلَاقُ الْفَتْحِ عَلَى صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ وَارِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً } [الْفَتْح:1].

{ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا } تَأْكِيدٌ، أَيْ: أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ الْفَتْحِ وَقَاتَلُوا مِنْ بَعْدِهِ.

وَالتَّقْدِيرُ: لَا يَسْتَوِي مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَمَنْ أَنْفَقَ بَعْدَهُ.

{ أُولئِكَ } جِيءَ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ دُونَ الضَّمِيرِ لِمَا تُؤْذِنُ بِهِ الْإِشَارَةُ مِنَ التَّنْوِيهِ وَالتَّعْظِيمِ، وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِمْ جَدِيرُونَ بِمَا يُذْكَرُ بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ، لِأَجْلِ مَا ذُكِرَ قَبْلَهُ مِنَ الْإِخْبَارِ.

الدَّرَجَةُ: مُسْتَعَارَةٌ لِلْفَضْلِ، لِأَنَّ الدَّرَجَةَ تَسْتَلْزِمُ الِارْتِقَاءَ، فَوَصْفُ الِارْتِقَاءِ مُلَاحَظٌ فِيهَا، ثُمَّ يُشَبَّهُ الْفَضْلُ وَالشَّرَفُ بِالِارْتِقَاءِ فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالدَّرَجَةِ.

{ **وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى** } احْتِرَاسٌ مِنْ أَنْ يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أَنَّ اسْمَ التَّفْضِيلِ مَسْلُوبُ الْمُفَاضَلَةِ لِلْمُبَالَغَةِ.

وَعَبَّرَ بِـ { الْحُسْنى } لِبَيَانِ أَنَّ الدَّرَجَةَ هِيَ دَرَجَةُ الْحُسْنَى لِيَكُونَ لِلِاحْتِرَاسِ مَعْنًى زَائِدٌ عَلَى التَّأْكِيدِ وَهُوَ مَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ.

الْحُسْنَى: لَقَبٌ قُرْآنِيٌّ إِسْلَامِيٌّ يَدُلُّ عَلَى خَيْرَاتِ الْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ } [يُونُس:26].

وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي تَفَاضُلِ أَهْلِ الْفَضْلِ فِيمَا فُضِّلُوا فِيهِ، وَأَنَّ الْفَضْلَ ثَابِتٌ لِلَّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْفَتْحِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ. وَبِئْسَ مَا يَقُولُهُ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ عِبَارَاتٍ تُؤْذِنُ بِتَنْقِيصِ مَنْ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْفَتْحِ مِنْ قُرَيْشٍ مِثْلِ كَلِمَةِ (الطُّلَقَاءِ) وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ حَزَازَاتٍ فِي النُّفُوسِ قَبَلِيَّةٍ أَوْ حِزْبِيَّةٍ، وَاللَّهُ يَقُولُ { وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [الحجرات:11].

{ **وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** } تَذْيِيلٌ، وَالْوَاوُ اعْتِرَاضِيَّةٌ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَسْبَابَ الْإِنْفَاقِ وَأَوْقَاتِهِ وَأَعْذَارِهِ، وَيَعْلَمُ أَحْوَالَ الْجِهَادِ وَنَوَايَا الْمُجَاهِدِينَ فَيُعْطِي كُلَّ عَامِلٍ عَلَى نِيَّةِ عَمَلِهِ.

{ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ } [11].

مَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَوْقِعُ التَّعْلِيلِ وَالْبَيَانِ لِجُمْلَةِ { وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى } [الْحَدِيد:10]. وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَثَلَ الْمُنْفِقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ مَنْ يُقْرِضُ اللَّهَ، وَمَثَلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي جَزَائِهِ كَمَثَلِ الْمُسْتَسْلِفِ مَعَ مَنْ أَحْسَنَ قَرْضَهُ وَأَحْسَنَ فِي دَفْعِهِ إِلَيْهِ.

وَالِاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَى التَّحْرِيضِ مَجَازًا، لِأَنَّ شَأْنَ الْمُحَرِّضِ عَلَى الْفِعْلِ أَنْ يَبْحَثَ عَمَّنْ يَفْعَلُهُ وَيَتَطَلَّبُ تَعْيِينَهُ لِيَنُوطَهُ بِهِ أَوْ يُجَازِيهِ عَلَيْهِ.

الْقَرْضُ الْحَسَنُ: هُوَ الْقَرْضُ الْمُسْتَكْمِلُ مَحَاسِنَ نَوْعِهِ مِنْ كَوْنِهِ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ وَبَشَاشَةٍ فِي وَجْهِ الْمُسْتَقْرِضِ، وَخُلُوٍّ عَنْ كُلِّ مَا يُعَرِّضُ بِالْمِنَّةِ أَوْ بِتَضْيِيقِ أَجَلِ الْقَضَاءِ.

وَالْمُشَبَّهُ هُنَا بِالْقَرْضِ الْحَسَنِ هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْمَنْهِيُّ عَنْ تَرْكِهِ فِي قَوْلِهِ تعالى { وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [10].

{ **فَيُضاعِفَهُ لَهُ** } فَاءُ السَّبَبِيَّةِ، لِأَنَّ الْمُضَاعَفَةَ مُسَبَّبَةٌ عَلَى الْقَرْضِ. وَالْمَعْنَى: التَّحْرِيضُ عَلَى الْإِقْرَاضِ وَتَحْصِيلُ الْمُضَاعَفَةِ، لِأَنَّ الْإِقْرَاضَ سَبَبُ الْمُضَاعَفَةِ.

المضاعفة: مماثلة الْمِقْدَار، فَالْمَعْنَى: يُعْطِيهِ مِثْلَيْ قَرْضِهِ. وَالْمُرَادُ هُنَا مُضَاعَفَتُهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً كَمَا في قَوله تعالى { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ } [الْبَقَرَة:261]. وَقوله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً } [الْبَقَرَة:245].

{ **فَيُضاعِفَهُ** } ضَمِيرُ النصب عَائِدٌ إِلَى الْقَرْضِ الْحَسَنِ، وَالْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ: فَيُضَاعِفُ جَزَاءَهُ.

{ **وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ** } أي: أَنَّ لَهُ أَنْفَسَ جِنْسِ الْأُجُورِ، لِأَنَّ الْكَرِيمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ هُوَ النَّفِيسُ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ } [النَّمْل:29].

وَجُعِلَ الْأَجْرُ الْكَرِيمُ مُقَابِلَ الْقَرْضِ الْحَسَنِ فَقُوبِلَ بِهَذَا مَوْصُوف وَصفته بمثلهما.

الْأَجْرُ: مَا زَادَ عَلَى قَضَاءِ الْقَرْضِ مِنْ عَطِيَّةٍ يُسْدِيهَا الْمُسْتَسْلِفُ إِلَى من سلفه عِنْدَ مَا يَجِدُ سَعَةً، وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " خَيْرُكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً "، وَقَالَ تَعَالَى { وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً } [النِّسَاء:40].

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْأَجْرَ هُوَ الْمَغْفِرَةُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ } فِي سُورَةِ [التَّغَابُنِ:17]. وَهَذَا يَشْمَلُ الْإِنْفَاقَ فِي الصَّدَقَاتِ، قَالَ تَعَالَى { إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ } [18].

وَهُوَ مَا فَسَّرَهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " **وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطَايَا كَمَا يطفئ الْمَاءُ النَّارَ** ".

أَيْ: زِيَادَةٌ عَلَى مُضَاعَفَتِهَا مِثْلُ الْحَسَنَات كلها.

{ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [12].

{ **يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ** } لَمَّا كَانَ مَعْلُومًا أَنَّ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ وَإِعْطَاءَ الْأَجْرِ يَكُونُ فِي يَوْمِ الْجَزَاءِ، تَرَجَّحَ أَنْ يَكُونَ الـ { يَوْمَ } مَنْصُوبًا بِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: اذْكُرْ، تَنْوِيهًا بِمَا يَحْصُلُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ ثَوَابٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَمِنْ حِرْمَانٍ لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ، وَلِذَلِكَ كُرِّرَ{ يَوْمَ } لِيَخْتَصَّ كُلُّ فَرِيقٍ بِذِكْرِ مَا هُوَ من شؤونه.

وَعَلَى هَذَا فَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا ابْتِدَائِيًّا لِمُنَاسَبَةِ ذِكْرِ أَجْرِ الْمُنْفِقِينَ فَعُقِّبَ بِبَيَانِ بَعْضِ مَزَايَا الْمُؤْمِنِينَ.

عَلَى أَنَّهُ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ يَصِحُّ جَعْلُ { يَوْمَ } ظَرْفًا مُتَعَلقا بـ { فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ } [11]، عَلَى طَرِيقَةِ التَّخَلُّصِ لِذِكْرِ مَا يَجْرِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْخَيْرَاتِ لِأَهْلِهَا وَمِنَ الشَّرِّ لِأَهْلِهِ. وَعَلَيْهِ فَالْجُمْلَةُ مُتَّصِلَةٌ بِالَّتِي قَبْلَهَا بِسَبَبِ التَّعَلُّقِ.

{ **تَرَى** } الْخِطَابُ لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ لِيَكُونَ عَلَى مِنْوَالِ الْمُخَاطَبَاتِ الَّتِي قَبْلَهُ، أَيْ: يَوْمُ يَرَى الرَّائِي، وَالرُّؤْيَةُ بَصَرِيَّةٌ

{ وَالْمُؤْمِناتِ } وَجْهُ عَطْفِ الْمُؤْمِناتِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ هُنَا، وَفِي نَظَائِرِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَدَنِيِّ، التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ حُظُوظَ النِّسَاءِ فِي هَذَا الدِّينِ مُسَاوِيَةٌ حُظُوظَ الرِّجَالِ إِلَّا فِيمَا خُصِّصْنَ بِهِ مِنْ أَحْكَامٍ قَلِيلَةٍ لَهَا أَدِلَّتُهَا الْخَاصَّةِ وَذَلِكَ لِإِبْطَالِ مَا عِنْدَ الْيَهُودِ مِنْ وَضْعِ النِّسَاءِ فِي حَالَةِ مَلْعُونَاتٍ وَمَحْرُومَاتٍ مِنْ مُعْظَمِ الطَّاعَاتِ. وَقَدْ بَيَّنَّا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالْأُنْثى بِالْأُنْثى } [الْبَقَرَة:178].

{ يَسْعى نُورُهُمْ } النُّورُ الْمَذْكُورُ هُنَا نُورٌ حَقِيقِيٌّ يَجعله الله لِلْمُؤْمِنين فِي مَسِيرِهِمْ مِنْ مَكَانِ الْحَشْرِ إِكْرَامًا لَهُمْ وَتَنْوِيهًا بِهِمْ فِي ذَلِكَ الْمَحْشَرِ.

{ وَبِأَيْمانِهِمْ } الْبَاءُ بِمَعْنَى (عَنْ) وَاقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ الْأَيْمَانِ تَشْرِيفًا لَهَا وَهُوَ مِنَ الِاكْتِفَاءِ، أَيْ وَبِجَانِبَيْهِمْ. وَيجوز أَن تكون الْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ، وَيَكُونُ النُّورُ الْمُلَابِسُ لِلْيَمِينِ نُورَ كِتَابِ الْحَسَنَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيرًا } [الانشقاق:8/7]، فَإِنَّ كِتَابَ الْحَسَنَاتِ هُدًى، فَيَكُونُ لَفْظُ (النُّورِ) قَدِ اسْتُعْمِلَ فِي مَعْنَيَيْهِ الْحَقِيقِيِّ وَالْمَجَازِيِّ وَهُوَ الْهُدَى وَالْبَرَكَةُ.

الْبُشْرَى: اسْمُ مَصْدَرِ بَشَّرَ وَهِيَ الْإِخْبَارُ بِخَبَرٍ يَسُرُّ الْمُخْبَرَ، وَأُطْلِقَ الْمَصْدَرُ عَلَى الْمَفْعُولِ وَهُوَ إِطْلَاقٌ كَثِيرٌ، مِثْلُ الْخَلْقِ بِمَعْنَى الْمَخْلُوقِ، أَي: الَّذِي تُبَشَّرُونَ بِهِ جَنَّاتٌ، وَالْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ مُضَافَيْنِ تَقْدِيرُهُمَا: إِعْلَامٌ بِدُخُولِ جَنَّاتٍ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى { خالِدِينَ فِيها }.

{ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها } مَقُولُ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: يُقَالُ لَهُمْ، أَيْ: يُقَالُ مِنْ جَانِبِ الْقُدْسِ، تَقُولُهُ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ يَسْمَعُونَ كَلَامًا يَخْلُقُهُ اللَّهُ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ جَانِبِ الْقُدْسِ.

{ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَقِيَّةِ الْكَلَامِ الْمَحْكِيِّ بِالْقَوْلِ الْمُبَشَّرِ بِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحِكَايَةِ الَّتِي حُكِيَتْ فِي الْقُرْآنِ، وعَلى الِاحْتِمَالَيْنِ فَالْجُمْلَةُ تَذْيِيلٌ تَدُلُّ عَلَى مَجْمُوعِ مَحَاسِنِ مَا وَقَعَتْ بِهِ الْبُشْرَى.

{ ذلِكَ } اسْمُ الْإِشَارَةِ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّنْبِيهِ.

{ هُوَ } ضَمِيرُ الْفَصْلِ لتقوية الْخَبَر.

{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ [13] يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ [14] }.

{ **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ** } بَدَلٌ مِنْ { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ } [12] بَدَلا مطابقا، إذا الْيَوْمُ هُوَ عَيْنُ الْيَوْمِ المتحدَّث عنه سابقًا [12]. وَالْقَوْلُ فِي فَتْحَةِ { يَوْمَ } كسابقه.

{ **وَالْمُنافِقاتُ** } كَعَطْفِ الْمُؤْمِناتِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَةِ [12].

{ **لِلَّذِينَ آمَنُوا** } تَغْلِيبٌ لِلذُّكُورِ لِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ هُمْ أَصْحَابُ النُّورِ وَهُوَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

{ **انْظُرُونا** } بِهَمْزَةِ وَصْلٍ مَضْمُومًا، مِنْ نَظَرَهُ، إِذَا انْتَظَرَهُ مِثْلَ نَظَرَ، إِذَا أَبْصَرَ، إِلَّا أَنَّ نَظَرَ بِمَعْنَى الِانْتِظَارِ يَتَعَدَّى إِلَى الْمَفْعُولِ، وَنَظَرَ بِمَعْنَى أَبْصَرَ يَتَعَدَّى بِحَرْفِ (إِلَى) قَالَ تَعَالَى { وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها } [الْبَقَرَة:259].

الانتظار: التَّرَيُّثُ بِفِعْلٍ مَا، أَيْ: تَرَيَّثُوا فِي سَيْرِكُمْ حَتَّى نَلْحَقَ بِكُمْ فَنَسْتَضِيءَ بِالنُّورِ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَبِجَانِبِكُمْ.

الِاقْتِبَاسُ: حَقِيقَتُهُ أَخْذُ الْقَبَسِ (بِفَتْحَتَيْنِ) وَهُوَ الجذوة من الْجمر. فَيَجُوزُ أَنْ يكون إِطْلَاق { نَقْتَبِسْ } هُنَا حَقِيقَةً بِأَنْ يَكُونُوا ظَنُّوا أَنَّ النُّورَ الَّذِي كَانَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ نُورُ شُعْلَةٍ، يُلْقَى ذَلِكَ فِي ظَنِّهِمْ لِتَكُونَ خَيْبَتُهُمْ أَشَدَّ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُسْتَعَارَ الِاقْتِبَاسُ لِانْتِفَاعِ أَحَدٍ بِضَوْءِ آخَرَ لِأَنَّهُ يُشْبِهُ الِاقْتِبَاسَ فِي الِانْتِفَاعِ بِالضَّوْءِ بِدُونِ عِلَاجٍ.

{ **قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً** } يَظْهَرُ مِنْ إِسْنَادِ { قِيلَ } بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَنَّ قَائِلَهُ غَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخَاطَبِينَ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ السَّائِقِينَ لِلْمُنَافِقِينَ.

وَتَكُونُ مَقَالَةُ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُنَافِقِينَ تَهَكُّمًا إِذْ لَا نُورَ وَرَاءَهُمْ وَإِنَّمَا أَرَادُوا إِطْمَاعَهُمْ ثُمَّ تَخْيِيبَهُمْ بِضَرْبِ السُّورِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ الْخَيْبَةَ بَعْدَ الطَّمَعِ أَشَدُّ حَسْرَةً. وَهَذَا اسْتِهْزَاءٌ كَانَ جَزَاءً عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ وَاسْتِسْخَارِهِمْ بِهِمْ، فَهُوَ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى { الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ } [التَّوْبَة:79].

وَراءَكُمْ: تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى ارْجِعُوا إِذِ الرُّجُوعُ يَسْتَلْزِمُ الْوَرَاءَ، وَهَذَا كَمَا يُقَالُ: رَجَعَ الْقَهْقَرَى. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظرفا لفعل { فَالْتَمِسُوا نُوراً }، أَيْ: فِي الْمَكَانِ الَّذِي خَلْفَكُمْ.

{ **فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ** } ضَمِيرُ { بَيْنَهُمْ } عَائِدٌ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ. وَضَرْبُ السُّورِ: وَضْعُهُ، يُقَالُ: ضَرَبَ خَيْمَةً. وَضُمِّنَ { فَضُرِبَ } مَعْنَى الْحَجْزِ فَعُدِّيَ بِـ (الْبَاءِ)، أَيْ: ضُرِبَ بَيْنَهُمْ سُورٌ لِلْحَجْزِ بِهِ بَيْنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، خَلَقَهُ اللَّهُ سَاعَتَئِذٍ قَطْعًا لِأَطْمَاعِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ.

{ **لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ** } وَلَعَلَّ جَعْلَ الْبَابِ فِي سُورٍ وَاحِدٍ لِيَمُرَّ مِنْهُ أَفْوَاجُ الْمُؤْمِنِينَ الْخَالِصِينَ بِمَرْأًى مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْمَحْبُوسِينَ وَرَاءَ ذَلِكَ السُّورِ تَنْكِيلًا بِهِمْ وَحَسْرَةً حِينَ يُشَاهِدُونَ أَفْوَاجَ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَحُ لَهُمُ الْبَابُ الَّذِي فِي السُّورِ لِيَجْتَازُوا مِنْهُ إِلَى النَّعِيمِ الَّذِي بِبَاطِنِ السُّورِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا السُّورَ الْمَذْكُورَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ غَيْرُ الْحِجَابِ الَّذِي ذُكِرَ فِي [الْأَعْرَافِ:46].

{ **لَهُ بابٌ / باطِنُهُ / ظاهِرُهُ** } الضمَائِرُ عَائِدَة إِلَى السُّورِ. وَالْبَاطِنُ: هُوَ دَاخِلُ الشَّيْءِ، وَالظَّاهِرُ: خَارِجُهُ.

{ **يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ** } حَالٌ مِنْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ. والاسْتِفْهَامُ تَقْرِيرِيٌّ، اسْتُعْمِلَ كِنَايَةً عَنْ طَلَبِ اللَّحَاقِ بِهِمْ وَالْانْضِمَامِ إِلَيْهِمْ كَمَا كَانُوا مَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا يَعْمَلُونَ أَعْمَالَ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

تَوَهَّمُوا أَنَّ الْمُعَامَلَةَ فِي الْآخِرَةِ تَجْرِي كَمَا تَجْرِي الْمُعَامَلَةُ فِي الدُّنْيَا عَلَى حَسَبِ صُوَرِ الْأَعْمَالِ، وَمَا دَرَوْا أَنَّ الصُّوَرَ مُكَمِّلَاتٌ وَأَنَّ قِوَامَهَا إِخْلَاصُ الْإِيمَانِ.

{ **قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ** } بَيَّنُوا لَهُمْ أَسْبَابَ التَّبَاعُدِ بَيْنَهُمْ بِأَنَّ بَاطِنَهُمْ كَانَ مُخَالِفًا لِظَاهِرِهِمْ. وَذَكَرُوا لَهُمْ أَرْبَعَةَ أُصُولٍ هِيَ أَسْبَابُ الْخُسْرَانِ، وَهِيَ: (فِتْنَةُ أَنْفُسِهِمْ / التَّرَبُّصُ بِالْمُؤْمِنِينَ / الْارْتِيَابُ فِي صِدْقِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ / الْاغْتِرَارُ بِمَا تُمَوِّهُ إِلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ). وَهَذِهِ الْأَرْبَعَةُ هِيَ أُصُولُ الْخِصَالِ الْمُتَفَرِّعَةِ عَلَى النِّفَاقِ.

الْأَوَّلُ: فِتْنَتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ، { **وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ** } أَيْ: عَدَمُ قَرَارِ ضَمَائِرِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، فَكَأَنَّ الاضْطِرَابَ وَعَدَمَ الاسْتِقْرَارِ خُلُقٌ لَهُمْ فَإِذَا خَطَرَتْ فِي أَنْفُسِهِمْ خَوَاطِرُ خَيْرٍ مِنْ إِيمَانٍ وَمَحَبَّةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ نَقَضُوهَا بِخَوَاطِرِ الْكُفْرِ وَالْبَغْضَاءِ، وَهَذَا مِنْ صُنْعِ أَنْفُسِهِمْ فَإِسْنَادُ الْفِتَنِ إِلَيْهِمْ إِسْنَادٌ حَقِيقِيٌّ، وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي أَعْمَالِهِمْ مِنْ صَلَاةٍ وَصَدَقَةٍ. وَهَذَا ينشأ عَنهُ الْكَذِبُ، وَالْخِدَاعُ، وَالْاسْتِهْزَاءُ، وَالطَّعْنُ فِي الْمُسْلِمِينَ.

الثَّانِي: التَّرَبُّصُ،{ **وَتَرَبَّصْتُمْ** } التَّرَبُّصُ: انْتِظَارُ شَيْءٍ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ } [الْبَقَرَة:228]. وَيَتَعَدَّى فِعْلُهُ إِلَى الْمَفْعُولِ بِنَفْسِهِ وَيَتَعَلَّقُ بِهِ مَا زَادَ عَلَى الْمَفْعُولِ بِالْبَاءِ. وَحُذِفَ هُنَا مَفْعُولُهُ وَمُتَعَلِّقُهُ لِيَشْمَلَ عِدَّةَ أُمُورٍ يَنْتَظِرُهَا الْمُنَافِقُونَ فِي شَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ، مَرْجِعُهَا إِلَى أَذَى الْمُسلمين وَالْإِضْرَارِ بِهِمْ؛ فَيَتَرَبَّصُونَ هَزِيمَةَ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ تَعَالَى فِي بَعْضِهِمْ { وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ } [التَّوْبَة:98]، وَيَتَرَبَّصُونَ انْقِسَامَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ قَالُوا لِفَرِيقٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يُنَدِّمُونَهُمْ عَلَى مَنْ قُتِلَ مِنْ قَوْمِهِمْ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ { لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا } [آل عمران:168].

الثَّالِثُ: الِارْتِيَابُ، { **وَارْتَبْتُمْ** } فِي الدِّينِ وَهُوَ الشَّكُّ فِي الِاعْتِمَادِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ أَوْ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَيَنْشَأُ عَنْهُ الْقُعُودُ عَنِ الْجِهَادِ، قَالَ تَعَالَى { فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ } [التَّوْبَة:45].

الرَّابِعُ: الْغُرُورُ بِالْأَمَانِيِّ، { **وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ** } وَهِيَ جَمْعُ أُمْنِيَّةٍ وَهِيَ اسْمُ التَّمَنِّي. وَالْمُرَادُ بِهَا مَا كَانُوا يُمَنُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّ انْتِصَارَ الْمُؤْمِنِينَ عَرَضٌ زَائِلٌ، وَأَنَّ الْحَوَادِثَ تَجْرِي عَلَى رَغْبَتِهِمْ

وَهَوَاهُمْ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ { لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ } [المُنَافِقُونَ:8]. وَقَوْلُهُمْ { لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لاتَّبَعْناكُمْ } [آل عمران:167]. وَلِذَلِكَ يَحْسَبُونَ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ.

وَقَدْ بَيَّنْتُ الْخِصَالَ الَّتِي تَتَوَلَّدُ عَلَى النِّفَاقِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فَطَبِّقْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأُصُولَ الْأَرْبَعَةَ وَأَلْحِقْ فُرُوعَ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ.

{ **حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ** } الْمَقْصُودُ مِنَ الْغَايَةِ التَّنْدِيدُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْعَوُوا عَنْ غَيِّهِمْ مَعَ طُولِ مُدَّةِ أَعْمَارِهِمْ وَتَعَاقُبِ السِّنِينَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ لَمْ يَتَدَبَّرُوا فِي الْعَوَاقِبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ } [فاطر:37]. وَإِسْنَاد التَّغْرِير إِلَى الْأَمَانِيِّ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ لِأَنَّ الْأَمَانِيَّ وَالطَّمَعَ فِي حُصُولِهَا سَبَبُ غُرُورِهِمْ وَمَلَابِسُهُ.

مَجِيءُ أَمْرِ اللَّهِ: هُوَ الْمَوْتُ.

وَمِنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْتَبِرَ بِمَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى { وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ }، فَلَا يُمَاطِلُ التَّوْبَةَ.

{ **وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ** } عطَفَ عَلَى جُمْلَةِ { وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ } تَحْقِيرًا لِغُرُورِهِمْ وَأَمَانِيِّهِمْ بِأَنَّهَا مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ لِيَزْدَادُوا حَسْرَةً حِينَئِذٍ.

التَّغْرِيرُ: إِظْهَارُ الضَّارِّ فِي صُورَةِ النَّافِعِ بِتَمْوِيهٍ وَسَفْسَطَةٍ.

الْغَرُورُ: (بِفَتْحِ الْغَيْنِ) مُبَالَغَةٌ فِي الْمُتَّصِفِ بِالتَّغْرِيرِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الشَّيْطَانُ، أَيْ: بِإِلْقَائِهِ خَوَاطِرَ النِّفَاقِ فِي نُفُوسهم بتلوينه فِي لون الْحَقِّ وَإِرْضَاءِ دِينِ الْكُفْرِ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنْ رِضَى اللَّهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ جِنْسُ الْغَارِّينَ، أَيْ: وَغَرَّكُمْ بِاللَّه أئمة الْكُفْرِ وَقَادَةُ النِّفَاقِ.

{ **بِاللَّهِ** } (الْبَاءُ) للسببيّة أَوْ لِلْآلَةِ الْمَجَازِيَّةِ، أَيْ: جَعَلَ الشَّيْطَانُ شَأْنَ اللَّهِ سَبَبًا لِغُرُورِكُمْ، بِأَنْ خَيَّلَ إِلَيْكُمْ أَنَّ الْحِفَاظَ عَلَى الْكُفْرِ مُرْضِيٌّ لِلَّهِ تَعَالَى وَأَنَّ النِّفَاقَ حَافَظْتُمْ بِهِ على دينكُمْ وحفظتم بِهِ نُفُوسَكُمْ وَكَرَامَةَ قَوْمِكُمْ وَاطَّلَعْتُمْ بِهِ عَلَى أَحْوَالِ عَدُوِّكُمْ. وَهَذَا كُلُّهُ مَعْلُومٌ عِنْدَهُمْ قَدْ شَاهَدُوا دَلَائِلَهُ فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فَرَّعُوا لَهُمْ عَلَيْهِ قَوْلَهُمْ { فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ } [15]، قَطْعًا لِطَمَعِهِمْ أَنْ يَكُونُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ كَمَا كَانُوا مَعَهُمْ فِي الْحَيَاة.

{ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[15].

يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ تَتِمَّةِ خِطَابِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُنَافِقِينَ اسْتِمْرَارًا فِي التَّوْبِيخِ وَالتَّنْدِيمِ. وَهَذَا مَا جَرَى عَلَيْهِ الْمُفَسِّرُونَ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا صَادِرًا مِنْ جَانِبِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُنَافِقِينَ تَأْيِيسًا لَهُمْ مِنَ الطَّمَعِ فِي نَوَالِ حَظٍّ مِنْ نُورِ الْمُؤْمِنِينَ.

{ **فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ** } تَذْكِيرُهُمْ بِمَا كَانُوا يُضْمِرُونَهُ فِي الدُّنْيَا حِينَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ رِيَاءً وَتَقِيَّةً. وَهُوَ مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ { وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ } [التَّوْبَة:98].

وَكُنِّيَ بِنَفْيِ أَخْذِ الْفِدْيَةِ عَنْ تَحَقُّقِ جَزَائِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَإِلَّا فَإِنَّهُمْ لَمْ يَبْذُلُوا فِدْيَةً.

{ **وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } عَطْفٌ قُصِدَ مِنْهُ تَعْلِيلُ أَنْ لَا مَحِيصَ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ الْكُفْرِ.

وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا هُمْ وَالْكَافِرُونَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ عِنْدَ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، فَفِيهِ احْتِرَاسٌ مِنْ أَنْ يَتَوَهَّمَ الْكَافِرُونَ الصُّرَحَاءُ مِنْ ضَمِيرِ { لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ } أَنَّ ذَلِكَ حُكْمٌ خَاصٌّ بِالْمُنَافِقِينَ تَعَلُّقًا بِأَقَلِّ طَمَعٍ، فَلَيْسَ ذِكْرُ { وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } مُجَرَّدَ اسْتِطْرَادٍ.

الْمَأْوَى: الْمَكَانُ الَّذِي يُؤْوَى إِلَيْهِ، أَيْ يُصَارُ إِلَيْهِ وَيُرْجَعُ، وَكُنِّيَ بِهِ عَنِ الِاسْتِمْرَارِ وَالْخُلُودِ.

{ **مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ** } تَأْكِيدٌ صَرِيحٌ، أَيْ: تَرْجِعُونَ إِلَيْهَا كَمَا يَرْجِعُ الْمُسْتَنْصِرُ إِلَى مَوْلَاهُ لِيَنْصُرَهُ أَوْ يُفَادِي عَنْهُ، فَاسْتُعِيرَ الْمَوْلَى لِلْمَقَرِّ عَلَى طَرِيقَةِ التَّهَكُّمِ.

وَيَجُوزُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يُجْعَلَ الْمَوْلَى اسْمَ مَكَانِ الْوَلْيِ، وَهُوَ الْقُرْبُ وَالدُّنُوُّ، أَيْ: مَقَرُّكُمْ.

{ **وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } تَذْيِيلٌ يَشْمَلُ جَمِيعَ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ.

{ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ** } [16].

قَدْ عُلِمَ مِنْ صَدْرِ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ سَنَةَ أَرْبَعٍ أَوْ خَمْسٍ مِنَ الْبَعْثَةِ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: " مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ – إِلَى قوله - وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ " إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ ".

{ **لِلَّذِينَ آمَنُوا** } الْمَقْصُود إِمَّا بَعْضٌ مِنْهُمْ، رُبَّمَا كَانُوا مُقَصِّرِينَ عَنْ جُمْهُورِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ فَأَرَادَ اللَّهُ إِيقَاظَ قُلُوبِهِمْ بِهَذَا الْكَلَامِ الْمُجْمَلِ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ وَأَقْوَالِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّعْرِيضِ، مِثْلَ قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: " **مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا** "، وَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ } [آل عمران:154]. وَلَيْسَ مَا قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ مُقْتَضِيًا أَنَّ مِثْلَهُ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَلكنّه يخْشَى أَن يكون مِنْهُمْ حَذَرًا وَحَيْطَةً.

فَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ آمَنُوا الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَا مَنْ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ مُنَافِقُونَ وَلَا كَانَ دَاعٍ إِلَى نِفَاقِ بَعْضِهِمْ. وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: " لَمَّا نَزَلَتْ جَعَلَ بَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَى بعض ونقول: مَا أَحْدَثْنَا؟ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَحْرِيضًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُرَاقَبَةِ ذَلِكَ وَالْحَذَرِ مِنَ التَّقْصِيرِ.

{ **أَلَمْ يَأْنِ** } الْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْإِنْكَارِ، أَيْ: إِنْكَارُ نَفْيِ اقْتِرَابِ وَقْتِ فَاعِلِ الْفِعْلِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ عَلَى النَّفْيِ.

{ **يَأْنِ** } مُشْتَقٌّ مِنِ اسْمٍ جَامِدٍ وَهُوَ **الْإِنَى** (بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِهَا)، أَي: الْوَقْتُ، قَالَ تَعَالَى: { غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ } [الْأَحْزَاب:53]. وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تَفْعَلَ، مِثْلَ مَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ إِسْلَامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ: " أَمَا آنَ لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَنْ تُسْلِمَ ".

وَفِي خَبَرِ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ مِنْ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَجَدَهُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَأَرَادَ أَنْ يُضِيفَهُ وَقَالَ لَهُ: " أَمَا آنَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَعْرِفَ مَنْزِلَهُ ". يُرِيدُ: أَنْ يَعْرِفَ مَنْزِلِي الَّذِي هُوَ كَمَنْزِلِهِ. وَهَذَا تَلَطُّفٌ فِي عَرْضِ الِاسْتِضَافَةِ.

إِلَّا أَنَّ فِعْلَ (**يَأْنِ**) مُشْتَقٌّ مِنَ الْإِنَى وَهُوَ فِعْلٌ مَنْقُوصٌ آخِرَهُ أَلِفٌ، وَفِعْلُ: (**آنَ**) مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَيْنِ وَهُوَ الْحِينُ وَهُوَ فِعْلٌ أَجْوَفُ آخِرَهُ نُونٌ.

{ **أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ** } فَاعِلُ يَأْنِ، وَ**الْخُشُوعُ**: الاستكانة والتذلّل.

{ **لِذِكْرِ اللَّهِ** } مَا يُذَكِّرُهُمْ بِهِ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ هُوَ الصَّلَاةُ. وَاللَّامُ لَامُ الْعِلَّةِ، أَيْ لِأَجْلِ ذِكْرِ اللَّهِ.

وَمَعْنَى الْخُشُوعِ لِأَجْلِهِ: الْخُشُوعُ الْمُسَبَّبُ عَلَى سَمَاعِهِ، وَهُوَ الطَّاعَةُ وَالِامْتِثَالُ .

{ **وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ** } الْقُرْآنُ، قَالَ تَعَالَى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } [الْأَنْفَال:2].

<u>وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْوَصْفَانِ لِلْقُرْآنِ</u> تَشْرِيفًا لَهُ بِأَنَّهُ ذِكْرُ اللَّهِ وَتَعْرِيفًا لِنَفْعِهِ بِأَنَّهُ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ تعالى { وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ } عَطْفُ وَصْفٍ آخَرَ لِلْقُرْآنِ.

{ **وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ** } الـ (لَا) نَافِيَةٌ عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ، وَالتَّقْدِيرُ: أَلَمْ يَأْنِ لَهُمْ أَنْ لَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ. وَالْمَقْصُود التحذير لَا أَنَّهُمْ تَلَبَّسُوا بِذَلِكَ وَلَمْ يَأْنِ لَهُمُ الْإِقْلَاعُ عَنْهُ.

وَالتَّحْذِيرُ مُنْصَبٌّ إِلَى مَا حَدَثَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ بَعْدَ طُولِ الْأَمَدِ عَلَيْهِمْ فِي مُزَاوَلَةِ دِينِهِمْ.

أَيْ: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُمْ عَلَى حَدَثَانِ عَهْدِهِمْ بِالدِّينِ. وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ عُذْرَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِطُولِ الْأَمَدِ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ طُولَ الْأَمَدِ لَا يَكُونُ سَبَبًا فِي التَّفْرِيط فِيمَا طَال فِيهِ الْأَمَدُ بَلِ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ.

<u>وَيَجُوزُ أَنْ تَجْعَلَ (لَا) حَرْفَ نَهْيٍ</u>، أَي: أَبْلِغْهُمْ أَنْ لَا يَكُونُوا.

{ **فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ** } الـ (فَاءُ) لِتَفْرِيعِ طُولِ الْأَمَدِ عَلَى قَسْوَةِ الْقُلُوبِ مِنْ عَدَمِ الْخُشُوعِ، فَهَذَا التَّفْرِيعُ خَارِجٌ عَنِ التَّشْبِيهِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تعالى { كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ }، وَلَكِنَّهُ تَنْبِيهٌ عَلَى عَاقِبَةِ ذَلِكَ التَّشْبِيهِ تَحْذِيرًا مِنْ أَنْ يُصِيبَهُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ.

الْأَمَدُ: الْغَايَةُ مِنْ مَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا: الْمُدَّةُ الَّتِي أوصاهم الله بِأَنْ يُحَافِظُوا عَلَى اتِّبَاعِ شَرَائِعِهِمْ فِيهَا، الْمُغَيَّاةُ بِمَجِيءِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُبَشَّرِ فِي الشَّرَائِعِ، قال تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْناكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ } [آل عمران:81].

<u>وَالْمَعْنَى</u>: أَنَّهُمْ نَسُوا مَا أُوصُوا بِهِ فَخَالَفُوا أَحْكَامَ شَرَائِعِهِمْ وَلَمْ يَخَافُوا عِقَابَ اللَّهِ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا، وَصَارَ دَيْدَنًا لَهُمْ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ،

أَيْ: تَمَرَّدَتْ عَلَى الِاجْتِرَاءِ عَلَى تَغْيِيرِ أَحْكَامِ الدِّينِ.

{ **وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ** } اعْتِرَاضٌ فِي آخِرِ الْكَلَامِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ تَجَاوَزُوا ذَلِكَ الْحَدَّ مِنْ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ فَنَبَذُوا دِينَهُمْ وَبَدَّلُوا كِتَابَهُمْ وَحَرَّفُوهُ وَأَفْسَدُوا عَقَائِدَهُمْ فَبَلَغُوا حَدَّ الْكُفْرِ. فَالْفِسْقُ هَنَا مُرَادٌ بِهِ الْكُفْرُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ } [الْمَائِدَة:59].

{ **فَقَسَتْ / فاسِقُونَ** } بَيْنَهُمَا مُحَسِّنُ الْجِنَاسِ. وَهَذَا النَّوْعُ فِيهِ مُرَكَّبٌ مِمَّا يُسَمَّى جِنَاسُ الْقَلْبِ وَمَا يُسَمَّى الْجِنَاسُ النَّاقِصُ، وَقَدِ اجْتَمَعَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

{ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [17].

{ **اعْلَمُوا** } افْتِتَاحُ الْكَلَامِ بِهذا الأمر وَنَحْوِهِ يُؤْذِنُ بِأَنَّ مَا سَيُلْقَى جَدِيرٌ بِتَوَجُّهِ الذِّهْنِ بِشَرَاشِرِهِ إِلَيْهِ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ } [الْبَقَرَة:235]، وَقَوْلِهِ تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ } [الْأَنْفَال:41]. وَهُوَ هُنَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي بَعْدَهُ مَغْزًى عَظِيمٌ غَيْرُ ظَاهِرٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أُرِيدَ بِهِ تَمْثِيلُ حَالِ احْتِيَاجِ الْقُلُوبِ الْمُؤْمِنَةِ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ بِحَالِ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ فِي الْحَاجَةِ إِلَى الْمَطَرِ، وَحَالِ الذِّكْرِ فِي تَزْكِيَةِ النُّفُوسِ وَاسْتِنَارَتِهَا بِحَالِ الْغَيْثِ فِي إِحْيَاءِ الْأَرْضِ الْجَدْبَةِ. وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدَهُ { قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }، وَإِلَّا فَإِنَّ إِحْيَاءَ اللَّهِ الْأَرْضَ بِمَا يُصِيبُهَا مِنَ الْمَطَرِ لَا خَفَاءَ فِيهَا فَلَا يَقْتَضِي أَنْ يُفْتَتَحَ الْإِخْبَارُ عَنْهُ بِمِثْلِ { اعْلَمُوا }، وَنَظِيرُهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ، وَقَدْ رَآهُ لَطَمَ وَجْهَ عَبْدٍ لَهُ: " اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا ".

فَالْجُمْلَةُ بِمَنْزِلَةِ التَّعْلِيلِ لِجُمْلَةِ { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ - فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ } [16]، لِمَا تَتَضَمَّنُهُ تِلْكَ مِنَ التَّحْرِيضِ عَلَى الْخُشُوعِ لِذِكْرِ اللَّهِ، وَلَكِنْ هَذِهِ بِمَنْزِلَةِ الْعِلَّةِ فُصِلَتْ وَلَمْ تُعْطَفْ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ مِمَّا نَزَلَ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ }.

وَالْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ إِقْبَالًا عَلَيْهِمْ لِلِاهْتِمَامِ.

{ **أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها** } اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ مُصرَّحَةٌ وَيَتَضَمَّنُ تَمْثِيلِيَّةً مَكْنِيَّةً بِسَبَبِ تَضَمُّنِهِ تَشْبِيهَ حَالِ ذِكْرِ اللَّهِ وَالْقُرْآنِ فِي إِصْلَاحِ الْقُلُوبِ بِحَالِ الْمَطَرِ فِي إِصْلَاحِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ جَدْبِهَا. وَطُوِيَ ذِكْرُ الْحَالَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا وَرُمِزَ إِلَيْهَا بِلَازِمِهَا وَهُوَ إِسْنَادُ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ، لِأَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِسَبَبِ الْمَطَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها } [النَّحْل:65].

وَالْمَقْصُودُ الْإِرْشَادُ إِلَى وَسِيلَةِ الْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ وَالْحَثِّ عَلَى تَعَهُّدِ النَّفْسِ بِالْمَوْعِظَةِ، وَالتَّذْكِيرُ بِالْإِقْبَالِ عَلَى الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ وَكَلَامِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَعْلِيمِهِ، وَأَنَّ فِي اللَّجَأِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَجَاةً، وَفِي الْمَفْزَعِ إِلَيْهِمَا عِصْمَةً، وَقَدْ قَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " **تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي** ". وَقَالَ صلى الله عليه وسلّم: " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبَ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ لِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ".

{ **قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ لِجُمْلَةِ أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها لِأَنَّ السَّامِعَ قَوْلَهُ تعالى { اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها } يَتَطَلَّبُ مَعْرِفَةَ الْغَرَضِ مِنْ هَذَا الْإِعْلَامِ، فَيَكُونُ الْقَوْلُ جَوَابًا عَنْ تَطَلُّبِهِ، أَيْ: أَعْلَمْنَاكُمْ بِهَذَا تَبْيِينًا لِلْآيَاتِ.

وَيُفِيدُ بِعُمُومِهِ مُفَادَ التَّذْيِيلِ لِلْآيَاتِ السَّابِقَةِ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ مَكِّيِّهَا وَمَدَنِيِّهَا.

الْآيَاتُ: الدَّلَائِلُ. وَالْمُرَادُ بِهَا: مَا يَشْمَلُ مَضْمُونَ قَوْلِهِ تعالى { وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ - إِلَى قَوْلِهِ - بَعْدَ مَوْتِها } [17/16]، وَهُوَ مَحَلُّ ضَرْبِ الْمَثَلِ لِأَنَّ التَّنْظِيرَ بِحَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ ضَرْبٌ مِنَ التَّمْثِيلِ.

<u>وَبَيَانُ الْآيَاتِ يَحْصُلُ</u> مِنْ فَصَاحَةِ الْكَلَامِ وَبَلَاغَتِهِ وَوَفْرَةِ مَعَانِيهِ وَتَوْضِيحِهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ حَاصِلٌ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ كَمَا عَلِمْتَ آنِفًا. وَمِنْ أَوْضَحِ الْبَيَانِ التَّنْظِيرُ بِأَحْوَالِ الْمُشَابِهِينَ فِي حَالَةِ التَّحْذِيرِ أَوِ التَّحْضِيضِ.

{ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } رَجَاءٌ وَتَعْلِيلٌ، أَيْ: بَيَّنَا لَكُمْ لِأَنَّ حَالَكُمْ كَحَالِ مَنْ يُرْجَى فَهْمُهُ، وَالْبَيَانُ عِلَّةٌ لِفَهْمِهِ.

{ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ } [18].

<u>يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْمَدَنِيِّ</u> وَأَنْ تَكُونَ مُتَّصِلَةَ الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ } [11]، وَأَنَّ آيَةَ { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا } [16] وَمَا بَعْدَهَا مُعْتَرِضٌ.

وَقَدْ تَخَلَّلَ الْمَكِّيُّ وَالْمَدَنِيُّ كُلٌّ مَعَ الْآخَرِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّ أَلْفَاظَ الْآيَتَيْنِ مُتَمَاثِلَةٌ إِذْ أُرِيدَ أَنْ يُعَادَ مَا سَبَقَ مِنَ التَّحْرِيضِ عَلَى الْإِنْفَاقِ فَيُؤْتَى بِهِ فِي صُورَةِ الصِّلَةِ الَّتِي عُرِفَ بِهَا الْمُمْتَثِلُونَ لِذَلِكَ التَّحْرِيضِ.

{ **وَالْمُصَّدِّقاتِ** } العَطْفُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ } [12].

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ بِتَشْدِيدِ الصَّادِ عَلَى أَنَّ أَصْلَهُ الْمُتَصَدِّقِينَ فَأُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الصَّادِ بَعْدَ قَلْبِهَا صَادًا لِقُرْبِ مَخْرَجَيْهِمَا تَطَلُّبًا لِخِفَّةِ الْإِدْغَامِ.

{ **وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً** } مِنْ عَطْفِ الْمُرَادِفِ فِي الْمَعْنَى لِمَا فِي الْمَعْطُوفِ مِنْ تَشْبِيهِ فِعْلِهِمْ بِقَرْضٍ لِلَّهِ، تَنْوِيهًا بِالصَّدَقَاتِ.

{ **يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ** } تَقَدَّمَ المَعْنَى فِي قَوْلِهِ تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ } [11].

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ** } [19].

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ** } لَمَّا ذُكِرَ فَضْلُ الْمُتَصَدِّقِينَ، وَكَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا مَالَ لَهُ لِيَتَصَدَّقَ مِنْهُ، أُعْقِبَ ذِكْرُ الْمُتَصَدِّقِينَ بِبَيَانِ فَضْلِ الْمُؤْمِنِينَ مُطْلَقًا، وَهُوَ شَامِلٌ لِمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَصَدَّقَ وَمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ، عَلَى نَحْوِ التَّذْكِيرِ الْمُتَقَدِّمِ آنِفًا فِي قَوْلِهِ تعالى { وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى } [10].

وَفِي الْحَدِيثِ: " إِنَّ قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ وَلَا أَمْوَالَ لنا، فَقَالَ: **أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ، إِنَّ لَكُمْ فِي كُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةً، وَنَهْيٍ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةً** ".

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا** } يَعُمُّ كُلَّ مَنْ ثَبَتَ لَهُ مَضْمُونُ هَذِهِ الصِّلَةِ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا.

{ **وَرُسُلِهِ** } وَفِي الجَمْعِ تَعْرِيضٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ. فَالْيَهُودُ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِمُوسَى، وَكَفَرُوا بِعِيسَى وَبِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالنَّصَارَى آمَنُوا بِاللَّهِ وَكَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمُؤْمِنُونَ آمَنُوا بِرُسُلِ اللَّهِ كُلِّهِمْ، وَلِذَلِكَ وُصِفُوا بِأَنَّهُمُ الصِّدِّيقُونَ.

{ **أُولئِكَ** } اسْمُ الْإِشَارَةِ لِلتَّنْوِيهِ بِشَأْنِهِمْ وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِمُ اسْتَحَقُّوا مَا يَرِدُ بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ مِنْ أَجْلِ الصِّفَاتِ الَّتِي قَبْلَهُ.

الصِّدِّيقُ: (بِتَشْدِيدِ الدَّالِ) مُبَالَغَةٌ فِي الْمُصَدِّقِ مِثْلَ الْمَسِّيكِ لِلشَّحِيحِ، أَيْ كَثِيرُ الْإِمْسَاكِ لِمَالِهِ. وَإِنَّمَا وُصِفُوا بِأَنَّهُمْ صِدِّيقُونَ لِأَنَّهُمْ صَدَّقُوا جَمِيعَ الرُّسُلِ الْحَقِّ وَلَمْ تَمْنَعْهُمْ عَنْ ذَلِكَ عَصَبِيَّةٌ وَلَا عِنَادٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ وَصْفُ يُوسُفَ بِالصِّدِّيقِ في [يوسف:46]، وَوُصِفَتْ مَرْيَمُ بِالصِّدِّيقَةِ فِي [المائدة:75].

{ **هُمُ الصِّدِّيقُونَ** } ضَمِيرُ الْفَصْلِ لِلْقَصْرِ وَهُوَ قَصْرٌ إِضَافِيٌّ، أَيْ: هُمُ الصِّدِّيقُونَ لَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بَعْضَ الرُّسُلِ، وَهَذَا إِبْطَالٌ لِأَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْكِتَابِ صِدِّيقِينَ لِأَنَّ تَصْدِيقَهُمْ رَسُولَهُمْ لَا جَدْوَى لَهُ إِذْ لَمْ يُصَدِّقُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

{ **وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** } يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَطْفًا عَلَى { الصِّدِّيقُونَ } عَطَفَ الْمُفْرَدَ عَلَى الْمُفْرَدِ، فَهُوَ عَطْفٌ عَلَى الْخَبَرِ، أَيْ: وَهُمُ الشُّهَدَاءُ. وَحُكِيَ هَذَا التَّأْوِيلُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَمُجَاهِدٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ

وَجَمَاعَةٍ. فَقِيلَ: مَعْنَى كَوْنِهِمْ شُهَدَاءَ: أَنَّهُمْ شُهَدَاءُ عَلَى الْأُمَمِ يَوْمَ الْجَزَاءِ، قَالَ تَعَالَى { وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ} [الْبَقَرَة: ١٤٣]، فَالشَّهَادَةُ تَكُونُ بِمَعْنَى الْخَبَرِ بِمَا يُثْبِتُ حَقًّا يُجَازَى عَلَيْهِ.

وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَنَّ مُؤْمِنِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَشُهَدَاءِ الْأُمَمِ، أَيْ: كَقَتْلَاهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرُوِيَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَتَكُونُ جُمْلَةُ { عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ } اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا نَشَأَ عَنْ وَصْفِهِمْ بِتَيْنِكَ الصِّفَتَيْنِ، فَإِنَّ السَّامِعَ يَتَرَقَّبُ مَا هُوَ نَوَالُهُمْ مِنْ هَذَيْنِ الْفَضْلَيْنِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ { وَالشُّهَدَاءُ } مُبْتَدَأً وَجُمْلَةُ { عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ } خَبَرٌ عَنْهُ، وَيَكُونُ الْعَطْفُ مِنْ عَطْفِ الْجُمَلِ، فَيُوقَفُ عَلَى قَوْلِهِ تعالى { الصِّدِّيقُونَ }. وَحُكِيَ هَذَا التَّأْوِيلُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٍ وَالضَّحَّاكِ، فَيَكُونُ انْتِقَالًا مِنْ وَصْفِ مَزِيَّةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى وَصْفِ مَزِيَّةِ فَرِيقٍ مِنْهُمُ اسْتَأْثَرُوا بِفَضِيلَةِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَهَذَا مِنْ تَتِمَّةِ قَوْلِهِ { وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [10]، فَإِنَّهُ لَمَّا نَوَّهَ بِوَعْدِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقِينَ الْمَعْفِيِّينَ مِنْ قَوْلِهِ تعالى { وَما لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ } [8]، فَأَوْفَاهُمْ حَقَّهُمْ بِقَوْلِهِ { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ } أَقْبَلَ عَلَى وَعْدِ الشُّهَدَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الَّذِينَ تَضَمَّنَ ذِكْرَهُمْ قَوْلُهُ { وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [10]، فَالشُّهَدَاءُ إِذَنْ هُمُ الْمَقْتُولُونَ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَالْمَعْنَيَانِ مِنَ الشُّهَدَاءِ مُمْكِنٌ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا فَتُحْمَلُ الْآيَةُ عَلَى إِرَادَتِهِمَا عَلَى طَرِيقَةِ اسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْهِ. وَقَدْ قَرَّرْنَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ أَنَّهُ جَرَى اسْتِعْمَالُ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ.

{ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** } الْعِنْدِيَّةُ مَجَازِيَّةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْعِنَايَةِ وَالْحُظْوَةِ.

{ **لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** } الضميران يَعُودَانِ إِلَى الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ أَوْ إِلَى الشُّهَدَاءِ فَقَطْ عَلَى اخْتِلَافِ الْوَجْهَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ آنِفًا فِي الْعَطْفِ.

وَإِذْ قَدْ كَانَ مُقْتَضَى الْإِضَافَةِ أَنْ تُفِيدَ تَعْرِيفَ الْمُضَافِ بِنِسْبَتِهِ إِلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ وَكَانَ الْأَجْرُ وَالنُّورُ غَيْرَ مَعْلُومَيْنِ لِلسَّامِعِ كَانَ فِي الْكَلَامِ إِبْهَامٌ يُكَنَّى بِهِ عَنْ أَجْرٍ وَنُورٍ عَظِيمَيْنِ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ التَّنْوِيهِ بِذَلِكَ الْأَجْرِ وَذَلِكَ النُّورِ، أَيْ: أَجْرًا وَنُورًا لَائِقَيْنِ بِمَقَامٍ، مَعَ ضَمِيمَةِ مَا أَفَادَتْهُ الْعِنْدِيَّةُ الَّتِي فِي قَوْلِهِ تعالى { عِنْدَ رَبِّهِمْ } مِنْ مَعْنَى الزُّلْفَى وَالْعِنَايَةِ بِهِمُ الْمُفِيدُ عَظِيمَ الْأَجْرِ وَالنُّورِ.

{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ** } تَتْمِيمٌ اقْتَضَاهُ ذِكْرُ أَهْلِ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ وَالتَّنْوِيهِ بِهِمْ، فَأَتْبَعَ ذَلِكَ بِوَصْفِ أَضْدَادِهِمْ، لِأَنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ التَّنْوِيهَ بِهِمْ بِأَنَّ إِيمَانَهُمْ أَنْجَاهُمْ مِنَ الْجَحِيمِ.

وَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَكَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ مَا يَشْمَلُ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودَ وَالنَّصَارَى عَلَى تَفَاوُتٍ بَيْنَهُمْ فِي دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ؛ فَالْمُشْرِكُونَ اسْتَحَقُّوا الْجَحِيمَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِ كُفْرِهِمْ، وَالْيَهُودُ اسْتَحَقُّوهُ مِنْ يَوْمِ كَذَّبُوا عِيسَى

عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالنَّصَارَى اسْتَحَقَّهُ بَعْضُهُمْ حِينَ أَثْبَتُوا لِلَّهِ ابْنًا وَبَعْضُهُمْ مِنْ حِينِ تَكْذِيبِهِمْ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَمْ يُؤْتَ فِي خَبَرِهِمْ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ إِذْ لَا يُظَنُّ أَنَّ غَيْرَهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ.

{ **أَصْحابُ الْجَحِيمِ** } هذاالتَّعْبِيرُ للدَلَالَةِ عَلَى شِدَّةِ مُلَازَمَتِهِمْ لِلْجَحِيمِ.

{ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } [20].

{ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ** } أُعْقِبَ التَّحْرِيضُ عَلَى الصَّدَقَاتِ وَالْإِنْفَاقِ بِالْإِشَارَةِ إِلَى دَحْضِ سَبَبِ الشُّحِّ أَنَّهُ الْحِرْصُ عَلَى اسْتِبْقَاءِ الْمَالِ لِإِنْفَاقِهِ فِي لَذَائِذِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَضُرِبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِحَالٍ مُحَقَّرَةٍ عَلَى أَنَّهَا زَائِلَةٌ تَحْقِيرًا لِحَاصِلِهَا وَتَزْهِيدًا فِيهَا لِأَنَّ التَّعَلُّقَ بِهَا يَعُوقُ عَنِ الْفَلَاحِ، قَالَ تَعَالَى { وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الْحَشْر:9]، وَقَالَ تعالى { وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } [النِّسَاء:128].

كُلُّ ذَلِكَ فِي سِيَاقِ الْحَثِّ عَلَى الْإِنْفَاقِ الْوَاجِبِ وَغَيْرِهِ، وَأُشِيرَ إِلَى أَنَّهَا يَنْبَغِي أَنْ تُتَّخَذَ الْحَيَاةُ وَسِيلَةً لِلنَّعِيمِ الدَّائِمِ فِي الْآخِرَةِ، وَوِقَايَةً مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْحَيَاةِ فَهُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ.

{ **اعْلَمُوا** } افْتِتَاحُ الكلام بهَذِهِ العبارة لِلْوَجْهِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ آنِفًا فِي قَوْلِهِ { اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ } [17].

{ **أَنَّمَا** } أُخْتُ (إِنَّمَا) الْمَكْسُورَةِ الْهَمْزَةِ فِي إِفَادَةِ الْحَصْرِ، وَحَصْرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَخْبَارِ الْجَارِيَةِ عَلَيْهَا هُوَ قَصْرُ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ بِاعْتِبَارِ غَالِبِ النَّاسِ، فَهُوَ قَصْرٌ ادِّعَائِيٌّ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْحَيَاةَ قَدْ يَكُونُ فِيهَا أَعْمَالُ التُّقَى وَالْمَنَافِعِ وَالْإِحْسَانِ وَالتَّأْيِيدِ لِلْحَقِّ وَتَعْلِيمِ الْفَضَائِلِ.

<u>وَهِيَ أُصُولُ أَحْوَالِ الْمُجْتَمَعِ فِي الْحَيَاةِ، وَهِيَ أَيْضًا أُصُولُ أَطْوَارِ آحَادِ النَّاسِ فِي تَطَوُّرِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ؛</u> فَإِنَّ اللَّعِبَ طَوْرُ سِنِّ الطُّفُولَةِ وَالصِّبَا، وَاللَّهْوَ طَوْرُ الشَّبَابِ، وَالزِّينَةَ طَوْرُ الْفُتُوَّةِ، وَالتَّفَاخُرَ طَوْرُ الْكُهُولَةِ، وَالتَّكَاثُرَ طَوْرُ الشَّيْخُوخَةِ.

اللَّعِبُ: اسْمٌ لِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يُرَاد بِهِ المزح وَالْهَزْل لِتَمْضِيَةِ الْوَقْتِ أَوْ إِزَالَةِ وَحْشَةِ الْوَحْدَةِ، أَوْ لِجَلْبِ فَرَحٍ وَمَسَرَّةٍ لِلنَّفْسِ، أَوْ يَجْلِبُ مِثْلَ ذَلِكَ لِلْحَبِيبِ، أَوْ يَجْلِبُ ضِدَّهُ لِلْبَغِيضِ. وَاللَّعِبُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى أَعْمَالِ الْأَطْفَالِ وَالصِّبْيَانِ فَطَوْرُ الطُّفُولَةِ طَوْرُ اللَّعِبِ، وَيَتَفَاوَتُ غَيْرُهُمْ فِي الْإِتْيَانِ مِنْهُ فَيَقِلُّ وَيَكْثُرُ بِحَسْبِ تَفَاوُتِ النَّاسِ رَجَاحَةِ الْعُقُولِ وَضَعْفِهَا. وَالْإِفْرَاطُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ أَصْحَابِ طَوْرِهِ يُؤْذِنُ بِخِسَّةِ الْعَقْلِ.

اللَّهْوُ: اسْمٌ لِفِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ يُقْصَدُ مِنْهُ الْتِذَاذُ النَّفْسِ بِهِ وَصَرْفُهَا عَنْ أَلَمٍ حَاصِلٍ مِنْ تَعَبِ الْجَسَدِ أَوِ الْحُزْنِ أَوِ الْكَمَدِ، يُقَالُ: لَهَا عَنِ الشَّيْءِ، أَيْ تَشَاغَلَ عَنْهُ. وَيَغْلِبُ اللَّهْوُ عَلَى أَحْوَالِ الشَّبَابِ فَطَوْرُ الشَّبَابِ طَوْرُهُ.

الزِّينَةُ: تَحْسِينُ الذَّاتِ أَوِ الْمَكَانِ بِمَا يَجْعَلُ وَقْعَهُ عِنْدَ نَاظِرِهِ مُسِرًّا لَهُ، وَفِي طِبَاعِ النَّاسِ الرَّغْبَةُ فِي أَنْ تَكُونَ مَنَاظِرُهُمْ حَسَنَةً فِي عَيْنِ نَاظِرِيهِمْ، وَذَلِكَ فِي طِبَاعِ النِّسَاءِ أَشَدُّ.

وَيَكْثُرُ التَّزَيُّنُ فِي طَوْرِ الْفُتُوَّةِ لِأَنَّ الرَّجُلَ يَشْعُرُ بِابْتِدَاءِ زَوَالِ مَحَاسِنِ شَبَابِهِ، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي كَانَتْ غَانِيَةً تُحِبُّ أَنْ تَكُونَ حَالِيَةً، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَجْلِ تَعَرُّضِهَا لِلرِّجَالِ كَمَا يَتَوَهَّمُهُ الرِّجَالُ فِيهِنَّ، غُرُورًا بِأَنْفُسِهِمْ، بَلْ ذَلِكَ لِتَكُونَ حَسَنَةً فِي النَّاسِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

وَيَغْلِبُ التَّزَيُّنُ عَلَى أَحْوَالِ الْحَيَاةِ فَإِنَّ مُعْظَمَ الْمَسَاكِنِ وَالْمَلَابِسِ يُرَادُ مِنْهُ الزِّينَةُ، وَهِيَ ذَاتِيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ، وَمِنَ الْمعْنَوِيَّةِ <u>مَا يُسَمَّى فِي أُصُولِ الْفِقْهِ بِالتَّحْسِينِيِّ</u>.

التَّفَاخُرُ: الْكَلَامُ الَّذِي يُفْخَرُ بِهِ، وَالْفَخْرُ: حَدِيثُ الْمَرْءِ عَنْ مَحَامِدِهِ وَالصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ مِنْهَا فِيهِ بِالْحَقِّ أَوِ الْبَاطِلِ. وَصِيغَ مِنْهُ زنة التفاعل لِأَنَّ شَأْنَ الْفَخْرِ أَنْ يَقَعَ بَيْنَ جَانِبَيْنِ كَمَا أَنْبَأَ بِهِ تَقْيِيدُهُ بِظَرْفِ { بَيْنَكُمْ }.

وَالنَّاسُ يَتَفَاخَرُونَ بِالصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ فِي عُصُورِهِمْ وَأَجْيَالِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ، فَمِنَ الصِّفَاتِ مَا الْفَخْرُ بِهِ غير بَاطِل. وَهُوَ الصِّفَاتُ الَّتِي حَقَائِقُهَا مَحْمُودَةٌ فِي الْعَقْلِ أَوِ الشَّرْعِ. وَمِنْهَا مَا الْفَخْرُ بِهِ بَاطِلٌ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَعْمَالِ الَّتِي اصْطَلَحَ قَوْمٌ عَلَى التَّمَدُّحِ بِهَا وَلَيْسَتْ حَقِيقَةً بِالْمَدْحِ مِثْلَ التَّفَاخُرِ بِالْإِغْلَاءِ فِي ثَمَنِ الْخُمُورِ وَفِي الْمَيْسِرِ وَالزِّنَى وَالْفَخْرِ بِقَتْلِ النُّفُوسِ وَالْغَارَةِ عَلَى الْأَمْوَالِ فِي غَيْرِ حَقٍّ.

وَأَغْلَبُ التَّفَاخُرِ فِي طَوْرِ الْكُهُولَةِ وَاكْتِمَالِ الْأَشُدِّ لِأَنَّهُ زَمَنُ الْإِقْبَالِ عَلَى الْأَفْعَالِ الَّتِي يُقْصَدُ مِنْهَا الْفخر.

التَّكَاثُرُ: تَفَاعُلٌ مِنَ الْكَثْرَةِ، وَصِيغَةُ التَّفَاعُلِ هُنَا لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْفِعْلِ بِحَيْثُ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ مَنْ يُغَالِبُ غَيْرَهُ فِي كَثْرَةِ شَيْءٍ، ثُمَّ شَاعَ إِطْلَاقُ صِيغَةِ التَّكَاثُرِ فَصَارَتْ تُسْتَعْمَلُ فِي الْحِرْصِ عَلَى تَحْصِيلِ الْكَثِيرِ مِنْ غَيْرِ مُرَاعَاةِ مُغَالَبَةِ الْغَيْرِ مِمَّنْ حَصَلَ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى { أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ } [التَّكَاثُرُ:1].

{ **فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ** } (فِي) هنا، إِمَّا مُسْتَعْمَلَةٌ فِي التَّعْلِيلِ، وَإِمَّا هِيَ الظَّرْفِيَّةُ الْمَجَازِيَّةُ.

{ **كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً** } <u>يَجُوزُ</u> أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ خَبَرٍ مِنْ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: هِيَ كَمَثَلِ غَيْثٍ، فَتَكُونُ الْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافًا، وَحَذْفُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ مِنَ النَّوْعِ الَّذِي سَمَّاهُ السَّكَّاكِيُّ " مُتَابَعَةَ الِاسْتِعْمَالِ ".

<u>وَيَجُوزُ</u> أَنْ يَكُونَ (الْكَافُ) فِي مَوْضِعِ الْحَالِ و{ كَمَثَلِ } مَعْنَاهُ: كَحَالِ، أَيْ: حَالُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَحَالِ غَيْثٍ ...، فَشُبِّهَتْ هَيْئَةُ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي أَحْوَالِهِمُ الْغَالِبَةِ عَلَيْهِمْ وَالْمُشَارِ إِلَى تَنْوِيعِهَا بِهَيْئَةِ غَيْثٍ أَنْبَتَ زَرْعًا فَأَيْنَعَ ثُمَّ اصْفَرَّ ثُمَّ اضْمَحَلَّ وَتَحَطَّمَ. <u>وَالْمَقْصُودُ بِالتَّمْثِيلِ هُوَ النَّبَاتُ</u>، وَإِنَّمَا ابتدئ بـ { غَيْثٍ } تصويرا لِلْهَيْئَةِ مِنْ مَبَادِئِهَا لِإِظْهَارِ مَوَاقِعِ الْحُسْنِ فِيهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ يَكْتَسِبُ مِنْهُ الْمُشَبَّهُ حُسْنًا.

{ **أَعْجَبَ الْكُفَّارَ** } عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: " أَنَّ الْكُفَّارَ: الزُّرَّاعُ "، جَمْعُ كَافِرٍ وَهُوَ الزَّارِعُ لِأَنَّهُ يَكْفُرُ الزَّرِيعَةَ بِتُرَابِ الْأَرْضِ، وَالْكَفْرُ بِفَتْحِ الْكَافِ السَّتْرُ، أَيْ: سَتْرُ الزَّرِيعَةِ، وَإِنَّمَا أُوثِرَ هَذَا الِاسْمُ هُنَا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى { يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ } [الْفَتْحِ:29]، قَصْدًا لِلتَّوْرِيَةِ بِالْكُفَّارِ الَّذِينَ هُمُ الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ إِعْجَابًا بِمَتَاعِ الدُّنْيَا إِذْ لَا أَمَلَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ بَعْدَهُ.

وَقَالَ جَمْعٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: الْكُفَّارُ جَمْعُ الْكَافِرِ بِاللَّهِ لِأَنَّهُمْ قَصَرُوا إِعْجَابَهُمْ عَلَى الْأَعْمَالِ ذَاتِ الْغَايَاتِ الدُّنْيَا دُونَ الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ، فَذِكْرُ الْكُفَّارِ تَلْوِيحٌ إِلَى أَنَّ الْمَثَلَ مَسُوقٌ إِلَى جَانِبِهِمْ أَوَّلًا.

النَّبَاتُ: اسْمُ مَصْدَرِ نَبَتَ، قَالَ تَعَالَى { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتًا } [نوح:17]، وَهُوَ هُنَا أُطْلِقَ عَلَى النَّابِتِ مِنْ إِطْلَاقِ الْمَصْدَرِ عَلَى الْفَاعِلِ وَهُوَ كَثِيرٌ، وَأَصْلُهُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْمُبَالَغَةُ، وَقَدْ يَشِيعُ فَيَزُولُ قَصْدُ الْمُبَالَغَةِ بِهِ.

{ **ثُمَّ يَهِيجُ** } تَضَافَرَتْ كَلِمَاتُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى تَفْسِيرِ يَهِيجُ بِـ (يَيْبَسُ) أَوْ يَجِفُّ، وَلَمْ يَسْتَظْهِرُوا بِشَاهِدٍ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِنْ مَعَانِي الْهِيَاجِ الْجَفَافَ. وَقَدْ قَالَ الرَّاغِبُ: " يُقَالُ: هَاجَ الْبَقْلُ، إِذَا اصْفَرَّ وَطَابَ "، وَفِي الْأَسَاس للزمخشري: " مِنَ الْمَجَازِ هَاجَ الْبَقْلُ، إِذَا أَخَذَ فِي الْيُبْسِ.

فَالْوَجْهُ أَنَّ الْهِيَاجَ: الْغِلَظُ وَمُقَارَبَةُ الْيُبْسِ، لِأَنَّ مَادَّةَ الْهِيَاجِ تَدُلُّ عَلَى الِاضْطِرَابِ وَالثَّوَرَانِ وَسُمِّيَتِ الْحَرْبُ الْهَيْجَاءُ. وَالزَّرْعُ إِذَا غَلُظَ يَكُونُ لِحَرَكَتِهِ صَوْتٌ فَكَأَنَّهُ هَائِجٌ، أَيْ: ثَائِرٌ، وَذَلِكَ ابْتِدَاءُ جَفَافِهِ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى { كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ } [الْفَتْحِ:29].

{ **ثُمَّ يَهِيجُ** } عُطِفَتْ جُمْلَةُ يَهِيجُ بِـ (ثُمَّ) لِإِفَادَةِ التَّرَاخِي الرُّتَبِي لِأَنَّ اصْفِرَارَ النَّبَاتِ أَعْظَمُ دَلَالَةٍ عَلَى التَّهَيُّؤِ لِلزَّوَالِ، وَهَذَا هُوَ الْأَهَمُّ فِي مَقَامِ التَّزْهِيدِ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا.

{ **فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا** } وَعُطِفَت هذه بِـ (الْفَاءِ) لِأَنَّ اصْفِرَارَ النَّبْتِ مُقَارِبٌ لِيُبْسِهِ.

{ **ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً** } هذه كَعَطْفِ { ثُمَّ يَهِيجُ }.

الْحُطَامُ: (بِضَمِّ الْحَاءِ) مَا حُطِّمَ، أَيْ: كُسِّرَ قِطَعًا.

وَهَذَا التَّمْثِيلُ مَعَ كَوْنِهِ تَشْبِيهُ هَيْئَةٍ مُرَكَّبَةٍ بِهَيْئَةٍ مِثْلِهَا هُوَ صَالِحٌ لِلتَّفْرِيقِ وَمُقَابَلَةُ أَجْزَاءِ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهَةِ بِأَجْزَاءِ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا؛ فَيُشَبَّهُ أَوَّلُ أَطْوَارِ الْحَيَاةِ وَإِقْبَالِهَا بِالنَّبَاتِ عَقِبَ الْمَطَرِ، ويُشَبَّهُ النَّاسُ المنتفعون بِإِقْبَالِ الدُّنْيَا بِنَاسٍ زُرَّاعٍ، وَيُشَبَّهُ اكْتِمَالُ أَحْوَالِ الْحَيَاةِ وَقُوَّةَ الْكُهُولَةِ بِهِيَاجِ الزَّرْعِ، ويُشَبَّه ابْتِدَاءُ الشيخوخة ثُمَّ الْهَرَمِ بِاصْفِرَارِ الزَّرْعِ وَتَهَيُّئِهِ لِلْفَنَاءِ، وَيُشَبَّهُ زَوَالُ مَا كَانَ لِلْمَرْءِ مِنْ قُوَّةٍ وَمَالٍ بِتَحَطُّمِ الزَّرْعِ.

{ **وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ** }.

كَانَ ذِكْرُ حَالِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُقْتَضِيًا ذِكْرَ مُقَابِلِهِ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ، وَالْخَبَرُ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّحْذِيرِ وَالتَّحْرِيضِ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُبَيِّنْ أَصْحَابُ الْعَذَابِ وَأَصْحَابُ الْمَغْفِرَةِ وَالرِّضْوَانِ لِظُهُورِ ذَلِكَ.

{ **وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ** } كِنَايَةٌ عَنِ النَّعِيمِ لِأَنَّ النَّعِيمَ قِسْمَانِ مَادِّيٌّ وَرُوحَانِيٌّ، فَالْمَغْفِرَةُ وَالرِّضْوَانُ أَصْلُ النَّعِيمِ الرُّوحَانِيِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التَّوْبَة:72]. وَهُمَا يَقْتَضِيَانِ النَّعِيمَ الْجِسْمَانِيَّ.

{ **وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ** } عَطْفٌ عَلَى { وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ } لِلْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْحَالَيْنِ زِيَادَةً فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّنْفِيرِ. وَالْكَلَامُ عَلَى تَقْدِيرِ مُضَافٍ، أَيْ: وَمَا أَحْوَال الْحَيَاة الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ.

وَالْحَصْرُ ادِّعَائِيٌّ بِاعْتِبَارِ غَالِبِ أَحْوَالِ الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَالِبِ طَالِبِيهَا.

الْغُرُورُ: الْخَدِيعَةُ، أَيْ: إِظْهَارُ الْأَمْرِ الضَّارِّ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَحْتَرِزَ الْعَاقِلُ مِنْهُ فِي صُورَةِ النَّافِعِ الَّذِي يَرْغَبُ فِيهِ.

{ **مَتاعُ الْغُرُورِ** } الإِضَافَةُ عَلَى مَعْنَى لَامِ الْعَاقِبَةِ، أَيْ: مَتَاعٌ صَائِرٌ لِأَجْلِ الْغُرُورِ بِهِ، أَيْ: آيِلٌ إِلَى أَنَّهُ يَغُرُّ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ فَيُسْرِعُونَ فِي التَّعَلُّق بِهِ.

{ سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [21].

فَذْلَكَةٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ } [12] إِلَى هُنَا، فَذَلِكَ مَسُوقٌ مَسَاقَ التَّرْغِيبِ فِيمَا بِهِ تَحْصِيلُ نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ فَوَاتِهِ وَمَا يَصْرِفُ عَنْهُ مِنْ إِيثَارِ زِينَةِ الدُّنْيَا، وَلِذَلِكَ فُصِلَتِ الْجُمْلَةُ وَلَمْ تُعْطَفْ، وَاقْتُصِرَ فِي الْفَذْلَكَةِ عَلَى الْجَانِبِ الْمَقْصُودِ تَرْغِيبُهُ دُونَ التَّعَرُّضِ إِلَى الْمُحَذَّرِ مِنْهُ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ.

{ **سابِقُوا** } إِلْهابٌ لِلنُّفُوسِ بِصَرْفِ الْعِنَايَةِ بِأَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنَ الْفَضَائِلِ، كَفِعْلِ مَنْ يُسَابِقُ غَيْرَهُ إِلَى غَايَةٍ فَهُوَ يَحْرِصُ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْمُجَلِّي، وَلِأَنَّ الْمُسَابَقَةَ كِنَايَةٌ عَنِ الْمُنَافَسَةِ.

{ **مَغْفِرَةٍ** } التَّنْكِيرُ لِقَصْدِ التَعْظِيمِ وَلِتَكُونَ الْجُمْلَةُ مُسْتَقِلَّةً بِنَفْسِها، وَإِلَّا فَإِنَّ الْمَغْفِرَةَ سَبَقَ ذِكْرُهَا فِي قَوْلِهِ تعالى { وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ } [20]، فَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: سَابِقُوا إِلَى الْمَغْفِرَةِ. والمَعْنَى: أَكْثِرُوا مِنْ أَسْبَابِهَا وَوَسَائِلِهَا.

الْعَرْضُ: مُسْتَعْمَلٌ فِي السِّعَةِ وَلَيْس مُقَابل الطّول، لِظُهُورِ أَنَّهُ لَا طَائِلَ فِي ذَلِكَ، وَهَذَا كَقَوْلِه تَعَالَى { وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ } [فصلت:51].

{ **عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ** } أَيْ: مَجْمُوعُ عَرْضَيْهِمَا، لِقَصْدِ تَقْرِيبِ الْمُشَبَّهِ بِأَقْصَى مَا يَتَصَوَّرُهُ النَّاسُ فِي الِاتِّسَاعِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ تَحْدِيدَ ذَلِكَ الْعَرْضِ وَلَا أَنَّ الْجَنَّةَ فِي السَّمَاءِ، حَتَّى يُقَالَ: فَمَاذَا بَقِيَ لِمَكَانِ جَهَنَّمَ. وَتَقَدَّمَ مِنْ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تعالى { سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ } [آلِ عِمْرَانَ:133].

{ **أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** } ظَاهِرُ الْقَوْلِ أَنَّ اللهَ خَلَقَهَا وَأَعَدَّهَا، وَتَمَسَّكَ بِهَذَا الظَّاهِرِ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الْجَنَّةَ مَخْلُوقَةٌ الْآنَ، وَأَمَّا الَّذِينَ نَفَوْا ذَلِكَ فَاسْتَنَدُوا إِلَى أدلّة أخرى.

وَعُلِمَ مِنْ الْقَوْلِهِ أَن غَيرهم لَا حَظَّ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، لِأَنَّ مَعْنَى إِعْدَادِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ قَصْرُهُ عَلَيْهِ.

{ **رُسُلِهِ** } الجَمْعُ هُنَا يَشْمَلُ كُلَّ أُمَّةٍ آمَنُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِمُ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ، وَلَيْسَ يَلْزَمُهَا أَنْ تُؤْمِنَ بِرَسُولٍ أُرْسِلَ إِلَى أُمَّةٍ أُخْرَى وَلَمْ يَدْعُ غَيْرَهَا إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ.

{ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** } الْإِشَارَةُ إِلَى الْمَذْكُورِ مِنَ الْمَغْفِرَة وَالْجنَّة.

{ مَا أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [22] **لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** [23] }.

لَمَّا جَرَى ذِكْرُ الْجِهَادِ آنِفًا بِقَوْلِهِ { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وقاتَلَ [10]، وَقَوْلِهِ { وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ } [19]، وَجَرَى ذِكْرُ الدُّنْيَا فِي قَوْلِهِ تعالى { وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ } [20]، وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ مِمَّا تَحْدُثُ فِيهِ الْمَصَائِبُ، وَجَرَى مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالنَّبَاتِ، وَكَانَ ذَلِكَ مَا يَعْرِضُ لَهُ الْقَحْطُ وَالْجَوَائِحِ، أُتْبِعَ ذَلِكَ بِتَسْلِيَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا يُصِيبُهُمْ، وَلَعَلَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَصَابَتْهُمْ شِدَّةٌ فِي إِحْدَى الْمَغَازِي أَوْ حَبْسُ مَطَرٍ أَو نَحْو ذَلِكُم مِمَّا كَانَ سَبَبَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ.

والمعنى عَلَى نَحْوِ مَا وَقَعَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَلكِنْ لَا تَشْعُرُونَ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ } [الْبَقَرَة:154-156].

{ **مَا أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ** } الـ (مَا) نَافِيَةٌ، وَ(مِنْ) زَائِدَةٌ فِي النَّفْيِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى نَفْيِ الْجِنْسِ قَصْدًا لِلْعُمُومِ.

وَمَفْعُولُ أَصابَ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: مَا أَصَابَكُمْ أَوْ مَا أَصَابَ أَحَدًا.

{ **فِي الْأَرْضِ** } إِشَارَةٌ إِلَى الْمَصَائِبِ الْعَامَّةِ كَالْقَحْطِ وَفَيَضَانِ السُّيُولِ وَمَوَتَانِ الْأَنْعَامِ وَتَلَفِ الْأَمْوَالِ.

{ **وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ** } إِشَارَةٌ إِلَى الْمَصَائِبِ اللَّاحِقَةِ لِذَوَاتِ النَّاسِ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَقَطْعِ الْأَعْضَاءِ وَالْأَسْرِ فِي الْحَرْبِ وَمَوْتِ الْأَحْبَابِ وَمَوْتِ الْمَرْءِ نَفْسِهِ. وَتَكْرِيرُ حَرْفِ النَّفْيِ فِي الْمَعْطُوفِ عَلَى الْمَنْفِيِّ لِقَصْدِ الِاهْتِمَامِ بِذَلِكَ الْمَذْكُورِ بِخُصُوصِهِ، فَإِنَّ الْمَصَائِبَ الْخَاصَّةَ بِالنَّفْسِ أَشَدُّ وَقْعًا عَلَى الْمُصَابِ.

{ **إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها** } اسْتِثْنَاءٌ مِنْ أَحْوَالٍ مَنْفِيَّةٍ بِـ (مَا)، إِذِ التَّقْدِيرُ: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا وَهي مُثْبَتَةٌ فِي كتاب.

الْكِتَابُ: مَجَازٌ عَنْ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى، وَوَجْهُ المشابهة عدم قبُوله التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ وَالتَّخَلُّفِ. وَمِنْ ذَلِكَ عِلْمُهُ وَتَقْدِيرُهُ لِأَسْبَابِ حُصُولِهَا وَوَقْتِ خَلْقِهَا وَتَرَتُّبِ آثَارِهَا.

وَهَذَا الْكَلَامُ يَجْمَعُ الْإِشَارَةَ إِلَى مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى وَضَعَ نِظَامَ هَذَا الْعَالَمِ عَلَى أَنْ تَتَرَتَّبَ الْمُسَبَّبَاتُ عَلَى أَسْبَابِهَا، وَقَدَّرَ ذَلِكَ وَعَلِمَهُ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تعالى { وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ } [فاطر:11].

الْبَرْءُ: (بِفَتْحِ الْبَاءِ) الْخَلْقُ وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (**الْبَارِئُ**)، وَضَمِيرُ النَّصْبِ فِي { نَبْرَأَها } عَائِدٌ إِلَى الْأَرْضِ أَوْ إِلَى الْأَنْفُسِ.

{ **إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ** } رَدٌّ عَلَى أَهْلِ الضَّلَالِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَبَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ لَا يُثْبِتُونَ لِلهِ عُمُومَ الْعِلْمِ وَيُجَوِّزُونَ عَلَيْهِ الْبَدَاءَ وَتَمَشِّي الْحِيَلِ، وَلِأَجْلِ قَصْدِ الرَّدِّ عَلَى الْمُنْكِرِينَ أُكِّدَ الْخَبَرُ بِـ { إِنَّ }.

{ **لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلى مَا فَاتَكُمْ** } وَالتَّعْلِيلُ بِلَامِ الْعِلَّةِ وَ(كَيْ) مُتَعَلِّقٌ بِمُقَدَّرٍ دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْإِخْبَارُ الْحَكِيمُ، أَيْ: أَعْلَمْنَاكُمْ بِذَلِكَ لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ. لِأَنَّ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ مَا عِنْدَهُ مِنْ نعْمَة دنيوية مَفْقُود يَوْمًا لَا مَحَالَةَ لَمْ يَتَفَاقَمْ جَزَعُهُ عِنْدَ فَقْدِهِ لِأَنَّهُ قَدْ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ.

وَفِعْلُ الْفَوَاتِ مُشْعِرٌ بِأَنَّ الْفَائِتَ قَدْ سَعَى الْمُفَوَّتُ عَلَيْهِ فِي تَحْصِيلِهِ ثُمَّ غُلِبَ عَلَى نَوَالِهِ بِخُرُوجِهِ عَنْ مِكْنَتِهِ.

{ **وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ** } تتميم لِلْقَوْلِ السَّابِقِ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْكَلَامِ أَنْ لَا يَأْسَوْا عِنْدَ حُلُولِ الْمَصَائِبِ.

وَالْفَرَحُ الْمَنْفِيُّ هُوَ الشَّدِيدُ مِنْهُ الْبَالِغُ حَدَّ الْبَطَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ قَارُونَ { إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } [الْقَصَص:76]. وَقَدْ فَسَّرَهُ التَّذْيِيلُ مِنْ قَوْلِهِ:

{ **وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ** } وَالْمَعْنَى: أَخْبَرْتُكُمْ بِذَلِكَ لِتَكُونُوا حُكَمَاءَ بُصَرَاءَ فَتَعْلَمُوا أَنَّ لِجَمِيعِ ذَلِكَ أَسْبَابًا وَعِلَلًا، وَأَنَّ لِلْعَالَمِ نِظَامًا مُرْتَبِطًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَأَنَّ الْآثَارَ حَاصِلَةٌ عَقِبَ مُؤْثِرَاتِهَا لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّ إِفْضَاءَهَا إِلَيْهَا بَعْضُهُ خَارِجٌ عَنْ طَوْقِ الْبَشَرِ وَمُتَجَاوِزٌ حَدَّ مُعَالَجَتِهِ وَمُحَاوَلَتِهِ، فَإِذَا رَسَخَ ذَلِكَ فِي عِلْمِ أَحَدٍ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ مِمَّا لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَهُ، وَلَمْ يَغْفُلْ عَنْ تَرَقُّبِ زَوَالِ مَا يَسُرُّهُ إِذَا كَانَ مِمَّا يَسُرُّهُ.

وَمَنْ لَمْ يَتَخَلَّقْ بِخُلُقِ الْإِسْلَامِ يَتَخَبَّطُ فِي الْجَزَعِ إِذَا أَصَابَهُ مُصَابٌ وَيُسْتَطَارُ خُيَلَاءَ وَتَطَاوُلًا إِذَا نَالَهُ أَمْرٌ مَحْبُوبٌ، فَيَخْرُجُ عَنِ الْحِكْمَةِ فِي الْحَالَيْنِ.

وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ يَتْرُكَ السَّعْيَ لِنَوَالِ الْخَيْرِ وَاتِّقَاءِ الشَّرِّ قَائِلًا: إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْأُمُورَ كُلَّهَا فِي الْأَزَلِ. وَقَدْ قَالَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلَّذِينَ قَالُوا أَفَلَا نَتَّكِلُ: " **اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ** ".

{ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** } [24].

{ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ** } يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ابْتِدَاءُ كَلَامٍ عَلَى الِاسْتِئْنَافِ، لِأَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي قَبْلَهُ خُتِمَ بِالتَّذْيِيلِ بِقَوْلِهِ تعالى { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ } [23]، فَيَكُونُ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ مُبْتَدَأً وَخَبَرُهُ مَحْذُوفًا يَدُلُّ عَلَيْهِ جَوَابُ الشَّرْطِ وَهُوَ { فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ }. وَالتَّقْدِيرُ: فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ وَحَامِدٌ لِلْمُنْفِقِينَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ عَلَى طَرِيقَةِ التَّخَلُّصِ فَيَكُونُ { الَّذِينَ يَبْخَلُونَ } بَدَلًا مِنْ { كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ }، أَوْ خَبَرًا لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ هُوَ ضَمِيرُ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ. تَقْدِيرُهُ: هُمُ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ، وَعَلَى هَذَا الِاحْتِمَالِ الْأَخِيرِ فَهُوَ مِنْ حَذْفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ اتِّبَاعًا لِلِاسْتِعْمَالِ كَمَا سَمَّاهُ السَّكَّاكِيُّ، وَفِيهِ وُجُوهٌ أُخَرُ.

{ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ** } وَالْمُرَادُ بِهِم: الْمُنَافِقُونَ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِمِثْلِ هَذِهِ الصِّلَةِ فِي [النِّسَاءِ:37]، وَأَمْرُهُمُ النَّاسَ بِالْبُخْلِ هُوَ الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ تعالى { هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا } [الْمُنَافِقُونَ:7]، أَيْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

{ **وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** } تَذْيِيلٌ لِأَنَّ مَنْ يَتَوَلَّ يَعُمُّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَغَيْرَهُمْ فَإِنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ، أَيْ: فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفِي النَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ، قَدْ تَوَلَّوْا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ.

الْغَنِيُّ: الْمَوْصُوفُ بِالْغِنَى، أَيْ: عَدَمُ الِاحْتِيَاجِ. وَلَمَّا لَمْ يُذْكَرْ لَهُ مُتَعَلَّقٌ كَانَ مُفِيدًا الْغِنَى الْعَامَّ.

الْحَمِيدُ: وَصْفُ مُبَالَغَةٍ، أَيْ: كَثِيرُ الْحَمْدِ لِلْمُنْفِقِينَ، عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } [الْمَائِدَة:54]. فَيَكُونُ مِنْ أَمْثِلَةِ الْمُبَالَغَةِ، لِأَنَّ اللَّهَ يُثِيبُ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ ثَوَابًا جَزِيلًا وَيُثْنِي عَلَى فَاعِلِهِ ثَنَاءً جَمِيلًا فَكَانَ بِذَلِكَ كَثِيرُ الْحَمْدِ.

وَقِيلَ: الْحَمِيدُ بِمَعْنَى الْمَحْمُودِ فَيَكُونُ فَعِيلًا بِمَعْنَى مَفْعُولٍ.

وَقَدْ حَمَلَهُ البعض عَلَى كِلَا الْمَعْنيين، وَهُوَ الْحَقُّ.

وَقَصَرَهُ الْغَزَالِيُّ فِي (الْمَقْصِدِ الأَسْنَى) عَلَى مَعْنَى: الْمَحْمُودِ.

{ **لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** } [25].

اسْتِئْنَاف ابتدائي ناشئ عَمَّا تَقَدَّمَ مِنَ التَّحْرِيضِ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَعَن ذكر الْفَتْحِ وَعَنْ تَذْيِيلِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تعالى { وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [24]، وَهُوَ إِعْذَارٌ لِلْمُتَوَلِّينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لِيَتَدَارَكُوا صَلَاحَهُمْ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالتَّدَبُّرِ فِي هَدْيِ الْقُرْآنِ، وَإِنْذَارٌ لَهُمْ إِنْ يَرْعَوُوا وَيَنْصَاعُوا إِلَى الْحُجَّةِ السَّاطِعَةِ بِأَنَّهُ يَكُونُ تَقْوِيمُ عِوَجِهِمْ بِالسُّيُوفِ الْقَاطِعَةِ، وَهُوَ مَا صَرَّحَ لَهُمْ بِهِ فِي قَوْلِهِ تعالى { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ

الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا } [الْأَحْزَاب:61/60]، وَقَوْلِهِ تعالى { يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } [التَّحْرِيمِ:9]، لِئَلَّا يَحْسَبُوا أَنَّ قَوْلَهُ السابق { وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [24]، مُجَرَّدَ مُتَارَكَةٍ فَيَطْمَئِنُّوا لِذَلِكَ.

{ **لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا** } تَأْكِيدُ الْخَبَرِ بِلَامِ الْقِسْمِ وَحَرْفِ التَّحْقِيقِ رَاجِعٌ إِلَى مَا تَضَمَّنَهُ الْخَبَرُ مِنْ ذِكْرِ مَا فِي إِرْسَالِ رُسُلِ اللَّهِ وَكُتُبِهِ مِنْ إِقَامَةِ الْقِسْطِ لِلنَّاسِ، وَمِنَ التَّعْرِيضِ بِحَمْلِ الْمُعْرِضِينَ عَلَى السَّيْفِ إِنِ اسْتَمَرُّوا عَلَى غَلْوَائِهِمْ. فَالتَّأْكِيدُ مَبْنِيٌّ عَلَى تَنْزِيلِ السَّامِعِينَ مَنْزِلَةَ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ رُسُلًا قَبْلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِأَنَّ حَالَهُمْ فِي التَّعَجُّبِ مِنْ دَعَوَاهُ الرِّسَالَةَ كَحَالِ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ رُسُلًا مِنْ قَبْلُ. وَقَدْ تَكَرَّرَ مِثْلُ هَذَا فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ } [آل عمران:183].

{ **رُسُلَنا** } الجَمْعُ هُنَا لِإِفَادَةِ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْس بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ، وَأَنَّ مُكَابَرَةَ الْمُنَافِقِينَ عَمَايَةٌ عَنْ سُنَّةِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ.

الْبَيِّنَاتُ: الْحُجَجُ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ هُوَ مُرَادُ اللَّهِ، وَالْمُعْجِزَاتُ دَاخِلَةٌ فِي الْبَيِّنَاتِ.

{ **الْكِتابَ** } التَعْرِيفُ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ، أَيْ: وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ كُتُبًا، أَيْ: مِثْلَ الْقُرْآنِ.

إِنْزَالُ الْكِتَابِ: تَبْلِيغٌ بِوَاسِطَةِ الْمَلَكِ مِنَ السَّمَاءِ.

إِنْزَالُ الْمِيزَانِ: تَبْلِيغُ الْأَمْرِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ.

الْمِيزَانُ: مُسْتَعَارٌ لِلْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي إِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ لِأَنَّ مِمَّا يَقْتَضِيهِ الْمِيزَانُ وُجُودَ طَرَفَيْنِ يُرَادُ مَعْرِفَةُ تَكَافُئِهِمَا، قَالَ تَعَالَى { وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } [النِّسَاء:58]. وَهَذَا الْمِيزَانُ تُبَيِّنُهُ كُتُبُ الرُّسُلِ، فَذِكْرُهُ بِخُصُوصِهِ لِلِاهْتِمَامِ بِأَمْرِهِ لِأَنَّهُ وَسِيلَةُ انْتِظَامِ أُمُورِ الْبَشَرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ } [النِّسَاء:105].

وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ أَلْهَمَهُمْ وَضْعَ آلَاتِ الْوَزْنِ لِأَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الْمُهِمِّ، وَهُوَ مِمَّا يَشْمَلُهُ مَعْنَى الْعَدْلِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّنْبِيهِ عَلَيْهِ بِخُصُوصِهِ.

{ **لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** } يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ تعالى { وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ }.

الْقِيَامُ: مَجَازٌ فِي صَلَاحِ الْأَحْوَالِ وَاسْتِقَامَتِهَا لِأَنَّهُ سَبَبٌ لِتَيْسِيرِ الْعَمَلِ، وَتَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ } [الْبَقَرَة:3].

الْقِسْطُ: الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْمِيزَانِ الْمَذْكُورِ لِاخْتِصَاصِهِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ مُتَنَازِعَيْنِ، وَأَمَّا الْقِسْطُ فَهُوَ إِجْرَاءُ أُمُورِ النَّاسِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْحَقُّ، فَهُوَ عَدْلٌ عَامٌّ. وَاللَفْظُ مَأْخُوذٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ مِنْ لَفْظِ (قِسْطَاسٍ) اسْمُ الْعَدْلِ بِلُغَةِ الرُّومِ، فَهُوَ مِنَ الْمُعَرَّبِ. وَالْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ، أَيْ يَكُونُ أَمْرُ النَّاسِ مُلَابِسًا لِلْعَدْلِ وَمُمَاشِيًا لِلْحَقِّ.

إِنْزَالُ الْحَدِيدِ: مُسْتَعَارٌ لِخَلْقِ مَعْدَنِهِ، كَقَوْلِهِ تعالى { وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ } [الزمر:6].

أَيْ: خَلَقَ لِأَجْلِكُمْ، وَذَلِكَ بِإِلْهَامِ الْبَشَرِ اسْتِعْمَالَهُ فِي السِّلَاحِ وَفِي غَيْرِهِ. وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ الْحَدِيدِ وَمَعْدِنِهِ وَصِنَاعَتِهِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى { آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ } [الْكَهْفِ96].

الْبَأْسُ: الضُّرُّ. وَالْمُرَادُ بَأْسُ الْقَتْلِ وَالْجَرْحِ بِآلَاتِ الْحَدِيدِ.

الْمَنَافِعُ: ما يحصل بالغلب كالغنائم، ومن المنافع ما يصنعه الناس من أدوات تسهّل عيشهم.

{ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }

{ مَنْ يَنْصُرُهُ } نَصْرُ النَّاسِ الله هُوَ نَصْرُ دِينِهِ، وَأَمَّا اللَّهُ فَغَنِيٌّ عَنِ النَّصْرِ.

{ وَرُسُلَهُ } أَيْ: مَنْ يَنْصُرُ الْقَائِمِينَ بِدِينِهِ. وَيَدْخُلُ فِيهِ نَصْرُ شَرَائِعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَهُ، وَنَصْرُ وُلَاةِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ الْقَائِمِينَ بِالْحَقِّ. وَأَعْظَمَ رَجُلٍ نَصَرَ دِينَ اللَّهِ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِي قِتَالِهِ أهل الرِّدَّة، رَضِي الله عَنهُ.

{ بِالْغَيْبِ } يَتَعَلَّقُ بِـ { يَنْصُرُهُ }، أَيْ: يَنْصُرُهُ نَصْرًا يَدْفَعُهُ إِلَيْهِ دَاعِي نَفْسِهِ دُونَ خَشْيَةِ دَاعٍ يَدْعُوهُ إِلَيْهِ، أَوْ رَقِيبٍ يَرْقُبُ صَنِيعَهُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالدِّفَاعِ عَنِ الدِّينِ بِمَحْضِ الْإِخْلَاصِ.

{ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } تَعْلِيلٌ لِجُمْلَةِ { أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ }، أَيْ: لِأَنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيز فِي شؤونه الْقُدْسِيَّةِ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ رُسُلُهُ أَقْوِيَاءَ أَعِزَّةً، وَأَنْ تَكُونَ كُتُبُهُ مُعَظَّمَةً مُوَقَّرَةً، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ ذَلِكَ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْمَنُوطَةِ أَحْدَاثُهُ بِالْأَسْبَابِ الْمَجْعُولَةِ بِأَنْ يَنْصُرَهُ الرُّسُلُ وَأَقْوَامٌ مُخْلِصُونَ لِلَّهِ وَيُعِينُوا عَلَى نَشْرِ دِينِهِ وَشَرَائِعِهِ.

الْقَوِيُّ: الْمُتَّصِفُ بِالْقُوَّةِ، قَالَ تَعَالَى { ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } [الذاريات:58]، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ } [الْأَنْفَال:52].

الْعَزِيزُ: الْمُتَّصِفُ بِالْعِزَّةِ، وَتَقَدَّمَتْ فِي قَوْلِهِ تعالى { إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا } [يُونُس:65]، وَقَوْلِهِ تعالى { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [الْبَقَرَة:209].

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ } [26].

مَعْطُوفٌ عَلَى جُمْلَةِ { **لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ** } [25]، عَطَفَ الْخَاصَّ عَلَى الْعَامِّ لَمَّا أُرِيدَ تَفْصِيلٌ لِإِجْمَالِهِ تَفْصِيلًا يُسَجِّلُ بِهِ انْحِرَافَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ وَالضَّالِّينَ مِنَ الْيَهُودِ عَنْ مَنَاهِجِ أَبَوَيْهِمَا: نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ، قَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ { ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً } [الْإِسْرَاء:3].

وَالْعَرَبُ لَا يَنْسَوْنَ أَنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ، كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ يَمْدَحُ النُّعْمَانَ بْنَ الْمُنْذِرِ:

فَأَلْفَيْتَ الْأَمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لَا يَخُونُ

{ **وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ** } كَنُبُوَّةِ هُودٍ وَصَالِحٍ وَتُبَّعٍ، وَنُبُوَّةِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَشُعَيْبٍ وَيَعْقُوبَ.

{ **وَالْكِتابَ** } مَا كَانَ بِيَدِ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ وَذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي فِيهَا أُصُولُ دِيَانَتِهِمْ مِنْ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمَا حَفِظُوهُ مِنْ وَصَايَاهُ وَوَصَايَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ.

الْفِسْقُ: الْخُرُوجُ عَنِ الِاهْتِدَاءِ، وَمِنَ الْفَاسِقِينَ: الْمُشْرِكُونَ مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ لُوطٍ وَالْيَمَنِ وَالْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ، وَمِنْ مَدْيَنَ وَالْحِجَازِ وَتِهَامَةَ وَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ.

وَالْمُرَادُ: مَنْ أَشْرَكُوا قَبْلَ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ لِقَوْلِهِ { ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } [27].

{ ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ } [27].

{ **ثُمَّ** } للتراخي الترتبي لِأَنَّ بَعْثَةَ رُسُلِ اللهِ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ سَبَقَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا أَعْظَمُ مِمَّا كَانَ لَدَى ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ قَبْلَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ الَّذِينَ قَفَّى اللهُ بِهِمْ، إِذْ أُرْسِلُوا إِلَى أُمَمٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ عَادٍ وَثَمُودَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَفِيهِمْ شَرِيعَةٌ عَظِيمَةٌ وَهِيَ شَرِيعَةُ التَّوْرَاةِ.

التَّقْفِيَةُ: إِتْبَاعُ الرَّسُولِ بِرَسُولٍ آخَرَ، مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْقَفَا لِأَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَهُ، فَكَأَنَّهُ يَمْشِي عَنْ جِهَةِ قَفَاهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ } [الْبَقَرَةِ:87].

الْآثَارُ: جَمْعُ الْأَثَرِ، وَهُوَ مَا يَتْرُكُهُ السَّائِرُ مِنْ مَوَاقِعِ رِجْلَيْهِ فِي الْأَرْضِ، قَالَ تَعَالَى { فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصًا } [الْكَهْفِ:64].

{ **عَلى آثارِهِمْ** } ضَمِيرُ الْجَمْعِ عَائِدٌ إِلَى نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَذُرِّيَّتِهِمَا الَّذِينَ كَانَت فيهم النبوّة وَالْكِتَابُ، فَأَمَّا الَّذِينَ كَانَت فيهم النبوّة فَكَثِيرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَانَ فِيهِمِ الْكِتَابُ فَمِثْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَ(عَلَى) لِلِاسْتِعْلَاءِ.

وَأَصْلُ (قَفَّى عَلَى أَثَرِهِ) يَدُلُّ عَلَى قُرْبِ مَا بَيْنَ الْمَاشِيَيْنِ، أَيْ: حَضَرَ الْمَاشِي الثَّانِي قَبْلَ أَنْ يَزُولَ أَثَرُ الْمَاشِي الْأَوَّلِ، وَشَاعَ ذَلِكَ حَتَّى صَارَ قَوْلُهُمْ: عَلَى أَثَرِهِ، بِمَعْنَى بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ أَوْ مُتَّصِلًا شَأْنُهُ بِشَأْنِ سَابِقِهِ.

وَهَذَا تَعْرِيفٌ لِلْأُمَّةِ بِأَنَّ اللهَ أَرْسَلَ رُسُلًا كَثِيرِينَ عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ، وَهُوَ تَمْهِيدٌ لِلْمَقْصُودِ مِنْ ذِكْرِ الرَّسُولِ الْأَخِيرِ الَّذِي جَاءَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَهُوَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

{ **وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** } فِي إِعَادَة فعل { قَفَّيْنا } وَعَدَمِ إِعَادَةِ { عَلى آثارِهِمْ } إِشَارَةٌ إِلَى بُعْدِ الْمُدَّةِ بَيْنَ

آخِرِ رُسُلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيْنَ عِيسَى، فَإِنَّ آخِرَ رُسُلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ يُونُسُ بْنُ مَتَّى أُرْسِلَ إِلَى أَهْلِ نِينَوَى أَوَّلِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ قَبْلَ الْمَسِيحِ فَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ عِيسَى مُرْسَلًا عَلَى آثَارِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ.

الْإِنْجِيلُ: (بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَفَتْحِهَا) مُعَرَّبٌ، هُوَ الْوَحْيُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِيسَى وَكَتَبَهُ الْحَوَارِيُّونَ فِي أَثْنَاءِ ذِكْرِ سِيرَتِهِ. وتَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي [آلِ عِمْرَانَ:3].

{ **وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً** } أي: أَنَّ تَعَالِيمَ الْإِنْجِيلِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ عِيسَى أَمَرَتْهُمْ بِالتَّخَلُّقِ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ فَعَمِلُوا بِهَا، أَوْ أَنَّ ارْتِيَاضَهُمْ بِسِيرَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْسَخَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ.

ذَلِكَ أَنَّ عِيسَى عليه السلام بُعِثَ لِتَهْذِيبِ نُفُوسِ الْيَهُودِ وَاقْتِلَاعِ الْقَسْوَةِ مِنْ قُلُوبِهِمُ الَّتِي تَخَلَّقُوا بِهَا فِي أَجْيَالٍ طَوِيلَةٍ، قَالَ تَعَالَى { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً } [الْبَقَرَة:74].

الرَّأْفَةُ: الرَّحْمَةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِدَفْعِ الْأَذَى وَالضُّرِّ فَهِيَ رَحْمَةٌ خَاصَّةٌ، وَتَقَدَّمَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ } [الْبَقَرَة:143]، وَفِي قَوْلِهِ تعالى { وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ } [النُّورِ:2].

الرَّحْمَةُ: الْعَطْفُ وَالْمُلَايَنَةُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ.

فَعَطْفُ الرَّحْمَةِ عَلَى الرَّأْفَةِ مِنْ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ لِاسْتِيعَابِ أَنْوَاعِهِ بَعْدَ أَنِ اهْتَمَّ بِبَعْضِهَا.

الرَّهْبَانِيَّةُ: اسْمٌ لِلْحَالَةِ الَّتِي يَكُونُ الرَّاهِبُ مُتَّصِفًا بِهَا فِي غَالب شؤون دينه، وَالْيَاء فِيهَا يَاءُ النِّسْبَةِ إِلَى الرَّاهِبِ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ لِأَنَّ قِيَاسَ النَّسَبِ إِلَى الرَّاهِبِ الرَّاهِبِيَّةُ، وَالنُّونُ فِيهَا مَزِيدَةٌ لِلْمُبَالَغَةِ فِي النِّسْبَةِ كَمَا زِيدَتْ فِي قَوْلِهِمْ: رُوحَانِيٌّ، وَنَصْرَانِيٌّ.

الرَّاهِبُ: الَّذِي نُسِبَتْ إِلَيْهِ الرَّهْبَانِيَّةُ فَهُوَ وَصْفٌ عُومِلَ مُعَامَلَةَ الِاسْمِ، وَهُوَ العابد من النَّصَارَى الْمُنْقَطِعِ لِلْعِبَادَةِ، وَهُوَ وَصْفٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّهَبِ: الْخَوْفِ، لِأَنَّهُ شَدِيدُ الْخَوْفِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى أَو من مُخَالَفَةِ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ. وَيَلْزَمُ هَذِهِ الْحَالَةَ فِي عُرْفِ النَّصَارَى الْعُزْلَةُ عَنِ النَّاسِ تَجَنُّبًا لِمَا يَشْغَلُ عَنِ الْعِبَادَةِ وَذَلِكَ بِسُكْنَى الصَّوَامِعِ وَالْأَدْيِرَةِ وَتَرْكِ التَّزَوُّجِ تَجَنُّبًا لِلشَّوَاغِلِ، وَرُبَّمَا أَوْجَبَتْ بَعْضُ طَوَائِفِ الرُّهْبَانِ عَلَى الرَّاهِبِ تَرْكَ التَّزَوُّجِ غُلُوًّا فِي الدِّينِ.

فَالرَّاهِبُ يَمْتَنِعُ مِنَ التَّزَوُّجِ خِيفَةَ أَنْ تَشْغَلَهُ زَوْجُهُ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيَمْتَنِعُ مِنْ مُخَالَطَةِ الْأَصْحَابِ خَشْيَةَ أَنْ يُلْهُوهُ عَنِ الْعِبَادَةِ، وَيَتْرُكُ لَذَائِذَ الْمَآكِلِ وَالْمَلَابِسِ خَشْيَةَ أَنْ يَقَعَ فِي اكْتِسَابِ المَال الْحَرَام، وَلِأَنَّهُم أَرَادُوا التَّشَبُّهَ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَتَرْكِ التَّزَوُّجِ، فَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

{ **ابْتَدَعُوهَا** }، أَيْ: أَحْدَثُوهَا، فَإِنَّ الِابْتِدَاعَ الْإِتْيَانُ بِالْبِدْعَةِ وَالْبِدَعِ وَهُوَ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا، أَيْ: أَحْدَثُوهَا بَعْدَ رَسُولِهِمْ، فَإِنَّ الْبِدْعَةَ مَا كَانَ مُحْدَثًا بَعْدَ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ.

وَنَصَبُ { رَهْبانِيَّةً } عَلَى طَرِيقَةِ الِاشْتِغَالِ. وَالتَّقْدِيرُ: وَابْتَدَعُوا رَهْبَانِيَّةً، وَلَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَى رَأْفَةً وَرَحْمَةً، لِأَنَّ هَذِهِ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تَكُنْ مِمَّا شَرَعَ اللَّهُ لَهُمْ فَلَا يَسْتَقِيمُ كَوْنُهَا مَفْعُولًا لِـ { جَعَلْنا }. وَإِنَّمَا عُطِفَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ

عَلَى جُمْلَةِ { وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ } لاشْتِرَاكِ مَضْمُونِ الْجُمْلَتَيْنِ فِي أَنَّهُ مِنَ الْفَضَائِلِ الْمُرَادِ بِهَا رِضوَان الله.

وَالْمعْنَى: وَابْتَدَعُوا لِأَنْفُسِهِمْ رَهْبَانِيَّةً مَا شَرَعْنَاهَا لَهُمْ وَلَكِنَّهُمُ ابْتَغَوْا بِهَا رِضْوَانَ اللَّهِ فَقَبِلَهَا اللَّهُ مِنْهُمْ، لِأَنَّ سِيَاقَ حِكَايَةِ ذَلِكَ عَنْهُمْ يَقْتَضِي الثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ فِي أَحْوَالِهِمْ. وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُهُمُ اخْتَرَعَ أُسْلُوبَ الرَّهْبَانِيَّةِ وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ بَعْضُهُمْ سَنَّهَا وَتَابَعَهُ بَقِيَّتُهُمْ.

{ **مَا كَتَبْنَاها عَلَيْهِمْ** } مُبَيِّنَةٌ لِجُمْلَةِ { ابْتَدَعُوهَا }.

{ **إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ** } احْتِرَاسٌ، وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ.أَيْ: كَتَبُوهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ طَلَبًا لِرِضْوَانِ اللَّهِ.

وَأَمَّا تَرْكُ الْمَسِيحِ التَّزَوُّجَ فَلَعَلَّهُ لِعَارِضٍ آخَرَ أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ لِأَجْلِهِ، وَلَيْسَ تَرْكُ التَّزَوُّج من شؤون النُّبُوَّةِ فَقَدْ كَانَ لِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ أَزْوَاجٌ، قَالَ تَعَالَى { وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً } [الرَّعْد:38].

وَكَانَ الِانْقِطَاعُ عَنِ اللَّذَائِذِ وَإِعْنَاتِ النَّفْسِ مِنْ وُجُوهِ التَّقَرُّبِ فِي بِعْضِ الشَّرَائِعِ الْمَاضِيَةِ بَقِيَتْ إِلَى أَنْ أَبْطَلَهَا الْإِسْلَامُ. من ذلك حَدِيثِ النُّذُرِ فِي (الْمُوَطَّأِ): " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلًا قَائِمًا فِي الشَّمْسِ صَامِتًا فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: نَذَرَ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَأَنْ يَصُومَ يَوْمَهُ فَقَالَ: " مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وليستظل وليتمّ صَوْمه إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ ".

وَقَدْ مَضَى قَوْلُهُ تَعَالَى { فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا } [مَرْيَم:26]، وَلَا تَنَافِي بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، لِأَنَّ أَسْبَابَ الرهبانية قد تَتَعَدَّد بِاخْتِلَافِ الْأَدْيَانِ.

وَفِي الآية حُجَّةٌ لِانْقِسَامِ الْبِدْعَةِ إِلَى مَحْمُودَةٍ وَمَذْمُومَةٍ بِحَسَبِ انْدِرَاجِهَا تَحْتَ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشْرُوعِيَّةِ فَتَعْتَرِيهَا الْأَحْكَامُ الْخَمْسَةُ كَمَا حَقَّقَهُ الشِّهَابُ الْقَرَافِيُّ وَحُذَّاقُ الْعُلَمَاءِ. وَأَمَّا الَّذِينَ حَاوَلُوا حَصْرَهَا فِي الذَّمِّ فَلَمْ يَجِدُوا مَصْرِفًا. وَقَدْ قَالَ عُمَرُ لَمَّا جُمِعَ النَّاسُ عَلَى قَارِئٍ وَاحِدٍ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ: " نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ ".

{ **فَمَا رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها** } أَيْ: فَتَرَتَّبَ عَلَى الْتِزَامِهِمُ الرَّهْبَانِيَّةَ أَنَّهُمْ، مَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا.

وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ جَمِيعَهُمْ قَصَّرُوا تَقْصِيرًا مُتَفَاوِتًا، أي: قَصَّرُوا فِي أَدَاءِ حَقِّهَا،

وَفِي الكَلَامِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ مَا يَكْتُبُهُ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ مِنَ التَّكَالِيفِ لَا يَشُقُّ عَلَى النَّاسِ الْعَمَلُ بِهِ.

الرَّعْيُ: الْحِفْظُ، أَيْ: مَا حَفِظُوهَا حَقَّ حِفْظِهَا، وَاسْتُعِيرَ الْحِفْظُ لْاسْتِيفَاءِ مَا تَقْتَضِيهِ مَاهِيَّةُ الْفِعْلِ.

وَمَجْمُوعُ الْجُمَلِ الثَّلَاثِ اسْتِطْرَادٌ وَاعْتِرَاضٌ، وَالْكَلَامُ فيها مَسُوقٌ مَسَاقَ اللَّوْمِ عَلَى تَقْصِيرِهِمْ فِيمَا الْتَزَمُوهُ.

{ **فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ** } تَفْرِيعٌ عَلَى جُمْلَةِ { وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً } وَمَا بَيْنَهُمَا اسْتِطْرَادٌ.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا** } الْمُتَّصِفُونَ بِالْإِيمَانِ الْمُصْطَلَح عَلَيْهِ فِي الْقُرْآن، وَهُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِيمَانُ بِرُسُلِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، أَي: الَّذِينَ لَمْ يَخْلِطُوا مُتَابَعَتَهُمْ إِيَّاهُ بِمَا يُفْسِدُهَا مِثْلُ الَّذِينَ اعْتَقَدُوا إِلَهِيَّةَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ بُنُوَّتَهُ لِلَّهِ،

وَنَحْوُهُمْ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ أَدْخَلُوا فِي الدِّينِ مَا هُوَ مُنَاقِضٌ لِقَوَاعِدِهِ وَهُمْ كَثِيرٌ، كَمَا قَالَ:
{ **وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ** } أَيْ: وَكَثِيرٌ مِنَ الَّذِينَ الْتَزَمُوا دِينَهُ خَارِجُونَ عَنِ الْإِيمَانِ، فَالْمُرَادُ بِالْفِسْقِ مَا يَشْمَلُ الْكُفْرَ وَمَا دُونَهُ مِثْلُ الَّذِينَ بَدَّلُوا الْكِتَابَ وَاسْتَخَفُّوا بِشَرَائِعِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } [التَّوْبَة:34].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [28].

الْغَالِبُ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ { الَّذِينَ آمَنُوا } لَقَبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنْ لَمَّا وَقَعَ هُنَا عَقِبَ قَوْلِهِ تعالى { فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ } [27]، أَيْ: مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ،
احْتَمَلَ قَوْلُهُ تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } أَنْ يَكُونَ مُسْتَعْمَلًا اسْتِعْمَالَهُ اللَّقَبِيَّ، أَعْنِي: كَوْنَهُ كَالْعِلْمِ بِالْغَلَبَةِ عَلَى مُؤْمِنِي مِلَّةِ الْإِسْلَامِ. وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اسْتُعْمِلَ اسْتِعْمَالَهُ اللُّغَوِيَّ الْأَعَمَّ، أَعْنِي: مَنْ حَصَلَ مِنْهُ إِيمَانٌ، وَهُوَ هُنَا مَنْ آمَنَ بِعِيسَى. وَالْأَظْهَرُ أَنَّ هَذَيْنِ الِاحْتِمَالَيْنِ مَقْصُودَانِ لِيَأْخُذَ خُلَّصُ النَّصَارَى مِنْ هَذَا الْكَلَامِ حَظَّهُمْ، وَهُوَ دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَسْتَكْمِلُوا مَا سَبَقَ مِنِ اتِّبَاعِهِمْ عِيسَى، فَيَكُونُ الْخُطَّابُ مُوَجَّهًا إِلَى الْمَوْجُودِينَ مِمَّنْ آمَنُوا بِعِيسَى، أَيْ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا خَالِصًا بِشَرِيعَةِ عِيسَى اتَّقُوا اللَّهَ وَاخْشَوْا عِقَابَهُ وَاتْرُكُوا الْعَصَبِيَّةَ وَالْحَسَدَ وَسُوءَ النَّظَرِ وَآمِنُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
وَأَمَّا احْتِمَالُ أَنْ يُرَادَ بِالَّذِينَ آمَنُوا الْإِطْلَاقُ اللَّقَبِيُّ فَيَأْخُذُ مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ من أَهْلُ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِشَارَةً بِأَنَّهُمْ لَا يَقِلُّ أَجْرُهُمْ عَنْ أَجْرِ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ لِأَنَّهُمْ لَمَّا آمَنُوا بِالرُّسُلِ السَّابِقِينَ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ أَجْرَ مُؤْمِنِي أَهْلِ مِلَلِهِمْ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ { وَآمِنُوا } مُسْتَعْمَلًا فِي الدَّوَامِ عَلَى الْإِيمَانِ كَقَوْلِهِ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [النِّسَاءِ:136].
{ **يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ** } وَمَعْنَى إِيتَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ كِفْلَيْنِ مِنَ الْأَجْرِ: أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ أَجْرَيْ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَيَشْرَحُ هَذَا حَدِيثُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ الَّذِي فِيهِ : " مَثَلُ الْمُسلمين وَالْيَهُود والنصار كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ يَعْمَلُونَ لَهُ، فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ، وَعَمِلَتِ النَّصَارَى مِنَ الظُّهْرِ إِلَى الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ، ثُمَّ عَمِلَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْعَصْرِ إِلَى الْغُرُوبِ عَلَى قِيرَاطَيْنِ، قَالَ فِيهِ: وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا "، أَي: اسْتَكْمَلُوا مِثْلَ أَجْرِ الْفَرِيقَيْنِ، أَيْ: أَخَذُوا ضِعْفَ كُلِّ فَرِيقٍ.
الْكِفْلُ (بِكَسْرِ الْكَافِ وَسُكُونِ الْفَاءِ): النَّصِيبُ. وَأَصْلُهُ: الْأَجْرُ الْمُضَاعَفُ، وَهُوَ مُعَرَّبٌ مِنَ الحبشية كَمَا قَالَه

أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، أَيْ: يُؤْتِكُمْ أَجْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ، وَكُلُّ أَجْرٍ مِنْهُمَا هُوَ ضِعْفُ الْآخَرِ مُمَاثِلٌ لَهُ فَلِذَلِكَ ثُنِّيَ كِفْلَيْنِ، كَمَا يُقَالُ: زَوْجٌ، لِأَحَدِ الْمُتَقَارِبَيْنِ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ { رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ } [الْأَحْزَاب:68]، وَقَوْلِهِ تعالى { يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ } [الْأَحْزَاب:30].

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ **" ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أُجُورَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي، وَاتَّبَعَنِي، وَصَدَّقَنِي فَلَهُ أَجْرَانِ ... ".**

{ **مِنْ رَحْمَتِهِ** } يَتَعَلَّقُ بِـ { يُؤْتِكُمْ }، وَ(مِن) ابتدائية مجازيا، أَيْ: ذَلِكَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِكُمْ.

وَهَذَا فِي جَانِبِ النَّصَارَى مَعْنَاهُ لِإِيمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ وَإِيمَانِهِمْ بِعِيسَى، أَيْ: مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَإِكْرَامِهِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ كَإِيمَانِهِمْ بِعِيسَى وَهُوَ مُتَمِّمٌ لِلْإِيمَانِ بِعِيسَى وَإِنَّمَا ضُوعِفَ أَجْرُهُمْ لِمَا فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّعَلُّقِ بِمَا تَدِينُ بِهِ فَيَعْسُرُ عَلَيْهَا تَرْكُهُ.

وَأَمَّا فِي جَانِبِ الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ إِكْرَامٌ لَهُمْ لِئَلَّا يَفُوقَهُمْ بَعْضُ مَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّصَارَى.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ صِفَةً لِـ { كِفْلَيْنِ } وَتَكُونَ (مِنْ) بَيَانِيَّةً، وَالْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ مُضَاف، تَقْدِيره: من أثر رَحمته، وَهُوَ ثَوَابُ الْجَنَّةِ وَنَعِيمُهَا.

{ **وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ** } تَمْثِيلٌ لِحَالَةِ الْقَوْمِ الطَّالِبِينَ رِضَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْفَوْزِ بِالنَّعِيمِ، الْخَائِفِينَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي ضِدِّ ذَلِكَ، بِحَالَةِ قَوْمٍ يَمْشُونَ فِي طَرِيقٍ بِلَيْلٍ يَخْشَوْنَ الْخَطَأَ فِيهِ فَيُعْطَوْنَ نُورًا يَتَبَصَّرُونَ بِهِ الثَّنَايَا فَيَأْمَنُونَ الضَّلَالَ فِيهِ. وَالْمَعْنَى: وَيُيَسِّرْ لَكُمْ دَلَالَةً تَهْتَدُونَ بِهَا إِلَى الْحَقِّ.

وَجَمِيعُ أَجْزَاءِ هَذَا التَّمْثِيلِ صَالِحَةٌ لتكون استعارات مُفْرَدَة، وَهَذَا أَبْلَغُ أَحْوَالِ التَّمْثِيلِ، وَقد عُرف فِي الْقُرْآن تَشْبِيهُ الْهُدَى بِالنُّورِ، وَالضَّلَالِ بِالظُّلْمَةِ، وَالْبُرْهَانِ بِالطَّرِيقِ، وَإِعْمَالِ النَّظَرِ بِالْمَشْيِ، وَشَاعَ ذَلِكَ بَعْدَ الْقُرْآنِ فِي كَلَامِ أُدَبَاءِ الْعَرَبِيَّةِ.

{ **وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } جَزَاءَ امْتِثَالِهِمْ مَا أُمِرُوا بِهِ، أَيْ: يَغْفِرْ لَكُمْ مَا فَرَطَ مِنْكُمْ مِنَ الْكفْر والضلال.

{ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [29].

{ **أَهْلُ الْكِتابِ** } لَقَبٌ فِي الْقُرْآنِ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ لَمْ يَتَدَيَّنُوا بِالْإِسْلَامِ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْهِ (أَهْلُ)، فَلَا يُطْلَقُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ: أَهْلُ الْكِتَابِ، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ كِتَابٌ، فَمَنْ صَارَ مُسْلِمًا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لَا يُوصَفُ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي اصْطِلَاحِ الْقُرْآنِ، وَلِذَلِكَ لَمَّا وُصِفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ

سَلَامٍ فِي الْقُرْآنِ وُصِفَ بِقَوْلِهِ تعالى { وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ } [الرَّعْد:43]، وَقَوْلِهِ تعالى { وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ } [الْأَحْقَاف:10].

{ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ } لَمَّا دَعَا اللَّهُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا الْمَسِيحَ إِلَى الْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَعَدَهُمْ بِمُضَاعَفَةِ ثَوَابِ ذَلِكَ الْإِيمَانِ، أَعْلَمَهُمْ أَنَّ إِيمَانَهُمْ يُبْطِلُ مَا يَنْتَحِلُهُ أَتْبَاعُ الْمَسِيحِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْفَضْلِ وَالشَّرَفِ لِأَنْفُسِهِمْ بِدَوَامِهِمْ عَلَى مُتَابَعَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيُغَالِطُوا النَّاسَ بِأَنَّهُمْ إِنْ فَاتَهُمْ فَضْلُ الْإِسْلَامِ لَمْ يَفُتْهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْفَضْلِ بِاتِّبَاعِ عِيسَى مَعَ كَوْنِهِمْ لَمْ يُغَيِّرُوا دِينَهُمْ.

{ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } تَذْيِيلٌ يَعُمُّ الْفَضْلَ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ أَهْلَ الْكِتَابِ الْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرَهُ مِنَ الْفَضْلِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المجادِلة

سُمِّيت هذه السورة في كتب التفسير وفي المصاحف وكتب السنّة **(سورة المجادلة)** - بكسر الدال أو بفتحه - ووجه هذه التسمية أنّها افتُتحت بقضية مجادلة امرأة (أوس بن الصامت) لدى النبيّ صلى الله عليه وسلم في شأن مظاهَرة زوجها.

ولم يذكر المفسِّرون ولا شارحو كتب السنّة ضبطه بكسر الدال أو فتحها. وكسر الدال أظهر لأنّ السورة افتتحت بذكر التي تجادل في زوجها فحقيقة أن تضاف إلى صاحبة الجدال، وهي التي ذكرها الله بقوله { الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا } [1].

وتُسمَّى (**سورة قد سمع**) وهذا الاسم مشتهر في الكتاتيب في تونس، وسُمِّيت في مصحف أُبَيّ بن كعب **(سورة الظهار)**.

وهي مدنية، قال ابن عطية بالإجماع. وفي تفسير القرطبي عن عطاء: أنّ العشر الأولى منها مدني وباقيها مكّيّ. وفيه عن الكلبي أنّها مدنية إلّا قوله تعالى { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } [7] نزلت بمكّة.

وهي السورة المائة وثلاث من عِداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة المنافقين وقبل سورة التحريم.

والذي يظهر أنّ سورة المجادلة نزلت قبل سورة الأحزاب لأنّ الله تعالى قال فيها { وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ } [الأحزاب:4]، وذلك يقتضي أن تكون هذه الآية نزلت بعد إبطال حكم الظهار بما في سورة المجادلة، لأن قوله تعالى { وَمَا جَعَلَ } يقتضي إبطال التحريم بالمظاهرة.

وآيها في عَدِّ أهل المدينة وأهل مكة إحدى وعشرون، وفي عد أهل الشام والبصرة والكوفة اثنتان وعشرون.

أغراض السورة

*/ الحكم في قضية مظاهرة أوس بن الصامت من زوجه خولة.

*/ إبطال ما كان في الجاهلية من تحريم المرأة إذا ظاهر منها زوجها، وأنّ عملهم مخالف لما أراده الله.

*/ تخلّص من ذلك إلى ضلالات المنافقين ومنها مناجاتهم بمرأى المؤمنين ليُغيظوهم ويُحزنوهم، ومنها موالاتهم اليهود، وحلفهم على الكذب.

*/ التعرّض لآداب مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم. وشرع التصدّق قبل مناجاته.

*/ الثناء على المؤمنين في مجافاتهم اليهود والمشركين. وأنّ الله ورسوله وحزبهما هم الغالبون.

{ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [1].

افتتحت آيات أحكام الظهار بذكر سبب نزولها تنويها بالمرأة التي وجَّهت شكواها إلى الله تعالى بأنّها لم تقصِّر في طلب العدل في حقّها وفي بنيها. ولم ترض بعنجهية زوجها وابتداره إلى ما ينثر عقد عائلته دون تبصُّر ولا رويّة، وتعليما لنساء الأمّة الإسلامية ورجالها واجب الذود عن مصالحها.

تلك هي قضية المرأة خولة أو خُويلة (مصغّرا) أو جميلة بنت مالك بنت ثعلبة أو بنت دُلَيْج (مصغّرا) العَوْفية وربّما قالوا: الخزرجيّة، وهي من بني عوف بن مالك بن الخزرج، من بطون الأنصار، مع زوجها أوس بن الصامت الخزرجي، أخي عبادة بن الصامت.

قيل: إنّ سبب حدوث هذه القضية أنّ زوجها رآها وهي تصلي وكانت حسنة الجسم، فلمَّا سلَّمت أرادها فأبت فغضب وكان قد ساء خُلُقُه فقال لها: أنت عليَّ كظهر أمّي.

قال ابن عباس وكان هذا في الجاهلية تحريما للمرأة مؤبّدا. أي: وعمل به المسلمون في المدينة بعلم من النبيّ صلى الله عليه وسلم وإقراره الناس عليه فاستقر مشروعا.

فجاءت خولة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرت له ذلك، فقال لها: **" حَرُمْتِ عليه "**، فقالت للرسول صلى الله عليه وسلم: إنّ لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا، فقال: **" ما عندي في أمرك شيء "**، فقالت: يا رسول الله ما ذكر طلاقا. وإنّما هو أبو ولدي وأحبّ الناس إليّ، فقال: **" حَرُمْتِ عليه "**، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي. كلَّما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" حَرُمْتِ عليه "** هتفت وشكت إلى الله، فأنزل الله هذه الآيات.

وهذا الحديث رواه أبو داود في كتاب الظهار مجملا بسند صحيح. وأمّا تفصيل قصّته فمن روايات أهل التفسير وأسباب النزول يزيد بعضها على بعض، وكلّها متّفقة على أنّ المرأة المجادلة هي خولة أو خويلة أو جميلة، وعلى أنّ زوجها أوس بن الصامت.

{ **قَدْ** } أصله حرف تحقيق للخبر، فهو من حروف توكيد الخبر ولكن الخطاب هنا للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو لا يخامره تردّد في أنّ الله يعلم ما قالته المرأة التي جادلت في زوجها، فتعيَّن أنّ الحرف هنا مستعمل في التوقّع، أي: الإشعار بحصول ما يتوقّعه السامع.

قال في الكشّاف: " لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجادِلة كانا يتوقّعان أن يسمع الله لمجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرّج عنها ".

{ **سَمِعَ اللَّهُ** } معناه الاستجابة للمطلوب بقرينة دخول { قد } التوقّعيّة عليه فإنّ المتوقَّع هو استجابة شكواها.

{ **الَّتِي تُجَادِلُكَ** } استُحضرت المرأة بعنوان الصلة تنويها بمجادلتها وشكواها لأنّها دلّت على توكّلها الصادق على رحمة ربّها بها وبأبنائها وبزوجها.

المجادَلة: الاحتجاج والاستدلال، وتقدّمت في قوله تعالى { يجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ } [الأنفال:6].

{ **فِي زَوْجِهَا** } أي: في شأن زوجها وقضيّته، كقوله تعالى { يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ } [هود:74].

الاشتكاء: مبالغة في الشكوى وهي ذكر ما آذاه، يقال: شكى وتشكّى واشتكى وأكثرها مبالغة: اشتكى.

والأكثر أن تكون الشِكاية لقصد طلب إزالة الضرّ الذي يُشتكى منه بحكمٍ أو نصرٍ أو إشارة بحيلة خلاص.

{ **وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا** } في موضع الحال من ضمير { تُجَادِلُكَ }. وجيء بصيغة المضارع لاستحضار مقارنة علم الله لتحاورهما زيادة في التنويه بشأن ذلك التحاور.

والسماع هنا مستعمل في معناه الحقيقي المناسب لصفات الله، إذ لا صارف يصرف عن الحقيقة. وكون الله تعالى عالما بما جرى من المحاورة معلوم لا يراد من الإخبار به إفادة الحكم، فتعيَّن صرف الخبر إلى إرادة الاعتناء بذلك التحاور والتنويه به وبعظيم منزلته لاشتماله على ترقّب النبيّ صلى الله عليه وسلم ما ينزل عليه من وحي، وترقّب المرأة الرحمة، وإلّا فإنّ المسلمين يعلمون أنّ الله عالم بتحاورهما.

التحاور: تفاعل من حار، إذا أجاب، فالتحاور حصول الجواب من جانبين فاقتضت مراجعةً بين شخصين.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } تذييل لجملة { وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا }، أي: أنّ الله عالم بكل صوت وبكل مرئي.

وتكرير اسم الجلالة في موضع إضماره ثلاث مرّات لتربية المهابة وإثارة تعظيم منّته تعالى ودواعي شكره.

{ **الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** } [2].

الآية بمنزلة البيان لجملة { قدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا } [1]، لأنّ فيها مخرجا ممّا لحق بالمجادِلة من ضرٍّ بظهار زوجها، وإبطالًا له.

{ **يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ** } وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب { يَظَّهَّرُونَ }. ومعناه أن يقول الرجل لزوجه: أنت عليَّ كظهر أمّي. وكان هذا قولا يقولونه في الجاهلية يريدون به تأبيد تحريم نكاحها وبت عصمته. قال المفسّرون وأهل اللغة: كان الظهار طلاقا في الجاهلية يقتضي تأبيد التحريم.

وأحسب أنّه كان طلاقا عند أهل يثرب وما حولها لكثرة مخالطتهم اليهود ولا أحسب أنّه كان معروفا عند العرب في مكة وتهامة ونجد وغيرها، ولم أقف على ذلك في كلامهم. وحسبك أن لم يُذكر في القرآن إلّا في المدني، هنا وفي سورة الأحزاب. والذي يلوح لي أنّ أهل يثرب ابتدعوا هذه الصيغة للمبالغة في التحريم.

{ **مِنْكُمْ** } الخطاب يجوز أن يكون للمسلمين، فيكون ذكر هذا الوصف للتعميم بيانًا لمدلول الصلة من قوله تعالى { الَّذِينَ يَظْهَرُونَ } لئلَّا يُتوهَّم إرادة معيَّن بالصلة. و(من) بيانية كشأنها بعد الأسماء المبهمة، فعُلم أنّ هذا الحكم تشريع عام لكل مُظَاهِرٍ. وليس خصوصيّة لخولة ولا لأمثالها من النساء ذوات الخصاصة وكثرة الأولاد.

{ **مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ** } خبر عن { الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ }، أي: ليس أزواجهم أمّهات لهم. وهذا تمهيد لإبطال أثر صيغة الظهار في تحريم الزوجة، بما يشير إلى أنّ الأمومة حقيقية ثابتة لا تصنع بالقول، إذ القول لا يبدّل حقائق الأشياء، كما قال تعالى { ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ } [الأحزاب:4]. أي: فالتحريم بالظهار أمر باطل لا يقتضيه سبب.

{ **إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ** } واقعة موقع التعليل لجملة { مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ }، وهو تعليل للمقصود من هذا الكلام. أعني: إبطال التحريم بلفظ الظهار، إذ كونهنّ غير أمهاتهم ضروري لا يحتاج إلى التعليل.

{ **وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً** } زيد صنيعهم ذمًّا توبيخًا لهم على صنيعهم، أي: هو مع كونه لا يوجب تحريم المرأة هو قول منكر، أي: قبيح لما فيه من تعريض حرمة الأم بتخيُّلات شنيعة تخطر بمخيلة السامع عندما يسمع قول المظاهر: أنت عليّ كظهر أمي.

{ **وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** } كناية عن عدم مؤاخذتهم بما صدر منهم من الظهار قبل هذه الآية، إذ كان عذرهم أنّ ذلك قول تابعوا فيه أسلافهم وجرى على ألسنتهم دون تفكّر في مدلولاته.

وأمّا بعد نزول هذه الآية فمذهب المالكية: أنّ حكم إيقاعه الحرمة كما صرّح به ابن راشد القفصي في اللباب.

وقال ابن الفرس: هو حرام لا يحلّ إيقاعه.

وأقوال فقهاء الحنفية تدلّ على أنّ الظهار معصية، ولم يصفه أحد من المالكية ولا الحنفية بأنه كبيرة.

العفوّ: كثير العفو، والعفو عدم المؤاخذة بالفعل، أي: عفوٌّ عن قولهم الذي هو منكر وزور.

الغفور: كثير الغفران، والغفران الصفح عن فاعل فعل من شأنه أن يعاقبه عليه. فذكْر وصف {غفور} بعد وصف (عفو) تتميم لتمجيد الله، إذ لا ذنب في المظاهرة حيث لم يسبق فيها نهي.

وتأكيد الخبر في قوله تعالى { وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ } لمشاكلة تأكيد مقابله في قوله تعالى { وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً }.

وقد أومأ قوله تعالى { وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ } إلى أنّ مراد الله في هذا الحكم التوسعة عل الناس، فعلمنا أنّ مقصد الشريعة الإسلامية أن تدور أحكام الظهار على محور التخفيف والتوسعة، فعلى هذا الاعتبار يجب أن يجري الفقهاء فيما يفتون. ولذلك لا ينبغي أن تُلاحظ فيه قاعدة الأخذ بالأحوط ولا قاعدة سدّ الذريعة، بل يجب أن نسير وراء ما أضاء لنا قوله تعالى { وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ }.

وقد قال مالك في (المدونة): " لا يُقَبِّل المظاهر ولا يُباشر ولا ينظر إلى صدر ولا إلى شعر ". وقال الباجي في (المنتقى): فمن أصحابنا من حمل ذلك على التحريم ومنهم من حمله على الكراهية لئلا يدعوه إلى الجماع. وبه قال الشافعي وعبد الملك.

قلتُ: وهذا هو الوجه، لأنّ القرآن ذكر المسيس وهو حقيقة شرعية في الجماع.

والمقصود من هذه الآية إبطال تحريم المرأة التي يظاهر منها زوجها. وتحميق لأهل الجاهلية.

وجعل الله الكفارة فدية لذلك وزجرا ليكف الناس عن هذا القول. ومن هذا المعنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **من قال لصاحبه: تعال أقامِرْك فليتصدق** "، أي: من جرى ذلك عن لسانه بعد أن حرّم الله الميسر.

{ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [3].

عطف على جملة السابقة أعيد المبتدأ فيها للاهتمام بالحكم والتصريح بأصحابه، وكان مقتضى الكلام أن يقال: فإن يعودوا لما قالوا فتحرير رقبة.

{ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا } عطف على جملة { يُظَاهِرُونَ }، و{ ثُمَّ } للتراخي الرتبي تعريضا بالتخطئة لهم إن عادوا إلى ما كانوا يفعلونه في الجاهلية بعد أن انقطع ذلك بالإسلام.

العَوْدُ: الرجوع إلى شيء تركه وفارقه صاحبه. وأصله: الرجوع إلى المكان الذي غادره، وهو هنا مجازي.

<u>الظاهر من القول</u> أنّهم يعودون لما نطقوا به من الظهار. وهذا يقتضي أنّ المظاهر لا يكون مظاهرا إلّا إذا صدر منه لفظ الظهار مرة ثانية بعد أولى، غير أنّ الحديث الصحيح في قضية المجادلة يدفع هذا الظاهر لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لأوس بن الصامت: " **أعتق رقبة** "، كما سيأتي من حديث أبي داود، فتعيّن أنّ التكفير واجب على المظاهر من أوّل مرّة ينطلق فيها بلفظ الظهار.

<u>فيكون المعنى</u>: ثم يريدون العود إلى ما حرّموا على أنفسهم فعليهم كفّارة قبل أن يعودوا.

وتلك هي قضية سبب النزول لأنّ المرأة ما جاءت مجادلة إلّا لأنّها علمت أنّ زوجها المظاهر منها لم يرد فراقها، كما يدلّ عليه الحديث المروي في ذلك في كتاب أبي داود عن خُويلة بنت مالك بن ثعلبة قالت:

" ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشكو إليه و رسول الله يجادلني ويقول: " **اتقي الله، فإنّه ابن عمّك** ؟ " فما برحت حتّى نزل القرآن. فقال: " **يعتق رقبة** ". قلت: لا يجد. قال:" **فيصوم شهرين متتابعين** ". قلت: إنّه شيخ كبير ما به من صيام. قال: " **فليطعم ستين مسكينا** ". قلت: ما عنده شيء يتصدّق به. فأُتِيَ ساعتئذ بعَرَق من تمر، قلت: يا رسول الله فإني أعينه بعرق آخر. قال: " **قد**

أحسنت اذهبي فأطعمي بهما عنه ستين مسكينا وارجعي إلى أبن عمك ".

وفهم من قوله { ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا } أنّ من لم يرد العود إلى امرأته لا يخلوا حاله:

فإمّا أن يريد طلاقها فله أن يوقع عليها طلاقا آخر لأنّ الله أبطل أن يكون الظهار طلاقا.

وإمّا أن لا يريد طلاقا ولا عودا. فهذا قد صار ممتنعا من معاشرة زوجه مُضِرًّا بها فله حكم الإيلاء الذي في قوله تعالى { لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ } [البقرة:226]. وقد كانوا يجعلون الظهار إيلاء كما في قصة سلمة بن صخر البياضي.

{ **فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا** } تحصل من هذا أنّ كفّارة الظهار شُرعت إذا قصد المظاهر الاستمرار على معاشرة زوجه، تحلة ما قصده من التحريم، وتأديبا له على هذا القصد الفاسد والقول الشنيع.

{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا** } والكفَّارة قبل أن يمس زوجه مس استمتاع، وهو كناية عن الجماع في اصطلاح القرآن، كما في قوله تعالى { وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ } [البقرة:237].

{ **ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ** } اسم الإشارة عائد إلى تحرير رقبة.

الوعظ: التذكير بالخير والتحذير من الشر بترغيب أو ترهيب، أي: فرضُ الكفّارة تنبيه لكم لئلّا تعودوا إلى الظهار. ولم يسم الله ذلك كفّارة هنا وسمَّاها النبيّ صلى الله عليه وسلم كفّارة كما في حديث سلمة بن صخر البياضي في جامع الترمذي.

فالمظاهر ممنوع من الاستمتاع بزوجته المظاهر منها، أي: ممنوع من علائق الزوجية، وذلك يقتضي تعطيل العصمة ما لم يكفِّر لأنه ألزم نفسه ذلك، فإن استمتع بها قبل الكفّارة فليتب إلى الله وليستغفر وتتعين عليه الكفارة ولا تتعدَّد الكفارة بسبب الاستمتاع قبل التكفير، لأنّه سبب واحد فلا يضرّ تكرّر مسبِّبه، وإنّما جُعلت الكفَّارة زجرا، ولذلك لم يكن وطأ المظاهر امرأته قبل الكفارة زنى.

وقد روى أبو داود والترمذي حديث سلمة بن صخر البياضي أنّه ظاهر من امرأته ثم وقع عليها قبل أن يكفِّر فأمره النبيّ صلى الله عليه وسلم بكفارة واحدة، وهو قول جمهور العلماء.

وتفاصيل أحكام الظهار في صيغته وغير ذلك مفصَّلة في كتب الفقه.

{ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** } تذييل لجملة { ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ }، أي: والله عليم بجميع ما تعملونه.

{ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [4].

{ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً } رخصة لمن لم يجد عتق رقبة أن ينتقل إلى صيام شهرين متتابعين، لأنّه لمَّا لم يجد رقبة يعتاض بفكِّها عن فك عصمة الزوجة نُقل إلى كفارةٍ فيها مشقّة النفس بالصبر على لذة الطعام والشراب، ليدفع ما التزمه بالظهار من مشقة الصبر على ابتعاد حليلته، فكان الصوم درجة ثانية قريبة من درجة تحرير الرقبة في المناسبة.

{ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا } أعيد القيد للدلالة على أنّه لا يكون المسّ إلّا بعد انقضاء الصيام فلا يظنّ أنّ مجرّد شروعه في الصيام كاف في العود إلى الاستمتاع.

<u>وصريح الآية أنّ تتابع الصيام شرط في التكفير</u> وعليه فلو أفطر في خلاله دون عذر وجب عليه إعادته.

ولا يمس امرأته حتّى يُتِمّ شهرين متتابعين، فإن مسّها في خلال الشهرين أثم ووجب عليه إعادتهما.

وقال الشافعي: إذا كان الوطء ليلا لم يبطل التتابع لأنّ الليل ليس محلا للصوم، وهذا هو الجاري على القياس وعلى مقتضى حديث سلمة بن صخر.

{ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ } أي: لعجزه أو ضعفه رخَّص الله أن ينتقل إلى إطعام ستين مسكينا عوضا عن الصيام، فالإطعام درجة ثالثة يدفع عن ستين مسكينا ألم الجوع عوضا عما كان التزامه على نفسه من مشقة الابتعاد عن لذَّاته، وإنّما حُدِّدت بستين مسكينا إلحاقا لها بكفارة فطر يوم من رمضان عمدا بجامع أنّ كليهما كفارة عن صيام. فكانت الكفَّارة متناسبة مع المُكَفَّر عنه مرتبة ترتيبا مناسبا.

{ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً } أُجمِل مقدار الطعام في الآية اكتفاء بتسميته إطعاما، فيُحمل على ما يقصده الناس من الطعام وهو الشبع الواحد، كما هو المتعارف في فعل طعم. فحمله علماؤنا على ما به شبع الجائع، فيقدَّر في كلّ قوم بحسب ما به شبع معتاد الجائعين.

ولم يذكر مع الإطعام قيد { مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا } اكتفاء بذكره مع تحرير الرقبة وصيام الشهرين ولأنّه بدل عن الصيام ومجزأ لمثل أيام الصيام. هذا قول جمهور الفقهاء.

ثُمّ إن وقع المسيس قبل الكفارة أو قبل إتمامها لم يترتب على ذلك إلّا أنّه آثم إذ لا يمكن أن يترتَّب عليه أثر آخر، وهذا ما بيَّنه حديث سلمة بن صخر الذي شكا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم أنَّه وقع على امرأته بعد أن ظاهر منها، فأمره بأن لا يعود إلى مثل ذلك حتّى يُكفِّر. وهذا قول جمهور الفقهاء، وقال مجاهد عليه كفارتان.

المسكين: شديد الفقر، وتقدّم في [التوبة:60].

وقد أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بكفارّة سلمة بن صخر من أموال بيت المال فحقّ على ولّاة الأمور أن يدفعوا عن العاجز كفّارة ظهاره فإن تعذّر ذلك فالظاهر أنّ الكفارة ساقطة عنه، وأنّه يعود إلى مسيس امرأته.

{ **ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** } الإشارة إلى ما ذُكر من الأحكام. أي: لتؤمنوا إيمانا كاملا بالامتثال لما أمركم الله ورسوله فلا تشوبوا أعمال الإيمان بأعمال أهل الجاهلية. وهذا زيادة في تشنيع الظهار، وتحذير للمسلمين من إيقاعه فيما بعد. أو أنّ ذلك الخلاص من حرج الفراق بالكفارة لتيسير الإيمان عليكم، فهذا في معنى قوله تعالى { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } [الحج:78].

{ **وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ** } الإشارة إلى ما أشير إليه بـ { ذلك }، وجيء له باسم الإشارة التأنيث نظرا للإخبار عنه بلفظ { حُدُودُ }، ومثله قوله تعالى { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا } [البقرة:229].

{ **وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } تتميم لجملة { ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ }، أي: ذلك الحكم، وهو إبطال التحريم بالظهار، حكم الإسلام. وأمّا ما كانوا عليه فهو من آثار الجاهلية فهو سنّة قوم لهم عذاب أليم على الكفر وما تولَّد منه من الأباطيل. فالظهار شرع الجاهلية ولم يكن من الحنيفية. وهذا كقوله تعالى { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ } [التوبة:37].

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ } [5].

{ **إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } لمّا جرى ذكر الكافرين وجرى ذكر حدود الله، وكان في المدينة منافقون من المشركين، نُقِل الكلام إلى تهديدهم وإيقاظ المسلمين للاحتراز منهم.

المحادّة: المشاقة والمعاداة، وقد أوثر هذا الفعل هنا لوقوع الكلام عقب ذكر حدود الله، فإن المحادَّة مشتقة من الحدِّ، لأنّ كلّ واحد من المتعادِيَيْن كأنّه في حدّ مخالف لحدّ الآخر.

الكبت: الخزي والإذلال وفعل { كُبِتُوا } مستعمل في الوعيد أي: سيُكْبتون، فعبَّر عنه بالماضي تنبيها على تحقيق وقوعه لصدوره عمّن لا خلاف في خبره مثل قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1]، ولأنّه مؤيَّد بتنظيره بما وقع لأمثالهم { كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }. وقرينة ذلك تأكيد الخبر بـ { إِنَّ }، لأنّ الكلام لو كان إخبارا عن كبت وقع لم يكن ثَمَّ مقتضى لتأكيد الخبر، إذ لا ينازع أحد فيما وقع.

{ **وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** } معترضة بين جملة { إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } وجملة { وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ }، أي: لا عذر لهم في محادّتهم، فإنّ مع الرسول صلى الله عليه وسلم آيات القرآن بَيِّنَةٌ على صدقه.

{ **وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ** } عطف على جملة { كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }، أي: لهم بعد الكبت عذاب

مهين في الآخرة. وتعريف { لِلْكَافِرِينَ } تعريف الجنس ليستغرق كل الكافرين.
{ **مُهِينٌ** } لمناسبة وعيدهم بالكبت الذي هو الذل والإهانة.

{ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [6].

{ **يَوْمَ** } يجوز أن يكون ظرفا متعلّقا بالكون المقدَّر في خبر المبتدأ من { لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ } [5]، ويجوز أن يكون متعلّقا بـ { مُهِينٌ }، ويجوز أن يكون منصوبا على المفعول به لفعل تقديره: اذكر، تنويهًا بذلك اليوم وتهويلا عليهم، وهذا كثير في أسماء الزمان التي وقعت في القرآن. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30]
{ **يَبْعَثُهُمُ** } ضمير الجمع عائد إلى { الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ / وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [5]. ولذلك أُتِي بلفظ الشمول، وهو { جَمِيعًا }، حالا من الضمير.
{ **فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا** } تهديد بفضح نفاقهم يوم البعث. وفيه كناية عن الجزاء على أعمالهم.
{ **أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ** } في موضع الحال من { بِمَا عَمِلُوا }. والمقصود من الحال هو ما عطف عليه من قوله تعالى { وَنَسُوهُ} لأنّ ذلك محلُّ العبرة.
{ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** } تذييل. و**الشهيد**: العالم بالأمور المشاهدة.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [7].

استئناف ابتدائي هو تخلُّص من قوله تعالى { أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ } [6]، إلى ذكر علم الله بأحوال المنافقين وأحلافهم اليهود. فكان المنافقون يناجي بعضهم بعضا ليُرِيَ للمسلمين مودة بعض المنافقين لبعض، فإنّ المنافقين بتناجيهم يظهرون أنّهم طائفة أَمْرُها واحد وكلمتها واحدة، وهم وإن كانوا يُظهرون الإسلام يحبُّون أن تكون لهم هيبة في قلوب المسلمين يتّقون بها بأسهم إن اتهموا بعضهم بالنفاق أو بدرت من أحدهم بادرة تنمّ بنفاقه، فلا يُقدم المؤمنون على أذاه لعلمهم بأنّ له بطانة تدافع عنه.
وكان المسلمون يومئذ على توقّع حرب مع المشركين في كل حين فيتوهمون أن من مناجاة المتناجين حديث عن قرب العدو أو عن هزيمة للمسلمين في السرايا التي يخرجون فيها، فنزلت هذه الآيات لإشعار المنافقين بعلم الله بماذا يتناجون، وأنه مُطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على دخيلتهم ليكفّوا عن الكيد للمسلمين.

فهذه الآية تمهيد لقوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى } [8].

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ } من الرؤية العلمية لأنّ علم الله لا ير. والتقدير: ألم تر الله عالما.

{ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } يعمُّ المبصَرات والمسموعات، فهو أعلم من قوله تعالى { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [6]، لاختصاصه بعلم المشاهدات، لأنّ الغرض المفتتح به هذه الجملة هو علم المسموعات.

{ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ } إلى آخرها، بدل البعض من الكل، فإنّ معنى قوله تعالى { إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ }، وقوله تعالى { إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ } وقوله تعالى { إِلَّا هُوَ معهُمْ }، أنّه مطّلع على ما يتناجون فيه فكأنّه تعالى نَجِيٌّ معهم. أي: ما يكون تناجي ثلاثة من الناس إلّا الله مطلع عليهم كرابع لهم، ولا خمسة إلّا كسادس لهم، ولا أدنى ولا أكثر إلّا هو كواحد منهم.

النجوى: أسم مصدر ناجاه، إذا سارَّه.

والمقصود من هذا الخبر الإنذار والوعيد، وتخصيص عددَي الثلاثة والخمسة بالذكر لأنّ بعض المتناجين الذين نزلت الآية بسببهم كانوا حلفا بعضها من ثلاثة وبعضها من خمسة.

{ أَيْنَ مَا كَانُوا } أي: في أيّ مكان كانوا فيه، ونظيره قوله تعالى { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ } [الحديد:4].

{ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ } { ثُمَّ } للتراخي الرتبي، لأنّ إنباءهم يوم القيامة بما تكلّموا وما عملوه في الدنيا أدلّ على سعة علم الله من علمه بحديثهم في الدنيا.

وفي هذا وعيد لهم بأنّ نجواهم إثم عظيم، وفيه تحذير من يشاركهم.

{ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } تذييل لجملة { ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا } فأغنت { إِنَّ } غناء فاء السببية.

وتأكيد الجملة للاهتمام، وإلّا فإنّ المخاطَب لا يتردّد في ذلك. وهذا التعريض بالوعيد يدلّ على أنّ النهي عن التناجي كان سابقا على نزول هذه الآية والآيات بعدها.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [8].

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ}

إن كانت هذه الآية والآيتان اللتان بعدها نزلت مع الآية التي قبلها، حسبما يقتضيه ظاهر ترتيب التلاوة، كان قوله تعالى { نُهُوا عَنِ النَّجْوَى } مؤذنا بأنّه سبق نَهْيٌ عن النجوى قبل نزول هذه الآيات. وهو ظاهر قول مجاهد وقتادة: نزلت في قوم من اليهود والمنافقين نهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التناجي بحضرة

المؤمنين فلم ينتهوا فنزلت، فتكون الآيات الأربع نزلت لتوبيخهم، وهو ما اعتمدناه آنفا.
وإذا كانت نزلت بعد الآية التي قبلها بفترة كان المراد النهي الذي أشار إليه قوله تعالى { ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [7]. فيكون المراد بـ { الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى } الذين عُنوا بقوله تعالى { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } [7].
{ **أَلَمْ تَرَ** } الاستفهام تعجيبي مراد به توبيخهم حين يسمعونه. والرؤية بصرية بقرينة تعديتها بحرف { إلى }.
{ **النَّجْوَى** } تعريف العهد لأنّ سياق الكلام في نوع خاص من النجوى. وهي النجوى التي تحزن الذين آمنوا كما ينبئ عنه قوله تعالى { إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا } [10].
ويجوز أن يكون النهي عن جنس النجوى في أوّل الأمر يعمّ كلّ نجوى بمرأى من الناس سدًّا للذريعة.
قال الباجي في (المنتقى): " روي أنّ النهي عن تناجي اثنين أو أكثر دون واحد أنّه كان في بدء الإسلام فلمّا فشا الإسلام وآمن الناس زال هذا الحكم لزوال سببه ".
وفي الموطأ حديثٌ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحد ".
زاد في رواية مسلم: " إلّا بإذنه فإنّ ذلك يُحزنه ".
وأُلحِق بالتناجي أن يتكلّم رجلان بلغة لا يعرفها ثالث معهما.
{ **ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ** } { ثُمَّ } للتراخي الرتبي لأنّ عودتهم إلى النجوى بعد أن نهوا عنه أعظم من ابتداء النجوى لأنّ ابتداءها كان إثما لما اشتملت عليه نجواهم من نوايا سيّئة نحو النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين فأمّا عودتهم إلى النجوى بعد أن نُهوا عنها فقد زادوا به تمرُّدا على النبيّ صلى الله عليه وسلم ومشاقّة للمسلمين.
{ **يَعُودُونَ** } صيغة المضارع دالة على التجدّد، أي: يُكرّرون الفعل بحيث يريدون بذلك العصيان وقلّة الاكتراث بالنهي.
{ **لِمَا نُهُوا عَنْهُ** } عُدِل عن الإتيان بضمير النجوى إلى الموصول وصلته لما تؤذن به الصلة من التعليل لما بعدها من الوعيد بقوله تعالى { حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ }، على ما في الصلّة من التسجيل على سفههم.
{ **وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ** } قرأ الجمهور { يَتَنَاجَوْنَ } بصيغة التفاعل من ناجى المزيد.
الإثم: المعصية، وهو ما يشتمل عليه تناجيهم من كلام الكفر وذمّ المسلمين.
{ **العُدوان** } (بضمّ العين) الظلم وهو ما يدبّرونه من الكيد للمسلمين.
معصية الرسول: مخالفة ما يأمرهم به، ومن جملة ذلك أنّه نهاهم عن النجوى. وفي ذلك دلالة على أنّهم منافقون لا يهود، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ما كان ينهى اليهود عن أحوالهم. وهذا يردُّ قول من تأوّل الآية على اليهود وهو قول مجاهد وقتادة، بل الحقّ ما في ابن عطية عن ابن عباس أنّها نزلت في المنافقين.

{ وإذَا جاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ }

بعد أن ذكر حالهم في اختلاء بعضهم ببعض ذكر حال نيّاتهم الخبيثة عند الحضور في مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذا دخلوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم يُخفتون لفظ (السلام عليكم) لأنّه شعار الإسلام ولما فيه من معنى السلامة يعدلون عن ذلك ويقولون: (أنعِم صباحا)، وهي تحية العرب في الجاهلية. نقله ابن عطية عن ابن عباس.

{ **بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ** } أي: بغير لفظ السلام، فإن الله حيَّاه بذلك بخصوصه في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [الأحزاب:56]. وحيّاه به في عموم الأنبياء بقوله تعالى { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى } [النمل: 59]، وتحية الله هي التحيّة الكاملة.

وليس المراد من هذه الآية ما ورد في حديث: " أن اليهود كانوا إذا حيّوا النبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا: السامُ عليك، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يرد عليهم بقوله: " **وعليكم** ". فإنّ ذلك وارد في قوم معروف أنّهم من اليهود. وما ذكر أول هذه الآية لا يليق حمله على أحوال اليهود، كما علمت آنفا، ولو حمل ضمير { جَاءُوكَ } على اليهود لزم عليه تشتيت الضمائر.

أمّا هذه الآية ففي أحوال المنافقين، وهذا مثل ما كان بعضهم يقول للنبيّ صلى الله عليه وسلم { رَاعِنَا } [البقرة:104]، تعلَّموها من اليهود وهم يريدون التوجيه بالرعونة، فأنزل الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [البقرة:104]، ولم يُرد منه نهي اليهود.

{ **يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ** } يقول بعضهم لبعض، على نحو قوله تعالى { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ } [النور:61]، وقوله تعالى { ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً } [النور:12]. ويجوز أن يكون المراد في مجامعهم.

{ **لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ** } أي: هَلَّا يُعذّبنا الله بسبب كلامنا الذي نتناجى به، أي: يقولون ما معناه لو كان محمدا نبيًّا لعذبنا الله بما نقوله من السوء فيه ومن الذمّ. فإنّ { لولا } للتحضيض مستعملة هنا كناية عن جحد نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: لو كان نبيًّا لغضب الله علينا فلعذّبنا الآن بسبب قولنا له.

وهذا خاطر من خواطر أهل الضلالة المتأصّلة فيهم، وهي توهّمهم أنّ شأن الله تعالى كشأن البشر في إسراع الانتقام والاهتزاز ممّا لا يرضاه من المعاندة. وفي الحديث " **لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، يدعون له ندًّا وهو يرزقهم** ".

على أنّهم لجحودهم بالبعث والجزاء يحسبون أنّ عقاب الله تعالى يظهر في الدنيا. وهذا من الغرور، قال تعالى { وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت:23]، ولذلك قال تعالى ردًّا على كلامهم:

{ **حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } أي: كافيهم من العذاب جهنم فإنّها العذاب.

{ **يَصْلَوْنَهَا** } أصلها: يصلون بها، فضُمّن معنى يذوقونها أو يحسّونها، وقد تكرّر هذا الاستعمال في القرآن.

{ **فَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } تفريع على الوعيد بشأن ذم جهنم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [9].

استئناف ابتدائي، خطاب للمنافقين الذين يُظهرون الإيمان فعاملهم الله بما أظهروه وناداهم بوصف الإيمان، كما قال تعالى { مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُم } [المائدة:41]. نبّههم إلى تدارك حالهم بالإقلاع عن آثار النفاق، على عادة القرآن من تعقيب التخويف بالترغيب.

ذلك أنّ المنافقين كانوا يعملون بعمل أهل الإيمان إذا لقوا الذين آمنوا فإذا رجعوا إلى قومهم غلب عليهم الكفر فكانوا في بعض أحوالهم مقاربين الإيمان بسبب مخالطتهم للمؤمنين. ولذلك ضرب الله لهم مثلا بالنور في قوله تعالى { كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا } [البقرة:20]. وهذا هو المناسب لقوله { فَلا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ } ، ويكون قوله تعالى { وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ } تنبيها على ما يجب عليهم إن كانوا متناجين لا محالة.

ويجوز أن تكون خطابا للمؤمنين الخُلّص بأن وجّه الله الخطاب إليهم تعليما لهم بما يحسُن من التناجي وما يقبح منه بمناسبة ذمّ تناجي المنافقين، فلذلك ابتدئ بالنهي عن مثل تناجي المنافقين، وإن كان لا يصدر مثله من المؤمنين، تعريضا بالمنافقين، مثل قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزّىً لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا } [آل عمران: 156]، ويكون المقصود من الكلام هو قوله تعالى { وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى } تعليما للمؤمنين.

{ **إِذَا تَنَاجَيْتُمْ** } يشير التقييد إلى أنّه لا ينبغي التناجي مطلقا ولكنّهم لمّا اعتادوا التناجي حُذّروا من غوائله، وإلّا فإن التقييد مستغنى عنه بقوله { فَلا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } وهذا مثل ما وقع في حديث النهي عن الجلوس في الطرقات من قوله صلى الله عليه سلم: " **فإن كنتم فاعلين لا محالة فاحفظوا حقّ الطرقات** ".

{ **فَلا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ** } الإثم والعدوان ومعصية الرسول تقدّمت [8].

{ **وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** } الأمر هنا مستعمل في الإباحة كما اقتضاه قوله تعالى { إِذَا تَنَاجَيْتُمْ }.

البرّ: ضد الإثم والعدوان، وهو يعم أفعال الخير المأمور بها في الدين.

{ **التَّقْوَى** } الامتثال، وتقدّمت في قوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2].

{ **الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** } تذكير بيوم الجزاء. فالمعنى: الذي إليه تحشرون فيجازيكم.

{ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }[10].

تسلية للمؤمنين وتأنيس لنفوسهم يُزَال به ما يلحقهم من الحزن لمشاهدة نجوى المنافقين. فالجملة استئناف ابتدائي اقتضته مناسبة النهي عن النجوى، على أنّها قد تكون تعليلا لتأكيد النهي عن النجوى.

{ **النَّجْوَى** } تعريف العهد لا محالة. أي: نجوى المنافقين الذين يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **إِنَّمَا** } قصر موصوف على صفة و { من } ابتدائية، أي: قصر النجوى على الكون من الشيطان، لأنّ الأغراض التي يتناجون فيها من أكبر ما يوسوس الشيطان لأهل الضلالة بأن يفعلوه ليحزن الذين آمنوا بما يتطرَّقهم من خواطر الشر بالنجوى، وهذه العلّة ليست قيدا في الحصر فإنّ للشيطان عللا أخرى مثل إلقاء المتناجين في الضلالة، والاستعانة بهم على إلقاء الفتنة، وغير ذلك من الأغراض الشيطانية.

وقد خُصَّت هذه العلة بالذكر لأنّ المقصود تسلية المؤمنين وتصبُّرهم على أذى المنافقين، ولذلك عُقِّب بقوله تعالى { وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً } ليطمئن المؤمنون بحفظ الله إيّاهم من ضرّ الشيطان. وهذا نحو قوله { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } [الحجر:42].

{ **لِيَحْزُنَ** } وقرأ نافع وحده { لِيُحْزِنَ } (بضم الياء وكسر الزاي) فيكون { الَّذِينَ آمَنُوا } مفعولا. وقرأه الباقون (بفتح الياء وضم الزاي) مضارع حزن، فيكون { الَّذِينَ آمَنُوا } فاعلا.

{ **وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** } معترضة. وضمير الرفع المستتر في قوله تعالى { بِضَارِّهِمْ } عائد إلى { الشيطان }. والمعنى: أنّ الشيطان لا يضرُّ المؤمنين بالنجوى أكثر من أن يحزنهم. فهذا كقوله تعالى { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً } [آل عمران:111].

أو يكون الضمير عائدا إلى النجوى بتأويله بالتناجي، أي: ليس التناجي بضار المؤمنين لأنّ أكثره ناشئ عن إيهام حصول ما يتّقونه في الغزوات.

{ **شَيْئًا** } انتصب على المفعول المطلق، أي: شيئا من الضرّ. ووقوعه في سياق النفي يفيد عموم نفي كلّ ضرّ من الشيطان. ويجوز أن يكون عموم { شَيْئًا } مرادا به الخصوص، أي: ليس بِضَارِّهِمْ شيئا مما يوهمه تناجي المنافقين. والمعنى: أنّ التناجي يوهم الذين آمنوا ما ليس واقعا فأعلمهم الله أنّ لا يحزنوا بالنجوى لأنّ الأمور تجري على ما قدره الله.

{ **إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** } الاستثناء من عموم { شَيْئًا } الواقع في سياق النفي، أي: إلّا ضرا ملابسا لإذن الله في أن يُسلّط عليهم الشيطان ضرّه فيه، أي: ضر وسوسته.

وأستعير الإذن لما جعله الله في أصل الخلقة من تأثر النفوس بما يُسوَّل إليها. وهو معنى قوله تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر:42] فإذا خلَّى الله بين الوسوسة وبين العبد يكون اقتراب العبد من المعاصي الظاهرة والباطنة في كل حالة يبتعد فيها المؤمن عن مراقبة الأمر والنهي الشرعيين، ولهذا ذُيّل بقوله تعالى

{ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** } لأنّهم إذا توكّلوا على الله توكلا حقا بأن استفرغوا وسعهم في التحرز من كيد الشيطان واستعانوا بالله على تيسير ذلك لهم فإنّ الله يحفظهم من كيد الشيطان، قال تعالى { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } [الطلاق:3]. وتقديم الجار والمجرور للاهتمام بمدلول هذا المتعلق.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [11].

فُصل بين آيات الأحكام المتعلّقة بالنجوى بهذه الآية مراعاة لاتحاد الموضوع بين مضمون هذه الآية ومضمون التي بعدها في أنّهما يجمعهما غرض التأدّب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وتلك المراعاةُ أَوْلَى من مراعاة اتحاد سياق الأحكام.

ففي هذه الآية أدب في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم، والآية التي بعدها تتعلق بالأدب في مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأُخِّرت تلك عن آيات النجوى العامة إيذانا بفضلها دون النجوى التي تضمنتها الآيات السابقة، فاتحاد الجنس في النجوى هو مسوغ الانتقال من النوع الأوّل إلى النوع الثاني، والإيماء إلى تميُّزها بالفضل هو الذي اقتضى الفصل بين النوعين بآية أدب المجلس النبوي.

وأيضا قد كان للمنافقين نيّة مكر في قضية المجلس كما كان لهم نيّة مكر في النجوى، وهذا ممَّا أنشأ مناسبة الانتقال من الكلام على النجوى إلى ذكر التفسُّح في المجلس النبوي الشريف.

روي عن مقاتل أنّه قال: كان النبيّ صلى الله عليه وسلم في الصُّفَّة، وكان في المكان ضيق في يوم الجمعة

فجاء ناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس قد سُبِقوا في المجلس فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يُفسح لهم، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر، فقال لمن حوله: هُمَّ يا فلان [أي: قم]، بعدد الواقفين من أهل بدر، فشقّ ذلك على الذين أقيموا، وغمز المنافقون وقالوا: ما أنصف هؤلاء، وقد أحبُّوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى مجلسه، فانزل الله هذه الآية تطييبا لخاطر الذين أقيموا، وتعليما للأمّة بواجب رعي فضيلة أصحاب الفضيلة منها، وواجب الاعتراف بمزيّة أهل المزايا، قال الله تعالى { وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ } [النساء:32]، وقال تعالى { لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } [الحديد:10].

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } خطاب لجميع المؤمنين يعمّ من حضروا المجلس الذي وقعت فيه حادثة سبب النزول وغيرهم ممَّن عسى أن يحضر مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ** } ابتدئت الآية بالأمر بالتفسّح، لأنّ إقامة الذين أقيموا إنّما كانت لطلب التفسيح، فإناطة الحكم إيماء إلى علّة الحكم.

{ **إِذَا قِيلَ لَكُمْ** } حذف فاعل القول لظهوره، أي: إذ قال لكم الرسول تفسَّحوا فافسحوا.

التفسّح: التوسّع وهو تفعُّل من فسَحَ له (بفتح السين مخففة) إذ أوجد له فسحة في مكان، وفَسُحَ المكان، من باب كرُم، إذ صار فسيحا.

{ **الْمَجَالِسِ** } <u>التعريف يجوز أن يكون تعريف العهد</u>، وهو مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم. أي: إذ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لكم ذلك، لأن أمره لا يكون إلّا لمراعاة حق راجح إلى غيره.

المجلس: مكان الجلوس. وكان مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم بمسجده والأكثر أن يكون جلوسه بالمكان المسمَّى بـ (الروضة) وهو ما بين منبر النبيّ صلى الله عليه وسلم وبيته.

<u>ويجوز أن يكون التعريف تعريف الجنس</u>.

{ **يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ** } مجزوم في جواب قوله تعالى { فَافْسَحُوا }، وهو وعد بالجزاء على الامتثال لأمر التفسّح من جنس الفعل إذ جعلت توسعة الله على الممتثل جزاء على امتثاله الذي هو إفساحه لغيره.

وحُذف متعلّق { يفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ } ليعمّ كلّ ما يتطلّب الناس الإفساح فيه، بحقيقته ومجازه، في الدنيا والآخرة؛ من مكان أو رزق أو جنة عرضها السماوات والأرض، على حسب النيّات.

<u>والآية لا تدلّ إلّا على الأمر بالتفسّح إذ أمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم</u> ولكن يُستفاد منها أنّ تفسّح المؤمنين بعضهم لبعض في المجالس محمود مأمور به وجوبا أو ندبا لأنه من المكارمة والإرفاق. فهو من مكمّلات واجب التَّحاب بين المسلمين. وإن كان فيه كلفة على صاحب البقعة يضايقه فيها غيره، فهي كلفة

غير معتبرة إذا قوبلت بمصلحة التَّحاب وفوائده، وذلك ما لم يُفْضِ إلى شدّة مضايقة أو مضرّة أو إلى تفويت مصلحة من سماع أو نحوه مثل مجالس العلم و الحديث وصفوف الصلاة.

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أحبكم إليَّ ألينكم مناكب في الصلاة** ". قال مالك ما أرى الحكم إلّا يطّرد في مجالس العلم ونحوها غابر الدهر.

وأَفْهَمَ لفظُ التفسّح أنّه تجنّبٌ للمضايقة والمراصَّة بحيث يفوت المقصود من حضور ذلك المجلس أو يحصل ألم للجالسين. وقد أرخص مالك في التخلّف عن دعوة الوليمة إذ كثر الزحام فيها.

{ **وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا** } الآية عطف على { إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ }.

{ انْشُزُوا } أمر من نشز إذا نهض من مكانه، يقال: نشز ينشز من باب قعد وضرب إذا ارتفع، لأنّ النهوض ارتفاع من المكان الذي استقرّ فيه. ومنه نشوز المرأة من زوجها مجازا عن بُعدها عن مضجعها.

والنشوز أخص من التفسيح من وجه، فهو من عطف الأخصّ من وجه على الأعمّ منه للاهتمام بالمعطوف، لأنّ القيام من المجلس أقوى من التفسيح مع القعود. فذُكر النشوز لئلّا يُتوهم وأنّ التفسيح المأمور به تفسيح من قعود، لا سيما وقد كان سبب النزول الأمر بالنشوز.

<u>ومن المفسرين من فسر النشوز بمطلق القيام</u> من مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم سواء كان لأجل التفسيح أو لغير ذلك ممّا يُؤمر بالقيام لأجله. روي عن ابن عباس وقتادة والحسن: " إذا قيل انشزوا إلى الخير وإلى الصلاة فانشزوا ".

{ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** } جواب الأمر في قوله { فَانْشُزُوا }. وعد بالجزاء على الامتثال للأمر الشرعي. ولمّا كان النشوز ارتفاعا عن المكان الذي كان به كان جزاؤه من جنسه.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ** } ضمير خطاب للذين نودوا بـ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا }. و(من) تبعيضية. أي: يرفع الله درجات الذين امتثلوا. وتقدير: يرفع الله الذين استجابوا للأمر بالنشوز إذا كانوا من المؤمنين، أي: دون من يضمّه المجلس من المنافقين. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: يرفع الله الناشزين منكم فاستُحضروا بالموصول بصلة الإيمان لما تؤذن به الصلة من الإيماء إلى علّة رفع الدرجات لأجل امتثالهم أمر القائل { انشزوا }، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، أن كان لإيمانهم.

{ **وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** } عطف الخاص على العام لأنّ غشيان مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم إنّما هو لطلب العلم من مواعظه وتعليمه، أي: والذين أوتوا العلم منكم أيّها المؤمنون، فإقامة الجالسين في المجلس لأجل إجلاس الذين أوتوا العلم من رفع درجاتهم في الدنيا. ولعلّ البدريين الذين نزلت الآية بسبب قصتهم كانوا من الصحابة الذين أوتوا العلم.

<u>ويجوز</u> أنّ بعضا من الذين أمروا بالقيام كان من أهل العلم فأقيم لأجل رجحان فضيلة البدريين عليه، فيكون

في الوعد للذي أقيم من مكانه برفع الدرجات استئناس له بأن الله رافع درجته.

وقال عبد الله بن مسعود وجماعة من أهل التفسير: إنّ قوله تعالى { الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } كلام مستأنف وتم الكلام عند قوله { منكم }. قال ابن عطية: ونصب { دَرَجَاتٍ } بفعل مضمر هو الخبر عن المبتدأ، والتقدير: جعلهم.

{ **دَرَجَاتٍ** } التنكير للإشارة إلى أنواعها من درجات الدنيا ودرجات الآخرة. والدرجات مستعارة للكرامة.

{ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** } تذييل، أي: الله عليم بأعمالكم ومختلف نيّاتكم من الامتثال. كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لا يُكْلَمُ أحد في سبيل الله والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله "**.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [12].

استئناف ابتدائي عاد به إلى ذكر بعض أحوال النجوى وهو من أحوالها المحمودة. والمناسبة هي قوله تعالى { وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى } [9]. فهذه الصدقة شرعها الله تعالى وجعل سببها مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فذُكرت عقب آي النجوى لاستيفاء أنواع النجوى من محمود ومذموم.

وقد اختلف المتقدِّمون في سبب نزول هذه الآية، وحكمة مشروعية صدقة المناجاة. فنُقلت عن أبن عباس وقتادة وجابر بن زيد وزيد بن أسلم ومُقاتل أقوال في سبب نزولها متخالفة، ولا أحسبهم يريدون منها إلّا حكاية أحوال للنجوى كانت شائعة. وأمسك مجاهد فلم يذكره لهذه الآية سببا.

وكانت عبارات الأقدمين تجري على التسامح فيطلقون على أمثلة الأحكام وجزئيّات الكليات اسم أسباب النزول، كما ذكرناها في المقدّمة الخامسة من مقدِّمات هذا التفسير.

والذي يظهر لي: أنّ هذه الصدقة شرعها الله وفرضها على من يجد ما يتصدق به قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم وأسقطها عن الذين لا يجدون ما يتصدَّقون به. وجعل سببها ووقتها هو وقت توجُّههم إلى مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان المسلمون حريصين على سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمور الدين كل يوم فشرع الله لهم هذه الصدقة كل يوم لنفع الفقراء نفعا يوميا، وكان الفقراء أيامئذ كثيرين بالمدينة منهم أهل الصُّفَّة ومعظم المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم.

والأظهر أنّ هذه الصدقة شُرعت بعد الزكاة فتكون لحكمة إغناء الفقراء يومًا فيومًا، لأنّ الزكاة تُدفع في رؤوس السنين وفي مُعيَّن الفصول فلعل ما يصل إلى الفقراء منها يستنفدونه قبل حلول وقت الزكاة القابلة.

{ **نَاجَيْتُمُ** } مستعمل في معنى إرادة الفعل.

{ **بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ** } معناه: قبل نجواكم بقليل، وهي استعارة تمثيلية جرت مجرى المثل للقرب من الشيء قبيل الوصول إليه. تشبيه معقول بمحسوس. ويستعمل في قرب الزمان بتشبيه الزمان بالمكان، كما هنا.

{ **ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ** } الإشارة إلى التقديم المفهوم من { فَقَدِّمُوا }. تعريف بحكمة الأمر بالصدقة قبل نجوى الرسول صلى الله عليه وسلم ليرغب فيها الراغبون.

{ **خَيْرٌ** } يجوز أن يكون اسم تفضيل، أصله: أخير، أي: ذلك أشد خَيْرِيَّة لكم من أن تناجوا الرسول صلى الله عليه وسلم بدون تقديم صدقة، وإن كان في كلٍّ خير. كقوله تعالى { وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } [البقرة:271].

ويجوز أن يكون اسما مقابل الشرّ، أي: تقديم الصدقة قبل النجوى فيه خير لكم، وهو تحصيل رضى الله تعالى في حين إقبالهم على رسوله صلى الله عليه وسلم فيحصل من الانتفاع بالمناجاة ما لا يحصل مثله بدون تقديم الصدقة.

{ **أَطْهَرُ** } اسم تفضيل، أي: أشد طهرا، والطهر هنا معنوي، وهو طهر النفس وزكاؤها، لأنّ المتصدق تتوجه إليه أنوار ربانية من رضى الله عنه فتكون نفسه زكية. قال تعالى { تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } [التوبة:103].

ومنه سُمِّيت الصدقة زكاة.

وصفة هذه الصدقة أنّها كانت تعطى للفقير حين يعمد المسلم إلى الذهاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ليناجيه.

{ **فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } إعذار للعاجزين، أي: فإن لم تجدوا ما تتصدّقون به قبل النجوى غفر الله لكم المغفرة التي كانت تحصل لكم لو تصدّقتم، لأنّ من نوى أن يفعل الخير وعجز كان له أجر على نيّته.

{ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [13].

الخطاب لطائفة من المؤمنين قادرين على تقديم الصدقة قبل المناجاة وشق عليهم ذلك أو ثقل.

قال المفسّرون: إنّ هذه الآية ناسخة للتي قبلها، أسقطت وجوب تقديم الصدقة لمن يريد مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وروي ذلك عن ابن عباس، واستبعده ابن عطية.

{ **أَأَشْفَقْتُمْ** } الاستفهام مستعمل في اللوم على تجهُّم تلك الصدقة مع ما فيها من فوائد لنفع الفقراء. وقد عُلم من الاستفهام التوبيخي أنّ بعضًا لم يفعل ذلك.

الإشفاق: توقّع حصول ما لا يبتغيه، والمفعول هو { أَنْ تُقَدِّمُوا }، أي: من أن تقدِّموا، أي: أأشفقتم عاقبة ذلك.

{ **فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ** } تجاوز وتخفيف.

{ **فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا** } الـ (فاء) لتفريع ما بعدها على الاستفهام التوبيخي. و(إذا) ظرفية مفيدة للتعليل، أي: فحين لم تفعلوا فأقيموا الصلاة. وما تتعلق به (إذ) محذوف دلّ عليه قوله تعالى { وتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ }، تقديره: خفَّفنا عنكم وأعفيناكم من أن تقدِّموا صدقة قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ** } معترضة.

{ **فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ** } الـ (فاء) عاطفة على كلام مقدّر: وحافظوا على التكاليف الأخرى وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله. أي: فذلك لا تسامح فيه. قيل لهم ذلك لئلَّا يحسبوا أنّهم كلَّما ثقُل عليهم فعل ما كُلِّفوا به يُعفوْن منه.

{ **وَآتُوا الزَّكَاةَ** } وإذ قد كانت الزكاة المفروضة سابقة على الأمر بصدقة النجوى، على الأصحّ، كان الأمر مستعملا في طلب الدوام مثل فعل { فَأَقِيمُوا }.

{ **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** } تذييل لجملة { فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ }، وهو كناية عن التحذير من التفريط في طاعة الله ورسوله.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [14] أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [15] }.

مستأنفة استئنافا ابتدائيا لأنّها عود إلى الغرض الذي سيقت فيه آيات { إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [5]، بعد أن فُصل بمستطردات كثيرة بعده. وهذه حالة أخرى من أحوال أهل النفاق، هي تولّيهم اليهود مع أنّهم ليسوا من أهل ملَّتهم، لأنّ المنافقين من أهل الشرك.

{ **أَلَمْ تَرَ** } الاستفهام تعجبي، مثل قوله تعالى { أَتَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى } [8]. ووجه التعجيب من حالهم أنّهم تولَّوا قوما من غير جنسهم وليسوا في دينهم، ما حملهم على تولِّيهم إلا اشتراك الفريقين في عداوة الإسلام والمسلمين.

{ **قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** } هم اليهود وقد عُرفوا بما يرادف هذا الوصف في القرآن في قوله تعالى { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ } [الفاتحة:7].

{ **مَا هُمْ** } الضمير يحتمل أن يعود إلى { الَّذِينَ تَوَلَّوْا } وهم المنافقون، فتكون جملة { مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ } حالا من { الَّذِينَ تَوَلَّوْا }، أي: ما هم مسلمين ولا يهود. ويجوز أن يعود الضمير إلى { قَوْمًا }، أي: قوما ليسوا مسلمين ولا مشركين بل هم يهود.

{ **وَلَا مِنْهُمْ** } وكذلك الضمير هنا يحتمل الأمرين على التعاكس، وكلا الاحتمالين واقعٌ ومرادٌ على طريقة الكلام الموجَّه، تكثيرا للمعاني مع الإيجاز، فيفيد التعجُّب من حال المنافقين أن يتولَّوا قوما أجانب عنهم.

{ **وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ** } عطف على { تَوَلَّوْا }، وجيء به مضارعا للدلالة على تجدُّده، ولاستحضار الحالة العجيبة في حين حلفهم على الكذب للتنصَّل ممَّا فعلوه.

الكذب: هي الأخبار التي يخبرون بها عن أنفسهم في نفي ما يصدر منهم في جانب المسلمين.

{ **وَهُمْ يَعْلَمُونَ** } في موضع الحال، وذلك أدخل في التعجيب لأنّه أشنع من الحلف على الكذب لعدم التثبت في المحلوف عليه.

أشار هذا إلى ما كان يحلفه المنافقون للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمسلمين إذا كُشفت بعض مكائدهم، ومن ذلك قول الله تعالى فيهم { وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ } [التوبة:56]، وقوله تعالى { يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ } [التوبة:62]، وقوله تعالى { يحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ } [التوبة:74].

قال السُدّي ومُقاتل: نزلت في (عبد الله بن أُبَي) و(عبد الله بن نبتل) كان أحدهما، وهو عبد الله بن نبتل، يجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويرفع أخباره إلى اليهود ويسبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم فإذا بلغه خبره أو اطلعه الله عليه جاء فاعتذر وأقسم أنّه ما فعل.

{ **إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } تعليل لإعداد العذاب لهم، أي: أنّهم عملوا فيما مضى أعمالا سيّئة متطاولة متكرِّرة، كما يؤذن بها المضارع من قوله تعالى { يَعْمَلُونَ }.

{ **يَعْلَمُونَ / يَعْمَلُونَ** } بينهما الجناس المقلوب قَلْب بعض.

{ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } [16].

مستأنفة استئنافا بيانيًّا عن جملة { وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [14]، لأنّ ذلك يثير سؤال سائل أن يقول ما ألجأهم إلى الحلف على الكذب، فأجيب بأنّ ذلك لقضاء مآربهم وزيادة مكرهم. ويجوز أن تجعل الجملة خبرا ثانيا، وتكون داخلة في التعليل.

الجُنَّة: الوقاية والسترة، من جنَّ، إذا أستتر. أي: وقاية من شعور المسلمين بهم ليتمكَّنوا من صد كثير ممن يريد الدخول في الإسلام عن الدخول فيه لأنّهم يختلقون أكذوبات ينسبونها إلى الإسلام، وذلك معنى التفريع بالفاء في قوله تعالى { فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله }.

{ **فَصَدُّوا** } يجوز أن يكون متعدِّيا، وحذف مفعوله لظهوره، أي: فصدوا الناس عن الإسلام بالتثبيط وإلصاق التهم والنقائص بالدين. ويجوز أن يكون الفعل قاصرا، أي: فصدّوا هم عن سبيل الله.

{ **فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** } تفريع، ليُعلم أنَّ ما اتخذوا من إيمانهم جُنَّة سبب من أسباب العذاب.

وقد وُصف العذاب أوّل مرة بشديد، { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً } [15]، وهو الذي يجازون به على تولّيهم قوما غضب الله عليهم وحلفهم على الكذب. ووصف هنا بـ { مُهِينٌ } لأنّه جزاء على صدّهم الناس عن سبيل الله. وهذا معنى شديد العذاب لأجل عظيم الجرم، كقوله تعالى { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ } [النمل:88]. وهو عذاب واحد فيه الوصفان. وكُرِّر ذكره إبلاغا في الإنذار والوعيد، فإنّه مقام تكرير، مع تحسينه باختلاف الوصفين.

{ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }[17].

مناسب لقوله تعالى { اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً } [16]، فكما لم تَقِهِمْ أيمانهم العذابَ لم تُغْنِ عنهم أموالُهم ولا أنصارُهم شيئا يوم القيامة.

وكان المنافقون من أهل الثراء بالمدينة، وكان ثراؤهم من أسباب إعراضهم عن قبول الإسلام لأنّهم كانوا أهل سيادة فلم يرضوا أن يصيروا في طبقة عموم الناس. فكانوا يفخرون على المسلمين بوفرة الأموال وكثرة العشائر وذلك في السنة الأولى من الهجرة. وكان عبد الله بن أُبَي بن سلول مهيَّأ لأن يملِّكوه على المدينة قبيل إسلام الأنصار، ومن أقوله الشاهدة على نفاقه { لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ } [المنافقون:8]، يريد بالأعز فريقه وبالأذل فريق المسلمين.

فآذنهم الله بأنّ أموالهم وأولادهم لا تغنى عنهم ممّا توعَّدهم الله به من المذلّة في الدنيا والعذاب في الآخرة، قال تعالى { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً } [الأحزاب:60]. وإذ لم تغن عنهم من الله في الدنيا فإنّها أجدر بأن لا تغني عنهم من عذاب الآخرة شيئا.

{ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا } أي: من بأس الله أو من عذابه. وحذف مثل هذا كثير في الكلام. وتقديره ظاهر.

ويُلقَّب هذا الاستعمال عند علماء أصول الفقه بإضافة الحكم إلى الأعيان على إرادة أشهر أحوالها، نحو ما في قوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ } [المائدة:3]، أي: أكلها.

{ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } في موضع العلّة لجملة { لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً }، أي: لأنّهم أصحاب النّار. وصاحب الشيء ملازمه فلا يفارقه. إذ قد تقرّر من قوله تعالى { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً} [15]، ومن قوله تعالى { فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } [16] أنّهم لا محيص لهم عن النار، فكيف تغنى عنهم أموالهم وأولادهم شيئا من عذاب النار. فإنّ اسم الإشارة { **أُولَئِكَ** } في مثل هذا الموقع ينبِّه على أنّ المشار إليه صار جديرا بما يرد بعد اسم الإشارة من جل الأخبار التي أخبر بها عنه قبل اسم الإشارة. كما تقدّم في قوله تعالى { أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ } [البقرة:5].

{ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ } [18].

متصل بقوله تعالى { يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ - إلى قوله - اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً } [14-16].

{ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً } تقدّم الكلام على نظيره عند قوله تعالى {وَيوَم يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا } [6]، أي: اذكر يوم يبعثهم الله.

{ فَيَحْلِفُونَ لَهُ } إشارة إلى ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى { ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } [الأنعام:23].

{ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ } التشبيه في صفة الحلف، وهي قولهم: إنّهم غير مشركين، وفي كونه حلفا على الكذب وهم يعلمون، ولذلك سمَّاه تعالى فتنة في [الأنعام:23].

{ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ } أي: يظنّون يومئذ أنّ حلفهم يفيدهم.

{ شَيْءٍ } حُذفت الصفة لظهور معناها من المقام، أي: على شيء نافع، كقوله تعالى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ } [المائدة: 68]. وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا سئل عن الكُهَّان: **" ليسوا بشيء "**.

وهذا يقتضي توغُّلهم في النفاق ومرونتهم عليه وأنّه باق في أرواحهم بعد بعثهم، لأنّ نفوسهم خرجت من عالم الدنيا متخلقة به، فإنّ النفوس إنّما تكتسب تزكية أو خبثا في عالم التكليف.

وفي حديث جابر بن عبد الله عن مسلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" يُبعث كلّ عبد على ما مات عليه "**.

{ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ } تذييل جامع لحال كذبهم الذي ذكره الله بقوله { وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ } [14].

فالمراد أنّ كذبهم عليكم لا يماثله كذب، حتّى قُصرت صفة الكاذب عليهم بضمير الفصل { هُمُ }، وهو قصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بكذب غيرهم. وأُكِّد ذلك بحرف التوكيد توكيدا لمفاد الحصر الادعائي، وبأداة الاستفتاح المقتضية استماله السمع لخبرهم لتحقيق تمكّن صفة الكذب منهم.

{ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [19].

استئناف بياني، لأنّ ما سيق من وصفهم بانحصار صفة الكذب فيهم يثير سؤال السامع أن يطلب السبب الذي بلغ بهم إلى هذه الحال الفظيع فيُجاب بأنّه استحواذ الشيطان عليهم وامتلاكه زمام أنفسهم يصرِّفها كيف يريد.

الاستحواذ: الاستيلاء والغلب، وهو استفعال من حاذ حَوذا، إذا حاط شيئا وصرَّفه كيف يريد، يقال: حاذ العير إذا جمعها وساقها غالبا لها. فاشتقوا منه استفعل للذي يستولي بتدبير ومعالجة، ولذلك لا يقال استحواذ إلّا في استيلاء العاقل لأنّه يتطلّب وسائل استيلاء. ومثله استولى. والسين والتاء للمبالغة في الغلب.

والأحوذي: القاهر للأمور الصعبة. وقالت عائشة: كان عمر أحوذيًّا نسيج وحده.

وتقدَّم الكلام على الاستحواذ عند قوله تعالى { قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }[النساء:141].

النسيان: مراد منه لازمه وهو الإضاعة وترك المنسي، لقوله تعالى { كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } [طه: 126].

{ **ذِكْرَ اللَّهِ** } يُطلق الذكر على نطق اللسان، ويُطلق على التذكُّر بالعقل. وقد يُخصّ الثاني بضمّ الذال. وهو هنا مستعمل في صريحه وكنايته، أي: مستعمل في لازمه وهو العبادة والطاعة، لأنّ المعنى أنّه أنساهم توحيد الله بكلمة الشهادة والتوجُّه إليه بالعبادة. والذي لا يتذكَّر شيئا لا يتوجَّه إلى واجباته.

{ **أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ** } نتيجة وفذلكة لقول تعالى { اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ }، فإنّ الاستحواذ يقتضي أنَّه صيَّرهم من أتباعه. واسم الإشارة لزيادة تمييزهم لئلا يُتردَّد في أنّهم حزب الشيطان.

{ **أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } واقعة موقع التفرُّع والتسبُّب على جملة { أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ }، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: فإنّ حزب الشيطان هم الخاسرون، فعُدِل عن ذلك إلى حرف الاستفتاح تنبيها على أهمية مضمونها وأنّه مما يحق العناية باستحضاره في الأذهان مبالغة في التحذير من الاندماج فيهم، والتلبس بمثل أحوالهم المذكورة آنفا.

وزيد هذا التحذير اهتماما بتأكيد الخبر بحرف { إِنَّ } وبصيغة القصر { هُمُ }، إذ لا يتردّد أحد في أنّ حزب الشيطان خاسرون فإنّ ذلك من القضايا المسلَّمة بين البشر، فلذلك لم تكن هذه المؤكدات لرد الإنكار وإنّما لتحذير المسلمين أن تغرّهم حبائل الشيطان وتروق في أنظارهم بزَّة المنافقين وتخدعهم أيْمَانهم الكاذبة.

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ [20] كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [21] }.

موقع هذه الآية بعد ما ذُكر من أحوال المنافقين يشبه موقع آية { إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [5] فالذين يحادّون الله ورسوله المتقدِّم ذكرهم المشركون المعلنون بالمحادّة، وأمَّا المحادُّون المذكورون في هذه الآية فهم المُسِرُّون للمحادَّة المتظاهرون بالموالاة، وهم المنافقون.

فالجملة استئناف بياني بيَّنت شيئا من الخسران الذي قُضِي به على حزب الشيطان الذين هم في مقدَّمته.
وبهذا تكتسب هذه الجملة معنى بدل البعض من مضمون جملة { أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [19]، لأنّ الخسران يكون في الدنيا والآخرة، وخسران الدنيا أنواع أشدُّها على الناس المذلّة والهزيمة.
والمعنى: أنّ حزب الشيطان في الأذلِّين المغلوبين.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** } إظهار في مقام الإضمار فمقتضى الظاهر أن يقال: إنّهم في الأذلين، فأُخْرِج الكلامُ على خلاف مقتضى الظاهر إلى الموصولية لإفادة مدلول الصلة أنّهم أعداء الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإفادة الموصول تعليل الحكم الوارد بعده وهو كونهم أذلّين لأنّهم أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم أعداء الله القادر على كل شيء، فعدوُّه لا يكون عزيزا.

{ **أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ** } مفاد حرف الظرفية أنّهم كائنون في زمرة القوم الموصوفين بأنّهم أذلُّون، أي: شديدو المذلّة، ليتصورهم السامع في كل جماعة يرى أنّهم أذلُّون، فيكون هذا النظم أبلغ من أن يقال أولئك هم الأذلُّون.
واسم الإشارة تنبيه على أنّ المُشار إليهم جديرون بما بعد اسم الإشارة من الحكم بسبب الوصف الذي قبله.

{ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي** } علَّة لجملة { أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ }، أي: لأنّ الله أراد أن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم غالبا لأعدائه وذلك من آثار قدرة الله التي لا يغلبها شيء. وقد كتب لجميع رسله الغلبة.

{ **كَتَبَ اللَّهُ** } الكتابة استعيرت لمعنى: قضى الله ذلك وأراد وقوعه في الوقت الذي علمه وأراده، فهو محقَّق الوقوع لا يتخلَّف مثل الأمر الذي يراد ضبطه وعدم الإخلال به فإنّه يُكتب.

{ **إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** } تعليل لجملة { لَأَغْلِبَنَّ } لأن الذي يُغالب الغالب مغلوب.

{ **لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } [22].

ليس يلزم أن يكون للآية سبب نزول فإنّ ظاهرها أنّها متّصلة المعنى بما قبلها وما بعدها من ذمّ نفاقهم وموالاتهم اليهود، فما ذُكر فيها من قصص لسبب نزولها فإنّما هو أمثلة لمقتضى حكمها.

{ **لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** } افتتاح الكلام بهذا التركيب يثير تشويقا إلى معرفة حال هؤلاء القوم وما سيساق في شأنهم من حكم. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

والمقصود منه أمره بإبلاغ المسلمين أنّ مُوَادة من يُعْلم أنّه مُحَادّ الله ورسوله هي ممّا ينافي الإيمان ليكُفَّ عنها من عسى أن يكون متلبِّسا بها.

فالكلام من قبل الكناية عن السعي في نفي وجدان قوم هذه صفتهم.

المُوَادة: أصلها حصول المودّة في جانبين. والنهي هنا إنّما هو عن مودة المؤمن الكافرين لا عن مقابلة الكافر المؤمنين بالمودة، وإنّما جيء بصيغة المفاعلة هنا اعتبارا بأنّ شأن الود أن يجلب ودا مقابلا.

{ **وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** } مبالغة في نهاية الأحوال التي قد يُقدم فيها المرء على الترخُّص فيما نُهي عنه بعلّة قرب القرابة.

ورُتِّبت أصناف القرابة في هذه الآية على طريقة التدلِّي من الأقوى إلى من دونه لئلَّا يُتوهَّم أنّ النهي خاص بمن تقوى فيه ظِنَّة النصيحة له والائتمار بأمره.

{ **عَشِيرَتَهُمْ** } عشيرة الرجل قبيلته الذين يجتمع معهم في جَدٍّ غير بعيد.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية أنّ أهل الإيمان الكامل لا يوادّون من فيه معنى من محادة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بخرق سياج شريعته عمدا والاستخفاف بحرمات الإسلام.

{ **أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** }.

الإشارة إلى القوم الموصوفين سابقا. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيًا لأنّ الأوصاف السابقة ووقوعها عقب ما وصف به المنافقون من محادة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وما توعَّدهم الله به أنّه أعدّ لهم عذابا شديدا ولهم عذاب مهين، وأنّهم حزب الشيطان، وأنّهم الخاسرون، ممّا يستشرف بعده السامع إلى ما سيخبر به عن المتّصفين بضد ذلك. وهم المؤمنون الذين لا يوادُّون من حادّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

{ **كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ** } هذه نظير قوله السابق { كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي } [21]. وهي التقدير الثابت الذي لا تتخلّف آثاره، أي: هم المؤمنون حقًّا الذين زيَّن الله الإيمان في قلوبهم فاتبعوا كماله وسلكوا شُعَبه.

التأييد: التقوية والنصر. وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ } في سورة [البقرة:87]، أي: أنّ تأييد الله إيَّاهم قد حصل وتقرَّر بالإتيان بفعل الماضي للدلالة على الحصول وعلى التحقّق والدوام فهو مستعمل في معنييه.

{ **بِرُوحٍ مِنْهُ** } عنايته ولطفه.

{ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** } رضي الله عنهم حاصل من الماضي ومحقّق الدوام فهو مثل الماضي في قوله { وَأَيَّدَهُمْ }، ورضاهم عن ربهم كذلك حاصل في الدنيا بثباتهم على الدين ومعاداة أعدائه، وحاصل في المستقبل بنوال رضا الله عنهم ونوال نعيم الخلود.

{ **أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } كالقول في { أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ } [19]. وحرف التنبيه يحصل منه تنبيه المسلمين إلى فضلهم. وتنبيه من يسمع ذلك من المنافقين إلى ما حبا الله به المسلمين من خير الدنيا والآخرة لعلّهم يغبطونهم فيخلصون الإسلام.

وشتان بين الحزبين. فالخسران لحزب الشيطان، والفلاح لحزب الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحشر

اشتُهرت تسمية هذه السورة **(سورة الحشر)**. وبهذا الاسم دعاها النبيّ صلى الله عليه وسلم.

روى الترمذي عن معقل بن يسار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" من قال حين يصبح ثلاث مرّات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر"**، أي: الآيات التي أوّلها { هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } [22] إلى آخر السورة.

وفي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس سورة الحشر، قال: قل بني النضير، أي: سورة بني النضير، فابن جبير سماها باسمها المشهور وأبن عباس يسميها **(سورة بني النضير)**. ولعلّه لم يبلغه تسمية النبيّ صلى الله عليه وسلم إيَّاها سورة الحشر أو قال ذلك على التخيير.

فأمّا وجه تسميتها (سورة الحشر) فلوقوع لفظ { الْحَشْرِ } [2] فيها. ولكونها ذُكر فيها حشر بني النضير من ديارهم، أي: من قريتهم المسمّاة الزهرة قريبا من المدينة. فخرجوا إلى بلاد الشام إلى أريحا وأذرعات، وبعض بيوتهم خرجوا إلى خيبر، وبعض بيوتهم خرجوا إلى الحيرة.

وأمّا وجه تسميتها (سورة بني النضير) فلأنّ قصّة بني النضير ذُكرت فيها.

وهي مدينة بالاتفاق.

وهي الثامنة والتسعون في عداد نزول السور عند جابر بن زيد. نزلت بعد سورة البيّنة وقبل سورة النصر. وكان نزولها عقب إخراج بني النضير من بلادهم سنة أربع من الهجرة.

وعدد آيها أربع وعشرون باتفاق العادّين.

أغراض السورة

*/ وقع الاتفاق على أنّها نزلت في شأن بني النضير ولم يُعيِّنوا ما هو الغرض الذي نزلت فيه. ويظهر أن المقصد منها حكم أموال بني النضير بعد الانتصار عليهم، كما سنبيّنه في تفسير الآية الأولى منها.

*/ أنّ ما في السماوات وما في الأرض ملك لله، وهو دال على تنزيهه، وأنَّه الغالب المدبِّر.

*/ ذكر نعمة الله على ما يسَّر من إجلاء بني النضير مع ما كانوا عليه من المنعة والحصون والعدّة. وتلك آية من آيات تأييد رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلبته على أعدائه.

*/ ذكر ما أجراه المسلمون في أموالهم، وأحكام ذلك وتعيين مستحقّيه من المسلمين.

*/ تعظيم شأن المهاجرين والأنصار والذين يجيئون بعدهم من المؤمنين.

*/ كشف دخائل المنافقين ومواعيدهم لبني النضير أن ينصروهم، وكيف كذّبوا وعدهم.

*/ أنحى على بني النضير والمنافقين بالجبن وتفرّق الكلمة، وتنظير حال تغرير المنافقين لليهود بتغرير الشيطان للذين يكفرون بالله، وتنصُّله من ذلك يوم القيامة، فكان عاقبة الجميع الخلود في النار.

*/ أمر المؤمنين بالتقوى والحذر من أحوال أصحاب النار، والتذكير بتفاوت حال الفريقين.

*/ بيان عظمة القرآن وجلالته واقتضائه خشوع أهله.

*/ تخلَّل ذلك إيماء إلى حكمة شرائع انتقال الأموال بين المسلمين بالوجوه التي نظّمها الإسلام بحيث لا تشقّ على أصحاب الأموال.

*/ الأمر باتباع ما يُشرِّعه الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

*/ خُتمت بصفات عظيمة من الصفات الإلهية وأنّه { يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [24]، تزكية لحال المؤمنين وتعريضا بالكافرين.

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [1].

افتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح ما في السماوات والأرض لله تعالى تذكير للمؤمنين بتسبيحهم لله تسبيح شكر على ما أنالهم من فتح بلاد بني النضير، فكأنّه قال: سبّحوا لله كما سبَّح له ما في السماوات والأرض.

وفيه تعريض بأولئك الذين نزلت السورة فيهم بأنّهم أصابهم ما أصابه لتكبّرهم عن تسبيح الله حقّ تسبيحه بتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ أعرضوا عن النظر في دلائل رسالته أو كابروا في معرفتها.

والقول في لفظ هذه الآية كالقول في نظيرها في أوّل [الحديد:1].

{ سَبَّحَ لِلَّهِ } أوثر الأخبار عن التسبيح بالفعل الماضي لأنّ المخبَر عنه تسبيح شكر عن نعمة مضت قبل نزول السورة وهي نعمة إخراج بني النضير.

{ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } والتي في أوّل سورة الحديد فيها { مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }

<u>لأنّ فاتحة سورة الحديد</u> تضمَّنت الاستدلال على عظمة الله تعالى وصفاته وانفراده بخلق السماوات والأرض فكان دليل ذلك هو مجموع ما احتوت عليه السماوات والأرض من أصناف الموجودات فجُمع ذلك كلّه في اسم واحد هو { ما } الموصولة التي صلتها قوله تعالى { فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

<u>وأمَّا فاتحة سورة الحشر</u> فقد سيقت للتذكير بمنّ الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية، وهي خذلان بني النضير، فناسب فيها أن يُخص أهل الأرض باسم موصول خاص بهم، وهي (ما) الموصولة الثانية التي صلتها { في الأرض } ، وعلى هذا المنوال جاءت فواتح سور الصف والجمعة والتغابن كما سيأتي في مواضعها.

{ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ } [2].

{ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا }

<u>يجوز أن تُجعل الجملة استئنافا ابتدائيا</u> لقصد إجراء هذا التمجيد على اسم الجلالة لمّا يتضمّنه من باهر تقديره، ولما يؤذن به ذلك من التعريض بوجوب شكره على ذلك الإخراج العجيب.

<u>ويجوز أن تُجعل علّةً</u> لما تضمَّنه الخبر عن تسبيح ما في السماوات وما في والأرض من التذكير للمؤمنين والتعريض بأهل الكتاب والمنافقين الذين هم فريقان ممّا في الأرض، فإنّ القصة التي تضمّنتها فاتحة السورة من أهم أحوالهما.

ويجوز أن تُجعل مبيّنةً لجملة { وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [1]، لأنّ هذا التسخير العظيم من آثار عزّه وحكمته.
وعلى كلّ الوجوه فهو تذكير بنعمة الله على المسلمين وإيماء إلى أن يشكروا الله على ذلك، وتمهيد للمقصود من السورة، وهو قسمة أموال بني النضير.
{ **هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ** } تعريف جزأي الجملة بالضمير والموصول يفيد قصر صفة إخراج الذين كفروا من ديارهم عليه تعالى وهو قصر ادعائي لعدم الاعتداد بسعي المؤمنين في ذلك الإخراج.
{ **مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا** } تتنزّل منزلة التعليل لجملة القصر.
{ **وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ** } عطف على العلّة، أي: وهم ظنّوا أنّ المسلمين لا يغلبونهم. وإنّما لم يقل: وظنوا أن لا يخرجوا. مع أنّ الكلام على خروجهم، استغناء عن ذكر المظنون بذكر علّة الظنّ.
والتقدير: وظنوا أن لا يخرجوا لأنّهم تمنعهم حصونهم، أي: ظنّوا ظنًّا قويا معتمدين على حصونهم.
{ **الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** } بنو النضير، وهم قبيلة من اليهود استوطنوا بلاد العرب هم وبنو عمّهم قريظة، ويهود خيبر، وكان يقال لبني النضير وبني قريظة: الكاهنان، لأنّ كل فريق منها من ذرّيّة هارون وهو كاهن الملّة الإسرائيلية. والكهانة: حفظ أمور الديانة بيده ويد أعقابه.
وقصة استيطانهم بلاد العرب أنّ موسى عليه السلام كان أرسل طائفة من أسلافهم لقتال العماليق المجاورين للشام وأرض العرب فقصَّروا في قتالهم وتوفي موسى قريبا من ذلك. فلمّا علموا بوفاة موسى رجعوا على أعقابهم إلى ديار إسرائيل في أريحا فقال لهم قومهم: أنتم عصيتم أمر موسى فلا تدخلوا بلادنا، فخرجوا إلى جزيرة العرب وأقاموا لأنفسهم قرى حول يثرب المدينة وبنوا لأنفسهم حصونا وقرية سمَّوها (الزَّهرة).
وكانت حصونهم خمسة سيأتي ذكر أسمائهما في آخر تفسير الآية، وصاروا أهل زرع وأموال. وكان فيهم أهل الثراء مثل السموأل بن عاديا، وكعب بن الأشرف، وأبن أبي الحُقيق.
وكان بينهم وبين الأوس والخزرج حلف ومعاملة. وكان من بطون أولئك اليهود بنو النضير وقريظة وخيبر.
{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } وُسِمُوا بذلك لأنّهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم تسجيلا عليهم بهذا الوصف الذميم.
وقد وصفوا بذلك في قوله تعالى { وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } [البقرة:89].
{ **مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** } (من) بيانية لأنّ المراد بأهل الكتاب هنا خصوص اليهود. وصفوا بذلك لئلّا يُظنَّ أنَّ المراد بـ { الَّذِينَ كَفَرُوا } المشركون بمكة أو بقية المشركين بالمدينة.
وتفصيل القصة التي أشارت إليها الآية على ما ذكر جمهور أهل التفسير. أنّ بني النضير لمّا هاجر المسلمون إلى المدينة جاءوا فصالحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له، ويقال: أنّ مصالحتهم كانت عقب وقعة بدر لمّا غلب المسلمون المشركين لأنّهم توسَّموا أنّه لا تهزم لهم راية، فلما غُلب

المسلمون يوم أحُد نكثوا عهدهم وراموا مصالحة المشركين بمكة، إذ كانوا قد قعدوا عن نصرتهم يوم بدر، كدأب اليهود في موالاة القويّ، فخرج كعب بن الأشرف وهو سيد بني النضير في أربعين راكبا فحالفوا المشركين عند الكعبة على أن يكونوا عونا لهم على مقاتلة المسلمين، فلمّا أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أمر محمد بن مسلمة أن يقتل كعب بن الأشرف فقتله.

وذكر ابن إسحاق سببا آخر وهو أنّه لمّا انقضت وقعة بئر معونة في صفر سنة أربع كان عمرو بن أمية الضمري أسيرا عند المشركين فأطلقه عامر بن الطفيل. فلما كان راجعا إلى المدينة أقبل رجلان من بني عامر، وكان لقومهما عقد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزلا مع عمرو بن أمية، فلمّا ناما عدا عليهما فقتلهما، وهو يحسب أنّه يثأر بهما من بني عامر الذين قتلوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ببئر معونة، ولمَّا قدم عمرو ابن أمية أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" لقد قتلت قتيلين ولآدِيَنَّهُما "**، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دِيَّة ذينك القتيلين، إذ كان بين بني النضير وبين بني عامر حلف، وأضمر بنو النضير الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلعه الله عليه فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بالتهيؤ لحربهم.

ثم أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم المسلمين بالسير إليهم في (ربيع الأوّل في سنة أربع من الهجرة) فسار إليهم هو والمسلمون وأمرهم بأن يخرجوا من قريتهم فامتنعوا وتنادوا إلى الحرب ودسّ إليهم عبد الله بن أبَي بن سلول أن لا يخرجوا من قريتهم وقال: إن قاتلكم المسلمون فنحن معكم لننصرنَّكم وإن أُخرجتم لنخرُجنّ معكم فدَرِّبُوا على الأزقة (أي: سدوا منافذ بعضها لبعض ليكون كل درب منها صالحا للمدافعة) وحصّنوها، ووعدهم أنّ معه ألفين من قومه وغيرهم، وأنّ معهم قريظة وحلفاءهم من غطفان من العرب.

فحاصرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وانتظروا عبد الله بن أبي بن سلول وقريظة وغطفان أن يقدموا إليهم ليردُّوا عنهم جيش المسلمين فلمَّا رأوا أنّهم لم يُنجدوهم قذف الله في قلوبهم الرعب فطلبوا من النبيّ صلى الله عليه وسلم الصلح فأبى إلّا الجلاء عن ديارهم، وتشارطوا على أن يخرجوا ويحمل كل ثلاثة أبيات منهم حمل بعير مما شاؤوا من متاعهم، فجعلوا يخربون بيوتهم ليحملوا معهم ما ينتفعون به من الخشب والأبواب.

فخرجوا فمنهم من لحق بخيبر، وقليل منهم لحقوا ببلاد الشام في مدن (أريحا وأذرعات) وخرج قليل منهم إلى الحيرة.

{ **لِأَوَّلِ الْحَشْرِ** } لام التوقيت وهي التي تدخل على أول الزمان المجعول ظرفا لعمل. وهي بمعنى (عند).

فالمعنى: أنّه أخرجهم عند مبدإ الحشر المقدّر لهم.

الحشر: جمع ناس في مكان، كقوله { وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِين يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ } [الشعراء:36/37].

والمراد به هنا: جمعهم للخروج، وهو بهذا المعنى يرادف الجلاء. وليس المراد به: حشر يوم القيامة إذ لا مناسبة له هنا.

وفي جعل هذا الإخراج وقتا { لِأَوَّلِ الْحَشْرِ } إيذان بأن حشرهم يتعاقب حتّى يكمل إخراج جميع اليهود، وذلك ما أوصى به النبيّ صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته إذ قال: **" لا يبقى دينان في جزيرة العرب "**.

وقد أنفذه عمر بن الخطاب حين أجلى اليهود من جميع بلاد العرب.

وقيل: وُصف الحشر بالأوّل لأنّه أوّل جلاء أصاب بني النضير، فإنّ اليهود أجلوا من فلسطين مرتين، مرة في زمن (بختنصر) ومرة في زمن (طيطس) سلطان الروم، وسَلِم بنو النضير ومن معهم من الجلاء لأنّهم كانوا في بلاد العرب. فكان أوّل جلاء أصابهم هذا الجلاء.

{ **وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ** } أي: كان ظنّ المسلمين وظنّ أهل الكتاب متواردين على تعذر إخراج بني النضير من قريتهم بسبب حصانة حصونهم.

وكان اليهود يتّخذون حصونا يأوون إليها عندما يغزوهم العدو مثل حصون خيبر. وكان لبني النضير ستة حصون: [الكُتَيْبَة (بضم الكاف وفتح المثناة الفوقية) / الوَطِيح (بفتح الواو وكسر الطاء) / السُلالم (بضم السين) / النَّطَاة (بفتح النون وفتح الطاء بعدها ألف وبها تأنيث آخره) / الوَخْدة (بفتح الواو وسكون الخاء المعجمة ودال مهملة) / شَقّ (بفتح الشين المعجمة وتشديد القاف)].

ونظم الجملة على هذا النظم دون أن يقال: وظنُّوا أن حصونهم مانعتهم ليكون الابتداء بضميرهم مشيرا إلى اغترارهم بأنفسهم أنّهم في عزّة ومنعة.

{ **فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَار** } تفريع على مجموع جملتي { مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ } اللتين هما تعليل للقصر في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ }.

{ **فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا** } تمثيل، مُثِّل شأن الله حين يَسَّر أسباب استسلامهم بعد أن صمَّموا على الدفاع وكانوا أهل عِدَّة وعُدَّة، ولم يطل حصارهم، بحال من أخذ حذره من عدوّه وأحكم حراسته من جهاته فأتاه عدوُّه من جهة لم يكن قد أقام حراسة فيها. وهذا يشبه التمثيل الذي في قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ } [النور:39].

الاحتساب: مبالغة في الحُسْبان، أي: الظنّ.

القذف: الرمي باليد بقوة. واستعير للحصول على العاجل، أي: حصل الرعب في قلوبهم دفعة دون سابق تأمل ولا حصول سبب. والمعنى: وجعل الله الرعب في قلوبهم فأسرعوا بالاستسلام. وقذف الرعب في قلوبهم هو حال من { فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا } فتخصيصه بالذكر للتعجيب من صنع الله، وعطفه

عطف خاص على عام للاهتمام.

{ **الرُّعْبَ** } شدّة الخوف والفزع. وهذا معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **نُصرت بالرعب** ".

{ **يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ** } حال من الضمير المضاف إليه { قُلُوبِهِمُ } لأنّ المضاف جزء من المضاف إليه فلا يمنع مجيء الحال منه. والمقصود: التعجيب من اختلال أمورهم.

الإخراب والتخريب: إسقاط البناء ونقضه. و**الخراب**: تهدم البناء.

وأشارت الآية إلى ما كان من تخريب بني النضير بيوتهم ليأخذوا منها ما يصلح من أخشاب وأبواب.

{ **بِأَيْدِيهِمْ** } هو تخريبهم البيوت بأيديهم، حقيقة في الفعل.

{ **وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ** } إسناد التخريب الذي خرَّبه المؤمنون إلى بني النضير مجاز عقلي باعتبار أنّهم سبَّبوا تخريب المؤمنين لما تركوه. فالمعنى: وكانوا سببا في خراب بيوتهم بأيدي المؤمنين.

والتخريب حقيقي بالنسبة لكلا المتعلّقين.

{ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** } أي: اعتبروا بأن كان تخريب بيوتهم بفعلهم.

الاعتبار: النظر في دلالة الأشياء على لوازمها وعواقبها وأسبابها. وهو افتعال من العبرة، وهي الموعظة.

وتقدّم في قوله تعالى { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [يوسف:111].

والخطاب موجَّه إلى غير معيَّن. ونودي أولوا الأبصار بهذه الصلة ليشير إلى أنّ العبرة بحال بني النضير واضحة مكشوفة لكل ذي بصر ممن شاهد ذلك.

{ **وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ** } [3].

{ **وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا** } جملة معترضة ناشئة عن جملة { هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } [2]، أي: أخرجهم الله من قريتهم عقابا لهم على كفرهم وتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم ولو لم يعاقبهم الله بالجلاء لعاقبهم بالقتل والأسر لأنّهم استحقّوا العقاب. فلو لم يقذف في قلوبهم الرعب حتّى استسلموا لعَاقَبهم بجوع الحصار وفتح ديارهم عنوة، فعُذّبوا قتلا وأسرا.

{ **لَوْلَا** } حرف امتناع لوجود، تفيد امتناع جوابها لآجل وجود شرطها، أي: وجود تقدير الله جلاءهم سبب لانتفاء تعذيب الله إيَّاهم في الدنيا.

وإنّما قدّر الله لهم الجلاء دون التعذيب في الدنيا لمصلحة اقتضتها حكمته، وهي أن يأخذ المسلمون أرضهم وديارهم وحوائطهم دون إتلاف من نفوس المسلمين ممّا لا يخلو منه القتال.

{ **كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ** } قدّر لهم تقديرا كالكتابة في تحقيق مضمونه.

الجلاء: الخروج من الوطن بنيّة عدم العود.

{ **وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّار** } عطف على جملة { وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ }، أو على جملة {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [2]، وليس عطفا على جواب { لولا }، فإنّ عذاب النار حاقّ عليهم وليس منتفيا. والمقصود الاحتراس من توهُّم أنّ الجلاء بدل من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [4].

الإشارة إلى جميع ما ذُكر من إخراج الذين كفروا من ديارهم، وقذف الرعب في قلوبهم، وتخريب بيوتهم، وإعداد العذاب لهم في الآخرة.

المُشاقّة: المخاصمة والعداوة، قال تعالى { وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ } [النحل:27].

وقد كان بنو النضير ناصبوا المسلمين العداء بعد أن سكنوا المدينة وأَضْرَوْا المنافقين وعاهدوا مشركي أهل مكّة كما علمت آنفا.

{ **وَرَسُولَهُ** } عطف اسم الرسول صلى الله عليه وسلم على اسم الجلالة في الجملة الأولى لقصد تعظيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليعلموا أنّ طاعته طاعة لله لأنّه إنّما يدعو إلى ما أمره الله بتبليغه، ولم يُعطف اسم الرسول صلى الله عليه وسلم في الجملة الثانية استغناء بما عُلم من الجملة الأولى.

{ **وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } تذييل، أي: شديد العقاب لكلّ من يشاققه من هؤلاء وغيرهم.

{ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ } [5].

استئناف ابتدائي أفضى به إلى المقصد من السورة عن أحكام أموال بني النضير، وإشارةُ الآية إلى ما حدث في حصار بني النضير، وذلك أنّهم قبل أن يستسلموا اعتصموا بحصونهم فحاصرهم المسلمون وكانت حوائطهم خارج قريتهم، وكانت الحوائط تسمى البُوَيْرَة (بضم الباء الموحدة وفتح الواو وهي تصغير بؤر بهمزة مضمومة بعد الباء فخففت واوا) فعمد بعض المسلمين إلى قطع بعض نخيل النضير، قيل بأمر من النبيّ صلى الله عليه وسلم وقيل بدون أمره ولكنّه لم يغيّره عليهم.

قيل كان ذلك ليوسّعوا مكانا لمعسكرهم، وقيل لتخويف بني النضير ونكايتهم، وأمسك بعض الجيش عن قطع النخيل وقالوا: لا تقطعوا ممَّا أفاء الله علينا. وقد ذُكر أن النخلات التي قطعت ست نخلات أو نخلتان.

فقالت اليهود: يا محمد ألست تزعم أنّك نبيّ تريد الصلاح أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر، وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض، فأنزل الله هذه الآية.

والمعنى: أن ما قطعوا من النخل أريد به مصلحة إلجاء العدو إلى الاستسلام وإلقاء الرعب في قلوبهم وإذلالهم بأن يروا أكرم أموالهم عرضة للإتلاف بأيدي المسلمين.

جعل الله القطع والإبقاء كليهما بإذنه، أي: مرضياً عنده، فأطلق الإذن على الرضى على سبيل الكناية، أو أطلق إذن الله على إذن رسوله صلى الله عليه وسلم، إن ثبت أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أذن بذلك ابتداء، ثم أمر بالكف عنه.

قال مجاهد: إنّ القطع والامتناع كان اختلافا بين المسلمين، وأنّ الآية نزلت بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم.

{ **مِنْ لِينَةٍ** } بيان لما في قوله تعالى { مَا قَطَعْتُمْ }.

اللينة: النخلة ذات الثمر الطيب تطلق اسم اللينة على كلّ نخلة غير العجوة والبرنيّ، في قول جمهور أهل المدينة وأئمة اللغة. وتمر اللينة يُسمَّى اللون.

وإيثار { لِينَةٍ } على نخلة لأنّه أخف، ولذلك لم يرد لفظ نخلة مفردا في القرآن.

وذُكر في كتب السيرة أنّ بعض نخل بني النضير أحرقه المسلمون، ولم يذكر القرآن الحرق، فلعلّ خبر الحرق ممَّا أُرجِف به فتناقله بعض الرواة، أو أنّ النخلات التي قُطعت أحرقها الجيش للطبخ أو للدفء.

{ **قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا** } جيء بالحال لتصوير هيئتها وحسنها. وفيه إيماء إلى أنّ ترك القطع أولى.

الأصول: القواعد. والمراد هنا: سوق النخل، قال تعالى { أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ } [ابراهيم:24].

{ **فَبِإِذْنِ اللَّهِ** } الفاء مزيدة في خبر المبتدأ لأنّه اسم موصول، واسم الموصول يعامل معاملة الشرط كثيرا إذا ضُمِّن معنى التسبُّب.

{ **وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ** } من عطف العلّة على السبب وهو { فَبِإِذْنِ اللَّهِ }، لأنّ السبب في معنى العلّة، ونظيره قوله تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران:166].

المعنى: ليهين بني النضير فيروا كرائم أموالهم بعضها مخضود وبعضها بأيدي أعدائهم. فذلك عزة للمؤمنين وخزي للكافرين.

{ **الْفَاسِقِينَ** } هنا: يهود بني النضير. وعدل عن الإتيان بضميرهم، كما أتي بضمائرهم من قبل ومن بعد، لأنّ الوصف المشتقّ يُؤذن بسبب ما اشتُق منه في ثبوت الحكم، أي: ليُخزيهم لأجل الفسق.

الفسق: هنا الكفر.

{ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [6].

يجوز أن تكون عطفا على جملة { مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ } [5]، فتكون امتنانا وتكملة لمصارف أموال بني النضير. ويجوز أن تكون عطفا على مجموع ما تقدّم، عطف القصة على القصة والغرض على الغرض للانتقال إلى التعريف بمصير أموال بني النضير لئلّا يختلف المسلمون في قسمته. ولبيان أن ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في قسمة أموال بني النضير هو عدل، إن كانت الآية نزلت بعد القسمة.

{ مَا أَفَاءَ اللَّهُ } هو ما تركه بنو النضير من الأرض والنخل والنقض والحطب.

الفيء: معروف في اصطلاح الغزاة، ففعل أفاء: أعطى الفيء، فالفيء في الحروب والغارات ما يظفر به الجيش من متاع عدوِّهم، وهو أعمّ من الغنيمة. ولم يتحقَّق أئمة اللغة في أصل اشتقاقه، فيكون الفيء بقتال ويكون بدون قتال، وأمّا الغنيمة فهي ما أخذ بقتال.

{ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ } هو بصريحه امتنان على المسلمين بأنّ الله ساق لهم أموال بني النضير دون قتال، مثل قوله تعالى { وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ } [الأحزاب:25]. ويفيد مع ذلك كنايةً لازم الخبر، وهو أنّه ليس لهم سبب حقٍّ فيه.

والمعنى: فما هو من حقّكم، أو لا تسألوا قسمته لأنّكم لم تنالوه بقتالكم، ولكنّ الله أعطاه رسوله صلى الله عليه وسلم نعمة منه بلا مشقّة ولا نصب.

الإيجاف: نوع من سير الخيل. وهو سير سريع بإيقاع، وأريد به الركض للإغارة لأنّه يكون سريعا.

الركاب: اسم جمع للإبل التي تُركب. والمعنى: ما أغرتم عليه بخيل ولا إبل.

{ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ } استدراك على النفي الذي في قوله تعالى { فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ } لرفع توهُّم أنَّه لا حقّ فيه لأحد. والمراد: أنّ الله سلط عليه رسوله صلى الله عليه وسلم. فالرسول أحقّ به.

والتركيب يفيد قصرا معنويا، كأنّه قيل: فما سلَّطكم الله عليهم ولكنّ سلَّط عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم. فتكون الآية تبيينا لما وقع في قسمة فيء بني النضير. ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقسمه على جميع الغزاة ولكن قسمه على المهاجرين سواء كانوا ممَّن غزوا معه أم لم يغزوا إذ لم يكن للمهاجرين أموال. فأراد أن يكفيهم ويكفي الأنصار ما منحوه المهاجرين من النخيل. ولم يعط منه الأنصار إلّا ثلاثة لشدة حاجتهم وهم أبو دجانة سِماك، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصِمَّة. وأعطى سعد بن معاذ سيف أبي الحُقيق، وكلُّ ذلك تصرف باجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم لأنّ الله جعل تلك الأموال له.

قيل نزلت الآية بعد أن قُسمت أموال بني النضير، فكانت بيانا بأنَّ ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم حقّ،

أمره الله به، أو جعله إليه، وقيل نزلت قبل القسمة، إذ روي أنّ سبب نزولها أنّ الجيش سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تخميس أموال بني النضير مثل غنائم بدر فنزلت هذه الآية.

قال أبو بكر بن العربي: لا خلاف بين العلماء [...] أنّها خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يضعها حيث يشاء. وبذلك قال عمر بن الخطاب بمحضر عثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وسعد، وهو قول مالك، فيما روى عنه ابن القاسم وابن وهب، قال: كانت أموال بني النضير صافية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، واتفقوا على أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يخمِّسها.

واختُلف في القياس عليها كلّ مال لم يُوجف عليه، قال ابن عطية: " قال بعض العلماء: وكذلك كلّ ما فتح الله على الأئمة ممّا لم يُوجَف عليه فهو لهم خاصة ".

{ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [7].

{ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ }.

جعل جمهور العلماء هذه الآية ابتداء كلام، أي: على الاستئناف الابتدائي، وأنّها قُصد منها حكم غير الحكم الذي تضمَّنته الآية التي قبلها. ومن هؤلاء مالك، وهو قول الحنفية، فجعلوا مضمون الآية التي قبلها أموال بني النضير خاصة، وجعلوا هذه إخبارا عن حكم الأفياء التي حصلت عند فتح قرى أخرى بعد غزوة بني النضير، مثل قريظة (سنة خمس)، وفدك (سنة سبع)، ونحوهما فعيَّنته هذه الآية للأصناف المذكورة فيها.

ولا حقّ في ذلك لأهل الجيش، وهذا الذي يجري على وفاق كلام عمر في قضائه بين العباس وعلي.

وهو الذي يقتضيه تغيير أسلوب التعبير بقوله هنا { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ **مِنْ أَهْلِ الْقُرَى** } بعد أن قال في التي قبلها { وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ **مِنْهُمْ** } [6]، فإنّ ضمير { مِنْهُمْ } راجع لبني النضير لا محالة.

وعليه يجوز أن تكون هذه الآية نزلت بعد مدّة فإنّ فتح القرى وقع بعد فتح بني النضير بنحو سنتين.

ومن العلماء من جعل هذه الآية تكملة وبيانا للآية التي قبلها، أي: بيانا للإجمال الواقع في قوله تعالى { فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ } [6]، لأنّ الآية التي قبلها اقتصرت على الإعلام بأنّ الجيش لا حق له فيه، ولم تبيّن مستحقّه، فبيَّن الله له هنا مستحقِّيه من غير الجيش. فموقع هذه الآية من التي قبلها موقع عطف البيان. ولذلك فصلت. وممّن قال بهذا الشافعي، وعليه جرى تفسير صاحب الكشّاف. ومقتضى هذا أن تكون أموال بني النضير ممّا

يخمّس، ولم يرو أحد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمَّسها بل ثبت ضدّه، وعلى هذا يكون حكم أموال بني النضير حكما خاصا، أو تكون هذه الآية ناسخة للآية التي قبلها إن كانت نزلت بعدها بمدّة.

{ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ } ولا يختصّ جعله للرسول بخصوص ذات الرسول صلى الله عليه وسلم بل مثله فيه أئمة المسلمين.

{ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } تعريف العهد، وهي قرى معروفة عُدَّت منها (قريظة / فدك / قرى عُرينة / اليُنْبُع / وادي القُرى / الصفراء)، فُتحت في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم، واختلف الناس في فتحها أكان عنوة أو صلحا أو فيئا. والأكثر على أنّ فدك كانت مثل النضير.

وتقييد الفيء بفيء القرى جرى على الغالب لأنّ الغالب أن لا تفتح إلّا القرى لأنّ أهلها يُحاصَرون فيستسلمون ويعطون بأيديهم إذا اشتد عليهم الحصار، فأمّا النازلون بالبوادي فلا يُغلبون إلّا بعد إيجاف وقتال فليس لقيد { مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } مفهوم عندنا.

وقد اختلف الفقهاء في حكم الفيء الذي يحصل للمسلمين بدون إيجاف، تفصيله في كتب الفقه.

وهذه الآية اقتضت أنّ صنفا ممّا أفاء الله على المسلمين لم يجعل الله فيه نصيبا للغزاة، وبذلك تحصُل معارضة بين مقتضاها وبين قصر آية [الأنفال:41]، التي لم تجعل لمن ذكروا في هذه الآية إلّا الخمس، فقال جمع من العلماء: إنّ آية الأنفال نسخت حكم هذه الآية. وقال جمع: هذه الآية نسخت آية الأنفال.

على أنّ سورة الأنفال سابقة في النزول على سورة الحشر لأنّ الأنفال نزلت في غنائم بدر وسورة الحشر نزلت بعدها بسنتين.

قال القرطبي: اتفقوا على أنّ تخميس الغنائم هو الذي استقرّ عليه العمل، أي: بفعل النبيّ صلى الله عليه وسلم، وبالإجماع.

<u>وليس يبعد عندي</u> أن تكون القرى التي عنتها آية الحشر فُتحت بحالة متردّدة بين مجرد الفيء وبين الغنيمة، فشُرع لها حكم خاص بها، وإذ قد كانت حالتها غير منضبطة تعذّر أن نقيس عليها، ونُسخ حكمها واستقر الأمر على انحصار الفتوح في حالتين: حالة الفيء المجّرد وما ليس مجرّد فيء. وسقط حكم آية الحشر بالنسخ أو بالإجماع. والإجماع على مخالفة حكم النص يعتبر ناسخا لأنّه يتضمن ناسخا.

{ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } تقدّم ما هو المراد من ذكر اسم الله تعالى في عِداد من لهم المغانم والفيء والأصناف المذكورة في هذه الآية، تقدّم بيانا في [الأنفال:41].

{ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ } تعليل لما اقتضاه (لام التمليك) من جعله ملكا لأصناف كثيرة الأفراد، أي: جعلناه مقسوما على هؤلاء لأجل أن لا يكون الفيء دُولة بين الأغنياء من المسلمين، أي: لئلّا يتداوله الأغنياء ولا ينال أهلَ الحاجة نصيب منه.

والمقصود من ذلك إبطال ما كان معتادا بين العرب قبل الإسلام من استئثار قائد الجيش بأمور من المغانم وهي: المرباع، والصفايا، وما صالح عليه عدوه دون قتال، والنشيطة والفضول.

المرباع: ربع المغانم كان يستأثر به قائد الجيش.

الصفايا: النفيس من المغانم الذي لا نظير له فتعذّر قسمته، كان يستأثر به قائد الجيش.

ما صالح عليه عدوّه دون قتال: وهو ما أعطاه العدو من المال إذا نزلوا على حكم أمير الجيش.

النشيطة: ما يصيبه الجيش في طريقه من مال عدوّهم قبل أن يصلوا إلى موضع القتال.

الفضول: ما يبقى بعد قسمة المغانم ممّا لا يقبل القسمة على رؤوس الغزاة مثل بعير وفرس.

وقد أبطل الإسلام ذلك كلّه فجعل الفيء مصروفا إلى ستة مصارف راجعة فوائدها إلى عموم المسلمين لسد حاجاتهم العامة والخاصة، فإنّ { فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ } إنّما يجعله الله لما يأمر به رسوله صلى الله عليه وسلم.

وجُعل الخمس من المغانم كذلك لتلك المصارف.

وقد بدا من هذا التعليل أنّ من مقاصد الشريعة أن يكون المال دُولة بين الأمّة الإسلامية على نظام محكم في انتقاله من كل مال لم يسبق عليه ملك لأحد مثل. وقد بيَّنتُ ذلك في الكتاب الذي سميته (**مقاصد الشريعة الإسلامية**).

الدُّولة (بضم الدال): ما يتداوله المتداولون. والتداول: التعاقب في التصرّف في شيء. وخصَّها الاستعمال بتداول الأموال. و**الدَّولة** (بفتح الدال): النوبة في الغلبة والملك. ولذلك أجمع القرّاء المشهورون على قراءتها في هذه الآية بضم الدال.

{ **بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ** } الخطاب للمسلمين لأنّهم الذين خوطبوا في ابتداء السورة بقوله تعالى { مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا } [2] ثم قوله تعالى { مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ } وما بعده.

{ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } اعتراض ذُيِّل به حكم فيء بني النضير إذ هو أمر بالأخذ بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وممّا جاءت به هذه الآيات في شأن فيء بني النضير. والقصد من هذا التذييل إزالة ما في نفوس بعض الجيش من حزازة حرمانهم ممّا أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من أرض بني النضير.

الإيتاء: مستعار لتبليغ الأمر إليهم، جُعل تشريعه وتبليغه كإيتاء شيء بأيديهم، كما قال تعالى { خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ } [البقرة:63]، واستعير الأخذ أيضا لقبول الأمر والرضى به والعمل.

وهذه الآية جامعة للأمر باتباع ما يصدر من النبيّ صلى الله عليه وسلم من قول وفعل.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } تحذير من المخالفة بأمرهم بتقوى الله فيما أمر به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. وعطفُ الأمر بالتقوى على الأمر بالأخذ بالأوامر وترك المنهيَّات يدلّ على أنّ التقوى هي امتثال الأمر واجتناب النهي.

{ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } [8].

بدل ممّا أشار إليه قوله تعالى { وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } [7]، بدل بعض من كل.
وأوّل فائدة في هذا البدل التنبيه على أنّ ما أفاء الله على المسلمين من أهل القرى المعنيَّة في الآية لا يجري قسمه على ما جرى عليه قسم أموال بني النضير التي اقتُصر في قسمها على المهاجرين وثلاثة من الأنصار ورابع منهم، فكأنّه قيل: ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل للفقراء منهم لا مطلقا، يدخل في ذلك المهاجرون والأنصار والذين آمنوا بعدهم.
ومن العلماء والمفسرين من جعل جملة { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ } ابتدائية على حذف المبتدأ. والتقدير ما أفاء الله على رسوله للمهاجرين الفقراء إلى آخر ما عطف عليه، فتكون هذه مصارف أخرى للفيء.
ومنهم من جعلها بحذف حرف العطف على طريقة التعداد، كأنّه قيل: فلله وللرسول، إلى آخره، ثم قيل: { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ }.
فعلى هذين القولين ينتفي كونها قيد للجملة التي قبلها.
{ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ** } تنبيه على أنّ إعطاءهم مراعًى فيه جبر ما نُكبوا به من ضياع الأموال والديار، ومراعى فيه إخلاصهم الإيمان وأنّهم دائمون على نصر دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.
{ **أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } تذييل، واسم الإشارة لتعظيم شأنهم وللتنبيه على أنّ استحقاقهم وصف الصادقين لأجل ما سبق اسم الإشارة من الصفات، وهي أنّهم أُخرجوا من ديارهم وأموالهم وابتغاؤهم فضلا من الله ورضوانا ونصرهم الله ورسوله.
{ **هُمُ الصَّادِقُونَ** } مفيدة القصر، لأجل ضمير الفصل، وهو قصر ادّعائي للمبالغة في وصفهم بالصدق الكامل كأنّ صدق غيرهم ليس صدقا في جانب صدقهم.

{ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [9].

{ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ } الأظهر أنّها عطف على { الْمُهَاجِرِينَ } [8]، أي: الأنصار.

التبوّء: اتخاذ المباءة وهي البقعة التي يبوء إليها صاحبها، أي: يرجع إليها بعد انتشاره في أعماله.

الدّار: تطلق على البلاد، وأصلها موضع القبيلة من الأرض. وأطلقت على القرية، قال تعالى في ذكر ثمود { فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [الأعراف:78]، أي: في مدينتهم، وهي حجر ثمود.

والتعريف هنا للعهد لأنّ المراد بالدّار: يثرب، والمعنى: الذين هم أصحاب الدار.

{ وَالْإِيمَانَ } في موقعها غموض إذ لا يصحّ أن يكون مفعول لفعل { تَبَوَّأُوا }.

قيل: يُجعل الكلام استعارة مكنية بتشبيه الإيمان بالمنزل، وجعل إثبات التبوُّء تخييلا، فيكون فعل { تَبَوَّأُوا } مستعملا في حقيقته ومجازه.

وجمهور المفسّرين جعلوا المعطوف عاملا مقدَّرا يدل عليه الكلام، وتقديره: واخلصوا الإيمان.

وقيل: الواو للمعيّة، و{ الْإِيمَانَ } مفعول معه. وعندي أنّ هذا أحسن الوجوه، وإن قلّ قائلوه.

وهو ، على كلّ الوجوه، يفيد الثناء عليهم بأنّ دار الهجرة دار مؤمنين لا يماثلها يومئذ غيرها.

وفي ذكر الدار، وهي المدينة، مع ذكر الإيمان إيماء إلى فضيلة المدينة بحيث جُعل تبوُّؤهم المدينة قرين الثناء عليهم بالإيمان، ولعلّ هذا هو الذي عناه مالك رحمة الله فيما رواه عنه ابن وهب قال: سمعت مالكا يذكر فضل المدينة على غيرها من لآفاق. فقال: " إنّ المدينة تُبُوِّئت بالإيمان والهجرة وإنّ غيرها من القرى افتُتحت بالسيف، ثم قرأ { وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ } ".

{ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ } حال من الذين { تَبَوَّأُوا }، وهذا ثناء عليهم بما تقرَّر في نفوسهم من أخوّة الإسلام إذ أحبُّوا المهاجرين، وشأن القبائل أن يتحرّجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم.

وقد أسكنوا المهاجرين معهم في بيوتهم ومنحوهم من نخيلهم، وحسبك الأخوة التي آخى النبيّ صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار.

{ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا } أريد بالوجدان الإدراك العقلي.

الحاجة: في الأصل اسم مصدر الحَوْج، وهو الاحتياج، أي: الافتقار إلى شيء، وتطلق على الأمر المحتاج إليه من إطلاق المصدر على اسم المفعول، وهي هنا مجاز في المأرب والمراد، وإطلاق الحاجة إلى المأرب

مجاز مشهور ساوى الحقيقة، كقوله تعالى { وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ } [غافر:80]، وكقوله تعالى: { إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا } [يوسف:68].

المعنى: أنّهم لا يخامر نفوسهم تشوّف إلى أخذ شيء ممّا أوتيه المهاجرون من فيء بني النضير.

{ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ }

الايثار: ترجيح شيء على غيره بمكرمة أو منفعة.

والمعنى: يؤثرون على أنفسهم في ذلك اختيارا منهم، وهذا أعلى درجة ممّا أفاده قوله تعالى { وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا } فلذلك عُقِّب به، ولم يُذكر مفعول { يؤثرون } لدلالة { مِمَّا أُوتُوا } عليه.

ومن أمثلة إيثارهم المهاجرين ما روي في الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا الأنصار ليقطع لهم قطائع بنخل البحرين فقالوا: لا إلّا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها.

ومن أمثلة إيثار الواحد منهم على غيره منهم ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أصابني الجَهد. فأرسل في نسائه فلم يجد عندهنّ شيئا فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ألا رجل يُضيف هذا الليلة رحمه الله "** فقام رجل من الأنصار هو أبو طلحة فقال: أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله لا تدَّخريه شيئا، فقالت: والله ما عندي إلّا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوِّميهم وتعالى فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. فإذا دخل الضيف فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج تري أنّك تصلحينه فأطفئيه وأريه أنّا نأكل. فقعدوا وأكل الضيف.

وذُكرت قصص من هذا القبيل في التفاسير، قيل نزلت هذه الآية في قصّة أبي طلحة وقيل غير ذلك.

{ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } في موضع الحال.

الخصاصة: شدة الاحتياج.

{ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } تذييل، والواو اعتراضية، فإنّ التذييل من قبيل الاعتراض في آخر الكلام على الرأي الصحيح. وتذييل الكلام بذكر فضل من يوقون شح أنفسهم بعد قوله { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } يشير إلى أنّ إيثارهم على أنفسهم حتّى في حالة الخصاصة هو سلامة من شح الأنفس، فكأنّه قيل: لسلامتهم من شح الأنفس.

الشُّحّ (بضم الشين وكسرها): غريزة في النفس بمنع ما هو لها، وهو قريب من معنى البخل. وأضيف في هذه الآية إلى النفس إشارة إلى أنّه غريزة لا تسلم منها نفس.

وفي الحديث في بيان أفضل الصدقة: **" أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى"**.

والنفوس تتفاوت في هذا المقدار، فإذا غلب عليها بمنع المعروف والخير فذلك مذموم ويتفاوت ذمّه بتفاوت ما يمنعه.

{ **فَأُولَئِكَ** } اسم الإشارة لتعظيم هذا الصنف من الناس.

{ **هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } صيغة القصر، المؤدَّاة بضمير الفصل، للمبالغة لكثرة الفلاح الذي يترتَّب على وقاية شح النفس.

{ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } [10].

عطف على { وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ } [9]، على التفسيرين المتقدمين؛

فأمّا على رأي من جعلوا { وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ } [9] معطوفا على { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ } [8] جعلوا {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ } فريقا من أهل القرى، وهو غير المهاجرين والأنصار بل هو من جاء إلى الإسلام بعد المهاجرين والأنصار.

والمجيء مستعمل في الدخول في الإسلام، وهذا فريق ثالث، وهؤلاء هم الذين ذكروا في قوله تعالى { وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ } [التوبة:100] أي: اتبعوهم في الإيمان.

{ **جَاءُوا** } صيغة الماضي للتغليب، لأنّ من العرب وغيرهم من أسلموا بعد الهجرة مثل غِفارة، ومُزينة، وأسلم، ومثل عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، فكأنّه قيل: الذين جاؤوا ويجيئون، بدلالة لحن الخطاب.

والمقصود من هذا: زيادة دفع إيهام أن يختصّ المهاجرون بما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من أهل القرى كما اختصَّهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بفيء بني النضير.

وقد شملت هذه الآية كلّ من يوجد من المسلمين أبد الدهر. ذكر القرطبي: أنّ عمر دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتح الله عليه وقال لهم: تثبَّتوا الأمر وتدبَّروه ثمّ اغدوا عليّ فلما غدو عليه قال: قد مررت بالآيات التي في سورة الحشر وتلا { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى - إلى قوله - أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } [8/7]. قال: ما هي لهؤلاء فقط وتلا { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ - إلى قوله - رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } ثم قال: ما بقى من أهل الإسلام إلّا وقد دخل في ذلك ".

وهذا ظاهر في الفيء، وأمّا ما فُتح عنوة فمسألة أخرى ولعمر بن الخطاب في عدم قسمته سواد العراق بين الجيش الفاتحين له عمل آخر، وهو ليس غرضنا. ومحله كتب الفقه والحديث.

والذين جعلوا قوله تعالى { وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ } [9]، كلاما مستأنفا، وجعل { يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ

إِلَيْهِمْ } [9] خبرا عن اسم الموصول، جعلوا قوله { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ } كذلك مستأنفا.
{ **يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا** } في موضع الحال من { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ }. بيَّن الله للذين جاؤوا من بعدهم ما يُكسبهم فضيلة ليست للمهاجرين والأنصار، وهي فضيلة الدعاء لهم بالمغفرة وانطواء ضمائرهم على محبَّتهم وانتفاء البغض لهم.
الغِل (بكسر الغين): الحسد والبغض، أي: سألوا الله أن يطهّر نفوسهم من الغل والحسد للمؤمنين السابقين على ما أُعطُوه من فضيلة صحبة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وما فُضِّل به بعضهم من الهجرة وبعضهم من النصرة.
وقد دلت الآية على أنّ حقًّا على المسلمين أن يذكروا سلفهم بخير، وأنّ حقًّا عليهم محبة المهاجرين والأنصار وتعظيمهم.

{ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** } [11].
أُعقِب ذكر ما حلَّ ببني النضير وما اتصل به من بيان أسبابه، ثم بيان مصارف فيئهم وفيء ما يُفتح من القرى بعد ذلك، بذكر أحوال المنافقين مع بني النضير وتغريرهم بالوعود الكاذبة ليعلم المسلمون أنّ النفاق سجيَّة في أولئك لا يتخلّون عنه ولو في جانب قوم هم الذين يودُّون أن يظهروا على المسلمين.
{ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا** } الجملة استئناف ابتدائي، والاستفهام مستعمل في التعجيب من حال المنافقين، فبُني على نفي العلم بحالهم كناية عن التحريض على ايقاع هذا العلم كأنّه يقول: تأمَّل الذين نافقوا في حال مقالتهم لإخوانهم ولا تترك النظر في ذلك فإنّه حال عجيب.
{ **الَّذِينَ نَافَقُوا** } هم فريق من بني عوف من الخزرج من المنافقين سُمِّي منهم عبد الله بن أبَي بن سلول، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد، ورافعة بن تابوت، وأوس بن قيضي، ووديعة بن أبي قوتل، أو ابن قوقل، وسويد (لم ينسب) وداعس (لم ينسب)، بعثوا إلى بني النضير حين حاصر جيش المسلمين بني النضير يقلون لهم: أثبتوا في معاقلكم فإنّا معكم.
{ **يقولون** } في موضع المفعول الثاني. والتقدير: ألم ترهم قائلين. وجيء بالفعل المضارع لقصد تكرّر ذلك منهم، أي: يقولون ذلك مؤكّدينه ومكرّرينه.
{ **لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** } المراد بنو النضير، وإنّما وصفهم بالإخوة لهم لأنّهم كانوا متّحدين في الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم. وفي الوصف بذلك إيماء إلى أنَّ جانب الأخوة بينهم هو الكفر

إلّا أنّ كفر المنافقين كفر الشرك وكفر إخوانهم هو الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم.
{ **لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ** } اللام موطِّئة للقسم، أي: قالوا لهم كلاما مؤكّدا بالقسم.
{ **وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً** } معطوفة على جملة { لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ } فهي من المقول لا من المقسم عليه، وقد أعربت عن المؤكَّد، لأنّ بني النضير يعلمون أن المنافقين لا يطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين فكان المنافقون في غنية عن تحقيق هذا الخبر.
{ **فِيكُمْ** } في شأنكم، أي: في ضرّكم. ونظيره قوله تعالى { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ } [المائدة:52]، أي: في الموالاة لهم.
{ **وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ** } لنُعِينَنَّكُم في القتال. والنصر يطلق على الإعانة على المعادي.
{ **وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** } أعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنّهم كاذبون في ذلك، بعد ما أعلمه بما اقسموا عليه تطمينا لخاطره، لأنّ الآية نزلت بعد إجلاء بني النضير وقبل غزو قريظة لئلا يتوجّس الرسول صلى الله عليه وسلم خيفة من بأس المنافقين، وسمَّى الله الخبر شهادة لأنّه خبر عن يقين بمنزلة الشهادة التي لا يتجازف المخبر في شأنها.

{ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ } [12].

{ **لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ** } بيان لجملة { وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [11]. واللام موطِّئة للقسم، وهذا تأكيد من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أنّهم لن يضرُّوه شيئا لكيلا يعبأ بما بلغه من مقالتهم.
{ **لَئِنْ أُخْرِجُوا / وَلَئِنْ قُوتِلُوا** } الضميران عائدان إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } [الحشر:11]، أي الذين لم يُخرجوا ولما يُقاتلوا <u>وهم قريظة وخيبر</u>، أمّا بنو النضير فقد أخرجوا قبل نزول هذه السورة فهم غير معنيين بهذا الخبر المستقبل. <u>والمعنى</u>: لئن أخرج بقية اليهود في المستقبل لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا في المستقبل لا ينصرونهم. وقد سلك في هذا البيان طريق الإطناب. فإن قوله { وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [11] جمع ما في هاتين الجملتين فجاء بيانه بطريقة الإطناب لزيادة تقرير كذبهم.
{ **وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ** } ارتقاء في تكذيبهم على ما وعدوا به إخوانهم، و(الواو) واو الحال.
{ **وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ** } هنا لإرادة وقوع الفعل بقرينة قوله تعالى { لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ }، <u>والمعنى</u>: أنه لو فُرض أنّهم أرادوا نصرهم فإنّ أمثالهم لا يُترقَّب منهم الثبات في الوغى فلو أرادوا نصرهم وتجهّزوا معهم لفرُّوا عند

الكريهة، وهذا كقوله تعالى { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ } [التوبة: 47].

{ **ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ** } { ثُمَّ } للتراخي الرتبي، كما هو شأنها في عطف الجمل، فإنّ انتفاء النصر أعظم رتبة في تأييس أهل الكتاب من الانتفاع بإعانة المنافقين فهو أقوى من انهزام المنافقين إذا جاؤوا لإعانة أهل الكتاب في القتال. وضمير { لا يُنْصَرُونَ } عائد إلى الذين كفروا من أهل الكتاب، إذ الكلام جار على وعد المنافقين بنصر أهل الكتاب. والمقصود: تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وتأمينهم من بأس أعدائهم.

{ **لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** } [13].

لمّا كان المقصود من ذكر وهن المنافقين في القتال تشديد نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنفس المؤمنين حتّى لا يرهبوهم ولا يخشوا مساندتهم لأهل حرب المسلمين أحلاف المنافقين؛ قريظة وخيبر، أُعقِب ذلك بإعلام المؤمنين بأنّ المنافقين وأحلافهم يخشون المسلمين خشية شديدة وُصفت شدَّتها بأنّها أشدّ من خشيتهم الله تعالى، وذلك منتهى الخشية.

والمقصود: تشديد نفوس المسلمين ليعلموا أنّ عدوَّهم مُرْهَب منهم، وذلك ممّا يزيد المسلمين إقداما في محاربتهم، إذ ليس سياق الكلام للتسجيل على المنافقين واليهود قلّة رهبتهم لله.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين.

{ **فِي صُدُورِهِمْ** } الضمير عائد إلى { الَّذِينَ نَافَقُوا } و{ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } [11]، إذ ليس اسم أحد الفريقين أولى بعود الضمير إليه، مع صلاحية الضمير لكليهما، ولأنّ المقصودين بالقتال هم يهود قريظة وخيبر وأمّا المنافقون فكانوا أعوانا لهم.

{ **مِنَ اللَّهِ** } هو المفضَّل عليه، وهو على حذف مضاف، أي: من رهبة الله. وهذا تركيب غريب النسج بديعه. والمألوف في أداء مثل هذا المعنى أن يقال: لرهبتهم منكم في صدورهم أشد من رهبتهم من الله، فحُوِّل عن ذلك، ليتأتّى الابتداء بضمير المسلمين اهتماما به وليكون متعلّق الرهبة ذوات المسلمين لتوقّع بطشهم، وليتأتّى التمييز المحوَّل عن الفاعل لما فيه من خصوصية الإجمال مع التفصيل، وليتأتّى حذف المضاف في تركيب { مِنَ اللَّهِ }، إذ التقدير: من رهبة الله، لأنّ حذفه لا يحسُن إلّا إذا كان موقعه متصلا بلفظ { رَهْبَةً }، إذ لا يحسن أن يقال: لرهبتهم أشد من الله.

فاليهود والمنافقون من شأنهم أن يخشوا الله؛ أمّا اليهود فلأنّهم أهل دين فهم يخافون الله ويحذرون عقاب الدنيا وعقاب الآخرة. وأمّا المنافقون فهم مشركون وهم يعترفون بأنّ الله تعالى هو الإله الأعظم، وأنّه أولى الموجودات بأن يُخشى لأنّه رب الجميع، وهم لا يثبتون البعث والجزاء فخشيتهم الله قاصرة على خشية عذاب الدنيا من خسف وقحط واستئصال ونحو ذلك.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** } وإذ قد حصلت البشارة من الخبر عن الرعب الذي في قلوبهم ثُنِيَ عنان الكلام إلى مذمّة هؤلاء الأعداء من جرّاء كونهم أخوف للناس منهم لله تعالى بأنّ ذلك من قلة فقه نفوسهم، ولو فقهوا لكانوا أخوف لله منهم للناس. ذلك أنهم تبعوا دواعي الخوف المشاهد وذهلوا عن الخوف المُغيَّب عن أبصارهم، وهو خوف الله، فكان ذلك من قلّة فهمهم للخفيّات.

والجملة معترضة بين البيان ومبيّنه.

الفقه: فهم المعاني الخفيّة، وتقدّم عند قوله تعالى { فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً } [النساء:78]، وقوله تعالى { انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } [الأنعام:65].

{ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ } [14].

{ **لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ** } بدل اشتمال من جملة { لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ } [13]، لأنّ شدّة الرهبة من المسلمين تشتمل على شدّة التحصّن لقتالهم إيّاهم، أي: لا يقدرون على قتالكم إلّا في هاته الأحوال.

{ **لا يُقَاتِلُونَكُمْ** } الضمير المرفوع عائد إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } [11].

{ **جَمِيعًا** } الراجح أن يكون بمعنى كلّهم، كقوله تعالى { إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً } [المائدة:48]، فيكون للشمول، أي: اليهود والمنافقون.

{ **إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ** } استثناء حقيقي من عموم الأحوال، أي: لا يقاتلونكم كلّهم إلّا في حال الكون في قرى محصّنة.

{ **مُحَصَّنَةٍ** } ممنوعة ممَّن يريد أخذها، بأسوار أو خنادق.

{ **قُرَى** } بالقصر جمع قرية.

{ **جُدُرٍ** } بضمَّتين في قراءة الجمهور جمع جِدار. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو { جدار } على الإفراد.

{ **بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ** } استئناف بياني، لأنّ الإخبار عن أهل الكتاب وأنصارهم بأنّهم لا يقاتلون المسلمين إلّا في قرى محصّنة، المفيد أنّهم لا يتّفقون على جيش واحد متساندين فيه، ممّا يثير في نفس السامع أن يسأل عن موجب ذلك مع أنّهم متّفقون على عداوة المسلمين. فيُجاب بأنّ بينهم بأسا شديدا وتدابرا، فهم لا يتّفقون.

{ **بَأْسُهُمْ** } افتتحت به الجملة للاهتمام بالإخبار عنه بأنّه { بَيْنَهُمْ } وليس بأسهم على المسلمين، وفيه تهكُّم.

{ **تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً** } استئناف عن جملة { بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ }، لأنّه قد يسأل السائل: كيف ذلك ونحن نراهم متّفقين؟ فأُجيب بأنّ ظاهر حالهم حال اجتماع واتحاد وهم في بواطنهم مختلفون.

والخطاب لغير معيَّن لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يحسب ذلك.

وهذا تشجيع للمسلمين على قتالهم والاستخفاف بجماعتهم. وفي الآية تربية للمسلمين ليحذروا من التخالف والتدابر ويعلموا أنّ الأمة لا تكون ذات بأس على أعدائها إلّا إذا كانت متّفقة الضمائر يرون رأيا متماثلا في أصول مصالحها المشتركة، وإن اختلفت في خصوصياتها، التي لا تنقض أصول مصالحها، ولا تفرّق جامعتها، وأنّه لا يكفي في الاتحاد توافق الأقوال ولا التوافق على الأغراض إلّا أن تكون الضمائر خالصة من الإحن والعداوات.

القلوب: العقول والأفكار، وإطلاق القلب على العقل كثير في اللغة.

{ **شَتَّى** } جمع شتيت بمعنى مفارق، بوزن فَعْلَى مثل قتيل وقتلى، شُبِّهت العقول المختلفة مقاصدها بالجماعات المتفرقين في جهات، في أنّها لا تتلاقى في مكان واحد.

والمعنى: أنّهم لا يتفقون على حرب المسلمين.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ** } إشارة إلى ما ذُكر من أنّ بأسهم بينهم ومن تشتت قلوبهم، أي: ذلك مسبَّب على عدم عقلهم، إذ انساقوا إلى إرضاء خواطر الأحقاد والتشفِّي بين أفرادهم وأهملوا النظر في عواقب الأمور واتباع المصالح، فأضاعوا مصالح قومهم.

{ **قَوْمٌ** } تقدم غير مرة أنّ إسناد الحكم إلى عنوان قوم يؤذن بأنّ ذلك الحكم كالجبلّة المقوِّمة للقوميّة.

{ **لا يَعْقِلُونَ** } أوثرت هنا هذه الصفة وفي الآية التي قبلها { لا يَفْقَهُونَ } [13] لأنّ معرفة مآل التشتّت في الرأي وصرف البأس إلى المشارك في المصلحة من الوهن والفتّ في ساعد الأمّة معرفة مشهورة بين العقلاء، فإهمالهم سلوك ذلك جعلهم سواء مع من لا عقول لهم، فكانت هذه الحالة شقوة لهم حصلت منها سعادة للمسلمين.

{ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [15].

خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه هذا الخبر، فالتقدير: مثلهم كمثل الذين من قبلهم قريبا، أي: حال أهل الكتاب الموعود بنصر المنافقين كحال الذين من قبلهم قريبا.

والمراد: أنّ حالهم المركبة من التظاهر بالبأس مع إضمار الخوف من المسلمين، ومن التفرّق بينهم وبين إخوانهم من أهل الكتاب، ومن خذلان المنافقين إيّاهم عند الحاجة، ومن أنّهم لا يقاتلون المسلمين إلّا في قرى محصنة أو من وراء جدر، كحال الذين كانوا من قبلهم في زمن قريب وهم بنو النضير، فإنّهم أظهروا

الاستعداد للحرب وأبَوْا الجلاء، فلم يحاربوا إلّا في قريتهم إذ حصَّنوها وقبعوا فيها حتّى أعياهم الحصار فاضطرُّوا إلى الجلاء ولم ينفعهم المنافقون ولا إخوانهم من أهل الكتاب.

الوبال: أصله وَخَامة المرعى، يقال: كلأ وبيل، إذا كان مرعى خضرا تهش إليه الإبل فيحبطها ويمرضها أو يقتلها، فشُبِّهوا في إقدامهم على حرب المسلمين مع الجهل بعاقبة تلك الحرب بإبل ترامت على مرعى وبيل فهلكت، فكان ذكر { ذَاقُوا } مع { وَبَالَ } إشارة إلى هذه الاستعارة.

{ **أَمْرِهِمْ** } شأنهم وما دبَّروه وحسبوا له حسابه، وذلك أنّهم أوقعوا أنفسهم في الجلاء وترك الديار. أي: ذاقوا سوء أعمالهم في الدنيا.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } عائد إلى { الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }، أي: زيادة على ما ذاقوه من عذاب الدنيا بالجلاء وما فيه من مشقة على الانفس والأجساد لهم عذاب أليم في الآخرة على الكفر.

{ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ [16] فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ [17] }.

الوجه أنّ هذا المثل متّصل بقوله تعالى {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [15]، كما يُفصح عنه قوله في آخره { فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ }، أي: مثلهم في تسبيبهم لأنفسهم عذاب الآخرة كمثل الشيطان إذ يوسوس للإنسان بأن يكفر ثم يتركه ويتبرَّأ منه فلا ينتفع أحدهما بصاحبه ويقعان معا في النار.

{ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ** } حال من ضمير { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [15]، أي: في الآخرة.

{ **الشَّيْطَانِ** } تعريف الجنس، وكذلك تعريف { **لِلْإِنْسَانِ** }، والمراد به الإنسان الكافر.

{ **إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ** } قول الشيطان هذا هو ما في قوله تعالى { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ } [إبراهيم:22].

فالمعنى: إذ قال للإنسان في الدنيا اكفر فلمّا كفر ووافى القيامة على الكفر قال الشيطان يوم القيامة { إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ }، أي: قال كلّ شيطان لقرينه من الإنس ذلك طمعا في أن يكون منجيه من العذاب.

{ **فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا** } من تمام المثل. أي كان عاقبتهما الخسران معا. وكذلك تكون عاقبة الفريقين الممثَّلين أنّهما خائبان فيما دبَّرا وكادا للمسلمين.

{ **وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** } تذييل، والإشارة الى ما يدلّ عليه { فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ } من معنى.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [18].

انتقال من الامتنان على المسلمين بما يسرٌّ من فتح قرية بني النضير بدون قتال، وما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم منهم، ووصف ما جرى من خيبتهم وخيبة أملهم في نصرة المنافقين، ومن الإيذان بأنّ عاقبة أهل القرى الباقية كعاقبة أسلافهم. وكذلك موقف أنصارهم معهم، الى الأمر بتقوى الله شكرا له على ما منح وما وعد من صادق الوعد، فإنّ الشكر جزاء العبد عن نعمة ربّه إذ لا يستطيع جزاء غير ذلك.

{ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } لمّا كان ما تضمَّنته السورة من تأييد الله إيّاهم وفيض نعمه عليهم كان من منافع الدنيا، أعقبه بتذكيرهم بالإعداد للآخرة، أي: لتتأمل كل نفس فيما قدَّمته للآخرة.

والجملة عطف أمر على أمر آخر، وهي معترضة بين جملة { اتَّقُوا اللَّهَ } وجملة { إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}.

{ نَفْسٌ } إظهار في مقام الإضمار لأنّ مقتضى الظاهر: وانظروا ما قدمتم، فعدل عن الإظهار لقصد العموم، أي: لتنظروا وتنظر كلّ نفس. والتنكير أيضا لتأكيد العموم.

التقديم: مستعار للعمل الذي يُعمل لتحصيل فائدته في زمن آت.

{ لِغَدٍ } اطلق على الزمن المستقبل مجازا لتقريب الزمن المتقبل من البعيد لملازمة اقتراب الزمن لمفهوم الغد، لأنّ الغد هو اليوم الموالي لليوم الذي فيه المتكلّم فهو أقرب أزمنة المستقبل. وهذا المجاز شائع في كلام العرب، في لفظ غد وأخواته.

والتنكير للتعظيم والتهويل، أي: لغد لا يُعرف كنهه.

واللام لام العلة، أي: ما قدَّمته لأجل يوم القيامة، أي: لأجل الانتفاع به.

{ وَاتَّقُوا اللَّهَ } الإعادة ليُبنى عليه { إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }، فيحصل الربط بين التعليل والمعلَّل إذ وقع بينهما فصل { وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } وإنّما أعيد بطريق العطف لزيادة التأكيد فإنّ التوكيد اللفظي يؤتى به تارة معطوفا، وذلك أنّ في العطف إيهام أن يكون التوكيد يجعل كالتأسيس لزيادة الاهتمام بالمؤكد.

ويجوز أن يكون { اتَّقُوا اللَّهَ } المذكور أوّلا مراد به التقوى بمعنى الخوف من الله وهي الباعثة على العمل ولذلك أردف بقوله تعالى { وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } ويكون { اتَّقُوا اللَّهَ } المذكور ثانيا مراد به الدوام على التقوى الأولى، أي: ودوموا على التقوى.

{ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } تعليل للجث على تقوى الله وموقع { إنَّ } فيها موقع التعليل. وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلّة بدلالتها أتم استقلال، فتجري مجرى الأمثال، ولتربية المهابة في نفس المخاطبين.

{ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [19].

بعد أن أمر المؤمنين بتقوى الله وإعداد العُدَّة للآخرة، أعقبه بهذا النهي تحذيرا عن الإعراض عن الدين والتغافل عن التقوى، وذلك يفضي الى الفسوق. وجيء في النهي بنهيهم عن حالة قوم تحقَّقت فيهم هذه الصلة ليكون النهي عن إضاعة التقوى مصوَّرا في صورة محسوسة.

وهذا الإعراض مراتب قد تنتهي إلى الكفر الذي تلبَّس به اليهود وإلى النفاق الذي تلبَّس به فريق ممَّن أظهروا الإسلام في أول سني الهجرة.

{ كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ } ظاهر الموصول أنّه لطائفة معهودة، فيحتمل أن يراد بـهم المنافقين لأنّهم كانوا مشركين ولم يهتدوا للتوحيد بهدى الإسلام فعُبِّر عن النفاق بنسيان الله لأنّه جهل بصفات الله من التوحيد والكمال.

وعُبِّر عنهم بالفاسقين في قوله تعالى { نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [التوبة:67]، فتكون هذه الآية ناظرة إلى تلك.

ويحتمل أن يكون المراد بهم اليهود لأنّهم أضاعوا دينهم ولم يقبلوا رسالة عيسى عليه السلام وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم. فالمعني: نسوا دين الله وميثاقه الذي واثقهم به، قال تعالى { وأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ } [البقرة:41/40].

وإظهار اسم الجلالة، دون أن يقال: نسوه، لاستفظاع هذا النسيان.

{ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ } أشعر فاء التسبُّب بأنّ إنساء الله إيّاهم أنفسهم مسبَّب على نسيانهم دين الله، أي: لمّا أعرضوا عن الهدى بكسبهم وارادتهم عاقبهم الله بأن خلق فيهم نسيان أنفسهم.

{ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } القصر المستفاد من ضمير الفصل قصر ادعائي للمبالغة في وصفهم بشدّة الفسق حتّى كأنّ فسق غيرهم ليس بفسق في جانب فسقهم. واسم الإشارة للتشهير بهم بهذا الوصف.

والجملة مستأنفة استئنافا بيانيًّا لبيان الإبهام الذي أفاده قوله تعالى { فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ }، كأن السامع سأل: ماذا كان إثر إنساء الله إيّاهم أنفسهم؟ فأجيب بأنّهم بلغوا بسبب ذلك منتهى الفسق في الأعمال السيّئة حتّى حقّ عليهم أن يقال: إنّه لا فسق بعد فسقهم.

الفسق: الخروج من المكان الموضوع للشيء، فهو صفة ذمّ غالبا لأنّه مفارقة للمكان اللائق بالشيء، ومنه قيل: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها. فالفاسقون هم الآتون بفواحش السيّئات، وأعظمها الإشراك.

{ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ } [20].

تذييل لجملة { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } [18]. لأنّه جامع لخلاصة عاقبة الحالين: حال التقوى والاستعداد للآخرة، وحال نسيان ذلك وإهماله، ولكلا الفريقين عاقبة عمله. ويشمل الفريقين وأمثالهم.

والجملة أيضا فذلكة لما قبلها من حال المتّقين والذين نسوا الله ونسوا أنفسهم لأنّ ذكر مثل هذا الكلام بعد ذكر أحوال المتحدَّث عنهم يكون في الغالب للتعريض بهم، فمعنى الآية كناية عن كون المؤمنين هم أصحاب الجنة، وكون الذين نسوا الله هم أهل النار، فتضمَّنت الآية وعدا للمتقين ووعيدا للفاسقين.

{ لا يَسْتَوِي } المراد من نفي الاستواء، في مثل هذا، الكناية عن البون بين الشيئين. وتعيين المفضَّل من الشيئين موكول إلى فهم السامع من قرينة المقام.

{ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ } القصر المستفاد من ضمير الفصل قصر ادّعائي لأنّ فوزهم أبدي، فاعتبر فوز غيرهم ببعض أمور الدنيا كالعدم.

{ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [21].

لمّا حذَّر المسلمين من الوقوع في مِهواة نسيان الله التي وقع فيها الفاسقون، وتوعَّد الذين نسوا الله بالنار، وبيَّن حالهم بأنّ الشيطان سوّل لهم الكفر. وكان القرآن دالا على مسالك الخير ومحذِّرا من مسالك الشرّ، وما وقع الفاسقون في الهلكة إلّا من جرّاء إهمالهم التدبُّر فيه، وذلك من نسيانهم الله تعالى، انتقل الكلام إلى التنويه بالقرآن وهديه البيِّن الذي لا يصرف الناسَ عنه إلّا أهواءُهم ومكابرتُهم، وكان إعراضهم عنه أصل استمرار ضلالهم وشركهم، ضرب لهم هذا المثل تعجيبا من تصلُّبهم في الضلال.

وفي هذا الانتقال إيذان بانتهاء السورة لأنّه انتقال بعد طول الكلام في غرض فتح قرى اليهود وما ينال المنافقين من جرّائه من خسران في الدنيا والآخرة.

{ لَوْ أَنْزَلْنَا } إنزال القرآن مستعار للخطاب به. عُبِّر عنه بالإنزال على طريقة التبعية تشبيها لشرف الشيء بعلو المكان، ولإبلاغه للغير بإنزال الشيء من علوّ.

{ هَذَا الْقُرْآنُ } إشارة إلى المقدار الذي نزل منه، وهو ما عرفوه وتلَوه وسمعوا تلاوته.

وفائدة الإتيان باسم إشارة القريب التعريض لهم بأنّ القرآن غير بعيد عنهم. وأنّه في متناولهم ولا كلفة عليهم في تدبُّره ولكنّهم قصدوا الإعراض عنه.

{ **عَلَى جَبَلٍ** } المراد حقيقة الجبل، لأنّ الكلام فرض. فالجبل مثال لأشد الأشياء صلابة وقلّة تأثّر بما يقرعه.
{ **لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** } الخطاب لغير معيّن فيعمّ كلّ من يسمع هذا الكلام.
والرؤية بصرية، وهي منفية لوقوعها جوابا لحرف { لَوْ } الامتناعية.
الخشوع: التطأطؤ والركوع، أي: لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض.
التصدّع: التشقّق، أي: لتزلزل وتشقق من خوفه الله تعالى. ضُرب التصدّع مثلا لشدة الانفعال والتأثّر لأنّ منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تنشقّ وتتصدّع، إذ لا يحصل ذلك لها بسهولة.
والمعنى: لو كان المخاطب بالقرآن جبلا، وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثر بخطاب القرآن تأثرا ناشئا من خشية الله.
{ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ** } تذييل لأن ما قبلها سيق مساق المثل فذُيِّل بأنّ الأمثال التي يضربها الله في كلامه مثل المثل أراد منها أن يتفكَّروا فإنّ لم يتفكروا بها فقد سُجِّل عليهم عنادهم ومكابرتهم.
{ **تِلْكَ** } الإشارة إلى مجموع ما مرَّ على أسماعهم من الأمثال الكثيرة، وتقدير الكلام: ضربنا هذا مثلا.
{ **نَضْرِبُهَا** } ضرب المثل سوقه، أُطلق عليه الضرب بمعنى الوضع، كما يقال: ضرب بيتا، وتقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26].

{ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** } [22].
لمّا تكرَّر في هذه السورة ذكر اسم الله وضمائره وصفاته أربعين مرة؛ منها أربع وعشرون بذكر اسم الجلالة وست عشرة مرة بذكر ضميره الظاهر، أو صفاته العلية.
وكان ما تضمّنته السورة **دلائل** على عظيم قدرة الله وبديع تصرّفه وحكمته، و**اعتبار** بعظيم قدرة الله إذ أيّد النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين ونصرهم على بني النضير، ذلك النصر الخارق للعادة، **وذِكر** ما حلّ بالمنافقين أنصارهم، وأنّ ذلك لأنّهم شاقوا الله ورسوله، وذلك بالثناء على المؤمنين بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم الذين نصروا الدين، ثم الأمر بطاعة الله والاستعداد ليوم الجزاء، والتحذير من الذين أعرضوا عن كتاب الله ومن سوء عاقبتهم، وخُتم ذلك بالتذكير بالقرآن الدال على الخير، والمعرِّف بعظمة الله المقتضية شدّة خشيته، **عُقِّب** ذلك بذكر طائفة من عظيم صفات الله ذات الآثار العديدة في تصرفاته المناسبة لغرض السورة، زيادة في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية للمزيد من خشيته، وبالصفات الحسنى الموجبة لمحبّته، وزيادة في إرهاب المعاندين المعرضين من صفات بطشه وجبروته.
ولذلك ذكر في هذه الآيات الخواتم للسورة من صفاته تعالى ما هو مختلف التعلق والآثار للفريقين.
وفي غضون ذلك كلّه دلائل على بطلان إشراكهم به أصنامهم.

{ **هُوَ** } مبتدأ واسم الجلالة { **اللَّهُ** } خبر عنه و{ **الَّذِي** } صفة لاسم الجلالة. والضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ } [18].

وكان مقتضى الظاهر الاقتصار على الضمير دون ذكر اسم الجلالة لأنّ المقصود الإخبار عن الضمير بـ { الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } وبما بعد ذلك من الصفات العليَّة، فالجمع بين الضمير وما يساوي مُعاده اعتبار بأنّ اسم الجلالة يجمع صفات الكمال، لأنّ أصله الإله ومدلول الإله يقتضي جمع صفات الكمال.

ويجوز أن يُجعل ضمير الشأن ويكون الكلام استئنافا قُصد منه تعليم المسلمين هذه الصفات ليتبصَّروا فيها، وللردّ على المشركين إشراكهم بصاحب هذه الصفات معه أصنافا ليس لواحد منها شيء من مثل هذه الصفات، ولذلك خُتمت طائفة منها بجملة { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [23]، لتكون ختاما لهذه السورة الجليلة التي تضمَّنت مِنَّةَ عظيمة، وهي مِنَّة الفتح الواقع والفتح الميسَّر في المستقبل.

وليعلم المشركون والكافرون من اليهود أنّهم ما تعاقبت هزائمهم إلّا من جرّاء كفرهم.

ولما كان شأن هذه الصفات عظيما ناسب أن تُفتتح الجملة بضمير الشأن، فيكون اسم الجلالة مبتدأ و { الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} خبر، والجملة خبر عن ضمير الشأن.

{ **الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } ابتدئ في هذه الصفات العليَّة بصفة الوحدانية، وهي الأصل فيما يتبعها من الصفات. ولذلك كثر في القرآن ذكرها عقب اسم الجلالة كما في آية الكرسي [البقرة:255]، و[آل عمران:2].

{ **عَالِمُ الْغَيْبِ** } ثني بهذه الصفة لأنها التي تقتضيها صفة الإلهية، إذ علم الله هو العلم الواجب، وهي تقتضي جميع الصفات.

{ **الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** } ومن متعلّقات علمه أمور الغيب لأنّه الذي فارق به علمُ الله تعالى علمَ غيره، وذُكر معه علم الشهادة للاحتراس من توهّم أنّه يعلم الحقائق الكلية فقط، كما ذهب إليه فريق من الفلاسفة الأقدمين.

والتعريف في { الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } للاستغراق الحقيقي.

{ **هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** } ضمير فصل يفيد قصر الرحمة عليه تعالى لعدم الاعتداد برحمة غيره لقصورها، قال تعالى { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } [الأعراف:156]. وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **جعل الله الرحمة في مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا. فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتّى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه** ". وقد تقدم الكلام على { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } [الفاتحة:3].

ووجه تعقيب صفة عموم العلم بصفة الرحمة أنّ عموم العلم يقتضي أن لا يغيب عن علمه شيء من أحوال خلقه وحاجتهم إليه، فهو يرحم المحتاجين إلى رحمته ويهمل المعاندين إلى عقاب الآخرة، فهو رحمان بهم في الدنيا، وقد كثر إتباع اسم الجلالة بصفتي { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } في القرآن، كما في الفاتحة.

{ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } [23].

{ **هُوَ** } القول فيه كالقول في نظيره في الجملة الأولى. وهذا تكرير للاستئناف، لأنّ المقام مقام عظيم وهو من مقامات التكرير، وفيه اهتمام بصفة الوحدانيّة.

{ **الْمَلِكُ** } الحاكم في النّاس، ولا مَلِكَ على الإطلاق إلّا الله تعالى، وأمّا وصف غيره بالملك فهو بالإضافة إلى طائفة معينة من الناس. وعُقِّب وصف الرحمة بوصف { الْمَلِكُ } للإشارة إلى أنّ رحمته فضل وأنّه مطلق التصرّف، كما وقع في سورة الفاتحة.

{ **الْقُدُّوسُ** } (بضم القاف في الأفصح وقد تفتح القاف)، وعُقِّب بهذا الوصف بعد { الْمَلِكُ } للاحتراس، إشارة إلى أنّه منزَّه عن نقائص الملوك المعروفة.

{ **السَّلامُ** } مصدر بمعنى المسالمة، وصف الله تعالى به على طريقة الوصف بالمصدر للمبالغة، أي: ذو السلامة، وهي أنّه تعالى سالَمَ الخلق من الظلم والجور. وفي الحديث: " **إنّ الله هو السلام ومنه السلام** ". وهذا احتراس أيضا، للدلالة على العدل في معاملته الخلق.

{ **الْمُؤْمِنُ** } اسم فاعل من آمن الذي همزته للتعدية، أي: جعل غيره آمنا. فالله هو الذي جعل الأمان في غالب أحوال الموجودات، إذ خلق نظام المخلوقات بعيدا عن الأخطار والمصائب، وإنّما تعرض للمخلوقات المصائب بعوارض تتركّب من تقارن أو تضاد أو تعارض المصالح.

إتمام للاحتراس من توهّم وصفه تعالى بـ { الْمَلِكُ } أنّه كالملوك المعروفين بالنقائص. فأفيد أولا نزاهة ذاته بوصف { الْقُدُّوسُ }، ونزاهة تصرّفاته الظاهرة عن الجور والظلم بوصف { السَّلامُ }، ونزاهة تصرّفاته المغيَّبة عن الغدر والكيد بوصف { الْمُؤْمِنُ }.

{ **الْمُهَيْمِنُ** } الرقيب بلغة قريش، والحافظ في لغة بقية العرب. واختُلف في اشتقاقه:

فقيل: مشتق من أمن الداخل عليه همزة التعدية فصار ءامن، وأنّ وزن الوصف (مُؤَيْمِن) قلبت همزته هاء.

وقيل: أصله هيمن بمعنى: رقب، كذا في لسان العرب وعليه فالهاء أصلية ووزنه مُفَيْعِل.

وفي (المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى) للغزالي: " القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم، وإنّما قيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه. والإشراف[الذي هو الاطلاع] يرجع إلى العلم، والاستيلاء يرجع إلى كمال القدرة، والحفظ يرجع إلى الفعل ".

وتعقيب { الْمُؤْمِنُ } بـ { الْمُهَيْمِنُ } لدفع توهّم أن تأمينه عن ضعف أو عن مخافة.

{ **الْعَزِيزُ** } الذي لا يُغلب، ولذلك فُسِّر بالغالب.

{ **الْجَبَّارُ** } : القاهر المُكْرِه غيره على الانفعال بفعله، فالجبّار من أمثلة المبالغة لأنّه مشتق من أجبره.

فالله جبّار كل مخلوق على الانفعال لما كوّنه عليه، لا يستطيع مخلوق اجتياز ما حدّه له في خلقته، وكذلك هو جبّار للموجودات على قبول ما أراده بها وما تعلّقت به قدرته عليها.

وإذا وصف الإنسان بالجبّار كان وصف ذمّ لأنّه يشعر بأنّه يحمل غيره على هواه، ولذلك قال تعالى { إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ } [القصص:19].

{ **الْمُتَكَبِّرُ** } شديد الكبرياء، أي: العظمة والجلالة. وأصل صيغة (التفعّل) أن تدلّ على التكلّف لكنها استعملت هنا في لازم التكلف وهو القوّة، لأنّ الفعل الصادر عن تأنق وتكلّف يكون أتقن.

ووجه ذكر هذه الصفات الثلاث { الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ } عقب صفة { الْمُهَيْمِنُ }، أنّ جميع ما ذُكر آنفا من الصفات لا يؤذن إلّا باطمئنان العباد لعناية ربّهم بهم وإصلاح أمورهم، وأنّ صفة { الْمُهَيْمِنُ } تؤذن بأمر مشترك فعُقِّبت بصفة { الْعَزِيزُ } ليعلم الناس أنّ الله غالب لا يعجزه شيء. واتبعت بصفة { الْجَبَّارُ } الدالة على أنّه مُسخِّر المخلوقات لإرادته، ثم صفة { الْمُتَكَبِّرُ } الدالة على أنّه ذو الكبرياء يصغر كلّ شيء دون كبريائه، فكانت هذه الصفات في جانب التخويف كما كانت قبلها في جانب الإطماع.

{ **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } ذُيّلت هذه الصفات بتنزيه الله تعالى عن أن يكون له شركاء.

{ **يُشْرِكُونَ** } الضمير عائد إلى معلوم من المقام وهم المشركون الذين لم يزل القرآن يقرعهم بالمواعظ.

{ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [24].

{ **هُوَ** } القول فيه وفي تكرير الجملة كالقول في التي سبقها. فإن كان ضميرُ الغيبة ضميرَ شأن فالجملة بعده خبر عنه، وإن كان عائدا على اسم الجلالة المتقدّم فاسم الجلالة بعده خبر عنه و { الْخَالِقُ } صفة.

{ **اللَّهُ الْخَالِقُ** } تفيد الجملة قصرا بطريق تعريف جزأي الجملة، أي: هو الخالق لا شركاؤهم. وهذا إبطال لإلهية ما لا يخلق. قال تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [النحل:17].

{ **الْخَالِقُ** } اسم فاعل من الخلق، وأصل الخلق في اللغة إيجاد شيء على صورة مخصوصة. وتقدّم عند قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام { أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ } [آل عمران:49].

ويطلق الخلق على معنى أخص من إيجاد الصور وهو ايجاد ما لم يكن موجودا. كقوله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } [قٓ: 38]. وهذا هو المعنى الغالب من اطلاق اسم { الْخَالِقُ }.

{ **الْبَارِئُ** } اسم فاعل من بَرَأَ مهموزا. قال في الكشّاف: " المميّز لما يوجده بعضه من بعض بالأشكال المختلفة ". وهو مغاير لمعنى الخالق بالخصوص. وفي الحديث: " **من شرّ ما خلق وذرأ وبرأ** ".

ومن كلام علي رضي الله عنه: " لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ".

{ **الْمُصَوِّرُ** } : مكوّن الصور لجميع المخلوقات ذوات الصور المرئيّة.

وإنّما ذُكرت هذه الصفات متتابعة { الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ } لأنّ من مجموعها يحصل تصوّر الإبداع الإلهي للإنسان؛ فابتدئ بالخلق الذي هو الإيجاد الأصلي، ثمّ بالبرء الذي هو تكوين جسم الإنسان ثمّ بالتصوير الذي هو إعطاء الصورة الحسنة، كما أشار إليه قوله تعالى { الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ } [الانفطار:8/7]، وقوله تعالى { الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ } [آل عمران:6].

ووجه ذكرها عقب الصفات المتقدمة، الإشارة إلى تصرّفه في البشر بالإيجاد على كيفية البديعة ليثير داعية شكرهم على ذلك. ولذلك عُقّبت بجملة { يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

{ **لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** } تذييل لما عُدِّد من صفات الله تعالى، أي: له جميع الأسماء الحسنى التي بعضها الصفات المذكورة آنفا.

{ **الْأَسْمَاءُ** } المراد الصفات، عُبّر عنها بالأسماء لأنّه متّصف بها على ألسنة خلقه، ولكونها بالغة منتهى حقائقها بالنسبة لوصفه تعالى بها فصارت كالإعلام على ذاته تعالى. وتقدّم قوله تعالى { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } [الأعراف:180].

{ **يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } في موضع الحال من ضمير { لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } يعني أنّ اتصافه بالصفات الحسنى يضطرّ ما في السماوات والأرض من العقلاء على تعظيمه بالتسبيح والتنزيه عن النقائص، فكلّ صنف يبعثه علمه ببعض أسماء الله على أن ينزّهه ويسبّحه بقصد أو بغير قصد.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } عطف على جملة الحال وأوثر هاتان الصفتان لشدّة مناسبتهما لنظام الخلق.

وفي هذه الآية ردّ العجز على الصدر لأنّ صدر السورة مماثل لآخرها.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الممتحنة

عُرفت هذه السورة في كتب التفسير وكتب السنة وفي المصاحف بـ (**سورة الممتحنة**).

قال القرطبي: والمشهور على الألسنة النطق في كلمة (الممتحِنة) بكسر الحاء، وهو الذي جزم به السهيلي.

ووجه التسمية أنّها جاءت فيها آية امتحان إيمان النساء اللاتي يأتين من مكّة مهاجرات إلى المدينة، وهي آية { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ - إلى قوله - بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ } [10]. فوصف الناس تلك الآية بالممتحِنة لأنّها شرعت الامتحان. وأضيفت السورة إليها.

وروي بفتح الحاء، على اسم المفعول، قال ابن حجر: وهو المشهور، أي: المرأة الممتحَنة، على أنّ التعريف تعريف العهد، والمعهود أوّل امرأة امتحنت في إيمانها، وهي (أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط) امرأة عبد الرحمان بن عوف.

وهذه السورة مدنية بالاتفاق.

واتفق أهل العدد على **عَدِّ آيها ثلاث عشرة آية**. وآياتها طوال.

وهذه السورة قد **عُدَّت الثانية والتسعين** في تعداد نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة المائدة وقبل سورة النساء.

أغراض السورة

*/ تحذير المؤمنين من اتخاذ المشركين أولياء لأنّهم كفروا بالدين الحقّ وأخرجوهم من بلادهم.

*/ الرخصة في حسن معاملة الكفرة الذين لم يقاتلوا المسلمين قتال عداوة في دين ولا أخرجوهم من ديارهم.

*/ حكم المؤمنات اللائي يأتين مهاجرات واختبار صدق إيمانهن وأن يُحفظنّ من الرجوع إلى دار الشرك ويُعوَّض أزواجهنّ المشركون ما أعطوهن من المهور، ويقع التَّراد كذلك مع المشركين.

*/ مبايعة المؤمنات المهاجرات ليُعرف التزامهنّ لأحكام الشريعة الإسلامية.

*/ تحريم تزوّج المسلمين المشركات.

*/ النهي عن موالاة اليهود وأنّهم أشبهوا المشركين.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } [1].

اتفق المفسّرون وثبت في صحيح الأحاديث أنّ هذه الآية نزلت في قضية الكتاب الذي كتب به حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العُزَّى من قريش. وكان حاطب من المهاجرين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أهل بدر.

وحاصل القصة: أنّ رسول الله كان قد تجهّز قاصدا مكة، قيل: لأجل العمرة عام الحديبية، وهو الأصح، فقدمت أيامئذ من مكة إلى المدينة امرأة تُسَّمى (سارة) مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف وكانت على دين الشرك، فقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كنتم الأهل والموالي والأصل والعشيرة وقد ذهب الموالي (تعني من قُتل من مواليها يوم بدر). وقد اشتدّت بي الحاجة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني فحثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على إعطائها، فكسوها وأعطوها وحملوها، وجاءها حاطب بن أبي بلتعة فأعطاها كتابا لتبلّغه إلى من كتب إليهم من أهل مكة يخبرهم بعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج إليهم، وآجرها على إبلاغه فخرجت.

وأوحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك، فبعث عليًّا والزبير والمقداد وأبا مرثد الغنوي، وكانوا فرسانا، وقال: انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ، فإنّ بها ظعينة ومعها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها وخلُّوا سبيلها. فخرجوا تتعادى بهم خيلهم حتّى بلغوا روضة خاخ فإذا هم بالمرأة. فقالوا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقالوا: لتخرجنّ الكتاب أو لتلقِينَّ الثياب (يعنون أنّهم يجرِّدونها) فأخرجته. فأتوا به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: " يا حاطب ما هذا "؟ قال: لا تعجل عليّ يا رسول الله، فإنّي كنت امرأ ملصقا في قريش وكان لمن كان معك من المهاجرين قرابات يحمون بها أهليهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي (يريد أمه وإخوته)، ولم أفعله كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **"صَدَقَ"**. فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" إنّه قد شهد بدرا وما يدريك لعلّ الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم "**. وقال: **" لا تقولوا لحاطب إلّا خيرا "** فأنزل الله تعالى { أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ }.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } وُجِّه الخطاب بالنهي إلى جميع المؤمنين تحذيرا من إتيان فعل حاطب.

العدوّ: ذو العداوة، وهو فعول بمعنى فاعل من: عدا يعدو. قال تعالى { **فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي** } [الشعراء:77].
والمعنى: لا تتخذوا أعدائي وأعداءكم أولياء. والمراد العداوة في الدين، فإنّ المؤمنين لم يبدأوهم بالعداوة وإنما أبدى المشركون عداوة المؤمنين انتصارا لشركهم. وقد كان مشركو العرب متفاوتين في مناواة المسلمين، فإنّ خُزاعة كانوا مشركين وكانوا موالين النبيّ صلى الله عليه وسلم.
الاتخاذ: افتعال من الأخذ، صيغ الافتعال للمبالغة في الأخذ المجازي فأطلق على التلبّس والملازمة. وتقدّم في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ } [النساء:71]، ولذلك لزمه ذكر حال بعد مفعوله لتدلّ على تعيين جانب المعاملة من خير أو شرّ. فعومل هذا الفعل معاملة صَيَّر. وتقدّم عند قوله تعالى { أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً } [الأنعام:74].
{ **تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ** } في موضع الحال من ضمير { لا تَتَّخِذُوا }، للتعجيب من إلقائهم إليهم بالمودة . أو في موضع الصفة لـ { أَوْلِيَاءَ }، أو بيان لمعنى أتخاذهم أولياء.
الإلقاء: حقيقته رمي ما في اليد على الأرض. واستعير لإيقاع الشيء بدون تدبّر في موقعه، أي: تصرفون إليهم مودّتكم بغير تأمّل. قال تعالى { فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } [النحل:86].
{ **وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ** } حال من ضمير { إِلَيْهِمْ } أو من { عَدُوِّي }.
وما جاءكم من الحق: هو القرآن والدين فذكر بطريق الموصولية ليشمل كل ما أتاهم به الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الإيجاز، مع ما في الصلة من الإيذان بتشنيع كفرهم بأنّه كفر بما ليس من شأنه أن يكفر به طُلّاب الهدى، فإنّ الحق محبوب مرغوب.
{ **جَاءَكُمْ** } تعدية (جاء) إلى ضمير المخاطبين، وهم الذين آمنوا، لأنّهم الذين انتفعوا بذلك الحق وتقبّلوه فكأنّه جاء إليهم لا إلى غيرهم، وإلّا فإنّه جاء لدعوة الذين آمنوا والمشركين، فقبله الذين آمنوا ونبذه المشركون.
وفيه إيماء إلى أنّ كفر الكافرين به ناشئ عن حسدهم الذين آمنوا قبلهم.
وفي ذلك أيضا إلهاب القلوب المؤمنين ليحذروا من موالاة المشركين.
{ **يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُم** } حال من ضمير { كَفَرُوا }، أي: لم يكتفوا بكفرهم بما جاء من الحق، فتلبّسوا معه بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم وإخراجكم من بلدكم لأنّكم آمنتم بالله ربكم.
{ **يُخْرِجُونَ** } المضارع لتصوير الحالة، لأنّ الجملة لمّا وقعت حالا من ضمير { وَقَدْ كَفَرُوا } كان إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في تلك الحالة عملا فظيعا، فأريد استحضار تلك صورة.
الإخراج: أريد به الحمل على الخروج بإتيان أسباب الخروج من تضييق على المسلمين وأذى لهم.
وأُسند الإخراج إلى ضمير العدو كلّهم لأنّ جميعهم كانوا راضين بما يصدر من بعضهم من أذى المسلمين. وربما أغرَوا به سفهاءهم، ولذلك فالإخراج مجاز في أسبابه، وإسناده إلى المشركين إسناد حقيقي.

وهذه الصفات بمجموعها لا تنطبق إلّا على المشركين من أهل مكة، ومجموعها هو عليه النهي عن موادّتهم.

{ **أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ** } جيء بصيغة المضارع لإفادة استمرار إيمان المؤمنين، وفيه إيماء إلى الثناء على المؤمنين بثباتهم على دينهم، وأنّهم لم يصدَّهم عنه ما سبَّب لهم الخروج من بلادهم.

{ **إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي** } شرط ذُيّل به النهي من قوله تعالى { لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ }. وهذا مقام يُستعمل في مثله الشرط بمنزلة التتميم لما قبله دون قصد تعليق ما قبله بمضمون فعل الشرط، بل يُقصد تأكيد الكلام الذي قبله بمضمون فعل الشرط فيكون كالتعليل لما قبله، فتكون صيغة الشرط مرادا بها التحذير بطريق المجاز المرسل في المركَّب، لأنّ معنى الشرط يلزمه التردُّد غالبا.

ولهذا يؤتى بمثل هذا الشرط إذا كان المتكلِّم واثقا بحصول مضمونه متحقِّقا صحة ما يقوله قبل الشرط. ومنه كثير في القرآن. ويغلب أن يكون فعل الشرط في مثله فعل (كون) إيذانا بأنّ الشرط محقق الحصول.

والمراد بالخروج: الخروج من مكة مهاجَرة إلى المدينة. فالخطاب خاص بالمهاجرين.

{ **جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي** } مصدران منصوبان على المفعول لأجله.

{ **تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ** } يجوز أن تكون الجملة بيانا لجملة { تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ }، أو بدل اشتمال منها، فإنّ الإسرار إليهم بالمودة ممّا اشتمل عليه الإلقاء إليهم بالمودة.

والخبر مستعمل في التوبيخ والتعجيب؛ فالتوبيخ مستفاد من إيقاع الخبر عقب النهي المتقدّم، والتعجيب مستفاد من تعقيبه بجملة { وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ }، أي: كيف تظنّون أنّ إسراركم إليهم يخفى علينا ولا نُطلع عليه رسولنا.

الإسرار: التحدث والإخبار سرا.

{ **تُسِرُّونَ** } يجوز أن يكون المفعول محذوفا يدل عليه السياق، أي: تخبرونهم أحوال المسلمين سرًّا.

وجيء بصيغة المضارع لتصوير حالة الإسرار إليه تفظيعا لها. والباء في { بِالْمَوَدَّةِ } للسببية، أي: تخبرونهم سرا بسبب المودة، أي: بسبب طلب المودّة لهم، كما هو في قضية كتاب حاطب.

ويجوز أن يكون { بِالْمَوَدَّةِ } في محل المفعول، والباء زائدة لتأكيد المفعولية، كالباء في قوله { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].

{ **وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ** } في موضع الحال من ضمير { تُسِرُّونَ }، أو معترضة.

وهذا مناط التعجيب من فعل المعرَّض به، وهو حاطب بن أبي بلتعة.

وتقديم { أَخْفَيْتُمْ } لأنّه المناسب لقوله تعالى { وَأَنَا أَعْلَمُ }، ولموافقته للقصة.

{ **أَعْلَمُ** } اسم تفضيل والمفضّل عليه معلوم من قوله تعالى { تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ }. فالتقدير: أعلم منهم ومنكم بما أخفيتم وما أعلنتم.

{ **بِمَا** } الباء متعلِّقة باسم التفضيل وهي بمعنى المصاحبة.

{ **وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** } عطف على جملة النهي في قوله تعالى { لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ }، عُطف على النهي التوعُّد على عدم الانتهاء بأنّ من لم ينته عمَّا نُهي عنه هو ضال عن الهدى.

{ **يَفْعَلْهُ** } ضمير الغيبة عائد إلى (الاتخاذ) المفهوم من فعل { لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي }، أي: ومن يفعل ذلك بعد هذا النهي والتحذير فهو قد ضلّ عن سواء السبيل.

{ **سَوَاءَ السَّبِيلِ** } مستعار لأعمال الصلاح والهدى لشبهها بالطريق المستوي الذي يُبلِّغ من سلكه إلى بغيته ويقع من انحرف عنه في هلكة. والمراد به هنا ضلّ عن الإسلام وضل عن الرشد.

وهو وعيد للذين يفعلون مثل ما فعل حاطب بعد أن بلغهم النهي والتحذير والتوبيخ والتفظيع لعمله.

{ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ } [2].

تفيد هذه الجملة معنى التعليل لمفاد قوله تعالى { فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } [1] باعتبار بعض ما أفادته الجملة، وهو الضلال عن الرشد، فإنّه قد يخفى ويُظنُّ أنّ في تطلُّب مودة العدو فائدة، كما هو حال المنافقين المحكي في قوله تعالى { الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [النساء:141]، فقد يُظنُّ أنّ موالاتهم من الدهاء والحزم رجاء نفعهم إن دالت لهم الدولة، فبيَّن الله لهم خطأ هذا الظنّ، وأنَّهم لو أخذوهم وتمكَّنوا منهم لكانوا أعداء لهم، وذلك لشدّة الحنق على ما لقوا من المسلمين من إبطال دين الشرك وتحقير أهله وأصنامهم.

{ **يَكُونُوا** } مشعر بأنّ عداوتهم قديمة وأنّها تستمر.

البسط: مستعار للإكثار، لما شاع من تشبيه الكثير بالواسع والطويل، وتشبيه ضدِّه، وهو القبض، بضدّ ذلك، فبسط اليد الإكثار من عملها. <u>والمراد به هنا</u>: عمل اليد الذي يضرّ مثل الضرب والتقييد والطعن، وعمل اللسان الذي يؤذي مثل الشتم والتهكّم، ودلّ على ذلك قوله تعالى { بِالسُّوءِ }.

{ **وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ** } حال من ضمير { يَكُونُوا }، أي: وهم قد ودُّوا من الآن أن تكفروا فكيف لو يأسرونكم، فجملة الحال دليل على معطوف مقدّر على جواب الشرط كأنّه قيل: إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء إلى آخره، ويردُّوكم كفارا، وليست الجملة معطوفة على جملة الجواب، لأنّ محبَّتهم أن يكفر المسلمون محبّة غير مقيَّدة بالشرط، ولذلك وقع فعل { وَدُّوا } ماضيا، ولم يقع مضارعا مثل الأفعال الثلاثة قبله { يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ } ليُعلم أنّه ليس معطوفا على جواب الشرط.

{ **لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } [3].

تخلُّص من تبيين سوء عاقبة موالاة أعداء الدين في الحياة الدنيا، إلى بيان سوء عاقبة تلك الموالاة في الآخرة، ومناسبة حسُن التخلُّص قوله تعالى { وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ } [2] الدال على معنى: أنّ وِدادتهم كُفركم من قبل أن يثقفوكم تنقلب إلى أن يُكرهوكم على الكفر حين يثقفوكم، فلا تنفعكم ذوو أرحامكم مثل الأمهات والإخوة الأشقاء، ولا أولادكم، ولا تدفع عنكم عذاب الآخرة. وزاد ذلك حُسْنًا أنَّ ما اعتذر به حاطب ابن أبي بلتعة أنّه أراد أن يتّخذ عند المشركين يدا يحمون بها قرابته أي: أمّه وإخوته. ولذلك ابتدئ في نفي النفع بذكر الأرحام لموافقة قصة حاطب.

فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ولولا ذلك لجاءت معطوفة بالواو على التي قبلها.

{ **أَرْحَامُكُمْ** } والمراد ذوو الأرحام على حذف مضاف لظهور القرينة.

{ **وَلا أَوْلادُكُمْ** } تتميم لشمول النهي قومّا لهم أبناء في مكّة.

{ **يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } ظرف يتنازعه كل من فعل { لَنْ تَنْفَعَكُمْ }، وفعل { يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ }. إذ لا يلزم تقدّم العاملين على المعمول المتنازع فيه إذا كان ظرفا، لأنّ الظروف تتقدّم على عواملها. وأن أبيت هذا التنازع فقل هو ظرف { لَنْ تَنْفَعَكُمْ } واجعل لـ { يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ } ظرفا محذوفا دلّ عليه المذكور.

{ **يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ** } الفصل هنا التفريق، وليس المراد به القضاء.

<u>والمعنى</u>: يوم القيامة يفرق بينكم وبين ذوي أرحامكم وأولادكم، فريق في الجنة وفريق في السعير، قال تعالى { يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } [عبس:37/34].

وقرأ الجمهور { يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ } ببناء الفعل للمجهول مخفَّفا. وقرأه عاصم ويعقوب { يَفْصِلُ } بالبناء للفاعل، وفاعله ضمير عائد إلى الله لعلمه من المقام، وقرأه حمزة والكسائي وخلف { يُفَصِّلُ } (مشدّد الصاد مكسورة) مبالغة في الفصل، والفاعل ضمير يعود إلى الله المعلوم من المقام، وقرأه ابن عامر { يُفَصَّلُ } (بضم التحتية وتشديد الصاد مفتوحة) مبنيا للنائب من فصَّل المشدّد.

{ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } وعيد ووعد.

{ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** } [4].

صدر هذه الآية يفيد تأكيدا لمضمون جملة { إِنْ يَثْقَفُوكُمْ } [2] وجملة { لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ } [3]، لأنّها بما تضمَّنته من أن الموجَّه إليهم التوبيخ خالفوا الأسوة الحسنة تقوِّي إثبات الخطأ المستوجب للتوبيخ.

ذلك أنّه بعد الفراغ من بيان خطأ من يوالي عدو الله بما يجرُّ إلى أصحابه من مضار في الدنيا وفي الآخرة تحذيرا لهم من ذلك، انتقل إلى تمثيل الحالة الصالحة بمثال من فعل أهل الإيمان الصادق والاستقامة القويمة وناهيك بها أسوة.

{ **قَدْ كَانَتْ** } هذا الافتتاح لتأكيد الخبر، فإنّ {قد} مع فعل الكون يراد بهما التعريض بالإنكار على المخاطب ولومه في الإعراض عن العمل بما تضمَّنه الخبر، كقوله تعالى { لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ } [قّ:22]، توبيخا على ما كان منهم في الدنيا من إنكار للبعث.

الإسوة (بكسر الهمزة وضمِّها): القدوة التي يُقتدى بها في فعل ما. وقرأ الجمهور { إِسْوَةٌ } بكسر الهمزة، وقرأه عاصم بضمِّها. وتقدَّمت في قوله تعالى { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [الأحزاب:21].

{ **حَسَنَةٌ** } وصف للمدح، لأنّ كونها حسنة قد عُلم من سياق ما قبله وما بعده.

{ **فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ** } حرف { فِي } مستعار لقوّة الملابسة، إذ جُعل تلبُّس إبراهيم والذين معه بكونهم أسوة حسنة، بمنزلة تلبّس الظرف بالمظروف في شدّة التمكُّن من الوصف.

وإبراهيم عليه السلام مثل في اليقين بالله والغضب له، عرف ذلك العرب واليهود والنصارى من الأمم، وشاع بين الأمم المجاورة من الكنعانيين والأراميين.

{ **وَالَّذِينَ مَعَهُ** } عطفٌ ليتمَّ التمثيلُ لحال المسلمين مع رسولهم صلى الله عليه وسلم بحال إبراهيم عليه السلام والذين معه. أي: أن يكون المسلمون تابعين لرضى رسولهم صلى الله عليه وسلم كما كان الذين مع إبراهيم عليه السلام. والمراد بـ { الَّذِينَ مَعَهُ } الذين آمنوا به واتبعوا هديه وهم زوجه سارة وابن أخيه لوط ولم يكن لإبراهيم أبناء حينها، فضمير { إِذْ قَالُوا } عائد إلى إبراهيم والذين معه فهم ثلاثة.

{ **بُرَآءُ** } بهمزتين بوزن فعلاء، جمع بريء، مثل كريم وكرماء. وبريء فعيل بمعنى فاعل، من بريء من شيء إذا خلا منه، سواء بعد ملابسته أو بدون ملابسة.

{ **إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ** } المراد هنا: التبرُّؤ من مخاطبتهم وملابستهم.

{ **وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } من الأصنام التي تعبدونها من دون الله، والمراد: برآء من عبادتها.

{ **كَفَرْنَا بِكُمْ** } وما عطف عليها، بيان لمعنى جملة { إِنَّا بُرَآءُ }، وضمير { بِكُمْ } عائد إلى مجموع المخاطبين من قومهم مع ما يعبدونه من دون الله، ويُفَسَّر الكفر بما يناسب المعطوف.

{ **وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً** } أي: أحدثنا معكم العداوة ظاهرة لا مواربة فيها، أي: ليست عداوة في القلب خاصة بل هي عداوة واضحة علانية بالقول والقلب. وهو اقصى ما يستطيعه أمثالهم من درجات تغيير المنكر، وهو التغيير باللسان إذ ليسوا بمستطيعين تغيير ما عليه قومهم باليد لقلتهم وضعفهم.

بدا: ظهر ونشأ.

{ **الْعَدَاوَةُ** } المعاملة بالسوء والاعتداء. و{ **الْبَغْضَاءُ** } نفرة النفس، والكراهيةُ.

وقد تطلق إحداهما في موضع الأخرى إذا افترقتا، فذِكرهما معا هنا مقصود به حصول الحالتين في أنفسهم: حالة المعاملة بالعدوان، وحالة النفرة والكراهية، أي: نسيء معاملتكم ونضمر لكم الكراهية حتّى تؤمنوا بالله وحده دون إشراك.

{ **إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** } الأظهر أنّ هذه الجملة معترضة بين جُمل حكاية مقال إبراهيم والذين معه، وجملة { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [6].

والاستثناء منقطع إذ ليس هذا القول من جنس قولهم { إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ }، فإنَّ قول إبراهيم لأبيه {لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ} رفق بأبيه وهو يغاير التبرُّؤ منه، فكان الاستثناء في معنى الاستدراك عن قوله تعالى { إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ } الشامل لمقالة إبراهيم معهم لاختلاف جنسي القولين.

وفائدة الاستدراك هنا التعريض بخطإ حاطب ابن أبي بلتعة، أي: إن كنتم معتذرين فليكم عذركم في مواصلة أعداء الله بأن تودُّوا لهم مغفرة كفرهم باستدعاء سبب المغفرة وهو أن يهديهم الله إلى الدين الحقّ كما قال إبراهيم لأبيه { لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ }.

{ **وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** } إكمال لجملة ما قاله إبراهيم لأبيه، وإذ كان المقصود من الاستثناء مجرّد وعده بالاستغفار له، فبُنِيَ عليه ما هو من بقية كلامه لما فيه من الدلالة على أنّ الاستغفار له قد لا يقبله الله.

و(الواو) يجوز أن يكون للحال أو للعطف. والمعنى متقارب، ومعنى الحال أوضح، وهو تذييل.

{ **أَمْلِكُ** } هنا القدرة، وتقدّم في قوله تعالى { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [المائدة:17].

{ **مِنْ شَيْءٍ** } عام للمغفرة المسؤولة وغيرها مما يريده الله به.

{ **رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** } الأظهر أن يكون هذا من كلام إبراهيم وقومه، وجملة { إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ } إلى آخرها، معترضة بين أجزاء القول، فهو ممّا أمر المسلمون أن يأتسوا به، وبه يكون الكلام شديد الاتصال مع قوله تعالى { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [6].

ويحتمل أن يكون تعليما للمؤمنين أن يقولوا هذا الكلام ويستحضروا معانيه ليجري عملهم بمقتضاه فهو على تقدير أمر بقول محذوف. والمقصود من القول العمل به، فإنّ الكلام يُجدِّد المعنى في نفس المتكلِّم به، ويُذَكِّر السامع من غفلته. وهذا تتميم لما أوصاهم به من مقاطعة الكفار بعد التحريض على الائتساء بإبراهيم ومن معه.

{ **رَبَّنَا** } إعادة النداء إظهار للتضرّع مع كل دعوة من الدعوات الثلاث.

{ **عَلَيْكَ / إِلَيْكَ / إِلَيْكَ** } تقديم المجرور على هذه الأفعال لإفادة القصر، وهو قصر بعضه ادعائي وبعضه حقيقي كما تصرف إليه القرينة.

{ **تَوَكَّلْنَا** } القول في معنى التوكّل تقدَّم عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران[159].

الإنابة: التوبة، وتقدَّمت عند قوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:75]، وقوله تعالى { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ } [الروم:31].

{ **رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } [5].

الفتنة: اضطراب الحال وفساده، وهو اسم مصدر فتجيء بمعنى المصدر، كقوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191]، وتجيء وصفا للمفتون والفاتن.

ومعنى جعلهم فتنة للذين كفروا: جعلهم مفتونين يفتنُهم الذين كفروا، فيصدُق ذلك بأن يتسلّط عليهم الذين كفروا فيُفتنون، كما قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ } [البروج:10]. ويصدُق أيضا بأن تختلَّ أمور دينهم بسبب الذين كفروا، أي: بمحبَّتهم والتقرّب منهم، كقوله تعالى: حكاية عن دعاء موسى { إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ } [الأعراف:155].

وعلى الوجهين فالفتنة من إطلاق المصدر على اسم المفعول. وتقدّم في قوله تعالى { رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [يونس:85].

{ **لِلَّذِينَ كَفَرُوا** } اللام على الوجهين للملك، أي: مفتونين مسخَّرين لهم.

ويجوز عندي: أن تكون { فِتْنَةً } مصدرا بمعنى اسم الفاعل، أي: لا تجعلنا فاتنين، أي: سبب فتنة للذين كفروا، أي: فيزدادوا كفرا.

{ **وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا** } أعقبوا دعواتهم التي تعود إلى إصلاح دينهم في الحياة الدنيا بطلب ما يُصلح أمورهم في الحياة الآخرة وما يوجب رضى الله عنهم في الدنيا، فإنّ رضاه يفضي إلى عنايته بهم بتيسير أمورهم في الحياتين. وللإشعار بالمغايرة بين الدعوتين عُطفت هذه الواو ولم تعطف التي قبلها.

{ **إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تعليل للدعوات كلّها، فإنّ التوكل والإنابة والمصير تناسب صفة { الْعَزِيزُ } إذ مثله يعامل بمثل ذلك، وطلبَ أن لا يجعلهم فتنة باختلاف معانيه يناسب صفة { الْحَكِيمُ }، وكذلك طلب المغفرة، لأنّهم لمّا ابتهلوا إليه أن لا يجعلهم فتنة للكافرين وأن يغفر لهم رأوا أن حكمته تناسبها إجابة دعائهم لما فيه من صلاحهم وقد جاؤوا سائلينه.

{ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** } [6].

تكرير قوله آنفا { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ } [4]، أعيد لتأكيد التحريض والحثّ على عدم إضاعة الائتساء بهم، وليُبنى عليه قوله تعالى { لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ }.

{ **لَقَدْ** } قُرن هذا التأكيد بلام القَسَم مبالغة في التأكيد.

{ **كَانَ** } لم تتصل به تاء تأنيث مع أنّ اسمها مؤنث اللفظ لأنّ تأنيث (أسوة) غير حقيقي، ولوقوع الفصل بين الفعل ومرفوعه بالجار والمجرور.

الإسوة: هي التي تقدّم ذكرها واختلاف القراء في همزتها، في قوله تعالى { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [4].

{ **لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ** } بدل من ضمير الخطاب في قوله { لَكُمْ } وهو شامل لجميع المخاطبين، للتذكير بأنّ الإيمان بالله واليوم الآخر يقتضي تأسّيهم بالمؤمنين السابقين، وهم إبراهيم والذين معه.

والقصد هو زيادة الحثّ على الائتساء بإبراهيم ومن معه، وليترتب عليه قوله تعالى:

{ **وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** } تحذير من العود لما نُهوا عنه.

{ **يَتَوَلَّ** } مضارع تولّى، فيجوز أن يكون ماضيه بمعنى الإعراض، أي: من لا يرجو الله واليوم الآخر ويعرض عن نهي الله فإنّ الله غنيّ عن امتثاله. **ويجوز عندي** أن يكون ماضيه من التولّي بمعنى اتخاذ الوليّ، أي: من يتّخذ عدو الله أولياء فإنّ الله غني عن ولايته، كما في قوله تعالى { وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ } [المائدة:51].

{ **هُوَ الْغَنِيُّ** } ضمير الفصل توكيد للحصر الذي أفاده تعريف الجزأين، وهو حصر ادّعائي لعدم الاعتداد بغنى غيره ولا بحمده، أي: هو الغني عن المتولين، لأنّ النهي عمَّا نهوا عنه إنّما لفائدتهم لا يفيد الله شيئا، فهو الغنيّ عن كل شيء.

{ **الْحَمِيدُ** } تتميم، أي: الحميد لمن يمتثل أمره ولا يُعرض عنه، أو الحميد لمن لا يتخذ عدوّه وليًّا، على نحو قوله تعالى { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ } [الزمر:7].

{ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [7].

اعتراض وهو استئناف متّصل بما قبله من أوّل السورة خوطب به المؤمنون تسلية لهم على ما نُهوا عنه من مواصلة أقربائهم، بأن يرجوا من الله أن يجعل قطيعتهم آيلة إلى مودّة بأن يُسلم المشركون من قرابتهم، وقد حقّق الله ذلك يوم فتح مكة بإسلام أبي سفيان والحارث ابن هشام وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام.

{ **عَسَى** } فعل مقاربة وهو مستعمل هنا في رجاء المسلمين ذلك من الله، أو مستعملة في الوعد مجرّدة عن الرجاء. قال في الكشّاف: " كما يقول الملك في بعض الحوائج عسى أو لعلّ فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك ".

{ **مِنْهُمْ** } عائد إلى العدو من قوله تعالى { لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ } [1].

{ **اللَّهُ قَدِيرٌ** } تذييل. والمعنى: أنّه شديد القدرة على أن يُغيِّر الأحوال فيصير المشركون مؤمنين صادقين وتصيرون أوِدَّاء لهم.

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } عطف على التذييل ، أي: يغفر لمن أنابوا إليه منهم ويرحمهم.

{ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [8].

استئناف هو منطوق لمفهوم الأوصاف التي وُصف بها العدو في قوله تعالى { وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ } [1]، وقوله تعالى { إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ } [2]، المسوقة مساق التعليل للنهي عن اتخاذ عدو الله أولياء، استثنى الله أقواما من المشركين غير مضمرين العداوة للمسلمين وكان دينهم شديد المنافرة مع دين الإسلام.

فالآية، من وجه، بيان لمعنى العداوة المجعولة علّة للنهي عن الموالاة ، وهي من وجه، أخرى تخصيص للنهي بخصوص أعداء الدين الذين لم يقاتلوا المسلمين لأجل الدين ولم يُخرجوا المسلمين من ديارهم.

وعلى الوجهين فالجملة قد أخرجت من حكم النهي القوم الذين لم يقاتلوا في الدين ولم يخرجوا المسلمين من ديارهم. فدخل في حكم الآية أصناف؛ وهم حلفاء النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل خُزاعة، وبني الحارث بن كعب عبد مناة بن كنامة، ومزينة، كان هؤلاء كلّهم مظاهرين النبيّ صلى الله عليه وسلم ويحبون ظهوره على قريش، ومثل النساء والصبيان من المشركين.

وقد جاءت قُتيلة (بالتصغير، ويقال لها: قتلة، مكبرا) بنت عبد العزى من بني عامر بن لؤي من قريش، وهي أم أسماء بنت أبي بكر الصديق، إلى المدينة زائرة ابنتها، وقتيلة يومئذ مشركة، في المدّة التي كانت فيها

المهادنة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفّار قريش بعد صلح الحديبية، وهي المدة التي نزلت فيها هذه السورة، فسألت أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتصل أمّها؟ قال: **" نعم صلي أمك "**.

وقد قيل: إنَّ هذه الآية نزلت في شأنها.

{ **أَنْ تَبَرُّوهُمْ** } بدل اشتمال من { الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ }، لأنّ وجود ضمير الموصول في المبدل، وهو الضمير المنصوب في { أَنْ تَبَرُّوهُمْ }، يجعل برَّ المسلمين بهم ممّا تشتمل عليه أحوالهم. فدخل في الذين لم يقاتلوا المسلمين في الدين نفر من بني هاشم منهم العباس بن عبد المطلب.

البرُّ: حسن المعاملة والإكرام. وهو يتعدَّى بحرف الجرّ، يقال: بَرَّ به، فتعديته هنا بنفسه على نزع الخافض.

القِسط: العدل. وضُمِّن { وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ } معنى (تُفْضُوا) فعدي بـ (إلى) وكان حقّه أن يعدى باللام.

على أنّ (اللام / إلى) يتعاقبان كثيرا في الكلام.

{ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** } تذييل، أي: يحبّ كل مقسط.

ويؤخذ من هذه الآية جواز معاملة أهل الذمّة بالإحسان، وجواز الاحتفاء بأعيانهم.

{ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [9].

فذلكة لما تقدّم وحصرٌ لحكم الآية المتقدّمة. وهي تؤذن بانتهاء الغرض المسوق له الكلام من أوّله.

{ **إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ** } قصر قلب لردّ اعتقاد من ظنّ أو شك في جواز صلة المشركين على الإطلاق. والذين تحقَّقت فيهم هذه الصفات يوم نزول الآية هم مشركو أهل مكة.

{ **أَنْ تَوَلَّوْهُمْ** } بدل اشتمال من { الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ }.

{ **وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ** } شرط، وجيء في جواب الشرط باسم الإشارة لتمييز المشار إليهم زيادة في إيضاح الحكم.

المظاهرة: المعاونة. وذلك لأنّ أهل مكة فريقان؛ منهم من يأتي بالأسباب التي لا يحتمل المسلمون معها البقاء بمكة، ومنهم من يعين على ذلك ويغري عليه.

{ **فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } قصر ادعائي، أي: أنّ ظلمهم لشدة ووقوعه بعد النهي الشديد والتنبيه على الأخطاء والعصيان ظلمٌ لا يُغفر، لأنّه اعتداء على حقوق الله وحقوق المسلمين، وعلى حقّ الظالم نفسه.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [10].

لا خلاف في أن هذه الآيات نزلت عقب صلح الحديبية، وقد علمتَ أنَّا رجَّحنا أنّ أوّل السورة نزلت قبل هذه، وأنّ كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين كان عند تجهّز رسول الله صلى الله عليه وسلم للحديبيّة.

<u>ومناسبة ورود هذه الآية بعد ما قبلها</u>، أنّ النهي عن موالاة المشركين يتطرّق إلى ما بين المسلمين والمشركين من عقود النكاح والمصاهرة، فقد يكون المسلم زوجا لمشركة وتكون المسلمة زوجا لمشرك فتحدث في ذلك حوادث لا يستغني المسلمون عن معرفة حكم الشريعة في مثلها.

وقد حدث عقب الصلح الذي انعقد بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين المشركين في الحديبية سنة ست مجيء (أبي جندل بن عمرو يوسف) في الحديد وكان مسلما موثَّقا في القيود عند أبيه بمكّة فانفلت وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الحديبية وكان من شروط الصلح أنّ من أتى محمّدا من قريش بغير إذن وليِّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشا ممّن مع محمد لم يردّوه عليه فردَّه النبيّ صلى الله عليه وسلم.

ولمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة هاجرت (أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط) هاربة من زوجها عمرو بن العاص، وجاءت (سبيعة الأسلمية) مهاجرة هاربة من زوجها صيفي بن الراهب أو مسافر المخزومي، وجاءت (أميمة بنت بشر) هاربة من زوجها ثابت بن الشمراخ وقيل: حسان بن الدحداح. وطلبهنّ أزواجهنّ، فجاء بعضهم إلى المدينة، جاء زوج سبيعة الأسلمية يطلب ردها إليه وقال: إن طينة الكتاب الذي بيننا وبينك لم تجفّ بعد، فنزلت هذه الآية، فأبى النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يردَّها إليه، ولم يرد واحدة إليهم وبقين بالمدينة، فتزوج أم كلثوم بنت عقبة زيد بن حارثة. وتزوّج سبيعة عمر رضي الله عنه، وتزوّج أميمة سهل بن حنيف.

وجاءت زينب بنت النبيّ صلى الله عليه وسلم مسلمة، ولحق بها زوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بعد سنين مشركا ثمّ اسلم في المدينة فردّها النبيّ صلى الله عليه وسلم إليه.

<u>قيل</u>: إنّ الصلح صُرّح فيه بأنّ من جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير إذن وليّه من رجل أو امرأة يُرد إلى وليّه. فإذا صحّ ذلك كان صريحا وكانت الآية ناسخة لما فعله النبيّ صلى الله عليه وسلم.

<u>والذي في سيرة ابن إسحاق</u> من رواية ابن هشام خَلِيٌّ من هذا التصريح.

وروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال للذين سألوه إرجاع النساء المؤمنات، وطلبوا تنفيذ شروط الصلح:

" **إنّما الشرط في الرجال لا في النساء** " فكانت هذه الآية تشريعا للمسلمين فيما يفعلونه إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات. وقد أذهل الله المشركين عن الاحتياط في شرطهم ليكون ذلك رحمة بالنساء المهاجرات إذ جعل لهن مخرجا، وتأييدا لرسوله صلى الله عليه وسلم.

الامتحان: الاختبار. والمراد اختبار إيمانهنّ.

{ **اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ** } معترضة، أي: أنّ الله يعلم سرائرهنّ ولكن عليكم أن تختبروا ذلك بما تستطيعون من الدلائل.

{ **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ...**} تفريع ما قبل الاعتراض، أي: إن حصل لكم العلم بأنّهنّ مؤمنات غير كاذبات في دعواهنّ. وهذا الالتحاق هو الذي سُمّي (المبايعة) في الآية الآتية { يَا أَيُّهَا النبيّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ } [12].

وفي صحيح البخاري عن عائشة أنّ رسول الله كان يمتحن من هاجر من المؤمنات بهذه الآية { يَا أَيُّهَا النبيّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ - إلى قوله - غَفُورٌ رَحِيمٌ } [12].

وزاد ابن عباس فقال: كانت الممتحنة أن تُستحلف أنّها ما خرجت بُغضا لزوجها، ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقا لرجل مِنَّا، ولا بجريرة جرتها بل حبا لله ولرسوله والدار الآخرة، فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم زوجها مهرها ولم يردَّها.

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يأمر عمر بن الخطاب بتولِّي تحليفهن، فإذا تبيّن إيمان المرأة لم يردّها النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى دار الكفر كما هو صريح الآية.

{ **لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ** } موقعها موقع البيان والتفصيل للنهي في قوله تعالى { فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ } تحقيقا لوجوب التفرقة بين المرأة المؤمنة وزوجها الكافر.

{ **وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا** } أي: ما أعطوه من المهور، والعدول عن إطلاق اسم المهور والأجور على ما دفعه المشركون لنسائهم اللائي أسلمن من لطائف القرآن، لأنّ أولئك النساء أصبحن غير زوجات. فألغي إطلاق اسم المهور على ما يدفع لهم.

{ **وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** } تنبيه على خصوص قوله تعالى { إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ } لئلّا يُظنّ أنّ ما دُفع للزوج السابق مُسقط استحقاق المرأة المهر ممَّن يروم تزوّجها، ومعلوم أنّ نكاحها بعد استبرائها بثلاثة أقراء.

{ **وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ** } نهى الله المسلمين عن إبقاء النساء الكوافر في عصمتهم، وهنّ النساء اللائي لم يخرجن مع أزواجهنّ لكفرهنّ، فلمّا نزلت هذه الآية طلق من كان لهم أزواج بمكة نساءهم.

فطلّق عمر امرأتين له بقيتا بمكة مشركتين، وهما: قريبة بنت أبي أميّة، وأم كلثوم بنت عمرو الخُزاعية.
{ **الْكَوَافِرِ** } المشركات. وهن موضوع هذه التشريعات لأنّها في حالة واقعة فلا تشمل الآية النهي عن بقاء المرأة المسلمة في عصمة زوج مشرك وإنّما يؤخذ حكم ذلك بالقياس.
{ **وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا** } عطف على قوله تعالى { وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا } وهو تتميم لحكمه، أي: كما تعطونهم مهور أزواجهم اللائي فررن منهم مسلمات، فكذلك إذا فرَّت إليهم امرأة مسلم كافرة تسألون المشركين إرجاع مهرها إلى زوجها المسلم الذي فرت منه، وهذا إنصاف بين الفريقين، والأمر للإباحة.
{ **وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا** } لمّا كُرِّرَ عقب قوله { وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ } علمنا أنّ المراد جمع مضمون الجملتين، أي: إذا أعطوا ما عليهم أعطوهم ما عليكم وإلّا فلا.
{ **ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } أي: هذا حكم الله، وهو عدل بين الفريقين، إذ ليس لأحد أن يأخذ بأحد جانبيه ويترك الآخر.
{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل يشير إلى أنّ هذا حكم يقتضيه علم الله بحاجات عباده وتقتضيه حكمته إذ أعطى كلّ ذي حقّ حقّه.
وقد كانت هذه الأحكام التي في هذه الآيات، من الترادِّ في المهور، شرعا في أحوال مخصوصة اقتضاها اختلاط الأمر بين أهل الشرك والمؤمنين وما كان من عهد المهادنة بين المسلمين والمشركين في أوائل أمر الإسلام، خاصا بذلك الزمان بإجماع أهل العلم، قاله ابن العربي والقرطبي وأبو بكر الجصاص.

{ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ } [11].

عطف على جملة { وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ } [10] فإنّها لمّا ترتَّب على نزولها إباء المشركين من أن يردّوا إلى أزواج النساء، اللائي بقين على الكفر بمكة واللائي فررن من المدينة والتحقن بأهل الكفر بمكة، مهورهم التي كانوا أعطوها، عُقِّبت بهذه الآية لتشريع ردّ تلك المهور من أموال المسلمين فيما بينهم.
روي أنّ المسلمين كتبوا إلى المشركين يعلمونهم بما تضمَّنته هذه الآية من الترادِّ بين الفريقين فامتنع المشركون من دفع مهور النساء اللاتي ذهبن إليهم فنزلت الآية.
الفوت: أصله المفارقة والمباعدة، والتفاوت: التباعد. والفوت هنا مستعار لضياع الحقّ. وضُمِّن { فَاتَكُمْ } معنى الفرار فعدّي بحرف (إلى)، أي: فررن إلى الكفار.

{ **شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ** } أي: بعض من أزواجكم، وأريد بـ { شَيْءٌ } تحقير الزوجات اللائي أبين الإسلام.
{ **عَاقَبْتُمْ** } صيغة تفاعل من العُقْبة (بضم العين وسكون القاف) وهي النوبة، أي: مصير أحد إلى حال كان فيها غيره. وأصلها في ركوب الرواحل والدواب أن يركب أحد عُقبة وآخر عُقبة.
شُبِّه ما حُكم به على الفريقين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك، ومن أداء أولئك مهور نساء هؤلاء، مماثلة بمركوب يتعاقبون فيه.
والمعنى: إن فرت بعض أزواجكم ولحقت بالكفار وحصل التعاقب بينكم وبين الكفار فعقَّبتم على أزواج الكفار وعقَّب الكفار على أزواجكم وأبى الكفّار من دفع مهور بعض النساء اللائي ذهبن إليهم، فادفعوا أنتم لمن حرمه الكفار مهر امرأته، أي ما هو حقه، واحتجزوا بذلك على الكفار.
{ **ذَهَبَتْ** } مجاز مثل فعل { فَاتَكُمْ } في معنى عدم القدرة عليهنّ.
وقد أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب، وعياض بن أبي شدّاد الفهري، وشماس بن عثمان، وهشام بن العاص، مهور نسائهم اللاحقات بالمشركين من الغنائم.
{ **مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا** } أن يكون المهر المعطى مساويا لما كان أعطاه زوج المرأة من قبل لا نقص فيه.
وأشارت الآية إلى نسوة من نساء المهاجرين لم يسلمن وهن ثمان نساء:
*/ أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شدّاد.
*/ فاطمة بنت أبي أمية (ويقال: قريبة) وهي أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب.
*/ أم كلثوم بنت جرول كانت تحت عمر.
*/ بَروع (بفتح الباء) بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان
*/ شبهة بنت غيلان.
*/ عبدة بنت عبد العزى كانت تحت هشام بن العاص، وقيل تحت عمرو بن عبد.
*/ هند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاص.
*/ أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب كانت تحت طلحة بن عبيد الله.
{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ** } تذييل، تحريض للمسلمين على الوفاء بما أمرهم الله وأن لا يصدَّهم عن الوفاء ببعضه معاملة المشركين لهم بالجور وقلة النصفة، فأمر بأن يؤدي المسلمون لإخوانهم مهور النساء اللائي فارقوهن ولم يرض المشركون بإعطائهم مهورهنّ، ولذلك أُتبع اسم الجلالة بوصف { الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ }، لأنّ الإيمان يبعث على التقوى، والمشركون لمّا لم يؤمنوا بما أمر الله انتفى منهم وازع الإنصاف، أي: فلا تكونوا مثلهم.
والجملة الاسمية في الصلة للدلالة على ثبات إيمانهم.

{ يَا أَيُّهَا النبيّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [12].

هذه تكملة لامتحان النساء المتقدّم ذكره في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ } [10]. وبيان لتفصيل آثاره. فكأنّه يقول: فإن علمتموهنّ مؤمنات فلا ترجعوهنّ إلى الكفار وبيّنوا لهنّ شرائع الإسلام. وآية الامتحان عقب صلح الحديبية في شأن من هاجرن من مكة إلى المدينة بعد الصلح وهنّ: (أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط / سبيعة الأسلمية / أميمة بنت بشر / زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم).

روى البخاري ومسلم عن عائشة: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر من المؤمنات بهذه الآية { يَا أَيُّهَا النبيّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ - إلى قوله - غَفُورٌ رَحِيمٌ }، فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله: " **قد بايعتك** ".

{ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ } أي: قدمن عليك من مكة، فهي على وِزان قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ } [10]. قال ابن عطية: كانت هذه البيعة ثاني يوم الفتح على جبل الصفا.

وأجرى النبيّ صلى الله عليه وسلم هذه البيعة على نساء الأنصار أيضا. روى البخاري عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا { أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً }.

وأجرى هذه المبايعة على الرجال أيضا. ففي صحيح البخاري عن عبادة بن الصامت قال كنّا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: " **أتبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا** "، وقرأ آية النساء (أي: النازلة بخطاب النساء في سورة الممتحنة) **فمن وَفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفّارة له، ومن أصاب منها شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شار عذّبه وإن شاء غفر له** ".

وقد شملت الآية التخلّي عن خصال كانت شائعة في الجاهلية.

{ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ } المراد أمران: أحدهما الوأد الذي كان يفعله أهل الجاهلية ببناتهم، وثانيهما إسقاط الأجنة وهو الإجهاض. وأسند القتل إلى النساء وإن كان بعضه يفعله الرجال لأن النساء كن يرضين به أو يسكتن عليه.

البهتان: الخبر المكذوب الذي لا شبهة لكاذبه فيه لأنّه يبهت من ينقل عنه.

الافتراء: اختلاق الكذب، أي: لا يختلقن أخبارا بأشياء لم تقع.

{ **بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ** } يتعلّق بـ { يَأْتِينَ }، وهذا من الكلام الجامع لمعان كثيرة باختلاف محامله من حقيقة ومجاز وكناية.

{ **وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ** } تعميم للنهي. جامع لكلّ ما يخبر به النبيّ صلى الله عليه وسلم ويأمر به ممّا يرجع إلى واجبات الإسلام.

المعروف: هو ما لا تنكره النفوس. والمراد هنا المعروف في الدين، فالتقييد به إمّا لمجرد الكشف، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلّا بالمعروف، وإمّا لقصد التوسعة عليهنّ في أمر لا يتعلّق بالدين، كما فعلت بريرة إذ لم تقبل شفاعة النبيّ صلى الله عليه وسلم في إرجاعها زوجها مغيثا.

وورد في أخبار أنّه نهاهنّ عن تبرج الجاهلية وعن أن يحدّثن الرجال الذين ليسوا بمحرم، فقال عبد الرحمان بن عوف يا نبي الله إنّ لنا أضيافا وإنّا تغيب، قال رسول الله: **" ليس أولئك عنيت "**.

وعن ابن عباس: نهاهنّ عن تمزيق الثياب وخدش الوجوه وتقطيع الشعور والدعاء بالويل والثبور، أي: من شؤون النياحة في الجاهلية.

{ **فَبَايِعْهُنَّ** } جواب { إذا }، أي فأقبل منهن ما بايعنك عليه، لأنّ البيعة عنده من جانبين ولذلك صيغت لها صيغة المفاعلة.

{ **وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } أي: فيما فرط منهن في الجاهلية ممّا خُصَّ بالنهي في شروط البيعة وغير ذلك.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } [13].

بعد أن استقصت السورة إرشاد المسلمين إلى ما يجب في المعاملة مع المشركين، جاء في خاتمتها الإرشاد إلى المعاملة مع قوم ليسوا دون المشركين في وجوب الحذر منهم وهم اليهود، فالمراد بهم غير المشركين إذ شُبّه يأسهم من الآخرة بيأس الكفّار، فتعين أنّ هؤلاء غير المشركين، لئلا يكون من تشبيه الشيء بنفسه.

{ **قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** } هذه صفة تكرّر في القرآن إلحاقها باليهود كما جاء في سورة الفاتحة. فتكون هذه الآية مثل قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ } [المائدة:57].

وذكر الواحدي في أسباب النزول : أنّها نزلت في ناس من فقراء المسلمين يعملون عند اليهود ويواصلونهم ليصيبوا بذلك من ثمارهم، وربما أخبروا اليهود بأحوال المسلمين عن غفلة فنبههم الله إلى أن لا يتولّوهم.

اليأس: عدم توقّع الشيء، فإذا عُلّق بذات كان دالا على عدم توقع وجودها. وإذ قد كان اليهود لا ينكرون الدار الآخرة كان معنى يأسهم من الآخرة محتملا أن يراد به الإعراض عن العمل للآخرة فكأنّهم في إهمال الاستعداد لها آيسون منها، وهذا في معنى قوله تعالى في شأنهم { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ } [البقرة:86].

{ **كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ** } وجه الشبه شدّة الإعراض وعدم التفكّر في الأمر.

ويجوز أن يكون { مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } بيانا للكفار، أي: الكفار الذين هلكوا ورأوا أن لا حظّ لهم في خير الآخرة، فشُبِّه إعراض اليهود عن الآخرة بيأس الكفار من نعيم الآخرة، ووجه الشبه تحقُّق عدم الانتفاع بالآخرة.

ويحتمل أن يكون يأسهم من الآخرة أطلق على حرمانهم من نعيم الحياة الآخرة. فالمعنى: قد أيأسناهم من الآخرة على نحو قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي } [العنكبوت:23].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصَّف

اشتهرت هذه السورة باسم (**سورة الصَّف**) وكذلك سُمِّيت في عصر الصحابة.

وبذلك عُنْوِنَت في صحيح البخاري وفي جامع الترمذي، وكذلك كُتب اسمها في المصاحف وفي كتب التفسير. ووجه التسمية وقوع لفظ { صَفًّا } [4] فيها وهو صف القتال، فالتعريف باللام تعريف العهد.

وذكر السيوطي في الإتقان: أنّها تُسمَّى (**سورة الحواريّين**) ولم يسنده، لذكر الحواريّين فيها. ولعلَّها أول سورة نزلت ذكر فيها لفظ الحواريّين.

وهي مدنية عند الجمهور، وعن ابن عباس ومجاهد وعطاء أنّها مكّية ودرج عليه في الكشّاف والفخر. وقال ابن عطية: الأصح أنّها مدنية ويشبه أن يكون فيها المكّي.

واختُلف في سبب نزولها، وهل نزلت متتابعة أو متفرقة متلاحقة.

وفي جامع الترمذي عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحبّ إلى الله لعملناه، فأنزل الله تعالى { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ} [2/1]، قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله. [أخرجه الحاكم وأحمد في مسنده وابن أبي حاتم].

فهذا يقتضي أنّهم قيل لهم { لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ } قبل أن يُخلفوا ما وعدوا به، فيكون الاستفهام مستعملا مجازا في التحذير من عدم الوفاء بما نذروه ووعدوا به.

وعن علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ } قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يُفرض الجهاد يقولون: لوددنا أنّ الله عز وجل دلَّنا على أحبّ الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله أنّ أحب الأعمال: إيمان به وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرُّوا به. فلمّا نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم. فأنزل الله سبحانه وتعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ }. وهذا المروي عن ابن عباس أوضح وأوفق بنظم الآية، والاستفهام فيه للتوبيخ واللوم وهو المناسب لقوله بعده { كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ } [3].

وهي السورة الثامنة والمائة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد. نزلت بعد سورة التغابن وقبل سورة الفتح. وكان نزولها بعد وقعة أحد.

وعدد آيها أربع عشرة آية باتفاق أهل العدد.

أغراض السورة

*/ التحذير من إخلاف الوعد والالتزام بواجبات الدين.

*/ التحريض على الجهاد في سبيل الله والثبات فيه، وصدق الإيمان.

*/ الثبات في نصرة الدين.

*/ الائتساء بالصادقين مثل الحواريين.

*/ التحذير من أذى الرسول صلى الله عليه وسلم تعريضا باليهود مثل كعب بن الأشرف.

*/ ضرب المثل لذلك بفعل اليهود مع موسى وعيسى عليهما السلام.

*/ التعريض بالمنافقين.

*/ الوعد على إخلاص الإيمان والجهاد بحسن مثوبة الآخرة والنصر والفتح.

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [1].

مناسبة هذه الفاتحة لما بعدها من السورة بيان أنّ الكافرين محقوقون بأن تقاتلوهم لأنّهم شذّوا عن جميع المخلوقات فلم يسبّحوا الله ولم يصفوه بصفات الكمال إذ جعلوا له شركاء في الإلهية. وفيه تعريض بالذين أخلفوا ما وعدوا بأنّهم لم يؤدّوا حق تسبيح الله، لأنّ الله مستحقٌّ لأن يوفى بعهده في الحياة الدنيا، وأنّ الله ناصر الذين آمنوا على عدوّهم.

وتقدم الكلام على نظير هذه الآية في أوّل سورة الحشر وسورة الحديد.

{ الْعَزِيزُ } إيماء إلى أنّه الغالب لعدوّه، فما كان لكم أن ترهبوا أعداءه فتفرّوا منهم عند اللقاء.

{ الْحَكِيمُ } إن حُملت الصفة على معنى المتّصف بالحكمة، أنّ الموصوف بالحكمة لا يأمركم بجهاد العدو عبثا ولا يترك نصركم. وإن حُملت على معنى المُحْكِم للأمور فكذلك.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ [2] **كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**[3]**}**.

ناداهم بوصف الإيمان تعريضا بأنّ الإيمان من شأنه أن يزع المؤمن عن أن يخالف فعله قوله في الوعد بالخير.

{ لِمَ تَقُولُونَ } الاستفهام عن العلّة مستعمل هنا في إنكار أن يكون سبب ذلك مرضيا لله تعالى، أي: أنّ ما يدعوهم إلى ذلك هو أمر منكر، وذلك كناية عن اللوم والتحذير من ذلك، كما في قوله تعالى { قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ } [البقرة:91].

<u>فيجوز</u> أن يكون القول الذي قالوه وعدا وعدوه ولم يفوا به. <u>ويجوز</u> أن يكون خبرا أخبروا به عن أنفسهم لم يطابق الواقع. وقد مضى استيفاء ذلك في الكلام على صدر السورة.

وهذا كناية عن تحذيرهم من الوقوع في مثل ما فعلوه يوم أُحُد بطريق الرمز، وكناية عن اللوم على ما فعلوه يوم أحد بطريق التلويح.

وتعقيب الآية بقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً } [4]. يؤذن بأنّ اللوم على وعد يتعلّق بالجهاد في سبيل الله. وبذلك يلتئم معنى الآية مع حديث الترمذي في سبب النزول.

<u>وفيه تعريض بالمنافقين</u> إذ يظهرون الإيمان بأقوالهم وهم لا يعملون أعمال أهل الإيمان بالقلب ولا بالجسد.

{ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ } بيان للجملة السابقة، تصريحا بالمعنى المُكَنَّى عنه بها.

الكبر: مستعار للشدّة لأنّ الكبير فيه كثرة وشدّة في نوعه.

المَقْتُ: البغض الشديد. وهو هنا بمعنى اسم المفعول. وانتصب على التمييز لجهة الكبر. وهو تمييز نسبة.

ونظم هذا الكلام بطريقة الإجمال ثم التفصيل بالتمييز لتهويل هذا الأمر في قلوب السامعين لكون الكثير منهم بمظنّة التهاون في الحيطة منه حتّى وقعوا فيما وقعوا يوم أحُد. ففيه وعيد على تجدّد مثله.

{ **عِنْدَ اللَّهِ** } وزيد المقصود اهتماما بأن وصف المقت بأنّه عند الله، أي: مقت لا تسامح فيه.

{ **مَا لا تَفْعَلُونَ** } الـ { مَا } في الموضعين موصولة، وهي بمعنى لام العهد، أي: الفعل الذي وعدتم أن تفعلوه وهو أحب الأعمال إلى الله أو الجهاد. فاقتضت الآية أنّ الوعد في مثل هذا يجب الوفاء به لأنّ الموعود به طاعة فالوعد به من قبيل النذر المقصود منه القربة فيجب الوفاء به.

{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ } [4].

هذا جواب على تمنّيهم معرفة أحبّ الأعمال إلى الله، كما في حديث عبد الله بن سلام عند الترمذي المتقدّم، وما قبله توطئة له على أسلوب الخطب ومقدّماتها.

الصّفّ: عدد من أشياء متجانبة منتظمة الأماكن، فيطلق على صفّ المصلين، وصفّ الملائكة، وصفّ الجيش في ميدان القتال. فهو هنا كناية عن الانتظام والمقاتلة عن تدبّر. وأمّا حركات القتال فتعرض بحسب مصالح الحرب في اجتماع وتفرّق وكرّ وفرّ.

المرصوص: المتلاصق بعضه ببعض. والتشبيه في الثبات وعدم الانفلات وهو الذي اقتضاه التوبيخ السابق في قوله تعالى { لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ } [2].

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [5].

موقع هذه الآية هنا خفي المناسبة. فيجوز أن تكون الجملة معترضة استئنافا ابتدائيا انتقل به من النهي عن عدم الوفاء بما وعدوا الله عليه إلى التعريض بقوم آذوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقول أو بالعصيان أو نحو ذلك، فيكون الكلام موجَّها إلى المنافقين، فقد وُسِموا بأذى الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } [الأحزاب:57]. وقوله تعالى { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [التوبة:61]، وقوله تعالى {وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النبيّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ } [التوبة:61]. وعلى هذا الوجه فهو اقتضاب نقل به الكلام من الغرض الذي قبله لتمامه إلى هذا الغرض، أو تكون مناسبة وقعه في هذا الموقع حدوث سبب اقتضى نزوله، من أذى قد حدث لم يطّلع عليه المفسّرون ورواة الأخبار. والواو على هذا الوجه عطف غرض على غرض، وهو المُسمَّى بعطف قصة على قصة.

ويجوز أن تكون الجملة من تتمّة الكلام الذي قبلها ضرب الله مثلا للمسلمين لتحذيرهم من إتيان ما يؤذي رسوله صلى الله عليه وسلم ويسوؤه من الخروج عن جادة الكمال الديني، مثل عدم الوفاء بوعدهم في الإتيان بأحب الأعمال إلى الله تعالى، وأنذرهم من أن يكون ذلك سببا للزيغ والضلال كما حدث لقوم موسى لمَّا آذوه.

وعلى هذا الوجه فالمراد بأذى قوم موسى إيّاه: عدم توخي طاعته ورضاه، فيكون ذلك مشيرا إلى ما حكاه الله عنه من قوله تعالى { يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ - إلى قوله - قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } [المائدة:24/21]. فإنّ قولهم ذلك استخفاف برسولهم يدل عليه قوله عقبه { قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } [المائدة:25].

وقد يكون وصفهم في هذه الآية بقوله { وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } ناظرا إلى وصفهم بذلك مرتين في آية سورة المائدة، في قوله تعالى { فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } [المائدة:25] وقوله تعالى { فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } [المائدة:26].

فيكون المقصود الأهم من القصة هو ما تفرّع على ذكرها من قوله تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ }.

ويناسب أن تكون هذه الآية تحذيرا من مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وعبرة بما عرض لهم من الهزيمة يوم أحُد لمّا خالفوا أمره من عدم ثبات الرماة في مكانهم.

{ **إِذْ** } متعلّقة بفعل محذوف تقديره: اذكر، وله نظائر كثيرة في القرآن، أي: اذكر لهم أيضا وقت قول موسى لقومه، أو اذكر لهم مع هذا النهي وقت قول موسى لقومه.

{ **يَا قَوْمِ** } ابتداء كلام موسى عليه السلام بهذا النداء تعريض بأنّ شأن قوم الرسول أن يطيعوه بله أن لا يؤذوه. ففي النداء بوصف { قَوْمِ } تمهيد للإنكار في قوله { لِمَ تُؤْذُونَنِي }.

{ **لِمَ تُؤْذُونَنِي** } الاستفهام للإنكار، أي: إنكار أن يكون للإذاية سبب.

{ **وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ** } جاءت جملة الحال مصادفةً المحلَّ من الترقِّي في الإنكار.

{ **قَدْ** } لتحقيق معنى الحالية، أي: وعلمهم برسالته عن الله أمر محقّق لما شاهدوه من دلائل رسالته.

والإتيان هنا بعد { قد } بالمضارع للدلالة على أنّ علمهم بذلك متجدّد بتجدد الآيات والوحي.

الزيغ: الميل عن الحق، أي: لمّا خالفوا ما أمرهم رسولهم جعل الله في قلوبهم زيغا، أي: تمكَّن الزيغ من نفوسهم فلم ينفكُّوا عن الضلال.

{ **وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** } تذييل، أي: وهذه سنة الله في الناس، فكان قوم موسى الذين آذوه من أهل ذلك العموم.

{ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [6].

عطف على جملة { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ } [5]، فعلى الوجه الأوّل في موقع التي قبلها فموقع هذه مساو له. وأمّا على الوجه الثاني في الآية السابقة فإنّ هذه مسوقة مساق التتميم لقصة موسى بذكر مثال آخر لقومٍ حادوا عن طاعة رسول الله إليهم من غير إفادة تحذير للمخاطبين من المسلمين، وللتخلُّص إلى ذكر إخبار عيسى بالرسول الذي يجيء بعده.

{ يَا بَنِي إِسْرائيلَ } ناداهم بذلك لأنّ بني إسرائيل بعد موسى اشتهروا بعنوان { بَنِي إِسْرائيلَ } ولم يطلق عليهم عنوان: قوم موسى، إلّا في مدّة حياة موسى خاصة، فإنّهم إنّما صاروا أمّة وقوما بسببه وشريعته. فأمّا عيسى فإنّما كان مرسلا بتأييد شريعة موسى، والتذكير بها وتغيير بعض أحكامها، ولأنّ عيسى حين خاطبهم لم يكونوا قد اتبعوه ولا صدّقوه فلم يكونوا قوما له خالصين.

{ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ } تقدّم القول في معناها في [آل عمران:50] وفي [المائدة:46].

والمقصود من تنبيههم على هذا التصديق حين ابتداءهم بالدعوة تقريب إجابتهم واستنزال طائرهم لشدّة تمسّكهم بالتوراة واعتقادهم أنّ أحكامها لا تقبل النسخ، وأنّها دائمة. ولذلك لمّا ابتدأهم بهذه الدعوة لم يزد عليها ما حُكِيَ عنه في [آل عمران:50] من قوله { وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ }، فيُحمل ما هنالك على أنّه خطاب واقع بعد أوّل الدعوة، فإنّ الله لم يوح إليه أوّل مرة بنسخ بعض أحكام التوراة.

وكذلك شأن التشريع أن يلقى إلى الأمة تدريجا كما في حديث عائشة في صحيح البخاري أنّها قالت: " إنّما أنزل أوّل ما أنزل منه (أي: القرآن) سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار حتّى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو أنزل أوّل شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا نترك الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا: لقالوا: لا ندع الزنى أبدا. لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإنّي لجارية ألعب { بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } [القمر:46]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلّا وأنا عنده ".

التبشير: الإخبار بحادث يسرّ، وأطلق هنا على الإخبار بأمر عظيم النفع لهم، لأنّه يلزمه السرور الحق، فإنّ مجيء الرسول إلى الناس نعمة عظيمة.

ووجه إيثار هذا اللفظ الإشارة إلى ما وقع في الإنجيل من وصف رسالة الرسول الموعود به بأنّها بشارة الملكوت: " ويكرّز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة " [إنجيل متى، الإصحاح: 24، فقرة:11].

وإنّما أخبرهم بمجيء رسول من بعده لأنّ بني إسرائيل لم يزالوا ينتظرون مجيء رسول من الله يخلِّصهم من براثن المتسلّطين عليهم وهذا الانتظار ديدنهم، وهم موعودون لهذا المخلِّص لهم على لسان أنبيائهم بعد موسى. فكان وعد عيسى به كوعد من سبقه من أنبيائهم، وفاتحهم به في أوّل الدعوة اعتناء بهذه الوصية. وفي الابتداء بها تنبيه على أن ليس عيسى هو المخلّص المنتظر، وأن المنتظر رسول يأتي من بعده وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

{ اسْمُهُ أَحْمَدُ } يجري على جميع ما تحمله هذه الجملة من المعاني.

اسم: استعماله في كلام العرب ثلاثة استعمالات:

الأوّل: أن يكون بمعنى المُسَمَّى.

الثاني: أن يكون الاسم بمعنى شُهرة في الخير.

الثالث: أن يطلق على لفظ جعل دالا على ذات لتميّز من كثير من أمثالها، وهذا هو العَلَم.

<u>ونحن نجري على أصلنا في حمل ألفاظ القرآن على جميع المعاني التي يسمح بها الاستعمال الفصيح</u> كما في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير، فنحمل (الاسم) في قوله { اسْمُهُ أَحْمَدُ } ما يجمع بين هذه الاستعمالات الثلاثة، أي: <u>مسمَّاه أحمد، وذِكره أحمد، وعَلَمه أحمد</u>،

أحمد: يجوز أن نحمله على ما لا يأباه واحد من استعمالات (اسم) الثلاثة إذا قرن به وهو:

*/ أنّ { أحمد } اسم تفضيل يجوز أن يكون مسلوب المفاضلة معنيا به القوة فيم هو مشتق منه، أي: الحمد، وهو الثناء، <u>فيكون أحمد هنا مستعملا في قوة مفعولية الحمد</u>، أي: حمد الناس إيّاه، وهذا مثل قولهم. العود أحمد، أي: محمود كثيرا. أي: أنّ مُسَمَّى هذا الرسول ونفسه موصوفة بأقوى ما يُحمد عليه محمود، فيشمل ذلك جميع صفات الكمال النفسانية والخُلُقية والخَلْقية والنسبية والقومية، وغير ذلك ممّا هو معدود من الكمالات الذاتية والغرضية.

*/ والوصف ب {أحمد} على المعنى الثاني في الاسم. أن سمعته وذكره في جيله والأجيال بعده موصوف بأنّه أشد ذكر محمود وسمعة محمودة. وهذا معنى قوله في الحديث: **" أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ".** وأن الله يبعثه مقاما محمودا.

*/ ووصف {أحمد} بالنسبة إلى المعنى الثالث في الاسم رمز إلى أنّه اسمه العلم يكون بمعنى: أحمد، فإنّ لفظ محمد اسم مفعول من حمد المضاعف الدال على كثرة حمد الحامدين إيّاه، كما قالوا: فلان ممدح، إذا تكرّر مدحه من مادحين كثيرين. فاسم محمد يفيد معنى: <u>المحمود حمدا كثيرا، ورمز إليه بأحمد.</u>

{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } هو مناط الأذى.

{ جَاءَهُمْ } <u>المتبادر أن يعود ضمير الرفع إلى عيسى</u>، وأن يعود ضمير النصب إلى الذين خاطبهم عيسى.

والتقدير: فكذَّبوه، فلمَّا جاءهم بالمعجزات قالوا هذا سحر أو هو ساحر.
ويحتمل أن يكون ضمير الرفع عائدا إلى رسول يأتي من بعدي. وضمير النصب عائدا إلى لفظ { بَنِي إِسْرائيلَ }، أي: غير الذين دعاهم عيسى عليه السلام. أي: فلمّا جاءهم الرسول الذي دعاه عيسى باسم أحمد بالبيّنات، أي: دلائل انطباق الصفات الموعود بها قالوا هذا سحر أو هذا ساحر مبين.
وحصل أذاهم بهذا القول لكلا الرسولين.
فالجملة على هذا الاحتمال تحمل على أنّها اعتراض بين المتعاطفات وممهِّدة للتخلُّص إلى مذمّة المشركين وغيرهم ممَّن لم يقبل دعوة محمد صلى الله عليه وسلم.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [7].

كانت دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم مماثلة دعوة عيسى عليه السلام وكان جواب الذين دعاهم إلى الإسلام من أهل الكتابين والمشركين مماثلا لجواب الذين دعاهم عيسى عليه السلام. فلمّا أُدْمِج في حكاية دعوة عيسى بشارته برسول يأتي من بعده ناسب أن يُنقل الكلام إلى ما قابل به قوم الرسول الموعود رسولهم فلذلك ذُكر في دعوة هذا الرسول دين الإسلام، فوصفوا بأنّهم أظلم الناس تشنيعا لحالهم.
{ **وَمَنْ أَظْلَمُ** } المراد من هذا الاستفهام هم الذين كذَّبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم. ولذلك عطف هذا الكلام بالواو دون الفاء لأنّه ليس مفرَّعا على دعوة عيسى عليه السلام.
وقد شمل هذا التشنيع جميع الذين كذَّبوا دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم من أهل الكتابين والمشركين.
والمقصود الأول هم أهل الكتاب.
والاستفهام إنكاري، أي: لا أحد أظلم من هؤلاء.
وإنّما كانوا أظلم الناس؛ لأنّهم ظلموا الرسول صلى الله عليه وسلم بنسبته إلى ما ليس فيه إذ قالوا: هو ساحر، وظلموا أنفسهم إذ لم يتوخّوا لها النجاة، فيَعرضوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم على النظر الصحيح حتّى يعلموا صدقه، وظلموا ربّهم إذ نسبوا ما جاءهم من هديه وحجج رسوله صلى الله عليه وسلم إلى ما ليس منه فسمُّوا الآيات والحجج سحرا، وظلموا الناس بحملهم على التكذيب وظلموهم بإخفاء الأخبار التي جاءت في التوراة والإنجيل مثبتة صدق رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم.
{ **مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** } جُعل افتراؤهم الكذب على الله لأنّهم كذّبوا رسولا يخبرهم أنّه مرسل من الله فكانت حرمة هذه النسبة تقتضي أن يُقبلوا على التأمّل والتدبّر فيما دعاهم إليه ليصلوا إلى التصديق، فلمَّا بادروها بالإعراض وانتحلوا للداعي صفات النقص كانوا قد نسبوا ذلك إلى الله دون توقير.

فأمّا أهل الكتاب فجحدوا الصفات الموصوفة في كتابهم، كما قال تعالى فيهم { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } [البقرة:140]. وذلك افتراء.

وأمّا المشركون فإنّهم افتروا على الله إذ قالوا { مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام:91].

{ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلامِ } لجملة الحال موقع متين هنا، أي: فعلوا ذلك في حين أنّ الرسول يدعوهم إلى ما فيه خيرهم، فعاضوا الشكر بالكفر.

{ الْإِسْلامِ } علم للدين الذي جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو جامع لما فيه خير الدنيا والآخرة فكان ذكر هذا الاسم في الجملة الحالية زيادة في تشنيع حال الذين أعرضوا عنه، أي: وهو يُدعى إلى ما فيه خيره وبذلك حق عليه وصف { أَظْلَمُ }.

{ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } تأييس لهم من الإقلاع عن هذا الظلم، أي: أنّ الذين بلغوا هذا المبلغ من الظلم لا طمع في صلاحهم لتمكّن الكفر منهم حتّى خالط سجاياهم، ولذلك أُقحم لفظ { الْقَوْمَ } للدلالة على أنّ الظلم بلغ حدَّ أن صار من مقومات قوميّتهم.

وهذا يعم المخبر عنهم وأمثالهم الذين افتروا على عيسى، ففيها معنى التذييل.

{ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [8].

استئناف بياني ناشئ عن الإخبار عنهم بأنّهم افتروا على الله الكذب في حال أنّهم يُدعون إلى الإسلام، لأنّه يثير سؤال سائل عمّا دعاهم إلى هذا الافتراء. فأُجيب بأنّهم يريدون أن يخفوا الإسلام عن الناس ويعوقوا انتشاره، ومُثِّلت حالتهم بحالة نفر يبتغون الظلام للتلصص أو غيره ممّا يراد فيه الاختفاء. والتقدير: يريدون عوق ظهور الإسلام كمثل قوم يريدون إطفاء النور، فهذا تشبيه الهيئة بالهيئة تشبيه المعقول بالمحسوس.

{ لِيُطْفِئُوا } هذه اللام الزائدة، وتفيد التأكيد. وأصلها لام التعليل، ذُكرت علّة فعل الإرادة عوضا عن مفعوله بتنزيل المفعول منزلة العلّة. ويكثر وقوع هذا اللام بعد مادة الإرادة ومادة الأمر. وقد سماها بعض أهل العربية: لام (أنْ) لأنّ معنى (أن) المصدرية ملازم لها. وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ } [النساء:26]. فلذلك قيل: إنّ هذه اللام بعد فعل الإرادة مزيدة للتأكيد.

{ نُورَ اللَّهِ } إضافة نور إلى اسم الجلالة إضافة تشريف، أي: نورا أوقده الله، أي: أوجده وقدره فما ظنّكم بكماله.

{ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ } إخبار بأنّهم لا يبلغون مرادهم وأنّ هذا الدين يبلغ تمام الانتشار. وفي الحديث **" والله لَيَتِمَّنَّ هذا الأمر حتّى يسيرَ الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون "**. والجملة الاسمية تفيد ثبوت هذا الإتمام.

التمام: هو حصول جميع ما للشيء من كيفية أو كمية، فتمام النور: حصول أقوى شعاعه، وإتمامه إمداد آلته بما يُقوِّي شعاعه.

{ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } حالية و { لو} وصلية، وهي تدل على أن مضمون شرطها أجدر ما يظن أن لا يحصل عند حصوله مضمون الجواب.

{ الْكَافِرُونَ } يشمل جميع الكافرين بالإسلام من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم، ولكن غلب اصطلاح القرآن على تخصيص وصف الكافرين بأهل الكتاب ومقابلتهم بالمشركين أو الظالمين.

{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ }[9].

هذا زيادة تحدٍّ للمشركين وأحلافهم من أهل الكتاب، فيه تقوية لمضمون قوله تعالى { وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [8]، وفيه معنى التعليل للجملة التي قبله.

{ هوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ } قصر إضافي لقلب زعم الكافرين أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم أتى من قبل نفسه، أي: الله لا غيره أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق.

{ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ } تعليل، إعلام بأنّ الله أراد ظهور هذا الدين وانتشاره كيلا يطمعوا أن يناله ما نال دين عيسى عليه السلام من القمع والخفت في أول أمره.

الإظهار: النصر ويطلق على التفضيل والإعلاء المعنوي.

{ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ } تعريف الجنس المفيد للاستغراق، أي: ليعلي هذا الدين الحق على جميع الأديان، وينصر أهله على أهل الأديان الأخرى الذين يتعرَّضون لأهل الإسلام.

{ الدِّينِ } مستعمل في كلا معنييه: المعنى الحقيقي وهو الشريعة. والمعنى المجازي وهو أهل الدين، كما تقول: دخلت قرية كذا وأكرمتني. فإظهار الدين على الأديان بكونه أعلى منها تشريعا وآدابا، وأصلح بجميع الناس. وإظهار أهله على أهل الأديان بنصر أهله على الذين يشاقونهم في مدة ظهوره حتّى يتم أمره ويستغني عمّن ينصره.

وقد تمّ وعد الله وظهر هذا الدين وملك أهله أمما كثيرة ثم عرضت عوارض من تفريط المسلمين في إقامة الدين على وجهه فغلبت عليهم أمم، فأمّا الدين فلم يزل عاليا مشهودا له من علماء الأمم المنصفين.

{ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } خُصَّ المشركون بالذكر هنا إتماما للذين يكرهون إتمام هذا النور، وظهور هذا الدين على جميع الأديان.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [10] تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [11] يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [12] } .

هذا تخلّص إلى الغرض الذي افتُتحت به السورة من قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ - إلى قوله - كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ } [2-4]. فبعد أن ضُربت لهم الأمثال، وانتقل الكلام من مجال إلى مجال، أعيد خطابهم هنا بمثل ما خوطبوا به بقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ } [2]، أي: هل أدلّكم على أحب العمل إلى الله لتعملوا به كما طلبتم إذ قلتم: لو نعلم أي الأعمال أحبّ إلى الله لعملنا به، فجاءت السورة في أسلوب الخطابة.

{ **هَلْ أَدُلُّكُمْ** } الاستفهام مستعمل في العرض مجازا لأن العارض قد يسأل المعروض عليه ليعلم رغبته في الأمر المعروض، كما يقال: هل لك في كذا؟ أو هل لك إلى كذا؟ والعرض هنا كناية عن التشويق إلى الأمر المعروض، وهو دلالته إيّاهم على تجارة نافعة.

{ **أَدُلُّكُمْ** } الظاهر أن الضمير المستتر عائد إلى الله تعالى لأنّ ظاهر الخطاب أنّه موجَّه من الله تعالى إلى المؤمنين. ويجوز أن يُجعل الضمير إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم على تقدير قول محذوف، وعلى اختلاف الاحتمال يختلف موقع قوله الآتي { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [13].

{ **عَلَى تِجَارَةٍ** } أطلق على العمل الصالح لفظ التجارة على سبيل الاستعارة لمشابهة العمل الصالح التجارةَ في طلب النفع من ذلك العمل ومزاولته والكدِّ فيه، وتقدّم في قوله تعالى { فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } [البقرة:16].

{ **تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** } وصف التجارة بأنّها تنجي من عذاب أليم، تجريد للاستعارة لقصد الصراحة بهذه الفائدة لأهميتها، وليس الإنجاء من العذاب من شأن التجارة فهو من مناسبات المعنى الحقيقي للعمل الصالح.

{ **تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** } مستأنفة استئنافا بيانيا لأنّ ذكر الدلالة مجمل والتشويق الذي سبقها ممّا يثير في أنفس السامعين التساؤل عن هذا الذي تدلنا عليه وعن هذه التجارة.

وإذ قد كان الخطاب لقوم مؤمنين فإنّ فعل { تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } مع { وَتُجَاهِدُونَ } مراد به: تجمعون بين الإيمان بالله ورسوله وبين الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، تنويها بشأن الجهاد.

وفي التعبير بالمضارع إفادة الأمر بالدوام على الإيمان وتجديده في كل آن، وذلك تعريض بالمنافقين وتحذير من التغافل عن ملازمة الإيمان وشؤونه. وأمّا { وَتُجَاهِدُونَ } فإنّه لإرادة تجدّد الجهاد إذا استنفروا إليه.

{ **يَغْفِرْ** } الجزم تنبيه على أن { تُؤْمِنُونَ / وَتُجَاهِدُونَ } وإن جاءا في صيغة الخبر فالمراد الأمر لأنّ الجزم

إنّما يكون في جواب الطلب لا في جواب الخبر.

{ **ذَلِكُمْ** } الإشارة إلى الإيمان والجهاد بتأويل: المذكور: خير.

{ **خَيْرٌ لَكُمْ** } هذا ليس اسم تفضيل الذي أصله أخير ووزنه: أفعل، بل هو اسم لضدّ الشرّ.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } تعريض لهم بالعتاب على تولِّيهم يوم أحُد بعد أن قالوا: لو نعلم أيّ الأعمال أحبّ إلى الله لعملناه، فنُدِبوا إلى الجهاد فكان ما كان منهم، كما تقدّم في أول السورة، فنزلوا منزلة من يُشكّ في علمهم بأنّه خير لعدم جريهم على موجب العلم.

المساكن الطيبة: هي القصور التي في الجنة، قال تعالى: { وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً } [الفرقان:10].

خُصَّت المساكن بالذكر هنا لأنّ في الجهاد مفارقة مساكنهم، فوعدوا على تلك المفارقة المؤقتة بمساكن أبدية.

{ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [13].

{ **وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ** } عطف على جملة { يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ } [12]،عطف الاسمية على الفعلية. وجيء بالاسمية لإفادة الثبوت والتحقّق.

{ **أُخْرَى** } مبتدأ خبره محذوف دلّ عليه قوله { لَكُمْ } من قوله { يَغْفِرْ لَكُمْ }. والتقدير: أخرى لكم. ولك أن تجعل الخبر قوله { نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ }. وجيء به وصفا مؤنثا بتأويل نعمة، أو فضيلة، أو خصله، ممّا يؤذن به قوله تعالى { يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } إلى آخره، كقوله تعالى { وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا } [الفتح:21].

{ **تُحِبُّونَهَا** } إشارة إلى الامتنان عليهم بإعطائهم ما يحبّون في الحياة الدنيا قبل إعطاء نعيم الآخرة. وهذا نظير قوله تعالى { فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا } [البقرة:144].

{ **نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ** } بدل من { أُخْرَى }، ويجوز أن يكون خبرا عنه. والمراد به النصر العظيم، وهو نصر فتح مكة فإنّه كان نصرا على أشد أعدائهم الذين فتنوهم وآذوهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وألبوا عليهم العرب والأحزاب، وراموا تشويه سمعتهم، وقد انضم إليه نصر الدين بإسلام أولئك الذين كانوا من قبل أئمة الكفر ومساعير الفتنة، فأصبحوا مؤمنين إخوانا، وصدق الله وعده بقوله تعالى { عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً } [الممتحنة:7]، وقوله تعالى { وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً } [آل عمران:103].

{ **مِنَ اللَّهِ** } ذكر اسم الجلالة يجوز أن يكون إظهارا في مقام الإضمار على احتمال أن يكون ضمير التكلّم في قوله تعالى { هَلْ أَدُلُّكُمْ } [10] كلاما من الله تعالى، ويجوز أن يكون جاريا على مقتضى الظاهر إن كان الخطاب أُمِر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بتقدير: قل.

{ **قَرِيبٌ** } وصف للتعجيل بالسمرّة. وهذه الآية من معجزات القرآن الراجعة إلى الإخبار بالغيب.

{ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** } يجوز أن تكون عطفا على مجموع الكلام الذي قبلها ابتداء من قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ } [10]، على احتمال أنّ ما قبلها كلام صادر من جانب الله تعالى، عطف غرض على غرض، فيكون الأمر من الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم بأن يبشّر المؤمنين.

وأمّا على احتمال أن يكون قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ } إلى آخره، مسوقا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقوله، بتقدير قول محذوف، أي: قل يا أيّها الذين آمنوا هل أدلّكم، فيكون الأمر في { وَبَشِّرِ } التفاتا من قبيل التجريد. والمعنى: وأُبشِّر المؤمنين.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ } [14].

هذا خطاب آخر للمؤمنين تكملة لما تضمّنه الخطاب بقوله تعالى { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ - إلى قوله - وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [11/10]، الذي هو المقصود من ذلك الخطاب، فجاء هذا الخطاب الثاني تذكيرا بأُسْوَة عظيمة من أحوال المخلصين من المؤمنين السابقين وهم أصحاب عيسى عليه السلام مع قلّة عددهم وضعفهم.

{ **كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ** } هذا أمر بنصر الدين غير النصر الذي بالجهاد، لأنّ ذلك تقدّم التحريض عليه في قوله تعالى { تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ } [11]، ووعدهم عليه بأن ينصرهم الله. فهذا النصر المأمور به هنا نصر دين الله الذي آمنوا به بأن يبثّوه ويثبتوا على الأخذ به دون اكتراث بما يلاقونه من أذى من المشركين وأهل الكتاب، قال تعالى { لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران:186].

وهذا هو الذي شُبِّه بنصر الحواريين دين الله الذي جاء به عيسى عليه السلام، فإنّ عيسى لم يجاهد من عاندوه، ولا كان الحواريون ممّن جاهدوا ولكنه صبر وصبروا حتّى أظهر الله دين النصرانية وانتشر في الأرض ثم دب إليه التغيير حتى جاء الإسلام.

الأنصار: جمع نصير، وهو الناصر شديد النصر.

والتشبيه بدعوة عيسى ابن مريم للحواريين وجواب الحواريين تشبيه تمثيل، أي: كونوا عند ما يدعوكم محمد صلى الله عليه وسلم إلى نصر الله كحالة قول عيسى ابن مريم للحواريين واستجابتهم له. والتشبيه لقصد التنظير والتأسي فقد صدق الحواريون وعدهم وثبتوا على الدين ولم تزعزعهم الفتن والتعذيب.

{ **مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ** } قول عيسى استفهام لاختبار انتدابهم إلى نصر دين الله معه.

{ **إِلَى اللَّهِ** } الانتهاء المجازي، أي: متوجهين إلى الله، شُبِّه دعاؤهم إلى الدين وتعليمهم الناس ما يرضاه الله لهم بسعي ساعين إلى الله. ففي حرف { إِلَى } استعارة تبعية، ولذلك كان الجواب المحكي عن الحواريين مطابقا للاستفهام إذ قالوا { نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ }، أي: نحن ننصر الله على من حاده وشاقه، أي ننصر دينه.

{ **الْحَوَارِيُّونَ** } جمع حَوَارِيّ (بفتح الحاء وتخفيف الواو) وهي كلمة معرّبة عن الحبشية (حواريا) وهو الصاحب الصفي، وليست عربية الأصل ولا مشتقة من مادة عربية.

والحواريون اسم أطلقه القرآن على أصحاب عيسى الاثني عشر، ولا شك أنّه كان معروفا عند نصارى العرب أخذوه من نصارى الحبشة. ولا يُعرف هذا الاسم في الأناجيل.

وقد سَمَّى النبيّ صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام حواريه على التشبيه بأحد الحواريين فقال: **" لكل نبي حواري وحواريَّ الزبير "**. وتقدم ذكرهم في قوله تعالى { قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ } [آل عمران:52].

واعلم أن مقالة عيسى عليه السلام المحكية في هذه الآية غير مقالته المحكية في آية آل عمران فإن تلك موجَّهة إلى جماعة بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر لما دعاهم إلى الإيمان به. أما مقالته المحكية هنا فهي موجهة للذين آمنوا به طالبا منهم نصرته لقوله تعالى: {كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ} الآية، فلذلك تعين اختلاف مقتضى الكلامين المتماثلين.

{ **فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ** } فُرِّع على قول الحوارين { نحْنُ أَنْصَارُ } الإخبار بأنّ بني إسرائيل افترقوا طائفتين طائفة آمنت بعيسى وما جاء به، وطائفة كفرت بذلك.

والمقصود من الكلام التوطئة لقوله تعالى { **فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** }

التأييد: النصر والتقوية.

والمقصود من هذا الخبر وعد المسلمين الذين أمروا أن يكونوا أنصار الله بأن الله مؤيّدهم على عدوهم.

العدو: يطلق على الواحد والجمع، قال تعالى { وَهُمْ لَكُمْ عَدُوّ } [الكهف:50]، وتقدم عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ } [الممتحنة:1].

الظاهر: الغالب، يقال: ظهر عليه، أي: غلبه، وظهر به: غلب بسببه، أي: بإعانته. قال تعالى { وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ } [التحريم: 4].